

شرح

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِي

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى
القيسي الشُّرُشِي
المتوفى سنة ٦١٩ هـ

وَضَعَ حَوَاشِيَهُ
إبراهيم شمس الدين

الجزء الثالث

منشورات
محرر علي بريفون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.C.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar al-Kotob al-Ilmiyah - Publishing House
P.o.box : 11-9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2264-9

EAN

9782745122643

No 02265



9 782745 122643

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الثالثة والثلاثون

وتعرف بالتفليسيّة

حكى الحارث بن همام، قال: عاهدت الله مذ يفتت، ألا أوخر الصلاة ما استطعت؛ فكنث مع جوب الفلوات، ولهو الخلوات، أراعي أوقات الصلاة، وأحاذر من مائم الفوات. وإذا رافقت في رحلة، أو خللت بحلة، مرحت بصوت الداعي إليها، واقتديت بمن يحافظ عليها.

فاتفق حين دخلت تفليس، أن صليت مع زمرة مفاليس فلما قضينا الصلاة، وأزمع الانفلات، برز شيخ بادي اللقوة، بالي الكسوة والقوة، فقال: عزمت على من خلق من طينة الحرية، وتفوق در العصبية، إلا ما تكلف لي لئنة، واستمع مني نقة، ثم له الخيار من بعد، ويديه البذل والرد. فعقد له القوم الحبا، ورسوا أمثال الربا.

يفعت: شبيت ولم أبلغ الحلم، وقاربت ذلك.

ابن أبي الخير: يقع الغلام وأنفع، إذا كان ابن سبع سنين، فإذا ناهز الحلم قيل: مراهق وكوكب، فإذا أدرك قيل: فيه خزور.

غيره: غلام يفعة غض الشباب، وجارية يفعة، والجمع أيفاع وأيفع، فهو يافع على غير قياس. قال ابن سيده رحمه الله: ولم يقل أحد منهم يقع الغلام، ولا موفع، ومثله أبقل الموضع، وأورس، والورس: نبت أصفر. جوب: قطع. الخلوات: حيث يخلو للذاته. أراعي أحفظ. مائم: إثم. الفوات فوت الوقت. رافقت في رحلة: صاحبت في ارتحال وسفر. خللت: نزلت ببلدة. والحلة: جماعة البيوت، والحلة: القوم الحلول والجمع حلال. مرحت: قلت مرحباً. الداعي: هو المؤذن.

[فضل الصلاة في وقتها]

وجاء من الأثر في تأخير الصلاة قوله ﷺ: «إن الرجل ليصلي الصلاة وما فاتته وقتها، ولمّا فاتته من وقتها أعظم أو أفضل من أهله وماله»^(١). فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوات أوله.

(١) أخرجه مالك في الوقوت حديث ٢٣.

وقال عليه الصلاة والسلام: «الوقت الأول من الصلاة رضوان الله، والثاني عفو الله»^(١)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: رضوان الله أحب إلي من عفوه. وإنما قال ذلك لأن عفو الله لا يتصور إلا عند اكتساب خطيئة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة من النار، ومن لم يحافظ عليها كان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»^(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الذي تفوته صلاة العصر؛ فكأنما وثَّر أهله وماله»^(٣).

وكتب عمر رضي الله عنه إلى عمّاله: إن أهمّ أموركم عندي الصَّلَاة، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيَّع.

وجاء في القرآن: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾ [مريم: ٥٩]، وفي التفسير: لم يتركوا الصَّلَاةَ وإنما أضاعوا وقتها.

وقال ﷺ: «لا تفريط في النوم، وإنما التفريط في الذي يؤخّر الصلاة إلى وقت الأخرى»^(٤).

وسُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن الَّذِينَ هم عن صلاتهم ساهون، فقال: «هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها»^(٥).

ومما يُستظرف من هذا الباب أَنَّ المنصور قيل له: إن أبا دُلَامَةَ لا يحضر الصلاة، لأنه معتكف على الخمر، وقد أَفْسَدَ قِيَانُ العسكر، فلو أمرته بالصلاة معك لأصلحته وغيره. فلما دخل عليه قال: أبو دُلَامَةَ الماجن! قال: يا أمير المؤمنين، ما أنا والمجون، وقد ساوزت باب قبري، فقال: عني من استكانتك وتضرّعت وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدي، فإن فاتتكَ لأخسِنَ أدبَكَ، ولأطيلنَ حبسَكَ. فوقع في شرّ أمر، فلزم المسجد أياماً

(١) أخرجه الترمذي في المواقيت باب ١٣، بلفظ: «الوقت الأول من الصلاة رضوان الله، والوقت الآخر عفو الله».

(٢) أخرجه الدارمي في الرقاق باب ١٣، وأحمد في المسند ١٢٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت باب ١٤، ومسلم في المساجد حديث ٢٠٠، وأبو داود في الصلاة باب ٥، والترمذي في المواقيت باب ١٤، والنسائي في المواقيت باب ٩، وابن ماجه في الصلاة باب ٦، والدارمي في الصلاة باب ٢٧، ومالك في الصلاة حديث ٢١، وأحمد في المسند ٨/٢، ١٣، ٦٤، ١٢٤، ١٤٥، ١٤٨.

(٤) أخرجه بنحوه مسلم في المساجد حديث ٣١١.

(٥) أخرجه بنحوه مسلم في المساجد حديث ٢٤١، ٢٤٣، والنسائي في الإمامة باب ٥٥، وابن ماجه في الإقامة باب ١٥٠، والدارمي في الصلاة باب ٢٥، وأحمد في المسند ٧/٦.

ثم كتب رقعةً ودفعها إلى المهدي، فأوصلها إلى أبيه وفيها: [الطويل]

ألم تعلمَا أنَّ الخليفةَ لَزَنِي	لمسجده والقصرِ ما لي وللقصرِ
أصلي به الأولى جميعاً وعصرها	فويلي من الأولى، وويلي من العصر!
أضليهما بالكُزه في غير مسجدي	فما لي في الأولى وفي العصر من أجرٍ
يكلّفني من بعدما شئتُ توبةً	يحطُّ بها عني الثَّقيلُ من الوزرِ
ووالله ما لي نيّةٌ في صلاتها	ولا البرّ والإحسان والخيرُ من أمري
لقد كانَ في قومي مساجدُ جَمّة	ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدري
وما ضرّه - والله يغفر ذنبه	لو أن ذنوبَ العالمين على ظهري!

فقال: صدقَ دَعْوُهُ يُضِلُّ مَنْ يشاء، وما يضرّني ذلك! والله لا يفلح هذا أبداً، فدعوه يفعل ما يشاء.

وكان الجَمَاز منقطعاً إلى أبي جزء الباهلي، فتناusk أبو جزء، فقال للجَمَاز: لا أَحِبُّ أن تخالطني إلا أن تتسكَّ فأظهر التُّسك، ثم كتب إليه:

قد جفاني الأمير كي أتقرئ	فتقرئ مكرهاً لجفائي
والذي أنطوى عليه المعاصي	علم الله نيتي من سمائي
ما قِراءة لمكره بقراءة	قد رواه الأمير عن فقهايه

ومن مجون أبي نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحَبَسه، فكلّمه فيه الفضل بن الربيع، وأخرجه كتب إليه: [الخفيف]

أنت يا بن الربيع علمتني الخيد	رَوَعُوذَنِيهِ والخيرُ عادةً ^(١)
فارعوى باطلي وراجعتني الحد	لَمْ فَأُحْدِثْ رَهْبَةً وَرَهَادَةً
لو تراني ذكرت بي الحسن البص	رَيِّ في حال نسكه أَوْ قَتَادَةً
المسابيح في دراعي والمُض	حَف في لَيْتِي مكانَ القِلَادَةِ
فإذا شئت أن ترى طرفة تَغ	جَب منها مَليحةً مُستَفَادَةً
فأذُغ بي لا عدمت تقويم مثلي	فَتَأْمَلُ بعينك السَّجَادَةَ
لو رآها بعض المرائين يوماً	لَا شَرَاهَا يَعْذُهَا لِلشَّهَادَةِ
أثّر لآخ للصلاة بوجهي	تُوقِن التَّفَسُّس أنه من عِبَادَةِ

وأذن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه، فأكل ولم يدعهم لطعامه، ثم دعا بطشت وكَشَف عن سوءته فبال، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى والآخرة، فلم يُصَلِّ

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ١٤٥.

فقالوا له : أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها عليك . قال . وما هي ؟ قالوا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تُدعنا إليه ، قال : إنما أذنت لكم لتأكلوا ، ثم ماذا ؟ قالوا : دَعَوْتَ بالطشت ونحن حضورٌ فَبُلْتَ ونحن نراك ؛ فقال : أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بَعْضُ البصر دُوني ، ثم ماذا ؟ قالوا : حَضَرَت الصلاة فلم تصل ، فقال : إِنَّ الذي يَقْبَلُهَا تَفَارِيقُ يَقْبَلُهَا جملة . هذا على أنه القائل : [الطويل]

ألم تر أن الدهر يقدح في الصِّفَا وأن بقائي إن حيث قليل
خَلِيلُكَ ما قَدَمْتَ من عَمَلِ التُّقَى وليس لأَيَّامِ المنون خليل
فَعَشْ خائفاً للموت أو غير خائفٍ على كل نفس للجِمام دليل
وقال الحسن رحمه الله تعالى : [الوافر]

وندمانٍ يرى غبناً عليه بأن يمسي وليس له انتشاء
إذا نبهته من نوم سِكرٍ كفاه مَرَّةً منك النداء
إذا ما أدركته الظهر صُلَى فلا ظهرٌ عليه ولا عشاء
يُصَلِّي هذه في وقت هذي فكل صلاته أبداً قضاء

[مدينة تفليس]

تفليس : مدينة بإرمينية بينها وبين قَالِي قَلَا ثلاثون فرسخاً ، ومن قالي قلا ابتداء الأنهار العظام ، أولها الفرات - وقد تقدّم - يأخذ من قالي قلا فرسخين ، ثم يشق مغرباً إلى ذَبِيل إلى وَرْثان ، ثم يصب إلى بحر الخَزَر ، والثاني الكبير يخرج من مدينة قالي قَلَا ، ثم يشق إلى مدينة تَفْلِيس مشرقاً إلى مدينة بَرْدعة وأرضها ، ثم يقرب من بحر الخَزَر ، فيلتقي مع الرَس ويصيران نهراً واحداً .

ويقال : إن خَلَف الرَس ثلاثمائة مدينة خراب ، وهي التي ذكرها الله تعالى ، وأصحاب الرَس بُعْث إليها حنظلة بن صفوان فقتلوه ، فأهلكوا . وقيل في أصحاب الرَس غير ذلك .

وإرمينية مقسومة على ثلاثة أقسام ، فالقسم الأول مدينة ذَبِيل ، ومدينة قالي قلا ، ومدينة خِلَاط ، ومدينة شِمَشَاط ، ومدينة السَّوَاد ، والجزء الثاني مدينة بَرْدعة ، ومدينة البَيْلُقان ، ومدينة قيلة ، ومدينة الباب والأبواب والثالث مدينة خَزْوان ومدينة تَفْلِيس . والمدينة التي تعرف بمسجد ذي القرنين ، وافتتحت إرمينية في خلافة عثمان ، وافتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي في سنة أربع وعشرين .

غُصْبَة : جماعة . مفاليس : فقراء ، وأفلَس الرجل : صار صاحبُ فلوس بعد أن كان صاحب دنائير . أَرَمَعْنَا الانفِلات : عَزَمْنَا على الخروج . اللقوة : داء يأخذ في الوجه ، والفُواق : ما بين الحلبتين . دَرَّ العصبية : لبن الحمية ، وهو مَثَل . نفثة : كلمة . البذل :

العطاء. والرّد: المنع. الحبا: عقد اليدين على الركبتين. رَسَوْا: ثَبَتُوا الرِّبَا: الكُدَى.

فَلَمَّا آنَسَ حُسْنَ إِنْصَاتِهِمْ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ، قَالَ: يَا أُولِي الْأَبْصَارِ الرَّائِقَةِ،
وَالْبَصَائِرِ الرَّائِقَةِ؛ أَمَا يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ الْعَيَانِ، وَيُنْبِئُ عَنِ النَّارِ الدَّخَانُ؛ شَيْبٌ لَانِحٌ؛
وَوَهْنٌ فَادِحٌ، وَدَاءٌ وَاضِحٌ، وَالْبَاطِنُ فَاضِحٌ.

ولقد كنتُ واللّه ممّن مَلَكَ وَمَالَ، وَلِيَّيَ وَآلٍ، وَرَقَدَ وَأَنَالَ، وَوَصَلَ وَصَالَ؛
فَلَمْ تَزَلِ الْجَوَائِحُ تَسْحَتُ، وَالتَّوَائِبُ تَنْحَتُ؛ حَتَّى الْوَكْرُ قَفَرُ، وَالْكَفُّ صِفْرُ،
وَالشُّعَارُ ضُرٌّ، وَالْعَيْشُ مُرٌّ؛ وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ مِنَ الطَّوَى، وَيَتَمَتُّونَ مُصَاصَةَ النَّوَى
وَلَمْ أَقْمِ هَذَا الْمَقَامَ الشَّائِنَ، وَأُكْشِفُ لَكُمْ الدَّفَائِنَ؛ إِلَّا بَعْدَ مَا شَقِيتَ وَلُقِيتَ،
وَشِبْتُ مِمَّا لَقِيتَ؛ فَلَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ بَقِيْتُ. ثُمَّ تَأَوَّهَ تَأَوَّهَ الْأَسِيفِ، وَأَنَشَدَ بِصَوْتٍ
ضَعِيفٍ....

آنس: أبصر. إنصاتهم: سكوتهم، رزانة حصاتهم: رجاحة عقولهم، والحصاة
يكنى بها عن العقل، قال طرفة: [الطويل]

وإنّ لسان المرء ما لم يكن له حَصَاةٌ عَلَى عَوَزَاتِهِ لِدَلِيلٍ^(١)

الأبصار الرّائقة: العيون النّاظرة. البصائر: جمع بصيرة وهي المعتقد. الرّائقة:
المعجبة. العيان: المعانية، يقول: معايتك الشيء تُغني عن خبرته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعانية»^(٢).

ينبئ: يخبر. لَانِح: ظاهر. وَهْن: ضَعْف. فَادِح: مثقل بَيْن. فَاضِح: أي صاحبه في
شهرة وفضيحة. ملك: كان ملكاً أو ملك الأموال العظام فصار ذا مَلِك: مال: صار ذا مال.
وليّ: صار والياً. آل: ساس، أي صار يسوس الناس، أي يكون عليهم أميراً، قال عمر رضي
الله عنه: أَلْنَا وَإِلَ عَلَيْنَا. رَفَد: وَهَبَ الرَفْد. أَنَالَ: أَعْطَى التَّيْلَ والنَّوَالَ، يقال: مِنْهُ نَلْتُهُ وَأَنْلَتُهُ
وَصَل: أَعْطَى صِلَةً، وَالرَّفْدُ والنَّوَال: العطاء. والإيالة: السياسة، آل الأمير رعيته أحسن

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ٨١، ولسان العرب (حظرب)، وأساس البلاغة (حصي)، وكتاب
العين ١٧٧/٧، وتاج العروس (حصي)، وهو لكعب بن سعد الغنوي في لسان العرب (حصي)،
ولكعب بن سعد الغنوي أو لطرفة في تاج العروس (حصو)، وبلا نسبة في المخصص ١٩/٣،
ومقاييس اللغة ٧٠/٢، وتخليص الشواهد ص ٣٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢١٥، ٢٧١.

سياستهم، وآل ماله يؤوله : أصلحه . صال : بطش وهدد، وصال الفحل : هدر في قطيعه .
الجوائح : المصائب . تسحت : تستأصل الأموال تنحت : تنجر وتأخذ . النواثب : النوازل .
الوكر : قعر المنزل : صفر : خالية من الدراهم . الشعار : اللباس : يتضاغون : يصيحون ،
والضغاء صياح الذئب إذا جاع ، والضغاء : البكاء بذل وخشوع . الطوى : الجوع . مصاصة :
ما يمص منه . الشائن : العائب صاحبه . شقيت : أدركني الشقاء ، لقيت : أصابني لقوة . تأوه :
توجع ، وقال أوه . الأسيف : الحزين [السريع]

* * *

أشكو إلى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ	تَقَلَّبَ الدَّهْرُ وَعُدْوَانُهُ
وَحَادِثَاتٍ قَرَعَتْ مَرْوَتِي	وَقَوَّضَتْ مَجْدِي وَبُنْيَانَهُ
وَاهْتَصَرَتْ عُودِي وَيَا وَيْلَ مَنْ	تَهْتَصِرُ الْأَحْدَاثُ أَغْصَانَهُ
وَأُمَحَّلْتُ رَبْعِي حَتَّى جَلْتُ	مِنْ رَبْعِي الْمُمَجَّلِ جِرْدَانَهُ
وَعَادَرْتُنِي حَائِرًا بَائِرًا	أَكَابِدُ الْفَقْرَ وَأَشْجَانَهُ
مَنْ بَعْدَ مَا كُنْتُ أَخَا ثُرُوةٍ	يَسْحَبُ فِي النُّعْمَةِ أُرْدَانَهُ
يَخْتَبِطُ الْعَافُونَ أَوْرَاقَهُ	وَيَحْمَدُ السَّارُونَ نِيرَانَهُ
فَأُضْبِحَ الْيَوْمَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ	أَعَانَهُ الدَّهْرُ الَّذِي عَانَهُ
وَأَزَرَ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا!	وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِزَّانَهُ
فَهَلْ فَتَى يَحْزَنُهُ مَا يَرَى	مَنْ ضُرَّ شَيْخَ دَهْرُهُ خَانَهُ
فَيَفْرِجُ الْهَمَّ الَّذِي هَمَّهُ	وَيُضْلِحُ الشَّأْنَ الَّذِي شَانَهُ

* * *

عدوانه : ظلمه . قرعت مروتني : ضربت صخرتي ، وأراد بها نفسه . قوّضت : نقضت
وهدمت . اهتصرت : كسرت وحتت ، وهضر الغصن : تعطفه وانحناؤه ، وضرب بالمرؤة
والعود أمثالا وهو يريد جسده وماله . أمحلت : جعلته مخلا . جلّت : طردت . الممحل :
الذي لا نبات فيه ولا رزق . جرذانه : فترانه ، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى . بائرا : هالكا .
أكابد : أقاسي . أشجانه : أحزانه . أخا ثروة : صاحب غنى . يسحب . يجز . أردانه :
أذياله . يختببط : يطلب . العافون : الطالبون للرزق ، وخبطت الورق : ضربتها بالعصا ،
فتسقط فتعلقها الإبل ، فيضرب بها المثل لعطية الكريم ، وأنشد زهير : [البيسط]

وليس مانع ذي قُرْبَى وذِي رَجِمٍ يوما ولا معدما من خَابِطٍ وَرَقَا^(١)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٥٣ ، ولسان العرب (خط)، وتهذيب اللغة ٢/٢٥١ ، ٧/٢٥٠ ، وجمهرة اللغة ص ٢٩١ ، وأساس البلاغة (خط)، وتاج العروس (خط)، وبلا نسبة في لسان العرب (عدم)، وتاج العروس (عدم).

السارون: الماشون بالليل. عانه: أصابه بالعين. ازور: انقبض. عاف: كره. عافى العُرف: طالب المعروف. عرفانه: معرفته. همّه: أذابه وشأنه: عابه.

ومن كلام العرب في هذا الباب، ما حَكَى الأصمعيّ رحمه الله: أَنَّ الأعراب أصابتهم سنوات كثيرةٌ جذبةٌ، فدخلت طائفة منهم البَصْرَة وبين أيديهم أعرابي يقول: أيّها الناس، إخوانكم في الدين، وشركاؤكم في الإسلام، عابرٌ وسبيل وفلاّ وبؤس، وصِرعى جذب، تتابعت علينا سنون ثلاث غيّرت النعم، وأكلت الثعم، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها، فلم نزل نعللُ بذلك نفوسنا، ونمّتي بالغيث قلوبنا، حتى عاد مختاراً، وعاد إشرافنا ظلاماً، فأقبلنا إليكم يصرعنا الوعر، وينكينا السهل، وهذه آثار مصائبنا لائحة في قسَمَاتنا. فرحم الله متصدّقاً من كثير، أو مواسياً من قليل، فلقد عظمت الحاجة، وكسِفَ البال، وبلغ المجهود، والله يجزي المتصدّقين.

وقف أعرابي على حلقة يونس النحويّ، فقال: الحمد لله، وأعوذ به أن أذكّر به وأنساه، إنا أناس قد قدمنا هذه المدينة: ثلاثون رجلاً، لا ندفن ميتاً، ولا نتحول عن منزل، وإن كرهناه، فرحم الله عبداً تصدّق على ابن سبيل، ونضو طريق، وفلّ سنة، فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن الله. ولا عمل بعد الموت، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيضاعفه له﴾ [البقرة: ٢٤٥] و [الحديد: ١١]، إن الله لا يستقرض من عوّز، ولكن ليلو أخبار عبادِه.

قال الأصمعيّ رحمه الله: وقف أعرابي علينا، فقال: تتابعت علينا سنون، بتغيير وانتقاص، فما تركت لنا ضيعة^(١) ولا زينة^(٢)، ولا نافطة ولا عافطة^(٣)، ولا ثاغية^(٤) ولا زاغية^(٥)، فأماتت الضرع وأفنت الزرع، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا من عطية الله إياكم، وارحموا أبا أيتام، وأنصاء زمان، فلقد خلّفت أقواماً لا يمرضون مريضهم ولا يكفنون ميتهم، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه، ولقد مشيت إليكم حتى انتعلتُ الدماء، وجُعت حتى أكلت النوى المحرقة.

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالت: إني أتيت من أرض شاسعة، تهبطني هابطة، وترفعني رافعة، في ملحات من البلايا، برّين لحمي، وهضن عظمي، وتركتني والهة، وقد ضاق بي البلد، بعد الأهل والولد، وكثرة العدد، لا قرابة تؤويني، ولا عشيرة تحميني فسألتُ أحياء العرب: من المرتجى سببه، المأمون عيّه، الكثير نائله، المكفي سائله، فدلّلت عليك، وأنا امرأة من هوازن، فقدت الوالد والزّافد، فاصنع في أمري واحدة من ثلاث: إمّا أن تحسّن صفدي^(٦)، وإمّا أن تقيم

(١) الضيع، جمع ضيعة: هي العقار.

(٢) الربيع: مسيل الوادي من كل مكان مرتفع.

(٣) النافطة والعافطة: هي النجعة.

(٤) الثغاء: هو صوت الغنم.

(٥) الرغاء: هو صوت البعير أو الناقة.

(٦) الصفد: هو العطاء.

أَوْدِي^(١)، وإما أن تردني إلى بلدي، فقال: بل أجمعهن لك ففعل بها ذلك.

خرج المهديّ يطوف بالبيت بعد هذأة من الليل، فسمع أعرابيةً من جانب المسجد، وهي تقول: قوم متظلمون، نبث عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضتْهم السُّنُون، بادت رجالهم، وذهبت أموالهم، أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وصية الله ووصية رسوله ﷺ، فهل من أمرٍ بخير كالأه الله في سفره، وخلفه في أهله! فأمر لها بخمسمائة درهم.

ومما جاء في ذم السؤال: قال رسول الله ﷺ: «لأنَّ يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيه أهونُ من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله؛ أعطاه أو منعه»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ فتح على نفسه باباً من السؤال، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر»^(٣).

وقال أكثم بن صيفي: كلُّ سؤال وإن قلَّ أكثر من كلِّ نوال وإن جلَّ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المساكين لا يعودون مريضاً، ولا يشهدون جنازة، ولا يحضرون جمعة، وإذا اجتمع الناس في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم.

سأل سائل بمسجد الكوفة فلم يغط شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم لا تعلم، أنت الذي لا يعوزك نائل، ولا يلحفك سائل، ولا يبلغ مدحك قائل؛ أسألك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، وبصراً بالهدى، وقوة فيما تحب وترضى فتبادروا إليه بالعطية، فقال: لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً، ثم خرج وهو يقول: [الكامل]

ما نال باذل وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغنى بسؤال

وإذا التوال مع السؤال وزنته رجع السؤال، وخف كل نوال

وإذا بليت ببذل وجهك سائلاً فابذله للمتكرم المفضل

وقال بعض الأدباء: المخدول من كان له إلى اللثام حاجة.

وأنشد الجاحظ في نوادره لأعرابي: [الكامل]

سير التواعج باللمية في الضحى يمشي الذليل بها على بلبال

(١) الأود: الاعوجاج.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٠، ٥٣، والبيوع باب ١٥، والمساقاة باب ١٣، والترمذي في الزكاة باب ٣٨، والنسائي في الزكاة باب ٨٥، وأحمد في المسند ١/١٢٤، ٢/٢٤٣، ٢٥٧، ٣٠٠، ٣٩٥، ٤١٨، ٤٧٥، ٤٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ١/١٩٣، ٤١٨، ٢٣١/٤. بلفظ: «لا يفتح الإنسان على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».

خيرٌ من الطمع الدنيء ويجلس
فابثٌ حوائجك للمليك فإنه
بفناء لا طلق ولا مفضّال
يغنيك قبل تخشع بسؤال

* * *

قال الراوي: فصبت الجماعة إلى إن تستثبته، لتستنجنش خبأته، وتستنفض حقيبه، فقالت له: قد عرفنا قدر رببتك، ورأينا درّ مزيتك؛ فعرفنا دوحه شعبتك، واخسر اللثام عن نسبتيك. فأعرض إعراض من مني بالإعنات، أو بشر بالبنات، وجعل يلعن الضرورات، ويتأفف من تغيض المروءات. ثم أنشد بلفظ صادع، وجرس خادع: [المقارب]

لعمرك ما كل فرع يدل
فكل ما خلا حين تؤتى به
وميز إذا ما اعتصرت الكروم
لثغلي وثرخص عن خبرة
فعار على القطن اللوذعي
دخول الغميلة في عقله
جناه اللذيذ على أضله
ولا تسأل الشهد عن نخله
سلافة عضر كمن خلّه
وتشتري كلاً شراً مثله
دخول الغميلة في عقله

* * *

قوله: تستثبته: تحقق من هو. تستنجنش، تستخرج، والنجنش: استخراج الشيء المجهول المستور. وقيل: تنفير الوحش، وهو من الأول، لأن تنفير المظمئن كإظهار الكامن. خبأته: سره الذي أخبرهم بظاهرة حيث قال: كيت وكيت.

الحقيبة: وعاء يعلقه الرجل خلف رجليه، يجعل فيه ما يعز عليه مما يحتاج أن يتناوله متى شاء، وأراد بها هنا موضع سره تستنفض: تنثر ما فيها ربتك: قدرك ومنزلتك. درّ مزيتك: ماء سحابك، وأراد ما أبدى لهم من البلاغة. دوحه: شجرة. شعبتك: فرعك وغصنك. اخسر: ازل واكشف. اللثام: ما يجعل على الأنف والفم، يريد عرفنا أصلك، ومن أين أنت. مني: بلي. الإعنات: المشقة، وعنته وأعنته: كلفته ما يشق عليه وبشر بالبنات: أخبر بولادتهن، وقد أخبر الله تعالى أن من بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوازي من القوم من سوء ما بشر به. وقد تقدّم وأد البنات وهو دسهن في التراب.

وقال النبي ﷺ من طريق عقبة بن عامر: «لا تكرهوا البنات فإنهنّ المؤمنات الغاليات»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام «أحبوا البنات، فإنني أبو البنات»، وإن الرجل إذا

ولدت له ابنةً هبط إليها مَلَكَان فمسحا على ظهرها، وقالوا: ضعيفة خرجت من ضعيف، مَنْ أَعَانَ عَلَيْكَ لَمْ يَزَلْ يَصَابُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قوله: يتأفف، يقول: أف أف، وهو من فعل المهموم الملهوف. تغيض المروءات: ذهاب الأفعال الحسان. صادع: شديد يشق الأذن. جرس: صوت. جناه: ما يجتنى منه. الشهد: العسل، أي كل العسل، ولا تسَلَّ عن النحل التي صنعتها، ولا مِنْ أين هو، ضربه مثلاً لترك سؤالهم عنه، إذ أفادهم. سُلَاقَة: خمر لم تُعَصَّر. عصرك: تعصيرك. خبرة: معرفة وتجربة. اللُّؤْذَعِي: الذكي. الغميمة: ضعف التدبير والنظر، لأن الذي لا يحسن التدبير، والنظر إذا سقط غمزه الناس وعابوه.

* * *

قال: فازدَهِى الْقَوْمُ بِذَكَائِهِ، وَاخْتَلَبَهُمْ بِحُسْنِ أَذَائِهِ مَعَ دَائِهِ، حَتَّى جَمَعُوا لَهُ خَبَايَا الْخُبْنِ، وَخَفَايَا الثُّبْنِ، وَقَالُوا لَهُ: يَا هَذَا، إِنَّكَ حُمْتَ عَلَى رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ، وَتَعَرَّضْتَ لِخَلِيَّةٍ خَلِيَّةٍ. فخذ هذه الصُّبَابَةَ، وَهَبْهَا لَا خَطَأَ وَلَا إِصَابَةَ.

فَنَزَلَ قُلُهُمْ مَنَزِلَةَ الْكُثْرِ، وَوَصَلَ قَبُولَهُ بِالشُّكْرِ ثُمَّ تَوَلَّى يَجْرُ شِقُّهُ، وَيَنْهَبُ بِالْخُبِطِ طُرْقَهُ.

قال المخبرُ بهذه الحكاية: فَصَوَّرَ لِي أَنَّهُ مُحِيلٌ لِحَلِيَّتِهِ مَتَصَنِّعٌ فِي مِشْيَتِهِ. فَنَهَضْتُ أَنَهَجُ مِنْهَاجِهِ، وَأَقْفُو أَذْرَاجِهِ؛ وَهُوَ يَلْحَظُنِي شَزْرَاءَ، وَيُوسِعُنِي هَجْرَاءَ؛ حَتَّى إِذَا خَلَا الطَّرِيقَ، وَأَمَكَّنَ التَّحْقِيقَ، نَظَرَ إِلَيَّ نَظَرَ مَنْ هَشَّ وَبَشَّ، وَمَا حَضَّ بَعْدَ مَا غَشَّ، وَقَالَ: إِنِّي لِإِخَالُكَ أَخَا غُرْبَةٍ، وَرَائِدَ صُحْبَةٍ؛ فَهَلْ لَكَ فِي رَفِيقٍ يَزُفُّكَ بِكَ وَيُرْفِقُ، وَيَنْفُقُ عَلَيْكَ وَيُنْفِقُ؟ فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ أَتَانِي هَذَا الرَّفِيقُ لَوْ أَتَانِي التَّوْفِيقُ. فَقَالَ لِي: قَدْ وَجَدْتَ فَاغْتَبِطْ، وَاسْتَكْرَمْتَ فَارْتَبِطْ.

* * *

ازدهى: دعاهم إلى الزهو والإعجاب به. ذكائه: حدة ذهنه. اختلبهم: خدعهم. الخبن: أطراف الثوب، كالكم وغيره، والثبن: أطراف الرداء وشبهه، والخبنة في الثوب المخيط، وقد خبنته عطفته وكففته بالخياطة، وقيل: الخبن القبض، والخبنة لما يلي من حُجْزَةِ السراويل والإزار، والجمع خَبْنٌ، والثبنة ما يلي الظهر من السراويل والإزار. حُمْتُ: خلقت. ركية: بئر. بكية: قليلة الماء. خلية: جبح النحل حيث كان من حجر أو شجر، وقيل الخلية الخشبة المنقورة لها خاصة، والخلية في غير هذا السفينة، فشبهت خلية النحل بها خلية: فارغة، الصُّبَابَةُ: الشيء القليل إذا أخذ منه بكثرة. الخبط: أراد به

أخذ الأموال بالسؤال، يقال: خبطت الشجرة خطباً، نفضت ورقها، أراد أنه كان يجزّ جانبه المعلن، فكل مَنْ مرّ به وسأله رحمه. مجيل: مغير. جليته: خلقته وصفاته. نهضت: تقدّمت للمشى. أنهج منهاجه: أمشي في طريقه. أقفو أدراجه: أتبع آثاره. يلحطني: ينظرني.

شزراً، أي في جهة بمؤخر عينه. قال ابن الأنباري: نظر إليّ شزراً، أي نظر إليّ من جانب عينه من شدة العداوة والبغضاء، يقال: شزر يشزّر، إذا نظر من جانب عينه من العداوة أو من الفرق. ويوسعني هجرأ، أي يكثر تجنّبي ومباعدتي. هشّ: خفّ واهتزّ. بشّ: حسن اللقاء، ويقال: بش فلان بفلان، إذا سرّ به وفرح وانبسط إليه؛ ويقال: تبشّش به بمعنى بشّ به، والبشاشة والهشاشة الطلاقة والتبسّم. ما حضّ: أخلص وذه، غشّ، ضد أخلص، ويقال: غشه، أي عمل فيما يحبه شيئاً قليلاً وخلطه بما يسوءه، أخذ من الغشش، وهو الشراب الكدر. إخالك أحسبك رائد: طالب. يرفق بك: يلاطفك ويكون بك رقيقاً. يرفق: يولييك مرافقة، أي يعينك بماله حتى يجد معها الرفق. لو أتاني: لوافقني. اغتبط، أي كن به مغتبطاً أي محبباً في بقائه، والغبطة: حسن الحال استكرمت فاربت، أي اتّخذت كريماً، وجاء هذا اللفظ في حكاية ذكرها أبو عليّ، وهي أنّ فتى من العرب جاء إلى أمّه، وقد عميت فقال لها: يا أمّه، إني اشتريت فرساً، فقالت: صفه لي، قال: إذا استقبل فظبي ناصب، وإذا استدبر فهقل^(١) هاضب^(٢)، وإذا استعرض فسيد^(٣) قارب^(٤)، موالي المسمعين، طامح الناظرين، مدعلق الطيبين، قالت: أجذت إن كنت أعربت، قال: إنه مشرف التليل، سبط الخصيل، وهواه الصهيل، قالت: أكرمت فاربت.

ثمّ ضحك مليل، وتمثّل لي بشراً سوياً؛ فإذا هو شيخنا السروجي، لا قلبه بجسمه، ولا شبهة في اسمه؛ ففرحت بلقيته، وكذّب لقوته، وهممت بملامته، على سوء مقامته، فشخاه، وأنشد قبل أن ألحاه: [المقارب]

ظَهَرْتُ بَرْتُ كَيْمًا يَقَالُ فَقِيرٌ يَرْجِي الزَّمَانَ الْمُرْجَى
وَأَظْهَرْتُ لِلنَّاسِ أَنْ قَدْ فُلِحْتُ فَكُمْ نَالَ قَلْبِي بِهِ مَا تَرَجَى
وَلَوْ لَا الرِّثَاءَةُ لَمْ يُرْثَ لِي وَلَوْ لَا التَّفَالُجُ لَمْ أَلَقْ فُلَجَا

ثمّ قال: إنّه لم يبقَ لي بهذه الأرض مَرّع، ولا في أهلها مطمع؛ فإن كنت

(١) الهقل: هو الفتى من النعام.

(٢) الهضب: نوع من السير.

(٣) السيد: هو الذئب.

(٤) القارب: نوع من السير.

الرفيق، فالطريق الطريقَ. فسيرنا منها مُتَجَرِّدِينَ، ورافقتُهُ عَامِينَ أَجْرَدِينَ. وكنتُ على أن أصبحَ ما عِشْتُ، فأبَى الدَّهْرُ المُشْتِ.

قوله: ملياً، أي طويلاً. قُلْبَة: عِلَّة. قال الكسائي رحمه الله: ما به قُلْبَة، أي شيء يقلقه فينقلب من أجله على فراشه لغمه. وقال الفراء رحمه الله: ما به من وجع يُخاف عليه منه، من قولهم: قَلَبَ الرجل إذا أصابه وجع في قلبه، فلا يكاد ينقلب منه قال الأصمعي رحمه الله: معناه ما به داء، مأخوذ من القَلَاب، وهو داء يصيب الإبل في رؤوسها فيقلبها إلى فوق. شبهة: التباس وتغيير. وسَمُه: صفاته. اللَقِيَة: المرّة الواحدة من اللقاء. وقال في الدرة: العرب تقول: لقيه ولقاءة ولقاية، إذا أردوا المرّة الواحدة، فإن أرادوا المصدر، قالوا: لقيته لقاء ولَقَى ولَقِيًا، هذا وأنشد: [الطويل]

وإنّ لقاهما في المنام وغيره وإنّ لم تجد بالبذلّ عندي لرابح^(١)
وخطأ من يقول: لقيته لقاء واحدة، وأغفل أنّ سيويوه قال في كتابه: أتيتُه إتيانَةً، ولقيته لقاء واحدة.

واللقوة: استرخاء اللّحي وعوّجه. مقامته: مجلسه الذي كدى به شَحَافاه: فتحه قال جرير:

وُضِعَ الخزير فليل أين مجاشع فشحا جحافِلَه جُراف هَبْلَعُ^(٢)
الخبزير، بنقط الخاء ثم زاي: دقيق يلبك بشحم، وجراف الشيء سخونة. ألحاه: ألزمه. يزجي: يسوق. المزجي: القليل الخير، وهذا كما قال: لبست الخميصة أبغي الخميصة. فُلجت: صبت بفالج. الرثاثة: سوء الحال. التفالج: استعمال الفالج، وهو خَذَرٌ يصيب الجسد. فلجاً: فوزاً وظفراً. مَزّج: موضع يَزْعَى فيه. مُنَجَرِّدِينَ: مُسْرَعِينَ، وانجرد الرجل في سيره، إذا جدّ في الذهاب. أجردين: تامّين كاملين، وسرّ يوماً وشرّاً وحولاً أجرد، وجريداً أي تاماً، قال سويد بن كراع: [الطويل]

وَجَشَمَنِي خوف ابن عفان رَدّها فشَقَفْتُها حولاً جريداً ومَزْبَعاً
المشت: المفروق.

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (لقا)، وتاج العروس (لقي).

(٢) البيت في ديوان جرير ص ٩١٣، ولسان العرب (خزر)، (هبلع)، (جرف)، وتاج العروس (خزر)، (جشع)، (هبلع)، (جرف)، (جحفل)، وهو بلا نسبة في ديوان الأدب ٥١/٢، وكتاب العين ٢/٢٨٢.

المقامة الرابعة والثلاثون

وتعرف بالزبيدية

أخبر الحارث بن همام، قال: لما جبتُ البيدَ إلى زبيد، صحبني غلامٌ قد كنت ربيته إلى أن بلغ أشده، وثقفته حتى أكمل رُشدَه.

وكان قد أنسَ بأخلاقي، وخبرَ مجالبَ وفاقِي؛ فلم يكن يتخطى مرامي، ولا يُخطيء في المرامي؛ لا جرم أن قُربَه التَّاطُثُ بصفري، وأخلصته لحضري وسفري، فألوى به الدهرُ المبيدُ، حين ضُمَّتْنا زبيد.

جُبت: قطعت. البيد: الصحارى.

زبيد: بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً، وليس في اليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، ولا أكثر خيراً، واسعة البساتين، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهي برية لا ساحلية.

وبلغ أشده: أي بلغ الحلم، وقيل ثلاثين سنة. قال الأزهري رحمه الله تعالى: الأشد في كتاب الله تعالى على ثلاث معان: أما قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] فبلوغه مبلغ الرجال، وكذا في اليتيم، حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشده، وبلوغه أشده أن يؤنس الرشد منه مع أن يكون بالغاً.

وأما قوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤] فقرن بلوغ الأشد بالاستواء وهو أن تجتمع قوته، ويكتهل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة، وذلك منتهى الشباب. وأما قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] فهي نهاية بلوغ الأشد، وعندها بُعث محمد ﷺ، وقد اجتمعت حكمته وتمام عقله، فبلوغ الأشد محصور البداية محصور النهاية ما بين ذلك.

ثقفته: قومه وحذقته. خبر: أي جرب وعرف. مجالب وفاقِي: أي عرف من أين يُجلب ما يوافقني. يتخطى: يتجاوز. مرامي: مرادي ومقصدي لا جرم، أي لا محالة

ولا بدّ، ثم صارت بمعنى حقًّا. قُرْبَة: ما يُتَقَرَّبُ به إلى من المَبْرَة. التاطت: لصقت. بصفري: بنفسي وقلبي، والصَّفَرُ دود في البطن، إذا جاع الإنسان عَضَّتْ شراسيفه، وهي رقيق البطن، قال أعشى باهلة: [البسيط]

* ولا يَعَضُّ على شُرُوفِهِ الصَّفَرُ^(١) *

فيريد أن هذا الغلام مهذَّب يأتي بمحاولاته على الوفاق، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة، ومن حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «نعمًا للمملوك أن يتوفاه الله، بحسن عبادة ربه، وطاعة سيِّده نعمًا له»^(٢).

وفال عليه الصلاة والسلام: «إذا نصح العبد لسيِّده وأحسن عبادة ربِّه فله أجران»^(٣).

أخلصته: أفردته. ألوى: ذهب به وأهلكه. المبيد: المهلك. ونشد هنا أبياتاً لابن الحضرمي في غلام هلك للمتوكِّل ببطليوس: [الرجز]

وَكُنْ فِي مَقْلَتِيهِ	غَالَتْهُ أَيْدِي الْمَنَايَا
بَطْرَفِهِ وَيَدَيْهِ	وَكُنْ يَسْقِي النَّدَامَى
جَاءَ الْكَسُوفُ عَلَيْهِ	غُصْنٌ دَوَى وَهَلَالٌ

ويُستحسن لابن همام أن ينشد في وصف هذا الغلام: [الخفيف]

بِرْدَاءٍ مِنَ الشَّبَابِ جَدِيدٍ	حِينَ تَمَّتْ آدَابُهُ وَتَرَدَّى
زَّاهِتَازَ الْغُصْنِ النَّدَى الْأَمْلُودِ	وَسَقَاهُ مَاءَ الشَّبِيْبَةِ فَاهْتَدَى
نَ عَلَيْهِ لَزَائِدٍ مِنْ مَزِيدٍ	وَسَمَتْ نَحْوَهُ الْعَيُونُ وَمَا كَا
حِينَ أَدْعُوهُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ	وَكَأَنِّي أَدْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ

وأُشدُّ بعضهم: [الطويل]

فَلِلْعَيْنِ سَخٌّ دَائِمٌ وَغُرُوبٌ	نَأَى آخِرَ الْأَيَّامِ عَنْكَ حَبِيبٌ
سَقَاهُ النَّدَى فَاهْتَدَى وَهُوَ رَطِيبٌ	كَأَن لَمْ يَكُنْ كَالْغُصْنِ فِي مَيْعَةِ الضُّحَى

(١) صدره:

لا يَنَازِي لِمَا فِي الْقَدْرِ يَرْقُبُهُ

والبيت لأعشى باهلة في لسان العرب (صفر)، (أرى)، وتاج العروس (صفر)، (أرى)، وتهذيب اللغة ١٢/١٦٧، ١٥/٣١٣، وديوان الأدب ١/٢١٢، وكتاب العين ٧/١١٣، وللحارث الباهلي في كتاب العين ٨/٣٠٣، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٤٠، ١٠٩٤، ومقاييس اللغة ١/٨٨.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٤٦، وأحمد في المسند ٢/٣١٨، ٣٩٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٢٥، ٤/٤٠٥.

وريحان صدري كان حين أشمهُ
ومؤنس قُصري كان حين أغيبُ
وكانت يدي ملأته ثم أصبحت
بحمد إلهي وهي منه سليبُ

فلما شالت نعامته، وسكنت نأمته، بقيت عاماً، لا أسيغ طعاماً، ولا أريغ غلاماً، حتى ألجأتني شوائب الوحدة، ومتاعب القومة والقعدة؛ إلى أن أعتاض عن الدرّ الخرز، وارتاد من هو سيداد من عوز؛ فقصدت من يبيع العبيد، بسوق زبيد، فقلت: أريد غلاماً يعجب إذا قلب، ويحمد إذا جرب؛ وليكن ممن خرجه الأكياس، وأخرجه إلى السوق الإفلاس؛ فاهتز كل منهم لمطلبي ووثب، وبذل تحصيله عن كتب. ثم دارت الأهلة دورها، وتقلب حورها وكورها، وما نجز من وعودهم وغد، ولا سح لها رعد.

فلما رأيت النحاسين، ناسين أو متناسين، علمت أن ليس كل من خلق يفري، وأن لن يحك جلدي مثل ظفري. فرفضت مذهب التفويض، وبرزت إلى السوق بالصفر والبيض.

شالت نعامته، أي ارتفع نعشه. ويقال في المصلوب: شالت نعامته، أي ارتفعت خشبته، وشالت نعمة القوم، أي ولوا منهزمين، وهو مثل يضرب للانهازم وللهلاك وللتفرق. وأنشد الشاعر: [الكامل]

تلقي خصاصةً بيننا أرمأحنا شالت نعمةً أينالم يفعل
يخاطب أعداءه وقد وافقهم، يقول: هلم نلقى في الفرجة التي بيننا أرمأحنا، ونضرب بالسيوف، هلك وانهمز من لم يفعل، يدعو عليه وينسب ذلك للنعمة، لأن النعام موصوف بالسُخف والرق والشراد. فإذا قالوا: شالت نعامتهم، وخفت نعامتهم، ورق رأيهم، فمعناه إذا تركوا مواضعهم بجلاء أو بموت. ويقال: أحمق من نعمة، لأنها تنشر للطعام، فربما رأت بيضة نعمة أخرى وحدها فتحضنها، وتنسى بيضتها، ثم تجيء الأخرى فتري على بيضتها غيرها، فتضمي لوجهها، وإياها عني ابن هرمة بقوله: [المقارب]

كتاركة بيضها بالعرء وملبسة بيض أخرى جناحاً^(١)

(١) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه ص ٨٧، والحامسة الشجرية ٩٠٢/٢، والحامسة البصرية ٢/٢٧٧، وشرح ديوان الحامسة للمرزوقي ص ٧٣٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٦٧٥، وكتاب الصناعتين ص ١٢٣، ١٤٥، وعيون الأخبار ١٠٢/٢، ولسان العرب (شحح)، (جهز)، (هنيق).

قاله الجاحظ:

وأما أبو عبيدة فقال: عتَى الحمامة. وقال ابنُ الأعرابي، بيضة البلد التي سار بها المثل هي بيضة النعامة التي تركها فلا تهتدى إليها فتفسد فلا يقربها شيء. قال الراعي: [البسيط]

لو كنت من أحد يُهَجِّي هجوتكم يا بنَ الرِّقاع ولكن لست من أحد^(١)
تأبى قضاة أن ترضى لكم نسباً وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

قوله: نامته، أي حركته التي تنمو بحياته. وزعموا أنّ الثّامة بوزن العامة، عزق اليافوخ. أسخّ طعماً: استسهل بلّعه. أريغ غلاماً: أطلبه. السّداد: اسم ما يسدّ به الشيء، مثل سداد القارورة وهو صمامها، وسداد الفقر ما يذهب ويكتفي به من المال، وسداد الثغر ما يذهب خوفه من الخيل والرجال، والسّداد بالفتح: الإصابة في المنطق، وقال يعقوب: السّداد والسّداد بمعنى واحد، وسنعيد ذكره في أخبار العرجي.

والعوز: فقد الشيء فإنه أراد عبداً يسدّ به فقد غلامه الميت. إذا قلب أي إذا قلبت خلقته وجدت كلّ جزء منها حسناً. خرّجه: حدّقه وربّاه الأكياس: أهل الفطنة والحدق. والإفلاس: الفقر. وثب: قفز وعجل إلى المشي. بذل: أعطى، تحصيله: وجوده وحصوله. كَتَبَ: قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصوله في أقرب مدة. دارت الأهلة دورها، أي كملت السّنة وكملت الأهلة فيها بالطلوع. كورها وخورها: زيادتها ونقصانها، وقد تقدّم الكور والحور. نجز: حضر. سَخَّ: أمطر.

النّخاسين: الدلائين للعبيد والدواب. ثعلب: أخذ من النّخس وهو الدفع، فمعنى النّخاسين الذين يشترون العبيد ليدفعوهم إلى غيرهم. ليس كلّ مَنْ خَلَقَ يفري، مثل، وخلق قدر، يقال: خلق الصانع الجلد، إذا قدر ما يقطع منه، وقيل: الخلق: القطع، والفري: القطع أيضاً، ولكن تقديراً، فمعنى المثل: ليس كلّ من قطع شيئاً قدر ما يقطع به، ويفري أيضاً: يُحسن القطع على جهة الإصلاح. قال زهير: [معجزه الكامل]

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ضُ القوم يخلق ثم لا يفري^(٢)

(١) البيت الأول في ديوان الراعي النميري ص ٧٩، ولسان العرب (بيض)، (رقع)، وتاج العروس (بيض)، (رقع)، والبيت الثاني في ديوان الراعي ص ٢٠٣، ولسان العرب (بيض)، وتهذيب اللغة ٣/١٢٤، ١٢/٨٥، والحيوان ٤/٣٣٦، وتاج العروس (بلد)، (بيض) وهو بلا نسبة في لسان العرب (دعا)، وتاج العروس (دعا).

(٢) البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٩٤، ولسان العرب (خلق)، (فرا)، وتهذيب اللغة ٧/٢٦، ١٥/٢٤٢، ومقاييس اللغة ٢/١٤، ٤/٤٩٧، وديوان الأدب ٢/١٢٣، وكتاب الجيم ٣/٤٩، والمخصص ٤/١١١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦١٩، وتاج العروس (فرا).

ويقال أيضاً: خلق الشيء صنّعه، وفَرَّاه: أفسده، وأراد ليس كلّ الناس يحسن شراء العبيد.

قوله: لا يحك جِلْدِي مثل ظفري هو مثل يضربُ في ترك الاتكال على الناس، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: [مجزوء الكامل]

ما حَكَ جِلْدَكَ مِثْلَ ظُفْرِكَ فتولّ أنتَ جَمِيعَ أَمْرِكَ^(١)
وإذا قَصَدْتَ لِحَاجَةً فاقصد لمعترف بقَدْرِكَ
رفضت: تركت. التفويض: أن يتكل الرجل على غيره ويسلم أمره إليه. الصُفْر والبيض: الدنانير والدراهم.

* * *

فإنّي لأستعْرِضُ الغِلْمَانَ، وأستعْرِفُ الأثْمَانَ، إذ عارضني رجلٌ قد اختَطَمَ بلثام، وقَبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلام، وقال: [الرجز]

مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي غُلَاماً صَنَعاً فِي خَلْقِهِ وَخَلْقِهِ قَدْ بَرَعَا
بِكُلِّ مَا نُطِيتَ بِهِ مُضْطَلَعَا يَشْفِيكَ إِنْ قَالَ وَإِنْ قَلَّتْ وَعَى
وَأَنْ تُصِيبَكَ عَثْرَةٌ يُقْلِلَ لَعَا وَإِنْ تَسْمُهُ السَّغْيَ فِي النَّارِ سَعَى
وَأِنْ تُصَاحِبُهُ وَلَوْ يَوْمًا رَعَى وَإِنْ تُقْنِنُهُ بِظُلْفٍ قَنِعَا
وَهُوَ عَلَى الْكَيْسِ الَّذِي قَدْ جَمَعَا مَا فَاهَ قَطُّ كَاذِباً وَلَا اذْعَى
وَلَا أَجَابَ مَطْمَعاً حِينَ دَعَا وَلَا اسْتَجَازَ نَثَّ سِرّاً أَوْ دَعَا
وَطَالَمَا أَبْدَعَ فِيمَا صَنَعَا وَفَاقَ فِي النُّشْرِ وَفِي التَّنْظِيمِ مَعَا
وَاللَّهِ لَوْ ضُنْتُكَ عَيْشٍ صَدَعَا وَصِيبَةُ أَضْحَوْا عُرَاةَ جُوعَا

* ما بعثه بمُلكٍ كِسْرَى أَجْمَعَا *

قال: فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خَلْقَهُ الْقَوِيمَ، وَحُسْنَهُ الصَّمِيمَ، خِلْتُهُ مِنْ وَلَدَانِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَقُلْتُ: ما هذا بشراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيم.

* * *

استعرض: أطلب أن يُعرض عليّ، وعارضني: قابلني. أستعريف: أطلب معرفته. اختَطَمَ: جعل اللثام على طرف الأنف - وهو الخَطَم والخُرطوم للسباع - واللثام: ما كان

(١) البيتان في ديوان الإمام الشافعي ص ١١١، والبيت الأول في تاج العروس (حكك).

على الأنف من النقاب. والزُّند: طرف عظم الساعد المتصل بالكف، فهو قد قبض على أرق موضع في الذراع. الصَّنَع. الحاذق بالصناعة، والمرأة صَنَاع. برع: فَضَّل وفاق غيره. نُطِيت: عَلِيت. مضطلعاً: مكتفياً قوياً عليه. وعى: حفظ. لعاً، كلمة تقال للعائر - يعني: أقال الله عثرتك، وسَلَمَكَ الله - تُسَمُّهُ السُّغى: تكلفه المشي. رَعى: حَفِظ الصلبة. الظُّلف للشاة بمنزلة الحافر للدابة. الكَيْس الحاذق. فاه: تكلَّم.

ثم قال: لم يدعه الطمع قط فأجابه. استجاز: استحل. نَث: نشر، أبدع: أغرب وأتى بما لم يُسبق إليه. ضَنَك: صَدَع: كسر، وأنشدوا في هذا المعنى: [الطويل]

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالِكٍ علائقَ من ربِّ بهنِّ ضَنِينِ

خلقه القويم: المعتدل القامة. الصميم: الخالص، وهو فعيل، من صَمَّ الشيء إذا لم يكن فيه فُرْجة ولا خلل. خِلْتَه: حسبته.

[الغلمان وعشاقهم]

وننشد في هذه المقامة في الغلمان ما له سبب وتعلّق بذكر يوسف عليه السلام، أو يكون الغلام مملوكاً حتى يوافق غرض المقامة.

كان شفيع غلام المتوكل أحسنَ الفتیان وأظرفهم، وكان المتوكل يُجَنِّ به جنوناً، فأحب يوماً أن ينادم حسين بن الضحاك، وأن يرى ما بقي من شهوته - وكان قد أسن - فأحضره وسقاه حتى سَكِرَ، وقال لشفيع: اسقه، فسقاه وحيّاه بوردة، وكانت على شفيع ثياب موزدة. فمدَّ حسين يده إلى ذراع شفيع، فقال المتوكل: أتخمش أخصَّ خدمي بحضرتي، فكيف لو خلوت به! ما أحوجك إلى الأدب! وكان قد غمز شفيعاً على العبث به، فدعا بدواة فكتب: [الطويل]

وكالوردة الحمراء حيّاً بوردة من الورد يمشي في قراطق كالوَرْدِ

له عبثات عند كل تحية بكفيه تستدعي الحليم إلى الوجدِ

تمثّيت أن أسقى بعينه شربةً تُذكّرني ما قد نسيْتُ من العهدِ

سقى الله دهرأ لم أبت فيه ليلةً خليّاً ولكن من حبيبٍ على وِغْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاه المتوكل، فاستملحها وقال: أحسنت والله يا حسين! ولو كان شفيع ممّن تجوز هبته لوهبته لك؛ ولكن بحياتي يا شفيع إلا كنت ساقية بقيّة يومنا. وأمر له بمال كثير.

وكان لمعز الدولة غلام تركي، وكان وضيء الوجه، منهمكاً في الشراب، ولفرط ميل مولاه إليه جعله رئيس سرية جرّدها لحرب بني حمدان، وكان المهلب يستظرفه ويستحسنه، فقال: [مجزوء الكامل]

ظبي يُروق الماء في وجنّاته يبروق عوده

ويكاذ من شبّه العذا رى فيه أن تبدؤ ونهوذه
 ناطوا بمغقد خضره سيفاً ومنطقة تئوده
 جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده
 فكانت الدائرة على جيش الغلام، كما أشار إليه، ولو غزاهم بالسلاح الذي أمر به
 البيغاء غلاماً غازياً وهو: [البسيط]

يا غازياً أتت الأحزانُ غازيةً إلى فؤادي والأحشاء حين عَزَا
 إن بارزتك رماةُ الرّوم فارمهم بسهم عينيك تقتل كل من برزا
 لكان الظافر الغالب

وكان بديع غلام عمير المأموري أحسن خلق الله وجهاً، وكان الوزير ابن الزيات
 مفتوناً به، فاجتاز عليه راكباً بألة الحرب، فقال فيه: [السريع]

راحَ عليّنا راكباً طرْفُه أغيدُ مثل الرّشأ الآنس
 قد لبسَ القرطقَ واستمسكتُ كفاه من ذي بَسَدٍ مائس
 وقُلْدَ السيفِ على غُنْجِه كأنه في وقعة الدّاحس
 أقول لَمّا أن بدا مقبلاً: ياليتني فارسُ ذا الفارسِ!
 وقال ابنُ الزقاق: [الكامل]

ومَهْدٍ عَضْبٍ بِراحَةٍ أُغْيِدَ في جفنه عَضْبٌ يَقْدُ مفاصِلِي
 يسطو بذاك وذا فيغدو قِرْنُه بهما صريعَ لواحِظٍ ومناصِلِ
 ماضٍ كلا السّيفين لكن لحظه أمضى وإلا فاسألن مَقَاتِلِي

وكان لأبي عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسر، وكان آيةً في الجمال، وكان صالح
 أخوه يتعشقه، فبلغت لأبي عيسى قصةٌ جرت بينهما، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا
 بحافظ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عشقاً، فقال فيه: [مجزوء الرمل]

ظَنُّ مَنْ لا كان ظَنُّا بحبيبي فحماءُ
 أرصد البابَ رقيبِي ن له فاكتنّفاهُ
 فإذا ما اشتاق قربي ولقائي منّعاُ
 جعل الله رقيبِي من السّوءِ فداهُ
 وقال فيه: [الخفيف]

إن من لا يرى وليس لا يراني نُضِبَ عيني ممثّلُ بالأمانِي
 يأبى من ضميره وضميري أبداً بالمغيبِ يَنْتَجِيانِ

نحن شخصان إن نظرت وروحاً
فلذا ما هممت بالأمر أو هـ
كان وفقاً ما كان منه ومني
خطرات النفس من سوا
ن إذا ما اختبرت ممتزجان
م بشيء بدأته وبدأني
فكأني حكيته وحكاني
وسواء تحرك الأبدان
وجاء يوماً فتحدث معه، فأشار لتقبيله، فقال له بشير: إياك والتعرض لي وانج
بنفسك، وكانت فيه عزيمة، فقال فيه حسين: [الخفيف]

أيها النفاث في العقد
إنما زخرقت لي خدعاً
ما لأنس كان مبتدلاً
يوم تعطيني وتأخذها
أنا مطوي على الكمد
قدحت في الروح والجسد
منك لي بالأمس لم يعد
دون نذمانني يدأ بيد
فيها معذوراً على الحسد
ذاك يوم كان حاسداً

ثم استنطقته عن اسمه، لا لرغبة في علمه؛ بل لأنظر أين فصاحته من
صباحته، وكيف لهجته من بهجته؛ فلم ينطق بخلوة ولا مرة، ولا فاه قوهة ابن أمة
ولا حرة. فضربت عنه صفحاً، وقلت له: قبحاً لعينك وشفحاً، فغار في الضحك
وأنجد، ثم أغض رأسه إليّ وأشد:

يا من تلهب غيظه إذ لم أبخ
إن كان لا يرضيك إلا كشفه
باسمي له، ما هكذا من ينصف
فأصخ له، أنا يوسف أنا يوسف
ولقد كشفت لك الغطاء فإن تكن
فطناً عرفت وما إخالك تعرف

قال: فسرى عثبي بشغره، واستبى لبي بسخره؛ حتى شذفت عن التحقيق،
وأنسيت قصة يوسف الصديق؛ ولم تكن لي هم إلا مساومة مولاة فيه، واستطلاع طلع
التمن لأوقيه. وكنت أحسب أنه سينظر شزراً إليّ، ويغلي السيمة عليّ؛ فما خلق إليّ
حيث خلقت، ولا اعتلق بما به اعتلقت؛ بل قال: إن الغلام إذا نزر ثمنه، وحقت
مؤنه، تبرك به مولاة، والتحف عليه هواه، وإني لأوثر تحبيب هذا الغلام إليك، بأن
أخفف ثمنه عليك، فزنت مائتي درهم إن شئت، واشكر لي ما حييت. فتقدته المبلغ في
الحال، كما يُنقد في الرخيص الحلال، ولم يخطر لي ببالي، أن كل مُرخص غال.

قوله: استنطقته، أي سألته أن ينطق. صَبَّاحته: حُسْنه. لهجته: لفظه، وأصلها طرف اللسان، فكُنِيَ بها عن حلاوته. بهجته: حسنه ونضارته، وأصلها حسن اللون. لم ينطق بحلوة ولا مرّة، أي بكلمة جيدة ولا رديئة. فَاه: نطق ضربتُ عنه: أعرضت عنه. صفحاً، أي أوليته صفحة وجهي، وهي جانبه، شُفْحاً، اتباع لقبح، وقيل: هي من شَقَح البُسْر، إذا تغيّرت خضرته بجمرة أو صفرة، وهو أقبح ما يكون في رأي العين، وقيل: هو من شَقَحْتُ العود إذا كسرتَه، وقال: هو من أشقّاح الكلاب، وهي أدبارها، ويقال: قُبِحَا وشُقِحَا بضم أولهما وفتحهما. غَارَ: أتى الغور، وهو المنخفض من الأرض أنجد: أتى نجداً، ومعناه بالغ في الضحك وذهب في جهاته. أنغض رأسه، أي حرّكه؛ كأنه يهدّد ويستخفّ به. تلتهب: اشتغل أبُح: أتكلّم. أصيخ: استمع. أنا يوسف، أي أنا حرّ مثل يوسف صلوات الله عليه، إذ باعَه إخوته سرى عَثْبِي: أزال لومي استبى لبي: أي تملّك عقلي بسخره وحلاوة كلامه شُدِيت: تحيّرت، وهو مقلوب دهشت التحقيق: التمييز، وهذا كما قال الشاعر: [الطويل]

والله ما فتنت نفسي محاسنُه إلا وقد سحرث ألفاظُه أذني

ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مللاً كأنه كلّ شيء مرتضى حسن

استطلاع طلعة: استخبار خبره، والسؤال عن قدره، لأَوْفِيَه: لأعطيه كاملاً وافياً. شزرأ: نظر فيه إعراض. السيمة: السّوم، وهو السؤال عن الثمن. ما خلّق إليّ حيث خلّقت، أي ما دار إليّ حيث دُزّت، أي ما كان عنده شيء مما ظننتُ به من طلبه سوماً غالباً. نَزُر: قل. مؤنه: لوازمه وما يحتاج إليه. تبرّك: رآه مباركاً، والبركة: الكثرة والسعة. التحف: انضمّ هواه: حبّه. أوتر: أفضّل.

فلَمَّا تحقّقَتِ الصّفقة، وحقّعتِ الفرقة، هَمَلْتُ عَيْنًا الغلام، ولا هُمُولَ دَمْعِ

الغمام، ثم أقبل على صاحبه وقال: [الوافر]

لحاك اللّه هل مثلي يباع لكيما تشبّع الكرش الجياع

وهل في شرعة الإنصاف أني أكلف خُطّة لا تُستطاع

وأن أبلى برّوع بعد رّوع ومثلي حين يُبلى لا يُراع

أما جرّبتني فحبرت مني نصائح لم يمازجها خداع

وكم أزدتني شركاً لصيد فعدت وفي حبايلي السباع

ونُطت بي المصاعب فاستقادت مطاوعة وكان بها امتناع

تحقّقَتِ الصّفقة: تمّ البيع. هَمَلْتُ: سألْتُ. الغمام: السحاب. لحاه الله: لعنه وأبعده، ولحيت الرجل: لمته، وأصله من لحوت العود ألحوه ولحيته ألحاه، إذا قشرته، وأنشد ابن الأعرابي في نوادره: [الكامل]

لَحَوْتُ شُمَاساً كَمَا تُلْحَى الْعَصَا سَبَّأُ لَوْ أَنَّ السَّبَّ يُذِمِّي لَدَمِي^(١)

ويقال: لآخاه ملاحاة ولحاً، أصلها المبالغة، ثم كثرت حتى جُعِلَتْ كُلُّ مَمَانَعَةٍ ومَدَافِعَةٍ مَلَاخَةٍ. الكَرِشُ: العيال، وكَرِشَ الرجل عيَالَهُ وصَغَارَ ولده، ويقال في المعيل: عليه كَرِشٌ مَنْشُورَةٌ، وإذا أَكْثَرَتِ الْمَرْأَةُ أَوْلَادَهَا قِيلَ: نَثَرْنَ كَرِشَهَا، وقد قَدَّمَ أَن صَبِيَّتَهُ جَوَّعَ. الشَّرْعَةُ: الطريق. والخَطَّةُ، مثل القصة: الأمر يقع بين القوم أُبْلَى: أُمْتَحَنَ. الرَّوْعُ: الفزع، لأنه يصيب الرَّوْعَ وهو القلب. يَمَازِجُهَا: يخالطها. أَرَصَدْتَنِي: جعلتني رَصِداً، والرصد: مَنْ يَرْقُبُكَ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ فإذا جِئْتَهُ هَجَمَ عَلَيْكَ. وَالشَّرْكَ: آلة الصيد. حَبَائِلِي: شبّاكِي نَطْتُ: عَلَّقْتُ. المصاعب: الأمور الشاقّة. استقادت: انقادت [الوافر]

وَأَيُّ كَرِيهَةٍ لَمْ أُبْلِ فِيهَا	وَعُنْمٌ لَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ بَاغٌ
وَمَا أَبْدَتْ لِي الْأَيَّامُ جُزْماً	فِيُكْشَفُ فِي مَصَارِمِي الْقِنَاعُ
وَلَمْ تَعْثُرْ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مِنِّي	عَلَى عَيْبٍ يُكْتَمُ أَوْ يُذَاعُ
فَأَنْنَى سَاعَ عِنْدِكَ نَبْذَ عَهْدِي	كَمَا نَبَذْتُ بُرَايَتَهَا الصَّنَاعُ
وَلَمْ سَمَحْتُ قَرُونُكَ بِامْتِهَانِي	وَأَنْ أَشْرَى كَمَا يُشْرَى الْمَتَاعُ
وَهَلَّا صُنْتُ عِزْضِي عَنْهُ صَوْنِي	حَدِيثُكَ يَوْمَ جَدَّ بَنَا الْوَدَاعُ
وَقُلْتُ كَمَنْ يُسَاوِمُ فِي هَذَا	سَكَابٍ فَمَا يُعَارُ وَلَا يَبَاعُ
فَمَا أَنَا دُونَ ذَلِكَ الطَّرْفَ لَكِنْ	طَبَاعُكَ فَوْقَهَا تَلْكَ الطَّبَاعُ
عَلَى أَنِّي سَأَنْشِذُ حِينَ بَنَيْعِي	أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَنَى أَضَاعُوا

أَبْل: أْبَالِغٌ وَأَجْهَدُ نَفْسِي فِيهِ. عُنْمٌ: غَنِيْمَةٌ جُزْمٌ: ذَنْبٌ مَصَارِمِي: مَقَاطِعِي، وكشفت في الأمر القناع، إذا جهدت فيه وبالغت. تعثر: تَطْلُعُ: يَكْتُمُ: يَسْتَرُ. يذاع: يَفْشِي و «بِحَمْدِ اللَّهِ» فِي الْبَيْتِ، وَقَعْتُ اعْتِرَاضاً بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْمَعْمُولِ، كَمَا وَقَعْتُ فِي التَّاسِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ اعْتِرَاضاً بَيْنَ الْمَبْتَدَأِ وَخَبْرِهِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَنْتَ - بِحَمْدِ اللَّهِ - وَلِيَّ عَهْدِي» وَتَعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: ابْتَدَى بِحَمْدِ اللَّهِ، أَوْ أَفْتَتَحُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَصَنِي مِنْ عَيْبٍ يَغْتَرُّ لِي عَلَيْهِ، أَوِ الَّذِي جَعَلَكَ وَلِيَّ عَهْدِي، وَمِنْهُ: سَبَّحَانَ اللَّهَ وَبِحَمْدِهِ، مَعْنَاهُ أَنْزَهُ اللَّهَ وَابْتَدَى بِحَمْدِهِ، أَوْ أَفْتَتَحُ بِحَمْدِهِ، وَدَخَلْتُ الْوَاوَ هُنَا لِغَيْرِ مَعْنَى الْعُطْفِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: سَبَّحَانَ اللَّهَ وَحَمْدَهُ، لَكَانَ الْمَعْنَى: أَسْبَحْهُ تَسْبِيحاً وَأَحْمَدْهُ حَمْداً، هَكَذَا يَقْتَضِي مَا جَاءَ مِنَ الْمَصَادِرِ مَنْصُوباً فِي هَذَا الْبَابِ، وَفِي قَوْلِنَا: وَبِحَمْدِهِ لَا يَكُونُ الْمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَنْصُوبِ، وَلَكِنْ الْبَاءُ أَذْنَتْ بِمَعْنَى ابْتَدَأْتُ، أَوْ أَبْدَأُ بِحَمْدِ اللَّهِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى إِلَهَامِهِ إِيَّايَ تَسْبِيحَهُ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (لحا)، وتهذيب اللغة ٥/٢٣٩.

قوله ساغ: أي سهل. نبذ: ترك. البراية: ما يتساقط من العود إذا نُجِر، ومن القلم إذا بُري، وكذا يأتي في مثل البرادة والثحاة ونحوها الصَّنَاع: الحاذقة بالصَّنعة، والرجل صَنَعَ بغير ألف. قرونك: نفسه. سمحت: جادت أشرى: أباع. عنه، أي عن البيع. صوني حديثك، أي صيانتني للحديث الذي أحدثت من بيعي وأنا حرّ يوم جَدَبْنَا الوداع، أي في هذه الساعة التي تريد أن تودّعني فيها. سَكَّاب: اسم فرس لرجل من العرب من بني تميم، سأله بعض الملوك أن يبيعهَا منه، فأبى عليه وقال: [الوافر]

أَبَيْتَ اللَّعْنَ إِنْ سَكَّابٍ عُلِقَ كَرِيمٌ لَا يُعَارُ وَلَا يَبَاعُ^(١)
مَفْدَاةً مَكْرَمَةً عَلَيْنَا يُجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا نَجَاؤُ

الطُّرْف: الفرس الكريم، يقول: لست أنا دون الفرس، لكن طباع مالكة أفضل من طباعك، حيث كان يجيع عياله ويشبعه، ولم يهنه بالبيع كما أهنتني به.

[العرجي]

وعَجَزَ البيت الأخير صدر بيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم، وهو العَرَجِيُّ، سُمِّيَ بذلك لأنه وُلِدَ بِالْعَرَجِ من مكة، وقيل: بل كان له بها مال، وكان يُكْثِر الاختلافَ إليه، فَنُسِبَ إليه. يكنى أبا عمرو، وهو شاعر مطبوع بالغزل مجيد ويشبه في غَزَلِهِ ومَقْصِدِهِ بعمر بن أبي ربيعة، وكان يهوى جِنْدَاءَ أم إبراهيم بن هشام المخزومي، ولها يقول: [البسيط]

أَبْصَرْتُ وَجْهَهَا لَهَا فِي جِيدِهِ تَلَعُ تَحْتَ الْعُقُودِ فِي الْقُرْطَيْنِ تَشْهِيْرُ^(٢)
وَجْهٌ تَحْيِرٌ فِيهِ الْمَاءُ فِي بَشَرٍ صَافٍ لَهُ حِينَ أَبْدَتْهُ لَنَا نَوْرُ
ولها يقول: [الوافر]

إِلَى جِنْدَاءٍ قَدْ بَعَثُوا رَسُولًا لِيُخْبِرَهَا فَلَا صَحْبَ الرَّسُولِ^(٣)
كَأَنَّ الْعَامَ لَيْسَ بِعَامِ حِجٍّ تَغَيَّرَتِ الْمَوَاسِمُ وَالشُّكُورُ
ولها يقول: [السريع]

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودَجِ إِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلِي تَخْرُجِي^(٤)

(١) يروى عجز البيت الأول:

نَفِيسٌ لَا تُعَارُ وَلَا تَبَاعُ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (سكب)، وتاج العروس (سكب).

(٢) البيتان في ديوان العرجي ص ١٠٥، وفي «تشمير» بدل «تشهير».

(٣) البيتان في ديوان العرجي ص ١٩٠، وفيه «ليحزنها» بدل «ليخبرها».

(٤) ديوان العرجي ص ١٧.

فالحجَّ إن حَجَّثَ وماذا مئى وأهله إن هي لم تحجج!
فما استطاعت غير أن أومأث نحوي بعيني شادين أدعج
وقال أيضاً: [الكامل]

باتاً بأنعم ليلة حتى بدا صبح يلوح كالأغر الأشقر^(١)
فتلازماً عند الفراق صباة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر
فلما شاع نسيبه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز، بسبب طلبه عليه،
فضربه بالسياط وألقى الزيت على رأسه، وأوقفه للناس في الشمس، حتى عُشي عليه،
وسجنه بضع سنين حتى مات في سجنه، فقال في السجن: [الوافر]

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر^(٢)
وخلّوني ومعتزك المنايا وقد شرعت أسئتهم لنحري
كأنني لم أكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو
أجرّر في المجامع كل يوم فيالله مظلّمتي وقسري!
عسى الملك المجيب لمن دعاه ينجيني ويعلم كيف شكري
فأجزّي بالكرامة أهل ودي وأجزّي بالعداوة أهل وتري

فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قبض على محمد بن هشام
وأخيه إبراهيم ودعا لهم بالسياط، فقال له محمد: أسألك بالقراءة! قال: وأي قرابة بيني
وبينك؟ قال: فاسألك بصهر عبد الملك! فقال: لم تحفظه، فقال: يا أمير المؤمنين إن
رسول الله ﷺ نهى أن يضرب قرشي إلا في حد، فقال: ففي حد أضربك وقود، قال:
وما ذاك؟ قال: أنت أول من سنّ ذلك على العرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين
عثمان بن عفان، فما رعيت [حق] جدّه ولا نسبه بهشام من قبل أمّه، اضربهما يا غلام،
فضربهما ضرباً مبرحاً، وأثقالا بالحديد ووجه بهما إلى يوسف بن عمر، وأمره بتعذيبهما،
فضربهما حتى ماتا.

وغنى إسحاق الموصلي الرشيد قوله: [الوافر]

* أضاعوني وأي فتى أضاعوا *

فسأل عن سبب هذا الشعر، فأخبره بحديث العرجي، قال إسحاق: فرأيتّه يتغيظ، فلما
أخبرته بما فعل بابني هشام، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن، ثم قال: يا إسحاق، لولا ما
حدّثني به من فعل الوليد، لما تركت أحداً من أمثال بني مخزوم إلا قتلته بالعرجي.

ومن جيد شعر العرجي: [الطويل]

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرُ
فإن يك من ذنبٍ ففي ذاك حكمهم
كمثل شهاب النار في كف قابسٍ
ومن جيده: [الكامل]

أخبرتُ أنكِ قلتِ نقتله
والله لا آتي لكم سَخَطاً
والله لا أنسى تطوَّقها
كالبدْر صُورتها إذا انتقبت
ومنه: [البيط]

خُورٌ بعثنَ رسولاً في ملاطفة
فجئتُ أمشي على هولٍ أجشَّمه
أمشي كما حرَّكتُ ريحَ يمانيةٍ
حتى جلستُ إزاءَ البَيْتِ مكتتِماً
فبتُ أسقى بأكواسٍ أعلُّ بها
وفي معنى قوله: أمشي كما حرَّكتُ . البيت يقول ابن دعلج: [السريع]

قالتُ لقد أعيتنا حُجَّةٌ
واسقُط علينا كسقوط النَّدَى
وقال الواثق: [السريع]

قالتُ إذا الليل دَجَا فأتينا
خَفُفي وطء الرِّجل من حارسٍ
فجئْتُها حين دجا الليلُ
ولو دنا حلَّ به الوَيْلُ

ومن ظُرف العرجي، أنه وعد هوى له أن تزوره في منتزه، فجاءته على أتان ومعها جارية لها، وجاء العرجي على عَيْرٍ ومعها غلام، فواقعها العرجي، ثم خرج فرأى الغلام يواقع الجارية والعير على الأتان، فلما نظر الحال قال: هذا يوم غاب عذَّاله .

(١) ديوان العرجي ص ٣٦، وفيه «تعزماً» بدل «تجرماً» .

(٢) ديوان العرجي ص ١٤٨ .

(٣) ديوان العرجي ص ٢ .

[التضمين]

ويسمى أخذ الحريري شطر بيت العزجي التضمين، وليس بسرقة. والتضمين يكون في بيت وفي شطر بيت، والشعراء تتولّع به كثيراً، وهو من صنعة البديع، فمن الثاني قول الأخطل: [الكامل]

ولقد سما للخرمي فلم تقل
ومثله قول الآخر: [الطويل]

وجزّت على باب الأمير كأنني
ومن تضمين بيت بكماله قول الحسن بن هاني: [البسيط]

إني عجنّت وفي الأيام معتبر
والدهريأتي بألوان الأعاجيب
من صاحب كان دنيائي وآخرتي
عدا عليّ جهازاً عذوة الذيب
قد كان لي مثل لو كنت أعقله
من رأى غالب أمر غير مغلوب
لا تمدحنّ امرأ حتى تجربته
ولا تذمّنّه من غير تجريب
فضمن هذا البيت.

قال ابن حجاج: [الكامل]

قد قلت لما أن رجعت مولىاً
ومعي مذابير من الكتّاب
نحن الذين لهم يقال وكلنا
قل العصا وطريدة الحجاب
قوم إذا قصدوا الملوك لمطلب
نفت شواربهم على الأبواب
وقال ابن رشيق: سألتني بعض أصحابي أن أضمن له قول الشاعر:

فإن فخرت بآباء لهم شرف
قلنا صدقت، ولكن بئس ما ولدوا
ولا أزيد على بيت واحد، فقلت: [البسيط]

أصبحت من جملة الأشراف إن ذكرُوا
كواحد الآس لا يزكّو له عدّد
والتضمين كثير.

[قصة النضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت العزجي: [الوافر]

* أضاعوني وأي فتى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل، قال: كنت أدخل على المأمون في سمره فدخلت ذات

ليلة وعليّ أطمار أخلاق، فقال: يا نضر، ما هذا التقشف! تدخل على أمير المؤمنين في هذه الخلقان؟ فقلت: أنا شينخ ضعيف، وحرّ مزو شديد، فأتبرّد بهذه الخلقان، قال: لا، ولكنك قشيف، فيحمل منك هذا على التقشف. ثم أجرينا الحديث، فقال: حدّثنا هشيم، عن مجاهد، عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها ولجمالها وكمالها، كان فيها سداً من عوز» فأورده بفتح السين، قلت: يا أمير المؤمنين، حدّثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن الحسن عن عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها ولجمالها وكمالها كان فيها سداً من عوز»، وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً، وقال: كيف قلت يا نضر «سداً»؟ قلت: سداً لأنّ «السدا» هنا لحن، قال: أو تلحنني! قلت: إنما لحن هشيم - وكان لحانة - فتبع أمير المؤمنين لفظه، فقال: فما الفرق بين السدا والسدا؟ قلت: السدا القصد في الدين والسبيل والسدا بالكسر البلغة في الشيء، وكلّ ما سدّدت به شيئاً فهو سدا، قال: أو نعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم هذا العزجي من ولد عثمان، يقول: [الوافر]

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسدا تُغِر
ثم أطرق مليّاً، وقال: قبح الله من لا أدب له! ثم تجارينا الحديث، فقال: كيف روايتك للشعر؟ قلت: قد رويت الكثير منه، قال: فأنشدني أحسن ما قالته العرب في الجلم فأنشدته: [الطويل]

إذا كان دُوني مَنْ بُليْتُ بجهله أبيتُ لنفسي أن أقابل بالجهلِ
وإن كان مثلي في محلٍّ من العلا هويت إذا حلماً وصفحاً عن المثلِ
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيْتُ له حقَّ التّقْدَم والفضلِ
فقال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالته العرب في الحزم فأنشدته: [الطويل]

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عُدّة لِمَا أنت باغية وعوناً على الدَّهرِ
فإن نلتَ أمراً نِلْتَهُ عن عزيمة وإن قصّرت عنه الحقوق فمن عُذْرِ
قال: فما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالته العرب في إصلاح العدو حتى يكون صديقاً، فأنشدته: [الطويل]

وذي غيسلة ساءلته فقهرته فأوقرته مَنّي بعبء التحمّلِ
ومَن لا يدافع سيئات عدوّه بإحسانه لم يأخذ الطُّول من علٍ
ولم أر في الأشياء أسرع مهلكاً لضغنٍ قديمٍ مِن ودادٍ معجّلِ

فقال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالته العرب في السّكوت فأنشدته:
[الكامل]

إني ليهجرُني الصديق تجتَباً فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته فيكون تركي للعتاب عتابا
وإذا بليتٌ بجاهل متحكّم بجد المحال من الأمور صوابا
أوليته منّي السكوت وربّما كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال: ما أحسن ما قال! ثم قال: ما ما لك يا نضر؟ قلت: أريضةٌ بمرو. الرّوذ اتصابها وأتمزّزها، قال: أفلا نفيدك مالا معها؟ قلت: إن رأى ذلك أمير المؤمنين، فإني لذلك لمحتاج.

فأخذ القرطاس وكتب وأنا لا أدري ما يكتب، ثم قال: كيف تأمر إذا أردت أن تُثرب الكتاب، قلت: يا غلام أترّب الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مترّب، قال: فمن السّحاة، قلت: يا غلام اسحُ الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مسحى، قال: فمن الطين، قلت: يا غلام طِنِ الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطّين ومُطّان، فقال: هذه أحسن من الأولى، ثم قال: يا غلام أترّيه واسحه وطّنه. ثم صلّى بنا العشاء، ثم قال لغلامه: امض معه إلى الفضل بن سهل بهذا الكتاب، فلمّا قرأه قال: بَمِ استأهلت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألف درهم؟ وما سبب ذلك؟ فأخبرته الحديث على جهته، فقال: لحنّت أمير المؤمنين، فقلت: كلّاً إنّما لحن هشيم - وكان لَحانة - فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، وقد تتبّع ألفاظه الفقهاء ورواة الأخبار. فعجّل لي ما في الكتاب، وأمر لي من عنده بأربعين ألف درهم، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف استفاده مني.

وهذا الخبر جاء في أخبار النحويين. وذكره الحريري في درة الغواص بأخصر مما ذكرناه، ثم قال بإثر الخبر: وقد أذكرني هذا المثل أبياتاً أنشدنيها أحد أشياخي رحمهم الله لأبي الهيثم: [الرمل]

لي صديق هو عندي عَوَزٌ من سداد لا سداد مِن عَوَزٍ
وجهه يذكّرني دار البلى كلّما أقبل نحوي وضمّر
وإذا جالسني جرّعني غصص الموت بكربٍ وعَلَزٍ
يصف الودّ إذا شاهدني وإذا غاب وشى بي وهَمَزٍ
كحمار السّوء يبدي مرحاً فإذا سيق إلى الحمل غَمَزٍ
ليتني أعطيتُ منه بدلاً بنصيبِي شرّ أولاد المَعَزِ
قد رضينا بيضةً فاسدةً عَوْضاً منه إذ البيع نَجَزِ

[أبو حنيفة والإسكاف]

وكان لأبي حنيفة رحمه الله جَارٌ إسكاف بالكوفة، يعمل نهاره أجمع، فإذا أجمته الليل رجع إلى منزله بالخمير ولحم أو سمك، فيطبخ اللحم أو يشوي السمك، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرته يُنشد: [الوافر]

أضاعوني وأتي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد تُغْرِ
فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت، حتى يغلبه النوم.

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلّي الليل كله، ويسمع جلبته وإنشاده، ففقد صوته ليالي، فسأل عنه فقيل له: أخذه العسس منذ ثلاث ليال، وهو محبوس، فصلّى الفجر وركب بغلته، ومشى فاستأذن على الأمير، فقال: ائذنوا له، وأقبلوا به راكباً، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط، ففعل به ذلك، فوسّع له الأمير مجلسه، وقال له: ما حاجتك؟ فقال: لي جَارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال، فتأمر بتخليّته؟ فقال: نعم، وكلّ مَنْ أَخَذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا، ثم أمر بتخليّتهم أجمعين. فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف، فلما أوصله داره، قال له أبو حنيفة: أثّرانا يا فتى أضعناك؟ قال: لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق، والله عليّ ألاّ أشرب الخمر أبداً، فتاب ولم يعد إلى ما كان عليه.

[من أخبار الجوّاري والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع في المقامات من ظرف الحكايات التي تضمنت بيع المماليك عند الضرورات، وما للأجواد من جزيل الهبات، مما ذكروا من أحسن أخبار الغلمان أن جعفر بن يحيى عرض عليه في بعض متوجّهاته مملوك من ممالك رجل جفاه السلطان، فقبض ماله، وأمر ببيع ممالكه، فعرض عليه من جملتهم غلام كما طرّ شاربه، أجمل الناس، يدبر بين فكّيه لساناً أبين من الصبح قال جعفر: فقلت له: ما اسمك؟ قال: ماهر، فقلت له: وما صنعتك؟ قال: الأدب والغناء والشعر وما شئت من بعد، فسألته عن ثمنه، فقال: خمسمائة دينار للضرورة، قال: فأدّيت ثمنه، وسألته أن يُسمِعني شيئاً من غنائه، فأخذ العود وغنّى: [الطويل]

حملتم جبال الحبّ فوقِي وإني لأعجز عن حمل القميص وأضعفُ

ظفرتكم بكتمان اللسان فمن لكم بكتمان عين دمعها الدهر يذرف!

فأطربني غناؤه، وشجاني فأجزته، ووهبت له وخلعت عليه، وأمرته بمعادلتني. فلما اجتزّت منزل مولاه بمقدار ميل، أنشأ يقول: [الطويل]

وما كنت أخشى معبداً أن يبيّعني بشيء ولو أضحّ أنامله صِفراً

أخوهم ومولاهم وحامل سرهم ومن قد ثوى فيهم وعاشرهم دهرًا
أشوقاً ولما تمض لي غير ساعة فكيف إذا خب المطي بنا شهراً!
فقلت: يا غلام، أتعرف منزل مولاك من ها هنا؟ فقال: هيهات، وهل تخفي معالم
الصب! فقلت: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى، ووهبت له ألف دينار، فقال لي زميلي:
أمثل هذا يُعْتَق؟ فقلت: أو مثله يُمْلِك! فولّى وهو يقول: [البسيط]

لا يوجد الخبر إلا في معادنه والشر حيث طلبت الشر موجود
وحدث ابن عائشة قال: كان لرجل من قيس غيلان جارية، وكان بها معجباً، ولها
مكرماً فأصابته حاجة وجهد، فقالت له: لو بعثني فإن نلت طائلاً عدت به عليك،
فعرضها للبيع، فعرضت على عمر بن عبد الله بن مغمّر المذحجي، فأعجبته فاشتراها
بمائة ألف درهم، فلما مضت لتدخل القصر ودعت مولاها وأنشدته: [الطويل]

هنيئاً لك المال الذي قد أصبته ولم يبق في كفي إلا تفكري
أقول لنفسي وهي في كرب غشية أقلي فقد بان الحبيب أو اكثري
إذا لم يكن للوصل عندك حيلة ولم تجدي بداً من الصبر فاصبري
فأجابها مولاه: [الطويل]

فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن لفرقتنا شيء سوى الموت فاعذري
أءوب بحزن من فراقك موجد أناجي به قلباً طویل التفكر
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن مغمّر
فقال ابن معمر: قد شئت، خذ بيدها فهي لك وثمنها.

قال: فلما وعى الشيخ أبياته، وعقل مناعاته، تنفس الصعداء وبكى حتى
أبكى البعداء؛ ثم قال لي: إني أحل هذا الغلام محلّ ولدي، ولا أُميّزه عن أفلاذ
كبيدي؛ ولولا خلوّ مرّاجي، وخبو مضاجي؛ لما درج عن غشي، إلی أن يُشيع
نعشي، وقد رأيت ما نزل به من لوعة البين، والمؤمن حين لين، فهل لك في تسليّة
قلبي، وتسرية كربي؛ بأن تعاهدني على الإقالة فيه متى استقلت؛ وألاً تستقلني إذا
نقلت؛ ففي الآثار المُنْتَكَاة، المَزْوِيَة عن الثقات: مَنْ أقال نادماً بيعته، أقاله الله
عثرته.

قال الحارث بن همام: فوعدته وغداً أبرره الحياء، وفي القلب أشياء، فاستدني

حينئذِ الغُلامَ إِلَيْهِ، وَقَبْلَ مَا بَيَّنَّ عَيْنَيْهِ، وَأَنشَدَ وَالذَّمْعُ يَرْفُضُ مِنْ جَفْنَيْهِ: [الرجز]

خَفُضَ قَدْتِكَ النَّفْسُ مَا تُلَاقِي مِنْ بُرْحَاءِ الْوَجْدِ وَالْإِشْفَاقِ
فَمَا تَطُولُ مُدَّةُ الْفِرَاقِ وَلَا تَنْبِي رِكَائِبَ التَّلَاقِي
* بِحُسْنِ عَوْنِ الْقَادِرِ الْخَلَاقِ *

قوله: عقل مناغاته، أي فهم كلامه، والمناغة تكليم الطفل بما يهوى ويفرح به، فإذا ردّد الصبي كلامك أو حاكاك فقد ناغاك. الصُّعْدَاء: ارتفاع نَفْسِ المهموم. أفلاذ: قَطَعَ يريد أولاده، والفُلْدَة: قطعة من الكبد، وإِفْرَظُ الإشفاق به والمحبة في الولد، يخاطبه أبواه بقلبي وكبدي. وقالوا: أولادنا أكبادنا، وقال الشاعر: [الرجز]

وإنما أولادنا بيئنا أكبادنا تمشي على الأرض

مُراحي: موضع إبلي ودوابي، وكنى بخلو المراح عن الفقر وذهاب المال. درج: مشى. لوعة البين: حُرْقة الفراق. هَيْنَ لَيْنَ، هما مع الازدواج مخففتان، فإن أَقْرَدَا شَدَّدَا. قوله: لَمَّا دَرَجَ عَنْ عَشْيٍ، يقول: لولا الفقر ما بعته ما دمت حيًّا. وتسرية كربه: إزالة همّه. المنتقا: المختارة. المدونة: المكتوبة المجموعة، والحديث معروف من طريق أبي مريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَقَالَ نَادِمًا يَبِيعُهُ أَقَالَهُ اللَّهُ عَشْرَتَهُ»^(١)، أي عفا عن زلته أبرزه: أظهره، ويريد بقوله: وفي القلب أشياء: أنه أضمر أولاً يقيله أبداً يرفض: يسقط متفرقاً. خَفُضَ: سَكَنَ. بُرْحَاء: شدة. الوجد: الحزن الإشفاق: الخوف. تَبَيَّ: تَفَتَّرَ.

ثم قال له: أَسْتَوْدِعُكَ مَنْ هُوَ نِعَمُ الْمَوْلَى. وَشَمَّرَ ذَيْلَهُ وَوَلَّى. فَلَبِثَ الْغُلامُ فِي زَفِيرٍ وَعَوِيلٍ، رَيْثَمَا يَقْطَعُ مَدَى مِيلٍ. فلما اسْتَفَاقَ، وكفكف دَمْعَهُ الْمُهْرَاقَ، قال: أَتَدْرِي لِمَ أَغَوَّلْتُ وَعَلامَ عَوَّلْتُ؟ فقلت: أَظُنُّ فِرَاقَ مَوْلَاكَ، هو الذي أَبْكَاكَ فقال: إِنَّكَ لَفِي وَادٍ، وَأَنَا فِي وَادٍ، وَلَكَمْ بَيْنَ مُرِيدٍ وَمُرَادٍ، ثم أنشد: [الرجز]

لَمْ أَبْكِ وَاللَّهِ عَلَى إِلْفٍ نَزَحَ وَلَا عَلَى فَوْتٍ نَعِيمٍ وَفَرَحَ
وإنما مَذْمَعُ أَجْفَانِي سَفَحَ عَلَى غَبِيٍّ لِحْظُهُ حِينَنَ طَمَحَ
وَرَّطُهُ حَتَّى تَعْنَى وَافْتَضَخَ وَضِيعَ الْمَنْقُوشَةِ الْبَيْضِ الْوَضَخَ

(١) أخرجه أبو داود في البيوع باب ٥٢، وابن ماجه في التجارات باب ٢٦، وأحمد في المسند ٢/٢٥٢، بلفظ: «من أقال مسلماً أقاله الله عشرته».

وَيْكَ أَمَّا نَاجَتْكَ هَاتِيكَ الْمُلَخْ بِأَتْنِي خُرُوبِيَعِي لَمْ يُبَخْ

* إِذْ كَانَ فِي يُوسُفَ مَعْنَى قَدْ وَضَحَ *

زَفِير: أنفاس مرتفعة. عويل: بكاء. ريث: قَذَر. مَدَى: غاية. والمِيل: قَذَر مَدَّ
الْبَصَر من الأرض، ويقال إنه أَلَفْ خطوة من خُطَا البعير، والفرسخ: ثلاثة أميال، والبريد
أربعة فراسخ. استفاق: استراح وخَفَ ما يجده. كفكف: ردّ وأذهب. المَهْرَاق:
المصبوب. أعولت: بكيت بصوت عالٍ، وأعول إعوالاً: صاح، ورفع صوته، وعولت
على كذا اتكلت عليه، وعلى الله معوّلي اتكالي، وقال الشاعر: [الطويل]

* وَلَيْسَ عَلَى رَبِّ الزُّمَانِ مَعُولٌ ^(١) *

كم بين مُريد ومُراد، يريد أتهما متقاربان في اللفظ، متباعدان في المعنى، لأن
المريد في الشيء المحبّ فيه، المُراد الشيء المطلوب، وهو المحبوب، فأنت قد تُريد
الشيء فتمنّعه، وغيرك قد يراد له فيأباه ولا يريده، فاللفظان متضادان، فيقول: التبس
عليك سرّ بكائي فظننت أنه عاى فراق مولاي. فتفطن الآن أنه على سُخْف عقلك، كما
التبس اللفظان على غير ناقد، فإذا تفطن لهما تباعدا عليه، والمريد عند أهل الإرادة
المبتدي، والمُراد المنتهى، فالمريد هو الذي نُصب للتعب والمقاساة، والمراد الذي لقي
الأمر من غير مشقة، فهو مرفوق به مرفقة، وقيل: المريد متحمّل والمراد: محمول.

الجنيد: المريد تتولاه سياسة المعلم، والمراد تتولاه رعاية الحق، لأن المُريد
يسير، والمراد يطير، فمتى يلحق السائر الطائر! القشيري: كلّ مريد في الحقيقة مُراد،
لأنه إذا أَراده الحق للخصوصية، وفقه للإرادة، ولكنهم فرقوا بينهما.

قوله: إلف، أي صاحب. نَزَح: بَعُدَ سَفَحَ: جرى. غبيّ: جاهل لحظه: نظره.
طمح: ارتفع. وزّطه: أنشبه، والوزّطة: أهوية تكون في رأس الجبل يشقّ على مَنْ وقع
فيها الخروج منها وتوزّطت الماشية: وقعت في الوزّطة، قال طُفيل: [الطويل]

تهابُ طريقَ الحقّ تحسب أنه وُعُورٌ وِراطٌ وهو بَيْدَاءٌ بَلَقَعُ ^(٢)

(١) يروى البيت:

ودع عنك رعماً قد أتى الدهر دونها وليس على دهر لشيء معول
وهو بلا نسبة في كتاب العين ١٣٨/٢، ٢٤٨، وأساس البلاغة (عول).

(٢) يروى البيت:

تهاب طريق السهل تحسب أنه وُعُورٌ وِراطٌ وهو بَيْدَاءٌ بَلَقَعُ
والبيت في ديوان طفيل الغنوي ص ٨٩، ولسان العرب (ورط)، وتهذيب اللغة ١٥/١٤، وتاج
العروس (ورط).

وقيل: الورطة: الوخل تقع فيه الغنم، فلا يمكنها التخلص، ثم ضرب مثلاً في كل شدة يقع فيها الإنسان، وأورطت فلاناً فتورط هو، أي وقع فيما يعسر التخلص منه.

أبو عمرو: الوزطة الهلكة، قال الرّاجز: [الرجز]

إن تأت يوماً مثلَ هذي الخُطّة تلاقٍ من ضَرْبِ نميرٍ ورُطّة^(١)

قوله: تعنى، أي تعب. افتضح: اشتهر، والوضّح: الشديدة البياض النقية، أي ضيّع الدراهم المنقوشة البيض، والوضّح: البيان والضوء والغرة والفضّة والدراهم الصحيح، وقيل: إنه وصف الدراهم بالمصدر، كما قال: امرأة زورٌ وكَرَم. ويك: عَجَباً لك. وقوله: هاتيك، يقال للمذكّر: ذا، وهو للقريب، وذاك لما هو أبعد، وذلك لأبعد الثلاثة، وللمؤنث ذه وذى، بلا ياء، وتاوتي وهي للقريبة، وتيك للتي هي أبعد منه، وتلك وتالك لأبعدهنّ، وتدخل ها التنبيه على كلّ ما ليس فيه لام، لأن اللام موضوعة للبعيد، وها موضوعة للقريب، فلا يجمع بينهما، نحو هذا وهذاك وهاتا، وشاهده: [الوافر]

* وَلَيْسَتْ دَارُنَا هَاتَا بَدَارٍ^(٢) *

وهذه وهذي وهذ وهاتيك، وشاهده قولُ ذي الرُّمة: [الطويل]

قد احتَمَلْتُ مَيَّ فَهَاتِيكَ دَارَهَا بها السُّحْمُ تَرْدَى وَالْحَمَامُ الْمَطْوُوقُ^(٣)
قوله: لم يبيع، أي لم يجعل مباحاً.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة أنا خصمهم، ومن كنت خصمه خصمته: رجل عاهد ثم غدر، ورجل باع حرّاً، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره»^(٤). وَضَح: تبيّن.

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (ورط)، وتهذيب اللغة ١٥/١٤، وأساس البلاغة (ورط).

(٢) صدره:

وليس لعيشنا هذا مهاة

والبيت لعمران بن حطان في ديوانه ص ١١٢، والمخصص ١٥/١٠٧، وأساس البلاغة (مهمه)، وتاج العروس (مهمه)، وتخليص الشواهد ص ١٢١، وخزانة الأدب ٥/٣٦١، ٣٦٢، وشرح أبيات سيبويه ٢/٢٧٠، وشرح شواهد الإيضاح ص ٦٠٤، وشرح شواهد المغني ٢/٩٢٦، والكتاب ٣/٤٨٨، ولسان العرب (مهمه)، والمقتضب ٢/٢٨٨، ٤/٢٧٧، وبلا نسبة في مغني اللبيب ٢/٦٢٧، ومقاييس اللغة ٥/٢٦٨، ومجمل اللغة ٤/٢٩١.

(٣) البيت لذي الرمة في ديوانه ص ٤٥٩، وشرح شواهد الإيضاح ص ٦٠٢، وبلا نسبة في الدرر ١/٢٣٦، وجمع الهوامع ١/٧٦.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع باب ١٠٦، والإجارة باب ١٠، وابن ماجه في الرهون باب ٤، وأحمد في المسند ٢/٣٥٨.

قال : فتمثلتُ مقالَهُ في مِرْآةِ المُدَاعِبِ ، ومعرِضِ المُلَاعِبِ ، فتصلَّبَ تصلَّبَ المُحِقِّ ، وتبرَّأَ مِنْ طِينَةِ الرِّقِّ . فجلُّنا في مُحَاصِمَةِ ، واتصلَّتْ بِمُلاكَمَةِ ، وأفضتُ إلي مُحَاكِمَةِ : فلما أَوْضَحْنَا لِلْقَاضِي الصُّورَةَ ، وتَلَوْنَا عَلَيْهِ السُّورَةَ ، قال : أَلَا إِنَّ مَنْ أَنْذَرَ ، فَقَدْ أَعَذَّرَ ، وَمَنْ حَذَرَ كَمَنْ بَشَرَ . وَمَنْ بَصَّرَ فَمَا قَصَّرَ ؛ وَإِنْ فِيمَا شَرَحْتُمَاهُ لَدَلِيلًا عَلَى أَنَّ هَذَا الْغَلَامَ قَدْ نَبَّهَكَ فَمَا ارْعَوَيْتَ ، وَنَصَحَ لَكَ فَمَا وَعَيْتَ . فاستُرَّ دَاءَ بَلْهَكٍ وَاكْتُمَهُ ، وَلَمْ تَنْفَسْكَ وَلَا تَلْمُهُ ، وَحَذَارٍ مِنْ اغْتِلَاقِهِ ، وَالطَّمَعِ فِي اسْتِرْقَاقِهِ ، فَإِنَّهُ خُرُّ الْأَدِيمِ ، غَيْرُ مَعْرُوضٍ لِلتَّقْوِيمِ .

وقد كان أبوه أخضره أمس ، قُبِيلَ أَقُولِ الشُّمُسِ ، واغْتَرَفَ بَأَنَّهُ فَرْعُهُ الَّذِي أَنْشَأَهُ ، وَأَلَّا وَارِثَ سِوَاهُ ، فَقُلْتُ لِلْقَاضِي : أَوْ تَعْرِفُ أَبَاهُ ، أَخْزَاهُ اللَّهُ ! فقال : وَهَلْ يُجْهَلُ أَبُو زَيْدٍ الَّذِي جُرْحُهُ جُبَّارٌ ، وَعِنْدَ كُلِّ قَاضٍ لَهُ أَخْبَارٌ وَإِخْبَارٌ ، فَتَحَرَّقْتُ حِينَئِذٍ وَحَوَّلْتُ ، وَأَفْقُتُ وَلَكِنْ حِينَ فَاتِ الْوَقْتِ ، وَأَيَقِنْتُ أَنَّ لثَامَهُ كَانَ شَرَكَ مَكِيدَتِهِ ، وَبَيْتَ قَصِيدَتِهِ . فَكَغَسَ طَرْفِي مَا لَقَيْتَ ، وَأَلَيْتُ أَلَّا أَعَامِلَ مِثْلُهَا مَا بَقِيَتْ .

تمثلتُ : تصوَّرت . المداعب : الممازح . والمعرِض بفتح الميم : الموضع الذي تُعرِضُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ ، والمعرِضُ الثوبُ تُعرِضُ فِيهِ الْجَارِيَةُ . تصلَّبَ : تقوَّى ، وهو «تَفَعَّلَ» مِنَ الصَّلَابَةِ وَهِيَ الشَّدَّةُ . وَالْأَرْضُ الصَّلْبَةُ : الْقَوِيَّةُ . وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا خَالَفَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ إِلَّا ابْنَ ظَفَرٍ فَإِنَّهُ رَوَاهُ : «تَصَلَّتْ» بِالتَّاءِ بِنَقْطَتَيْنِ ، وَفَسَّرَهُ بِتَجَرَّدٍ وَجَدَّ ، وَكُلَّ جَادَّ مُجَاهِدٌ مُسْرِعٌ فِي أَمْرِهِ : فَهُوَ مُتَصَلَّتٌ فِيهِ ، فَذَكَرُوا أَنَّهُ تَصَحَّفَ عَلَيْهِ اللَّفْظُ ، فَشَرَحَهُ عَلَى تَصْحِيفِهِ . الْمُحِقُّ : صَاحِبُ الْحَقِّ . الرِّقُّ : الْعِبُودِيَّةُ : وَذَكَرَ الطِّينَةَ لِأَنَّهَا أَصْلُ الْخُلُقِ . وَتَبَرَّأَ مِنْهَا ، تَبَاعَدَ . جُلُّنَا : تَصَرَّفْنَا . مُلَاكَمَةُ : مَدَافَعَةٌ وَمُضَارَبَةٌ ، وَاللَّكْمُ : الضَّرْبُ بِجُمُعِ الْكَفِّ . أَفْضَتْ : اتَّصَلَتْ . أَوْضَحْنَا : بَيَّنَّا . الصُّورَةُ : الْقِصَّةُ . تَلَوْنَا : قَرَأْنَا وَذَكَرْنَاهَا لَهُ . أَنْذَرَ : أَعْلَمَ . أَعَذَّرَ : أَتَى بِعُذْرٍ ، وَيُقَالُ : قَدْ أَعَذَّرَ مِنْ أَنْذَرَ ، أَيِ قَدْ بَلَغَ أَقْصَى الْعُذْرِ مَنْ أَنْذَرَكَ ، وَعُذَّرَ الرَّجُلُ فَهُوَ مُعَذَّرٌ ، إِذَا اعْتَذَرَ وَلَمْ يَأْتِ بِعُذْرٍ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ [التوبة : ٩٠] ارْعَوَيْتَ : رَجَعْتَ عَنْ جَهْلِكَ وَانْكَفَفْتَ . بَلْهَكٍ ، غَفَلْتِكَ وَجَهْلِكَ . حَذَارٍ ، أَيِ احْذَرِ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ . اسْتِرْقَاقِهِ : تَمَلُّكُهُ وَتَعَبُّدُهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : سَوَّقَ الرَّقِيقَ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْعَبْدُ رَقِيقًا ، لِأَنَّهُمْ يَرْقُونَ لِمَالِكِهِمْ وَيَخْضَعُونَ لَهُ وَيَذَلُّونَ : وَالْأَدِيمُ : الْجِلْدُ . لِلتَّقْوِيمِ : لِمَعْرِفَةِ قِيَمَتِهِ . أَقُولُ : غُرُوبُ . أَنْشَأَهُ : أَحْدَثَهُ وَوَلَدَهُ . جُبَّارٌ : بَاطِلٌ . إِخْبَارٌ : إِعْلَامٌ . وَأَخْبَارٌ : جَمْعُ خَبَرٍ ، وَأَخْبَرَهُ : أَعْلَمَهُ . تَحَرَّقْتُ : عَضَضْتُ أَسْنَانِي حَتَّى صَوَّتَتْ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ .

حَوَّلْتُ: قلتُ: لا حول ولا قوة إلا بالله. أفقت: انتبهت، وأنشد الفنجديهي في معنى هذا: [السريع]

يفتضح الجاهل لكئه من بعد ما غزبه الناصح
ويصلح ابنُ السوء لكئه من بعد ما مات الأبُ الصالح
قوله: وأيقنت أن لثامه كان شرك مكيدته، أي شبكة حيلته. وبيت القصيدة: أحسن بيت فيها، فأراد أن حيلته كانت لثامه، نكس طرفي: أي كسر عيني، وأمال نظري.

ولم أزل أتأوه لخسر صفقتي، وافتضاحي بين رُفقتي. فقال لي القاضي، حينَ رأى امتعاضي، وتبينَ حرازَ تِمَاضي: يا هذا، ما ذهب من مالك ما وعظك، ولا أجرمَ إليك من أيقظك. فاتعظ بما نابك، وكاتِم أضحابك ما أصابك؛ وتذكرْ أبداً ما دهمك، لتقي الذكري ذراهمك، وتخلق بتخلق من ابتلي فصبر، وتجلت له العبر فاعتبر.

قال الحارث بن همام: فودعته لابساً ثوب الخجل والحزن، صاحباً ذلي العُبن والغُبن، ونويتُ مكاشفة أبي زيدٍ بالهجر، ومصارمته يد الدهر. فجعلتُ أتَنكُبُ عن ذراه، وأتَجَنَّبُ أن أراه؛ إلى أن عَشِينِي في طريق ضيق، فحياني تحية شيق، فما زدتُ على أن عَبَسْتُ وما نبستُ، فقال لي: ما بالك شَمَخْتُ بأفك على إلفك! فقلت: أنسيتُ أنك اختلتَ وختلت، وفعلتُ فَعَلَتِكَ التي فَعَلْتُ! فأضطر بي مُتَهَازِياً، ثم أنشد متلافاً:

أتأوه: أتوجع. رفقتي: أصحابي، امتعاضي: توجعي. ارتماضي: حرقه قلبي من شدة الهم، ولا يكون الممتعض كاظماً، فلا بد من ظهور الكرب عليه، وأمرٌ ممعُض وماعُض، أي ممضٌ كارب.

قوله: ما ذهب من مالك ما وعظك، هو مثل، ومعناه إذا ذهب من مالك شيء حذرَكَ أن يحلَّ بك مثله، فتأديه إياك عَوْض من ذهابه، أجرم: أذنب. نابك: نزل بك. دهمك: عَشِيكَ. تجلت: ظهرت. العبر: العلامات المخوفة، واعتبرت بالشيء إذا اتعظت به، الخجل: الحياء. صاحباً: جازاً. الغبن: بسكون الباء في البيع، وبفتحها في الرأي، يريد أنه غبن في رأيه وبيعه، قال في الدرة: الغبن بإسكان الباء في المال، وبفتحها في الرأي والعقل. نويت: أضمرت. مصارمته: مقاطعته، وصرمتُ فلاناً:

قطعت ما بيني وبينه من المودة، والصَّزم: القطع، وقيل لليل: صريم، لانقطاعه عن النهار، وهو في تأويل مَضْرُوم أي مقطوع، وكذلك الصَّريم من الرمل، وهو الذي انقطع من معظمه.

يد الدهر: أي أبد الدهر.

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام والسابق السابق إلى الجنة»^(١). ذراه: جهته. غَشِيَنِي: قصدني وأتاني على غفلة. شقيق: شديد الحب، ما نبست: ما تكلمت، شمخت: رفعت أنفك كبراً، وشمخ: تكبر. ختلت: خدعت، وخاتل في معنى ختل، وأصل المخاتلة المشي للصيد قليلاً قليلاً خفية لئلا يُسمع حسك، ثم جعلت مثلاً لكل شيء ورِّي به وسرَّ على صاحبه، متلافياً: متداركاً للألفة. [مجزوء الكامل]

يَا مَنْ بَدَا مِنْهُ صُدُو	ذُمُوجَشْ وَتَجْهُمُ
وَعَدَا يَرِيشْ مَلَاوِمَا	مِنْ دُونَهُنَّ الْأَشْهُمُ
وَيَقُولُ: هَلْ حُرِّيْبَا	عُ كَمَا يُبَاغُ الْأَدْهُمُ
أَقْصِرْ فَمَا أَنَا فِيهِ بِذ	عَا مِثْلَ مَا تَتَوَقَّعُ
قَدْ بَاعْتَ الْأَسْبَاطُ قَبْ	لِي يَوْسُفَا وَهَمُ هُمُ
هَذَا وَأَقْسِمُ بِالنَّيِّ	يَسْرِي إِلَيْهَا الْمُثْهَمُ
وَالطَّائِفِينَ بِهَا وَهَمُ	شَفَتْ التَّوَاصِي سُهُمُ
مَا قَمْتُ ذَاكَ الْمَوْقِفِ الـ	مُخْزِي وَعِثْدِي دِزْهُمُ
فَاعْذِرْ أَخَاكَ وَكُفَّ عَنِّي	هُ مَلَامٌ مَنْ لَا يَفْهَمُ

تجهم: عبوس. ملاوما: جمع ملام أو ملاومة، وهي اللوم والعتاب، يريد أن لومه أنفذ من السهام. الأدهم، قيل: أراد به الفرس وقصد لونه للقفافية، وقيل: أراد العبد الأسود. بدعاً، أي أولاً أي ما أنا أول من فعل ذلك. الأسباط: إخوة يوسف عليه السلام. وهم هم: أي وهم أنبياء لم يتغيروا عن مراتبهم، ويقال: هو هو، أي هو كما عهدته لم يتغير.

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٥٧، ٦٢، والاستئذان باب ٩، ومسلم في البر حديث ٢٣، ٢٥، ٢٦، وأبو داود في الأدب باب ٤٧، والترمذي في البر باب ٢١، ٢٤، وابن ماجه في المقدمة باب ٧، وأحمد في المسند ١/١٧٦، ١٨٣، ٣/١١٠، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٢٥، ٢٠/٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٤١٦/٥، ٤٢١، ٤٢٢.

[يوسف بن يعقوب عليه السلام]

وقد جرى ذكر يعقوب والأسباط في المقامات في مواضع، وبني هذه المقامة على ذكر يوسف وجماله وبيع إخوته إياه، ونريد أن نلّم بطرف من أخبارهم على شرط الكتاب.

ذكر أهل الأخبار أنّ يعقوب - وهو إسرائيل عليه السلام - تزوج بنت خاله ليا بنت ليّان بن بتويل، فولدت له روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وغيرهم، ثم توفيت وخلف على أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، وكان يوسف وأمه قد قُسم لهما من الحسن شطره، فكفلت يوسف عمته، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلما ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذه منها، وقال لها: والله لا أقدر على الصبر عنه، فقالت له: والله لا أقدر على صرّفه إليك، فلما رأت عزمه على أخذه، حزمت المنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم، ثم ادّعت فقدها فطلب فوجدت عنده، وكان من سنتهم أن من سرق شيئاً أخذ فيه، فتركه لها حتى ماتت. فلما رجع إلى أبيه شغل به عن سائر بنيّه، فحسّدوه، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزهة، بعد أن ضَمِنوا حفظه، فأخرجوه إلى البرية، وأخذوا يضربونه، وكلّما ضربه واحد استغاث بآخر، فيضربه الآخر. فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا، وذكرهم بما ضَمِنوا لأبيّه من حفظه، فانطلقوا فأدلوّه في الجبّ، وهو يقول: يا أباه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الآباء! وكان بعض إخوته لأمه، فجعل يتعلق بشفير الجبّ، فربطوا يديه، وألقوه فيه، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ينجوك، ثم أرادوا أن يرّضخوه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وكان يأتيه بالطعام خفيةً منهم. ثم مرّت سيارة فأدلى واردهم دلوّه فتعلّق به، فلما رآه بشّر به السيارة. وقال السّديّ: إنّ الذي أخرجه إنما دعا صاحباً له اسمه بشري، فأتى إخوته الذين أخرجه وقالوا: إنه عبد لنا، فباعوه منهم بعشرين درهماً على أن يُخرجوه من أرض الشّام، فشرطوا لإخوته أن يغربوه، ويذهبوا به إلى مصر، فحينئذ رجعوا إلى أبيهم عشاء ييكون.

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار.

ثم إنّّه لما بلغ مصر من العزيز، وكان فرعون - وهو الريّان بن الوليد - قد ولّاه خزائنها، فكان من قصته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعاها إياه لنفسها، ومن تأيّه من ذلك واستنزائها إياه؛ حتى هم بها، ورؤيته برهان ربّه - وهو رؤيته صورة يعقوب يعصّ على إصبعه، وقيل: إنه رأى في الحائط مكتوباً: «ولا تقربوا الزنا» ومبادرته الباب فارّاً منها، وقدّها قميصه من دُبر، ووجوده العزيز على باب الدّار جالساً مع ابن عمّ له، وهو الشاهد من أهلها - وقيل: إنه كان صبيّاً في المهد - واشتহার أمرهما بمصر، حتى تحدّثت به نسوة في المدينة، وقلن: امرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه، وإحضارها لهنّ وإعدادها لهنّ ما يتكئنّ عليه -

وقيل: المتكأ الأترج - وأمرها له أن يخرج عليهن، وإعظامهن إياه حتى شغلن به عن أنفسهن، وقطعن أيديهن وقلن: حاش لله ما هذا بشراً، تنزيهاً له عن أن يأتي - مثله ريبة، فكان من هذا الخبر ما قص الله في القرآن ونطقت به التفاسير والأخبار.

ثم إن امرأة العزيز قالت للعزيز: إن عبدك فصّحني في الناس فإما سجنته، وإما برزت للناس أعتذر عن نفسي، فحبسه، فدخل معه رجلان أحدهما خبّاز الملك والآخر نديمه. وكان لما بلغ الحلم آتاه الله حكماً وعلماً من العبارة، فكان في السجن يفسر الرؤيا للمسجونين، ويمرّض مرضاهم، ويوسع على من ضاق عليه مكانه، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلم نُجرب هذا العبد، فسألاه من غير أن يريا شيئاً، وقالوا له: إنا نراك من المحسنين في معاشرتك أهل السجن، فقال لهما: أمّا أحدكما فينادم الملك، وأمّا الآخر فيصلب، فقالا له: ما رأينا شيئاً، فقال لهما: قضي الأمر فيكما، ثم قال للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك. وأخبره أنني محبوس ظلماً، فأوحى الله تعالى إليه: إن اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن سجنك، فعوقب بالسجن حيث همّ بامرأة العزيز، وبإطالته حيث اتكل في أمره على غير ربه.

ثم كان من رؤيا الملك وجهل أهل دولته وتفسير يوسف لها، وقول الملك: ائتوني به وتأبئه الخروج حتى يسأل النسوة عن شأنه وشهادتهن عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته، وقوله في العزيز: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك: ولا يوم هممت بما هممت به! فقال: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ [يوسف: ٥٣] الآية. واستخلاص الملك إياه لنفسه، وجعله على خزائن أرضه؛ ما اشتهر قرآنًا وتفسيراً. ويقال إن العزيز مات في تلك المدة، وإن يوسف تزوّجها، وقال لها: أليس هذا خيراً؟ فقالت: لا تلمني، كنت امرأة حسنة في مُلكٍ ودُنْيَا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حُسنك، فغلّبتني نفسي على ما رأيت.

فيفزعون أنه وجدها عذراء، وأنها ولدت له ابنين.

ثم أجدبت الأرض، فأثاء إخوته متجعين، فكان من أمره معهم، وإحسانه إليهم في الكيل. وطلبه لهم أن يأتوه بشقيقه بنيامين، ورجوعهم موقرين، ورغبته إياهم في إرساله معهم، وأخذه بسرقة الصّواع وتأديهم بذلك، ورجوعهم إلى أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنه، وأمره لبنيه أن يرجعوا طالبين ليوسف وأخيه، ودخولهم على يوسف أذلاء صاغرين، وتعريفه إياهم بمكانه، وبعثه بالقميص إلى أبيه، وجمع شملهم بعد طول مدة الفراق ما نصّ الله تعالى أنه عبرة لأولي الألباب، ولولا أن الأمر في كتب التفسير أشهر من أن يجهل، لفسرناه فصلاً فصلاً.

قوله: أقسم بالتي يَسْرِي إليها الْمُتَهَم - يعني مكّة - والمتهم الآتي تِهامة، وتِهامة اسم مكة، وقال: الأصمعي: سمعت العرب تقول: إذا انحدرت من ذات عِرْق فقد اتهمت، شَعْتُ سُهُم: أي متغيّرة ألوانهم وشعورهم.

قوله: اعذر أخاك، قال زيد بن علي: ثلاثة لا يجتمعن إلا في كريم: حُسن المحضر، واحتمال زلات الإخوان، وقلة الملاة للصديق.

ثم قال: أما مغذرتي فقد لاحث، وأما دراهمك فقد طاحت؛ فإن كان اقشعراؤك مني، وازورارك عني، لفرط شفقتك على غبر نفقتك. فلست ممن يلسع مرّتين، ويوطىء على جمرتين، وإن كنت طويت كشحك، وأطعت شحك. لتستنقذ ما علق بأشراكي، فلتبتك على عقلك البواكي.

قال الحارث بن همام: فاضطرني بلفظه الغالب، وسخره الغاب، إلى أن عذت له صفيًا، وبه خفيًا، ونبذت فعلته ظهريًا، وإن كانت شيئًا قريًا. لاحت: ظهرت. طاحت: هلك اقشعراؤك: انقباضك. والقشعريرة: رغبة وانقباض. ازوارارك: انقباضك وميلك، لفرط شفقتك، لكثرة خوفك، غبر نفقتك: أي تخاف على ما بقي من نفقتك وإن أخذها. يوطىء، أي يجعل غيره يطا الجمر، أي لا أضّر مرتين، والكشح: الخضر، وقيل: الجنب. وقيل: هو اسم لما بين الأضلاع، ورأس الورك، وكلها متقاربة، وطوى كسحه على أمر، واستمرّ عليه، وطوى كسحه، مثل يضرب للمجانبة والمكاتمة، قال الشاعر: [الوافر]

طوى كسحاً خليلك والجناحا لبين منك ثم غدا وراحا^(١)

والشح: البخل مع الحرص، واضطرني: ألجأني، الخالب: الخادع، صفيًا: صاحباً مخلصاً. حفيًا: معيناً، كريماً: مكرماً، نبذت: رميت وطرحت ظهريًا. أي خلف ظهري، واتخذ ظهريًا، أي عُدّة يستظهر بها، أي يجعلها خلف ظهره حتى متى احتاجها استعملها قريًا: عجباً ومنكرًا، والفري: الأمر العظيم، والفري الكذب.

ومما جاء في الشعر على أخبار يوسف عليه السلام.

قال ابن الزقاق: [الكامل].

بأبي وغير أبي أغرُّ مُهْفَهَفٌ مهضوم ما خلف الوشاح خَمِيصُهُ
ليس الفؤادَ فمزَّقَتْهُ جفونُهُ فأتى كيوسف حين قد قميصُهُ

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (كشح)، وتاج العروس (كشح)، وفيهم «صراحا» بدل «وراحا».

وقال أيضاً : [مجزوء الرجز]

وسافر عن قمرٍ مبيتسم عن دُرٍ
لولا للاح للحوار وقد سلّ حُسامَ الحَوَرِ
لقد منه شغفاً قميصه من دُبُرِ

ومن الملح في ذلك قول ابن حجاج في بختيار : [المنسرح]

فديت وجه الأمير من قمرٍ يجلو القذى نُورُهُ عن البَصْرِ
إنّ زليخا لو أبصرتك لما ملّت إلى الحشر لذة النُّظرِ
بل وحياتي لو كنت يوسفها لم تك من تهمة العزيز بَري
فإنني عالم بأنك لو شَمَمْتَ رِيّا نسيمها العَطْرِ
سبقتها واندلّقت تتبعها من بين تلك البيوت والحجرِ
ولم تزل بالكذّين تنقُرُها من قبل وقت العشا إلى السَّحْرِ
طبعك كالماء في سهولته لكن أبو الزُّبرقان من حجرِ
إنّ الملوك الشباب ما خلّقوا إلّا صلابَ القِيّاش والكَمَرِ
وقال آخر : [البسيط]

قميص يوسف لما قُدّ من دُبُرِ كانت براءته فيه من كذب
وفي قميصك لما قد من دُبُرِ ممّا يدلّ على الفحشاء والرَّيبِ
وقال آخر في الحسن بن وهب : [البسيط]

إذا لقيت نبي وهب بمنزلة لم تدر أيهما الأنثى من الذَّكْرِ
مؤدّبون على الفحشاء من صَغَرِ مدربون على التُّكراء من كِبَرِ
قميص أنثاهم ينشق من قُبَلِ وقميص ذُكرانهم تنقذ من دُبُرِ
محتكون ولم تقطع سرائرهم بين الحواضين والذّايات بالكَمَرِ

المقامة الخامسة والثلاثون

وتعرف بالشيرازية

حكى الحارث بن همام قال: مَرَزْتُ فِي تَطَوَافِي بِشِيرَاز، عَلَى نَادٍ يَسْتَوْقِفُ الْمُجْتَاز، وَلَوْ كَانَ عَلَى أَوْفَازٍ؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَعَدِّيهِ، وَلَا خَطْتُ قَدَمِي فِي تَخَطُّيهِ؛ فَعُجِبْتُ إِلَيْهِ لِأَسْبُكَ سَرَّ جَوْهَرِهِ؛ وَأَنْظُرَ كَيْفَ ثَمَرُهُ مِنْ زَهَرِهِ، فَإِذَا أَهْلُهُ أَفْرَادُ، وَالْعَائِجُ إِلَيْهِمْ مُفَادُ. وَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي فَكَاهَةٍ أَطْرَبَ مِنَ الْأَغَارِيدِ، وَأَطْيَبَ مِنْ حَلَبِ الْعَنَاقِيدِ، إِذْ احْتَفَّ بَنَا ذُو طِمْرَيْنِ، قَدْ كَادَ يُنَاهِزُ الْعُمَرَيْنِ، فَحِيًّا بِلِسَانِ طَلِيقٍ، وَأَبَانَ إِبَانَةً مِثْلَ طَلِيقٍ ثُمَّ احْتَبَى حُبُورَةَ الْمُتَنَدِّينِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمَهْتَدِينَ. فَازْدَرَاهُ الْقَوْمُ لِطِمْرَيْنِهِ، وَنَسُوا أَنَّ الْمَرْءَ بِأَضْعَفَرِيهِ.

* * *

التطواف: مصدر طَوَفْتُ حَوْلَ الشَّيْءِ، إِذَا أَكْثَرْتَ الْمَشْيَ حَوْلَهُ. وَقَدْ طَفْتُ بِهِ وَأَطَفْتُ، وَإِذَا دَرْتَ وَأَكْثَرْتَ ذَلِكَ قُلْتَ: طَوَفْتُ.

وشيراز: مدينة فارس العظمى، وهي مدينة جلييلة عظيمة، ينزلها الولاة ولها سعة حتى إنه ليس فيها منزل، إلّا وفيه لصاحبه بُسْتَانٌ فِيهِ جَمِيعُ الثَّمَارِ وَالرِّيَاحِينِ وَالْبُقُولِ، وَكُلُّ مَا يَكُونُ فِي الْبَسَاتِينِ. وَشُرْبُ أَهْلِهَا مِنْ عَيُونٍ تَجْرِي فِي أَنْهَارٍ تَأْتِي مِنْ جِبَالٍ يَسْقُطُ عَلَيْهَا الثَّلَجُ.

قوله: ناد: مجلس. يَسْتَوْقِفُ: يَحْبِسُ وَيَجْعَلُهُ يَقِفُ. الْمُجْتَاز: خَاطِرُ الطَّرِيقِ الْمَارِ عَلَيْهِ.

أو فاز: انحفاز وعجلة، ومنه قولهم: قَعَدَ مُسْتَوْفَزًا، مَعْنَاهُ قَعَدَ عَلَى وَفَزٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْأَوْفَازُ: جَمْعُ وَفَزٍ وَهُوَ أَلَّا يَطْمُنُّ فِي قَعْوَدٍ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: تَقُولُ نَحْنُ عَلَى أَوْفَازٍ، وَلَا تَقُولُ عَلَى وَفَزٍ، وَمَعْنَاهُ أَلَّا تَلْقَاهُ مُعَدًّا.

الأزهري: الوفرة: الثوبَةُ بِعَجَلَةٍ، وَقَعَدَ مُسْتَوْفَزًا، إِذَا رَفَعَ أَلْيَتَيْهِ وَوَضَعَ رُكْبَتَيْهِ وَلَمْ يَطْمُنَّ.

تَعَدِّيهِ: تَخَطُّيهِ وَجَوَازِهِ. وَخَطَطْتُ: مَشَتْ، عُجِبْتُ: مِلْتُ. أَسْبُكَ: أَجْرَبَ سَرَّ

جوهره: أراد باطن أهله إذ كانوا في الظاهر ذوي مناظر، فأراد أن يعرف: هل هم أهل علوم وآداب. حتى يكملوا في الظاهر والباطن، أم أمرهم على خلاف ذلك، ويبن ذلك بقوله: كيف ثمره من زهره، فكنى بالزهر عن ظاهرهم، وبالثمر عن سرهم الباطن، وسر كل شيء: باطنه وخالصة، وقال المعري: [البسيط]

فلا يغرّثك بشرٌ من سواه بدا ولو أنار، فكم نؤرّ بلا ثمر^(١)

قوله: أفراد، أي كبراء لا نظير لهم، فمن مال إليهم استفاد، وأفراد: نجوم الدّاراي، والعائج: المائل. فكاهة: حديث مطرب. الأغاريد: أصوات الطير، ويطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم الثّغريد والغناء، إلا الحمام فإنهم يسمّون أصواتها غناء وتغريداً وبكاءً ونياحاً، ويأخذونه من حال السامع لها، وقرىء على أبي الحسن بن السراج قول سويد بن الأعلم: [الوافر]

لقد تركت فؤادك مستجناً مطوقةً على فنن تغنى
يميل بها وتركبه بلحن إذا ما عنّ للمحزون أنا

فقال: إنما تكون أصوات الحمام على ما في نفس المستمع، فإذا سمعها من يطرب سمّاها غناءً، وإذا سمعها من يحزن سمّاها بكاء.

وقال ابن قاضي ميلة مصداقاً لما قاله ابن السراج: [الوافر]

لقد عرّض الحمام لنا بسجّع إذا أصغى له ركب تلاحى
شجا القلب الخلّي فقال غنى وبرّح بالشّجي فقال ناحا

وسبقه المعري بقوله: [الوافر]

بأرضٍ للحمامة أن تغنى بها ولمن تأسف أن تنوحاً^(٢)

وقد قدّمنا في شرح الصدر فصلاً للحمام، وما أحسن قول البحرّي: [البسيط]

حيثك عتّا شمال طاف طائفها في جنة نفحت روحاً وريحاناً
غنت سحيراً فناجى الغصن صاحبه سرّاً بها، وتداعى الطير إعلاناً
ورق تغنى على غصن مهدلة تسمو بها وتمسّ الأرض أحياناً
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزة عطفيه نشواناً

وهذا ديباجة أبي عبادة. وحلب العناقيد: الخمر. احتف: انتظم. طمرين، أي ثوبين خلقين، يناهز: يقارب. العُمّرين: ثمانين سنة، وذلك أن الإنسان من الشبيبة إلى

(١) البيت في سقط الزند ص ١٣٩.

(٢) البيت في سقط الزند ص ٢٤٥.

الأربعين في نماء وزيادة وقوة، ومن الأربعين إلى الثمانين في نقص، فالبالغ الثمانين قد استوفى عُمرَي الزيادة والنقص، وسئل ذو الرمة عن سنِّه، فقال: بلغت نصف عمر الهرم أربعين سنة، وقيل: العمر ستون سنة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»^(١).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «مَنْ أَتَتْ عَلَيْهِ ستون سنة فقد أعذر الله إليه»^(٢). فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة، والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عُمر ابن آدم، والأظهر من سياق المقامة أنه أراد الأول، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم في المقامة أنه يحاول شربها الغناء وغير ذلك.

قوله: أَبَانَ: بَيَّن. مِنْطِيق: فصيح، اجتبى حبوتهم، أي جلس مثل جلوسهم المتدين: أهل المجلس. ازدراه: احتقره.

أصغريه: قلبه ولسانه، وقيل لهما الأصغران لصغر حجمهما مِنْ بين الأعضاء لفضلهما وشرفهما على الأعضاء، قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ولكتب مدرّب الأصغرين، ولجلبهما القيام والكمال، كأنه قال: المرء يقوم أموره بلسانه وقلبه، ويكمل المرء بهما، قال الأصمعي رحمه الله تعالى: كان ضمرة بن أبي ضمرة قصيراً، وكان يقول: المرء بأصغريه، بقلبه ولسانه.

* * *

وأخذوا يتداعونَ فضلَ الخطاب، ويعتدونَ عودَه من الأحطاب، وهو لا يُفيضُ بِكَلِمَةٍ، ولا يُبينُ عن سِمة، إلى أن سَبَر قرائحَهم، وخَبَر شمائلَهم وراجِحَهم. فحين استخرجَ دَفَائِنَهم، واستنثَلَ كَنَائِنَهم، قال: يا قوم لو عَلِمْتُمْ أَنَّ وراءَ الفِدام، صَفْوَ المُدام، لَمَا احتقرْتُم ذا أخلاق، وَقُلْتُم ما لَهُ مِنْ خَلاق، ثُمَّ فَجَّر مِنْ يَنَابِيعِ الأدب، والنَّكَتِ الثَّخَب، ما جَلَب بِهِ بدَائِعَ العَجَب، واستَوْجَب أن يُكْتَبَ بِذُوبِ الذَّهَب، فلمَّا حَلَبَ كُلَّ خِلَبٍ، وَقَلَبَ إليه كُلَّ قَلَبٍ، تحلَّحَل، ليزحَل، وتأهَب، ليذهب، فَعَلَقَتِ الجماعةُ بذيلَه، وعاقَت مَسْرَبَ سَيْلِه، وقالت له: قد أريتنا وَسْمَ قَذِحِكَ، فخبَرنا عَنْ قَيْضِكَ ومُحِّكَ، فصَمَتَ صُموتَ من أَفْجِم، ثم أغوَلَ حَتَّى رُجِم.

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ١٠١، وابن ماجه في الزهد باب ٢٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٢٠، ٤١٧.

قال الزاوي: فلماً رأيتُ شوبَ أبي زيدٍ ورؤيتهُ، وأسلوبَه المألوفَ وصوبَه، تأملتُ الشيخَ على سُهُومَةٍ مُحَيَّاه، وسُهُوكَةِ رَيَّاه، فإذا هو إِيَّاه.

يتداعون: يدعو بعضهم بعضاً إلى ذكر الفصاحة، والأشبه أن يكون من الأدعية؛ وهي الأحجية والأغلوطه، كأنهم يحتاجون. وفصل الخطاب، كناية عن الفصاحة، يعتدون: يحسبون، الأحطاب: جمع حَطَب، ولا يقال للعود حطب حتى يجفّ ماؤه وييس، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الحطب لا نضارة فيه، كأنه لا علم عنده، وقال الشاعر: [الطويل]

إذا العود لم يثمر وإن كان شعبةً من المثمرات اعتدّه الناسُ للحطب

يُفيض: يتكلم ويندفع في القول، وفاض لسانه وأفاض، أي أبان. يبين: يبين. سِمة: علامة. سَبَر: قاس وجرب. قرائحهم: أذهانهم. حَبَر: جرب، شائلهم: ناقصهم. راجحهم: وافيههم، والشائل من الدراهم: الناقص الذي يشول به الميزان أي يرتفع، والراجع ضده. وقال في الدرة: الشائل: المرتفع، وأنشد: [السريع]

يا قوم مَنْ يعذر في عجرٍ القاتل المرء على الدائق
لَمَّا رأى ميزانه شائلاً وجاه بين الأذن والعاتق

استثّل كئانهم: استخرج ما عندهم، والكئانة: جعبة السهام. الفِدام: خرقه تُجعل على فم الإبريق ليصفو الخمر بها، أخلاق: ثياب بالية. خَلّاق: نصيب وافر من الخير. ينباع: مخارج الماء من العيون. التكت: المعاني الغامضة، والنكتة: نقطة في شيء تخالف لونه، فإذا كانت في الكلام فهي عيونه، الثُخْب: المختارة، بدائع: غرائب، ذوب الذهب: ما ذاب منه، ولو أنشدتهم شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشء: [البسيط]

كأنهم في صدورِ الناس أفئدةٌ تُحسّ ما أخطروا فيها وما اعتمدوا
يُبْذون للناس ما تخفي ضمائرُهم كأنهم وجدوا منها الذي وجدوا
دلّوا على باطن الدنيا بظاهرها وعلم ما غاب عنهم بالذي شهدوا
مطالع الحق ما مِنْ شبهة غسقت إلا ومنهم لدينها كوكبٌ يقدُّ

أو أبيات ابن شهيد حيث قال: [مخلع البسيط]

وفتية كالنجوم حسناً كلُّهم شاعرٌ نبيلُ
متّقَد الجانبين ماضٍ كأنه الصارم الصقيّلُ
راموا انصرامي عن المعالي والقرب من دونها كليلُ

فاشتدّ في إثرها مسحٌ كلّ كثير به قليل
في مجلس شأنه التّصافي تطيش في وصفه العقول

قوله: خلّب، أي خدع. والخلّب: الحجاب الذي بين سواد القلب وسواد البطن. تحلّل: تحرّك، وأصله للبعير إذا حرّكته للقيام تقول له: حل حل. عاقت: منعت وحبّست. مشرب: طريق مسيل الماء، وسرب يسربُ سروباً: مضى على وجهه في سفر بعيد، وسرب الماء يسربُ سرباً ومسرباً فهو سرب: سال، والمعنى منعه المشي، وسم قدحك: علامة سهمك، والقذح السهم قبل أن يُراش ويركّب نصله. وأزويتنا من نضحك، أي أسقيتنا من بللّك، والنضح: الرشّ الخفيف: قَيْضُك ومُحْك، أي ظاهرك وباطنك، لأن القَيْض قشرة البيضة العليا وقلبها الأصفر هو المحّ، بحاء غير منقوطة.

الفنجديهي: عن قَيْضِك ومُحْك أي عن نسبك وبلدك. صمّت: سكت. أفحم: غلب وقطع عن الكلام. أعول: بكى. وشوب أبي زيد وزويه، أي تخليطه في جيله، والشوب: الخلط، تقول: شُبّت الماء باللبن، أي خلطتهما والرؤب: اتخاذ الرائب، والشوب: اللبن الممزوج بالماء هنا، والرؤب: الخالص. ويقال: ما عنده شوب ولا رؤب، أي لا مرق ولا لبن، وقيل: الشوب، العسل، والرؤب اللبن: وفلان يشوب ويشوب، أي يخلط ويصفّي، وأصله يريب، قلبت «يروب» طلباً للزادواج، يضرب مثلاً لمن يخلط في القول والعمل والشوب والرؤب جميعاً: الخلط، وراب الرجل روباً: اختلط عقله ورأيه. أسلوبه: طريقه. المألوف: الملتزم. صوبه: قصده وجانبه وصوابه. سهومة محياه: تغير وجهه، سهوكة رياه: نتن رائحته من النحر وغيره. وقوله: فإذا هو إياه: استعمل إياه، وهو ضمير ومنصوب في موضع الرفع، وهو غير جائز عند سيبويه، وجوّزه الكسائي في مسألة مشهورة جرت بينهما.

[مسألة نحوه]

قال الفنجديهي: سألت شيخنا العلامة إمام النحاة جمال العلماء، أبا محمد عبد الوهاب بن برّي بن عبد الجبار المقدسي عن شرحها، فقال أيده الله: سألت شرح الله صدرك، وأعلى في منازل الشرف قدرك، عن المسألة التي جرت بين سيبويه والكسائي، وهي قوله: «كنت أظن أن العقب أشدّ لسعة من الزنبور فإذا هو «إياها»». وسألت عن وجه النصب في «إياها» عند من أجاز ذلك، فاعلم أن مذهب النحويين البصريين في مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر، فيقال: فإذا هو هي، على حدّ ما في الكتاب العزيز: ﴿فَإِذَا هِيَ بِبَيْضَاءٍ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨]. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مَبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]. فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانية، وسأفرق بينهما، وتقديرها في نحو: خرجت فإذا زيد قائم: خرجت فبالحضرة زيد قائم، والعامل في إذا، قائم، وإن شئت نصبت قائماً على الحال، وجعلت الخبر في إذا، كما تقول: خرجت

فإذا زيدَ قائمٌ فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال، ومذهب الكوفيين في الحال أن تكون نكرةٌ ومعرفة، ومن هنا منع سيبويه من إيّاها في المسألة، لأن المضمّر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه، والحال تكون نكرة مشتقة، والكوفيون يجيزون والنصب على معنى: خرجت فإذا زيد قائماً. والأقرب عندي أن يريدوا فإذا هو موجود إيّاها، فحذف الخبر وهو موجود لدلالة الكلام عليه، ومثل هذا عندهم: لئن ضربته ليضربته السيّد الشريف، فينصبون السيّد بإضمار، فإذا حملته على هذا تخرّج.

وحكي عن أبي زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب، بنصب «إيّاها»، فإذا صح أنه سمعها فهذا وجه، ويجوز في قياس قولهم: أن يكون على إسقاط الكاف، وهم يروون في الخبر: «ذكاة الجنين ذكاة أمه»^(١)، بنصب «ذكاة» يقدرون كذكاة أمه، فتقديرها فإذا هو كها، أي فإذا الزنبور كالعقرب، وهم يجيزون إدخال الكاف على الضمير، وسيبويه يمنعه إلا في الشعر كقول العجاج: [الرجز]

وأم أوعالٍ كها أو أقرباً^(٢)

وقال رؤبة: [الرجز]

فلا أرى بعلأ ولا حلائلا كهُو ولا كهُن إلا حاضلاً^(٣)

وأجاز بعضُ النحويين أن يكون «إيّاها» كنايةً عن الجملة، التقدير: فإذا هو لسعته كلسعتها، فكنى عن الجملة بقوله: «إيّاها» وينصب على الحال، لأنها كناية عن الجملة، وهي نكرة فتصير في حكم النكرة، كما صارت الهاء في: ربّه رجلاً نكرة في المعنى، لكونها كناية عن نكرة، ولذا دخلت «رُب» عليها، وهي لا تدخل إلا على نكرة، فهذا ما

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ١٧، والترمذي في الصيد باب ٧، وابن ماجه في الذبائح باب ١٥، والدارمي في الأضاحي باب ١٧، وأحمد في المسند ٣/٣١، ٣٩، ٤٥، ٥٣.

(٢) قبله:

خلى الذنابات شمالاً كئباً

والرجز للعجاج في ملحق ديوانه ٢/٢٦٩، وأوضح المسالك ٣/١٦، وتاج العروس (وعل)، وجمهرة اللغة ص ٦١، وخزانة الأدب ١٠، ١٩٥، ١٩٦، وشرح أبيات سيبويه ٢/٩٥، وشرح شواهد الشافية ص ٣٤٥، والكتاب ٢/٣٨٤، ومعجم ما استعجم ص ٢١٢، والمقاصد النحوية ٣/٢٥٣، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٢/٢٨٦، وشرح ابن عقيل ص ٣٥٦، وشرح المفصل ٨/١٦، ٤٢، ٤٤.

(٣) الرجز لرؤبة في ديوانه ص ١٢٨، وخزانة الأدب ١٠/١٩٥، ١٩٦، والدرر ٥/٢٦٨، ٤/١٥٢، وشرح أبيات سيبويه ٢/١٦٣، وشرح التصريح ٢/٤، والمقاصد النحوية ٣/٢٥٦، وللعجاج في الكتاب ٢/٣٨٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٣/١٨، وجواهر الأدب ص ١٢٤، ووصف المباني ص ٢٠٤، وشرح الأشموني ٢/٢٨٦، وشرح ابن عقيل ص ٣٥٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٢٦٩، وجمع الهوامع ٢/٣٠.

يقتضيه وجه النصب في «إياها» على ما ذكره الكوفيون، والفرق بين إذا الزمانية والمكانية من أَوْجِه:

أحدها أن الزمانية تقتضي الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشرط، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده.

والثاني: أن الزمانية تقتضي جواباً والمكانية لا تقتضيه.

والثالث: أن الزمانية مضافة إلى الجملة التي بعدها، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها، بدليل خرجت فإذا زيد فزيد مبتدأ وإذا خبره.

والرابع: أن الزمانية تكون في صدر الكلام، نحو إذا جاء زيد فأكرمه، والمكانية لا يبتدأ بها إلا أن تكون جواباً للشرط، كالفاء في قوله: ﴿وإن تُصِبنهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ [الروم: ٣٦].

والخامس: أن الزمانية تقتضي الاستقبال والمكانية تقتضي معنى الحضور، لأنها للمفاجأة والمفاجأة للحاضر دون المستقبل.

انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار.

فكتمت سرّه كما يُكتم الداء الدخيل، وسترته مكره وإن لم يكن يُخيل؛ حتّى إذا نزع عن إعواله، وقد عرف عُثوري على حاله، رمقني بعين مضحك، ثم طفق يُنشد بلسان مُتباكٍ. [الرجز]

أستغفرُ الله وأعوذُ له	من فَرَطَاتٍ أثقلت ظهريّة
يا قوم كم من عاتقٍ عانسٍ	ممدوحة الأوصاف في الأنديّة
قتلتها لا أتقي وارثاً	يطلبُ منّي قوداً أو دية
وكلّ ما استذنبت في قتلها	أحلت بالذنب على الأقضيّة
ولم تزل نفسي في غيها	وقتلها الأبكار مُستشريّة

وقوله: الداء الدخيل، وهو الذي لا يتكلم به استقباحاً أو لمحله، يُخيل: يشبه ويشكل، وخال يُخيل: اشتبّه. نزع: كفّ، إعواله: بكائه. عُثوري: اطلاعي. رمقني: نظر إليّ. بعين مضحك، أي كثير الضحك. مُتباكٍ: مستعمل للبكاء بتكلف، أعنو: أذلّ، فرطات: سقطات وزلات. عاتق: شابة قد أدركت ولم يئن بها زوجها، بل هي بكر، ويريد بها الخمر التي لم يفضّ أحد خاتمها، وعانس: طالت إقامتها في بيت أبيها، الأنديّة: المجالس. القود: قتل النفس بالنفس. استذنبت: نُسبت إلى الذنب: الأقضية: جمع قضاء، أي كلما قيل لي: فعلت هذا الذنب؟ قلت: إنما هو قضاء الله وقدره، وأخذ هذا المعنى من قول الحسين بن الضحاك: [الوافر]

واتركي العَذْلَ على مَنْ قَالَهُ وانسبي جَوْرِي إلى حَكَمِ القَضَا
ولهذا البيت حكاية أدبية، قال الحسين؛ كانت لي نوبة في دار الواثق، فبينما أنا نائم ذات ليلة، إذ جائي خادم من خدام الحرم، فقال لي: إن أمير المؤمنين يدعوك، فقلت له: وما الخبر؟ قال: إنه كان نائماً إلى جنب حظيته فقام وهو يظنها قائمة، فآلمُ بجارية أخرى، وعاد إلى فراشه، فغضبت حظيته وتركته حتى نام، ثم قامت، ودخلت حجرتها فانتبه وهو يظنها عنده، فطلبها فلم يجدها، فقال: مَنْ اختلس كريمتي، ويحكم أين هي! فأخبرناه أنها قامت غَضِبَى ومضت إلى حجرتها. فدعا بك، قال: فمضيت مع الرسول ورويت أبياتاً في طريقي، فلما جئته خبرني القصة، وقال لي: قل في هذا شيئاً، ففكرت هنيئها كَأَنِّي أقول شعراً، ثم أنشدته الأبيات: [الرمل].

عَظِيتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى غَضِبَةً فلها العُتْبَى علينا والرُّضَا
يا فدْتُكَ النفس كانت هفوةً فاغفريها واصفحي عَمَّا مَضَى
واتركي العَذْلَ على مَنْ قَالَهُ وانسبي جَوْرِي إلى حَكَمِ القَضَا
فلقد نبّهتني من رقدي وعلى قلبي كنيران الغضى

فقال: أحسنت بحياتي، أعدها عليّ يا حسين، فأعدتها عليه حتى حفظها، وأمر لي بخمسمائة درهم، فقام ومضى إلى الجارية فأنشدها الأبيات فتراضيا، فكان بعدُ إذا رأيته تبسّم لموقع الأبيات ونجحها عند الجارية، والإحالة على القضاء بالذنب هو مذهب الجبرية فمن فعل منهم ذنباً قال: لا ذنب لي، إنما قُدِّرَ عليّ ومذهب القدرية خلافة: قال الشاعر في رده: [الطويل]

إذا أذنبوا قالوا مقاديرٌ قُدِّرَتْ وما العار إلا ما تجرُّ المقاديرُ
وقوله: غيها، أي فسادها. مستشيرة: لاحية مصممة. واستشرى الشيء: انتشر، واستشرى في أمره: لج فيه.

[وَأد البنات]

والقتل الذي ذكره للبنات هو الوأد الذي كانت تفعله الجاهلية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩].
والمَوْؤُودَةُ: التي تُذْفَن حية، فتنقل بالتراب، والوَأَد: القتل.

وورد قيس بن عاصم المِنقرِي على رسول الله ﷺ، فقال له: بعض الأنصار عن وأده البنات، فقال قيس: ما ولدت لي بنتٌ إلا وأدتها، وما رحمتُ منهنَّ إلا واحدة ولدتها أمها، وأنا في سَفَرٍ، فدفعتها إلى أخوالها، وقدمت فسألت عن الحمل، فأخبرت أنها ولدت ميتاً. ومضت سنون، حتى ترعرعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتهَا قد ضَفَرَتْ شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من الخُلُق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها

قلادة، وجعلت في عنقها مخنقة، فقلت: مَنْ هذه الصبية فقد أعجبني حُسْنُها؟ فبكثْ ثم قالت: هذه ابنتك، كنت خبّرتك أنّي ولدت ميتاً، وهذه التي ولدت، فجعلتها عند خالها، وبلغت لهذا المبلغ. فأمسكتُ عنها حتى اشتغلت أمها، ثم أخرجتها يوماً، فحفرتُ حفرة فجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبتْ أتعطيني بالتراب! حتى واريئُها وانقطع صوتها، فما رحمت واحدة منهمْ ممن وأدتْ غيرها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّ مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»^(١).

وذكرَ أن قيساً وأد بيده بضع عشرة ابنة، وكان السبب في وأد البنات أن المشرمج اليشكريّ أغار على قوم قيس، فسبا نساء فيهنّ ابنته وابنة أخيه، فدخل قيس إليهم فسألهم أن يهبوهما له، فوجد المشرمج قد اصطفاهما لنفسه، فسأله إياهما، فقال: قد جعلت أمرهما إليهما، فإن اختارتاك فخذهما، فاختارتا المشرمج، فانصرف فوآد كل ابنة له خوفاً من الفضيحة، فاقتدت به العرب في ذلك.

قال الهيثم: إن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، كان يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وقد قلّ إلا في تميم.

وقيل: كان الوأد في تميم وقيس وبكر وهوازن وأسد، لقول رسول الله ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(٢)، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم، ولهذا جاء تحريم الدم، وهذا خبر بين أن الوأد كان للحاجة لا للأنف، وبه نزل القرآن، قال الله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ» [الإسراء: ٣١]، وقال: «وَلَا يَقْتُلْ أَوْلَادَهُمْ» [الممتحنة: ١٢].

ومن ذكرَ أنه كان أنفةً وأنه كان في تميم، ومن جاورهم فيحتج بحديث أبي عبيدة، أن تميمًا منعت النعمان الإتاوة، فوجه إليهم أخاه الريان، وجُل من معه من بكر بن وائل، فاستاق النعم وسبى الذّراري. وفي ذلك يقول المشرمج اليشكريّ: [البيسط]

لَمَّا رَأَوْا رَايَةَ النِّعْمَانِ مَقْبِلَةً قَالُوا أَلَا لَيْتَ أَدْنَى دَارِنَا عَدَنُ
يَا لَيْتَ أُمُّ تَمِيمٍ لَمْ تَكُنْ عَرَفْتُ مُرّاً وَكَانَتْ كَمَنْ أَوْدَى بِهِ الزَّمَنُ
وقال النعمان في جوابه: [البيسط]

لله بكرٌ غداةَ الرَّوْعِ لو بِهِمْ يُزْمَى ذُرّاً حَضَنَ زَالَتْ بِهِمْ حَضَنُ

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٨، ٢٧، ومسلم في الفضائل حديث ٦٥، وأبو داود في الأدب باب ١٤٥، والترمذي في البر باب ١٢، وأحمد في المسند ٢/٢٢٨، ٢٤١، ٢٦٩، ٥١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٢٨، والاستقاء باب ٢، والجهاد باب ٩٨، والأنبياء باب ١٩ وتفسير سورة ٣ باب ٩، وسورة ٤ باب ٢١، والأدب باب ١١٠، والإكراه في المقدمة، ومسلم في المساجد حديث ٢٩٤، ٢٩٥، وأبو داود في الصلاة باب ٢١٦، والوتر باب ١٠، والنسائي في التطبيق باب ٢٧، وابن ماجه في الإقامة باب ١٤٥، وأحمد في المسند ٢/٢٣٩، ٢٥٥، ٢٧١، ٤١٨، ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١.

إذا لا أرى أحداً في الناس يُشبههم إلا فوارس خامت عنهم اليمى
فوفدت إليه تميم، فأناب إليهم، وأحب البقيا، وقال: [البسيط]

ما كان ضرّ تميماً لو تغمّدها من فضلنا ما عليه قيس عيلان

فسأله النساء، فقال: كل امرأة اختارت أباهاً ردت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عنده فكلهن اخترن آباءهن إلا ابنة قيس بن عاصم، اختارت صاحبها عمرو بن المشرج، فنذر قيس: ألا تولد له ابنة إلا قتلها. فهذا شيء يعتل به من وأد البنات، ويقول: فعلناه أنفة، وقد كذب بما أنزل الله تعالى في القرآن المجيد. وأين فعل قيس في الوأد وقساوة قلبه من فعل صعصعة بن ناجية بن عقال جد الفرزدق! فإنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني كنت أعمل عملاً في الجاهلية لنفسي، أينفعني ذلك اليوم؟ قال: وما عملك؟ قال: أضللت ناقتين عسراوين، فركبت حملاً ومضيت في بغائهما: فرفع لي بيت فقصدته، فإذا شيخ جالس بفناء الدار، فسألته عنهما، فقال: هما عندي، وقد أحيا الله تعالى بهما قوماً من أهلك مضر، فجلست عنده ليخرجنا إلي، فإذا عجوز قد خرجت من كسر البيت، فقال لها: ما وضعت؟ فإن كان ذكراً شاركناه في أموالنا، وإن كان أنثى وأدناها! فقالت: وضعت أنثى، فقلت: أتبيعنيها؟ فقال: وهل تبيع العرب أولادها! قال: فقلت: إنما اشتري حياتها لا رقها، فقال: بكم؟ فقلت: احتكم، قال: الناقتين والجمال، قلت: ذلك لك، على أن يبلغني وإياها الجمال، ففعل فأمنت بك يا رسول الله، وقد صارت لي ستة في العرب، اشتري كل مؤودة بناقتين وجمال، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائة مؤودة، قد أنقذتها، فقال رسول الله ﷺ: «لا ينفعك ذلك، لأنك، لم تبغ وجه الله، وإن تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه».

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جده على جرير: [المتقارب]

ألم تر أنا بنو دارم	زُرارة مئاً أبو مغبّد
ومئاً الذي منع الوائدات	وأحيا الوئيد فلم تؤد ^(١)
أطلب مجد بني دارم	عطية كالجعل الأسود
قرئبي يحك قفا مقرف	لئيم مائره قغد
ومجد بني دارم دونه	مكان السماكين والفرقد

وعطية هو أبو جرير، ويأتي في الأربعين.

وجاء في الحديث الترغيب في إكرام البنات، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ابْتُلِيَ بشيء من هذه البنات، فأحسن إليهن كن له ستراً من النار»^(٢). وفي طريق آخر «مَنْ كان له ثلاث بنات،

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ١٧٣/١، والبيت الأول في الكتاب ٢/٢٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ١٠، ومسلم في البر حديث ١٤٧، والترمذي في البر باب ١٣.

وثلاث أخوات أو بتان، أو اختان، فأحسن صحبتهن والله اتقى فيهن، فله الجنة^(١).

ولبعضهم تهنئة بمولودة: اتصل بي خبر المولودة، كرم الله غرثها، وأنبتها نباتاً حسناً؛ وقد علمتُ أنهن أقرب إلى القلوب، وإن الله عز وجل قد بدأ بهن في الترتيب، فقال سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وما سَمَاهُ الله تعالى هبةً فهو بالشكر أولى، وبحسنِ التقبُّلِ أحرى.

وقال بعض الشعراء: [المقارب]

أَحَبُّ البَنَاتِ وَحُبُّ البَنَاتِ تِ قَزَضٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ كَرِيمَةٍ
فَإِنْ شَعِيباً مِنْ أَجْلِ ابْنَتَيْهِ ه أَخْدَمَهُ اللهُ مُوسَى كَلِيمَهُ
وفي الحديث: «دَفَنُ البَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ».

عزى رجلٌ يحيى بن خالد في حُرْمة له، فقال: أيها الوزير دَفَنُ الْحَرَمِ مِنَ النَّعَمِ، ثم قال: [الوافر]

تَمَزَّ إِذَا رُزِئَتْ فَخَيْرُ دَرَعٍ يَسْرِبِلُ لِلْمَصَائِبِ دِنْغُ صَبِيرٍ
فَلَمْ أَرْ نِعْمَةً شَمِلَتْ كَرِيماً كَعُورَةَ مُسْلِمٍ سُبِّرَتْ بِقَبْرِ
وقال عمر بن أبي علقمة المري: [الرجز]

إِنِّي وَإِنْ سِيقَ إِلَى الْمَهْرِ أَلْفٌ وَعَبْدَانُ وَذَوْدُ عَشْرِ
أَحَبُّ أَصْهَارِي إِلَيَّ الْقَبْرِ

وقال إسحاق بن خلف: [البسيط]

لَوْ لَا أَمِيمَةٌ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدَمِ وَلَمْ أَجُبْ فِي اللَّيَالِي جِنْدَسَ الظُّلَمِ
تَهَوَّى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحَرَمِ
وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: [الطويل]

لِكُلِّ أَبِي بِنْتٍ يَرَاعِي شُؤْنَهَا ثَلَاثَةُ أَصْهَارٍ إِذَا ذُكِرَ الصُّهْرُ
فَبَيْتٌ يَغْطِيهَا وَبَعْلٌ يَصُونُهَا وَقَبْرٌ يُوَارِيهَا وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرِ
وقال آخر: [الكامل]

لَا تَيَاسُنْ مِنْهَا فَقَدْ زَوَّجَتْهَا كَفُّوا وَضَمِنْتَ الصَّدَاقَ مَلِيكَاً

[الرجز]

(١) أخرجه الترمذي في البر باب ١٣، وأبو داود في الأدب باب ١٢١، وابن ماجه في الأدب باب ٣، وأحمد في المسند ٤٢/٣، ١٥٤/٤.

حَتَّى نَهَانِي الشَّيْبُ لَمَّا بَدَا
فَلَمْ أَرْقُ مَذْ شَابَ قَوْدِي دَمًا
وَهَا أَنْذَا الْآنَ عَلَى مَا يُرَى
أَرْبُ بِكَرًا طَالَ تَغْنِيْسُهَا
وَهِيَ عَلَى التَّغْنِيْسِ مَخْطُوبَةٌ
وَلَيْسَ يَكْفِينِي لِتَجْهِيْزِهَا
وَالْيَدُ لَا تُوكِي عَلَى دِرْهَمٍ
فَهَلْ مَعِيْنٌ لِي عَلَى نَقْلِهَا
فِيغْسِلَ، الهمَّ بِصَابُونِهِ
وَيَقْتَنِي مِنِّي الثَّنَاءُ الَّذِي
فِي مَفْرَقِي عَنْ تِلْكَ الْمَغْصِيَةِ
مِنْ عَاتِقِ يَوْمًا وَلَا مُضْبِيَةِ
مَنِّي وَمِنْ حِرْفَتِي الْمُكْدِيَةِ
وَحَجْبُهَا حَتَّى عَنِ الْأَهْوِيَةِ
كَخِطْبَةِ الْغَانِيَةِ الْمُغْنِيَةِ
عَلَى الرُّضَا بِالْدُونِ إِلَّا مِيَةَ
وَالْأَرْضُ قَفْرٌ وَالسَّمَاءُ مُضْجِيَّةٌ
مَصْحُوبَةٌ بِالْقَيْنَةِ الْمُلْهِيَةِ
وَالْقَلْبُ مِنْ أَفْكَارِهِ الْمَضْنِيَةِ
تَضُّوعُ رِيَاءٍ مَعَ الْأَدْعِيَةِ

* * *

قوله: قَوْدِي، أي ناحية رأسي. مُصْبِيَةِ: لها صَبُوءة. أو يصبو إليها مَنْ رآها، وجعل الخمر مُصْبِيَةً، لأنها تغلب شرابها فتصيرهم سكارى، عقولهم عقول الصبيان، فهي تلعب بهم كما تلعب الأم بصبيانها، حِرْفَتِي: صنعتي المكديّة: الصعبة، وأكدى الحافر: بلغ كدية، فرفع عن الحفر آيساً من الماء ثم استعير لغير ذلك أَرْبُ؛ أصلح، تَغْنِيْسُهَا: إقامتها بغير زوج.

قال عمر رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ: «مكتوب في التوراة: مَنْ بلغت ابنته اثنتي عشرة سنة، فلم يزوجها فأصابته إثمًا فإثم ذلك عليه»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بلغ له ولد النكاح وعنده ما ينكحه به فلم ينكحه، فأصاب إثمًا فالإثم بينهما»^(٢)، ويعني بها خمرًا قديمة حجبها عن الأهوية، لثلا يُفْسِدُهَا الهواء.

قوله: مَخْطُوبَةٌ: مطلوبة. الْغَانِيَةِ: البارة الجمال التي غَنِيَتْ بحسنها عن الزينة، قال الرُّسْتَمِي: أصلها في ذات الزوج التي استغنت بزوجها، ثم قيل في غير ذات الزوج. قال عمارة: هي الشابة التي تعجب الرجال ويعجبونها، الْمُغْنِيَةِ: التي نشأت في الغنى، وأغنى بمعنى استغنى، والمغنية أيضاً: التي تغني زوجها عن غيرها لكمال خصالها. توكاً: تُشَدُّ وتربط، والوكاء: الخيط يشد به فم الوعاء.

ورواد عبدٌ في الجاهلية ابنة سيده عن نفسها، فأمكنته حتى بلغ أربه منها، ثم

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ٢٠.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في النكاح باب ٩.

عمدت إليه فجبته، فقال لها أبوها في ذلك، فقالت: من ورد غير مائه، صدر بمثل حاله، إن العبد لمن نوكه قد ابتدل إناء لم يوكه، فقال أبوها: يا بني لا شللاً ولا عمى.
وميته: مخدوفة اللام، ولا يدري أواو لامها أم ياء، قوله صاحب العين وقال ابن الأعرابي: أمأيت القوم، وأمأيتهم: صاروا بي مائة، ففي مأيت دليل قاطع على أن اللام ياء.

وقال الفراء رحمه الله تعالى وكُراع: أصلها مئة، وأنشد: [البسيط]

فقلتُ والركب قد تُخطيه منيته أدنى عطيات آبائي مئيات^(١)

قوله: قَرَّ: غير عامرة. مُصحية: زال أصحابها، ضربه مثلاً للخلو من المال، فلا في أرضه خصب فتعمر من أجله، ولا في سمائه سحب فيرجى خيرها، وقد تقدّم لغيمي مطر.

القينة الملهية: الجارية المغنية. وهي في كلام العرب الأمة، مغنية كانت أو غير مغنية قال زهير: [البسيط]

ردّ القيان جمالَ القوم فاحتملوا^(٢)

واشتاقها من قُنت الشيء أقيته قيناً؛ إذا لمته، قال الشاعر: [الطويل]

ولي كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها صدوع الهوى لو أن قيناً يَقِينُها^(٣)
ولهذا سَمِيَ الصَّوَاغُ والحداد قيناً، والماشطة قينة.

قوله: فيغسل الهم بصابونه: يعني فينفي همي بالخمير لأنها تنفي الهم والحزن والغم كما يغسل الصابون وسخ الثوب، المضنية: الممرضة. يقتني: يكتسب، تضوَع

(١) يروى البيت:

فقلت والمرء تخطيه منيته أدنى عطيته إني ميات

وهو لتميم بن مقبل في المقاصد النحوية ٣٧٦/٢، وليس في ديوانه، وله أو لأبي شبل الأعرابي في الدرر ٢٣٧/٢، وبلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٥٠٨، والدرر ٣٢٥/٦، ولسان العرب (ضريح)، وجمع الهوامع ٢٣٩/٢.

(٢) عجزه:

إلى الظهيرة أمر بينهم ليك

والبيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٦٤، ولسان العرب (ردد)، (لأك)، (لبك)، (قين)، وتهذيب اللغة ٩/٣٢٠، ٣٢١، ١٠/٢٦٢، ١٤/٦٥، وجمهرة اللغة ص ٣٧٧، وكتاب العين ٥/٣٧٧، وكتاب الجيم ٣/٢١٣، وتاج العروس (لبك)، (قين)، وبلا نسبة في المخصص ١٢/٣٢٥.

(٣) البيت لرجل من الحجاز في تاج العروس (قين)، ولسان العرب (قين)، وبلا نسبة في مجمل اللغة ٤/١٣٥، ومقاييس اللغة ٥/٤٥، وديوان الأدب ٣/٤١١.

رِيَاه: تتحرك رائحته، يريد أنه يكتسب منه السامع الدعاء، فيثني عليه ثناء حسناً في الدنيا ويدعو له بالآخرة، ويقال: ضاع المسك يَضُوع، أي انتشرت رائحته، وقول الشاعر: [الطويل]

وما هو إلا المسك عند ذوي الحجى يَضُوع وعند الجاهلين يضيّع
قال الراوي: فلم يَبْقَ في الجماعة إلا مَنْ نَدِثَ له كَفُّهُ، وانباعَ إليه عُرْفُهُ،
فَلَمَّا نَجَحَتْ بَغِيَّتُهُ، وَكَمَلَتْ مِثْنُهُ، أَخَذَ يُثْنِي عَلَيْهِمْ بِصَالِحٍ، وَيُشْمَرُ عَنْ سَاقِ
سَارِحٍ؛ فَتَبَعَتْهُ لِأَسْتَعْرِفَ رَيْبَةَ خِذْرِهِ، وَمَنْ قَتَلَ فِي حَدَثَانِ أَمْرِهِ، فَكَأَنَّ وَشَكَ
قِيَامِي، مَثَلٌ لَهُ مَرَامِي، فَازْدَلَفَ مِنِّي، وَقَالَ: أَفَقَّهُ عَنِّي: [الخفيف]

قَتَلَ مِثْلِي يَا صَاحِ مَزْجِ الْمُدَامِ لَيْسَ قَتْلِي بِلَهْزَمٍ أَوْ حُسَامِ
وَالَّتِي عُنُسَتْ هِيَ الْبَكْرُ بِنْتُ الْكَزْ مِ لَا الْبَكْرُ بِنْتُ الْكَرَامِ
وَلتَجْهِيْزَهَا إِلَى الْكَأْسِ وَالطَّاءِ سِ قِيَامِي الَّذِي تَرَى وَمُقَامِي
فَتَفْهَمُ مَا قُلْتَهُ وَتَحْكُمُ فِي الثَّغَاضِي إِنْ شِئْتَ أَوْ فِي الْمَلَامِ
ثم قال: أَنَا عَزِيدٌ، وَأَنْتَ رَعْدِيدٌ، وَبَيْنَنَا بَوْنٌ بَعِيدٌ، ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْطَلَقَ، وَزَوَّدَنِي
نَظْرَةً مِنْ ذِي عَلَقٍ.

نَدِيت: كرمت. انباع: سال، عُرْفُهُ: معروفة. نجحت: انقضت وتمت، بغيته: طَلِبَتُهُ، طَفِقَ: أَخَذَ وَجَعَلَ، سَارِح: ذَاهِبٌ، يريد أنه شَمَرٌ لِلْيَسْرِ، وَأَضَافَ سَاقًا لِسَارِحٍ، وهو يريد: عَنْ سَاقِ رَجُلٍ سَارِحٍ، أي ذَاهِبٍ. رَيْبَةُ خِذْرِهِ، أي الَّتِي رَبَاهَا فِي بَيْتِهِ، وَرَيْبَةُ الرَّجُلِ بِنْتُ أَمْرَاتِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَقِيلَ لَهَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرْبِيهَا فَهِيَ «فَعِيلَةٌ» بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ، فَأَصْلُهَا مَرْبُوبَةٌ، وَيُقَالُ: رَبٌّ فُلَانٌ فُلَانًا وَرَبَّاهُ وَرَبَّيْهُ وَتَرْبِيْهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، حَدَثَانٍ: أَوَّلُ وَشَكَ: سُرْعَةٍ، مَرَامِي: مُرَادِي وَمُطْلَبِي. اَزْدَلَفَ: قَرُبَ، وَيُقَالُ: قَلْتَ الْخُمَرَ، إِذَا مَزَجْتَهَا وَقَدْ فَسَرَهُ بِقَوْلِهِ: مَزْجِ الْمُدَامِ.

[مما قيل في الخمرة]

قال الأخطل: [الطويل]

فقلت اقتلواها عنكم بِمَزَاجِهَا وَأُخْبِبُ بِهَا مَقْتُولَةً حِينَ تُقْتَلُ^(١)

(١) البيت في ديوان الأخطل ص ٢٦٣، وإصلاح المنطق ص ٣٥، والدرر ٢٢٩/٥، ولسان العرب (قتل)، (كفى)، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ١٠٨، وشرح ابن عقيل ص ٤٦١، وجمع الهوامع ٨٩/٢.

وكان الأخطل خليعاً، فأثنى هنا على الممزوجة، وقال في التي لم تمزج: [الوافر]
 وكأس مثل عين الديك صرف تُنسي الشاربين لها العُقُولَا
 إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يَطُولَا
 مشى قرشيّة لا شك فيها وأرعى من مآزره الفُضُولَا

وأصبح عبد الملك يوماً في غداة باردة، فأنشد هذه الأبيات، ثم قال: كأن الأخطل
 الآن في حانوت خمار محلّل الإزار، مستقبل الشمس، ثم بعث من يطلبه بدمشق، فوجده
 كما وصف.

وقال له يوماً: ألا تُسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف درهم؟ قال:
 فكيف بالخمير؟ قال له عبد الملك: وما تصنع بها، وإن أولها مرّ وآخرها سُكر! قال
 الأخطل: وفيما بين هاتين منزلة ما يسرني لك بها.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه وقد أعطي كأس خمر ممزوجة: [الكامل]
 إنَّ التي ناولتني فرددتُها قُتِلَتْ - قُتِلَتْ - فهاثما لم تُقتل^(١)
 كلتاها حَلَبَ العصير فعاطِني بزُجاجة أرخاهما لِلْمَفْصَلِ
 فدعا بالقتل على الذي أعطاهما له ممزوجة.

وذكر الحريري في الدرة البيتين، وقال في قوله: «أرخاهما» القياس: أشدهما
 إرخاء للمفصل، لأن أصل هذا الفعل أرخى، فبناؤه ليس مقيساً كما قالوا: ما أحوجه إلى
 كذا فبنوا من حوج، إن كان قياسه: ما أشد حاجته.

ولهذين البيتين حكاية يحسن أن نعقبهما بروايتها، ونضوع نشرهما بنشر مُلجها،
 وهي ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبيه، قال: حدثنا الحسن بن عبد
 الرحمن الربيعي قال: حدثنا أحمد بن عبد الملك بن السماك السعدي قال: حَدَّثَنَا أحمد
 بن ظبيان الحائز، قال: اجتمع قوم على شراب لهم، فغناهم مغنيهم بشعر حسان: «إن
 التي» البيتين، فقال بعضهم: امرأتي طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضي
 عن علة هذا الشعر، لم قال: «إن التي»، فوحد، ثم قال: كلتاها، فثنى؟ فأشفقوا على
 صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه، ومضوا يتخطون القبائل، حتى انتهوا إلى بني شقرة وعبيد
 الله بن الحسن يصلي، فلما فرغ من صلاته قالوا: قد جئناك في أمرٍ قد دعئنا إليه ضرورة،
 وشرحوا له خبرهم، وسألوه الجواب، فقال: [الكامل]

* إنَّ التي ناولتني فرددتُها *

(١) البيتان في ديوان حسان بن ثابت ص ١٢٤، ولسان العرب (قتل)، وأساس البلاغة (قتل)، وتاج
 العروس (قتل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٠٧، ومقاييس اللغة ٧٥/٥، والمخصص ٨٨/١١.

عَنى بها الممزوجة بالماء، ثم قال: من بعد: كلتاها حَلَب العصير، يريد الخمر المحتلبة من العنب، والماء المتحلب من السحاب، المكتى عنها بالمعصرات في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبا: ١٤]، قال الشيخ الإمام الأجل الأوحد العالم أبو محمد أدام الله سعادته: فهذا ما فسره به عبيد الله بن الحسن.

وقد بقي في الشعر ما يحتاج إلى كشف سرّه، وتبيان نُكته، أما قوله: [الكامل]
إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلتي...

فإنه خاطب به السّاقى الذي كان ناوله كأساً ممزوجة، لأنه يقال: قتلْتُ الخمر إذا مزجتها، فكأنه أراد أن يعلمه أنه قد فطن لما قد فعله ثم ما اقتنع منه بذلك حتى دعا عليه بالقتل في مقابلة المزج، وقد أحسن كلّ الإحسان في تجنب اللفظ ثم إنه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل - يعني الصّرف - التي لم تمزج.

وقوله: أرخاهما للمفصل، يعني اللسان، وسُمّي مفصلاً بكسر الميم، لأنه به يفصل بين الحق والباطل، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماع وخفض الجناح، ما يقذف في نزاهته أو يغض من نُبله وبراعته.

ويضارع هذه الحكاية في وطأة القضاة المتقشفين للمستفتين وتلايئهم في مواطن اللين، ما يحكى أن حامد بن العباس، سأل عليّ بن عيسى في ديوان الوزارة عن داء الخمار، وعن دوائه، فأعرض عن كلامه، وقال: ما أنا وهذا المسألة! فحجل حامد منه، ثم التفت إلى قاضي القضاة أبي عمرو، فسأله عن ذلك فتحنّح القاضي لإصلاح صوته، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال النبي ﷺ: «استعينوا على الصناعات بأهلها»^(١)، والأعشى هو المشهور في الجاهلية بهذه الصناعة، قال: [المقارب]

وكأسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَوَيْتُ مِنْهَا بِهَا^(٢)
لكي يَعْلَمَ النَّاسُ أَنِّي أَمْرُؤُ أَتَيْتُ الْمَرْوَةَ مِنْ بَابِهَا

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام، فقال: [البيسط]

دَغْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءٌ وَدَاوَنِي بِأَلَّتِي كَأَثُ هِيَ الدَّاءُ^(٣)

(١) أخرجه بمعناه البخاري في الصلاة باب ٦٤.

(٢) البيتان في ديوان الأعشى ص ١٧٣، ويروى البيت الأول:

وكأسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ دِهَاقٍ تَرْتُجِحُ مِنْ ذَاقِهَا

وهو بلا نسبة في أساس البلاغة (رنج)، وتاج العروس (رنج).

(٣) البيت في ديوان أبي نواس ٢١/١، وخزانة الأدب ٤٣٤/١١، والدرر اللوامع ١٤٢/٤، ومغني

الليب ص ١٥٠، وجمع الهوامع ٢٩/٢، وبلا نسبة في لسان العرب (شفع).

فأسفرَ حينئذ وجه حامد، وقال لعلِّي بن عيسى: ما ضربك يا بارد أن تجيبَ ببعض ما أجابَ به قاضي القضاة، وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه أولاً، ثم يقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً، وبين الفتيا وأذى المعنى، وتفصى من العهدة، فكان خجل عليّ بن عيسى من حامد بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه، لِمَا ابتدأه بالمسألة وتبع حسان مسلّم بن الوليد، فقال وأحسن: [الطويل]

إذا شئتُما أن تسقياني مُدامةً فلا تقتلها كلَّ مَيِّتٍ محزُمٍ^(١)

خَلَطْنَا دَمًا مِنْ كَرَمَةِ بَدْمَائِنَا فأظهرَ في الألوان مِثْلَ الدَّمِ الدُّم

وقال أبو نواس في الصَّرف: [الخفيف]

وَكُمَيْتٍ أَرْقَاهَا وَهَجُ الشَّمْسِ س وصيفٌ يفنى بها وشتاء

لَمْ يَشْنِهَا الطَّاهِي بِطَبَخٍ وَلَا غَيْرِ ها عن طبيعة الكرم ماء

وقال فيه أيضاً [الطويل]

تَوَارَتْ عَنْ الْأَبْصَارِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ حِذَارًا لَكُنِ الْمَاءُ يَوْمًا قَرِينُهَا

فَصْنُهَا عَنِ الْمَاءِ الْقَرَحِ وَأَسْقِنِي فلإنك إن لم تسقني مت ذونها

وعلى أنه القائل: [الطويل]

أَلَا دَارَهَا بِالْمَاءِ حَتَّى تَلِينَهَا فلن تكرم الصَّهْبَاءَ حَتَّى تَهِينَهَا

وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته: إياكم والخمر صرفاً فإنها أحرقت كبدي،

قال ابن رشيق: [الكامل]

قَدَّرُ الْمُدَامَةَ فَوْقَ قَدْرِ الْمَاءِ فَارْعَبْ بِكَأْسِكَ عَنْ سَوَى الْأَكْفَاءِ

مَا لِي وَمَرْجُ الرِّاحِ إِلَّا فِي فَمِي بِالرِّيقِ مِنْ فَمِ غَادَةٍ حَسَنَاءِ

ذَاكَ الْمِزَاجَ وَإِنْ تَعَدَّانِي الَّذِي فِي لُمَزْنٍ مِنْ ذِي رَقَّةٍ وَصَفَاءِ

أَشْهَى وَأَبْلَغُ فِي الْفُؤَادِ مَسَرَّةً مِنْ غَيْرِهِ وَأَدَبُ فِي الْأَعْضَاءِ

لِي الصَّرْفُ إِنْ مَرَجَ التَّدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ مُسْتَأْثَرًا فِيهَا عَنِ التُّدَامِ

وقال أيضاً: [السريع]

قُلْتُ لِمَنْ نَاوَلَنِي مُرَّةً مَا بِي حُبِّ الْغَيْدِ بَلْ حُبُّهَا

لَا تَسْقِي رَا حَكَ مَمْرُوجَةً وَاشْرَبْ فَمَا يُمْكِنُنِي شَرْبُهَا

مَا رَا حَتِي فِي الرِّاحِ إِنْ غُبِرَتْ دَعَاهَا كَمَا جَاءَ بِهَا رُبُّهَا

ونصلُ بهذا الثَّمط، ما قيل في نبيذ الزبيب، قال أبو الأسود الدؤليّ: [الطويل]
 دع الخمر يشربها الغواةُ فإنني رأيتُ أخاها مغنياً بمكانها^(١)
 فإن لا يكتُها أو تكتُها فإنَّه أخوها عَذَّتْهُ أمُّه بلبانها
 يقول: إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب، فإنهما أخوان غديا بلبن واحد
 وهي الحبة التي هي أصل العنب والزبيب؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر، وأنشد
 الحامضي: [الطويل]

تركْتُ الحميًّا لستُ أختار شربها وما حاجتي في أن أسرَّ الأعادي
 ولكنْ أخرى من نبيذٍ معتقُ يَمُنُّك إن أكثرت منه الأماني
 أخو الخمر من عنقودها غير أنهم إذا قطعوها جَفَّفُوهُ لياليا
 وقال المأمون: نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوق بمثلها: [الوافر]
 صلَّى التَّدمان يوم المهرجانِ بكأسٍ من معتقِ الدَّنانِ
 بكأسِ خمرٍ وإنِّي عتيقُ فإنَّ العبد عبْدُ خمرٍ واني
 وجنبتُني الزَّبيبين طرّاً فشأن ذوي الزَّبيبِ خلاف شأني
 فأشربُها وأزعمها حراماً وأرجو عفو ربِّ ذي استنانِ
 ويشربها ويزعمها حلالاً وتلك على الشَّقِيّ خسارتان

سأل رجل شريحاً القاضي: هل النبيذ حلال أم حرام؟ فقال: حلال، قال: قليله
 خيرٌ أم كثيره؟ قال: قليلة، قال الرجل: ما رأيت حلالاً وقليله خير من كثيره إلا هذا.
 وقال قُتيبة بن مسلم لقاضي مَرّو: بلغني أنك شربت النبيذ، قال: نعم أصلحك الله!
 أشربُ منه ما يسلي العقل ويُطيب النفس، ويُغني عن الماء، ويهضم الطعام، قال: فما
 أبقيت؟ قال: أبقيت أخْبَتَهُ وأردأه، الاتكاء على الشمال، ومنادمة الرجال، والاختلاف
 إلى المبال.

وترك رجل النبيذ فقليل له: لِمَ تركته وهو رسول السرور إلى القلب؟ قال: ولكنه
 بئس الرسولُ لم ينعُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس.

(١) البيتان في ديوان أبي الأسود الدؤلي ص ١٦٢، ٣٠٦، والبيت الأول في لسان العرب (كون)، وتاج
 العروس (كون)، وبلا نسبة في المخصص ٢١٩/١٣، والبيت الثاني في أدب الكاتب ص ٤٠٧،
 وإصلاح المنطق ص ٢٩٧، وتخليص الشواهد ص ٩٢، وخزانة الأدب ٣٢٧/٥، ٣٣١، والرد على
 النحاة ص ١٠٠، وشرح المفصل ١٠٧/٣، والكتاب ٤٦/١، ولسان العرب (كون)، (لبن)،
 والمقاصد النحوية ٣١٠/١، وبلا نسبة في الإنصاف ٨٢٣/٢، وشرح الأشموني ٥٣/١، والمقتضب
 ٩٨/٣، والمقرب ٩٦/١.

قوله لهذم: هو سنان الرُّمَح، بنت الكرم: الخمر، وتجهيزها: حملها، والطاس: إناء الخمر كالإبريق يصب منه الشراب في الكأس، وجمعه طاسات، وقال الناشي:

وكانما الطاسات ممّا حوّلها من نورها يسبّخن في صُخْصَاح
لو بُثّ في غسق الظلام ضياؤها طلع المساء بغرّة الإصباح

[مما قيل في الغناء]

وقدّم في المقامة أنه لا يجهزها إلا مصحوبة بالقينة، أي لا يشربها إلا بالغناء، وقد ذموا الغناء ومدحوه، فأما ذمه، فقال الكندي: الغناء يزسام حادّ، لأن المرء يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر، فيغتم فيمرض فيموت.

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يُسقط المروءة، وينقص الحياء، ويبيد العورة، ويزيد في الشهوة، وإنه لينوب عن الخمر، ويصنع بالعقل ما يصنع به السكر وأن كان ولا بد فجنّبوه النساء، فإنّ الغناء داعية الزنا.

وأما مدحه فقال ربيعة بن عبد الرحمن: السماع مطربة، وهو من نتيجة العقل، فمن كره السماع، دلّ بذلك على قلة عقله.

وقال بعض الفلاسفة، وجعلت اللذات خمساً في خمس، فجعل اللبس لليدين والشم للمنخرين، والسمع للأذنين، والذوق للسان، واللون للعينين، وعلى كل جارحة تعب من اللذات إلا التّغمة، فإنه لا تعب على الأذنين فيها، ولذلك صار الناس كلّهم عربيّهم وعجميّهم، صغيرهم وكبيرهم مشتركين في الإصاخة إلى التّغمة الحسنة، والصوت المستمتع، متباينين في غير ذلك، وقد يوجد أكثرها في أكثر الحيوان كالخيل يصفر لها عند الشرب، فتشرب والإبل يحدّى لها فتقاد، قال الشاعر: [الوافر]

فليس الشراب إلّا بالملاهي وبالحركات في بَم وزير
فلا تشرب بلا طربٍ فإنني رأيت الخيل تشرب بالصّفير

وقال آخر: [الخفيف]

فانظر إلى الإبل التي هي - وئكَ - أغلظ منك طَبْعاً
تُصغي إلى صوت الحدا فتقطع الفلوات قطعاً

قوله: التغاضي أي التغافل، عزّيد: سيء الأخلاق عند سُكره، وهو الذي يؤذي بيده ولسانه أصحابه، رعّيد: جَبان فزاع. بون: فضل ومزية من ذي علق، أي من صاحب محبة؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بؤد ومحبة ابن طريف: العلق: الحب، وعلق فلان فلانة، أي أحبها. والله الموفق.

المقامة السادسة والثلاثون

المَلْطِيَّة

أخبر الحارث بن همام قال: أَنْخْتُ بِمَلْطِيَّةَ مَطِيَّةَ الْبَيْنِ وَحَقِيبَتِي مَلَأَى مِنَ الْعَيْنِ؛ فَجَعَلْتُ هَجِيرَايَ، مُذْ أَلْقَيْتُ بِهَا عَصَايَ؛ أَنْ أَتَوَرَّدَ مَوَارِدَ الْمَرْحِ، وَأَتَصِيدَ شَوَارِدَ الْمُلْحِ؛ فَلَمْ يَفْتَنِي بِهَا مَنَظَرٌ وَلَا مَسْمَعٌ؛ وَلَا خَلَا مِنِّي مَلْعَبٌ وَلَا مَزْتَعٌ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ لِي فِيهَا مَأْرَبٌ، وَلَا فِي الثَّوَاءِ بِهَا مَرْعَبٌ، عَمَدْتُ لِإِنْفَاقِ الذَّهَبِ فِي ابْتِياعِ الْأَهْبِ، فَلَمَّا أَكْمَلْتُ الْأَعْدَادَ، وَتَهَيَّأْتُ الظُّغْنَ فِيهَا أَوْ كَادَ، وَجَدْتُ بِهَا تِسْعَةَ رَهْطٍ قَدْ سَبَتُوا قَهْوَةَ، وَارْتَبَوْا رَبْوَةَ، وَدَمَائَتْهُمْ قَيْدُ الْأَلْحَاطِ. وَفُكَا هَتُّهُمْ حُلُوءَ الْأَلْفَاطِ، فَنَحَوْتَهُمْ طَلَبًا لِمُنَادِمَتِهِمْ لَا لِمُدَامَتِهِمْ، وَشَغِفًا بِمَمَارَزَتِهِمْ لَا بِزُجَاغَتِهِمْ.

أَنْخْتُ الْمَطِيَّةَ: صَيَّرْتُهَا بَارَكَةً بِالْأَرْضِ.

[ملطية]

مَلْطِيَّةٌ: بَلَدٌ بِالْجَزِيرَةِ ذَاتِ أَنْظَارٍ وَقُرَى، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرُّقَّةِ خَمْسُونَ فَرَسَخًا، وَالرُّقَّةُ: أُمُّ قُرَى الْجَزِيرَةِ، وَذَكَرَهَا الْمَسْجُودِي فِي شَعْرِهِ فَقَالَ: [الطويل]

وَلَمْ يَحْلِبُوهَا مِنْ وَرَاءِ مَلْطِيَّةٍ تَصَدَّعَ أَجْبَالُ بِهَا وَأَكَامُ
وَقِيلَ: مَلْطِيَّةٌ فِي ثَغْرِ الشَّامِ.

قَالَ الْيَعْقُوبِيُّ: مَلْطِيَّةٌ هِيَ الْمَدِينَةُ الْعَظْمَى، وَكَانَتْ قَدِيمَةً فَأَخْرَبَهَا الرُّومُ، فَبَنَاهَا الْمَنْصُورُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَةٍ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا سُورًا وَاحِدًا، وَنَقَلَ إِلَيْهَا عِدَّةَ قَبَائِلَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ: وَهِيَ فِي مَسْتَوٍ مِنَ الْأَرْضِ يَحِيطُ بِهَا جِبَالُ الرُّومِ، وَمَاؤُهَا مِنْ عَيُونٍ وَأَوْدِيَةِ مِنَ الْفِرَاتِ، وَخَفَّفَهَا الْمُتَنَبِّيُ ضَرُورَةً فَقَالَ: [الطويل]

وَكَرَّتْ فَذَرَتْ فِي دِمَاءِ مَلْطِيَّةٍ مَلْطِيَّةُ أُمِّ لِلْبَنِينِ تَكُولُ^(١)

قَوْلُهُ: مَلْطِيَّةُ الْبَيْنِ، يَرِيدُ نَاقَةَ السَّفَرِ، أَيْ أَقَامَ بِهَا وَتَرَكَ السَّفَرَ. الْحَقِيقَةُ: وَعَاءٌ

(١) الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّيِّ ١٠٢/٣.

الرحل، والعَيْن: الذهب. هَجَيْرَاي: عَادَتِي، وألقى بها عصاه، أي أقام بها وترك السفر. أتوزد: أطلب وأدخل، وتوردت الإبل الماء: دَخَلَتْهُ قِطْعَةً قِطْعَةً. والمرح: النشاط. شوارد: نوافر، وأراد أنه اتَّبَعَ نفسه جميع اللذات بملطية وشاهدها، مرتع: موضع خصب كثير الطعام، مأرب: حاجة. الثواء: الإقامة. عمدت: قصدت، ابتاع الأهب: اشتراء العُدِّ للسَّفَر. الظعن: الارتحال. الرُّهْط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، سَبَّوْا قهوة: اشترَوْا. ارتبَوْا ربوة: طلعوا كُذْيَةً، وقال الحسن: [الطويل]

وفتيانٍ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهم إلى بَيْتِ خَمَارٍ نزلْنَا به ظُهرًا
أتينا يهوديا تجمل ظاهراً ويضمِرُ في المكنون من سِرِّاه الشِّراء
فجاء بها زينتية ذهبية فلم نستطع دون السُّجود لها صَبْرًا
خَرَجْنَا على أَنَّ المَقَام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرًا
وقال في شراء الخمر بشيابه: [الطويل]

نجوت من اللص المغير بسيفه إذا ما رماه بالتُّجار سَبِيلُ
واصلتُ خَمَارًا عليّ بخمرة فراح بأثوابي ورُحْتُ أَمِيلُ
وقال الأمير تميم بن المعز: [الطويل]

شَرَبْنَا على نَوْح المطوَّقة الوزِقِ وأزديّة الرُّوضِ الملقِّفة البُلُقِ
معتَّقة أفنى الزمان وجودها فجاءت كفوت اللَّحْظِ أو رِقَّة العِشْقِ
كَأَنَّ السحاب الغرَّ أصْبَحْنَ أَكُوسًا لنا وكأَنَّ الرَّاحَ فيها سَنَا البرقِ
فبتنا نَحْتُ الكأس حثًّا وإننا لنشربُها بالحثِّ صِرْفًا ونَسْتَسْقِي
إلى أن رأيت النُّجْم وهو مغرَّبٌ وإقبال رايات الصُّباح من الشَّرْقِ
كَأَنَّ سوادَ الليل والفجر طالعٌ بقيّة لَطَخِ الكُحل في الأعين الزُّرْقِ

وأحسن في هذا المعنى ما شاء، إلا أنه جعل شربنا في الرّوض على نوح الحمام، ولو عوض من لفظ «النوح» لفظ الغناء أو التغريد لكان أتمَّ لِلذَّته، كما قال ابن الرومي: [الطويل]

وأذكى نسيم الروض ريعانَ ظِلِّهِ وغنّى مغنّي الطَّيْرِ فَرَجَّعَا
وكانت أهازيج الدُّباب هناكم على شدوات الطير صوتاً موقعا
وقال آخر: [الطويل]

وكأس كريق الإلف شَغَشَعَهَا به وعيشي مِنْ هذا الشَّرَابِ المَشْغَشَعِ
إذا ما شَرَبْنَا كأسَهَا صبَّ فضلُها على رَوْضِنَا للمُسمِعِ المُتَخَلِّعِ

المسمع: المغني، يعني به الذباب الذي ذكره عنترة في قوله: [الكامل]

فترى الذباب بها يُغني وحده هزجاً كفعل الشارب المترنم^(١)
 وإنما ذكر الحريري الرتبة، لأن النبات فيها أحسن وأسلم من نبات الانخفاض،
 لأن نبات الانخفاض وجم، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا
 ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال المتنبي: [الطويل]

* نحنُ نَبْتُ الرِّبَا وأنت الغمام^(٢) *

قوله: دماثهم قيد الألحاظ، أي سهولة أخلاقهم تقيد عيون الناظرين إليهم؛ حتى
 لا ينظروا إلى غيرهم، قال ابن المعتز: [السريع]
 مَنْظَرُهُ قَيْدُ عَيْونِ الْوَرَى فليس خَلْقٌ يَتَلَقَّاهُ
 نحوتهم: قصدتهم، شغفاً: حباً.

فلما انتظمت عاشرهم، وأضحيت معاشرهم، ألفيتهم أبناء علات، وقذائف
 فلوات؛ إلا أن لحمة الأدب، قد ألفت شملهم ألفة النسب؛ وسأوت بينهم في
 الرتب؛ حتى لاخوا مثل كواكب الجوزاء، وبدوا كالجملة المتناسبة الأجزاء،
 فأبهجني الاهتداء إليهم وأحمدت الطالع الذي أطلعني عليهم، وطففت أفيض
 بقدجي مع قداحهم، وأستشفي برياحهم لأبراحهم، حتى أذتنا شجون المفاوضة،
 إلى التحاجي بالمقايضة، كقولك إذا عنيت به الكرامات: ما مثل النوم فات؛
 فأنشأنا نجلو السها والقمر، ونجني الشوك والثمر.

انتظمت: سرت معهم في نظام واحد، والنظام الجوهر. معاشرهم: مصاحبهم
 ألفيتهم: وجدتهم، أبناء علات، أي غرباء من بلاد مختلفة، وبنو العلات: الذين أبوهم
 واحد وأمهاتهم شتى قذائف فلوات، أي قد رمت بهم القفار، والطرق المختلفة واحدها
 قذيفة، وهي التي يُقذف أي يرمى بها. لحمة، أي قرابة. ألفت شملهم: أي جمعت

(١) يروي صدر البيت:

وخلا الذباب بها فليس ببارح

وهو في ديوان عنترة ص ١٩٧، وأساس البلاغة (هزج).

(٢) صدره:

أين أزمعت أي هذا الهمام

والبيت في ديوان المتنبي ٣/ ٣٤٣.

متفرقهم، وجعل للأدب لحمة مجازاً، وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بني العلات الأب، والبلاد تفرقهم، كما تفرق بني العلات الأمهات.

[المودة بين الشعراء]

وهذا نحو ما يحكى أن دُغْبَلًا ذُكر عند علي بن الجهم فكفره ولعنه، وقال: كان يَظْهَرُ على أبي تمام وهو خير منه، ديناً وشِعْراً، فقال له بعض من حضر: لو أن أبا تمام أخوك ما زدت على مدحك له، فقال: إن لم يكن أخي في النَّسَب، فهو أخي في المودة والأدب، أما سمعت ما خاطبني به وأنشد لأبي تمام: [الكامل]

إن كان يجمعنا الإخاء فإننا نَغْدُو ونُسْري في إخاء تالِدٍ^(١)
أو يَفْتَرِق نسبٌ يؤلف بيننا أدب أقَمَّنَاه مقامَ الوالِدِ
وكرر أبو تمام هذا المعنى، فأحسن بقوله: [البسيط]

ذُو الْوَدِّ مَنِي وَذُو الْقَرْبَى بِمَنْزِلَةٍ وإخوتي أسوءُ عندي وإِخْلَانِي
عصابة جاورث آدابهم أدبي فهم وإن فُرقوا في الأرض جِيرَانِي
أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وعدت أجسامنا في عِرْقٍ أو خُرَاسَانِ
وأنشد إسحاق الموصلي: [الطويل]

يقولونَ لي هَلْ مِنْ أَخٍ أو قَرَابَةٍ فقلت لهم إن الشُّكُول أقاربُ
نَسِيبِي في رأيي وعزمي ومَذْهَبِي وإن باعدتنا في الولاءِ المَناسِبُ
وليس أخي إلا الصحيحُ وداده ومن هو في وَضْلِي وقُرْبِي رَاغِبُ

وكان لسليمان بن وهب نديم يأنس به، فعزَّبدَ عليه ليلة فاطرحه وجفاه فوقف له بالطريق، فلما مرَّ به وثب إليه، ثم قال: أيها الوزير، لا تُكُنْ في أمري إلا كما قال علي ابن الجهم: [البسيط]

القوم أخذانُ صَدَقَ بينهم نسبُ من المودة لم يعدلْ به نسبُ
تراضعوا دِرَّةَ الصَّهْبَاءِ بينهمُ فأوجبوا الرِّضِيع الكأس ما يجبُ
لا يحفظون على السُّكرانِ زَلَّتْهُ ولا يريبك من أخلاقهم رَيْبُ

فقال: قد رضيت عنك رضا صحيحاً، فعُدْ لسانك.

قوله الرتب: أي المنازل الرفيعة، مثل كواكب الجوزاء، أي في الإضاءة والرفعة، والجملة المتناسبة الأجزاء، أي المثقفة، يعني مقاديرهم في الفضل وغيره متساوية لا تفاضل بينهم، كالجملة التي لا مزية لبعضها على بعض، وأقل جملة حسابية أجزاؤها

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٨٦.

متناسبة لا كسر في بعضها ولها النصف والثلث والرابع، والخمس والسادس والسبع والثمان والتسع والعشر هي ألفان وخمسمائة وعشرون، ونصفها ألف ومائتان وستون وثلثها وثلثمائة ثمانمائة وأربعون، وربعها ستمائة وثلاثون، ألف وخمسة وخمسمائة وأربعة، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلاثمائة وستون، وثمانها ثلاثمائة وخمسة عشر، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثان وخمسون.

قوله: أبهجني، أي أفرحني أحمدت: وجدته محموداً. الطالع: النجم الذي يسعد به صاحبه وينحس على زعمهم. طفقت: أخذت. أفيض بقدحي: أضرب بسهمي، وهذا من فعل الميسر. وأراد أنه يمشي كلامه مع كلامهم ويدخل مداخلهم. أدتنا: أوصلتنا. شجون المفاوضة. طرق المراجعة في الكلام، والشجون في الكلام، تداخله، واختلاط بعضه ببعض، والتفاوض: الاندفاع في الحديث، وفي المثل: الحديث ذو شجون، أي ذو فنون وأصله من الشجر المشجون، وهو الشجر الذي التفّ بعضه ببعض. التّحاجي: التّفاطن. المقايضة: المعاوضة والمقارضة. الكرى: النوم فات، بمعنى مات وأراد أنّ هذا النوع من الألغاز هو أن يؤتى بلفظ عوضاً من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد، والمماثلة التي بينهما إنما هي موافقة المعنى. نجلو: نكشف. السها: نجم خفي، وقرن السها في خفائه مع القمر في ظهوره، إنما يشير إلى قولهم في المثل: أريها السها وتريني القمر، وأواد أنهم يأتون بلفظة ظاهرة المعنى، وأخرى خفية، فلا يتمّ لهم شيء.

وبينا نحن نَنشُرُ القَشِيبَ والرَّثَّ، ونَنسُلُ السَّمِينِ والغَثَّ، وغَلَ عَلَيْنَا شَيْخٌ قَدْ ذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ، وبقي حُبْرُهُ وَسَبْرُهُ؛ فَمَثَلٌ مُثُولٌ مَنْ يَسْمَعُ وَيَنْظُرُ، ويلتَقِطُ ما تَنَثَّرَ، إلى أن تُفِضَتِ الأكياسُ، وحَصَّصَ اليأسُ.

فَلَمَّا رَأَى إِجْبَالَ القَرَائِحِ، وإِكْدَاءَ المَاتِحِ والمَائِحِ، جَمَعَ أَذْيَالَهُ، وولَّانَا قَذَالَهُ، وقال: ما كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٍ، ولا كُلُّ صَهْبَاءَ حَمْرَةٍ، فاعتلّقنا بِهِ اعْتِلاقَ الحِرْبَاءِ بالأغْوَادِ، وَضَرَبْنَا دُونَ وَجْهَتِهِ بِالْأَسْدَادِ، وقلنا له: إِنَّ دَاءَ الشَّقِّ أَنْ يُحَاصَّ، وإِلَّا فَالْقِصَاصَ الْقِصَاصَ؛ فلا تَطْمَعُ أَنْ تَجْرَحَ وَتَطْرَحَ، وتنهر الفتق وتُشْرَحَ، فَلَوَى عِثَانَهُ راجِعاً، ثُمَّ جَثَمَ بِمَكَانِهِ رَاصِعاً، وقال: أَمَّا إِذَا اسْتَشْرَثُمُونِي بِالْبَحْثِ، فَلَاخُكُمُ حُكْمُ سُلَيْمَانَ فِي الْحَزْثِ.

القشيب: الثوب الجديد. الرّث: الخلق: ننشل: نخرج النشيل، وهو لحم يطبخ بلا تابل ثم يُنشل، أي يُخرج بالنشل، وهو حديدة معقفة، ذهب حبره وسبره: هيئته

ولونه، قال الفراء: من قولهم: جاءت الإبل حسنة الإحبار والإسبار، قال الأصمعي رحمه الله: هي الجمال والبهاء وأثار النعمة، يقال: فلان حسن الحبر والسَّبر، إذا كان جميلاً حسن الهيئة، وفي الحديث: يخرج من النار رجل قد ذهب حبره وسَبَره، أي قد ذهب جماله وبهاؤه، وسمي الحَبْر حَبْرًا لأنه يزين الكتاب، ويحسن القرطاس، وَحَبَّرَت الشيء زينته، وقيل إنه سُمِّي حَبْرًا لأنه يؤثر في القرطاس، فيكون علامة فيما يقع فيه، ويقال للأثر: حبرة وَخُبَار.

والسَّبْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّبْر ما يدلّ به على لون الدابة وكرمها، ويروي حبره وسبره، بكسر أولهما وفتحهما، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وَحَبَّرَ علمه، وسَبَره قياسه، مثل: تمثل قائماً. الأكياس: أوعية الدراهم، ونفضت: ألقى ما فيها، وأراد فارغ كلامهم. وَحَضَّص: تبيّن، اليأس: ضد الرجاء. إجمال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا في البئر، فأول ما يرشح من مائها هو القريحة، ثم نقل إلى الطبيعة والذهن، وأجبل الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكْدَى: حال بينه وبينه كُدية، والجبل والكدية حجارة وصلابة تُغْرَضُ في البئر، لا يمكن حَفْرُها معها، ثم يقال: أكْدَى أي قلّ خيره وأجبل الشاعر، أي انقطع شعره. وأكْدَى فلان عطائي، أي قطعه وقلّ خيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ [النجم: ٣٤]. والماتح: المستسقي على فم البئر، والماتح: النازل إلى قَعْرِها ليملاً الدلاء ويفرق بينهما بنقطتي الحرف الذي قبل آخرهما، فمتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقي فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقي في قعر البئر ليملاً الدلو بيده، وذلك لقلّة الماء، وإذا تكاثرت الدلاء عليه، وكَثُر صياح النَّاس عليه من رأس البئر، وكل يرغب ليملاً دلو، فيأخذ دَلْوً مَنْ لا مال له فيضرب به رجا البئر، أي جانبه ليرتدع الناس عنه، ثم يضرب مثلاً للمُهان، قال الشاعر: [الوافر]

فلا يُرْمَى بي الرَّجْوانِ إني أقَلّ القومَ مَنْ يُغْنِي مَكَانِي^(١)

وقالت جارية من العرب تستعطفه: [الرجز]

يأتيها المائحُ دلوي دُونَكَا إني رأيتُ النَّاسَ يَحْمَدُونَكَا^(٢)

(١) البيت لعبد الرحمن بن الحكم في الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ص ٣٦٦، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٢٥٧، ولسان العرب (رجا).

(٢) الرجز لجارية من بني مازن في الدرر ٣٠١/٥، وشرح التصريح ٢/٢٠٠، والمقاصد النحوية ٤/٣١١، وبلا نسبة في لسان العرب (ميح)، وأسرار العربية ص ١٦٥، والأشباه والنظائر ١/٣٤٤، والإنصاف ص ٢٢٨، وأوضح المسالك ٨٨/٤، وجمهرة اللغة ص ٥٧٤، وخزانة الأدب ٦/٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، وذيل السمط ص ١١، وشرح الأشموني ٢/٤٩١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥٣٢، وشرح شذور الذهب ص ٥٢٢، وشرح عمدة الحفاظ ص ٧٢٩، وشرح المفصل ١/ =

ومن أمثالهم: أبصر من المائح يا ست المائح.

وأشدد الفنجديهي: [السريع]

يا مائح العين عُدِمْتَ الرَدَى من حوض هذي العين كَمْ تَسْتَقِي
مِنْ شِيْمَةِ الْمَاءِ انْحِدَارٌ فَلَمْ ماء جفوني أبدأ يَرْزُقِي

قوله: جمع أذياله: شمر ثيابه للقيام. قذاله: قفاه.

ما كلّ سوداء تمرّة، مثّل. والسوداء تستعمل للتمرّة والفحمة فيقول: ما كل الكلام سهل فتعاطونه وما كلّ ما جئتم به بفائق فيدخل في باب المقايضة، وهو مثل يضرب في موضع التهمة.

والصهباء: من أسماء الخمر، والصُّهْبَاءُ أن تعلو الحمرة شُقرّة وأصوله سود.

[مما قيل في الحرباء شعراً]

الحِزْبَاءُ: دَوْبَةٌ تستقبل الشمس بوجهها إذا استوت في كبد السماء، وإن لم يتأت لها الفرصة بوجهها تملكت وتقلّبت، ولم تزل في قلق حتى تميل الشمس، فتستقبلها - أعني قُرْصَهَا - بوجهها حتى تغرب وهي في طول يومها، لا تأكل شيئاً، فإذا جاء الليل ذهبت تبغي ما تأكل، والأثنى منها حرباء.

وقال أبو عبيدة: الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبدأ، يقال: إنما تفعل ذلك لتقي جَسَدَهَا برأسها، وقيل: الحرباء ذكر أم حُبِين، وفي صدره استرخاء وقُرب من الأرض، فإذا حميت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرقه الأرض للزوقه بها، فيصعد على عود شجرة، فليتزمه بيديه، ويجعله بينه وبين الشمس، ويضرب به المثل في التثبث بما تعلق به، وذلك أنه إذا تعلق بعود التزمه، وقبض عليه فلا يفارقه، حتى يستوثق من آخر، فيضرب المثل به، فيقال: أحزم من الحرباء. وقال قيس بن الحداية: [البسيط]

بانّت سعادُ فأمسى القلبُ مشتاقاً وأقلقتهَا نوى الإزماعِ إقلاقاً
واحْتِئَتْ حادِيهم بزلأ مخيصةً كُوم الذّرا مدد الأعضاء أفيافاً^(١)
أئى أُتِيحَ لها حِرْبَاء تَنْضُبَة لا يرسل الساق إلا مُمَسَكاً ساقاً

والساق: ساق الشجرة، والتَّنْضُب: شجر يتعلّق بأعواده الحرباء، فيقال حرباء

= ١١٧، ومعجم ما استعجم ص ٤١٦، ومغني اللبيب ٦٠٩/٢، والمقرب ١٣٧/١، وهمع الهوامع ١٠٥/٢، وتهذيب اللغة ٢٧٩/٥، ومقاييس اللغة ٢٨٧/٥.

(١) البيت الثالث لأبي دؤاد الإيادي في ديوانه ص ٢٣٦، ولسان العرب (حرب)، والتنبيه والإيضاح ١/ ٦٠، وتاج العروس (سوق)، وجمهرة الأمثال ٤٠٨/١، وللحارث بن دوسر في المستقصى ٢/ ٢٦٩، وبلا نسبة في لسان العرب (نضب)، (سوق)، (علق)، والمخصص ٢٥/٤، ١٠٣/٨، وتاج العروس (نضب)، (علق)، وديوان المعاني ١٣٨/١، والحيوان ٣٦٧/٦.

تنضبه، كما يقال: ذئب غَضَى. وقال الأزهري رحمه الله تعالى: الحرباء دويبة على خِلْقَةٍ سام أبرص، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخططة الظهر، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها، ومن جَيّد ذلك قول ذي الرّمة: [الطويل]

ودويّة جَرْدَاء جَدَاء خِيَمَتْ بها هفوات الصّيف من كلّ جانب^(١)
كأنّ يدي حربائها متشمساً يَدَا مَذْنِبٍ يَسْتَغْفِرُ الله تَائِبٍ
وقال آخر: [الطويل]

وقد جعل الحرباء يصفّر لونه ويخضّر من لفح الهجير غباغبه^(٢)
ويشبح بالكفّين حتى كأنه أخو فجوة عالي به الجذع صالبه
وقال أيضاً: [الطويل]

يظلّ بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذليّ إلا أنه لا يُكَبِّرُ^(٣)
إذا حوّل الظلّ العشيّ رأيته حنيفاً وفي قرن الضحى ينتصّر
غداً أكهب الأعلى وراح كأنه من الضح واستقباله الشمس أخضر

أخبر أنه يدور مع الشمس في وقت الزوال، حتى تكون الشمس في حذاء القبلة، فكأنه باستقباله لها في ذلك الوقت مُسَلِّمٌ يصلي لها، وفي الضحى تكون في وجه المشرق، فكأنه نصرانيّ فيستقبلها بصلاته.

قال ابن الرومي: [الكامل]

ما بالها قد حَسُنَتْ ورقيبها أبداً قبيح قبح الرُقَباء
ما ذاك إلا أنّها شمس الضحى أبداً يكون رقيبها الحرباء

قوله: وجهته، أي جهته. والسد: الحاجز بين الشيئين. يحاص: يخاط، ويقال: حاص ثوبه وعين صقره وشقوق رجله حَوصاً وحياصة: خاطها، وقيل: الحوص:

(١) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٧٨.

(٢) يروى البيت الأول:

إذا جعل الحرباء يَبْيِضُ رأسه وتحضّر من شمس النهار غباغبه

وهو بلا نسبة في لسان العرب (غيب)، والمخصص ٣٥/٨، وتاج العروس (غيب).

(٣) البيت الأول في ديوان ذي الرمة ص ٦٣١، ولسان العرب (حول)، ولزهير بن أبي سلمى في لسان العرب (مثل)، وتاج العروس (مثل)، وليس في ديوان زهير، والبيت الثاني في ديوان ذي الرمة ص ٦٣٢، ولسان العرب (حول)، (ولى)، وتهذيب اللغة ٤٥٢/١٥، وديوان الأدب ٣٨١/٢، وتاج العروس (حول)، والبيت الثالث في ديوان ذي الرمة ص ٦٣٣، ولسان العرب (ضحج)، وتاج العروس (ضحج)، وديوان الأدب ٣٠/٣.

الخيطة بعد رقعة، ولا يكون إلا في جلد، وأنشد يعقوب: [الرجز]

تري برجليه شُفوقاً في كلغ من بارى جيص ودام مُنْسَلِغ^(١)

الكلغ: الوسخ، ومنسلع: متشقق. القصاص: أخذ الحق في الجنايات. وتنهر: توسع فترده كالتنهر. الفتق: الخرق. وتسرح: تذهب. لوى عنانه: أماله وعطفه. جثم: برك. راصعاً: لاصقاً بالأرض والرُصع: تباعد ما بين الركبتين، ورصع بالشئ يرصع رُصوعاً إذا لازمه. استثرتموني: طلبتموني واستخرجتم ما عندي. والبحث: المناقشة في السؤال، وأصله الصيد تقول: استثرُ الصيد؛ إذا بحثت عليه حتى تقيمه من مرقده.

[حكم سليمان في صاحب الحرث وصاحب الغنم]

قوله: حكم سليمان في الحرث. كان سليمان عليه السلام، فيما ذكروا أبيض، وضيئاً، جسيماً كثير الشعر، يلبس من الثياب البياض. فلما بلغ مبلغ الرجال، كان أبوه في أيام ملكه يُشاوره في أموره، وكان هذا الحكم - فيما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما - أن رجلين دخلا على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: يا نبي الله، انفلتت غنم هذا في زرعي ليلاً، فرتعت في حرثي، فلم تستبق منه شيئاً، فقال له داود: اذهب، فإن الغنم لك، فملكه رقابها بما أكلت من حرثه، فلما خرجا من عنده خطراً على سليمان عليه السلام، فأخبراه بقضاء أبيه، فقال: لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا. فأخبر داود عليه السلام، فدعاه وقال له: كيف كنت تقضي بينهما؟ فقال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له رسلها ونسلها وصوفها، ويبذر صاحبه لصاحب الحرث مثل حرثه، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل، أخذ غنمه. فقال داود: القضاء ما قضيت به، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام.

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل: أراد بالحرث الكرم، وأن الغنم أكلت قضبانه، فأفسدته، فحكم بها داود لصاحب الكرم، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت، فمروا بسليمان عليه السلام، وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال: يعمل الراعي في إصلاح الكرم حتى يعود كهيئته، ثم يأخذ غنمه.

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: بينا امرأتان معهما ابناهما، إذ جاء الذئب، فذهب بأحدهما، فقالت: هذه إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فاختصما إلى داود عليه السلام، ف قضى به للكبرى فمرتاً على سليمان، فأخبرته، فقال عليه السلام: «أثنياني

(١) الرجز لحكيم بن معية في لسان العرب (سلي)، (كلغ)، وله أو لأبي محمد الفقعسي في تاج العروس (سلي)، ولسان العرب (طبع)، ولعكاشة السعدي في تاج العروس (كلغ)، وبلا نسبة في لسان العرب (قس)، وديوان الأدب ٢/ ٤٢٥.

بسكين أشقّه بينكما، فقالت الصغرى: لا ويرحمك الله، هو ابنها، فقصي به للصغرى^(١)
قال أبو هريرة رضي الله عنه: والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك، ما كنت أقول إلا
المُدّة.

قوله: الشائل: الخلائق والطباع. والشمول الذهبية: الخمر الحمراء.

[مما قيل في الخمر شعراً]

وذكر في هذه المقامة أنهم سبّوا قهوة، وذكرها هنا أنها في لونها حمراء،
والعرب تتمدح بشرب الخمر السبيّة، وتصفها بالحمرة، كقول الأعشى، وهو في
أوصافها في الجاهليتين، كالحسن في الإسلاميين، وجبه فيها صدّه عن الإسلام: [الكامل]

وَسَبِيَّةٍ مَّا تَعْتَقُ بَابِلُ كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلْبَتْهَا جِرْيَالَهَا^(٢)

وقوله: [المتقارب]

فَقَمْنَا وَلَمَّا يَصْخُ دِيْكُنَا	إلى خمرة عند حَدَادِهَا ^(٣)
فَقُلْتُ لَهُ: هَذِهِ هَاتِيهَا	بَأَذْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا
فَقَامَ فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً	تَسَكَّنَا يَعْدُ إِرْعَادِهَا
كُمَيْتٌ تَكْشِفُ عَنْ حُمْرَةٍ	إِذَا ضَرَجْتَ بَعْدَ إِزْبَادِهَا
فَجَالَ عَلَيْنَا بِإِبْرِيْقِهِ	مَخْضَبُ كَفِّ بِفِرْصَادِهَا
فَرُخْنَا تَنْعَمْنَا نَشْوَةً	تَجُوزُ بِنَا بَعْدَ إِقْصَادِهَا

وقال أبو ذؤيب: [الطويل]

وَلَا الرَّاحَ رَاحَ الشَّامِ جَاءَتْ سَبِيَّةٌ لَهَا غَايَةٌ تَهْدِي الْكَرِيمَ عُقَابَهَا^(٤)

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٤٠، والفرائض باب ٣٠، ومسلم في الأفضية حديث ٢٠، والنسائي في الفضاة باب ١٤، ١٥، وأحمد في المسند ٣٢٢/٢، ٣٤٠.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ٧٧، وتهذيب اللغة ٢١١/١، ومقاييس اللغة ٤٢٥/١، ٢٢١/٤، وأساس البلاغة (جرل)، ولسان العرب (عتق)، وتاج العروس (عتق)، (جرل)، وكتاب العين ١٤٦/١، وفيه «حربالها» بدل «جربالها» وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٩٩، والمخصص ٢١٠/١١، ويروى «وسبيّة» بدل «وسبيّة».

(٣) الأبيات في ديوان الأعشى ص ١١٩، والبيت الأول في لسان العرب (حدد)، وهو بلا نسبة في مجالس ثعلب ص ٢٦٧، والبيت الثاني في لسان العرب (رهم)، ومقاييس اللغة ٣٧٩/٢، وأساس البلاغة (قود)، والبيت الرابع في لسان العرب (صرح)، (صفق) ومقاييس اللغة ٣٤٧/٣، وكتاب العين ١١٦/٣.

(٤) البيت الأول لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٤٤/١، ولسان العرب (عقب)، (سبي)، =

عقارها كما التبر ليست بِخَمْطَةٍ ولا خَلَّةٍ يكوي الشروب شهابها
وقال الحسن : [الطويل]

وَحَمَارٍ أَنْخْتُ عَلَيْهِ لَيْلاً قلائص قد تعين من السِّفار
فَجَمَجَمَ وَالكَرَى فِي مُقْلَتَيْهِ كمخمور شكاً ألم الحُمَارِ
ابْنُ لِي كَيْفَ سِرْتُ إِلَى حَرِيمِي وثوب اللَّيْلِ مَصْبُوعٌ بِقَارِ
فَقُلْتُ لَهُ تَرْفُقْ بِي فِلَانِي رأيت الصُّبْحَ مِنْ خَلَلِ الدِّيارِ
فَكَانَ جَوَابُهُ أَنْ قَالَ كَلّاً وما صُبْحٌ سوءُ صُبْحِ العُقَارِ
وَقَامَ إِلَى الدُّنَانِ فَسَدَّ فَاها فعاد الليلُ مسدولَ الإزارِ
وقال عبد الصمد : [الطويل]

وَحِيْمَةٌ نَاطُورٌ تَحْفُفُ بَرَوْضَةٍ يُخِيكَ مِنْهَا وَرْدُهَا وَالْبَنْفَسُجُ
وَأَشْمَطُ أَعْلَى وَسِطِهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ تَرَاهُ بِهَا مِنْ قَرِهِ يَتَشَتَّجُ
دَعْوَتْ فُلْبِي وَهُوَ بِالصَّوْتِ عَارِفٌ وأقبل نحو الباب يزهُو ويهرجُ
فَقُلْتُ لَهُ الْمَصْبَاحُ إِنْ كُنْتَ مَسْرِجاً فقال : قفوا فالخمر في الكأس تُسْرِجُ

اعْلَمُوا يَا ذَوِي الشَّمَائِلِ الْأَدْبِيَّةِ، وَالشُّمُوعِ الذَّهَبِيَّةِ، أَنَّ وَضَعَ الْأُخْبِيَّةِ،
لَامْتِحَانِ الْأَلْمَعِيَّةِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْخَبِيَّةِ الْخَفِيَّةِ، وَشَرْطُهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتَ مُمَائِلَةٍ
حَقِيقِيَّةِ، وَالْفَافِظِ مَعْنَوِيَّةِ، وَلَطِيفَةِ أَدْبِيَّةٍ؛ فَمَتَى نَافَتْ هَذَا النَّمَطُ، ضَاهَتْ السَّقَطُ،
وَلَمْ تَدْخُلِ السَّقَطُ؛ وَلَمْ أَرْكُمُ حَافِظْتُمْ عَلَى هَذِهِ الْحُدُودِ، وَلَا مِزْتُمْ بَيْنَ الْمَقْبُولِ
وَالْمَرْدُودِ، فَقُلْنَا لَهُ: صَدَقْتَ، وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ؛ فَكُلُّ لَنَا مِنْ لُبَابِكَ، وَأَفْضُ عَلَيْنَا مِنْ
عُبَابِكَ؛ فَقَالَ: أَفْعَلْ لِيلاً يَرْتَابَ الْمِطْلُونُ، وَيَطُتُوا بِي الظُّنُونُ.

قوله : «لامتحان الألمعية»، أي لاختبار الفطنة. نافث : باعدت. النمط : النوع،
يقال : الزم هذا النمط، أي هذا المذهب والفن والطريق. ضاهت : شابهت. السَّقَطُ :
رديء المتاع وما لا يُعْبَأُ به. والسَّقَطُ : وعاء لجميع الثياب الرفيعة، وسقط العلوم :
الكتب، أي لم تكتب ولم تدوّن في الكتب. ميزتم : فرقتم. لبابك : خالص ما عندك.
أففض : صب. عبابك : بحرك، وعب البحر عباباً هاج واضطرب : يرتاب : يشك.

ثم قَابِلَ ناظورةَ القوم، وقال : [المجث]

يَا مَنْ سَمَا بِذَكَاءٍ فِي الْفَضْلِ وَارِي الزَّنَادِ
مَاذَا يَمَاطِلُ قَوْلِي : جُوعٌ أَمْدٌ بِسَرَادِ

ثم ضحك إلى الثاني وأنشد : [المجث]

يَا ذَا الَّذِي فَاقَ فَضْلاً وَلَمْ يُدَنَّسْهُ شَيْنُ
مَا مِثْلُ قَوْلِ الْمُحَاجِي : ظَهَرَ أَصَابِثُهُ عَيْنُ

ثم لحظ الثالث وأنشأ يقول : [مجزوء الرجز]

يَا مَنْ نَتَائِجَ فِكْرِهِ مِثْلَ النُّقُودِ الْجَائِزَةِ
مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلَّذِي حَاجَيْتَ : صَادَفَ جَائِزَةِ

ثم أَتْلَعَ إلى الرابع وقال : [الهمز]

أَيَا مُسْتَنْبِطَ الْغَامِ ضِمْ مِنْ لُغْزٍ وَإِضْمَارِ
أَلَا أَكْثِيفَ لِي مَا مِثْلُ : تَنَاوَلَ أَلْفَ دِينَارِ

ثم رمى إلى الخامس ببصره، وقال : [مجزوء الرجز]

يَا أَيُّهَا الْأَلْمَعِيُّ أَخُو الذِّكَاةِ الْمُنْجَلِيِّ
مَا مِثْلُ أَفْمَلِ جَلِيَّةٍ بَيِّنَ هُدَيْتَ وَعَجَلِ

ناظورة القوم : كبيرهم الَّذِي ينظرون إليه . سما : ارتفع . ذكاء : جَوْدَةُ الذَّهْنِ .
وارِي : مبدي النار، أي زنده متى ضرب أَوْزَى ناراً . فاق : فَضَلَ غَيْرَهُ . النتائج : ما يولده
الفكر من الكلام . النقود : الدراهم . أتلع : مهَّدَ عُنْقَهُ وَنَصَبَهُ ، وتلع الرجل يتلعأ تلأأ :
أخرج رأسه من شيء كان فيه . مستنبط : مستخرج . الغامض : الْخَفِيُّ ، وغمض غموضاً :
دَقَّ وأحوج إلى النظر، والألمعي : هو الذَّكِي ، أي صاحب الفطنة .

ثم التفت لِفَتِّ السادس وقال : [مجزوء الكامل]

يَا مَنْ تُقْصِرُ عَنْ مَدَا هُ خَطَا مُجَارِيهِ وَتَضْعُفُ
مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلَّذِي أَضْحَى يَحَاجِيكَ : أَكْفُفْ أَكْفُفْ

ثم خَلَجَ السابع بحاجبه وقال : [مخلع البسيط]

يَا مَنْ لَهُ فِطْنَةٌ تَجَلَّتْ وَرُتَبَةٌ فِي الذِّكَاةِ جَلَّتْ
بَيِّنَ فَمَا زِلْتَ ذَا بَيَانَ مَا مِثْلُ قَوْلِي : الشَّقِيقُ أَقْلَتْ

ثم اسْتَنْصَت الثَّامِنَ وأنشد : [مجزوء الكامل]

يَا مَنْ حَدَائِقُ فَضْلِهِ مَطْلُوءَةُ الْأَزْهَارِ غَضَّةُ
مَا مِثْلُ قَوْلِكَ لِلْمُحَاجِي ذِي الْحِجَى : مَا اخْتَارَ فِضَّةُ

ثم حُدِجَ التَّاسِعَ ببصره ، وقال : [مجزوء الكامل]

يَا مَنْ يَشَارُ إِلَيْهِ فِي الْـ قَلْبِ الذِّكْرِ فِي الْبِرَاعَةِ
أَوْضَحَ لَنَا مَا مِثْلُ قَوْلِ لِكَ لِلْمُحَاجِي : دُسْ جَمَاعَةُ

قَالَ الرَّائِي : فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيَّ ، هَزَّ مَنَكِبِي ، وَقَالَ : [مجزوء الكامل]

يَا مَنْ لَهُ التُّكْتُ الَّتِي يُشْجِي الْخُصُومَ وَيُنْكُثُ
أَنْتَ الْمَبِينُ فَقُلْ لَنَا مَا مِثْلُ قَوْلِي : خَالِي اسْكُثْ

التَفَتَ لَفَت ، أَيِ قَصَدَ قَصْدَهُ بِالنَّظَرِ ، وَلَفَتَ عُنُقَهُ إِلَيَّ ، أَيِ لَوَاهَا نَظْرًا إِلَيَّ . مَدَاهُ :
غَايَتَهُ . خَلَجَ : غَمَزَ ، وَقَالَ الرَّاجِزُ : [الرجز]

* قَدْ خَلَجْتُ بِحَاجِبِ وَعَيْنٍ ^(١) *

تَجَلَّتْ : ظَهَرَتْ . جَلَّتْ : عَظُمَتْ . وَاسْتَنْصَت : سَكَتَ . حَدَائِقُ : بَسَاتِينُ مَطْلُوءَةٌ :
أَصَابَهَا الطَّلُ . غَضَّةُ : نَاعِمَةٌ . الْحِجَا : الْعَقْلُ . حُدِجَ : رَمَى . الْبِرَاعَةُ : الْفَصَاحَةُ وَوَفُورُ
الْعَقْلِ . يُشْجِي : يَغْصُ ، وَالْغُصَصُ : الْإِخْتِنَاقُ . يَنْكُثُ : يَقْلِبُهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ، وَطَعَنَهُ
فَنَكَّثَهُ : أَلْفَاهُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَعِنْدَ الْقَضَاعِيِّ يُشْجِي ، وَيَنْكُثُ ، أَيِ يَسْكُتُ عَلَى ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : قَدْ أَنَهَلْتُكُمْ وَأَمَهَلْتُكُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ أَعْلَكُمْ عَلَلْتُكُمْ .

قَالَ : فَأَلْجَأْنَا لَهَبَ الْغُلَلِ ، إِلَى اسْتِسْقَاءِ الْعَلَلِ ؛ فَقَالَ : لَسْتُ كَمَنْ يَسْتَأْثِرُ عَلَى
نَدِيمِهِ ، وَلَا مِمَّنْ سَمْنُهُ فِي أَدِيمِهِ . ثُمَّ كَرَّ عَلَى الْأَوَّلِ وَقَالَ : [مَخْلَعُ الْبَسِيطِ]

يَا مَنْ إِذَا أَشْكَلَ الْمَعْمَى جَلَّثَهُ أَفْكَارُهُ الدَّقِيقَةُ
إِنْ قَالَ يَوْمًا لَكَ الْمُحَاجِي : خَذِ تِلْكَ مَا مِثْلُهُ حَقِيقَةُ

ثُمَّ ثَنَى جَيْدَهُ إِلَى الثَّانِي ، وَقَالَ : [مجزوء الرجز]

يَا مَنْ بَدَا بِيَاثُهُ عَنْ فَضْلِهِ مَبِئْنَا

(١) الرجز لحبيبة بن طريف العكلي في لسان العرب (خلج)، والتنبيه والإيضاح ٢٠٢/١، وتاج العروس (خلج).

ماذا مثال قولهم: حمار الوحش زينا

ثم أوحى إلى الثالث بلخطه، وقال: [مجزوء الكامل]

يا مَنْ غدا في فضله وذكائه كالأضمعي

ما مثل قولك ليلذي حاجاك: أنفق تغمع

ثم حَمَلَق إلى الرابع وأنشد:

يا مَنْ إذا ما عويص دجا أنار ظلامه

ماذا يمثّل قولي: استنش ریح مُدامه

ثم أومض إلى الخامس، وقال:

يا مَنْ تنزّه فهمه عن أن يُروّي أو يُشكّا

ما مثل قولك للذي أضحي يُحاجي: غطّ هلكي

أنهلتكم: أسقيتكم، والنهل: الشرب الأول، والعَلَل: الشرب الثاني أعلّكم: أسقيكم عللاً. لهبّ العَلَل، أي حرّ العطش. يستأثر، أي يخصّ نفسه بشيء دون أصحابه. سَمْنُهُ في أديمه: أي خَيْرُهُ موقوف عليه، والأديم هنا: زقّ السمن، وأصل المثل: سمنكم هريق في أديمكم، أي خيركم موقوف عليكم؛ قاله أبو عبيدة. وخطأ البكري في تفسير الأديم بالزق، وقال: إنّما الأديم هنا طعامكم المأدوم، فعيل بمعنى مفعول، أي خيرهم راجع إليهم، وهو قول الأزهري رحمه الله ولم ينكر الأول، وهو مثل يُضرب للبخيل ولمن لا يتعدّاه خيرُهُ، وينفق على نفسه دون غيره. وقمعه يقمّعه: ضربه بالقمعة، أي قهره وكفّه، وقمع الشراب وأقمع: مرّ في الحلق مرّاً بغير جزع. كزّ: عطف: جيده: عنقه. أوحى: أشار. حملق: أخذ النظر. عويص: صعب. دجا: اسودّ. أنار: جعل فيه النور. تنزّه: تباعد. يروّي: يفكر، وقد روّات الحديث، إذا دبّرتُه وهيأته.

ثم أقبل إلى السادس، وأنشد: [مجزوء الخفيف]

يا أخا الفِطنة التي بأن فيها كماله

سار بالليل مُدّة أي شيءٍ مثاله

ثم نَحَا بصره إلى السابع، وقال: [المجث]

يا مَنْ تحلّى بفهم أقام في النَّاسِ سُوقه

لك البيان فبيِّن ما مثل: أخيب فروقه
ثم قصَّد قصَّد الثامن، وأنشد: [مجزوء الكامل]

يا مَنْ تَبَوَّأَ ذِرْوَةً في المجدِ فاقَتْ كُلَّ ذِرْوَةٍ
ما مثل قولك: أعط إنـ ريقاً يلوح بِغَيْرِ عُرْوَةٍ
ثم ابتسم إلى التاسع، وقال: [مجزوء الكامل]

يا مَنْ حَوَى حَسَنَ الدَّرَا يهِ والبيان بغير شك
ما مثل قولك للمُحَا جِي ذِي الذِّكَا: الثورُ ملَكِي
ثم قبض بجمعه على رُذْنِي، وقال: [الكامل]

يا مَنْ سَمَا بِثَقُوبٍ فُطِنَتْهُ في المُشْكِلَاتِ ونور كَوَكَبِهِ
ماذا مثال صَفِيرِ جَحْفَلَةٍ بَيْنَهُ تَبْيَاناً يَتُّمُّ بِهِ

بان: تبين. تحلى: تزين. تبوأ: نزل. والذروة: أعلى الشيء. ثقوب: نفوذ.

قال الحارث بن همام: فلما أطربنا بما سمعناه، وطالبنا مكاشفةً معناه. قلنا له: لسنا من خيل هذا الميدان، ولا لنا بحل هذه العقدة يدان، فإن أبنت مننت، وإن كتمت غممت. فظلَّ يشاورُ نفسيه، ويقلبُ قِذْحِيه، حتى هان بذل الماعون عليه.

فأقبل حينئذٍ على الجماعة وقال: يا أهل البلاغة والبراعة، سأعلِّمُكم ما لم تكونوا تعلمون، ولا ظننتم أنكم تعلمون. فأوَكُوا عليه الأوعية، وروَّضوا به الأندية. ثم أخذ في تفسير صقل به الأذهان، واستفزع معه الأردن، حتى أضت الأفهام أنور من الشمس، ولالأكام كأن لم تغن بالأمس.

أبنت: بيَّنت. مننت: أفضلك علينا. نفسه: أراد أنه يردُّ رأيه: هل يفعل أو لا يفعل؟ فكأن له نفسين، يردُّ المشورة عليهما حتى يظهر لهما الرأي الأرجح فيهما فيبني عليه. وقال حويرث العبدي: [الطويل]

لكل أمرىء نفسان نفسٌ كريمة ونفس فيعصيتها الفتى أو يطيعها

وقد تقدّم معنى يقلّب قدحيه. الماعون: المعروف، وقال يونس: الماعون في الجاهلية: كلّ عطية ومنفعة، وفي الإسلام الزكاة والطاعة. وقال ابن عباس: الماعون المعروف كلّ حتى ذكرَ القدر والقصة والفأس.

وحكى الفنجديهي عن ابن عباس: الماعون العارية، وقال الماعون: اسم جامع لمنافع البيت، كالقدر والفأس والماء والملح ونحوها، وقال الأعشى: [المقارب]

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغنم^(١)

والأظهر فيه، أنّه من العون، وأصله معون بوزن «مفعول»، فقدّمت الواو التي بعد العين، فصار موعون، ثم قلبت ألفاً كما قيل: يا جل. وحكى الغراء عن بعض العرب: الماعون الماء، فيكون على هذا مفعولاً من العين، ويُعلّ كما علّ من العون، أو يكون فاعولاً، من معن الماء، إذا سال. وهو أيضاً قول من اشتقه من قولهم: مُمعِنُ هرباً، أو من قولهم: عين معين. قال قطرب: ماعون فاعول من المعن، وهو الشيء اليسير، ومنهم من قال: أصله معونة، والألف بدل الهاء.

قوله: أو كُؤا: أي شدّوا. روضوا: زينوا، واجعلوها مثل الرياض. الأردان: الأكمام. آضت: رجعت أذهانهم مضيئة بالفهم وزال عنها الالتباس. تغنّ بالأمس، يريد أنّ أكمامهم كانت بالأمس ممثلة بالدرهم، فتفرّغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها.

ولما همّ بالمفرّ، سُئل: أين المفرّ؟ فتنفّس كما تتنفّس الثكول، ثم أنشأ

يقول: [مجزوء الرمل]

كُلْ شِعْبَ لِي شِعْبُ	وبه رُبْعِي رَخْبُ
غَيْرَ أَنِّي بِسَرُوجِ	مُسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبُ
هي أرضي البُكْرُ والجَوُ	الَّذِي مِنْهُ الْمَهَبُ
وإلى روضِهَا الْعَنَّا	دُونَ الرُّوضِ أَضَبُو
ما خَلَ لي بَعْدَهَا حُلُ	وَوَلا اغْدُوزِبَ عَذْبُ

قال الراوي: فقلت لأصحابي: هذا أبو زيد السُّرُوجِي، الذي أذنى مُلَحِهِ

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ٨٩، ولسان العرب (معن)، وتاج العروس (معن).

الأحاجي، وأخذتُ أصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشِيَّتِهِ. ثُمَّ التَفْتُ فَإِذَا بِهِ قَدْ طَمَرَ، وَنَاءَ
بِمَا قَمَرَ؛ فَعَجِبْنَا مِمَّا صَنَعَ إِذْ وَقَعَ، وَلَمْ نَذَرِ أَيْنَ سَكَعَ وَصَقَعَ.

المفرّ: المهرب. المقرّ: المنزل والبلد. الشكول: المرأة الثكلى الفاقدة لأحبائها.
شغب، أي طريق، أي كلّ بلد لي بلد. ربّعي رَحْب، أي منزلي متسع. المستهام: الذي
غلب الحبّ على قلبه فخرج هائماً على وجهه لا يَدْرِي أَيْنَ يتوجّه، وهام يَهيمُ: ذهب
عقله فخرج في غير الطريق، وقيل: الهائم: العليل القلب، الذي يجد في قلبه هياماً،
وهو وَجَعٌ يَجِدُهُ البعير، فلا يروى من شرب الماء: قال عروة بن حزام: [الطويل]
بي اليأس أو داء الهَيَامِ أصابني فإِيَّاكَ عَنِّي لا يَكُنْ بك ما بيا^(١)

أو يكون من التهويم، وهو هجوم النوم، وهو في الأوجه الثلاثة اسم مفعول، وكان
قياسه مستهيماً إلا أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك، جاء على هذا وحذف «به» لدلالة
المعنى. والصَّبّ: العاشق. البُكر: التي ولدت بها. الجوّ: اسم لنواحي السماء. مهبّ
الريح: موضع هبوبها من الجوّ، وأراد بلدته التي يجيء منها ويخرج عنها للبلاد. الغَنَاءُ:
الكثيرة الأشجار، وتقدّمت علّتها. أصبو: أميل. أدنى: أقل. توشيته: تزيينه كلامه.
مشيته: إرادته. طَمَرَ: وثب، وهو من الأضداد يقال: طمرتُ الشيء: سترته، وطمر
الجرح سَفَلَ وَعَلَاً أيضاً، ومنه قيل للبرغوث طامر، لنزوّه وارتفاعه. ناء: نهض. قَمَرَ:
حازه بالقمار. سكَع: مشى مَشْيَ المتعسّف. صَقَعَ: ذهب، وقيل: لم يدرِ أَيْنَ ذهب.
والسُّكْع: الذهاب على غير هداية، والصُّقْع: الناحية من الأرض، وما أدري أَيْنَ صَقَعَ،
أي أيّ ناحية قصد من الأرض.

[في تفسير الأحاجي]

إذا أردت أن تعرف المماثلة في هذه الأحاجي فتنظر «جوعٌ أمدٌ بزاز» فتقابلها
بطوامير، فتقسم هذه اللفظة، فتقابل القسم الأول وهو «طوا» بقولك: «جوع» فتجده مثله
في المعنى، وتقابل بالقسم الثاني، وهو «مير» قولك: «أمد بزاز»، فتجده مثله في
المعنى، والمير الإمداد بالزاد، ومير الرجل: أعطى نفقة وقوتا لعياله، فهذه المماثلة

(١) يروى عجز البيت:

فإِيَّاكَ عَنِّي لا أصيبك بدائيا

وهو برواية المؤلف لمجنون ليلي في ديوانه ص ٢٢٨، وبالرواية الأخرى لعروة بن حزام في مقدمة
ديوانه ص ٧٧، وسمط اللآلي ص ٩٥٠، ولسان العرب (سُل)، وتاج العروس (سُل)، وبلا نسبة
في جمهرة اللغة ص ٩٩٥، ١١٠٩، والمخصص ٢٢/١٤.

الحقيقية التي قدّم، وكذلك تقابل «ظهر أصابته عين» بقولك: «مطاعين»، فتجد المَطَا الظهر، وعَيْن الرجل: أصيب بالعين، وكذلك صادف جائزة، هي ألفي صلة، وألفي هي: صادق، والجائزة هي الصَّلَة، تصل بها مَنْ قصدك. وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تقسيم، ينتج منها معنى آخر فيقال لك: ما الطوامير؟ فتقول: الكتب، الواحد طُومار، والمطاعين: جمع مِطْعَان، وهو الكثير الطَّعن، والفاصلة، التي تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة في العروض: توالي أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن، وهكذا هي المقايضة في هذه المقامة، تصل اللفظة فيكون لها معنى، وتفصلها فيكون لها معنى آخر.

وأنا أفسّر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها في المقامة قوله: هادية، أي مرشدة، تقول: هذّني الطريق فهي هادية. والغاشية: ما يغشى القلب، أي يغطيه من الهمّ والسَّقم، والغاشية أيضاً القوم يَغْشُونك، أي يقصدونك ويزورونك، والغاشية: القيامة، والغاشية: المرأة تغشاك وتزورك، والغاشية غشاء القلب، والغاشية: غشاء السَّرج.

والمهمة: القفر، والأخطار: جمع خَطَر، وهو العَرَر، والأخطار: المنازل الشريفة. والأبارقة: جمع إبريق، وهو إناء معروف، والأبارقة أيضاً: السيوف الصقيلة، واحداً إبريق، والطافية: الجيفة تطفو على وجه الماء أي تطلع عليه.

الفرازين: وزراء الفُرس الواحد فززان، ومنه فززان الشطرنج، الذي تسميته العامة «فرزا»، لأنه وزير الشاه، والشاه في كلام الفرس المَلِك. وقمت: معناه كفت.

والمنتقم: الفرح بمصيبة غيره. والرَّخراح من الأواني: الواسع القصير الحديد، ورَخْرَاح: موضع معروف. والصُّنْبُور: النخلة الطويلة العنق القليلة الحمل، والصُّنْبُور أيضاً: العفاس الذي يجعله السَّقاء في فم القربة، ويشدّ عليه ويفرغ منه الماء، والصُّنْبُور أيضاً: اللثيم، والصُّنْبُور من الناس مَنْ ليس له نسل.

والسَّرَاجين: الذئاب الواحد سِرْجَان. الأسكوب: المطر الكثير الصبّ والأسكوب والأسكاب: قطعة خشب فيها قرص تُجعل في خرّق الرِّق. والمقلّاع: آلة يُقلع بها الشيء. والله الموفق.

تفسير الأحاجي المودعة هذه المقامة

أما جوع أمدّ بزاد، فمثله طوامير، وأما ظَهَرُ أصابته عين، فمثله مطاعين، وأما صادف جائزة فمثله الفاصلة، وأما تناول ألف دينار، فمثله هادية، وأما أهْمِلْ حَلِيّة فمثله الغاشية.

وأما اكْفُف اكفف، فمثله مَهْمَه، وأما الشقيق أفلت فمثله أخطار.

وأما ما اختار فضة فمثله أبارقة؛ لأن الرقة من أسماء الفضة، وقد نطق بها النبي ﷺ فقال: «الرقة ربع العشر»^(١).

وأما دس جماعة فمثله طافية، وأما خالي اسكت فمثله خالصة؛ لأنك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء وإثباتها ساكنة ومتحركة؛ وقد حُذِف هاهنا حرف النداء، كما حذفه في أصل الأحجية، وصة بمعنى اسكت، وأما حُذِثْ تلك فمثله هاتيك.

وأما حمار وحش رُئنا، فمثله قَرازين، لأن الفراء حمار الوحش، ومنه الحديث: «كُلُ الصيد في جوف الفراء»^(٢).

وأما قوله: أنفق تقمع، فمثله منتقم؛ لأن الأمر مَنْ مان يَمُون مَنْ. مضارع وقمت تَقِم.

وأما استنش ريح مدامه، فمثله رَخراح؛ لأن الأمر من استدعاء الرائحة رُح. وأما غَطَ هَلَكى فمثله صنبور؛ لأن البورهم الهلكى، وفي القرآن ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

وأما سار بالليل مدة؛ فمثله سَراحين.

وأما أخبب فَرُوقه؛ فمثله مِقْلac، لأن الأمر من وَمَق ويمَق مَق، والّلاع: الجبان؛ يقال: فلان هَاعَ لَاعُ؛ إذا كان جباناً جَزُوعاً.

وأما أعط ابريقاً يلُوح بغير عُروة، فمثله أُسْكُوب؛ لأن الأوس الإعطاء والأمر منه أس. والكوب: الأبريق بغير عُروة.

وأما الثور ملكي، فمثله اللآلي؛ لأن اللَّألي على وزن القنا هو ثور الوحش. وأما صفير جَحْفلة، فمثله مكاشفة؛ لأن المكاء الصّفير؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. والأصل في المكاء المد؛ ولكنه قَصَره في هذه الأحجية، كما حذف همزة الفراء في أحجيتيه، وكلا الأمرين من قصر الممدود، وحذف همزة المهموز جائز.

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٢/١، بلفظ: «وفي الرقة ربع العشر».

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٤٢٢/٣، بلفظ: «أنه قال لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: كَلُ الصيد في جوف الفراء».

المقامة السابعة والثلاثون

ونعرف بالصُّعْدِيَّة

حكى الحارث بن همام قال: أضعذتُ إلى صُعْدَةٍ، وأنا ذو شَطَاطٍ يحكي الصُّعْدَةَ، واشتدادِ يبدُر بناتِ صُعْدَةٍ؛ فلما رأيتُ نُضْرَتَهَا، ورَعَيْتُ خُضْرَتَهَا، سألتُ نحارير الرُّوَاة، عَمَّا تَخْوِيهِ مِنَ السَّرَاةِ، ومَعَادِنِ الْخَيْرَاتِ؛ لَأَتَّخِذَهُ جَذْوَةً فِي الظُّلُمَاتِ، وَنَجْدَةً فِي الظُّلَامَاتِ، فَتُنِعَتَ لِي قَاضٍ بِهَا رَحِيبُ الْبَاعِ، خَصِيبُ الرُّبَاعِ، تَمِيمِي النَّسَبِ وَالطَّبَاعِ؛ فلم أَزَلْ أَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْإِلْهَامِ، وَأَتَنَفَّقُ عَلَيْهِ بِالْإِجْمَامِ؛ حَتَّى صَرْتُ صَدَى صَوْتِهِ، وَسَلَّمَانِ بَيْتِهِ.

أصعدت: طلعتُ وارتفعتُ، قال يعقوب: الإصعاد إلى نجد واليمن والحجاز، والانحدار إلى العراق والشام وعمان. وقال الأخفش: أصدع في البلاد: سار فيها ومضى، وأصله الذهاب في الصعود وهو الارتفاع، ثم توسعوا في ذلك، وقال الفراء رحمه الله تعالى في ابتداء الأسفار والمخارج، تقول: أصدعنا من مكة إلى بغداد، وأصدعنا من بغداد إلى خراسان، فأما في السلم فتقول: صعدت فيه لا أصدعت. قال يعقوب رحمه الله: صعد الجبل وأصدع في البلاد: انحدر فيها وصعد: ارتقى.

وصُعْدَةُ: مدينة عظيمة باليمن، بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً، وتحكم فيها صنعة الجلود، والجلد الصُعْدِي في غاية الجودة، ويضرب المثل بحسن نسائها.

الشُّطَاط: طول القامة. والصُّعْدَةُ: الرمح. اشتداد: جري. يبدُر: يسبق. بناتِ صُعْدَةٍ: حمر الوحش. نُضْرَتَهَا: خصبها ونعمتها، والنضرة: صفاء اللون وبريقه، نحارير: علماء، والنَّحِير، الماهر والحاذق الذي جَرَبَ الأمور وعرفها، وهو اسم يجمع وجوهاً من المدح، فيفسر النحرير بالعالم والمفلق والحاذق والماهر والعادل. والسَّرَاة: السادة، وهو جمع سَرِيٍّ، وهو السيد الشريف، وجمع فَعِيل على فَعْلَةٍ عزيز لا يُعرف غير هذا، الجَذْوَةُ: الجمرة الغليظة العظيمة وجيمها بثلاث حركات، ويجمع ثلاثتها، نحو جَذَا وجَذَا وجَذَا. نجدة: قوّة وعوناً، الظُّلَامَات: جمع ظُلامَةٍ، وهو ما يشكّيه المظلوم، رَحِيبُ الْبَاعِ: واسع العطاء، فَكَنَى بِالْبَاعِ عَنْ

ذلك، والعرب إذا وصفت الرجل بالسخاء، قالوا: هو رحيب الباع، وطويل الباع، وكريم الباع، والباع والبوع بَسَطَ اليد بالمعروف، وقد باع ببوع منه، ويقال للبخيل: قصير الباع. خصيب الرُّباع، أي هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله، فالناس يجدون في كَنْفِهِ الخِصْبَ وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلّق به يجد الخصب.

تميميّ النسب، أي من بني تميم وشرك الطباع مع النسب، وهو يريد أنه كامل تام في خلقه، فنسب قبيلته لتميّم، وطباعه التّمام والكمال فغلّب أحدهما، وشرك بينهما للقرب، قال ابن شرف: فيما يَلَمّ بهذا التشريك، ويحسن أن يمدح قاضي المقامة به لجوده: [البسيط]

جَاوَزَ عَلِيًّا وَلَا تَحْفَلْ بِحَادِثَةٍ	إِذَا أَذْغَعَتْ فَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْأَسْلِ
اسْمُ حَكَاهِ الْمُسَمَّى فِي الْفَعَالِ فَقَدْ	حَازَ الْعَلِيِّينَ مِنْ قَوْلٍ وَمِنْ عَمَلٍ
فَالْمَاجِدِ السَّيِّدِ الْجَزَّ الْكَرِيمِ لَهُ	كَالْتَعْتِ وَالْعُطْفِ وَالتَّوَكُّيدِ وَالبَدْلِ
زَانَ الْعُلَا وَسَوَاهِ شَأْنَهَا، وَكَذَا	تَمَيَّزَ الشَّمْسُ فِي الْمِيزَانِ وَالْحَمَلِ
وَرَبَّمَا عَابَهُ مَا يَفْخَرُونَ بِهِ	يُشْنَا مِنَ الْخَضِرِ مَا يُهْوَى مِنَ الْكَفْلِ
سَلَّ عَنْهُ وَانْطَقَ بِهِ وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَجَدُّ	مَلَأَ الْمَسَامِعَ، وَالْأَفْوَاهِ وَالْمُقَلَّ

فإنه أراد بقوله: «حاز العلّيين» أي حاز عليًّا بالاسمية، والعلو بالفعلية، وهذا مثل ما تقدم للحريري: [الخفيف]

جَادَ بِالْعَيْنِ حِينَ أَعْمَى هَوَاهُ عَيْنُهُ فَانْتَنَى بِلَا عَيْنَيْنِ
فَقَدْ أَوْقَعَ التَّشْبِيهَ عَلَى شَيْئَيْنِ، يَتَّفَقَانِ فِي اللَّفْظِ، وَيَخْتَلِفَانِ فِي الْمَعْنَى، وَقَدْ أَنْشَدْنَا
فِي مَا تَقَدَّمَ لِبَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ: [البسيط]

فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنْهَا الْيَوْمَ إِذْ جَمَعْتُ طَيْبَ الْهَوَائِينَ مَمْدُودٍ وَمَقْصُورٍ
فَالْمَقْصُودُ هَوَى النَّفْسِ، وَالْمَمْدُودُ الْهَوَاءُ الَّذِي بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي
تَفْسِيرِ قَوْلِ الْحَرِيرِيِّ، وَحَيَّا الْمَسْجِدَ بِالتَّسْلِيمَتَيْنِ، أَنَّ السَّلَامَ الْوَاحِدَ عَلَى مَنْ فِي الْمَسْجِدِ
عِنْدَ دَخُولِهِ، وَالثَّانِي تَحْلِيلَ الصَّلَاةِ.

وقوله: هنا تميمي النسب والطباع من هذا القبيل، وأكثره في كلام المولدين، وهو مستعمل في كلام العرب، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم: التقى الثريان، فإنهم يريدون بذلك كثرة المطر، وأنه يبلغ في الأرض إلى التراب الندي، فالثرى الواحد المطر، والثاني التراب الندي، على أنه يحتمل أن يريد بذلك أَنَّ التراب اليابس كما بَلَّه المطر، حتى لحق بالتراب الندي، صار اليابس منهما يسمّى «ثرى» فقليل: التقى الثريان، وقال النابغة: [الوافر]

وقد أبقتْ ضُروفُ الدَّهرِ مَنِيَّ كما أبقتْ من السَّيفِ اليماني^(١)
يُصَمِّمُ وهو مأثور جُرَّارٌ إذا جُمعت بقائمه اليدان

فسره أبو عبيد البكري وغيره: بأنه أراد بذلك الجارحة، والأيد الذي هو القوة، فجمع على الأخف، فهذا من قبيل ما قدمناه، ولا يحضرني الآن غير هذا من كلام العرب.

قوله: الإلمام، أي تخفيف الزيارة. أنفق، أخرج، والتَّفَاق ضدَّ الكساد. الإجمام: الزيارة صدى صوته، أي متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له، والصدى: صوت الجبل الذي يريدُ عليك إذا صحت.

وابن همام في هذا المقامة شُرطي القاضي.

[سلمان الفارسي]

وسَلَمَان الذي ذكره، هو سلمان مولى رسول الله ﷺ وخادمه، ويعرف بسلمان الخير، قالت عائشة رضي الله عنها: كان لسلمان رضي الله عنه مجلس مع رسول الله ﷺ ينفرد به في الليل، حتى كاد يغلبنا عليه.

وقال عليه السلام: «أمرني ربي بحُبِّ أربعة، وأعلمني أنه يحبُّهم: عليّ، وأبو ذرّ، والمقداد، وسَلَمَان»، رضي الله تعالى عنهم.

وأتى أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال، فقالوا: ما أخذتْ سيوف الله من عُنُقِ عدوّ الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم! وأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا أخوتاه، أغضبتكم؟ فقالوا: لا، ويغفر الله لك.

وكان من أبناء أساورة فارس، وأصله من رامهرمز، وقيل: كان من أصبهان، وكان يطلب دينَ الله ويتبع مَنْ يرجو ذلك عنده، فدان بالنصرانية وغيرها، وقرأ الكتب، وصبرَ في ذلك على مشقات نالته، وكلَّها مذكورة في إسلامه في كتب السَّير.

وقيل: تداوله في ذلك بضعة عشر ربّاً، حتى أفضى إلى النبي ﷺ فاشتراه من قوم من اليهود.

وأوّل مشاهدِهِ الخندق، وهو الذي أشار بحفره، فقال أبو سفيان وأصحابه: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها.

وسئل عليّ عنه فقال: علم العلم الأول، بحر لا ينزف، هو ممّا أهل البيت، وفي رواية: هو مثل لقمان الحكيم، وكان فاضلاً حنبلاً زاهداً عالماً متقشفاً.

(١) البيتان للناطقة الجعدي في أمالي القالي ٧١/١، واللآلي ص ٢٤٦، وخزانة الأدب ٥١٣/١.

وتعلّم عَمَلَ الخوص، فقيل له: لم نعمل هذا وأنت أمير! وقد أجري عليك رزق، فقال: إني أحببت أن أكل من عمل يدي. وكان يتصدق بما يرزق من بيت المال، وكانت له عباءة يفتersh بعضها ويلبس بعضها.

وقال ﷺ: «لو كان الدين في الثريا لناله سلمان».

أبو هريرة رضي الله عنه، كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فقرأ سورة الجمعة، فلما قرأ: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» [الجمعة: ٣] - وفينا سلمان - وضع يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء».

وتوفي في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، وما ترك شيئاً يورث عنه. وفوائله كثيرة.

وعلى قولهم لأبي بكر: «لا، ويغفر الله لك»، قال أبو محمد في الدرة: وربما أجاب المستخبر بلا النافية، ثم عقبها بالدعاء له، فيستحيل الكلام إلى الدعاء عليه، كما روي أن أبا بكر رضي الله عنه رأى رجلاً، بيده ثوب، فقال: أتبيع هذا؟ فقال لا عافاك الله، فقال أبو بكر رضي الله عنه لقد علمتم لو تعلمون! فهلا قلت: لا وعافاك الله!

قال أبو محمد: والمستحسن ما قال يحيى بن أكتم للمأمون، وقد سأله عن أمر فقال: لا؛ وأيد الله أمر أمير المؤمنين.

وحكي أن صاحب بن عباد لما سمع هذه الحكاية، قال: والله لهذه الواو أحسن من واوت الأصداغ، في خدود المزد الملاح.

وكنت مع اشتيار شهده، واثنيشاق رثده، أشهد مشاجر الخصوم، وأسفر بين المغصوم منهم والمؤصوم، فبينما القاضي جالس للإسجال، في يوم المحفل والاحتفال؛ إذ دخل شيخ بالي الرياش، وبإدي الارتعاش؛ فتبصر الحفل تبصراً نقاد، ثم زعم أن له خضماً غير منقاد؛ فلم يكن إلا كضوء شرارة، أو وحي إشارة؛ حتى أخضر غلام، كأنه ضرغام فقال الشيخ: أيد الله القاضي، وعصمه من التغاضي، إن ابني هذا كالقلم الردي، والسيف الصدي، يجهل أوصاف الإنصاف، ويضع أخلاف الخلاف، إن أقدمت أحجم، وإذا أعربت أعجم، وإن أذكيث أحمّد، ومتى شويت رمّد؛ مع أنني كفّلتُه مذدب، إلى أن شبّ، وكنت له الطف من ربّي وربّ فأكبر القاضي ما شكاً إليه، وأطرف به من حواليه، ثم قال: أشهد أن العقوق أحد الثقلين، ولربّ عقم أقر للعين.

قوله: اشتيار؛ أي استخراج عسله، وأراد اجتناء منفعته. انتشاق: شمّ، يقال: نشق الريح الطيبة نشقاً وانتشق: وتنشق: شمها، الرُّند: شجر طيّب الرائحة، قال ابن دريد رحمه الله: هو الآس، وقال الجوهري رحمه الله: ربما سُمّي العودُ زندا، مشاجر الخصوم: مواضع الخصام التي يتشاجر فيها الخصمان؛ أي يمتزج كلام هذا بكلام هذا، من الشَّجر، واحدها مَشَجَر، وقد يراد بها المصدر، وجمع لاختلاف أنواعه، أسفر: أمشي بينهم بالصلح المعصوم: المحفوظ من الوقوع فيما يحذر، وأصل العصمة في كلامهم المنع، وعصمته من كذا، إذا منعه. ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أي يمنعك، الموصوم: ذو البوضم، وهو العيب، فأراد أنه يُصلح بين أهل الخير والشرّ. للإسجال: للحكم، وأسجل القاضي على نفسه بالحكم، وسجّل، إذا كتب على نفسه، فأراد أنه جلس للحكم في العقود والسجلات، ومحفّل القوم: مجتمعتهم، والاحتفال: كثرة النَّاس واجتماعهم، ومعنى احتفل الرجل: جَمع، وأراد: يكثر من الشيء الذي قصد، وجمع المحفل محافل، ومنه الشاة المحفلة، وهي التي يحبس لبنها أياماً في ضرعها لا تحلب. الرياش: الثياب. تبصر الحفل: نظر الجمع وشخص فيهم، نقاد: مفتش، كأنه ينقُد ببصره الرجال، ويريد أنّه نظر من شرط القاضي أهل الحزم والجرأة، فأخبرهم بقصة ابنه، فانطلقوا فأتوا به، ونقاد الدراهم: الذي يُنَعِن النظر فيها والتقليب لها، ليميز جيدها من رديئها، وحي إشارة، يريد إشارة العين، إذا غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره، والوحي: الإيماء الخفي. صُرْغام: أسد في عظم خلخته وشدته، التغاضي: التغافل والسكوت عن الظلم، الصّدى: الذي علاه الصّدا، وهو وسخ السيف، والأخلاف جمع خَلَف، وهو ما يجلب منه اللبن ويقبض عليه الحالب، قال ابن دريد: وقيل: الخلف للثاقفة كالضُرْع للبقرة: أحجم: تأخر، أعربت: أوضحت، أعجم: أبهم وليس أذكيت: أوقدت. أحمد: أطفأ، وخمدت النار: أطفئ لهبها، كفلته: ربّيته. دبّ: مشى مشي صغيرة على يديه ورجليه. شبّ: صار شاباً ألطف: أشفق وأرق، ربّ: أصلح، يريد أنه أصلح أحواله، وأحسن تربيته تحرّزاً من أن ينسبه القاضي إلى تقصير. أكبر: رآه كبيراً، أطرف: أعجب، وجعلهم يستطرفون خبره. الثكلين: الفقدين، يريد أنّ الرجل إذا عقه ولده ولم يبرّه فكأنه قد فقده.

[عقوق الوالدين]

ومما جاء في العقوق: كان جرير الشاعر أعقّ الناس بأبيه، وكان بلال ابنه كذلك، فرجع جرير بلالاً في الكلام، فقال له بلال: الكاذب بيني وبينك ناك أمّه، فأقبلت أمّه عليه، وقالت: يا عدوّ الله، تقول هذا لأبيك! فقال جرير: دعيه، فكأنه سمعه مني وأنا أقولها لأبي.

وممن شُهر عنه العقوق بوالديه الحُطيئة الشاعر، قال يهجو أباه: [الوافر]

لِحَاكَ اللهُ ثُمَّ لِحَاكَ حَقًّا أَبَا وَلِحَاكَ مِنْ عَمٍّ وَخَالٍ^(١)
فَبئسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمُخَازِي وبئسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْمُعَالِي
جَمَعْتَ اللُّؤْمَ لَا حَيَّاكَ رَبِّي وَأَبْوَابَ السُّفَاهَةِ وَالضُّلَالِ
وَقَدْ تَقَدَّمَ هَجُو نَفْسِهِ وَأُمِهِ .

وممن هجا أباه وغيره علي بن بسام، وما سلّم من هجائه أمير ولا وزير، ولا كبير ولا صغير، ومما قال في أبيه : [الخفيف]

هَبِكَ عُمُرَتْ عُمُرَ عَشْرِينَ نَسْرًا أَتَرَى أَنَّنِي أَمُوتُ وَتَبْقَى !
فَلْتُنْ عَشْتُ بَعْدَ مَوْتِكَ يَوْمًا لِأَشْفُقَنَّ جِيبَ مَالِكَ شَقَا
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا : [الطويل]

بَعَثْتُ لِأَسْتَهْدِيكَ غَيْرًا وَلَمْ أَكُنْ عَلِمْتُ بِأَنَّ الْعَيْرُ صَرَّ لَنَا صِهْرًا
فَوَجَّهَ بِهِ كَيْ نَشْتَرِكَ فِي رُكُوبِهِ فَتَرْكِبُهُ بَطْنًا وَأَرْكِبُهُ ظَهْرًا
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا : [الرملي]

شِدْتُ دَارًا خَلَّتْهَا مَكْرَمَةٌ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهَا الْغَرَقَا
وَأَرَانِيكَ صَرِيعًا وَسَطَّهَا وَأَرَانِيهَا صَعِيدًا زَلَقَا
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا : [البسيط]

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيَّدَهَا وَمِثْلُهُ لَخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءُ
فَالْجُوعُ دَاخِلُهَا وَالذَّلُّ خَارِجُهَا وَفِي جَوَانِبِهَا بؤْسٌ وَضَرَاءُ
مَا يَنْفَعُ الدَّارَ مِنْ تَشْيِيدِ حَائِطِهَا وَلَيْسَ دَاخِلُهَا خَيْرٌ وَلَا مَاءُ

وكذب، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام في نهاية السدود والمرودة والنظافة، رجل مترف نبيل المركب، مليح الملبس، ظريف العلمان، له همة في تشييد البنيان، وما رثاه ابن الرومي به يدل على كذب ابنه، قال ابن الرومي فيه : [الكامل]

أَوَدَى مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ بَعْدَمَا ضُرِبَتْ بِهِ فِي جُودِهِ الْأَمْثَالُ
مَلِكٌ تَنَافَسَتْ الْعِلَا فِي عَمْرِهِ وَتَنَافَسَتْ فِي مَوْتِهِ الْأَجَالُ
مَنْ لَمْ يَعَايِنِ سِيرَ نَعَشِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تُسَيَّرُ الْأَجْبَالُ
وَدَخَرْتَهُ لِلدَّهْرِ أَعْلَمُ أَنَّهُ كَالْحِضْنِ فِيهِ لِمَنْ يُوُولُ مَالُ
وَتَمَتَّعَتْ نَفْسِي بِرُوحِ رَجَائِهِ زَمَنًا طَوِيلًا وَالتَّمَتَّعَ مَالُ

ورأيتُه كالشمس إن هي لم تُنلْ فالرُّفُق منها والضيَاء ينالُ
 لهفي لفقدك يا محمد إنه فُقدت بك التَّفحات والأنفالُ
 بالله اقسُمْ إنَّ عمرك ما انقضى حتى انقضى الإحسانُ والإجمالُ
 ولا بن بسام يعزِّي أبا القاسم بن وهب في ابن مات له : [مخلع البسيط]
 قل لأبي القاسم بن وهب أتى بك الدهر للعجائب
 مات لك ابنٌ وكان زيناً وعاش ذو الشَّين والمعائب
 حياةً هذا كموت هذا فليس تخلو من المصائب
 وقد تقدَّم هجوه في أخيه .

ومن حسن التعطف على الابن العاق ، قول إبراهيم الصابي ، وكان ابنه يعقّه :
 [البسيط]

أرضى عن ابني إذا ما عَقَنِي حَدَرًا عليه أن يغضبَ الرحمنُ من غَضَبِي
 ولسْتُ أدري بم استحَققت من وَلَدِي إسْخَانٌ عيني وقد أقررتُ عَيْنَ أَبِي !

قوله : ولرب عُقْم ، العُقْم ألا تلد المرأة .

فقال العُلام ؛ وقد أعضه هذا الكلام : والذي نصب القُضاة للعَدْل ، وملَكَهُمْ
 أعنة الفضل والفضل ، إنه ما دعا قط إلا أمنت ، ولا ادَّعى إلا آمنت ، ولا لَبَّى إلا
 وأحرمت ، ولا أوزى إلا وأضرمت ؛ بيد أنه كَمَنْ يَبْغِي بَيْنَ الْأَنْوُق ، ويطلب
 الطَّيْران من الثَّوْق فقال له القاضي : وبمَ أَعْنَتِكَ ، وامتنَحْ طَاعَتِكَ ؟ قال : إنَّه مُدْ
 صَفِرَ من المال ، ومني بالإمحال ، يَسْئَلُنِي أَنْ أَتَلَمَّظَ بالسُّؤال ، وأُسْتَمْطِرَ سُحْبَ
 الثَّوَال ؛ لِيَفِيضَ شِرْبُهُ الذي غاض ، وَيَنْجِبَ من حَالِهِ ما انهاض ، وقد كان جِينَ
 أَخَذَنِي بالدَّرْس ، وَعَلَّمَنِي أدبَ النَّفْس ، أَشْرَبَ قلبي أَنَّ الحِرْصَ مَثْعَبَةٌ ، والطَّمَعُ
 مَعْتَبَةٌ ، والشره مَتَحَمَةٌ ، والمسألة مَلَأَمَةٌ .

أعضه : أوجعه وأغضبه ، وأعض من ذلك وامتنع : غضب وشقَّ عليه وأوجعه ،
 ادَّعى : نسب لنفسه ما شاء ، وفلان مُدَّع وفعله الدعوى آمنت : صدقت ما ادَّعاه لبي : من
 تلبية الحاج إذا صاح : لبيك لبيك . أحرمت : صرت محرماً . أوزى : أظهر له النار من
 الزند ، أضرمت : أوقدت ، بيد : غير الأنوق : ذكر الرِّخْم ولا بيض له ، فكأنه طلب أمراً لا
 يكون أبداً ، ومثله : طلب الأبلق العقوق ، والأبلى الذكر والعقوق من الخيل : التي امتلأ

بطنها من حملها؛ يقال للأنثى: قد أعقت وهي معقّ وعقوق؛ فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً، لأنه لا يكون الأبلق عقوقاً.

ويقال: إن رجلاً سأل معاوية أن يزوجه أمه هنداً، فقال: أمرها إليها، وقد أبت أن تزوج، قال: فولّني مكان كذا وكذا، فقال معاوية متمثلاً: [الخفيف]

طلب الأبلق العقوق فلمّا لم ينله أراد بيض الأنواق^(١)

والأنوق: طائر أبيض في شواهد الجبال، فيضها في حرز لا يُطَمَع فيه فمعناه طلب ما لا يكون، وأما طلب الطيران من النوق فمثل الأول، وهو لا يمكن قوله: أعتك، أي أتعبك، وكلفك ما يشقّ عليك، من عنت البعير يعنت عنتاً، إذا حَدَث في رجله كسر بعد الجبر، فلا يمكنه التصرّف إلا بمشقة. قال أبو عبيد رحمه الله: عنته: أضرب به، والعنت: الضرر، قال: وأعنته أيضاً، أهلكه وقال أحمد بن عبيد: أعنته: شدّد عليه، والعنت: التشديد.

ابن عَزِيز: عنت: هلاك، وأصله المشقة والصعوبة، ومنه قولهم: أكمة عثوت، إذا كانت صعبة المسالك، وقوله تعالى: ﴿لَا تُعْتَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي لأهلككم، ويجوز أن يكون المعنى لشدّد عليكم وتعبّدكم بما يصعب أداؤه عليكم، كما فعل بمن قبلكم. امْتَحَن: ابتلي، صَفِر: خلا، مُنِيَ: بلي. الإمحال: الجذب والفقر، يسومني: يكلفني. اتَلَمَّظُ بالسؤال، أي أكثر الكلام به، والتلمّظ: تتبّع ما بقي في الفم من الطعام باللسان بعد الأكل سُحِب: جمع سَحَابَة، النوال: العطاء، قال ابن الأنباري رحمه الله: النّول والنوال: المنفعة والحظّ، ونلت الرجل: إذا نفعت. وأنلته حظاً ونالني فلان: نفعتني، وقولهم: ما كان نولك أن تفعل كذا؛ أي ما كان لك منفعة في هذا الفعل، ونولك: منصوب خبر كان. وأن نفعل اسم كان أو بالعكس. يفيض: يسيل ويكثر. شربه: ماؤه، وأراد به ماله: غاض: جفّ، انهاض: انكسر. أشرب: روى وسقى. الحرص: كثرة: الطمع والطلب للدنيا، والشّره: الحرص الكثير. متخمة: مفسدة، والمسألة: سؤال ما في أيدي الناس. ملامة: لؤم.

ثم أنشدني من فُلّقي فيه، ونحت قوافيه: [السريع]

إرَضَ بأذني العَيْشِ واشكُرْ عليه	شكر مَنْ القُلْ كثير لَدَيْهِ
وجانِبِ الحَرْصِ الذي لَمْ يَزَلْ	يَحْطُ قَدْرَ المِترَاقِي إليه
وحامٍ عَن عَرَضِكَ واشتَبَقْهُ	كما يحامي اللَّيْثُ عن لِبْدَتِيهِ

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (أنق)، (عقق)، وتهذيب اللغة ١/ ٦٢، ٣٢٤/ ٩، وجمهرة اللغة ص ٣٧١، ومقاييس اللغة ١/ ١٤٩، وتاج العروس (أنق)، ويروى «لم يجده» بدل «لم ينله».

واضْبِرْ عَلَى مَا نَابَ مِنْ فَاقَةٍ صَبِرَ أُولَى الْعَزْمِ وَأَغْمَضَ عَلَيْهِ
 وَلَا تُرِقْ مَاءَ الْمَحْيَا وَلَوْ خَوَّلَكَ الْمَسْؤُولُ مَا فِي يَدَيْهِ
 فَالْحَرُّ مَنْ إِنْ قَذَيْتَ عَيْنَهُ أَخْفَى قَذَى جَفْنَيْهِ عَنْ نَاطِرِيهِ
 وَمَنْ إِذَا أَخْلَقَ دِيْبَاجَهُ لَمْ يَرَأْ أَنْ يُخْلِقَ دِيْبَاجَتِيهِ

* * *

فَلَقَ: شَقَّ مِنْ بَيْنِ شَفْتَيْهِ، نَحَتَ: نَجَرَ، أَرَادَ إِنْشَاءَ قِصَائِهِ. وَالْقَوَافِي، مِنْ قَفَوْتَ الشَّيْءَ، إِذَا تَتَبَعْتَهُ، وَاسْمِيتَ بِذَلِكَ الْإِتْبَاعِ بَعْضُهَا بَعْضًا. الْقَلَّةُ: الْمَتْرَاقِي: الْمُرْتَفِعُ، لِبُدْتِيهِ. شَعْرٌ مُتَلَبِّدٌ عَلَى كَفْلِهِ وَبَيْنَ كِتْفَيْهِ، نَابَ: نَزَلَ. فَاقَةٌ: فَقْرٌ. أَغْمَضَ، أَيِ اسْتَرَهُ وَاغْفَلَ عَنْهُ، وَالْمَحْيَا: الْوَجْهَ، خَوَّلَكَ: مَلَكَكَ. النَّاطِرُ: سَوَادُ الْعَيْنِ، فَيُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي عَيْنَيْهِ قَذَى وَهُوَ السَّقْطُ عَلَى شِدَّةِ إِذَايْتِهِ، احْتَمَلَهُ الْحَزَّ الْكَرِيمَ وَصَبَرَ عَلَيْهِ، وَأَخْفَاهُ مِنْ نَاطِرِيهِ: تَجَلَّدَ، أَيِ أَخْفَى أَذَى بَعْضِ الْعَيْنَيْنِ عَنْ بَعْضٍ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْمَبَالِغَةِ، دِيْبَاجُهُ: ثَوْبُهُ، وَالدِّيْبَاجُ: ثَوْبٌ رَفِيعٌ، دِيْبَاجَتِيهِ: خَذِيهِ، وَقِيلَ دِيْبَاجَةُ الْخَذِّ حَسَنُ بَشَرَتِهِ، وَأَخْلَقَ الشَّيْءَ، وَأَخْلَقَهُ غَيْرُهُ لَازِمٌ وَمَتَعَدٌّ: يَقُولُ: إِذَا افْتَقَرْتَ وَبَلَى ثَوْبُكَ فَلَا تَبْذُلْ وَجْهَكَ لِأَحَدٍ، وَلَا تَهْنَهُ بِالسُّؤَالِ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ حَبِيبٍ: [البسيط]

ذَلَّ السُّؤَالُ شَجًّا فِي حَلَقٍ مُعْتَرِضٍ مِنْ دُونِهِ شَرَقٌّ مِنْ خَلْفِهِ حَرَضٌ^(١)
 مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخَلْتَ مِنْ مَاءِ وَجْهِي إِذَا أَفْنَيْتَهُ عِوَضُ
 وَقَالَ فِي ابْنِ الزِّيَّاتِ: [البسيط]

أَعْطَى وَنَطْفَةً وَجْهِي فِي قَرَارَاتِهَا يَصُونُهَا الْوَجَنَاتُ الْغَضَّةُ الْقُشْبُ^(٢)
 وَيَقُولُ: لَمْ يَخْلُقْ وَجْهِي سُؤَالٌ، فَوَجْهِي غَضٌّ جَدِيدٌ، وَالنَّطْفَةُ: مَاءُ الْوَجْهِ الَّذِي نَهَى الْحَرِيرِي عَنْ إِرَاقَتِهِ حِينَ قَالَ: [السريع]

وَلَا تُرِقْ مَاءَ الْمَحْيَا وَلَوْ خَوَّلَكَ الْمَسْؤُولُ مَا فِي يَدَيْهِ

[أَبُو تَمَامٍ وَعَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ الْمَعْدِلِ]

قَالَ الصُّوْلِيُّ: كَانَ حَبِيبٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَجِيبُ هَاجِيًا، تَرْفُعًا عَنْهُ، فَانْحَدَرَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَالْأَهْوَازَ يَمْدَحُ مِنْ بَهْمَا، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ الْمَعْدِلِ: [الخفيف]

أَنْتَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ تَبْرُزُ لِلنَّاسِ سَ بِكَلَّتِيهِمَا بِوَجْهِ مُذَالٍ
 لَسْتُ تَنْفَكَ طَالِبًا لِرِوَايَالٍ مِنْ حَبِيبٍ أَوْ طَالِبًا لِنِوَالٍ

(١) الْبَيْتَانِ فِي دِيْوَانِ أَبِي تَمَامٍ ص ١٤٩.

(٢) الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِ أَبِي تَمَامٍ ص ٤٨.

أَيَّ مَاءٍ لَحَرَ وَجْهَكَ يَبْقَى بَيْنَ ذَلِّ الْهُوَى وَذَلِّ السُّؤَالِ
 فلما قرأ الشعر قال: قد شغل هذا ما يليه، ولا أرب لنا فيه.

وحكى الأصبهاني قال: جمع مجلسُ أبا تمام وعبد الصمد، وكان عبد الصمد
 سريعَ القول، وفي أبي تمام بطاء، فأخذ عبد الصمد قرطاساً، وكتب: أنت بين اثنتين،
 الأبيات، ورمى بها إلى أبي تمام، فأخذه وخلا به طويلاً، وجاء وقد كتب فيه: [الكامل]

أَفَيَّ تَنْظُمَ قَوْلَ الزُّورِ وَالْفَنَدِ وَأَنْتَ أَنْزَرُ مِنْ لَا شَيْءٍ فِي الْعَدَدِ
 أَشْرَجْتَ قَلْبَكَ مِنْ بَغْضٍ عَلَى خُرْقٍ كَأَنَّهَا حَرَكَاتُ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ

فقال له عبد الصمد: يا ماصَّ بَطَرٍ أمه، أخبرني عن «لا شيء» في العدد كيف
 يكون؟ وعن قولك: «أَشْرَجْتَ قَلْبَكَ»، أعبية أو خُزَج، فأشْرَجَه، عليك لعنة الله.

فانقطع أبو تمام انقطاعاً ما رُبِّي مثله.

وحكاية الصوليّ أولى بالصحة من هذه، وليس عبد الصمد من رجال أبي تمام،
 ولا له من التصرف في أنواع الشعر ما لأبي تمام، وصنعُ البديع وَقَفَّ عليه، ولو صَحَّتْ
 الحكاية فلا يحكم بالندرة، لكن يحكم بالجملة، واستعمال ديوان حبيب في مجالس
 العلماء شاهد على فضله، على أَنَّ ما جمعنا لعبد الصمد في هذا الكتاب غاية في بابه.
 فلنرجع إلى ما قيل في ذل السؤال.

[ذل السؤال]

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يَغْذِيهِ أَوْ يَعِيشُهُ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ
 جَهَنَّمَ»^(١).

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: حسبك من السؤال أنه يضعف لسان
 المتكلم، ويكسر قلب الشجاع البطل، ويوقف الحرَّ الكريم موقف العبد الذليل، ويذهب
 بنصرة اللون، ويمحو الحسب، ويحبِّب الموت، ويمقت الحياة.

الأصمعي رحمه الله: سمعت أعرابياً يقول: المسألة طريق المذلة، تسلب الشريف
 عزة والحسب حسبه.

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير: أنشدني ثلاثة أبيات غريبة، فقال أنشدكها بثلاثين
 ألفاً تدفعها إليّ، فقال: حتى تنشُد فأسمع، فأنشده أبيات الأفواه الأوديّ: [الوافر]

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ فَلَمْ أَرِ غَيْرَ خَثَلٍ أَوْ قِتَالٍ^(٢)

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، وأحمد في المسند ١٨١/٤، بلفظ: «فإنه يستكثر من نار جهنم».

(٢) الأبيات في ديوان الأفوه الأودي ص ٢٣.

ولم أر في الخطوب أشدّ ضرّاً وأذى من مُعادة الرّجال
وذقت مرارة الأشياء طرّاً فما شيء أمر من السؤال
ثم قال له: أسمعك وأنت الحكم، فحكم له، وأمر له بثلاثين ألفاً.

وينظر إلى ما نسبته ابن المعذل لحبيب من إضافة ذل السؤال، ما أضافه له عليّ بن
الجهم من ذل الاعتذار، وقال يعتذر للمتوكل: [الخفيف]

إنّ ذلّ السؤال والاعتذار خُطّة صَغْبَةٍ على الأخرارِ
ليس من باطلٍ تورّدها المر ولكن سوابقُ الأقدارِ
فازض للسائل الخضوعَ وللقا رِفْ ذنباً بذلّة الاعتذارِ
إن تجافيت منعماً كنت أولى مَنْ تجافى عن الذنوب الكبارِ
أو تعاقب فأنت أعرف بما لله وليس العقابُ منك بعارِ
وقال أيضاً: [الطويل]

هي النفس ما حمّلتها تتحمّلُ وللدهر أيامٌ تجورُ وتعِدُّ
وعاقبة الصبر الجميل جميلةٌ وأكمل أخلاق الرجال التفضّلُ
ولا عارَ أن زالت عن المرء نعمة ولكنّ عاراً أن يزول التجمّلُ
وما المال إلا حسرةٌ إن تركته وغُثم إذا قدّمته متعجّلُ

قال: فعبس الشّيخُ واكفهر، واندرأ على ابنه وهرّ وقال له: صَة يا عُقّق، يا
مَنْ هو الشّجّي والشرّق، ويك، أتعلّم أمك البِضاع، وظنرك الإرضاع! لقد
تحكّكت العقرُب بالأفْعى، واستنّت الفِصالَ حتّى القرْعى، ثم كأنه ندم على ما فرط
من فيه، وحَدّته المِقة على تلافيه، فَرّنا إليه بعين عاطفٍ، وحُقَصَ له جَنّاح
مُلاطفٍ، وقال له: وَيْكَ يا بُنْيَّ، إنّ مَنْ أَمِرَ بالقناعة، وزَجَرَ عن الضّراعة، هم
أربابُ البِضاعَة، وأولو المكسبة بالصناعة؛ فأما ذوو الضّرورات، فقد استثنى بهم
في المحظورات؛ وهَبَكَ جَهِلْتُ هَذَا التأويل، ولم يَبْلُغْكَ ما قيل، ألسْتَ الذي
عارض أباه، فيما قالَ وما حاباه!

قوله: اكفهر، اشتدّ عبوسه، ووجه مكفهر: منقبض كالح، لا يُرى فيه أثر بشر ولا
فرح اندراً: اندفع على ابنه بالشتم، هرّ: كشر وجهه وعبسه، صه: اسكت، يا عُقّق: يا
كثير العقوق، ويقال: عق أباه يعقه عقوقاً، فهو عاق، ويعدل إلى عُقّق للمبالغة، كعامر
وعمر، وعق أباه: لم يطعه وقطع رحمه. ولما قُتل حمزة عم النبي ﷺ ورضي الله عن

عمه، مرَّ به أبو سفيان، فطعنه بالرمح في شِدْقِهِ، وقال: ذق عُقَقْ، أي ذق جزاء فِعْلِكَ يا عُقَقْ والعق: القطع والشق.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والدِّيُوث، وَرَجُلَةُ النِّسَاء»^(١).

قوله: الشَّجَا: الاختناق بالطعام، الشَّرْق بالماء والطعام والشراب، بهما قوام العيش، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقة وأذية في موضع الالتذاز، وكذلك الولد العاق، وهو أذية في موضع راحة، وما أحسن قول القائل: [مخلع البسيط]

قَرَايَةِ السُّوءِ دَاءٌ سُوءٌ فَاحْمِلْ أَذَاهُمْ تَعَشُّ حَمِيدَا
فَمَنْ تَكُنْ قَرْحَةً بِفِيهِ يَضْبِزْ عَلَى مَصُّهِ الصُّدِيدَا

البُضَاع: النكاح والجماع ظنرك: مرضعتك، تحككت: لصقت بها وحلقت حواليتها، استتت: جَرَبَ متتابعة في سنن، وهو الطريق والمذهب، ومنه فلان يستنّ، أي يجري على أيّ أمر شاء، لا يزجره عنه زاجر. وقيل: استتت، أي سمتت، من قولهم: سنّ الراعي إبله؛ إذا أحسن رعيها فأسمنها، فكأنه حسنها وصقلها. القرعى: التي يصيبها القرع في رأسها، والقرعى: جمع قريع، مثل مرضى ومريض، وهذه أمثال تضرب لمن يتشبه بغيره، ولا يقوي قوته.

فرط: سبق حدثه: ساقته المِقة: المحبة، تلافيه: تداركه بالعطف عليه رنا: نظر: عاطف: راحم، ملاطف، أي رفيق به، أي حسن كلامه وأنسه وخفض الجناح؛ يكنى به عن لين الجانب ويك: عجباً لك! زجر: نهى الضراعة: التذلل، وضرع ضراعة فهو ضارع، تضرّع: تذلل وتخشع، البضاعة: التجارة. المحظورات: الممنوعات، وأراد بالاستثناء ما أحلّ الله من المحرمات لأهل الضرائر، ويروى: سوّغوا في المحظورات، أي رخصوا لهم فيها هبك: أحسبك التأويل: التفسير، ولم يبلغك ما قيل، يعني في إباحة السؤال للمضطّر، وهو قول الناس: الضرورات تبيح المحظورات، ويصدّقه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة: ٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما المسألة كُدُوح يكدح بها أحدكم وجهه إلا مسألة من ذي سلطان أو في أمر لا بدّ منه»^(٢)، عارضه: قابله بنقيض ما قاله. حاباه: اختصّه بهذه الوصية، أي جعل هذا الشعر وصية لمن سمعه، ويقال: حابى فلان فلاناً، إذا مال إليه واتصل به، أخذ من حَبَى السحاب، وهو السحاب الذي يدنو بعضه من بعض وقيل حباه: خصه بالليل أخذه من الحبة، وهي

(١) أخرجه النسائي في الزكاة باب ٦٩، وأحمد في المسند ٦٩/٢، ١٢٨، ١٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٦، والنسائي في الزكاة باب ٩٢، وأحمد في المسند ٩٤/٢، ٩٤/٥.

العطية يحبوها الرجل صاحبه، ويخصه بها قال اليزيدي: ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك: ابنك، وزوجك، وخادمك. [البسيط]

لا تَقْعُدَنَّ عَلَى ضُرٍّ وَمَنْعَبَةٍ لِكِي يَقَالَ عَزِيزُ النَّفْسِ مُضْطَبِرُ
وَانْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ أَرْضٌ مُعْطَلَةٌ مِنْ الثَّيَابِ كَأَرْضِ حَفَّهَا الشَّجَرُ
فَعَدَّ عَمَّا تُشِيرُ الْأَغْبِيَاءُ بِهِ فَأَيُّ فَضْلِ لَعُودٍ مَا لَهُ ثَمَرُ
وَأَزْحَلَ رِكَابَكَ عَنْ رُبْعٍ ظَمِئَتْ بِهِ إِلَى الْجَنَابِ الَّذِي يَهْمِي بِهِ الْمَطَرُ
وَاسْتَنْزَلَ الرُّيَّ مِنْ دَرِّ السَّحَابِ فَإِنْ بُلَّتْ يَدَاكَ بِهِ فَلْيَهْنِكِ الظَّفَرُ
وإن رِدَدْتَ فَمَا فِي الرَّدِّ مَنْقَصَةٌ عَلَيْكَ، قَدْ رَدَّ مُوسَى قَبْلُ وَالْخَضِرُ

مسغبة: جوع. حَفَّهَا: حَلَقَهَا، يريد أن الأرض ذات الخصب تُقَصِّد لما فيها من الأرزاق، والأرض المُعْطَلَة من النبات - وهي الجدبة - يَفْرَ عنها، وكذلك الغني يُكْرِم لِمَالِهِ، والفقير يهجر ويهان.

[فضل المال]

ومما جاء في فضل المال، قال رسول الله ﷺ للمجاشعي: «إِنْ كَانَ لَكَ مَالٌ فَلَكَ حَسَبٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ خُلُقٌ فَلَكَ مَرْوَةٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ دِينٌ فَلَكَ كَرَمٌ».

وقال حكيم لابنه: يَا بَنِي أَوْصِيكَ، عَلَيْكَ بِطَلْبِ الْمَالِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّهُ عَزَّ فِي قَلْبِكَ، وَذُلٌّ فِي قَلْبِ عَدُوِّكَ.

وقال آخر لابنه: يَا بَنِي أَوْصِيكَ بِاِثْنَيْنِ لَنْ تَزَالَ بِخَيْرٍ مَا تَمَسَّكَ بِهِمَا: دَرَاهِمُكَ لِمَعَاشِكَ، وَدِينُكَ لِمَعَادِكَ.

وكان سعد بن عبادَةَ يقول: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حَمْدًا وَمَجْدًا، فَإِنَّهُ لَا مَجْدَ إِلَّا بِقَعَالٍ، وَلَا فَعَالَ إِلَّا بِمَالٍ.

وقالوا: الْمَالُ آلَةٌ لِلْمَكَارِمِ، وَعَوْنٌ عَلَى الزَّمَانِ، وَمَتَأَلَّفٌ لِلْإِخْوَانِ، وَمَنْ فَقَدَهُ قَلَّتِ الرِّغْبَةُ إِلَيْهِ وَالرَّهْبَةُ مِنْهُ.

قال سفيان الثوري: الْمَالُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ.

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزُّوراء ثلاثمائة ناضح، فدخل يستأنس له، فمرَّ بتمرة فلقطها، فَلَيَّمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: تَمْرَةٌ إِلَى تَمْرَةٍ تَمَرَاتٍ، وَجَمَلٌ إِلَى جَمَلٍ ذُودٌ. ثُمَّ أُنْشِدَ يَقُولُ: [البسيط]

إِنِّي مَقِيمٌ عَلَى الزُّورَاءِ أَعْمَرُهَا إِنَّ الْحَبِيبَ إِلَى الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ^(١)
 اسْتَغْنَى أَوْ مِتْ وَلَا يَغْرُزُكَ ذُو نَشَبٍ مِنْ ابْنِ عَمٍّ وَمِنْ عَمٍّ وَمِنْ خَالٍ
 كُلَّ النَّدَاءِ إِذَا نَادَيْتُ يَخْذُلْنِي إِلَّا النَّدَاءَ إِذَا نَادَيْتُ يَا مَالِي
 وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ: [الوافر]

ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَلِإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمْ الْفَقِيرُ
 وَأَدْنَاهُمْ وَأَهْوَأُهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ
 يُبَاعِدُهُ الْقَرِيبَ وَتَزْدَرِيهِ حَلِيلَتُهُ وَيَقْهَرُهُ الصَّغِيرُ
 وَيَلْقَى ذُو الْعَنَى وَلَهُ جَلَالُ يَكَادُ فَوَادُ لِقِيهِ يَطِيرُ
 قَلِيلُ ذَنْبِهِ وَالذَّنْبُ جَمٌّ وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبٌّ غَفُورُ^(٢)

وَمِنْ أَمْثَالِ بَغْدَادِ: الْمَالُ الْمَالُ، وَمَا سِوَاهُ مُحَالُ.

قَوْلُهُ: الْأَغْبِيَاءُ: الْجَهَالُ، وَأَرَادَ بِهِمُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْبَخْلِ. ظَمَنْتُ: عَطَشْتُ.
 وَالرَّكَابُ: الْإِبِلُ. وَالْجَنَابُ: الْجَانِبُ وَالنَّاحِيَةُ. يَهْمِي: يَسِيلُ وَالرَّيُّ: الشَّبَعُ مِنَ الْمَاءِ،
 وَالصُّوبُ وَقَعَ الْمَاءُ. وَالظَّفَرُ: الْفَوْزُ بِالْحَاجَةِ، يَقُولُ: فَارَقَ أَرْضَكَ وَاغْتَرَبَ فِي طَلَبِ
 الْمَالِ، وَاسْأَلِ الْكِرْمَاءَ يَعْطُوكَ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ: [الطويل]

سَأَعْمِلُ نَصَّ الْعَيْسِ يَوْمًا لِيَكْفِينِي غِنَى الْمَالِ يَوْمًا أَوْ غِنَى الْحَدَثَانِ^(٣)
 فَلَلَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى بِهَا عَلَى الْمَرءِ بِالْإِقْلَالِ وَشُمُّ هَوَانٍ
 إِذَا قَالَ لَمْ يُسْمَعْ لِحَسَنٍ مَقَالِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيَانٍ
 كَأَنَّ الْغِنَى فِي أَهْلِهِ يَجْعَلُ الْفَتَى بَغِيرَ لِسَانٍ نَاطِقًا بِلِسَانٍ

وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ: «قَدْ رَدَّ مُوسَى قَبْلَ وَالْخَضِرَ، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا
 أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمْنَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧].

(١) يَرُودُ الْبَيْتُ الْأَوَّلُ:

إِنِّي أَقِيمُ عَلَى الزُّورَاءِ أَعْمَرُهَا إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ
 وَهُوَ لِأَحِيحَةَ بْنِ الْجَلَّاحِ الْأَنْصَارِيِّ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ (زور)، وَتَاجُ الْعُرُوسِ (زور).

(٢) يَرُودُ الْبَيْتُ الْآخِرُ:

قَلِيلٌ عَيْنُهُ وَالْعَيْنُ جَمٌّ وَلَكِنَّ الْغِنَى رَبٌّ غَفُورُ
 وَهُوَ فِي دِيْوَانِ عُرْوَةِ بْنِ الْوَرْدِ ص ٩٢، وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٢٩/٣، وَبِلَا نِسْبَةٍ فِي الْإِنْصَافِ ٦٤/١.

(٣) الْبَيْتُ الْأَوَّلُ لِأَعْرَابِيِّ مِنْ بَاهِلَةِ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ ٢٣٤/١، وَعَيُونُ الْأَخْبَارِ ٣٤/١، وَالْكَامِلُ ١/٤١٠، وَبِلَا نِسْبَةٍ فِي مَقَائِيسِ اللُّغَةِ ٢٧٦/٥، وَأَسَاسُ الْبَلَاغَةِ (مَنِ).

وفي نسب الخضر اختلاف، منهم مَنْ جعله من قابيل بن آدم، ومنهم من يجعل بينه وبين سام بن نوح خمسة آباء، ويجعله من ذرية سام، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما سُمِّيَ خضرًا لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتَزْ خضرة»^(١). والفروة: الأرض البيضاء، وقصته مع موسى مشهورة. وقيل إن موسى صاحبه غير موسى بن عمران. وقال موسى للخضر حين فارقه: عظمي فقال: لا يراك الله حيث نَهَاكَ، ولا يفقدُك حيث أمرك، فكما تذهب بأمل صادق فتخبب، قد تذهب بأمل كاذب فتصيب، وتذهب للحقير، وتدرّك الجليل. وقد ذهب موسى ليقْتَبِسَ نارًا، فكَلَّمَهُ ربه. وقد تقدّم هذا.

قال ابن عبد ربه: مما جُبِلَ عليه الحرّ الكريم، ألا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له من أمر الدنيا، بل يكون أمله فيما هو أسنى درجة وأرفع مرتبة، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو عامل بالمدينة لذيّكين الراجز: إن لي نفساً تَوَاقَّةً، فإذا بلغك أني صرت إلى أشرف من منزلي فأتني. فلما صار خليفة أتاه، فقال: أنا أعلمتك أن لي نفساً تَوَاقَّةً، وأن نفسي تآقت إلى أشرف منازل الدنيا منزلة، فلما بلغتها وجدتها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة منزلة.

ومن الشاهد لهذا المعنى أنّ موسى عليه السلام لما كلمه ربه تكليماً سأله، النظر إليه إذ كان ذلك - لو وصل إليه - أشرف من المنزلة التي نالها؛ فالحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجاء أشرف منها قال: ومن قولنا في هذا المعنى: [البسيط]

والحرّ لا يكتفي أبداً من نيل منزلة	حتى ينال التي من دونها العطبُ
يسعى به أملٌ من دونه أجلُّ	إن كَفَّهُ رهْبٌ يدعوبه رغبُ
لذاك ما سأل موسى ربه: أرني	أنظرُ إليك وفي تسألَه عجبُ
يبغي التزَيّد فيما نالَ من كرم	وهو النجى لديه الوخي والكُثْبُ

وقال حبيب: [الطويل]

ذريني وأهوالَ الزمان أقاسيها فأهواله العظمى تليها رغائبه^(٢)

قال: فلمّا أن رأى القاضي تنافى قول الفتى وفعله، وتَحَلَّيَهُ بما ليس من أهله، نَظَرَ إليه بعينِ غَضَبِي، وقال: أَتَمِيمًا مرةً وقيسيًا أخرى! أف لمن ينقُضُ ما يقول، ويتلوّنُ كما تتلوّنُ العُولُ. فقال الغلام: والذي جَعَلَكَ مفتاحاً لِلْحَقِّ، وفتاحاً

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٢٧، والترمذي في تفسير سورة ١٨، باب ٣، وأحمد في المسند ٣١٢/٢، ٣١٨.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٤.

بين الخلق؛ لقد أنسييت مذ أسيت، وصديء ذهني مذ صديت؛ على أنه أين الباب
الفتح، والعطاء السرح! وهل بين من يتبرع باللها، وإذا استطعم بقول: ها!
قال له القاضي: مة فمع الخواطيء سههم صائب، وما كل بزق حالب. فميز
البروق إذا شمت، ولا تشهد إلا بما علمت.

قوله تحليه: تزينه، وقوله: أتميمًا مرة وقيسيًا أخرى، مثل يضرب لمن يتناقض
فيما يقول، تقديره: أنتسب مرة لتميم وتنسب مرة لقيس! وتميم وقيس قبيلتان عظيمتان،
وبينهما أبدأ مكافحات ومقاتل، وتميم هذا ابن مرة بن آد بن طابخة بن إلياس بن مضر،
وقيس بن إلياس، قال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا
الدرداء، إذا فاخرت ففاخر بقرش، وإذا كاثرت فكاثر بتميم، وإذا حاربت فحارب
بقيس، إلا أن وجهها كنانة، ولسانها أسد، وفرسانها قيس، ألا إن الله فرساناً في سمائه
وهم الملائكة، وفرساناً في الأرض وهم قيس، وإن آخر من يقاتل على الإسلام حين لا
يبقى إلا ذكره، ومن القرآن إلا رسمه، رجل من قيس». قلت: يا رسول الله، من أي
قيس؟ قال: «من سليم». وفي البديعية: [مجزوء الخفيف]

إن حالي مع الزما	ن كحالي مع النسب
أنا أصحى مع النبي	ط وأمسي مع العرب
نسبي قي يد الزما	ن إذا سامه انقلب

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حطان: أزيدياً مرة، وأوزاعياً أخرى! وقال عمران
ابن حطان: [البيط]

فإعذر أخاك ابن زنباع فإن له	في النائبات خطوباً ذات ألوان
يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن	وإن لقيت معدياً معدناني ^(١)

وقال آخر: [البيط]

أفي الولائد أولاداً لواحدة وفي العيادة أولاداً لعلات^(٢)
قوله: يتلون، أي يتغير ويتنوع. والغول: ساحرة الجن، وهو يتصور في صور
شتى. وأخذ من قول كعب بن زهير: [البيط]

(١) البيت الثاني لعمران بن حطان في خزنة الأدب ٣٥٧/٥، وشرح شافية ابن الحاجب ١٤/٢.

(٢) يروى صدر البيت:

أفي الولائم أولاداً لواحدة

وهو بلا نسبة في شرح أبيات سيويه ٣٨٢/١، والكتاب ٣٤٤/١، ولسان العرب (علل)، والمقتضب
٢٦٥/٣، والمقرب ٢٥٨/١.

فما تدوم على حالٍ تكونُ بها إلا كما تلوّن في أثوابها الغول^(١)

وتزعم العرب أنه إذا انفرد رجل في الصحراء ظهرت له في خلقة إنسان، ولا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق، فتدنو منه، وتتمثل في صور مختلفة فهلكه روعاً. وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت ناراً فيُبصرها الساري فيقصدها، فتفعل ذلك وتروّعه، فإن كان الذي يأتيها شجاعاً مقدّماً تحامل وتبعها، فإذا رأت ذلك لم تضرّه، وجلس يصطلي بنارها وهي معه. وقال تأبط شراً: [المقارب]

وأدهم قد جبتُ جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيلاً^(٢)
إلى ضوء نارٍ تنورُ ثُها فبت لها مدبراً مُقبلاً
فأمسيّت والغول لي جارةً فيا جارنا أنت ما أهولاً
فمن يك عن جارتِي سائلاً فإن لها باللوى منزلاً

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبط شراً ليلة ذات ظلمة ورعد وبرق بواد يقال له: رَحَى بطن، فلقية الغول - وهو سبعٌ من سباع الجن - فما زال يقاتلها حتى قتلها، فقال: [الوافر]

ألا مَنْ مبلغُ فتیان فهمٍ بما لاقيتُ عند رَحَى بطنٍ
فإنّي قد رأيت الغول تهوي بسَهْب كالصّحيفة صُحُحانٍ
فشدتْ شدّة نحوي فأهوى لها كُفي بمصقولٍ يمايني
لها عينان في رأسٍ قبيح كرأس الهزّ مشقوق اللسان
وساقاً مخدج وشوّة كلب وثوبٌ من عباءٍ أو شئان

قالوا: وخلفتها خلقة إنسان ورجلاها رجلا حمار، فإذا صاح بها الرَّجُل: رجلي حمار! نهقت نهيقاً لا تخطيء السبب والطريق، وفرت منه.

وانظر في التاسعة والأربعين ذكر القطرب وفيه شيء مستظرف.

قوله: فتّاحاً، أي حاكماً. وافتح بيننا، أي احكم بيننا، والفتاح: الناصر، والفتح: النصر. والحاكم بنصر المظلوم. أسيت: حزنت صدى ذهني، أي تغطي بالغفلة، من الصّدأ، وهو ما يعلوه من الدرن. وصديتُ، غير مهموز أصدى صدى، وأراد مذ افتقرت

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٨، والمخصص ٥/١٧، والمذكر والمؤنث للأنباري ص ٤١١، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٦١، ٩٨٨.

(٢) يروى صدر البيت الأول:

وأدهم قد جبت ظلماء

وهو لحاجز السروي في لسان العرب (فعل).

علاني الوسخ، وصحبني النسيان. والفُتْح: الكثير الفُتْح الواسع الذي لا يغلق في وجه قاصده. السُّرْح: الكثير الذي يسرح صاحبه في أنواع الجود، والسرح: السهل السريع، وناقاة سُرُوح: مسرعة في سيرها يتبرع: يتفَضَّل بجوده متطوعاً، وتبرّع: تطوَّع. اللها: العطايا. ها معناها: خذ وتناول. وذكر أبو محمد هذه اللفظة في الدِّرة فقال: ويقولون لمن يُناول شبثاها، بقصر الألف، فيلحنون فيها، لأن الألف ممدودة كما جاء في الحديث: «الذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاء»^(١). ويجوز فيه فتح الهمزة وكسرها مع المدّ ولا تقصر إلا إذا اتصلت بها كاف الخطاب، فيقال: هاك؛ كما يروى أن علياً رضي الله عنه أب إلى فاطمة رضي الله عنها من بغض مواطن الحرب، وسيفه يَقطر دماً، فقال: [الطويل]

* أفاطمَ هاكِ السيفَ غيرَ مذمَّم^(٢) *

وعند النحويين أنّ المد فيها بدل من كاف الخطاب، لأنّ أصل وضعها أن تقترب كاف الخطاب بها. فساقها أبو محمد هنا مقصورة بغير كاف، ووقع فيما زعم أنه لحن. فإن قيل: لعلها لما وقعت في فقرة موقوف عليها، يحتمل فيها ذلك، فنقول: إنه قد أردفها على فقرة قبلها مقصورة بإجماع، وهي اللها فسوّاها معها؛ على أن أهل اللغة حكّوا في اللفظة أربع لغات: ها مقصورة كما في المقامة، وهاء بالمدّ مع فتح الهمزة وكسرها. وسمع رجل أبا العتاهية ينشد: [مجزوء الكامل]

فانظر بطرفك حيث شئت فلن تَرى إلا بخيلاً

فقال: قد بخلت الناس كلّهم، فقال: كذبني أنت بواحد منهم سخّي.

قوله: مه: اكفف. الخواطيء: السهام تخطيء الغرض، وهذا مثل يضرب لمن يكثر الخطأ ويأتي أحياناً بالصواب. خالب: خادع شُمت البرق: نظرت سحابه أين يمطر. أعظم: جعله عظيماً.

* * *

فلما تبين للشّيخ أن القاضي قد غضبَ للكِرَام، وأعظَمَ تَبْخِيلَ جَمِيعِ الأنام؛ علم أنه سَيَنْصُرُ كلمته، ويُظهِرُ أكرؤمته، فما كَذَّبَ أن نَصَبَ شَبَكَتَهُ، وشَوَى في الحريق سَمَكَتَهُ، وأنشأ يقول: [السريع]

(١) أخرجه البخاري في البيوع باب ٥٤، ٧٦، وابن ماجه في التجارات باب ٤٨.

(٢) يروى البيت:

أفاطمَ هاءِ السيفَ غيرَ مذمَّم فلست برعديد ولا بلشيم

وهو لعلي بن أبي طالب في ديوانه ص ١٧٤، وجمهرة اللغة ص ٢٥١، وشرح المفصل ٤/٤٤، وبلا نسبة في سر صناعة الإعراب ١/٣١٩، والمحتسب ١/٣٣٧.

يَأْيُهَا الْقَاضِي الَّذِي عِلْمُهُ وَجِلْمُهُ أَرْسَخُ مِنْ رَضْوَى
قَدْ أَدْعَى هَذَا عَلَى جَهْلِهِ أَنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَخُو جَدْوَى
وَمَا دَرَى أَنَّكَ مِنْ مَغْشَرٍ عَطَاؤُهُمْ كَالْمَنْ وَالسَّلْوَى
فَجُذِّ بِمَا يَثْنِيهِ مُسْتَخْزِيَاً مِمَّا افْتَرَى مِنْ كَذِبِ الدَّعْوَى
وَأَنْتُنِي جَذْلَانِ أَنْتُنِي بِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ جَدْوَى وَمِنْ عَدْوَى

* * *

والحريق: ما تحرقه النار من الحشيش والعيدان، وناره ضعيفة لا تدوم. السمك: كبش الماء، فلا يستوي إلا على نار قوية فربما شوى سمكته ما دام لهب النار موجوداً، فإذا سكن اللهب لم يتمكن من شيها لعدم الجمر في الحريق، فيريد أنه حرّض القاضي بالشعر على الكرم، حين اهتزّ للكرام، وغضب من تبخيلهم فهزّه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن، فربما يبدو له ألا يجود. أرسخ: أثبت رضوى: جبل بالمدينة سهل مشق من الرضوان، كأن الذي يصعده راض عنه لقلة المشقة في صعوده. أخو جدوى: صاحب عطية وكرم. المنّ والسلوى: طعام كان ينزل على بني إسرائيل، وقيل: المنّ الترنجبين والسلوى. السمانى، وهو طائر. يثنيه: يرده. مستخزياً: صاغراً خاضعاً. ويروى «مستخدياً»، والخدية: الاستحياء، أو يكون بمعنى مهاناً، والخزي: الهوان افترى: كذب واستبعد أنثني جذلان: أرجع فرحاً. أوليت: أعطيت. جدوى: إعانة، أي أرجع بالجدوى، وبإعانتك لي عليه حتى يتوب من عقوقه.

* * *

قال: فهشّ القاضي لقوله، وأجزّل له من طوّله، ثم لفت وجهه إلى الغلام، وقد نصل له أسهم الملام، وقال له: أرايت بطل زعمك، وخطأ وهمك! فلا تغجلّ بعدها بذمّ، ولا تنحت عوداً قبل عجم، وإياك وتأبئك، عن مطاوعة أبيك، فإنك إن عذت تغفّه، حاق بك مني ما تستحقّه، فسقط الفتى في يده، ولاذّ بحقو والده، ثم نهض يخفد، وتبعه الشيخ يُشيد: [السريع]

مَنْ ضَامَهُ أَوْ ضَارَهُ دَفَرُهُ فليَقْصِدِ الْقَاضِي فِي صَعْدَةِ
سَمَاحُهُ أَرَى بِمَنْ قَبْلَهُ وَعَذْلُهُ أَتَعَبَ مَنْ بَعْدَهُ

* * *

هشّ: فرح. أجزّل: أكثر. طوّله: إفضاله وهباته. ولف: ردّ نصل: جعل له نصلاً، وأنصلها: نزع نصلها، والنّصل: حديدة السهم. بطل زعمك، أي بطلان قولك. وهمك: ظنك. تنحت: تنجر. عجم: اختبار، أي حتى تعلم: هل هو قويّ أو ضعيف،

يقول: لا تعتب أحداً حتى تجرّبه. قوله: وإياك وتأنبك عن مطاوعة أبيك، أي احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك، فإنك ومالك لأبيك.

جابر رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي، فقال له: «أذهب، فائتني به»، فأوحى إلى النبي ﷺ أن يسأل الشيخ عن شيء في نفسه، قاله في شأن ابنه. فلما جاء الشيخ، قال له النبي ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله؟! فقال: سله يا رسول الله، هل أنفقته إلا على نفسي أو على إحدى عماته أو خالاته! فقال له النبي ﷺ: «دعني من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك، ما سمعته أذنك»، فقال: يا رسول الله، ما زال الله يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً، ما سمعته أذنائي، وأنشد يقول: [الطويل]

غذوتك مولوداً وُغَلَّتْكَ يافعاً	تُعَلِّ بما أجنني عليك وتنهل ^(١)
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبث	لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأنني أنا المطروق دونك بالذي	طُرِقت به دُوني فعينا ي تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنتُ فيك أوْمَلُ
جعلت جزائي غلظة وفضاظة	كأنك أنت المنعم المتفصل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلايب ابنه، وقال: «أنت ومالك لأبيك»^(٢).

قوله: حاق، أي نزل، تقول: حاق به المكروه والشؤم يحيق حيقاً، نَزَلَا به.

ابن عرفة: وجبا عليه والزمه، قال الأزهري رحمه الله: الحيق ما يحيط بالإنسان من سوء عمله ومكروه فعله، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، أي لا ترجع عاقبة مكرهم إلا عليهم. سَقِطَ في يده، يقال ذلك للنادم المتحيز، ويقال: سَقِطَ في يده وأسَقِطَ في يده، إذا ندم على فعله، وتحسّر عليه، واليد هنا: الندم، وقوله: سَقِطَ الفتى في يده، قال جماعة من أهل اللغة: صوابه: سَقِطَ في يده من غير تسمية الفاعل، لأن الفعل مسند إلى المجرور. وقال الأزهري رحمه الله: إنما حَسَنَ سَقِطَ في يده بضم السين، غير مسمّى فاعله الصلة، وهي في يده، ومثله قول امرئ القيس: [الكامل]

* دَع عَنْكَ نَهْبا صَبِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ^(٣) *

(١) الأبيات لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٤٥، والبيت الأول في تاج العروس (عول).

(٢) أخرجه ابن ماجه في التجارات باب ٦٤، وأحمد في المسند ١٧٩/٢، ٢٠٤، ٢١٤.

(٣) عجزه:

أي صاحّ المنتهب في نواحيه، وكذلك المراد سقط الندم في يده. وقال أبو القاسم الزجاجي: سَقِطَ في أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن، ولا عرفته العرب، فيوجد في أشعارها وخفي على الإسلاميين قال أبو نواس: [الرجز]

* ونشوة سقطت منها في يدي *

وأخطأ في استعمالها، لأن فعلت لا يُبنى إلا مما يتعدى، لا يقال: رغبت ولا غضبت، إنما يقال رغب فيّ وغضب عليّ. لاذ: لجأ وتستر، ولاذ فلان بفلان: تستر به ودار حوله، وبعضهم يقول: ألاذ، والأولى هي الغالبة، واللواذ مصدر لاوذ، ولذا أثبت الواو، ولو كان مصدر «لاذ»، لقلت ليأذا، كقمت قياماً.

بحقو: بخضر، وجمعه أحقاء وحقاء. وحفد يحفد أسرع. ضامه: أذله. ضارّه: ضرّه: أزرى: قصر. وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين.

قال الراوي: فجزت بين تعريف الشيخ وتنكيره، إلى أن اخروّزف لمسيره، فناجيتُ النَّفْسَ باتباعه، وَلَوْ إلى رباعيه، لَعَلِّي أظهرُ على أسرارِهِ، وأعرفُ شَجَرَةَ نَارِهِ، فنبذت العُلُقَ، وَأَنْطَلَقْتُ حيث أنطَلَقَ، ولم يَزَلْ يَخْطُو وأَعْتَقِبَ، وَيُبْعِدُ وأَقْتَرِبَ، إلى أن تَرَأَى الشَّخْصَانِ، وَحَقَّ التَّعَارُفُ على الخُلُصَانِ، فأَبْدَى حينئذٍ الاهتِشاشَ، وَرَفَعَ الإزْتِعاشَ، وقال: مَنْ كاذبٌ أخاه فَلَا عَاشَ. فعرفت عند ذلك أَنَّهُ السُّرُوجِي بِلَا مَحَالَةٍ، وَلَا حُؤُولَةٍ حَالَةٍ. فَأَسْرَعْتُ إليه لأَصَافِحُهُ، وَأُسْتَعْرِفَ سَانِحَهُ وَبَارِحَهُ؛ فقال: دونك ابن أخيك البَرَّ، وتركني ومَرَّ. فلم يَغْدُ الفتى أن أن افترّ، ثم فرّ كما فرّ، فَعُدْتُ وقد اسْتَبَنْتُ عَيْنَهُمَا، وَلَكِنْ أَيْنَ هما!

احرورف: مال وانحرف: ناجيت: حدثت. رباعه: دياره. شجرة ناره، يريد أصل جبلته. أعتقب: أمشي خلفه واتبع عقبه. تراءى: ظهر، وخُلُصَانِ الرجل: صديقه الذي خلصت له مودته. الاهتِشاش: الطرب والبشر. الارتعاش: الرعدة، يريد أن داءه كذب لا حقيقة له محاله: حيله حوول: تغيّر. أصافحه: أعانقه وأسلم عليه. أستعرف سَانِحَهُ

= البيت لامرئ القيس في ديوانه ص ٩٤، وخزانة الأدب ١٥٩/١٠، ١٧٧/١١، والدرر ١٤٠/٤، وشرح شواهد المغني ٤٤٠/١، ولسان العرب (صيح) (حجر)، (رسم)، (سقط)، ومغني اللبيب ١٥٠/١، والمقاصد النحوية ٣٠٧/٣، وهمع الهوامع ٢٩/٢، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ٢٤٤، والمقرب ١٩٥/١.

وبارحه، أي أطلب منه أن يعرّفني بخيره وشره. والسانح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك، والبارح ما مرّ على ناحية يسارك وقيل: السانح ما أولاك ميامنه، والبارح؛ ما أولاك مياسره، وأكثر العرب تتبرك بالسانح وتتشاءم بالبارح، وبعضهم يتبرك بالبارح، ويتشاءم بالسانح، والسانح: الذي يمرّ عليك عن ميامنك إلى مياسرك، فيمكن للطّاعن طعنه، وللرامي رميه، فالذي يتميّن به يرى أنه رزق حاصل، والذي يُتشاءم به يرى أنّه عاطب وهالك، والبارح بالضدّ، فالأول يرى أنه فائت، وراميه خاسر فيتشاءم به، والثاني يرى أنه سالم غير عاطب، فيتيمّن به، والذين يتيّمّنون بالبارح ويتشاءمون بالسانح أهل نجد، والذين يضادّونهم أهل العالية.

قوله: دونك، أي خذه واقصده. البرّ: والبار: الكثير الإكرام لأبويه. افترّ: ضحك. استبّنت: عرفت. عينهما: شخصهما، وجعله آخر المقامة برّا له لموافقته له في الحيل، وجرت العادة بأنّ الأب إذا كان نجيباً، فالابن بالضدّ ولهذا قال الشاعر:

[المقارب]

إذا أطلع الدّهر حرّاً نجيباً فكن في ابنه سيّئ الاعتقاد
فلست ترى منّ نجيب نجيباً وهل تترك النّار إلا الرماد!

المقامة الثامنة والثلاثون

وهي المروية

حكى الحارث بن همام قال: حُبِّبَ إِلَيَّ مَذْ سَعَتْ قَدَمِي، وَنَفَثَ قَلَمِي، أَنْ أَتَّخِذَ الْأَدَبَ شِرْعةً، وَالْاِقْتِبَاسَ مِنْهُ نُجْعةً؛ فَكُنْتُ أَنْقَبُ عَنْ أَحْبَارِهِ، وَخَزَنَةِ أَسْرَارِهِ؛ فَإِذَا أَلَفْتُ مِنْهُمْ بَغِيَّةَ الْمَلْتَمَسِ، وَجَذْوَةَ الْمُقْتَبِسِ، سَدَدْتُ يَدِي بِغَرْزِهِ، وَاسْتَنْزَلْتُ مِنْهُ زَكَاةَ كَنْزِهِ؛ عَلَى أَنِّي لَمْ أَلْقِ كَالسَّرُوجِيِّ فِي غَزَاةِ الشُّخْبِ، وَوَضَعَ الْهَنَاءَ مُوَاضِعَ الثُّقْبِ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَسِيرَ مِنَ الْمَثَلِ، وَأَسْرَعَ مِنَ الْقَمَرِ فِي الثُّقْلِ، وَكُنْتُ لِهَوَى مُلَاقَاتِهِ، وَاسْتِحْسَانِ مَقَامَاتِهِ، أَرْغَبُ فِي الْاِغْتِرَابِ، وَأَسْتَعِذُّ بِالسَّفَرِ الَّذِي هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ.

قوله: نفث، أي كتب، والثفث ما تلقى من فيك من البصاق الغليظ، فشبه ما يلقيه القلم من المداد بالثفث، هذا ظاهر اللفظ، وإنما أراد في المعنى بالقلم ذكره، ونفثه منيته، فكنى عن البلوغ بذلك، فهو يريد وقت الحلم، وهو الوقت يقوى فيه على المشي في الأسفار، والتصرف؛ كذا فسرناه لنا بعض حذاق أشياخنا، وفسرناه الفنجدية على ظاهره، فقال: معنى مذ سعت قدمي نفث قلمي، مذ قدزت على المشي والكتابة والنظم والنثر. شِرْعة: طريقة وشريعة وعادة، ومعناه: أصرف همتي إلى علم اللغة والعربية. قال الشافعي رضي الله عنه: مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْفَقْهِ نَبَّلَ مَقْدَارُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ اللُّغَةَ رَقَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْحِسَابَ جَزَلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ قَوَّيَتْ حُجَّتُهُ وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ، لَمْ يَنْفَعْهُ عَمَلُهُ.

الاقتباس: الاكتساب وهو افتعال، من القَبَس. نجعة: طلب المرعى، أي جعلت طلب الأدب لي غذاء ورزقا. أَنْقَبُ: أبحث. أَحْبَارُهُ: علمائه. أَلْفَيْتُ: وَجَدْتُ. بَغِيَّةً: حَاجَةً. الْمَلْتَمَسِ: الطَّالِبُ لِلشَّيْءِ. جَذْوَةٌ: جَمْرَةٌ عَظِيمَةٌ. وَالْمُقْتَبِسِ: الطَّالِبُ لِلنَّارِ، وَالْغَرْزِ: لِلرَّجُلِ، كَالرَّكَّابِ لِلسَّجْجِ، وَمَعْنَى شَدَدْتُ بِغَرْزِهِ، أَيِ تَمَسَّكْتُ بِرُكْبَائِهِ وَبِالْغَتِّ فِي خِدْمَتِهِ، رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَخَذَ بِرُكَّابِ رَجُلٍ لَا يَرْجُوهُ وَلَا يَخَافُهُ غَفَرَ لَهُ».

غزارة: كثرة، والسحب: جمع سحابة، كَتَى بها عن كثرة العلم. الهناء: القَطْران.
الثَّقب: جمع ثُقْبَة وهو أول ما يبدو من الجَرَب، وهو مثل لَمَن وضع الشيء في موضعه،
أَرَادَ أنه ماهر، أي حاذق يعطي كلَّ طالب ما يستحقه ويشفيه من سؤاله، لأن الجهل في
القلب بمنزلة الذاء، فهذا يوقع بيانه بموضع الجهل، فيبرأ صاحب ذلك من دائه، ووضع
الهناء مواضع النقب، عَجَزَ بيت لدريد بن الصمّة، وكان خرج فرأى الخنساء الشاعرة
تهناً: ذوداً لها، ثم نَضَتْ ثيابها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال: [الكامل]

حَيُّوا ثُمَا ضَرَّ وَازْبَعُوا صَخِييَ وَقِفُوا فَإِنَّ وَقُوفَكُمْ حَسْبِي^(١)
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِهِ كَالْيَوْمِ طَالِي أَيْتُنِي جُرْبُ
مَتَبَذَّلاً تَبْذُو مُحَاسِنُهُ يَضَعُ الْهِنَاءُ مَوَاضِعَ النَّقْبِ

وَتُمَاضِرُ اسم الخنساء: قوله: أَسِيرَ من المثل، أي أنه لا يستقرّ ببلد. النقل، يريد
انتقاله في المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة، وينتقل في الثانية إلى أخرى، فأراد أن أبا
زيد لا يستقرّ ببلد إلا ما يستقرّ القمر بمنزله وهي ليلة واحدة، بل هو أسرع من القمر في
ذلك، وإنما خُصَّ القمر به لأنه أسرع الكواكب ثقلَةً من بُرْجٍ إلى بُرْجٍ، إذ لا يمكث في
البرج إلا يومين أو ثلاثاً، والبرج منزلتان وثلاث، والشمس تمكث في البرج ثلاثين يوماً،
وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً، والمشتري اثني عشر شهراً وزُحَل ثلاثين شهراً،
والمريخ شهراً ونصفاً، والزهرة ستة وعشرين يوماً، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً،
ذلك تقدير العزيز العليم.

قوله: وأستعذب السفر الذي هو قطعة من العذاب: هو حديث صحيح، رواه مالك
قال: قال رسول الله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه،
فإذا قضى أحدكم نَهْمَتَهُ من وجهته فليعجل الرجوعَ إلى أهله»^(٢). التهمة. بلوغ الهمة
والشهوة والحاجة، ورجل منهوم بكذا مولع به.

(١) الأبيات في ديوان دريد بن الصمّة ص ٣٤، والبيت الأول في الأغاني ٦١/١٥، وتاج العروس
(مضمر)، والشعر والشعراء ص ٣٥٠، وبلا نسبة في الخصائص ١٩٧/٣، والممتع في التصريف ١/
٩٦، والبيت الثاني في الأغاني ٢٢/١٠، وإصلاح المنطق ص ١٢٧، وشرح شواهد الإيضاح ص
٥٧٨، ١٢٩، وشرح شواهد المغني ص ٩٥٥، وشرح المفصل ١٢٨/٨، وبلا نسبة في الأشياء
والنظائر ١٨٨/٢، وجمهرة اللغة ص ٣٧٤، ومغني اللبيب ص ٦٧٩، والبيت الثالث في لسان
العرب (نقب)، وديوان الأدب ١/١٥٠، وتاج العروس (نقب)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤٦٦/٥.

(٢) أخرجه البخاري في العمرة باب ١٩، والجهاد باب ١٣٦، والأطعمة باب ٣٠، ومسلم في الإمارة
حديث ١٧٩، والدارمي في الاستئذان باب ٤٠، ومالك في الاستئذان حديث ٣٩، وأحمد في
المسند ٢/٢٣٦، ٤٩٦.

فلَمَّا تَطَوَّحْتُ إِلَى مَرْوٍ، وَلَا عَزَوَ، بِشَرْنِي بِمَلَقَاهُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالْفَالُ الَّذِي هُوَ بَرِيدُ الْخَيْرِ؛ فَلَمْ أَزَلْ أَنْشُدْهُ فِي الْمَحَافِلِ، وَعِنْدَ تَلْقَائِي الْقَوَافِلِ. فَلَا أَجِدُ عَنْهُ مُخْبِرًا، وَلَا أَرَى لَهُ أَثْرًا وَلَا عِثْرًا، حَتَّى بَلَغَ الْيَأْسُ الطَّمَعُ وَأَنْزَوَى التَّأْمِيلُ وَانْقَطَعَ، فَإِنِّي لَذَاتَ يَوْمٍ بِحَضْرَةِ الْوَالِي مَرْوٍ، وَكَانَ مَمْنٌ جَمَعَ الْفَضْلَ وَالسَّرَّو، إِذْ طَلَعَ أَبُو زَيْدٍ فِي خَلْقٍ مِمْلَاقٍ، وَخُلِقَ مَلَاقٍ. فَحَيَّا الْوَالِيَّ تَحِيَّةَ الْمُحْتَاجِ، إِذَا لَقِيَ رَبَّ النَّاجِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

اعْلَمْ وَقِيَّتَ الذَّمِّ، وَكَفِيَّتَ الْهَمِّ؛ أَنْ مِنْ عُدِيقَتِ بِهِ الْأَعْمَالِ، أَعْلَقْتُ بِهِ الْأَمَالَ، وَمَنْ رُفِعَتْ لَهُ الدَّرَجَاتُ، رُفِعَتْ إِلَيْهِ الْحَاجَاتُ. وَأَنْ السَّعِيدَ مَنْ إِذَا قَدَرَ، وَوَاتَاهُ الْقَدَرُ، أَدَّى زَكَاةَ النِّعَمِ، كَمَا يُؤَدِّي زَكَاةَ النِّعَمِ، وَالتَّزَمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ، مَا يُتْلَزَمُ لِلْأَهْلِ وَالْحَرَمِ. وَقَدْ أَصْبَحْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ عَمِيدَ مِضْرِكَ، وَعِمَادَ عَصْرِكَ، تَزَجَّى الرِّكَائِبَ إِلَى حَرَمِكَ، وَتَزَجَّى الرِّغَائِبَ مِنْ كَرَمِكَ، وَتُنْزَلُ الْمَطَالِبُ بِسَاحَتِكَ، وَتُسْتَنْزَلُ الرَّاحَةُ مِنْ رَاحَتِكَ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا، وَإِحْسَانُهُ لَدَيْكَ عَمِيمًا.

قوله: تَطَوَّحْتُ، يقال: تَطَوَّحَ فِي الْبِلَادِ: ذَهَبَ بِهِ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، فَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: تَطَوَّحْتُ: رَمَيْتُ بِنَفْسِي إِلَيْهَا.

[مرو]^(١)

مَرْوُ: بِلْدَةٌ بِخُرَاسَانَ، جَلِيلَةٌ لَهَا قُرَى وَمَجَلَّاتٌ، وَتَسْمَى أُمَّ خُرَاسَانَ، وَهِيَ دَارُ خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ، وَمِنْهَا خَرَجَ أَبُو مُسْلِمٍ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ، يُنسَبُ إِلَيْهَا. الْقُوبُ مَرْوِيٌّ وَالرَّجُلُ مَرْوَزِيٌّ، وَهُوَ شَاذُ النِّسَبِ، وَمِنْ مَرْوٍ إِلَى مَرْوٍ^(٢) خَمْسَ مَرَاحِلَ، وَعَلَى مَرْوِ نَهْرٍ فَوَّهَتُهُ بِالسَّابْيَانِ، وَهُوَ جَبَلٌ عَظِيمُ الْإِرْتِفَاعِ، تَسِيلُ مِنْهُ أَنْهَارٌ تَخْتَرِقُ بِلَادَ خُرَاسَانَ، مِنْهَا وَادِي خُوارِزْمَ، مَسِيرَتُهُ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَوَادِي الْقَنْدَهَارِ مَسَافَتُهُ شَهْرٌ، وَنَهْرُ سَجِسْتَانَ، مَسَافَتُهُ شَهْرٌ، وَنَهْرُ مَرْوٍ، مَسَافَتُهُ شَهْرٌ، وَنَهْرُ هَرَاةَ مَسَافَتُهُ عِشْرُونَ يَوْمًا، وَنَهْرُ بَلْجِ مَسَافَتُهُ اثْنَا عَشَرَ يَوْمًا، وَبَلْخُ هِيَ مَتَوَسِّطَةُ خُرَاسَانَ، مِنْهَا إِلَى فَرغانَةِ ثَلَاثُونَ مَرَحَلَةً مَغْرِبًا، وَإِلَى سَجِسْتَانَ مِمَّا يَلِي الْقِبْلَةَ كَذَلِكَ وَإِلَى كَابُولَ وَقَنْدَهَارَ كَذَلِكَ، وَإِلَى خُوارِزْمَ كَذَلِكَ. وَأَهْلُ مَرْوٍ أَطْبَعُ النَّاسِ عَلَى الْبُخْلِ ثُمَّ أَهْلُ خُرَاسَانَ، قَالَ ثُمَامَةُ: مَا رَأَيْتُ الدَّيْكَ يَأْكُلُ فِي بَلَدٍ

(١) هِيَ مَرْوُ الشَّاهِجَانِ.

(٢) أَيُّ مِنْ مَرْوِ الرُّودِ إِلَى مَرْوِ الشَّاهِجَانِ.

قطّ إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحَبِّ، ويلفظ الحب إليها، إلّا بَمَزُو، فإنني رأيته يأكل وحده، فعلمت أنّ لؤمهم كثير جدّاً، وهو فيهم طبع، ورأيتُ بها طفلاً صغيراً، بيده بيضة، فقلت له أعطينها، فقال لي: ليست تسعُها في يدك، فعلت أنّ المنع طبع مركّب فيهم.

لا غرو: لا عجب. زَجَرَ الطير. التفاؤل بها، وفَسَّر الشافعي رضي الله عنه قوله النبي ﷺ «أَقْرُوا الطيرَ على مَكِنَاتِهَا»^(١). لأن الرجل كان في الجاهلية، إذا أراد الحاجة أتى الطائر في وَكْرِهِ فنَعْرَهُ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته، وإن أخذ ذات الشمال رجع. فنهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: «لا عَذْوَى ولا طَيْرَةَ، ويعجبني الفأل» قيل: ومَا الفأل؟ قال: «كلمة طيبة»^(٢).

[الزجر والعيافة]

وزجر الطير التّيامن بها، والتشاؤم. وكان عند العرب قوّة زائدة وإدراك، فينظر الزّاجر منهم للطائر، ولمّا يفعل، فيستقري من ذلك ما يتيامن به ويتشاءم منه، مثل ما يحكى عن أمية بن أبي الصّلت أنه كان يشرب مع إخوان له في قصر غَيْلان بالطائف؛ إذ سَقَطَ غراب على شرف القصر، فنعب نعبه، فقال له أمية: بفيك الككثكث - وهو التراب، فقال له إخوانه ما يقول؟ قال: يقول: إذا شربت الكأس الذي في يدك مِتْ. ثم نعب نعبه، فقال أمية نحو ذلك، فقالوا له: وما يقول؟ قال: زعم أنّ علامة ذلك أن يقع على هذه المذيلة تحت القَصْرِ، فيستثير عظماً، فيشجى به فيموت. فبينما هم يتكلّمون، إذ وقع الغراب على هذه المذيلة ليلتقط، فاستثار عظماً، فأراد أن يبتلعه، فشجى به فمات، فانكسر أمية، ووقع الكأس من يده، وتغيّر لونه، فجعلوا يعيرونه عليه، ويقولون: ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا، وكان باطلاً! فألَحُوا عليه، حتى شرب الكأس، فمال في شقّ فأغمي عليه، ثم أفاق، وقال: لا برىء فأعتذر، ولا قويّ فأنتصر، ثم زهقت نفسه.

وحكى المدائني قال: خرج كُثَيِّرٌ من الحجاز يريد مصر، ليزور عَزّة، فلما قُرِب منها رأى غراباً على شجرة ينتف ريشه، فتطير من ذلك، فلقيه رجل من بني لَهَب فقال: يا أخا الحجاز، ما لك كاسفَ اللون؟ فذكر له ما رأى، فقال: إنك تطلب حاجة لا تدركها. فقدم مصر، والناس منصرفون من جنازة عَزّة فقال: [الطويل]

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق بانيةٍ ينتفِ أعلى ريشه ويُطايِرُهُ^(٣)

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٨١/٦.

(٢) أخرجه البخاري في الطب باب ٤٣، ٤٤، ومسلم في السلام حديث ١١٠، وأحمد في المسند ٢/٥٢٤، ٤٥٣، ٤٠٦، ٢٦٧، ٢٦٦.

(٣) يروى البيت الأول:

رأيت غراباً واقعاً فوق بانه ينششش أعلى ريشه ويطايِرُهُ
وهو بلا نسبة في لسان العرب (نشش)، وتاج العروس (نشش)، والمخصص ١٣١/٨.

فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسي لَلَهَبِي فهل أنت زاجره
فقال غرابٌ لا غترابٌ من النوى وفي البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاوره
فما أعيفَ اللَهَبِي لا دَرَّ دَرُه وأزجره للطير، لا طار طائرُه
ومَن زجر لنفسه بشرَ ذو الرُمة فقال: [الطويل]

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ من القُضْبِ لَمْ يَنْبُثْ لها ورقٌ خضرٌ^(١)
فقلتُ غرابٌ لا غترابٌ وقضبةٌ لقُضْبِ النوى، تلك العيافة والزجرُ
ومَن زجر بخير أبو حية، حين قال: [الطويل]

وقال صاحبي هُدهدٌ فوق بانيةٍ هدى وبيان بالأنجاس يلوحُ
وقالوا دم، دامت موائيق بيننا ودأماً لنا حلوا الصفاء صريحُ
وقالوا حمامات، فحَمَ لقاؤها وطلحُ فزيرت والمطيُّ طُلوحُ

ومن مُلح الزجر زجر أبي نواس، وذلك أنه استخفى عنه أصحابه، وكان لا يفارقهم، ووجهوا رسولاً إليه، فرمى له ظهر قرطاس من وراء الباب، غير مكتوب، وخرموه بزير، وختموه بقار، وأمروا الرسول أن يرميَ إليه الكتاب من وراء الباب، فاستعلم موضعهم، وتعرف حالهم، وكتب إليهم: [الوافر]

زجرت كتابكم لَمَّا أتاني بمر سوانح الطير الجواري
نظرتُ إليه مخروماً بزير على ظهرٍ ومختوماً بقارٍ
فعِفت الظَّهر أهيف قُرْطَقِيًّا يحارُ الطَّرْفُ منه باخوِزارٍ
وكان الزَّيرُ ذا شذوٍ مصيب وقار الختم من قارِ العُقارِ
فطرتُ إليكم يا أهلَ وُدِّي بقلب من هواكم مستطارٍ
فكيف تروُنني وتروُن زَجْري ألسْتُ من الفلاسفة الكبارِ!

وما أحسن قول ابن قاضي ميلة وجمع الوصفين: [الطويل]

ولمَّا التقينا مُحْرَمين وسيرنا بلبّيك يطوى والزكائب تُعسفُ
فقلت لِتَرْبِيها أبلغها بأنني بها مستهامٌ قالتا: نتلطفُ
تفاءلتُ في أن يطوى طارقُ الهوى بأن عن لي منها البنان المطرفُ
وأما دمء الهَدْيِ فهو تواصلُ يدومُ ورأي في الهوى يتألفُ
وفي عَرَفاتٍ ما يخبرُ أُنْني بعارفةٍ من نيل وصلكِ أسعفُ
وتقبيل ركنِ البيت إقبالُ دَوْلَةٍ لنا وزمانٌ بالمودّة يعطفُ

وأبلغُها ما قلته فتتهَدَّت
لئن كنت ترجو في مَنى الفورَ بالمنى
وقد أُنذر الإحرام أن وصالنا
فهذا وقَذفي بالحَصا لك منذرُ
فبادِرْ نفايري ليلةَ النُفَرِ إنّه
وقالت أحاديثُ العيافة زُخْرُفُ
فبالخَيفِ من أعراضنا نتخوَفُ
حرامٌ وأنا عن مرادِك تُضْرَفُ
بأن النوى لي عن ديارِك تُقْذَفُ
سريعٌ وقُلْ مَنْ بالعيافة أعرفُ

قوله: أنشده، أي أطلبه والمحافل: الجموع. والقوافل: الرفاق الرواجع. غثيراً: غباراً. اليأس: قطع الرجاء. انزوى: انقبض. التأمل: الترجي، وهو مصدر أمل الخير، أي ترجّاه. انقمع: انكف. السزو: السيادة. مملاق: فقير. ملاق: متلطّف في كلامه. عذقت: علقت وشددت به، وعذق شاته يعذقها، إذا ربط في صوفها خرقة تخالف لونها. الدرجات: المنازل الشريفة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَانِ يَحِبُّهُمَا اللهُ، وهما السخاء والسماحة، وخُلِقَانِ يُغْضِبُهُمَا اللهُ، وهما البخل. وسوء الخلق. وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس».

وقال خالد بن صفوان: لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسألها: كذوباً، فيقرّب بعيداً ويبعد قريباً، ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك، ولا رجلاً له إلى صاحبك حاجة، فإنه يصير حاجتك بطانة لحاجته.

واتاه: وافقه وطاوعه. أذى: أعطى. زكاة النعم: الإبل والشاء، أي أعطى الصنائع والمعروف.

الحُرْم: جمع حرمة، أراد بذلك أهل الصيانة والعفاف.

الفنجديهي: الحرّم أقوام محترّمون، والحرّم الثاني: الأهل والقربة، ومن يحرّم على الإنسان نكاحه أو أتراكه لضياعه عميد: سيّد.

مصرّك: بلدك، والمضر: الحدّ، ويكتب أهل نجد: اشترى فلان من فلان الدار بمُصورها، أي بحدودها.

قطرب: هو مأخوذ من مَصَرَت الناقة أمصّرها مَصْراً، إذا حَلَبَتْها، وجعلت ضرعها بين إصبعين، فخرج من اللبن شيء قليل، فيسمّى مِصْراً لأن الناس يجيئون إليه ثم يشبتون، أوّل فأول وقيل: المصّر العلامة.

العماد: ما يقوم عليه الخباء، شبّهه في قيامه بالأمور بالعماد.

تُرْجى: تساق. الرُكائب: الإبل. حرملك: بلدك وموضعك الذي تحميه. الرغائب: العطايا ساحتك: فناء دارك. راحتك: كفك.

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذي قدّمنا تفسيره .

قال النبي ﷺ «مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظُمَتْ مُؤْنَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِتِلْكَ الْمُؤْنَةِ عُرُضَ النِّعْمَةِ لِلزَّوَالِ:

عمرو بن العاص: والله لَرَجُلٌ ذَكَرَنِي، ينام على شِقَّةِ مِرَّةٍ، وعلى الأخرى أخرى، يراني موضعاً لحاجته لَهُوَ أوجب عليّ حقّاً؛ إذا سألها مني أن أقضيها له .

وقف العتّابي بباب المأمون، فجاء يحيى بن أكثم، فقال له: إن رأيت أن تَعْلِمَ أمير المؤمنين بموضعي! قال: لست بحاجب قال: لقد علمتُ ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِغْوَان، قال: سلكت بي غير طريقي، قال: إن الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، وبالتغْيَر إن كفرت، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك، أدعوك إلى ما فيه زيادة نعمتك، وأنت تأبى ذلك، ولكل شيء زكاة، وزكاة الجاه بذلّه للمستعين .

وأما قوله: تزجى الركائب إلى حرْمك، فهو كثير في الشعر، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصد لهذا الاسم، وقال الحسن يمدح الأمين: [البسيط]

أقول والعيس تعرّوري الفلاة بنا	صغر الأزيمة من مثنى ووُخْدان ^(١)
يا ناق لا تسامي أو تبلغي ملكاً	تقبيل راحته والركن سيّان
محمد خير من يمشي على قدم	ممن برا الله من إنس ومن جان
محمد بين أملاك تفضله	ولادّتان من المنصور ثنتان
تنازع الأحمدان الشُّبه فاشتبهها	خُلُقاً وخُلُقاً كما قد الشرا كان
سيّان لا فرق في المعقول بينهما	معناهما واحد والعِدّة اثنان

وقال حبيب: [الطويل]

إلى أحمد المددوح أمّ بنا السرى	نواعب في غرض الفلا ورواسم ^(٢)
إلى سالم الأخلاق من كل عائب	وليس له مال من الجود سالم
جدير بالأصبح المال عنده	جديراً بأن يبقى وفي الأرض غارم

وقال آخر: [الطويل]

سأجهد عزمي والمطايا فلئنني	أرى العفو لا يمتاح إلا من الجُهد ^(٣)
سرّين بنا رهواً ووُخْداً وإنما	يظلّ ويمسى التّجح في كنف الوخد

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس (الحسن بن هانيء) ص ٦٥.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٨٦.

(٣) الأبيات لأبي تمام في ديوانه ص ١٢٨، ١٢٩.

غِيثَ فَمَا تَنْفِكَ تَرْقُلُ أَوْ تُخْدِي
وَيَحْوِي وَمَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ أَوْ يُبْدِي
إِلَى الْعَيْشَةِ الْغَرَاءِ وَالسُّودِّ الرِّغْدِ

لَفَقْتُ لَهُ رَأْسِي حَيَاءً مِنَ الْمَجْدِ
إِذَا ذَكَرْتَ أَيَّامَهُ زَمَنُ الْوَرْدِ
إِذَا لَهْجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدِي
مَعِي وَمَتَى مَا لَمْ تَهْ لَمْ تَهْ وَخْدِي

وَفِيهَا قَوْتُ يَوْمَ لِلْقُرَادِ^(١)
وَأَجْلَسَنِي عَلَى السَّبْعِ الشَّدَادِ
وَأَلْقَى مَالَهُ قَبْلَ الْوَسَادِ
وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادِ
فَمَا يَخْطِرُنْ إِلَّا فِي فِئَادِي

وَأَعْطَى فَوْقَ مُنْيَتِنَا وَزَادَا
فَأَحْسَنَ ثُمَّ عَدْتُ لَهُ فَعَادَا
تَبَسُّمَ ضَاحِكَا وَتَنَّى الْوَسَادَا

إِلَى ابْنِ أَبِي سَلِيمَانَ الْخَطُوبَا^(٢)
وَلَا يَبْغِي لَهَا أَحَدٌ رُكُوبَا
فَمَا فَارَقْتُهَا إِلَّا جَدِيبَا
بِأَنْصُلِهَا لِأَنْصُلِهَا نُذُوبَا
فَلَوْلَا الْكَسْرُ لَأَتَّصَلْتُ قَضِيبَا
وَلَمْ يَلِدُوا أَمْرًا إِلَّا نَجِيبَا
وَصَادَ الْوَحْشَ نَمْلُهُمْ دَبِيبَا

قَوَاصِدُ بِالسَّيْرِ الْحَثِيثِ إِلَى أَبِي الْمَـ
إِلَى مُشْرِقِ الْأَخْلَاقِ لِلْجُودِ مَا حَوَى
فَتَى لَمْ يَزَلْ تُقَضَّى بِهِ طَاعَةُ النَّدَى
وَقَالَ فِيهَا مُعْتَذِرًا: [الطويل]

أَتَانِي مَعَ الرِّكْبَانِ ظَنُّ طَنْنَتِهِ
وَمِنْ زَمَنِ الْبَسْتَنِيِّهِ كَأَنَّهُ
أُسْرِبُلُ هَجَرَ الْقَوْلِ مِنْ لَوْ هَجَرْتَهُ
كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: [الوافر]

فَلَمْ تَلَقَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ عَنِّي
فَلَمَّا جِئْتَهُ أَعْلَى مَحَلِّي
تَهَلَّلَ قَبْلَ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ
كَأَنَّ الْهَامَ فِي الْهَيْجَا عِيُونُ
وَقَدْ صَغَتْ الْأَسْنَةُ مِنْ هُمُومِ
وَقَالَ أَبُو الْهِنْدِيِّ: [الوافر]

سَأَلْنَاهُ التَّجْزِيلَ فَمَا تَأَنَّى
وَأَحْسَنَ ثُمَّ أَحْسَنَ ثُمَّ عُذْنَا
مَرَارًا مَا قَصَدْتُ إِلَيْهِ إِلَّا
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: [الوافر]

وَلَمَّا قَلَّتِ الْإِبِلُ امْتَطَيْنَا
مَطَايَا لَا تَذِلُ لِمَنْ عَلَيْهَا
وَتَرْتَعُ دُونَ نَبْتِ الْأَرْضِ فِينَا
إِذَا نُكِبَتْ كِنَانَتُهُ اسْتَبْنَا
يُصِيبُ بَبَعْضِهَا أَفْوَاقَ بَعْضِ
أَلَسْتُ ابْنَ الْأُولَى سَعِدُوا وَسَادُوا
وَنَالُوا مَا اشْتَهَوْا بِالْحَزْمِ هَوْنًا

(٢) الأبيات في ديوان المتنبي ١/١٤٠.

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ١/٣٥٧.

وما ربحُ الرِّياض لها ولكن كساها دفنهم في التُّرْبِ طيباً
ومن المدح قول السَّريِّ في أبي الحصين القاضي: [الوافر]

لقد أضحت خلال أبي حُصَيْنِ حصوناً في الملمَّات الصَّعابِ
كساني ذيلَ نائلِهِ وآوَى غرائبِ منطقي بَغْدَ اغترب
فكنتُ كروضةٍ سُقيت سحاباً فأنت بالتَّسليم على السَّحاب
وقال بديع الزمان وشاعر الأوان: [البسيط]

يا سيِّد الأمراء فخرأ فما ملكُ إلا تمناك مولى واشتهاك أبا
وكاد يحكيك صوبُ الغيث منسكباً لو كان طلق المحيّا يُمطرُ الذَّهبا
والذَّهر لو لم يُخنْ والشمس لو نطقَتْ والليث لو لم يصد والبحرُ لو عذَّبَا
هذه الجملة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه.

ثم إنني شيخُ تَرَبٍّ بَغْدَ الاتراب، وَعَدِمَ الإغشاب، حين شاب قصدتُك من
مَحَلَّةٍ نازحة؛ وحالةٍ رَازِحَةٍ، أمل من بَحْرِك دُفْعَةً، وَمِنْ جَاهِك رَفْعَةً. والتَّأميلُ
أفضل وسائلِ السَّائل، ونائلِ النَّائل؛ فأوجِبْ لي ما يجب عليك، وأحسن كما
أحسنَ الله إليك. وإيَّاكَ أَنْ تَلْوِي عِذاركَ، عَمَّنْ ازدارك، وأمَّ دَارَكَ، أو تَقْبِضَ
راحك؛ عَمَّنْ امتاحك، وامتار سَمَاحك؛ فوالله ما مَجْد من جَمَد، وَلَا رَشْد من
حَشْد؛ بل اللبيب مَنْ إذا وَجَد جَاد، وَإِنْ بَدَأَ بعائِدَةٍ عاد؛ والكريمُ مَنْ إذا اسْتَوْهَب
الذَّهَب، لم يَهَبْ أَنْ يَهَب.

ثم أَمَسَكَ يُرَقِّبُ أَكْلَ غَرْسِهِ، ويرصُدُ مَطْيَبَةَ نَفْسِهِ وأحب الوالي أن يعلم: هل
أُطِفَّتْ تَمَدُّ، أم لقريحته مَدَد! فأطرقَ يُرَوِّي في استيراءِ زَنْدِهِ، واستشفافِ فِرْنِدِهِ،
والتبس على أبي زيد سِرُّ صَمْتِهِ، وإزجاءِ صِلَتِهِ، فتوغَّر غضباً، وأنشد مقتضياً.

قوله: تَرَبٍّ، افتقر فلم يبق له ما يقعدُ عليه غير التراب. والاتراب: الاستغناء،
وأترَب: صار له من المال بكثرة التراب. والإعشاب: إصابة العشب، وأراد به المال.
مَحَلَّة: منزل يحل فيه.

نازحة: بعيدة. رازحة: كاله من الهزال، ورزح رُزْحاً: كلٌّ من العمل.

ابن الأباري: رزح فلان: ضَعَف، وذَهَب ما في يده، وأصله من رَزَحَتْ إِبِلُ فلان

وكلابه، إذا ضعفت، ولزقت بالأرض، وقيل: هو من المرزح، وهو المطمئن من الأرض، فكأن الرّازح قد لزمه، وضعف عن الارتقاء إلى العلوّ. أمل: أرجو. جاهك: عزّك. والوسائل: جمع وسيلة، وهو الشّفع، فجعل تأمّله أفضل وسيلة. نائل: عطاء، والنّائل: المعطي، ونلّث له بالعطاء أنول وأنلت أنيل، ورجل نال ورجلان نالان^(١)، ورجال أنوال، ونلّثه أنوله نولاً أعطيته، قال الأعشى: [المقارب]

ينول العشيرة ما عنده ويغفر ما قال جهالها^(٢)

تلوي عذارك: تعرض بوجهك. ازدارك، بمعنى زارك، واستعمل قصدك راحك: جمع راحة، وهي باطن الكف. امتاحك: استسقاك وأراد طلب معروفك، قال الرّاجز: [الرجز]

أفلح ساق بيذك امتاحاً وقرّ عيناً ورجا الفلاحا

قوله: امتار: استجلب منك الرزق. سماحك: جودك. مجّد: كرم، وصار ماجداً، أي شريفاً، ومُجد يمجد، مجدداً فهو ماجد، ومجد مجادة فهو مجيد وقيل: المجد تكرم الآباء خاصة، وقيل: الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي وقيل كرم الفعل. جمد: بخل. حشد: جمع المال اللبيب: العاقل. وجد: استغنى. جاد: تكرم عاد: فعلها مرة بعد أخرى، وقد تقدم منظوماً لم يهب: لم يخف أن يهب: أن يعطي، وهذا كله قصد فيه التجنيس فجاء منه بكل بديع.

قوله: نطفته ثمد، أي قليل.

الأزهري: النطفة تقال للماء القليل والكثير، ورأيت أعرابياً شرب من ركية غزيرة الماء فقال: والله إنها لَنُطفة باردة، والتمد: الماء القليل الذي لا مدد له. قريحته: ذهنه. أطرق: أي أمال رأسه للفكرة. في استيراء زنده: في استخراج ناره، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف: الاستقصاء في النظر والتأمل فيما يبصر، واستشف الثوب: جعله طاقاً واحداً، أو رفعه في ظل حتى ينظر: أكثيف هو أم رقيق، واستشفه: رأى ما وراءه، والاستشفاف: النظر إلى كلّ شيء صقيل. الفِرْد: جوهر السيف، وأراد أن الوالي أعجب بكلامه، فأراد أن يعلم هل كان في حَقّفه لغيره أو ارتجله لنفسه. صمّته: سكتته. إرجاء: تأخير. توغر: توقّد مقتضياً: مرتجلاً: [البسيط]

لا تَحْقِرَنَّ أَبَيْتَ اللَّغْنِ ذَا أَدَبٍ لَأَن بَدَا خَلَقَ السُّرْبَالِ سُبُورَتَا
ولا تَضِغْ لِأَخِي التَّامِيلِ حُرْمَتَهُ أَكَاَنَ ذَا لَسَنِ أَمْ كَانَ سَكِّيَتَا

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ١٦٩.

(١) رجل نال: أي رجل جواد كثير النال.

وَانْفَحْ بِعُزْفِكَ مَنْ وَافَاكَ مُخْتَبِطاً
فَخَيْرُ مَالِ الْفَتَى مَالُ أَشَادَ لَهُ
وَمَا عَلَى الْمُشْتَرِي حَمْدٌ بِمَوْهَبَةٍ
لَوْلَا الْمَرْوَةُ ضَاقَ الْعُذْرُ عَنْ فُطْنٍ
لِكَيْتُهُ لَا بَتْنَاءَ الْمَجْدِ جَدٌّ وَمِنْ
حُبِّ السَّمَاحِ نُنَى نَحْوُ الْعُلَا لَيْتَا
وَانْعَشْ بِعَوْثِكَ مِنَ الْفَيْتِ مَنْكُوتَا
ذَكَرَا تَنَاقَلَهُ الرُّكْبَانُ أَوْ صِيَتَا
عَبْنُ وَلَوْ كَانَ مَا أَعْطَاهُ يَأْقُوتَا
إِذَا اشْرَأَبَ إِلَى مَا جَاوَزَ الْقُوتَا
حُبِّ السَّمَاحِ نُنَى نَحْوُ الْعُلَا لَيْتَا

* * *

قوله: أَبَيَّتَ اللعن، تحية ملوك الجاهلية، قال ابن الأنباري رحمه الله في تفسيرها قولان: أحدهما أبيت أن تأتي من الأشياء ما تستحق اللعن عليه، فاللعن منصوب، والآخر - وهو أردأ القولين - أن تكون الألف بمعنى «يا»، وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن، لأن بعضهم يخفض اللعن، وتقديره: يا بيت اللعن: سمة للملك، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال، ألا ترى أنها تعطي معنى النداء في البيت، وتقديره: يا ملك أو يا أمير، ويتضمن معناه الدعاء، أي جعلك الله ممن يكره اللعن؛ ولذا وقع اعتراضاً بين اللفظين؛ الأول طالب للثاني، كما قال ابن محلم: [السريع]

إِنَّ الثُّمَانِينَ - وُبُلُغَتْهَا - قَدْ أَحْجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجَمَانٍ^(١)

سَبَرُوتَا: فقيراً محتاجاً، والسَبَرُوت: الفقير الذي لا ثياب له. ذَا لَسَنِ، أي فصيحاً. سَكَيْتَا: عَمِيًّا كثير السكوت. انْفَحْ بِعُزْفِكَ، أي ارم بمعروفك انعش بغوثك، أي ارفع بعطيتك، والغوث الإغاثة، وهي المبادرة بالنصرة لمن جاء يستغيثك. والإنعاش أن ترى رجلاً قد أهوى للسقوط فترفعه، أو افتقر فتجبره. مَنْكُوتَا: ملقى على رأسه، ونُكِت الرجلُ فهو مَنْكُوت، إذا ضُرب فأسْقِط على رأسه. قوله أشاد: أي رفع.

صِيَتَا: ذَكَرَا حسناً وقال النبي ﷺ: «إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا مَا لِلْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ فَانْظُرُوا مَا يَتَّبِعُهُ مِنْ حَسَنِ النَّهْيِ»^(٢).

وقيل لبعض الحكماء: ما أحمد الأشياء؟ قال: أن يبقى للإنسان أحدوثة حسنة.

أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي: إِنَّمَا أَنْتُمْ خَبِيرٌ، فَطَيُّبُوا أَخْبَارَكُمْ، أَخْذَهُ حَبِيبٌ فَقَالَ: [البسيط]

وَمَا ابْنُ آدَمَ إِلَّا ذَكَرٌ صَالِحٍ أَوْ ذَكَرٌ سَيِّئَةٌ يَسْرِي بِهَا الْكَلِمُ
أَمَّا سَمِعَتْ بَدَهْرٍ بَادَ أَمْتُهُ جَاءَتْ بِأَخْبَارِهَا مِنْ يَعْدِهَا أُمُّ

(١) البيت لعوف بن محلم في الدرر ٣١/٤، وشرح شواهد المغني ٨٢١/٢، وطبقات الشعراء ص ١٨٧، ومعاهد التنصيص ٣٦٩/١، وبلا نسبة في شرح شذور الذهب ص ٥٩، ومغني اللبيب ٢/٣٨٨، ٣٩٦، وجمع الهوامع ٢٤٨/١.

(٢) أخرجه مالك في حسن الخلق حديث ٥.

الأحنف: ما آذخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ قال: مَنْ كانت له عندي يد صالحة، قيل: فإن لم تكن؟ قال: فَمَنْ كانت لي عنده يد صالحة.

قال بُزْزُجْمُهر: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفني، إذا أديرث عنك فأنفق منها، فإنها لا تبقى بأخذ هذا المعنى الشاعر فقال: [البسيط]

لا تبخلنْ بدُنْيا وهي مقبلَةٌ فليس ينقصها التَّبذير والسَّرْفُ
فإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرث خَلْفُ
وقال آخر: [الطويل]

إذا جادت الدنيا عليك فجذبها على النَّاس طُرّاً قبل أن تتقلّت
فلا الجودُ يفنيها إذا هي أقبلت ولا الشحُّ يُبقيها إذا هي ولّت
وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: مَنْ رزقه الله رزقاً حسناً، فلينفق منه سرّاً وجهراً، حتى يكون أسعد الناس به: فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين؛ إمّا لمصلح فلا يقل عنده شيء، وإمّا لمفسد فلا يبقى له شيء. أخذه الشاعر فقال: [الكامل]

اسعدْ بمالك في الحياة فإنما يبقى خلافك مصلح أو مفسد
فإذا جمعت لمفسد لم تُغنِه وأخو الصلاح قليله يتزيد

[المروءة]

قوله: لولا المروءة، المروءة هي الأفعال الشريفة، التي يجب أن يقال للرجل بها مرء، مثل الرجولة للأفعال التي يستحق الرجل أن يقال له بها رجل.

وقال النبي ﷺ: «لا دينَ إلا بمروءة».

وقال عمر رضي الله عنه: المروءة، مروءتان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة الرياش والباطنة العفاف.

قدم وفد على معاوية رضي الله عنه، فقال لهم: ما تعدون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد!

وقال النبي ﷺ: «تجاوزوا لذوي المروءات عشراتهم، فوالله إن أحدهم ليعثر وإن يده بيد الله»^(١).

(١) أخرجه بمعناه أبو داود في الحدود باب ٥، وأحمد في المسند ٦/١٨١، بلفظ: «أقبلوا ذوي الهيئات

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إِنَّا مَعْشَرَ قَرِيشٍ، نَعْدُ الْحِلْمَ وَالْجُودَ سُودُداً، وَنَعْدُ الْعِفَّافَ وَإِصْلَاحَ الْمَالِ مَرُوءَةً.

أَنُوشِرْزَوَانُ: المَرُوءَةُ أَلَا تَعْمَلُ عَمَلًا فِي السِّرِّ تَسْتَحْيِي مِنْهُ فِي الْعِلَانِيَةِ. غَيْرُهُ: المَرُوءَةُ اسْمُ جَامِعٍ لِلْمَحَاسِنِ كُلِّهَا.

وَقَالُوا: المَرُوءَةُ الْعَقَّةُ وَالْحُرْفَةُ.

قوله: اشْرَأَبْ: تَشَوَّفٌ، وَالتَّشَوَّفُ أَنْ تَسْمَعَ بِالشَّيْءِ وَتَتَطَلَّعَ أَنْ تَرَاهُ، وَتَمْتَدَّ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، يَقُولُ: لَوْلَا الْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ كَانَ عَذْرُ الْفُطْنِ الْحَاقِظُ يَضِيقُ عَلَيْهِ إِذَا سَثَلَ وَقِيلَ لَهُ: قَدْ جَاوَزَ مَالُكَ قُوَّتَكَ، وَفَضَلَ عَنْ مَوْثِقِكَ، فَلَيْمَ تَجْهَدُ فِي طَلَبِ الْمَالِ، وَتَرْغَبُ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهُ. قَالَ: فَالْمَرُوءَةُ تَوْسَعُ عَلَيْهِ عَذْرُهُ، فَيَقُولُ ذُو الْمَرُوءَةِ: إِنَّمَا اكْتَسَبَهُ لِأَنْفَقِهِ فِي الْبَرِّ، وَبَيَّنَ هَذَا بِقَوْلِهِ: «ثَنَى نَحْوَ الْغِنَى لَيْتَا» وَاللَّيْتُ: صَفْحَةُ الْعُنُقِ فَيَقُولُ: إِنَّمَا ثَنَى عَنْقَهُ، وَأَمَّا هَآؤُلَاءِ حَبًّا فِي السَّمَاحِ.

وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَى هَذَا التَّهَامِي بِقَوْلِهِ: [الطويل]

لَوْلَا الْعَطَايَا أَتَهَا سُئَةُ لَهُ لَمَا قَالَ لِلدُّنْيَا إِذَا عَثَرْتُ: لَعَا
فَإِنْ بَاشَرَ الدُّنْيَا فَلِلْجُودِ نَالَهَا وَإِنْ هَجَرَ الدُّنْيَا فَعَنْهَا تَرْفَعَا
فَزَادَ بِقَوْلِهِ: «وَإِنْ هَجَرَ الدُّنْيَا» مَعْنَى حَسَنًا.

وَقَالُوا: نَعَمْ الْعَوْنُ عَلَى الْمَرُوءَةِ الْمَالُ.

وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: [المتقارب]

فَلَوْ مُدُّ سَرْوِي بِمَالٍ كَثِيرٍ لَجَدْتُ وَكُنْتُ لَهُ بِأَذَلًا^(١)
فَإِنَّ الْمَرُوءَةَ لَا تُسْتَطَاعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَالُهَا فَاضِلًا
وَقَالَ آخَرُ: [البيسط]

لَوْلَا شِمَاتَةُ أَعْدَاءِ ذَوِي حَسَدٍ أَوْ أَنْ أَنَالَ بِنَفْعٍ مَنْ يُرْجِيَنِي
لَمَا خَطَبْتُ إِلَى الدُّنْيَا مَطَالِبَهَا وَلَا بَذَلْتُ لَهَا عِرْضِي وَلَا دِينِي
[البيسط]

وَمَا تَنْشَقُّ نَشْرَ الشُّكْرِ ذُو كَرَمٍ إِلَّا وَأَزْرَى بِنَشْرِ الْمِسْكِ مَفْتُوتَا
وَالْحَمْدُ وَالْبُخْلُ لَمْ يُقْضَ اجْتِمَاعُهُمَا حَتَّى لَقَدْ خِيلَ ذَا ضَبًّا وَذَا حُوتَا
وَالسَّمْحُ فِي النَّاسِ مَحْبُوبٌ خِلَافُهُ وَالْجَامِدُ الْكَفُّ مَا يَنْفَكُ مَمْقُوتَا

وللشَّحِيحِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ يوسَعْنَهُ أَبَدًا ذِمًّا وَتَبْكِيَةً
فَجُدَ بِمَا جَمَعْتَ كَفَّاكَ مِنْ نَشَبٍ حَتَّى يُرَى مُجْتَدِي جَدَّوَاكَ مَبْهُوتَا
وَحُذِّ نَصِيبِكَ مِنْهُ قَبْلَ رَائِعَةٍ مِنَ الزَّمَانِ تَرِيكَ الْعُودِ مَنُحُوتَا
فَالْدَهْرُ أَتَكَدَ مِنْ أَنْ تَسْتَمِرَّ بِهِ حَالٌ، تَكَرَّهْتَ تِلْكَ الْحَالِ أَمْ شَيْتَا
فَقَالَ لَهُ الْوَالِي: تَاللهِ لَقَدْ أَحْسَنْتَ، فَأَيُّ وَلَدِ الرَّجُلِ أَنْتَ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَنْ غُرْضٍ،
وَأَنشَدَ وَهُوَ مُغْضٍ: [المنسرح]

لَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ مَنْ أَبَوْهُ وَرَزُّ خَلَا لَهُ ثُمَّ صَلَّهُ أَوْ فَاضَرِمِ
فَمَا يَشِينُ السُّلَافَ حِينَ خَلَا مَذَاقُهَا كَوْنُهَا ابْنَةُ الْحِضْرِ

قوله: تَنَشَّقُ، أَي شَم. نَشْر: رَاحَةٌ. أَزْرَى: عَاب. مَفْتُوتًا: مَدْقُوقًا، يَقُول: لَشَكْرُ
الْمَعْرُوفِ عِنْدَ أَهْلِ الْجُودِ أَعْطَرُ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ إِذَا فَتٌ فَانْتَشَرَتْ رَائِحَتُهُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الشَّيْبَانِيُّ: كُنْتُ أَرَى رَجُلًا مِنْ وَجْهِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، لَا يَجِفُّ لَبْدُهُ، وَلَا
يَسْتَرِيحُ قَلْبُهُ فِي طَلَبِ حَوَائِجِ النَّاسِ، وَإِدْخَالَ الْمُرَافِقِ عَلَى الضَّعِيفِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي
عَنِ الْحَالِ الَّتِي هَوَّنَتْ عَلَيْكَ هَذَا التَّعَبُ فِي الْقِيَامِ بِحَوَائِجِ النَّاسِ، مَا هِيَ؟ قَالَ: قَدْ وَاللهِ
سَمِعْتُ تَغْرِيدَ الْأَطْيَارِ بِالْأَسْحَارِ فِي فُرُوعِ الْأَشْجَارِ، وَسَمِعْتُ خُفُوقَ أَوْتَارِ الْعِيدَانِ وَتَرْجِيعِ
أَصْوَاتِ الْقِيَانِ، فَمَا طَرَبْتُ مِنْ صَوْتٍ قَطُّ طَرِبِي مِنْ ثَنَاءِ حَسَنِ، بِلِسَانِ حَسَنِ، عَلَى رَجُلٍ
قَدْ أَحْسَنَ، وَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْ شُكْرِ حَرٍّ لِرَجُلٍ حَرٍّ، وَمِنْ شِفَاعَةِ مُحْتَسِبٍ لَطَالِبٍ
شَاكِرٍ، فَقُلْتُ لَهُ: اللَّهُ أَبُوكَ! لَقَدْ حُشِيتَ كَرَمًا، فَلَذَةُ السَّمْعِ هُنَا بِمَنْزِلَةِ الشَّمِّ فِي الْبَيْتِ.

خَيْلٌ: حَسَبٌ، وَالضَّبُّ وَالْحَوْتُ قَدْ تَقَدَّمَا فِي الثَّامِنَةِ عَشَرَ.

قوله: الْجَامِدُ الْكَفُّ: هُوَ الْبَخِيلُ، وَهُوَ ضِدُّ السَّمْحِ. مَمْقُوتًا: مَبْغُوضًا. عِلَلٌ:
أَعْذَارٌ. يُوسِعُهُ ذِمًّا، أَي يَكْثُرُنْ ذِمَّهُ، التَّبْكِيَةُ: الْهَوَانُ وَالتَّوْبِيخُ جُدُّ: تَكْرَمٌ. نَشَبٌ: مَالٌ
مُجْتَدِي جَدَّوَاكَ: طَالِبٌ عَطَايَاكَ. مَبْهُوتًا: مَتَحِيرًا، يَرِيدُ أَنَّهُ يَعْجَبُ مِنْ كَثْرَةِ مَا تُعْطِيهِ
فَيَتَحَيَّرُ وَمَا يَدْرِي كَيْفَ يَشْكُرُكَ!

[ذم البخل ومدح الكرم]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا:

لو لم يكن في الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجُودَ وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَيَذُمُّ سَفْسَافَهَا»^(١).

(١) أخرجه الترمذي في الأدب باب ٤١، بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ»، وفي النهاية في غريب =

وقيل لقوم من العرب: مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ فقالوا: فلانٌ على بخلٍ فيه، فقال عليه الصلاة والسلام: «وَأَيُّ دَاءٍ أَذْوَى مِنَ الْبَخْلِ»^(١)!

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال المأمون لمحمد بن عباد: أنت مثلاف، فقال: مَنَعَ الجود سوءَ ظنٍّ بالمعبود، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَتَفَقَّهْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقال كسرى: عليكم بأهل السخاء والشجاعة؛ فإنهم أهلُ حسن الظن بالله، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرِّ بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباق القلوب على بغضهم، إلا سوى ظَنِّهم بربهم في الخَلْفِ لكان عظيمًا، أخذه محمود الوارق فقال: [الطويل]

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مَبْتَدئًا والبخل مِنْ سوءِ ظنِّ المرءِ بِاللَّهِ

وخَوْفٌ بِخَيْلٍ سَخِيًّا الإِمْلَاقَ والفقرَ، فردَّ عليه السخى، يقول: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: بأبي أنتما وأمي! إن الله عودني أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عبدة، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني عاداته.

قوله: وخذ نصيبك منه قبل رائحة. الرائحة الشيبة، لأنها تروّع الإنسان أي تفزعها، وتعلمه أنها تأتيه بالكبر والهرم. والعود المنحوت، أراد به الجسم اليابس لأنَّ الهرم يُذهِبُ نعمة الجسم، وأصل المنحوت المنجور.

وأراد بقوله: خُذْ نصيبَكَ قولُهُ عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وماله مِنْ ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى»^(٢).

[مما قيل في الشيب]

وقال الشاعر في الرائحة: [البسيط]

أهلاً بِرائِحةٍ للشَّيبِ واحدةٍ تفنني الشَّبابَ وتنهانا عن الغَزَلِ

وقال أبو الطيب المتنبي: [الكامل]

راعثُكَ رائِعةُ المشيبِ بعارِضِي ولَو أنها الأوْلَى لراعَ الأَسْحَمُ^(٣)

= الحديث لابن الأثير الجزري ٢/٢٧٣: «إنَّ الله يحب معالي الأمور ويبغض سفاسفها»، وفي حديث آخر: «إنَّ الله رضي لكم مكارم الأخلاق وكره لكم سفاسفها».

(١) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٥، والمغازي باب ٧٣، وأحمد في المسند ٣/٣٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٤، وأحمد في المسند ٢/٣٦٨، ٤١٢.

(٣) البيتان في ديوان المتنبي ٤/١٢٣.

لو كانُ يَمَكِّنُنِي سَفَرْتُ عَنْ الصُّبَا فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الْأَوَانِ يُكَثِّمُ
وفي رواية ابن جنى: «رائعة البياض»، وقال: هي أول شعرة تطلع من
الشيب. وأنشد ابن الأعرابي «أهلاً برائعة للشيب» وأنشد غيره «برائعة بيضاء» أي
بشعرة تطلع من المشيب بيضاء تروع الناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر، وقال
كثير: [الكامل]

كَذَّبَ الْعَوَازِلَ بَلْ أَرَدَنْ خِيَانَتِي وَبَدَتْ رَوَائِعَ لِمَتِّي وَقُتُومُ^(١)
وقال الألبيري: [الوافر]

بَصُرْتُ بِشَيْبَةٍ وَخَطَّتْ بِلَيْلِي فَلَقْتُ لَهَا تَأْقِي لِرَحِيلِ
وَلَا يَهْنِ الْقَلِيلُ عَلَيْكَ مِنْهَا فَمَا لِلشَّيْبِ وَيَحْكُ مِنْ قَلِيلِ
فَكَمْ قَدْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ مُزْنًا أَصَابَكَ طُلُهَا قَبْلَ التَّزْوِلِ
فَلَا تَحْقِرْ بَنُورَ الشَّيْبِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْقَطَرَ يَنْبَعُثُ بِالسُّيُولِ
وقال أبو بكر البلوي: [السريع]

نُكِبْتُ فِي شِعْرِي وَشِعْرِي وَمَا نُكِبْتُ فِي صَبْرِي بِمَنْكُوبَةٍ
إِذَا دُنْتُ بِيَضَاءٍ مَكْرُوهَةٍ مَنِي نَأْتِ سَوْدَاءَ مَحْبُوبَةٍ
وقال كشاجم فأحسن: [الوافر]

نَظَرْتُ إِلَى الْمَرْأَةِ فَرَوَعْتُني فَأَمَّا شَيْبَةٌ فَفَزَعَتْ مِنْهَا
وَأَمَّا شَيْبَةٌ فَصَفَحَتْ عَنْهَا لِنَشْهِدِ الْبَرَاءَةَ مِنْ خِضَابِي
فِيَا لَكَ مِنْ مَشِيبٍ قَدْ تَبَدَّى أَقَمْتُ بِهِ الدَّلِيلَ عَلَى شَبَابِي
وقال البحرني: [الخفيف]

وَأَبْتُ تَرْكِي الْغَدِيَّاتِ وَالْآ شَعْرَاتٍ أَقْصَاهُنَّ وَيَرْجِفُ
صَالٌ حَتَّى قَضَيْنَ بِالْمَقْرَاضِ^(٢) وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ: [الطويل]

أَلَسْتُ تَرَى شَيْباً بِرَأْسِي شَامِلاً وَنْتُ حَيْلَتِي عَنْهُ وَضَاقَ بِهِ دَزْعِي
كَأَنَّ الْمَقَارِيضَ الَّتِي يَعْتَوِرُتُهُ مَنَاقِيرَ طَيْرٍ تَنْتَقِي سُنْبُلَ الزُّرْعِ

(١) البيت في ديوان كثير عزة ص ٢٠٦.

(٢) البيتان في ديوان البحرني ص ١٢٠٩.

وقال رجل من الأزد: [الكامل]

ولقد أقولُ لشيبة أبصرْتُها
عني إليكِ فلستُ منتهياً لقد
هل لي سوى عشرين عاماً قد مضت
ولقلّما أرتاع منك وإني
فعليك ما اسطغيت الظهور بلمتي

وقال أبو نواس: [الكامل]

وإذا عدّدت السنّ كم هي لم أجد

وقال أبو دلف: [البسيط]

في كلّ يوم أرى بيضاء قد طلعت
لئن قرضتُك بالمقراض عن بصري

وقال كشاجم: [الطويل]

أخي قمّ فعاوني على شيبة بغث
إذا ما مضى المنقاش يأتي بها أتت
كحان على السلطان يجزى بذنبه

ولأبي الفضل الدارمي: [الخفيف]

شيبة نغصت عليّ شباي
قلتُ ماذا كذا العمرُ التّصابي
فأجابت جرى من الرّسم للسّلد
فإن ازددت في الجفاء فلا تند

وهذا مثل قول الآخر: [الطويل]

وزائرة للشيب لاحت بعارضي
فقال على ضعفي استطلت ووختي
فلم يك إلا عن قريب فأقبلت
فوا أسفا لو كان يُغني تأسفي

وقال الرّماني: [الكامل]

وثلاث شيبات طلغن بمفرقي
طلعت ثلاث في طلوع ثلاثة

في مفريقي فمنحتُها إعراضي
عممتُ منك مفارقي ببياض
مع ستة في إثرهن مواضي
فيما هويت وإن وزعت لماضي
وعلي أن ألقاك بالمقراض

للشيب عذراً أن يُلِم برأسي

كأنما نبتت في ناظر البصر
لما قرضتُك عن همّي وعن فكري

فإنّي منها في عذاب وفي حرب
وقد أخذت من دونها جارة الجنب
تعلّق بالجيران من شدة الرّغب

فتعمّدت لتفها غير وإن
لشبابي أجل عند الحسان
طان أخذ البراء مثل الجاني
كز قدومي عليك مع إخواني

فبادرتها بالقطف خوفاً من الحثف
رويدك حتى يلحق الجيش من خلفي
وعمت جميع الرأس رغماً على أنفي
على زمن ولّي ونحن على حرف

فظننت أن نزولهن رجيلي
واش ووجه مراقب وعدول

فعزلْنِي عن صَبَوْتِي فلئن ذلـ
تُ لقد سمعتُ بذلة المعزول
وفي معنى قول أبي نواس : « وإذا عددت السن كم هي » قال المعري :
[الخفيف]

عجبتُ هندُ من تسرع شيبـ
قلت هذا عَقْبِي فِطام السُرورِ
عوضتني يد السَّفاسف من مِسـ
لِكِ عِذارى ريشاً من الكافورِ
كأن لي في انتظار شَيْبِي حسابُ
غالطتني فيه صُرُوفُ الدهورِ
وقال ابن الملح الشُّبلي : [الكامل]
طلع المشيبُ بَلَمَتِي فتعجبوا
من كذِّه وتَعَجَّبُوا من مُهَلَّتِه
ما شبت من كَبَرٍ ولكن مَنْ يَبث
دنفاً ومشتاقاً يَشِب من ليلَتِه
وقال أبو عثمان الخالدي : [المقارب]
فديثُك ما شبتُ من كَبَرَةٍ
وهذي سِنِّي وهذا الحَسَابُ
ولكن هجرتِ فحلَّ المشيبُ
ولو قد وصلتِ لحلَّ الشَّبَابِ
وهذا القدر كاف .

* * *

قوله : فالدهر أنكد . . . البيت يقول : إن كنت غنياً أو فقيراً فتلك حال لا تدوم ،
كرهتُ أو رضيتها .

وقوله : أي ولد الرجل أنت ، هذا الكلام إنما يقع في باب النفي ، قال يعقوب :
تقول العرب : لا أدري أيُّ ولد الرجل هو ؟ يعنون بالرجل آدم وولده الناس ، فكأنه قال :
ما أدري أيُّ الناس هو .

عُرِض : جانب . مغض : مغمض عينه ، يريد أنه لم يعجبه سؤاله ، فلم يقبل عليه
بنظره ، ولا بإنشاده . ورز ، بالراء قبل الزاي ، معناه اختبر واطلب قال ابن الأنباري : رزت
ما عنده ، أي طلبته وأردته ، قال الزبيدي : الرّوز قريب من التحقيق ، والروز أن تأخذ
الصنجة بيدك ، فترفعها لتختبر ثقلها ، قال الشاعر : [الوافر]

وإن الله رازٌ حُلوم قيسٍ
فلَمَّا ذاق خِفَّتْهَا قَلاها
وقال الأعشى : [مجزوء الكامل]

فمشى ولم يخش الأنبيـ
س فرازها وخَلابُها
اضرم : اقطع الصلبة . السُلاف : الخمر الخالصة . الحصرم : الحامض ، لأنَّ عود
العنب حامض ، ويتولد عنه شيء لذيذ ، وتقدم معنى البيت .

وأما وجود الأشياء مع أضدادها مثل الحلاوة مع أصله مرّ فله نظائر، قال حبيب:
[البسيط]

* والنار قد تُنتَضَى من ناضِرِ السَّلَمِ ^(١) *

وقال المتنبي: [الوافر]

فإن الماء يَجْرِي من جمادٍ وإن النار تخرج من زنادٍ ^(٢)
وقد يجري أيضاً خلاف العادة في الأشياء، فقد يتشابه الشيطان من جهة، ويتباعدان
من أخرى.

قال المعري: [البسيط]

قد يَبْعُدُ الشيءُ من شيءٍ يُشَابِهُهُ
قال المتنبي وقد سبقه إليه: [الوافر]
وقد يتقارب الوصفان جدًّا
وما أحسن قول ابن صارة: [البسيط]

يا مَنْ يَعْذُبُنِي لَمَّا تَمَلَّكَنِي
تروقُ حسناً وفيك الموت أجمعه
ماذا تريد بتعذيبي وإضراري
كالصَّقل في السَّيف أو كالنور في النار
وقال ابن عبدون أستاذ بلنسية: [البسيط]

يا مَنْ مَحْيَاهُ جَنَاتٌ مَفْتُحَةٌ
لقد تَنَاقَضَتْ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ
وهجره لي ذنب غير مغفور
تناقض النار بالتدخين والثور

قال: فقرّبه الوالي لبيانه الفاتن؛ حتى أحله مَقْعَدَ الخاتين. ثم قرّض له من
سُيُوب نَيْلِهِ، ما آذن بطولِ ذَيْلِهِ، وقَصَرَ لَيْلِهِ. فَتَهَضَّ عنه بِرُذْنِ مَلَانٍ، وقلْبِ
جذلان، وتبعته حاذياً حَذْوَهُ، وقافياً خَطْوَهُ، حتّى إذا خَرَجَ من بابِهِ، وفَصَلَ عن
غابِهِ، قلت له: هُنْتُتَ بما أُوتِيتَ، ومُلِيتَ بما أُوتِيتَ فأسفر وجهه وتلّالاً، ووالى
شكراً لله تعالى، ثم خطر اختيالاً، وأنشد ارتجالاً: [الطويل]

(١) صدره:

أخَرَجْتُمُوهُ بِكَرِهٍِ مِنْ سَجِيَّتِهِ

والبيت في ديوان أبي تمام ص ٢٦٩.

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٣٦٥/٢.

(٣) البيت في سقط الزند ص ٦٨٨.

(٤) البيت في ديوان المتنبي ٢٥٥/٤.

مَنْ يَكُنْ نال بالحمافة حظاً أو سَمَا قَدْرُهُ لطيبِ الأصول
فبفضلي انتفعت لا بفضولي وبقولي ارتفعت لا بقْيولي
ثم قال: تعساً لِمَنْ جَدَبَ الأدب، وطوبى لمن جدَّ فيه وذأب، ثم ودَّعني
ودَّهَب، وأودَّعني اللَّهَب.

قوله: مقعد الخاتن: كناية عن القرب، كما أن مَزَجَرَ الكلب كناية عن البعد.
سيوب: عطايا، وأصلها الكنوز والمعادن. نَيْلُه: ماله الموهوب، وفي كتاب العَيْن: أنلت
المعروف ونلته ونولته واسم ما تهب الثوال والنَّيْل. آذَن: أعلم. طول ذيله: كثرة ماله.
قصر ليله: يريد قلة همه، لأنَّ المهموم لا ينام فيطول ليله، ووصف الليل بالطول
والقصر، وله باب مشهور في كتب الأدب تركنا ذكره لشهرته وكثرته، وعُلَّتْه راجعة لما
ذَكَر من أن لَيْلَ السرور قصير، وليل الهم طويل.

[مما قيل في الليل شعراً]

وحدث إسحاق الموصلي قال: دخلت على الرشيد وهو مُستلقٍ على قفاه وهو
يقول: أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها، قلت: فيمَ ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال
في قوله: [البسيط]

لا أسأل الله تغييراً لما فعلت نامت وقد أسهرت عيني عيناها
فالليل أطول شيء حين أفقدها والليل أقصر شيء حين ألقاها
ثم قال: أتعرفه؟ قلت بصوت ضعيف: لا، قال: بحقي عليك؟ قلت: نعم هو
الوليد بن يزيد، فقال استر ما سمعته مني، وإنه ليستحق أكثر مما وصفته به.

ولبعضهم وأجاد: [الكامل]

إنَّ اللَّياليَ للأنام مطيَّةٌ تُطوى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقصارهُنَّ مع الهموم طويلةٌ وطوالهُنَّ مع السرورِ قصارُ

وأنشد الفنجديهي للمطرافي: [البسيط]

أخو الهوى يستطيلُ الليلَ مَنْ سهرِ واللَّيلُ في طولِه جارٍ على قَدَرِ
لَيْلُ الهوى سَنَةٌ في الهجر مدَّتْه لكته سنة في الوصل من قِصرِ

وأنشد السَّلامي رحمه الله: [البسيط]

ليلي وليلى سَواءٌ في اختلافهما قد صيَّراني جميعاً في الهوى مثلاً
يجود بالطول ليلي كلما بَخِلْتُ بالطول ليلي وإن جادَتْ به بَخِلاً

وقال ابن أبي دبال: [الوافر]

يطولُ اليومُ لا ألقاكُ فيه وحولُ نلتقي فيه قصيرُ

وتبعه بشار، فقال وأحسن: [البسيط]

لا أظلم الليلَ ولا أدعي أن نجوم الليل ليست تغورُ

ليلي كما شاءت فإن لم تَزُرْ طال وإن زارت فليلي قصيرُ

تصرّف الليل على حكمها فهو على ما صرّفته يدورُ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى، فقال وأحسن: [الخفيف]

لست أدري أطلال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى

لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرغى النجوم كنت مُخلّا

إن للعاشقين عن قصر الليـ ل وعن طوله من الهم شُغلا

قوله: ردن، أي كم. جذلان: مسرور. حاذياً حذوه، أي متبعاً له جاعلاً قديمي موضع قدمه، فيتسع فيه، فيقال: حذوت حذوه، أي فعلت مثل فعله، وأصله في حذو النعل بالنعل، وقد تقدم.

قافياً: متبعاً فصل: زال وخرج. غابه: موضعه، والغاب الشجر الملتف يتخذ الأسد فيه بيتاً. مُليت: أطيل لك ومتعت به، من الملاوة، وهو الحين أوليت: أعطيت. أسفر: أضاء، ومثله تلاًلاً، إلا أن معناه أبلغ، وأصل تلاًلاً: ابيضّ، فأشبهه بياض اللؤلؤ، وصفاءه، يريد أنه انبسط وجهه وحسنت خلقته لما دعا له. والى: كَرَّر. خطر اختيلاً: جرّ أثوابه إعجاباً بنفسه. سما قدره: ارتفعت منزلته. طيب الأصول: شرف الجدود. الفضول: الحمق والدخول فيما لا يعني. والقيول: من دون الملك، واحدهم قيل، وأراد بهم الأجداد الأشراف، وطابق بين حماقة والفضول، وبين طيب الأصول والقبول، وسلخه من قول المتنبي: [البسيط]

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي ارتفعت لا بجذودي^(١)

أشار إلى نسبه من ملوك كنده.

قال: آخر: [الرمل]

أيها الفاخر جهلاً بالحسب إنما الناس لأم ولأب

إنما الفخر بعقل راجع وبأخلاق حسبان وأدب

ذاك من قد فاخر الناس به فاق من فاخر منهم وغلب

وقال الحكيم بن قنبر: [البسيط]

لا خير فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ حتى يكون على ما نابِه حديبا
كم من حبيبٍ أخِي وطمطمَةٍ قدّم لدى القوم معروفاً إذا انتسبَا
في بيت مكرمةٍ أبَاؤه تُجِبُّ كانوا الرؤوس فأضحى بعدهم ذنبَا
وقد تقدمت نظائره.

قوله: تَغْسَا، أي هلاكاً. جذب: عاب، وفي الحديث: «جذب ابن الأثير بالسمر بعد العشاء»^(١) أي عابه، وقال ذو الرّمة [الطويل]

إذا نازعتك القول مَيَّةٌ أو بَدَا لك الوجه منها أو نَصَا الدَّرْعُ سَالِيَهُ^(٢)
فيالك من خدٍ أسيلٍ ومنطِقٍ رَخِيمٍ وَمِنْ خَلَقٍ تَعَلَّلَ جَادِبُهُ
قوله: دأب، أي دام عليه. أودعني: ضممني، وجعله في قلبي اللّهب: جمر النار.
ومما يتعلّق بما قدمناه من الشعر قول جحظة: [الوافر]

أرى الأعياد تتركني وتمضي وأوشك أنها تبقى وأمضي
علامة ذاك شيبٌ قد علاني وضعقي عند إرامي ونقضي
وما كذب الذي قد قال قبلي إذا ما مَرَّ يوم مَرَّ بعضي
أرى الأيام قد ختمت كتابي وأحسبها ستتبعه بفض
وعلى قوله: «إذا ما مَرَّ يوم مَرَّ بعضي» قال بعض بني حمدان: [مخلع البسيط]

المَرء وقت له تناءٍ مقدّر طولهِ وعَرْضُهُ
فكلما مَرَّ منه يوم فلإنما مَرَّ منه بعضُهُ

وجحظة مطبوع الشعر، هو القائل في أبي بكر بن دريد: [البسيط]

فقدتُ بآبن دريدٍ كلَّ فائدةٍ لمّا غدا ثالثَ الأحجارِ والثُرْبِ
وكنْتُ أبكي لفقدِ الجودِ مجتهداً فصرتُ أبكي لفقدِ الجودِ والأدبِ
أين هذا من قول الفرزدق يرثي سائساً، أنشده أبو محمد في الدرة: [الطويل]

(١) أخرجه ابن ماجه في الصلاة باب ١٢، وأحمد في المسند ١/٣٨٩، ٤١٠، بلفظ: «جذب لنا رسول الله السمر بعد العشاء».

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٨٣٤، والبيت الثاني في لسان العرب (جذب)، وتاج العروس (جذب)، وتهذيب اللغة ١٠/٦٧٣، وديوان الأدب ٢/١٤٢، ومقاييس اللغة ١/٤٣٥، ومجمل اللغة ١/٤١٤، والأغاني ١٨/٥٧، وديوان المعاني ١/٢٣٤، وأمالى القالي ١/٩٥، وذيل الأمالي ص ١٢٤، ١٦٣، وسمط اللآلي ص ٢٩٨، وكتاب العين ٦/٨٧، وهو بلا نسبة في المخصص ١٢/١٧٢، وجمهرة اللغة ص ٢٦٤، ومجالس ثعلب ص ٢٢٨.

ليبك أبا الخنساء بغلٌ وبغلةٌ ومخللةٌ سوء قد أضيع شعيرها
ومجرفة مطروحة ومجسة ومقرعة صفراء بال سيورها
أخذه من قول زيد الخيل يرثي عبداً له: [السريع]

أما تعاورتك الرماح فلا أبكيك إلا للدلو والمرس^(١)
وقد قدمنا فصلاً في التشاؤم بالأدب في قوله، فقد دهاني شؤمه وأثنى عليه هنا
بقوله: تعسا لمن جَدَبَ الأدب، وطوبى لمن جَدَّ فيه وأدب

[مما قيل في الأدب والأديب]

ونذكر هنا فصلاً مقنعاً في مدحه، حسبما شرطنا من الجري معه على أغراضه. قال
العلاء بن أيوب كان يقال: مثل الأديب ذي القريحة، مثل دائرة تُدار من داخلها، فهي في
كلِّ دائرة تدار تتسع وتزداد عِظْماً، ومثل الأديب غير ذي القريحة مثل دائرة تُدار من
داخلها، فهي عن قليل تبلغ إلى باطنها.

أوصى بعض الحكماء بنيهِ، فقال لهم: الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً، وأنفسها قيمةً،
يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة، ويُغني من غيره عشيرة، ويكثر الأنصار
من غير رزيه، فالبسوه حُلَّةً، وتزينوا به حِلِيَّةً، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع القلوب
المختلفة.

وقال شبيب بن شبّة: اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل، دليل على المروءة صاحب في
الغربة، مؤنس في الوحشة، حلية في المجلس.

وقال الخليل: مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالاً.

وأشد الأصمعي رحمه الله: [البسيط]

إن يك للعقل مولود فلست أرى ذا العقل مستوحشاً من حادث الأدب
إنني رأيتهما كالماء مختلطاً بالترب تظهر عنه زهرة العُشبِ

وقال عبد الملك لبنيه: عليكم بالأدب، فإنكم إذا احتجتم إليه كان لكم مالاً، وإن
استغنيتم عنه كان لكم جمالاً.

ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لدنيا، فلا يعجبك، فإنَّ تلك كرامةٌ نزول

(١) يروى صدر البيت:

أما تقزّش بك السلاح فلا

وهو لأبي زيد الطائي في ديوانه ص ١٠٥، ولسان العرب (قرش)، وجمهرة اللغة ص ٧٢١، ٧٣٢،
وطبقات فحول الشعراء ص ٦١٠، والشعر والشعراء ص ٣٠٨، والكامل ص ٩٩٢، والأغاني ١٢/
١٦٠.

بزوالهما، ولكن ليعجبنا إذا أكرموك لدين أو أدب.
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله،
 ومن علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل.
 وقال بُزْجُمَهر: ما ورثت الآباءُ الأبناءَ خيراً من الأدب، لأن به يكسبون المال،
 وبالجهد يثْلِفونه.

وقال: حسنُ الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتقوى خير زاد.
 وقالوا: ثلاث لا غربة معهن. مجانية الرِّيب، وحسن الأدب، وكفّ الأذى. وقال
 يُزْجُمَهر: من كثر أدبه كثر شرفه، وإن كان قبلُ وضيعاً، وبعد صيته، وإن كان خاملاً،
 وسادَ وإن كان غريباً، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً.
 وقال عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أعطيتُه العرب الأبيات، يقدمها الرجل بين
 يدي حاجته، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم.
 وقالوا: الأدب أدبان. أدب الغريزة، وهو الأصل وأدب الرواية وهو الفرع، ولا
 يتفرع الشيء إلا عن أصله، ولا ينمو الأصل إلا باتصال المادة.

وقال حبيب فأحسن: [الطويل]

وما السَّيْفُ إِلَّا زَنْبَرَةٌ إِنْ تَرَكْتَهُ عَلَى الْخِلْقَةِ الْأُولَى لَمَّا كَانَ يَقْطَعُ^(١)

وقال آخر: [المنسرح]

مَأْ وَهَبَ اللَّهُ لِمَرْءٍ هِبَةً أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِهِ وَمِنْ أَدَبِهِ
 هُمَا كَمَالُ الْفَتَى فَإِنْ فُقِدَا فَفَقْدُهُ لِلْحَيَاةِ أَحْسَنُ بِهِ

وقالوا: إذا كان الرجل طاهر الأدب، طاهر المنبت، تأذب بأدبه، وصلح بصلاح
 أهله وولده.

وقال الشاعر: [الطويل]

رَأَيْتُ صِلَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيَغْدِيهِمْ عِنْدَ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ
 يَعِظُ فِي الدُّنْيَا لِأَجْلِ صِلَاحِهِ وَيُحَفِّظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ

المقامة التاسعة والثلاثون

وهي العُمانيّة

حدّث الحارث بن هَمّام، قال: لهجْتُ مُذِ اخْضَرَّ إِزَارِي، وَبَقِلَ عِذَارِي، بَأْنُ
أَجُوبَ الْبَرَارِي، عَلَى ظَهْرِ الْمَهَارِي، أَنْجِدْ طَوْرًا، وَأَسْلُكْ تَارَةً غَوْرًا؛ حَتَّى فَلَيْتُ
الْمَعَالِمَ وَالْمَجَاهِلَ، وَبَلَوْتُ الْمَنَازِلَ وَالْمَنَاهِلَ، وَأَذْمَيْتُ السَّنَابِكَ وَالْمَنَاسِمَ،
وَأَنْضَيْتُ السَّوَابِقَ وَالرَّوَاسِمَ فَلَمَّا مِلْتُ الْإِضْحَارَ، وَقَدْ سَنَحَ لِي أَرْبُ بَصْحَارَ، مِلْتُ
إِلَى اجْتِيَازِ الْتِيَارِ، وَاخْتِيَارِ الْفُلْكِ السِّيَارِ، فَتَقَلْتُ إِلَيْهِ أَسَاوِدِي، وَاسْتَصَحَبْتُ زَادِي
وَمَزَاوِدِي، ثُمَّ رَكَبْتُ إِلَيْهِ رَكُوبَ حَازِرٍ نَازِرٍ، عَاذِلٍ لِنَفْسِهِ عَاذِرٍ فَلَمَّا شَرَعْنَا فِي
الْقُلْعَةِ، وَرَفَعْنَا الشَّرْعَ لِلشَّرْعَةِ، سَمِعْنَا مِنْ شَاطِئِ الْمَرْسَى، حِينَ دَجَا اللَّيْلُ
وَأَغَسَى، هَاتِفًا يَقُولُ: يَا أَهْلَ ذَا الْفُلْكِ الْقَوِيمِ، الْمَرْجَى فِي الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، بِتَقْدِيرِ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، هَلْ أَذْلَكُكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ! فَقُلْنَا: أَقْبِسْنَا نَارَكَ
أَيُّهَا الدَّلِيلُ وَأَرْشِدْنَا كَمَا يُرْشِدُ الْخَلِيلُ الْخَلِيلُ.

لهجْتُ أَيِ اشْتَدَّ حَتْبِي، وَأَصْلَهُ فِي الْفَصِيلِ إِذَا رَضِعَ أُمَّهُ، يُقَالُ: لَهَجَ بَضْرَعُ أُمِّهِ، إِذَا
لَزَمَهُ لِيَرْضَعَهُ، اخْضَرَّ إِزَارِي، كُنِيَ بِهِ عَنِ الشَّبَابِ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا بَلَغَ مِنْهَا الْغَلَامُ
الْحَلْمَ وَأَشْعَرَ لِبَسِ الْإِزَارِ لِيَسْتُرَ عَوْرَتَهُ. بِقِلَ عِذَارِي: اخْضَرَّ شَارِبِي، وَبَدَا الشَّعْرُ فِي
وَجْهِهِ أَخْضَرَ مِثْلَ الْبَقْلِ.

[مما قيل في العذار]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في العذار، قال أبو نَواسٍ: [الكامل]

مِنْ أَيْنَ لِلرَّشَاءِ الْأَغْنَى الْأَخْوَرِ فِي الْخَدِّ مِثْلَ عِذَارِهِ الْمَتَحِيرِ
قَمَرٌ كَأَنَّ بَعَارِضِيهِ كِلَيْهِمَا مِسْكَاً تَسَاقُطُ فَوْقَ وَرْدٍ أَحْمَرِ

وقال أيضاً: [مخلع البسيط]

قَدْ كَانَ بَذَرَ السَّمَاءِ حَسَنًا فَالْأَنَاسُ فِي حَبِّهِ سَوَاءُ

فَزَادَهُ رَبُّهُ عِذَارًا تَمَّ بِهِ الْحَسَنُ وَالْبَهَاءُ
لَا تَعْجَبُوا، رَبُّنَا قَدِيرٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ : [السريع]

هَمَّتْ عِذَارَاهُ بِتَقْبِيلِهِ فَاسْتَلَّ مِنْ عَيْنِيهِ سَيْفَقَيْنِ
فَذَلِكَ الْمَحْمَرُ مِنْ خَدِّهِ دَمٌ جَرَى بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
وَقَالَ غَيْرُهُ : [مجزوء الكامل]

قَمَرٌ كَأَنَّ قَوَامَهُ مِنْ قَدْ غَصَنٍ مُسْتَرْقٍ
وَكَأَنَّ مَا قَلَمَ الزَّمَرِ وَفِي عَوَارِضِهِ مَشَقُّ
وَلَأَبِي الْفَضْلِ الدَّارِمِيِّ : [الرجز]

إِذَا الَّذِي خَطَّ الْجَمَالَ بِوَجْهِهِ خَطَّيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبَلَابِلَا
مَا صَحَّ عِنْدِي أَنَّ لِحَظَكَ صَارِمٌ حَتَّى رَأَيْتُ بِعَارِضِيكَ خَمَائِلَا
وَقَالَ أَيْضًا : [الرمل]

قُلْتُ لِلْمَلْقِي عَلَى الْخَدِّ يَنْ مِنْ وَرْدٍ خُمَارَا
أَسْبَلَ الصُّدُغُ عَلَى خَدِّ يَكُ مِنْ مَسْكِ عِذَارَا
أَمْ أَعَانَ اللَّيْلَ حَتَّى غَلَبَ اللَّيْلُ التُّهَارَا
قَالَ مِيدَانُ جَرَى الْحَسَا نُ عَلَيْهِ فَاسْتَدَارَا
رَكُضْتُ فِيهِ عَيُونٌ فَأَثَارَتْهُ غُوبَارَا

قوله : أجوب، أي أقطع البراري : الصَّحَارَى . المهاري : إبل كرام أنجد : أطلع ، والتَّجْد : المرتفع . والغور : ضده ، وقد أنجد وغار . أسلك : أدخل وأمشي . فليت : قطعت المعالم : المواضع المعلومَة ، والمجاهل ، ضدها . بلوت : جريت . المناهل : مواضع المياه . السنايك ، أطراف الحوافر المناسم : جمع منيسم ، وهو مقدَّم خُفِّ البعير . أنضيت : أهزات . السوابق : الخيل الرواسم : الإبل السريعة ، ورسمت الناقة فهي راسمة ، إذا أثرت في الأرض من شدة وطئها ، قال أبو عبيد رحمه الله : إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً ، فهو التَّزِيد ، فإذا ارتفع عن ذلك ، فهو الدَّمِيل ، ثم الرَّسِيم . الإصحار : الدَّخُول للصحراء ، يريد ملئت من سفر البر . سنح : ظهر وعرض . اَرَب : حاجة .

[صُحَار]

صُحَار : سوق عُمان ، وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مُرْسَاهَا فرسخ في فرسخ ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخاً ، ما ولي البحر سهول ورمال ، وما تباعد عنه حزون

وجبال، وهي مدن، منها مدينة عمان وهي حصينة على الساحل، ومن الجانب الآخر مياه تجري إلى المدينة، وفيها دكاكين الثُّجَار مفروشة بالثُّحَاس مكان الآجَر، وهي كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر، وفي الأمثال: مَنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فَعَلِيهِ بَعْمَان، وفي أحوازها مغاص اللؤلؤ. وعُمان من أحواز اليمن سُمِّيَت بعمان بن سبأ.

الفنجديةي: صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهي قصبتها ممّا يلي الجبل.

التيّار: البحر. الفُلك: السفينة السّيّار: الكثير المشي، والفُلك يكون واحداً وجمعاً، ويذكر ويؤنث.

أساودي: أمتاعي، لأنها تسود الأرض بظلمها، وهي جمع أسودة، وأسودة جمع سواد، وسواد الأمير ثقله. أبو عبيد: كُلُّ شخص سواد، من متاع أو إنسان أو غيره. الحاذِر: الخائف. ناذر: حالف، وأراد به الذي ينذر بخير إن سلّمه الله تعالى من هَوَل البحر. عاذل وعاذر، يريد أنه يعذّل نفسه عن التغرير بدخول البحر ومقاساة أهواله، ويغذّرها لكثرة المتاجر. شَرَعْنَا فِي الْقُلْعَةِ: أخذنا في قلع المراسي، ورفع القلع وهي الشَّرْع قوله: أغشى، أي أظلم هاتِفاً، أي صائحاً. القويم: المستقيم. المَرْجِي: المسوق المسير، قال الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] أي يسيّرها، وأزجاء: إذا ساقه. أقبَسْنَا: أعطنا أرشدْنَا: دُلْنَا، قاله الأزهري رحمه الله.

فقال: أَتَسْتَضْحِبُونَ ابْنَ سَبِيلٍ، زَادَهُ فِي رَيْبِلٍ، وَظَلُّهُ غَيْرُ ثَقِيلٍ، وَمَا يَبْغِي سِوَى مَقِيلٍ. فَأَجْمَعْنَا عَلَى الْجُنُوحِ إِلَيْهِ وَالْأَنْبَخِلَ بِالْمَاعُونِ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى الْفُلْكِ، قَالَ: أَعُوذُ بِمَالِكِ الْمَلِكِ، مِنْ مَسَالِكِ الْهَلِكِ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّا رَوَيْنَا فِي الْأَخْبَارِ، الْمَنْقُولَةَ عَنْ الْأَخْبَارِ، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَخَذَ عَلَى الْجُهَّالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا، حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يُعَلِّمُوا، وَإِنْ مَعِيَ لَعُودَةٌ، عَنْ الْأَنْبِيَاءِ مَأْخُودَةٌ، وَعِنْدِي لَكُمْ نَصِيحَةٌ، بَرَاهِينُهَا صَحِيحَةٌ، وَمَا وَسِعَنِي الْكُتْمَانُ، وَلَا مِنْ خِيَمِي الْحِزْمَانِ فَتَدَبَّرُوا الْقَوْلَ وَتَفَهَّمُوا، وَاعْمَلُوا بِمَا تُعَلَّمُونَ وَعَلِّمُوا.

ثم صاح صَاحَ صَنِحَةِ الْمَبَاهِي، وقال: أَتَذَرُونَ مَا هِيَ! هِيَ وَاللَّهِ حِزْزُ السَّفَرِ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي الْبَحْرِ، وَالْجَنَّةُ مِنَ الْعَمِّ، إِذَا جَاشَ مَوْجُ الْيَمِّ، وَبِهَا اسْتَعَصَمَ نوحٌ مِنَ الطُّوفَانِ، وَنَجَا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْحَيَوَانِ؛ عَلَى مَا صَدَعَتْ بِهِ آيُ الْقُرْآنِ. ثم قرأ بَعْدَ أُسَاطِيرَ تَلَاهَا، وَزَخَارِفَ جَلَاهَا، وقال: اركبوا فيها باسم الله

مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا. ثُمَّ تَنْفَسَ تَنْفَسَ الْمُغْرَمِينَ، أَوْ عِبَادِ اللَّهِ الْمَكْرَمِينَ.
وَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ قُفْتُ فِيكُمْ مَقَامَ الْمُبْلَغِينَ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ نُصْحَ الْمُبَالِغِينَ،
وَسَلَكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ، فَاشْهَدِ اللَّهُمَّ وَأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ.

ابن سبيل: هو المسافر الذي انقطع به، وهو يريد الرجوع إلى بلده، ولا يجد ما
يتبَلَّغ به، فله سهم في الصدقات. زَبِيل: قُفُّه من جلود، وألغز به بعضهم فقال: [الوافر]
وذي أذنين لا يقنتات قوتاً وجوفٍ للحوائج واحتمالٍ
يكلّف شغل أهل البيت طُرّاً وتُحْمَل فيه أقوات العيال
تُسِرُّ إليه في الأسواق سِرّاً فلا يُفْشِيهِ إِلَّا فِي الرِّحَالِ
ظله غَيْرُ ثَقِيل، أي هو خفيف الروح، وقد تقدّم معنى استثقال ظلّه في الثانية
والعشرين، ويريد بظلّه شخصه كما يسمّى الشخص سواداً، لأنه يسود الأرض بظلّه.
قال زياد بن عبد الله: قبل للشافعي رضي الله عنه: هل تمرض الروح؟ قال: نعم
من ظلّ الثقلاء قال: فمررت به يوماً وهو بين ثَقِيلَيْن، فقلت كيف الروح؟ قال: في
النُّزَع.

وقال الهيثم بن عديّ: النَّظَرُ إِلَى الثَّقِيلِ حُمَى الرُّوح. مقيل: موضع جلوس في
القائلة. الجنوح: الميل، والماعون اسم للمطر. وأنشد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه:
[الوافر]

يَمَجِّ صَبِيرُهُ الْمَاعُونَ مَجّاً إِذَا نَسَمَ مِنَ الْهَيْفِ اعْتَرَاهُ^(١)

والماعون الزكاة، قال الرّاعي: [الكامل]

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَيَضِيعُوا التَّهْلِيلَا^(٢)

مسالك: طرق ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «أَمَانٌ لِأُمْتِي مِنَ الْغَرَقِ
إِذَا رَكَبُوا فِي السَّفَنِ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:
٩١]، الْآيَةُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (معن)، وتهذيب اللغة ١٧/٣، والمخصص ١٢١/٩، وتاج العروس (معن).

(٢) البيت للرّاعي النميري في ديوانه ص ٢٣٠، وفيه «قومي» بدل «قوم»، ولسان العرب (معن) وفيه «التنزيلا» بدل «التهليلا»، وتاج العروس (معن)، وبلا نسبة في لسان العرب (همل)، وتهذيب اللغة ٣٦٨/٥، وتاج العروس (همل).

وقوله: إن الله تعالى ما أخذ على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا، قيل: معنى أخذ: أوجب، وأراد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما أتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه الميثاق ألا يكتمه» قال الحسن بن عمر: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث، فألقيته على بابه، فقلت: إما أن تحدثني وإما أن أحدثك، قال: حدثني، فقلت: حدثني الحكم ابن عيينة، عن يحيى بن الجزار، قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا، قال: فحدثني بأربعين حديثاً.

قوله: غوذة، أي ما يتعوذ به الإنسان من الجزز وشبهه. براهينها: حجبها خيمي: طبعي. الحرمان: منع الفوائد. المباهي: المفاتيح الكثير الإعجاب السفر: المسافرين. الجئة، الستر. جاش: تحرك وهاج. اليم: البحر. استعصم: امتنع. الطوفان: الماء العام. صدعت: نطقت أي: جمع آية، وتقدمت الأساطير، هي الأباطيل. زخارف: أشياء مزيّنة المغرمين: المعذنين، والمغرم المولع بالحب وغيره. الراشدين: الهادين للطريق.

* * *

قال الحارث بن همام: فَأَعْجَبَنَا بَيَانُهُ الْبَادِي الْطَّلَاوَةِ، وَعَجَّتْ لَهُ أَصَوَاتُنَا بِالتَّلَاوَةِ، وَأَنْسَ قَلْبِي مِنْ جَزْسِهِ، مَغْرِفَةَ عَيْنٍ شَمْسِهِ فَقُلْتُ لَهُ: بِالَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ اللَّجْئِي؛ أَلَسْتُ السَّرُوجِي! فقال لي: بلى، وَهَلْ يَخْفَى ابْنُ جَلَا! فَأَحْمَذْتُ حِينْتِذِ السَّفَرِ، وَسَفَرْتُ عَنْ نَفْسِي إِذْ سَفَرِ، وَلَمْ نَزَلْ نَسِيرُ وَالْبَحْرُ رَهْوً، وَالْجَوُّ صَخْوً، وَالْعَيْشُ صَفْوً، وَالزَّمَانُ لَهْوً، وَأَنَا أَجِدُ لِلْقِيَانِهِ، وَجَدَ الْمُثْرِي بِعَقِيَانِهِ، وَأَفْرَحُ بِمَنَاجَاتِهِ، فَرَحَ الْغَرِيقِ بِمَنَاجَاتِهِ، إِلَى أَنْ عَصَفَتِ الْجُثُوبُ، وَعَسَفَتِ الْخُنُوبُ، وَنَسِيَ السَّفَرُ مَا كَانَ وَجَاءَكُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ؛ فَمَلْنَا لِهَذَا الْحَدِيثِ السَّائِرِ، إِلَى إِخْدَى الْجَزَائِرِ؛ لثَرِيحٍ وَنَسْتَرِيحٍ، رَيْثَمَا تَوَاتِي الرِّيحُ.

فتمادى اعتياصُ المُسِيرِ؛ حَتَّى نَفِدَ الزَّادُ غَيْرَ الْيَسِيرِ؛ فَقَالَ لِي أَبُو زَيْدٍ: إِنَّهُ لَنْ يُحَرِّزَ جَنَى الْعُودِ بِالْقُعُودِ، فَهَلْ لَكَ فِي اسْتِثَارَةِ السُّعُودِ بِالصُّعُودِ! فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي لَأَتَّبِعُ لَكَ مِنْ ظِلِّكَ، وَأَطُوعُ مِنْ نِعْلِكَ.

* * *

الطَّلَاوَةُ: الحسن والقبول. عُجْتُ: ارتفعت. آنس: أحسن وأدرك. جرسه: صوته الخفي. عين شمس: حقيقة نفسه ومعرفته اللجي: وهي معظم الماء.

[طوفان نوح عليه السلام]

ونذكر هنا بعد ما حدث من طوفان نوح عليه السلام :

ذكر أهل الأخبار أن نوحاً عليه السلام أوّل نبيّ بعث، وأنّ قومه كانوا أهل أوثان، يعبدونها من دون الله، فبعث لهم نوح فدعاهم إلى الله، فكانوا يبطشون به، ويستخفّون به، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. فلما كثر استخفافهم به، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك فإنهم مغرّقون. فأقبل على قطع الخشب وضرب الحديد وتهيئة العود بالفار وغيره، فصنعه من خشب الساج، وجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً، وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً. وكان قومه في خلال صنعة السفينة يأتونه أفواجا، يستخفّون عقله، ويعدّون فِعْلَه من جنونه، ويقولون له: عملت سفينة في البرّ، فيقول لهم: سوف تعلمون. فلما اطمأنوا في الفلك فار التّنور من الهند، وقال الشعبي رحمه الله من الكوفة. وفتّحت أبواب السماء بماء منهمر، وتفجّرت الأرض عيوناً، فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً، فلما بلغ الماء إليهم أوّلاً إلى الجبال، فكانت الجبال تستقبلهم بالحجارة، وتغرّقهم في الماء، فماتوا غرقى، وارتفع الفلك، وجعل يجري في موج كالجبال، ودار الأرض كلها في ستة أشهر وعشر ليال. ويقال: إنهم ركبوا لعشر ليال مَضِينَ من رجب، ونزلوا يوم عاشوراء من المحرم، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء، وأنت السفينة الحرّم فدارت به أسبوعاً، ولم يبق شيء الخلائق ولا من الشجر إلّا هلك، إلا نوح ومن معه، وإلّا عوج بن عنق - فيما يزعم أهل الكتاب - وانتهت آخرها إلى الجوديّ، وهو جبل بالحضنين من أرض الموصل فتزلت عليه.

قوله: ابن جلا، أي المشهور المعروف، يقال للرجل إذا كان عالي الشرف واضح الأمر لا يخفى مكانه: هو ابن جلا، أي هو الذي الأمور بنفسه، وأوضحها، قال سخيم ابن وثيل: [الوافر]

أنا ابنُ جلاً وطَلأُ الشّنايا متى أضغَ العمامة تعرّفوني^(١)

وكان صاحب غارات، يطلع فيها من ثِيَّة الجبل على قومه؛ قال ثعلب: العمامة تُلبس في الحرب وتوضع في السّلم؛ قال ابن الأعرابي: يقال للسّيد: ابن جلا، قال سيّويه رحمه الله: جلاً فعل ماض، كأنه يعني الذي جلا، أي أوضح وكشف.

(١) البيت لسخيم بن وثيل الرياحي في الأصمعيات ص ١٧، والشعر والشعراء ٦٤٧/٢، والكتاب ٣/٢٠٧، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ص ٤٥٦، وشرح قطر الندى ص ٨٦، ولسان العرب (ثنى)، (جلا)، ومجالس ثعلب ٢١٢/١.

قوله: أحمذت، أي وجدته محموداً. سَفَرْتُ: كشفت وأزلت الهم سَفَرًا: عَرَفْنَا بنفسه، ويقال: سَفَرْتُ عن نفسي كما سَفَر، أي عَرَفْتَهُ شَخْصِي كما عَرَفْنِي هو شَخْصَهُ ونَفْسَهُ. وهو: ساكن، ويقال: فعل ذلك رَهْوًا، أي ساكنًا من غير تشدد، قال تعالى: ﴿وَاتْرِكِ الْبَخْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: ٢٤] والرَّهْوُ عند العرب الساكن، يقال: جاءت الريح رَهْوًا، أي ساكنة، ويجوز أن يكون رَهْوًا من نعت موسى عليه السلام، أي أتركه على هِينَتِكَ، أو يكون من نعت البحر، أي دَغِهْ يا موسى ساكنًا واقفًا ماؤه واعبره. الجَوْ: ناحية. السماء صحو: نقي من السحاب المثيري: الغني. والعَقِيَّان: الذهب ينبت نباتًا. عصفت الريح: اشتدت الجنوب: الريح القبلية. عسفت: جاءت من كل جانب، والعسفُ ركوب الأمر على جهالة. والخبوب، بخاء معجمة، جمع خَبٍّ، وهي الرواية الصحيحة عن ابن جهور وغيره، وهو هَيْجُ البحر واضطراب الماء، وهو الذي صَحَّحَهُ الفنجديهي كأن أبا عمرو القُسْطَلِيَّ شاهد هذه الحالة من هول البحر فوصفه بقوله: [الطويل]

إليك شحنا القُلُك تهوي كأنها
على لُجَجٍ خضرٍ إذا هبت الصبَا
موائل يرعى في ذراها موائلٌ
تقاتل مَوْجُ البحر واليم والدُّجى
ألا هل إلى الدنيا معاذٌ وهل لنا
وقال آخر: [الرمل]

وسماء في الثرى مخضلة
غَطَّتِ الأرض فلم تترك لنا
فكأن الأرض فيها عائمٌ
وكان الموج فيها عسكرٌ
خافق راجفةً أخشاؤه
كحشا المهجور يهفو أسفاً

قوله: نسي السُّفْر ما كان، أي نسوا ما كان من طيب العيش بصفو الصحو قوله: الحدَثُ الثائر، أي الأمر الطارئ. لنريح، أي لثريح أنفسنا من تعب الهول والخوف، وأراح الرجل: استراح وأراح غيره، وأراح الريح وأروحها واشترّوحها: وجدها. رَيْث: قذر، والرَيْث اللَّبَثُ والبُطء. ثَوَاتِي: توافق اعتياص: التواء وتصعب. نَفَذَ: فَنَيْ اسْتِثَارَةً: استخراج، يقول: هل لك في إدراك الحظّ بالخروج من السفينة إلى البرية.

فَنَهَذْنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ، عَلَى ضَعْفٍ مِنَ الْمَرِيرَةِ؛ لِنَرْكُضَ فِي امْتِرَاءِ الْمِيرَةِ؛

وَكِلَانًا لَا يَمْلِكُ فِتْيَلًا وَلَا يَهْتَدِي فِيهَا سَبِيلًا؛ فَأَقْبَلْنَا نَجُوسَ خِلَالِهَا، وَتَنْفِيًا ظِلَالِهَا،
 حَتَّى أَفْضَيْنَا إِلَى قَصْرِ مَشِيدٍ، لَهُ بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَدُونَهُ زُمْرَةٌ مِنْ عَبِيدٍ. فَتَنَاسَمْنَاهُمْ
 لِنَتَّخِذَهُمْ سُلَمًا إِلَى الْإِرْتِقَاءِ، وَأَرَشِيَّةً لِلْإِسْتِقَاءِ؛ فَأَلْفَيْنَا كَلًّا مِنْهُمْ كَثِيرًا حَسِيرًا؛ حَتَّى
 خَلْنَاهُ كَسِيرًا أَوْ أُسِيرًا. فَقُلْنَا: أَيُّهَا الْغُلَمَةُ، مَا هَذِهِ الْغُمَّةُ؟ قَلِمَ يُجِيبُوا النَّدَاءَ، وَلَا
 فَاهُوا بَيْنِيضًا وَلَا سَوْدَاءَ، فَلَمَّا رَأَيْنَا نَارَهُمْ نَارَ الْحُبَابِجِ، وَخُبْرَهُمْ كَسْرَابِ
 السَّبَاسِيبِ، قُلْنَا: شَاهَتِ الْوُجُوهُ، وَقَحُّ الْأَلْكَعِ وَمَنْ يَرْجُوهُ فَايْتَدِرْ خَادِمٌ قَدْ عَلَنَتْ
 كَبْرُهُ، وَعَرَّتْهُ عَبْرَةٌ، وَقَالَ: يَا قَوْمَ، لَا تُوسِعُونَا سَبًّا، وَلَا تُوجِعُونَا عَثْبًا؛ فَإِنَا لَفِي
 حُزْنٍ شَامِلٍ وَشُغْلٍ عَنِ الْحَدِيثِ شَاغِلٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو زَيْدٍ: نَفْسُ خِنَاقِ الْبَثِّ، وَإِنِيفَتْ
 إِنْ قَدَرْتَ عَلَى الثَّفِّ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ مِنِّي عَرَفًا كَافِيًا، وَوَصَافًا شَافِيًا.

نَهَذَا: تَقَدُّمُنَا الْمِيرِيَّةَ: قُوَّةُ النَّفْسِ. نَرْكُضُ، بَفَتْحِ أَوَّلِهَا، وَأَصْلُ الرُّكْضِ، تَحْرِيكُ
 الْقَوَائِمِ، وَمِنْهُ «وَارْكُضْ بِرِجْلِكَ» [ص: ٤٢]، وَلِهَذَا قِيلَ لِلْجَنِينِ إِذَا اضْطَرَبَ فِي بَطْنِ
 أُمِّهِ: قَدْ ارْتَكَضَ، وَمِنْ مُشْكَلِ آيَاتِ الْمَعَانِي: [الرجز]

قَدْ سَبَقَ الْحَلَبَّةَ وَهُوَ رَاكِضٌ فَكَيْفَ لَا يَسْبِقُ وَهُوَ رَابِضٌ^(١)

المراد: أَنَّ أُمَّهُ سَبَقَتْ الْجِيَادَ وَهِيَ حَامِلٌ بِهِ، فَأَضَافَ السَّبْقَ إِلَيْهِ لِاتِّصَالِهِ بِهَا، وَأَرَادَ
 بِرَاكُضٍ تَحْرِيكُهُ قَوَائِمِهِ فِي مَقَرِّهِ، وَالرُّكْضُ يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْلِ وَغَيْرِهَا فَيَقَالُ: رَكَضَ الْبَعِيرُ
 بِرَجْلِهِ، وَالطَّائِرُ بِجَنَاحِهِ.

قوله: امْتَرَأَ، أَيِ اسْتَخْرَاجِ. الْمِيرِيَّةُ: جَلْبُ الرِّزْقِ، وَمَارَ الرِّجْلُ عَلَى أَهْلِهِ مَيْرًا:
 جَلَبَ لَهُمُ الْقُوَّةَ.

نَجُوسٌ خِلَالِهَا؛ نَطُوفٌ فِي طَرَفِهَا، قَالَ اللَّيْثُ وَابْنُ سَيِّدِهِ: الْجَوْسُ وَالْجَوْسَانُ:
 التَّرَدُّدُ فِي خِلَالِ الدَّوَرِ وَالْبَيْتِ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَالْأَزْهَرِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: جَاسُوا الْمَوْضِعَ:
 وَطُثُوهُ، وَفُلَانٌ يَجُوسُ بَنِي فُلَانٍ، أَيِ يَطُؤُهُمْ يَطْلُبُ فِيهِمْ وَقَالَ الطَّبْرِيُّ وَالتَّنَاقُشُ وَالزَّجَاجُ
 وَالثَّعَالِبِيُّ: «فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ» [الإسراء: ٥]، أَيِ طَافُوا بَيْنَ بَيْتِهِمْ، يَقْتُلُونَهُمْ
 وَيَطْلُبُونَهُمْ، ذَاهِبِينَ وَجَائِئِينَ. وَالْخُلُلُ: الْفَرْجَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَالْجَمْعُ خِلَالٌ. تَنْفِيًا:
 نَسْتَظِلُّ، وَتَنْفِيًا بِهِ: اسْتَظَلَّ بِهِ، وَتَنْفِيًا: تَقَلَّبَ أَفْضَيْنَا: وَصَلْنَا. مَشِيدٌ: مَرْتَفَعُ الْبِنَاءِ،

(١) يروى الرجز:

قَدْ سَبَقَ الْجِيَادَ وَهُوَ رَابِضٌ فَكَيْفَ لَا يَسْبِقُ وَهُوَ رَاكِضٌ
 وَهُوَ بِلَا نِسْبَةٍ فِي تَاجِ الْعُرُوسِ (رَكُضٌ)، وَجُمُورَةُ اللُّغَةِ ص ٧٥١.

والشَّيد: الجصّ. زمرة: جماعة ناسمناهم: قربنا منهم، وناسمه: سارّه وشامّة، وناسمت الرجل: قرّبت نسمتك من نسّمته، وتحدّثت معه سرّاً: أرشّية: حبّالاً. الارتقاء: الصعود. المَسْك: الجلد، يريد أنه شديد التوجّع، وهذا كما تقول: لقيت فلاناً في ثوب نمر، أو في جلد أسد، أي لقيته بادي الشرّ، قال الشاعر: [الطويل]

فطوراً ترانا في مُسوكٍ جيّادنا وطوراً ترانا في مُسوكِ الثّعالبِ^(١)

قال البكري: الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالرّوغان، فيريد أنهم مُقدّمون على أعدائهم يوماً، ورائفون عنهم يوماً. وقال الأستاذ: أي أسروا فكثفوا بجلود خيلهم المعقورة وفي جلود الثعالب، كناية عن خُبث الأسير فاهوا: نطقوا. سوداء: كلمة رديئة نار الحباحب: ما تطاير من الشرّ في الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر في حَجَرٍ، وتلك نارٌ لا منفعة فيها، وقيل: الحُبّاحب رجل بخيل كان يُوقد ناراً ضعيفة لئلا يُقصد، فإن أحسنّ بإنسان أطفالها لئلا يُقتبس أحدٌ من ناره، وقيل: نار الحباحب نار سراجة، ولبخله كان إذا جاء أحد يوقد منه أطفالها، وقال عبد الصمد بن المعذل في أخيه: [مجزوء الخفيف]

ليت لي منك يا أخي جارةٌ من محاربٍ
نارُها كلّ شثوةٍ مثل نارِ الحُبّاحبِ^(٢)

يريد جارة القطامي التي يقول فيها: [الطويل]

إلى حيزبونٍ تُوقد النَّارَ بعدما تَلَقَّقَتِ الظُّلُماءُ من كلّ جانبٍ
فلما تنازعنا الحديدَ سألْتُها عن الحيّ قالت: معشرٌ من محاربٍ
ألا إنما نيران قومي إذا شتّوا لطارقٍ ليل مثل نارِ الحُبّاحبِ

وقيل: الحُبّاحب ذباب يطير بالليل، له شعاع كالسراج. قوله: خُبرهم، الخبر بضم الخاء، مصدر خبرت أخبر إذا امتحنت، والسباسب والبَسَاس: الأرض المستوية، واحدها سَبَسَب وبَسَبَس. شَاهَتِ الوجوه: قُبِحت الوجوه وفي الحديث: «أخذ عليه الصلاة والسلام قبضةً من تُرابِ يَوْمِ بدر فحشاها في وجوه المشركين، وقال: شاهت

(١) يروى البيت:

فيوماً ترانا في مسوكٍ جيّادنا ويوماً ترانا في مسوكِ الثّعالبِ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (مسك)، وتهذيب اللغة ٨٦/١٠، وتاج العروس (مسك).

(٢) البيت الأول للقطامي في ديوانه ص ٤٦، ولسان العرب (حزبن)، والشعر والشعراء ص ٧٢٧، والأغاني ٢٣/٢٤، ومعاهد التنصيص ١٨١/١، والبيت الثالث للناطقة الذبياني في ملحقات ديوانه ص ٢٢٨، ولسان العرب (حبّحب)، وتاج العروس (حبّحب)، وبلا نسبة في المخصص ٢٦/١١، ويروى «نيران قيس» بدل «نيران قومي».

الوجوه»^(١)، ويقال شاة وجه الرجل يشوه شوهاً وشوهة، قبح، ووجه مشوه، أي مقبح، ورجل أشوه وامرأة شوهاء. واللُّكع اللثيم، وقد لكع لكعا فهو ألكع، ولُكِعَ ولكيع، إذا لؤم وحمق وامرأة لكاع ولكيعة. قوله: علته كبرة، أي أسن وكبير. وعرته عبرة، أي غشيته ذمعة والخادم: الخصي، موصوف بطول العمر وسُرعة العبرة، قال الهيثم بن عدي: في الخصي عشر خصال لا تجتمع في غيره: التهمة، والنميمة، والشرة، وسُرعة الدمعة، وطول العمر، وكبر القدم، والتبري من الصلح، والإجارة في الصغر، والقيادة في الكبر، والاسترخاء في المقعدة وسعة الحجر. لا توسعون سباً، أي لا تكثروا شتمنا عتبا لوما وموجدة، وعتبت عليه أعتب عتبا وعتاباً، وأعتبه: أرضاه، والعُتبي الرضا، واستعتبته طلبت إليه أن يعتب، وقال النابغة: [الطويل]

* وإن تك ذا عُتبي فمثلك يُعْتَبُ^(٢) *

وقال حبيب: [الطويل]

سَرَتْ تحمل العُتبي إلى العُتْب والرِّضا إلى السُّخْط والعذر الجميل إلى الجِدِّ^(٣)

الخِنَاق: الحبل يُخَنَّق به كالعقال للجمل يُعْقَل به. نفس: روح وحلي عن المخنوق. والبَث: الحزن. انْقُث: تكلم، وأصله ابْصُق، عَرَّافاً: كثير المعرفة، والعَرَّاف: العالم بالشيء، وأصله الكاهن.

فقال له: اعْلَمْ أَنَّ رَبَّ هَذَا الْقَصْرِ هُوَ قُطْبُ هَذِهِ الْبُقْعَةِ، وشاهُ هذه الرِّقْعَةِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَخُلْ مِنْ كَمَدٍ، لَخُلُوه مِنْ وَلَدٍ؛ وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَكْرِهُ الْمَغَارِسُ، وَيَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَفَارِشِ الثَّقَائِسِ؛ إِلَى أَنَّ بُشَرَ بِحَمْلٍ عَقِيلَةٍ، وَأَذْنَتْ وَقَلَّتْهُ بِفَسِيلَةٍ، فُنْذِرَتْ لَهُ النُّذُورُ، وَأُخْصِيَتِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ. وَلَمَّا حَانَ النَّتَاجُ، وَصِيعَ الطُّوقُ وَالتَّاجُ، عَسَرَ مَخَاضُ الْوَضْعِ، حَتَّى خِيفَ عَلَى الْأَضْلِ وَالْفَرْعِ؛ فَمَا فِينَا مَنْ يَعْرِفُ قَرَاراً، وَلَا يَطْعَمُ الثَّوْمَ إِلَّا غَرَاراً. ثُمَّ أَجْهَشَ بِالْبَكَاءِ وَأَعْوَلَ، وَرَدَّدَ الاسْتَرْجَاعَ وَطَوَّلَ. فقال له أبو زيد: اسْكُنْ يَا هَذَا وَاسْتَبْشِرْ، وَأَبْشِرْ بِالْفَرْجِ وَبَشْرٍ؛ فَعِنْدِي عَزِيمَةُ الطَّلُقِ، الَّتِي

(١) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٨١، والدارمي في السير باب ١٥، وأحمد في المسند ٣٠٨/١، ٣٦٨، ٢٨٦/٥، ٣١٠.

(٢) صدره:

فإن أكَ مظلوماً فهذه ظلمته

والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٤.

(٣) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢١٥.

انْتَشَرَ سَمْعُهَا فِي الْخَلْقِ . فَتَبَادَرَتِ الْغِلْمَةُ إِلَى مَوْلَاهُمْ ، مُتَبَاشِرِينَ بِانْكِشَافِ بُلُوَاهُمْ ،
فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلًّا وَلَا ، حَتَّى بَرَزَ مَنْ هَلَمَّ بِنَا إِلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ ، وَمَثَلْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ،
قَالَ أَبُو زَيْدٍ : لِيَهْنِكَ مَنَّاكَ ، إِنْ صَدَقَ مَقَالُكَ ، وَلَمْ يُفِلْ فَالُكَ .

قُطِبَ هَذِهِ الْبَقْعَةُ ، أَي رُئِيسُ هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَقُطِبَ الْقَوْمُ : سَيَدُهُمُ الَّذِي يُلْجَأُونَ
إِلَيْهِ .

وَشَاءَ هَذِهِ الرِّقْعَةُ : مَلِكُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَأَرَادَ بِالرِّقْعَةِ سُفْرَةَ الشُّطْرَنْجِ ، وَشَاهِهَا :
مَلِكُ جَيْشِهَا الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي بَيوتِهَا كَيْفَ شَاءَ ، وَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ فِيهَا : [البسيط]

أَرْضٌ مَرْبُوعَةٌ حَمْرَاءُ مِنْ أَدَمَ	مَا بَيْنَ خِلَتَيْنِ مَوْصُوفَتَيْنِ بِالكَرَمِ
تَذَاكُرًا الْحَرْبِ فَاحْتِلَالًا لَهَا شَبَهًا	مَنْ غَيْرَ أَنْ يَسْعِيَ فِيهَا لِسْفَكِ دَمٍ
هَذَا يُغَيِّرُ عَلَى هَذَا وَذَاكَ عَلَى	هَذَا يُغَيِّرُ وَعَيْنِ الْحَرْبِ لَمْ تَنْمِ
فَانْظُرْ إِلَى فِطْنٍ جَاشَتْ بِمَعْرِفَةٍ	فِي عَسْكَرَيْنِ بِلَا طَبِيلٍ وَلَا عِلْمِ

قَوْلُهُ : كَمَدَ ، أَي حَزَنَ . الْمَغَارِسُ وَالْمَفَارِشُ : النِّسَاءُ ، كَأَنَّ الثُّطْفَ تَغْرَسُ فِيهِنَّ
فَيَكْثُرُ الْوَلَدُ مِنْهَا الثَّفَافِسُ : الْكَرَائِمُ . عَقِيلَةٌ : حَيْرَةٌ ، وَالْعَقِيلَةُ دَرَّةُ الْبَحْرِ ، وَبِهِ سُمِّيَتِ الْمَرْأَةُ
لِكَرَمِهَا وَشَرَفِهَا ، وَكُلُّ كَرِيمَةٍ مِنَ النِّسَاءِ وَالْإِبِلِ وَالْخَيْلِ فَهِيَ عَقِيلَةٌ . الرَّقْلَةُ : النَّخْلَةُ
الطَّوِيلَةُ . الْفَسِيلَةُ : نُخَيْلَةٌ تَكْبُرُ فِي أَصْلِ النَّخْلِ ، أَرَادَ أَنَّ الْمَرْأَةَ حَمَلَتْ بَوْلَدٍ . نَذَرْتُ
النَّذُورَ ، أَي وَعَدْتُ بِفِعْلٍ خَيْرٍ إِنْ سَلِمَ الْحَمْلُ . أَحْصَيْتُ : عَدَدْتُ ، وَعِلْمُ مَا بَقِيَ مِنْهَا .
حَانَ الثَّنَاجُ : قَرُبَ وَقْتُ الْوِلَادَةِ صَبَغَ : صُنِعَ . الطُّوقُ : الثَّوْبُ يَلْبَسُهُ الْمَوْلُودُ بِغَيْرِ جَيْبٍ ،
وَلَمَّا سَبَقَ إِلَى جَذِيمَةِ ابْنِ أُخْتِهِ عَمَرُو ، وَكَانَ لَهُ طَوْوُقٌ يَلْبَسُهُ فِي الصُّغَرِ ، فَقَالَ لَهُ : الْبَسْهُ
فَلَمْ يَسْعَهُ ، فَقَالَ : شَبَّ عَمَرُو عَنِ الطُّوقِ ، فَذَهَبَتْ مَثَلًا ، قَالَ ابْنُ الْقَبْطُرْنَةِ فِي الْحَكَمِ بْنِ
حَزَمٍ ، وَكَلَّفَهُ ذَلِكَ ابْنُ سَرَاخٍ : [الطويل]

رَأَى صَاحِبِي عَمْرًا فَكَلَّفَ وَضَفَّهُ	وَحَمَلَنِي مِنْ ذَاكَ مَا لَيْسَ فِي الطُّوقِ
فَقُلْتُ لَهُ : عَمَرُو كَعَمَرُو فَقَالَ لِي	صَدَقْتَ وَلَكِنْ شَبَّ هَذَا عَنِ الطُّوقِ

عَسُرَ : صَعِبَ . مَخَاضُ : تَحَرُّكُ الْوَلَدِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ ، وَقِيلَ : وَجَعَ الْوِلَادَةُ الْقَرَارُ :
السُّكُونُ . الْغِزَارُ : النَّوْمُ الْقَلِيلُ ؛ وَهُوَ مِنْ غَرَّ الطَّائِرِ فَرَحَهُ يَغْرُهُ ، إِذَا أَطْعَمَهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ،
وَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ : [الرملي]

لَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا مِثْلَ حَسَنِ الطَّيْرِ مَاءِ الثَّمَادِ

وَلَا يَطْعَمُ النَّوْمَ ، أَي لَا يَذُوقُهُ ، وَيُقَالُ : طَعِمَهُ وَطَعِمَهُ : ذَاقَهُ ، وَفِي الْمَثَلِ : تَطْعَمُ
تُطْعَمُ ، أَي ذُقْ تَشْتَبِهُ . أَجْهَشَ : أَي تَهَيَّأَ لِلْبُكَاءِ ، وَالْإِجْهَاشُ : تَغْيِيرُ الْوَجْهِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْبُكَاءِ .

أَعُول: رفع صوته بالبكاء. الاسترجاع، قد تقدّم الطَّلَق: وجع الولادة، سُمِّيَ طَلَقًا على التفاؤل للمرأة بالانطلاق بالولَد. سمعُها: ذكرها الجميل. تبادرت: تَسَابَقَتْ.

وجُمع غلام غِلْمَةٌ وغلّمان. البَلَوَى: البلاء. كَلَا وَلَا، أي كاللفظ بها، وهي كناية عن قلة اللَّبَث وسرعة الأمر، ويضرب بلا المثل، فيقال: أخف من لا على اللسان، وأقل من لا في اللفظ، وقال جرير: [الطويل]

يكون نزول القوم فيها كَلَا وَلَا غِشاشاً ولا يُدْنُون رِجلاً إلى رجلٍ^(١)

غِشاشاً، أي قليلاً. ويقال: لقيه على غِشاش، أي على عجلة، وقال الكُمَيْت: [الطويل]

كَلَا وكذا تغميضُهم ثم هجئُهم لَدَى حِينٍ أن كانوا إلى الثَّوم أَفْقَرًا^(٢)

يقول: كان نومُهم في القلة والسرعة، كقول القائل: لا وذا.

وقال الحسن رحمه الله: [الخفيف]

يا عاقد القلب مِنِّي هَلَا تَذْكُرْتَ خِلاً

تَرَكْتَ مِنِّي قَلِيلاً مِنْ الْقَلِيلِ أَقْلاً

يَكَاذُ لَا يَتَجَزَّى أَقْلٌ فِي الْلفْظِ مِنْ لَا

وفي أبيات البديع: [الطويل]

وأزوع أهداه لِي اللَّيْلُ وَالْفَلَا وخمس تَمَسُّ الأرض لَكِنْ كَلَا وَلَا

جعل قوائم فرسه وهي الخمس تَمَسُّ الأرض في المشي كلا ولا على اللسان قوله:

بَرَزَ، أي خرج. هَلَمَّ: دعا، وقال لنا هَلَمْ مَثَلْنَا: وَقَفْنَا، ومثل بين يديه: انتصب قائماً.

مَنَالِك: عطاؤك ولم يقل فالك: لم يخطئ رأيك، وقال رأيهُ فيولة: ضَعَفَ وأخطأ

فاسْتَحْضَرَ قَلَمًا مَبْرِيًّا، وَزَبَدًا بَخْرِيًّا، وَزَعْفَرَانًا قَدْ دَيْفَ، في ماء وردٍ نَظِيفٍ؛

فَمَا إِنْ رَجَعَ النَّفْسَ، حَتَّى أَحْضَرَ مَا التَّمَسَّ، فسَجَدَ أَبُو زَيْدٍ وَعَفَّرَ، وَسَبَّحَ

وَاسْتَغْفَرَ، وَأَبْعَدَ الْحَاضِرِينَ وَنَفَّرَ ثُمَّ أَخَذَ الْقَلَمَ وَاسْتَحَنَّفَرَ، وَكُتِبَ عَلَى الزَّبَدِ

بِالْمُزَعَفَرِ: [الخفيف]

أَيُّهَا الْجَنِينِ إِنِّي نَصِيحٌ لَكَ، وَالتُّضْحُ مِنْ شُرُوطِ الدِّينِ

أَنْتَ مُسْتَعَصِمٌ بِكُنْ كَنِينٍ وَقَرَارٍ مِنَ السُّكُونِ مَكِينٍ

(١) البيت في ديوان جرير ص ٤٦١، وهو بلا نسبة في أساس البلاغة (غشش)، ويروى «رجلاً إلى رجل» بدل «رجلاً إلى رجل».

(٢) البيت في ديوان الكُمَيْت ٢٩٩/١، ولسان العرب (لا)، وتاج العروس (لا).

ما ترى فيه ما يروعك من إلـ فـ مداحٍ ولا عدوٍّ مُبين
فمتى ما برزت منه تحوّلـ تـ إلى منزلٍ الأذى والهون
وترأى لك الشقاء الذي تـ قى فتبكي له بدمع هتون
فاستدِم عيشك الرغيد وحاذِر أن تبيع المحقوق بالمظنون
واحترس من مُخادع لك يزقيـ كـ ليُلقيك في العذاب المُهين
ولعمري لقد نصحت ولكن كم نصيحٍ مُشبّه بظنين

* * *

والزَّيْد: حجر معروف، وهو شديد البياض دقيق الثقب جداً، يوجد عائماً على وجه الماء يصرف في الأكحال. وقالت الحكماء: من خصائص الزيد البحري أنه إذا غُلِق على امرأة ماخض سهل عليها الولادة، ويكون في بحر اليمن. ديف: خُلِط. التمس: طلب غفر: جعل وجهه على الأرض، والعفر التراب. اسحنفر: جدّ وشمر للكتابة، ويقال: اسحنفر في الأمر، إذا تحفز فيه. وقالت جارية من العرب. [السريع]

يا أمتا أبصرني راكبـ مُسحنفر في مسربٍ لاجِب^(١)
ما زلتُ أحثو الثرب في وجهه عمداً وأحمي حوزة الغائب
فأجابتها أمها: [السريع]

الحُضْن أُولى لو تأبَّيته من خثيك الثرب على الراكب^(٢)

مسرب طريق لاجِب بَيِّن. الغائب: زُوجها. الحصن: العفة. تأبَّيته: تعمّده. وقصّده. المزعفر: المداد من الزعفران. الجنين: الولد في بطن أمه. النصح: ضدّ الغش؛ قال الخطابي: النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح، وقيل: أصلها من نصّح الرجل ثوبه، أي خاطه، والنصّاح: الخيط، شبهوا فعل النَّاصح بالخيط الذي يلائم الخلل والفتوق، والتوبة النصوح^(٣)، كأنها ترقّع ما خرّفته المعصية. مستعصم:

(١) البيت الأول لصبية من بنات العرب في المقاصد النحوية ٢٢٦/٤، ولسان العرب (أيا)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٩٧، والمحتسب ٢٣٩/٢، والبيت الثاني لامرأة من العرب في مجمل اللغة ١٢٠/٢، ١٥٢، وتهذيب اللغة ١٨٠/٥، ولسان العرب (حوز)، (أيا)، ومقاييس اللغة ١١٨/٢، وتاج العروس (أيا).

(٢) البيت لامرأة قالته لابنتها في ديوان الأدب ١/١٦٠، ٨٢/٤، ومجمل اللغة ١٢٠/٢، ١٣٨، ولسان العرب (أيا)، وبلا نسبة في لسان العرب (حصن)، (حشا)، والمستقصى ٣١٢/١، ومجمع الأمثال ٢١١/١، ومقاييس اللغة ١٣٧/٢، والمخصص ٤/٤، ٦٤/١٠، ٢٣/١٤، وتهذيب اللغة ٥/٢٠٩، وتاج العروس (حصن)، (حشا)، (أيا).

(٣) أي قوله تعالى: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ [يوسف: ٣٢].

مستمسك ممتنع ، واستعصم في ذكر يوسف : امتنع وتأبى . كِنَ : موضع يَكْنُ فيه . كَنِين : ساتر ، والكنين : المستور . والقرار : المكان المطمئن الذي يَسْتَقِرُّ فيه الماء ، وأراد به الرَّجَم . يُروَعك : يفزعك . إلف : صاحب . مداح : يَظهر الحُبَّ ، ويضمّر خلافه ، وداجاه : سآثره بالعداوة . بَرَزَتْ : خرجت . الأذى : الضرر . الهُون : الهوان . تَراءى : تظاهر . هَتُون : كثير السَّيلان . وهتنت السَّماء : صَبَتْ . الرَّغِيد : الواسع . المحقوق : الَّذي لا يُشَكُّ فيه . المَظْثُون : المشكوك فيه ؛ فهو يُشِير على الصَّبي أن يُقِيمَ في بَطْن أمه ولا يخرج للدُّنيا . طَنِين : متهم .

* * *

ثُمَّ إِنَّهُ طَمَسَ الْمَكْتُوبَ عَلَى عَقْلَةٍ ، وَتَقَلَّ عَلَيْهِ مِائَةُ تَفْلَةٍ ، وَشَدَّ الزَّبَدَ فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ ، بَعْدَمَا ضَمَّخَهَا بِعَبِيرٍ ، وَأَمَرَ بِتَغْلِيْقِهَا عَلَى فَخِذِ الْمَاخِضِ ، وَأَلَّا تَعْلَقَ بِهَا يَدُ حَائِضٍ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَذَوَاقٍ شَارِبٍ أَوْ فَوَاقٍ حَالِبٍ ، حَتَّى انْدَلَقَ شَخْصُ الْوَلَدِ ، لِحَصِيصِي الزَّبَدِ ، بِقُدْرَةِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَامْتَلَأَ الْقَصْرُ حُبُورًا ، وَاسْتَطِيرَ عَمِيدُهُ وَعَبِيدُهُ سُرُورًا ، وَأَحَاطَتِ الْجَمَاعَةُ بِأَبِي زَيْدٍ تُثْنِي عَلَيْهِ ، وَتَقْبَلُ يَدَيْهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بِمَسَاسِ طِمْرِيهِ ؛ حَتَّى خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ الْقَرِيبِيُّ أُونِسَ ، أَوْ الْأَسَدِيُّ دُبَيْسَ .

* * *

طَمَسَ : غَطَّى ، وطمست الدار إذا غَطَّى التراب آثارها ومَحَاها . وَالتَّقَلَّ : نفخ يخرجُ معه بُصَاقٌ متفَرِّقٌ ، وأوله الْبَزَقُ ثم التَّفَلُّ ، ثم التَّفَثُّ ، ثم النفخ .

ضَمَّخَهَا : لَطَّخَهَا بِعَبِيرٍ : أَخْلَاطَ مِنَ الطَّيِّبِ الْمَاخِضِ : الْحَامِلِ . وَلَا تَعْلَقُ بِهَا يَدُ حَائِضٍ ، تَمُويهِ بِأَن مَكْتُوبِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَائِضُ لَا تَمْسُهُ . الذَّوَاقُ : مَسَّ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ بِلِسَانِكَ . الْفَوَاقُ : مَا بَيْنَ الْخَلْبَتَيْنِ مِنَ الْوَقْتِ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ تُخَلِّبُ ثُمَّ تَتَرَكُ سَاعَةً يَرْضَعُهَا فَصِيلُهَا لَتَدْرُ ثُمَّ تَحْلَبُ . انْدَلَقَ : خَرَجَ بِسُرْعَةٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْرُ خَارِجًا بِسُرْعَةٍ فَقَدْ انْدَلَقَ ، وَانْدَلَقَ السَّيْفُ مِنْ غِمْدِهِ إِذَا سَقَطَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْلَ . حَصِيصِي الزَّبَدِ ، أَيِ خَاصِيَّتِهِ الَّتِي يَنْفَرِدُ بِهَا عَنِ الْأَحْجَارِ ، وَاخْتَصَصْتُ بِالشَّيْءِ : انْفَرَدْتُ بِهِ ، وَجَاءَنِي حَصِيصِي الْقَوْمِ ، مَقْصُورًا ، أَيِ خَاصَتِهِمْ ، وَخَصَصْتُهُ بِالشَّيْءِ خُصُوصًا وَخُصُوصِيَّةً وَحَصِيصِي .

ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا وُلِدَ فِي أَهْلِ بَيْتِ غَلَامٍ إِلَّا أَصْبَحَ فِيهِمْ عِزٌّ لَمْ يَكُنْ » .

وقال ﷺ : « مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَذَّنَ فِي أُذُنِهِ الْيَمْنَى وَأَقَامَ فِي الْيَسْرَى ، دَفَعَتْ عَنْهُ أُمُّ الصَّبِيَّانِ » .

حُبُوراً؛ سروراً، واسْتُطِيرَ: داخله السرور. عَمِيدُهُ: سيده طَمَرِيه: ثوبيه.

وذكر ابن قُتَيْبَةَ بسند متصل بابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: مرَّ عيسى ابن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا كلمة الله، ادعُ الله أن يخلِّصني، فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مُخرج النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس خلِّصها، فألقت ما في بطنها، فإذا عسرت على المرأة ولادتها فيكتب على مكيال، ثم تعطاها المرأة.

وذكر الفُتُجْدِيهِيَّ بسند متصل بأبي هريرة رضي الله عنه، قال: بينا عيسى ويحيى عليهما السلام في البرية إذ رأيا وحشيّةً ماخضاً، فقال عيسى ليحيى: قل تلك الكلمات: جئته ولدت مريم، مريم ولدت عيسى، الأرض تدعوك يا ولد، اخرج يا ولد، اخرج.

قال حماد بن زيد: فما يكون في الحيّ امرأة ماخض، فيقال هذا عندها إلا ولدت، حتى الشاة التي يتعسر وضعها، فيقال هذا عندها، فلا تبرح حتى تضع.

يونس بن عبيد الله: اللهم أنت عُدَّتِي عند شِدَّتِي، وأنت صاحبي عند كُرْبَتِي، وأنت وليّ نعمتي، مَنْ قالها عند النَّفْسَاء إذا عسر عليها ولدها، أو على بهيمة، أذن الله تعالى في خروجه.

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا عسر على المرأة ولادتها، فليكتب لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم، سُبْحَانَ الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال سفيان: يكتب هذا في جام وتُسْقَاه.

وذكر عن أبي الزناد قال: كنت مِثْنَاناً، فقيل لي استغفر الله إذا جامعته، ففعلت فوضع لي بضعة عشر ذكراً. قوله خَيْلٌ: أي شبه.

[أويس القرني]

وأويس القُرْنِيّ بَشَّرَ به النبي ﷺ، وهو من التابعين.

وفي صحيح مسلم: إنّ أهل الكوفة وقَدُوا على عمر رضي الله عنه، وفيهم رجل مِمَّنْ كان يسخر بأويس، فقال عمر رضي الله عنه: هل ها هنا أحد من قَرَن؟ فجاء ذلك الرجل، فقال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس، لا يدع باليمن غير أمّ له، وقد كان فيه بياض، فدعا الله، فأذهب الله عنه إلا

موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيته منكم فليستغفر لكم»^(١).

وفيه عن أسيد بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتاه أمداد أهل اليمن سأل: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مُرَادٍ، ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك بَرَصٌ فبرئت منه إلا موضع الدرهم؟ قال: نعم، قال: ألك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي إليكم أُوَيْسُ بن عامر، مع أمداد أهل اليمن، من مُرَادٍ ثم من قرن، وكان به بياض فبريء منه إلا موضع الدرهم، له والدة هو بها بارٌّ لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»^(٢)، فاستغفر لي فاستغفر له، فقال عمر رضي الله عنه أين تريد؟ فقال: الكوفة، قال ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غير الناس أحب إلي. قال: فلما كان في العام القابل حج رجل من أشرافهم، فوافي عمر رضي الله عنه، فسأله عن أُوَيْسٍ، فقال: تركته رث البيت، قليل المتاع. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ ثم من قَرْنٍ، وكان به بَرَصٌ فبريء منه إلا موضع درهم، له والدة بها بارٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل» فأتى أويساً فقال: استغفر لي، فقال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح؟ قال: نعم، قال له: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه، قال أسيد: وكسوته بُرْدَةٌ، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأويس هذه البُرْدَةُ!.

وفي كتاب الإحياء: أنه لما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: أيها الناس، مَنْ كان من أهل العراق فليقم، فقاموا، فقال: اجلسوا إلا مَنْ كان من قَرْنٍ؟ فجلسوا إلا رجلاً واحداً، فقال له عمر رضي الله عنه قَرْنِيَّ أنت؟ قال: نعم، قال: أتعرف أويساً؟ قال: نعم، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين؟ والله ما فينا أحق ولا أجن ولا أحوج منه! فبكى عمر رضي الله، ثم قال: ما قلت، إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر». ولما كان عند أهله كالمجنون بتوا له بيتاً على باب دارهم، فكان تأتي عليهم السنة لا يزون وجهه، كان يخرج أول الأذان ويأتي بعد العشاء الآخرة، وكان طعمه أن يلقط الثوى، فكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره، فإن أصاب ما بقوته باع الثوى، وتصدق به، وإلا اشترى منه ما يقوته. وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل، يلفق بعضها إلى بعض، ثم يلبسها، وإذا مرَّ بالصبيان رجموه، يظنون أنه مجنون، ولهذا أعظم النبي ﷺ حرمة، فقال: «إني لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن». إشارة إليه.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٢٤، ٢٢٥، وأحمد في المسند ٣٨/١، ٤٨٠/٣.

[الأمير دبيس بن صدقة]

وأما دُبَيْس فهو الأمير سيف الدولة بن مَزِيد الأسديّ، وقيل : دبيس بن صدقة بن مزيد، وذكر أبو الحسن عليّ بن الحسين بن أبي طالب الباخريّ الأمير أبا الأعز دبيس ابن عليّ فقال : خدمته ببغداد، وعبرث إليه أخت يده الجواد - يعني دجلة - وهي زاخرة الأمداد، فإذا باحة للطارقين مباحة، وراحة في كفّها للعفاة راحة، وقباب التفت بها غاب القنا، واشترك مع أسودها الناس في فرائس الغنى.

قال الفنجديهيّ: سمعت بعض أهل الفضل يقول ببغداد: لما سمع الأمير دبيس، أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكره في مقاماته، وأورد فيها بعض صفاته، أنفذ إليه من الخلع السنية، والجوائز الهنية ومزية العطية، ما عجز عنه الوصف، وكلّ عنه الطرف، واقتضاه علو همته، وسمو قدرته. ثم عصى دبيس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله، وسعى في إراقة دمه، وجمّع العساكر وحشد، وقصد بغداد في عسكر عظيم، وعاث في أطرافها، وأفسد في أكنافها، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة، واجتمعت إليه الأجناد، وظهر إليه وحمل عليه، فهزم دبيس وعسكره، وانتهى إلى الحلة المزيديّة، فانتهبها، وذلك في المحرم في سنة سبع عشرة وخمسائة. وانهزم دبيس في خواص من أصحابه وغلماؤه خوفاً من الخليفة، ومرّ نحو الشام ثم قتل الأمير دبيس بن صدقة بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمر أنكرها وأسباب امتعض لها، نُسبت إليه.

ثم انشأ عليه من جوائز المجازاة، ووصائل الصلات، ما قيض له الغنى، وبَيَضَ وجه المُنَى، ولم يَزَلْ يَنْتَابُهُ الدَّخْل، مَذْنُج السَّخْل؛ إلى أن أُعْطِيَ الْبَحْرُ الأمان وتَسَنَّى الإِتْمَامُ إلى عُمان؛ فاكتفى أبو زيد بالنُّحْلَة، وتأهب للرحلة؛ فلم يَسْمَحِ الوالي بحركته، بعد تجربة بركته، بل أوعزَ بضمّه إلى خزانته، وأن تُطْلَقَ يَدُهُ في خزانته.

قال الحارث بن همام: فلما رأيته قد مال، إلى حيث يُكْتَسَبُ المال، أَنَحَيْتُ عليه بالتعنيف، وهَجَنْتُ له مفارقة المألّف والأليف، فقال: إليك عني، واسمّع مِنِّي.

قوله: انشال، أي انصب. جوائز: عطايا وصائل: متصلات غير منقطعة، والوصائل: ثياب حمر مخططة تُصَنَعُ باليمن يلبسها النساء، قال الشاعر: [الطويل]

* لها حُبُّكَ كأنها من وصائل *

فَيُضْ : قُدِّرَ وساق يَتَّبَعُهُ ، أَي يَقْصِدُهُ وَيَأْتِيهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى .

الدُّخْلُ : العَطَايَا الَّتِي تَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ الْأَمِيرِ وَغَيْرِهِ ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الدُّخْلِ : إِذَا كَثُرَ دُخُولُ الرِّزْقِ عَلَيْهِ . وَالسُّخْلُ : الْوَلَدُ .

وَمَا يَسْتَحْسِنُ فِي التَّهْنِئَةِ بِمَوْلُودٍ قَوْلَ الْخُلَوَانِيِّ : [البسيط]

نَجْمٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ وَأَيْنَ مَنْ أَبَوَاهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
شَمْسُ الْعَفَافِ وَمَجْدُ الْبَذْرِ بَيْنَهُمَا تَوَلَّدَ النُّورُ إِلَّا أَنَّهُ بَشَرُ
أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ : [السريع]

شَمْسٌ وَبَذْرٌ وَلَدَا كَوَكَبًا أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَنْجَاهَا

وَجَاءَ الرَّمَادِيُّ يُهْنِئُ الْفَقِيهَ ابْنَ الْعِطَارِ بِمَوْلُودٍ ، فَقَالَ : [البسيط]

يَهْنِئُكَ مَا زَادَتْ الْأَيَّامُ فِي عَدَدِكَ مِنْ فَلَذَةٍ بَرَزَتْ بِالسَّعْدِ مِنْ كَبِدِكَ
كَأَنَّمَا الدَّهْرُ دَهْرٌ كَانَ مَكْتُتِبًا مِنْ أَنْفِرَادِكَ حَتَّى زَادَ فِي عَدَدِكَ
لَا خَلْفَتَكَ الْإِلْيَالِي تَحْتَ ظِلِّ رَدَى حَتَّى تَرَى وَلَدًا قَدْ شَبَّ مِنْ وَلَدِكَ

قَوْلُهُ : «تَسْتَى الْإِتِمَامُ» ، أَي تَيْسَّرُ إِتِمَامُ الْمَشْيِ وَالْإِقْلَاعُ . اِكْتَفَى : اقْتَنَعَ . النُّحْلَةُ الْعَطِيَّةُ . أَوْعَزَ وَوَعَزَ ، تَقَدَّمَ ، يَعْقُوبُ : لَا يَقَالُ . وَعَزَ بِالتَّخْفِيفِ . حُزَانَتِهِ : جَمَاعَتُهُ ، وَعِيَالُهُ الَّذِينَ يَتَحَزَّنُونَ لِنُكْبَتِهِ وَلِفَقْدِهِ ، وَيَحْزَنُ هُوَ لِضَيْعَتِهِمْ . أَنْحَيْتَ : مَلْتَ عَلَيْهِ وَقَصَدْتَهُ بِهِ . التَّعْنِيفُ : اللُّومُ وَالْأَخْذُ بِاللِّسَانِ . الْمَأْلَفُ : الْبَلَدَةُ وَمَوْضِعُ الْأَلْفَةِ . الْأَلِيفُ : الصَّاحِبُ . إِلَيْكَ عَنِي : تَبَاعَدَ عَنِي : [الكامل]

لَا تَصْبُوءَنَّ إِلَى وَطَنٍ فِيهِ تُضَامُ وَتُتْمَتُهُنَّ
وَارْحَلْ عَنِ الدَّارِ الَّتِي تُغْلِي الْوَهَادَ عَلَى الْقُنَنِ
وَاهْرَبْ إِلَى كَنْ يَقِي وَلَوْ أَنَّهُ حِضْنًا حَضَنَ
وَارِبًا بِنَفْسِكَ أَنْ تَقِي مَ بِحَيْثُ يَغْشَاكَ الدَّرَنُ
وَجِبِ الْبِلَادِ فَأَيُّهَا أَرْضَاكَ فَاخْتَرَهُ وَطَنُ
وَدَعْ التَّذْكَرَ لِلْمَعَا هِدِّ وَالْحَنِينَ إِلَى السَّكَنِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْحُرَّ فِي أَوْطَانِهِ يَلْقَى الْعَبْنَ
كَالدَّرِّ فِي الْأَصْدَافِ يُسْ تَزْرَى وَيُبْحَسُ فِي الثَّمَنِ

تَصْبُوءٌ : تَمَلُّنٌ ، وَصَبَوْتُ إِلَيْهِ مَلْتُ بِالْمَحَبَّةِ . تَضَامٌ : تَذَلُّ . تَمْتَهَنُ : تَحْتَقِرُ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَرَ فِي هَذَا الْمَعْنَى : [الوافر]

إِنَّمَا أَزْرَى بِقَدْرِي أَنَّنِي لَسْتُ مِنْ بَابَةِ أَهْلِ الْبَلَدِ
 لَيْسَ مِنْهُمْ غَيْرَ ذِي مَقْلِيَّةٍ لَذَوِي الْأَلْبَابِ أَوْ ذِي حَسَدِ
 يَتَحَامُونَ لِقَائِي مِثْلَ مَا يَتَحَامُونَ لِقَاءَ الْأَسَدِ
 مَطْلَعِي أَثْقَلَ فِي أَعْيُنِهِمْ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أُخْدِ
 لَوْ رَأَوْنِي وَسَطَ بَحْرِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْخُذُ مِنْهُمْ بِيَدِي
 وقال البحرّي: [الوافر]

أَشْرَقَ أَمْ أَغْرَبَ يَا سَعِيدُ وَأَنْقَصَ مِنْ زَمَاعِي أَمْ أَزِيدُ^(١)
 عَدْتُني عَنْ نَصِيبِ الْعَوَادِي فَبَخْتِي أَبْلَةُ فِيهَا بَلِيدُ
 وَأَخْلَفَنِي الزَّمَانُ عَلَى رَجَالٍ وَجَوْهَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ حَدِيدُ
 لَهُمْ حُلٌّ حَسَنٌ فَهَنْ بِيضٌ وَأَخْلَاقٌ سَمُجْنٌ فَهَنْ سَوْدُ

وممن نبا به بلده القاضي أبو محمد عبد الوهاب، خرج من بغداد يريد مصر، فشيعه أكابرها، ومن أصحاب محابرها جملة موفورة، فقال لهم: والله لو وجدت بين أظهركم رغيفين كل يوم، ما عدلت ببلدكم بلوغ أمانة، والخبز عندهم يومئذ ثلاثمائة رطل بدينار، وقال: [الطويل]

سَلَامٌ عَلَى بَغْدَادَ مِنِّي تَحِيَّةٌ وَحَقٌّ لَهَا مِنِّي السَّلَامُ الْمَضَاعَفُ
 لَعَمْرُكَ مَا فَارَقْتُهَا قَالِباً لَهَا وَإِنِّي بِشَطْطِي جَانِبِيهَا لِعَارِفُ
 وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرُخْبِهَا وَلَمْ تَكُنْ الْأَقْدَارُ مِمَّنْ يُسَاعِفُ
 فَكَانَتْ كَخَلٍّ كُنْتُ أَهْوَى دَنُوهُ وَتَأَبَّى بِهِ أَخْلَاقُهُ فَيَخَالَفُ
 وقال أيضاً: [البسيط]

بَغْدَادُ دَارُ لِأَهْلِ الْمَالِ وَاسِعَةٌ وَلِلْمِفَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضَيِّقِ
 قَدْ صَرْتُ أَمْشِي مَهَاناً فِي أَزْقَتِهَا كَأَنَّنِي مَصْحَفٌ فِي كَفِّ زَنْدِيقِ

قوله: الْوَهَادُ وَالْقُنُنُ: الانخفاض والارتفاع، والقُنَّة: أعلى الجبل، وَالْوَهْدَةُ القعدة من الأرض تجري إليها مياه جهاتها. حَضْنًا: جانباً حصيناً مانعاً. أربأ، أي ارتفع. يَغْشَاكَ: يُعْطِيكَ. الدَّرَنُ: الوسخ المعاهد: منازل سكنا. الحنين: الشوق. السَّكَنُ: الأهل. الأصداف: محالّ الجواهر. يستزرى: يبغض. ينقص: ومعنى هذه الأبيات يقول: أرحل عن بلد يعلو فيه قدر أصاغر الناس قدر أكابرهم، ولا تُقِيمُ فيه على الهوان، وارفح قدر نفسك من أن تقيم بموضع توسخك فيه الإهانة، فإن المرء حيث يضع

نفسه، وطُفّ بالبلاد، واختر وطناً ما أرضاك، فإنّ الحرّ يضيع في وطنه، ولا يعرف قدره.

الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ العرب يقول: الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن.

ونظر أبو الحسن إلى بردونٍ يُستَقّي عليه، فقال: المرء حيث يضع نفسه، لو هَمَلَج هذا لم يُنَلّ بما تروُن.

الزبير رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن العباد عباد الله، والبلاد بلاد الله، فحيثما وجدتُ خيراً فأقم، وأحمد الله»^(١).

وقال هلال بن العلاء الرّقّيّ: [مجزوء الكامل]

لا تجزَعَنَّ وإن نأثْ أرضُ تُنالُ بها المحبّة
وطنُ الغريب يسارُه والفقرُ في الأوطان غزبُه
وقال آخر: [مخلع البسيط]

أشدّ من فاقة الزّمانِ مقامُ حرٍّ على الهوانِ
فاسترزق الله واستغنيَه فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحرٌ فمن مكانٍ إلى مكانٍ
وقال آخر: [البسيط]

شرقٌ وغربٌ تجد من غادرٍ بدلاً فالأرض من تربةٍ والنّاس من رجلٍ
وقال آخر: [البسيط]

مَنْ ضاقَ عنك فأرض الله واسعةٌ عن وجه كلّ مضيق وجه منفرجٍ
خيرُ المذاهب في الحاجات أنجحُها وأضيق الأمر أدناه من الفرجِ

ثمّ قال: حَسْبُكَ ما استمعت، وجبّداً أنْتَ لو اتبعت. فأوضحتُ له معاذيري، وقلتُ له: كُنْ عَذِيرِي. فعذّر واعتذر، وزوّد حتّى لم يَدَرْ، ثمّ شيعني تشييع الأقارب، إلى أن ركبْتُ في القارب فودّعته وأنا أشكرُ الفراقَ وأدُمُّه، وأودُّ لو كان هلكَ الجنين وأُمّه.

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٦٦، بلفظ: «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله».

حسبك: يكفيك. أوضحت: بيّنت. معاذيري: أعذاري، والعذيرة: العذر، ويقال: عذيرك من كذا، بمعنى هلمّ معذرتك منه، وقيل: العذير بمعنى عاذر، فَعِيل بمعنى فاعل، أي هلمّ لمن يعذرك منه.

ثعلب: العذير، مصدر بمعنى التّكير، ومعنى عذيري منه، أي مَنْ يعذّرني منه! وعذّر: قَبِل العذر. والله أعلم.

المقامة الأربعون

وهي التبريزية

أخبر الحارث بن همام، قال: أزمعتُ التبريز من تبريز، حين نبت بالدليل والعزير، وحلّت من المجير والمجيز؛ فبينما أنا في إغداد الأهبة، وازتياد الصُحبة، ألفتُ بها أبا زيد السروجي مُلتفًا بكساء، ومحتفًا بنساء، فسألته عن خطبه، وإلى أين يسرُّ مَعَ سِرِّه؛ فأومأ إلى امرأةٍ مِنْهُنَّ باهرة السفور؛ ظاهرة الثفور، وقال: تزوجتُ هذه لِتؤنسني في العُربة، وتَرْحَضَ عَنِّي قَشَفَ العُربة، فَلَقِيتُ مِنْهَا عَرَقَ القِرْبَةِ، تَمَطَّلَنِي بِحَقِّي، وَتَكَلَّفَنِي قَوْقَ طَوْقِي، فَأَنَا مِنْهَا نَضُو وَجَى، وَجَلَفُ شَجْوِ وَشَجَى. وَهَا نَحْنُ قَدْ تَسَاعَيْنَا إِلَى الْحَاكِمِ، لِيَضْرِبَ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ؛ فَإِنْ انتَظَمَ بَيْنَنَا الْوِفَاقُ، وَإِلَّا فَالْطَّلَاقُ وَالْإِنْطِلَاقُ.

قال: فملت إلى أن أَخْبَرَ لِمَنْ الْعَلَبَ، وَكَيْفَ يَكُونُ الْمُتَقَلَّبُ! فَجَعَلْتُ شُغْلِي دَبْرُ أَدْنِي، وَصَحْبَتُهُمَا وَإِنْ كُنْتُ لَا أَغْنِي.

أزمعتُ: عزمْتُ، وَالزَّمَاعُ الْعَزْمُ، وَالتَّبْرِيزُ: الْخُرُوجُ إِلَى الْبِرَارِي، وَهِيَ الْأَرْضُ الْفُضَاءُ بِلَا شَجَرٍ. تَبْرِيزُ: قَرْيَةٌ مِنْ كُورِ أَذْرَبِيجَانَ مِنْ عَمَلِ خُرَاسَانَ، بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْمَرَاغَةِ عَشْرُونَ فَرَسَخًا.

نَبَتْ: قَلَعَتْ وَازْتَفَعَتْ الْمَجِيرُ: الَّذِي يُجِيرُكَ مِنَ النَّاسِ وَيَكْفِيكَ شَرَّهُمْ، وَالْمَجِيرُ: الْوَاهِبُ الْجَائِزَةُ وَهِيَ الصَّلَاةُ ارْتِيَادُ: طَلَبُ مُحَلَقًا. مُحَلَقًا. خُطْبُهُ: أَمْرُهُ يَسْرُبُ: يَذْهَبُ، وَسِرِّهِ: جَمَاعَةُ نِسَائِهِ. أَوْمَأَ: أَشَارَ. بَاهِرَةٌ: ظَاهِرَةٌ. وَالسُّفُورُ: كَشَفُ الثَّقَابِ عَنِ الْوَجْهِ. تَرْحَضُ: تَغْسِلُ، وَرَحَضَ الثَّوبَ يَرْحَضُهُ غَسَلَهُ قَشَفَ: تَغَيَّرَ، وَرَجُلٌ مَتَقَشَفٌ: لَا يَتَعَهَّدُ الْغَسْلَ وَالنِّظَافَةَ. وَالْقَشَفُ: سُوءُ الْعِيشِ. وَمَطَلَهُ حَقَّهُ، كُنَايَةٌ عَنْ جَمَاعَةِ لَهَا، وَالْمَطْلُ فِي الْأَصْلِ: وَالْمَذَى، يَقَالُ: مَطْلُ الْقَيْنِ الْحَدِيدِ يَمُطِّلُهُ مَطْلًا إِذَا، مَذَى وَطَوَّلَهُ، فَمَعْنَى يَمُطِّلُنِي: تَطَوَّلَ عَلَيَّ. وَالطَّوْقُ: الطَّاقَةُ. نَضُو وَجَى: هَزِيلٌ مِنَ الْجَفَاءِ، وَأَرَادَ بِهِ شَرَّهَا وَمَا يَلْقَاهَا مِنْهَا. جَلَفُ شَجْوٍ: صَاحِبُ حُزْنٍ. وَالشَّجَا: الْإِخْتِنَاقُ بِالْعَظْمِ وَهُوَ شَيْءٌ صَعْبٌ: لِيَضْرِبَ عَلَى يَدِهِ: لِيَكْفَهُ وَيَمْنَعَهُ

فلما حضرا القاضي؛ وكان ممن يرى فضل الإمساك، ويضن بنفائة السواك،
جثا أبو زيد بين يديه، وقال: أيد الله القاضي وأحسن إليه، إن مطيتي هذه أبيت
القياد، كثيرة الشراد؛ مع أنني أطوع لها من بنانها، وأحنى عليها من جنانها. فقال
لها القاضي: ونحك! أما علمت أن الشوز يغضب الرب، ويوجب الضرب! فقالت:
إنه ممن يدور خلف الدار، ويأخذ الجار بالجار، فقال له القاضي: تبأ
لك! أتبذُر في السباح، وتستفرخ حيث لا إفراخ! اعزب عني، لا نعم عوفك، ولا
أمن خوفك، فقال أبو زيد: إنها ومُرسل الرياح، لا كذب من سجاح!
ف قالت: بل هو ومن طوق الحمامة، وجئح النعام، لا كذب من أبي ثمامة، حين
مخرق باليمامة!

* * *

لا أغني، أي لا أنفع، الإمساك: الشح، يضن: يبخل، والنفائة: ما تطرحه من
فيك من السواك بعد الانتفاع به، وهذا وإن كان في غاية البخل مُتَزَع من قول الشاعر:
[الطويل]

لقد بخلت حتى لو أنني سألتها قذى العين من ضاحي التراب لَضَنَّتْ
وقال آخر في معناه: [السريع]

يبخل بالماء ولو أنه منغمس في وسط النيل
شجاً فلا تطمع في خيره ولو توسَّلت بجبريل
وقال آخر: [البسيط]

ما كنت أحسب أن الخبز فأكهة حتى نزلت على أوفى بن منصور
يا حابس الروث في أعقاب بغلته خوفاً على الحب من لقط العصافير
وهذا الباب مستوفى في الرابعة والأربعين:

ومما يُستظرف من لفظ السواك، قول بعض الظرفاء: [الخفيف]

قد هجرت السواك من أجل أنني إن ذكرت السواك قلت سواكاً
وأحب الأراك من أجل أنني إن ذكرت الأراك قلت أراكاً

جثا: برك، أيد: قوى مطيتي: رزجتني، أبيت: صعبة ممتنعة على قائدها. الشراد:
التقور، أحنى: أعطف وأزحم. جنانها: قلبها.

الشوز: عصيان الزوج ومخالفته، والشوز أصله الارتفاع. وونح، معناها التويخ
والتقبيح، وتستعمل أيضاً للترخم، وقوله: ويوجب الضرب من قوله تعالى: ﴿واللاتي

تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ» [النساء: ٣٤]
فنشوزهنَّ: عصيانهنَّ. الأزهرى: النشوز: كراهة كل واحد من الزوجين صاحبه، ونشزت
تنشزُ فهي ناشز.

ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «لا تُسْكِنُوا النِّسَاءَ الْغُرَفَ فَيُشْرَفْنَ، وَلَا
تَعْلَمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيْهِنَّ بِالضَّرْبِ».

ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «عَلِّقُوا السُّوطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ
الْبَيْتِ».

ووصى بعض أهله فقال: «أَنْفِقْ عَلَى أَهْلِكَ مِنْ طَوْلِكَ، وَلَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْهُمْ،
وَأَخْفِهِمْ فِي اللَّهِ»؛ فمعنى لا ترفع عصاك، أي لا تترك تأديبهم في الله تعالى. قوله:
وَيَأْخُذُ الْجَارُ بِالْجَارِ، العرب تسمى قَرْجَ المرأة بالجار، ودُبرها جار الجار، وأخذه
الحريري من قول أعرابي جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدت شهوته، فأنعظ، فلما قرب منها
وهجم عليها قالت له: إني حائض، قال لها: فأين الهنة الأخرى؟ ثم حمل عليها وهي
تدافعه وتسبهه، وهو ماض في شغله ينشدها: [الرجز]

كَلَّا وَرَبُّ الْبَيْتِ ذِي الْأَسْتَارِ لَأَهْيَكَنَّ حَلْقَ الْحَتَّارِ
* قَدْ يُوْخِذُ الْجَارُ بِذَنْبِ الْجَارِ^(١) *

قال الخليل: الحتار: ما استدار من طوق الجفن، وكذلك حتار الظفر والدبر، ومما
يبين هذا المعنى قول الشاعر: [الكامل]

جَارُكَ قَدْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ تُغْدِي الصُّحَاخَ مِبَارِكُ الْجُرْبِ^(٢)
وَلَرَبُّ مَاخُوْذٍ بِذَنْبِ قَرِينِهِ وَنَجَا الْمَقَارَفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

أبذر: أترع، والبذر الحبوب تزرع: السباخ: الأرض ذات الملح والرَّشْح، وهي
لا تنبت شيئاً لملوحتها وقلة جفافها، وأراد: أترع نطفتك في موضع لا يقبل الولد،
تستفرخ: تلمس عمل الفرخ. اعزب: غب.

طوق الحمامة: جعل لها طوقاً، والحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخت
والوراشين والقماري، ودخلت الهاء على أنه واحد للجنس لا للتأنيث.

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (حتر)، وتاج العروس (حتر)، وكتاب العين ١٩٠/٣.

(٢) يروى صدر البيت الأول:

جانيك من يجني عليك وقد

وهو لذؤيب بن كعب بن عمرو في الاشتقاق ص ٢٠٢، ونسبه بعضهم لعوف بن عطية، وهو بلا
نسبة في لسان العرب (جنى)، وتهذيب اللغة ١٩٦/١١، وجمهرة اللغة ص ٢٦٦.

الليث: تقول العرب: حمامة ذكر، وحمامة أنثى، والجميع الحمام.

الشافعي: كل ما عبَّ وهَدَّر فهو حمام، يدخل فيه القماري والوراشين؛ سواء كانت مطوقة أو غير مطوقة، ألفة أو وحشية، وهذا القول كأنه الأكثر لأن النبي ﷺ كان يأمر بأخذ الحمام التي تستفرخ في البيوت، وليست ذوات أطواق، وكان يسميها حماماً، وكان في منزله حمام أحمر، اسمُه وَزْدَان، وقد قدّمنا فصلاً في الحمام في الصدر.

مَخْرَق الرجل: أوهم أنه على حق وصواب، وهو على خلافه.

[قصة مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية]

وأوردُ هنا في شرح تزويج مسيلمة بسجاح ما يبيّن سخف نبوتهما، وإن كان الحريري قد أشار إلى ذلك في هذه المقامة.

كان مسيلمة بن حبيب الحنفي، ثم أحد بني الدّبل، قد تسمّى بالرحمن في الجاهلية، وكان من المعمرين.

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمّى بالرحمن قبل أن يولّد عبد الله أبو رسول الله ﷺ، ولما بُعث رسول الله ﷺ كانت قريش تقول: إنّما يعلم محمداً رجلٌ يقال له الرحمن، فنزلت ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] وكانت بنو تميم قد تخاذلت في أمر الردّة بعد موت النبي ﷺ واختلفوا في ذلك اختلافاً شديداً، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلة من الجزيرة، تقود بني ربيعة. فأتاهم أمرٌ كان أعظم ممّا هم فيه من الاختلاف، وكانت سجاح تميميّة وبنو أبيها في تغلب، وأدعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ في الجزيرة، فاجتمعت عليها بنو تميم ورؤساء تغلب، فأدعت أنّها أنزل عليها. «يا أيّها المؤمنون المتقون، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكنّ قريشاً قوم يبغيون». فاجتمعت تميم كلها تنصرها، فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر وجوه بني تميم، وكان مؤدّبها شبيب بن ربعي الرياحي، فقالت: «أعدّوا الركاب، واستعدوا للثّهاب، ثم اغدوا على الرّباب، فليس من دونهم حجاب». فصمدت إليهم، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً، ثم قالت لأجنادها: اقصدوا اليمامة، فقليل لها إن شوكة أهل اليمامة قويّة شديدة وقد غلظ أمرُ مسيلمة، فقالت: «يا معاشر تميم، اقصدوا اليمامة، فاضربوا فيها كل هامة، وأضرموا ناراً ملهامة، حتى تتركوها سوّداء كالحمّامة»، وإنّ الله تعالى لم يجعل هذا الأمر في ربيعة - تعني نبوة مسيلمة - وإنما جعلها في مُضَر، واقصدوا هذا الجمع، فإذا قصدتموه عكّرتكم على قريش.

فسارت في قومها، وهم عدد لا يحصى، وبلغ مسيلمة الخبر، فضاق به ذرعاً، وتحصّن في جُجر حصن اليمامة، وأحاطت به جيوشها، فأرسل في وجوه قومه، وقال: ما ترون؟ قالوا: نسلم هذا الأمر لها، فإن لم نفعل فهو البوار. فقال لهم بدهائه:

سننظر. ثم بعث إليها، وقال: إِنَّ الله قد أنزل عليك وحياً وعليّ، فهلُمّي نجتمع فنتدارس ما أنزل الله، فمن عرف الحق تبّعه، واجتمعنا، فأكلنا العَرَب أَكْلاً بقومي وقومك. فأنعمت له، فأمر بضرب قَبّة من آدم، فضربت وأمر بالعود المندليّ فبُخِرت به، وقال؛ أكثروا من الطيب، فإن المرأة إذا شَمَّت رائحته ذكرت الباه. وأتته إلى القبة، وقالت: هات ما أنزل عليك ربك، فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحُبلى، أخرج منها نسمةً تَسْعَى، ومن بين صِفاقٍ وحَشَى، من بين ذكر وأنثى، وأمات وأحيا، إلى ربكم يكون المنتهى». قالت: وما ذاك؟ قال: «ألم تر أن الله خلقنا أفرجاً، وجعل لنا النساء أزواجاً، فنولجُ فيهنّ قعسا إيلاجاً، ونخرجه منهنّ إذا شئنا إخراجاً»، قالت فبأي شيء أمر ربك؟ قال: [الهج]

ألا هُبِّي إلى المخدغ	فقد هُبِّي لك المضجع ^(١)
فإن شئت ففي البيت	وإن شئت ففي المخدغ
وإن شئت سَلِّقْنَاكِ	وإن شئت على أربغ
وإن شئت بثلاثيه	وإن شئت به أجمع

قالت: بل به أجمع. قال: كذلك أوحى إليّ. فواقعها فلما قام عنها قالت: إِنَّ مثلي لا يُنكح هكذا، فيكون وَضْمَةٌ على قومي، ولكُنِّي مسلمةً لك النبوة، فاخطبني إلى أوليائي يزوجوك، ثم أقود معك تميماً. فخرج وخرجت معه، واجتمع الحيان: حنيفة وتميم، فقالت: سَجَاح: إِنَّه قرأ عليّ ما أنزل عليه، فوجدته حقاً، فتبعته، ثم خطبها فزوجه منها.

وقال الأغلب العجليّ في ذلك: [الرجز]

قد لقيت سَجَاح من بعد العمى	ملوحاً في العين مشدود القوى
كأن عِرْق أَيْرِه إذا بدا	حبل عجوز ضفرت سَبْعاً قَوِي
ما زال عنها بالحديث والمُنَى	والخُلُقِ السُّفْسَافِ يَزْدَى في الرَّذَى
قال: ألا أدخله؟ قالت: بَلَى	فشام فيها مثل محراب العَصَا
تقول لما غاب فيها واستوى	لمثل هذا كنت أخسيك الحَسَى

واليمامة بلدُ الزرقاء وسيأتي ذكرها في الخمسين، فعلى نحو ما ذكرنا من أمر سَجَاح، ذكرها أكثر أهل الأخبار.

وقال الفنجديهيّ: سَجَاح بنت الحارث بن سويد بن عَفْيَان، من بني يربوع، كنيتهَا

(١) يروى صدر البيت الأول:

ألا قومي إلى المخدغ

والآبيات لمسيمة الكذاب في تاج العروس (خدغ)، (سلق)، وجمهرة اللغة ص ٨٩٤، والأغاني

أم صادر، ادّعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ في الجزيرة في بني تغلب، فاستجابوا لها، وتبعها قوم من تميم، وظهر أمرها حتى هابثها العرب وصالحتها، لتجوز في بلادهم حيث شاءت. فسمعت بمسيلمة في اليمامة، فقالت لقومها «عليكم باليمامة، دُفُوا إليها دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة».

وبلغ مسيلمة خبرها فهابها، وخاف إن هو شُغل بها غلبه ثمامة بن أثال وشرحبيل على حُجر اليمامة إذ هما من قِبَل أبي بكر رضي الله عنه، فأرسل إليها يستأمنها على نفسه، فأمنتها فجاءها في أربعين من بني حنيفة، فقال لها: نصف الأرض لي، والنصف الذي كان لقريش صار لك، فقالت: لا يرذّ النصف إلا من جَنَف، فاحمل النصف. فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلات اليمامة من تلك السنة، وعلى أن يُسَلِّفَها ثمن غلات السنة المقبلة. فقبلت منه، وقدم لها مغلّ تلك السنة، ورجعت إلى الجزيرة، فلم تزل في بني تغلب حتى نَقَلَهُمْ معاوية عام انفراده بالملك إلى الكوفة، فانتقلت معهم، وحسن إسلامها.

[أبو الأسود الدؤلي وامراته]

وأظن أن الحريري صَوّر تخاصم زوجة أبي زيد معه على تخاصم أبي الأسود الدؤلي مع زوجته عند معاوية.

حدث أهل الأخبار قالوا: كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية، وكان معاوية يجالسه ويُدْنِيهِ، ويسأله فيجيبه فيما يعلم، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَزَرَة فقالت: أ صلح الله أمير المؤمنين وأمتع به! إن الله جعلك خليفة في البلاد، وورقياً على العباد، يُسْتَسْقَى بك المطر، وَيُسْتَنْبَت بك الشجر، وَيُؤْمَن بك الخائف، وَيُرَدَع بك الجانف. أنت الخليفة المصطفى، والأمير المرتضى؛ فنسأل الله لك النعمة في غير تغيير، والبركة من غير تقتير؛ فقد الجأني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق بي عنه المخرج، من أمر كرهتُ عاره، لما أردتُ إظهاره، فليكشف عني أمير المؤمنين، ولينصفني من الخصم، وليكن ذلك على يديه، فإني أعوذ بك وبحَقْوَيْكَ من العار الوبيل، والأمر الجليل؛ الذي يشتدّ على الحرائر، ذوات البيوت الأخير.

فقال لها معاوية: مَنْ هذا الذي أشعركِ شنارَه؟ قالت: أمر طلاقٍ جائر، من بغل غادر، لا تأخذه من الله مخافة، ولا يجد بأحد رافة: قال: وَمَنْ بعْلُكِ؟ قالت: هو أبو الأسود. فالتفت معاوية إليه فقال: أحقُّ ما تقول هذه المرأة؟ فقال: إنها تقول من الحق بعضاً، وليس أحد يطبق عليها نقضاً. أما ما ذكرت من أمر طلاقها فحق، وسأخبرك عن ذلك بصدق، أنا والله ما طَلَقْتُها لريبة ظهرت، ولا مِنْ هفوةٍ حضرت؛ ولكن كرهت شمائلها، فقطعت حبالها. قال: فأَيُّ شمائلها كرهت؟ قال: إنك تهيجها عليّ جواب

عتيد، ولسان شديد. قال: لا بدّ من جوابها، قال: هي يا أمير المؤمنين كثيرة الصّخب،
دائمة الذّرب، مُهينة للأهل، ومؤذية للبغل؛ إن ذكرَ خيراً دَفنته، وإن ذكرَ شراً أذاعته،
تخبر بالباطل، وتطير مع الهازل، لا تنكّل عن عتب، ولا يزال زوجها معها في تعب؛
فقالت: أما والله لولا حضور أمير المؤمنين، ومَن حضر من المسلمين، لرددت عليك
بوادِرَ كلامك بنوادِرَ تردُّعٍ كلِّ سهامك. فقال معاوية: عزمتُ عليك لما أجبته! فقالت:
هو والله يا أمير المؤمنين سؤول جهول، ملحاح بخيل، إن قال فشرّ قاتل، وإن سكت
فقدّم غائل، ليث حين يأمن، ثعلب حين يخاف، شحيح حين يُستضاف، إن التمس
الجود عنده انقمع، لما يعلم من لؤم آبائه، وقصر رشائه، ضيفه جائع، وجاره ضائع، لا
يحمي ذماراً، ولا يضرّم ناراً، ولا يرعى جواراً، أهون الناس عليه مَن أكرمه، وأكرمهم
عليه من أهانه.

فقال معاوية: ما رأيت أعجبَ منها. انصرفي رواحاً، فلمّا كان العشي جاءت، فلما
رأها أبو الأسود قال: اللهم اكفني شرّها، فقالت: كفاك الله شرّي، وأرجو ألاّ يعيذك من
شرّ نفسك. قال: ناوليني هذا الصبيّ حتى أحمله، قالت: ما جعلك الله بأحقّ من يحمل
ابني مني. فوثب فانتزعه منها، فقال معاوية: مهلا يا أبا الأسود. قال: يا أمير المؤمنين
حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وانظر في أوده،
أمنحه علمي، وألهمه حلمي؛ حتى يكمل عقله، ويستحكم قبله، قالت: كلاًّ أصلحك
الله! حمّله خفّاً، وحملته ثقلاً، ووضّعه شهوة، ووضّعه كُرْهاً. حجري فناؤه، وبطني
وعاؤه، وثديي سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام.

فقال معاوية: ما رأيت أعجبَ من هذه المرأة! فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين،
إنها تقول من الشعر أبياتاً فتجيدها، قال: فتكلّف أنت لها أبياتاً لعلك أن تقهرها بالشعر،
فقال أبو الأسود: [الخفيف]

مَرْحَباً بآلتي تجور علينا	ثمّ أهلاً بالحامل المحمول
أغلقت بابها عليّ وقالت	إن خير النّساء ذوات البعول
شغلت قلبها عليّ فراغا	هل سمعتم بفارغ مشغول!

فقالت: [الخفيف]

ليس مَن قال بالصواب وبالحـ	ق كَمَن حاد عن منار السبيل
كان حجري فناءً حين يُضحى	ثمّ ثديي سقاؤه بالأصيل
لست أبغي بواجدي يا بن حرب	بدلاً ما رأيته والجليل

فقال معاوية رضي الله عنه: [الخفيف]

ليس مَن قد غذاه طفلاً صغيراً	وسقاه من ثديه بالجدول
------------------------------	-----------------------

هي أولى به وأقرب رحماً من أبيه وفي قضاء الرسول
ثم دفعه معاوية إليها.

فزفر أبو زيد زفير الشواظ، واستشاط استشاطاً المغناظ، وقال لها: ويلك يا
درفار يا فجار، يا غصة البغل والجار، أتعمدين في الخلوة لتغذيبي، وتبدين في
الحفلة تكذيبي!

وقد علمت أني حين بنيت عليك، ورنوت إليك، ألفتك أفتح من قردة،
وأبسن من قدة، وأخشن من ليفة، وأنتن من جيفة، وأثقل من هيضة، وأقذر من
حيضة، وأبرز من قشرة، وأبرد من قرّة، وأخمق من رجلة، وأوسع من دجلة؛
فسترت عوارك، ولم أبد عارك. على أنه لو حبتك شيرين بجمالها، وزبيدة بمالها،
وبلقيس بعرضها، وبوران بفرضها، والزباء بملكها، ورابعة بنسكها، وخندف
بفخرها، والخنساء بشعرها في صخرها، لأنفت أن تكوني قعيدة رخلي، وطروقة
فخلي.

قوله: زفر: أي تنفس بغيط، والزفر والزفير رد النفس في جوفه حتى تنتفخ عروقه
قال ابن عرفة: الزفير من الصدر والشهيق من الحلق. الشواظ: النار بغير دخان وزفيره:
صوت اتقاده. استشاط: اشتد غيظه وانتشر في جسده.

يا فجار: ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من قذف امرأته جلد يوم القيامة
مائة جلدة بسياط من نار»^(١).

والغصة: ما يختنق به. والبغل: الزوج، وأراد أنها مؤذية يشقي بها زوجها
وجارها، كما يشقى صاحب الغصة. تعمدين: تقصدين. الخلوة. الانفراد. والحفلة:
الاجتماع. بنيت عليك، أي تزوجتك، وكانت العرب إذا تزوج الرجل بتي على أهله قبة،
فيستمي دخول الزوج بغاء لذلك. رنوت: نظرت ألفتك: وجدتك. قدة: شراكة تقد من
جلد غير مدبوغ. والليفة، واحدة ليف النخل، وهي التي تكون بين الجرائد. هيضة: هي
التخمة تؤول إلى القيء والإسهال وقشرة الشيء: ما علا عليه.

ودجلة: نهر العراق، وعليه بغداد والبصرة، وواسط على جرفها، ويجري على
وجه الأرض أربعمائة فرسخ. ولم يحمل الحريري مبالغة السعة على هذه؛ وإنما أراد

دجلة العوراء؛ وهي التي انتشر ماؤها في البطاح، حتى صارت سعتها هنالك ثلاثين فرسخاً في مثلها.

وقال ابن سُكرة يهجو امرأة بالسَّعة: [البسيط]

لا تعذّليني على ما كان من مَلَلٍ مَنْ ذا يراك ولا يصبُو إلى المَلَلِ
إن كنت أبصرتُ أَشئى منك في بصري فلا بلغتُ الذي أهواه مِنْ أَمَلِي
البحر أنت، وأبْرى ليس من سَمَلِك وليس بيني وبين البحر من عَمَلِ

قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي: زوّجني امرأة من كلب، فزوّجه، فقال له ذات يوم يهزل معه: تزوّجنا إلى كلب، فوجدنا في نسائهم سعة، فقال الأبرش: يا أَمِيرَ المؤمنين، إن نساء كلبٍ خُلِقْنَ لرجال كلب.

وسمع رجل من كِنْدَةَ رجلاً يقول: وجدنا في نساء كندة سعة، فقال: إنّ نساء كندة مكاحل فَقَدَتْ مَراودها.

قيل: لامرأة تُطَلِّق كثيراً: ما بالكَ تُطَلِّقين أبدأ؟ قالت: يريدون الضيق: ضَيِّق الله عليهم.

قوله: فسترت عوارك، ابن عباس، قال النبي ﷺ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ أَطْلَعَ عَلَى عورة مسلم فأذاعها عليه شماتة وعدواناً إلا كان حقاً على الله أن يَفْضَحَها عاجلاً أو آجلاً، وَمَنْ سترها عليه كان حقاً على الله أن يدخله في ستره وحجابه يوم تُبْلَى السرائر وتُخْرَج المخبآت». حَبَّتْ: أي خَصَّتْ.

وشيرين هي بنت أبرويز بن هرمز، وكانت آية في الجمال، وغاية في الحسن والكمال، فاقت نساء زمانها صيانةً وظرفاً، وبهرتهنّ ملاحه ولُطفاً، وخَلَفَتْ في العراق آثاراً منها قصر شيرين، ولها قصة منظومة مشهورة بالعجمية.

[امرأة هارون الرشيد]

وزيدة: هي بنت جعفر بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور، زوّجها هارون الرشيد، وجدها المنصور، وعمّها المهدي، وابنها الأمين؛ فكانت الخلافة قد اكتنفها، وليس في بني هاشم عباسية وَلَدَتْ خليفة إلا هي. ولدت في حياة المنصور، فسُمِّيت أمة العزيز.

وكان المنصور يرقصها ويقول: يا زُبَيْدَة أنت زبيدة! فغَلَبَ ذلك على اسمها، وكانت أموالها لا تخصى، وأنفقت في سبيل الله وفي الحج وفي بناء المساجد والقناطر ما لم ينفقه أحد قبلها؛ فمن ذلك ما أنفقت في حفرها للعين المعروفة بعين المُشاش بالحجاز، فإنّها حفرتها، ومهَّدَتْ الطريق لها في كُلِّ رفع وخفض، حتى أجرتها من مسافة اثني عشر ميلاً، فأحصى ما أنفقت فيها فوجد ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، دون ما كان في وقت الشغل بها في البذل، وما عمَّ أهل الفاقة، ولها في طريق مكة من العراق آثار

كثيرة في مصانع حفرتها، وبزك أحدثتها، تنزل وفود الحج عليها، فلا تجد ماء إلى فيها، فيشربون ويسقون إبلهم، ويتزودون وهم في الكثرة أعداد لا يحصيه إلا خالقهم، والكل داعون لزيادة إلى زماننا هذا.

وأما آثارها الملوكية، فإنها أول من اتخذت الآلات من الذهب والفضة المكللة بالجواهر. وبلغ ثوب وشى اتخذ للباسها خمسين ألف دينار.

وهي أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس، وكلا ليها من الذهب، ملبسة بالوشي والديباج، وأنواع الحرير الملون، وهي أول من اتخذ الخفاف المرصعة بالجواهر، وشماع العنبر. ولما أفضي الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل الخدم ككوثر وغيره، فلما رأت حبه فيهم اتخذت له الجواري المقدودات الحسان الوجوه، وعممت رؤوسهن، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق، فبالت قدودهن، وبرزت خصورهن، وبعثت بهن إليه، فاستحسنهن وأبرزهن للناس، فسموهن الغلاميات.

وأخبارها كثيرة، وعندما قُتل الأمين دخل عليها بعض خدمها، فقال لها: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين؟ فقالت: ويلك وما أصنع؟ قال: تخرجين وتأخذين بدمه، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: اخساً لا أم لك! ما للنساء وطلب الدماء! ثم أمرت بشايبها فسوّدت ودعت بدواة، فكتبت إلى المأمون: [الطويل]

وأفضل راقٍ فوق أعواد منبرٍ	أخيرَ إمامٍ قام من خيرٍ عنصُرٍ
إلى الملك المأمون من أم جعفرٍ	ووارثَ علم الأولين وفخرهم
إليك ابن عمي من جفوني ومحجري	كتبتُ وعيني تستهلُّ دموعها
ومن زال عن عيني فقلّ تصبُّري	أصبنتُ بأدنى الناس منك قرابةً
فما طاهر في فعله بمُطهرٍ	أتى طاهرٌ، لا طهر الله طاهرًا،
وأنهب أموالِي وحرَّق أدوري	فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً
وما نالني من ناقص الخلق أعورٍ	يعزّ على هارون ما قد لقيته
فديتُك من ذي قرية متذكّر	تذكّرُ أمير المؤمنين قرابتي
صبرتُ لأمر من قديرٍ مُقدّر	فإن كان ما أبدى لأمر أمرته
علي أمير المؤمنين فغيرٍ	وإن كان ما قد كان منه تعدياً

فلما قرأها المأمون، بكى بكاء شديداً، ثم قال: إنّي لأقول كما قال عليّ أمير المؤمنين حين بلغه قتل عثمان رضي الله عنهما: والله ما أمرتُ، ولا رَضِيتُ، اللهم جَلِّ قلب طاهر حزناً.

قال إبراهيم الحربي: رأيتها في المنام، فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر

لي، فقلتُ: بما أنفقت في طريق مكة؟ فقالت: أما النفقات فرجعت أجورها إلى أزبائها، وغفر لي بنتي.

[بوران بنت الحسن بن سهل وامرأة بالمأمون]

وأما بوران فهي خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل، تزوجها المأمون على يد إسحاق الموصلّي، وفي هذا التزويج قصة الزَّيْل وهي طويلة ظريفة، نذكرها على جهة الاختصار، حدّث إسحاق الموصلّي قال:

بينما أنا ذات يوم عند المأمون، وقد خلا وجهه، وطابت نفسه، فقال: يا إسحاق، هذا يوم خلوة وطيب، فقلت: طيب الله عيش أمير المؤمنين، وأدام سروره وفرحه. فأخذ بيدي، وأدخلني في مجالس غير التي كنّا فيها، فأخذنا من لذاتنا وشرابنا حتى غرّبت الشمس، فقال: قد عزّمتُ على دخلة إلى دار الحرم، فلا ترّم حتى آتيك، فتَهْض وبقيتُ إلى عامة الليل، وكان المأمون أشغف خلق الله بالنساء، وأشدّهم ميلاً إليهن، فقلت في نفسي: هو في لذة وأنا في غير شيء، وتذكرتُ صبيّةً اشتريتها، وكنت عزمت على افتضاؤها فنهضت إلى الباب، فقال الحاجب: أين تريد؟ فقلت: الانصراف، قال فإن طلبك، قلت هو من لذة السرور في شغلٍ عن طلبي، فقيل لي: إن غلمانك استيطؤوك وانصرفوا. فجيء بدابة، فركبتها ومشيت، فأحسست بالبول، فعمدت إلى زقاق لأبول، فبلّت وقمت لأتمسح بالحيطان إذا أنا بشيء معلق من تلك الدور، فنهضت فإذا بزَيْل^(١) كبير بأربع آذان، ملبس ديباجاً، فقلت: إنّ لهذا سبباً، وبقيت أترؤى في أمره، ثم قلت: والله لأجلسن فيه كائناً ما كان، فجلست، فلما أحس بي الذين يرقبونه، جذبوه إلى رأس الحائط، فإذا أربع جوار يَقلن لي: انزل بالرحب والسعة، فمشت بين يدي جارية بشمعة، حتى نزلت إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة، لم أر مثلاً لها إلّا في دار ملك، فجلست فما شعرت إلّا بعد ساعة، حتى أزيلت ستور كانت في ناحية الدار، وإذا وصائف يتماشين، في أيديهن الشمع، وبعضهن بمجامر يحرق فيها العود، وبينهن جارية تنهّدي كأنها البدر الطالع، فنهضت قائماً، فقالت: مرحباً بك من زائر! وجلست. ثم استطردت إلى سؤالي أبدع استطراد، فقلت: انصرفت من عند بعض إخواني، وغرّني الوقت، وحزّني البول، فعدلتُ إلى هذا الزقاق، فوجدت زيبلاً معلقاً، فحملني النبيذ أن جلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبيّه، قالت: لا ضير، أرجو أن تحمّد عاقبة أمرك، قالت: فما صناعتك؟ قلت: بزاز من بغداد، قالت: فهل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً ضعيفاً، قالت: فذاكرنا، قلت: إن للداخل حشمة ولكن تبدئين، قالت: صدقت، فأنشدتني لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم، وأنا مستمع لا أدري ممّ

أعجب! أمِنْ حسنِها، أم من حُسْنِ روايتها وجودة ضبطها للغريب، أم من اقتدارها على التحو ومعرفة أوزان الشعر! ثم قالت: أَدَّهَبَ ما كان عندك من الحَصَر؟ قلت: إي والله، قالت: فإن رأيت أن تشدنا، فأنشدها لجماعة من القدماء ما فيه مقنع، فاستحسنْتُ ذلك ثم قالت: والله ما ظننت أن يوجد في أبناء السوق هذا!

ثم أمرت بالطعام فأخضِر، وقالت: الممالجة أول الرضاع، فدونك. وجعلت تقطّع وتضع بين يديّ، وفي المجلس من صنوف الرياحين، وغرائب الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان، ودعت بالشُّراب، فشربتُ قَدْحاً، ثم سكبتُ لي قَدْحاً، فشربت، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة بالأخبار وأيام الناس، فاندفعْتُ فقلت: بلغني أنه كان كذا، وكان رجل يقال له كذا، حتى أتيت على عدة أخبار حسان، فسُرتُ بذلك، وقالت: كَثُرَ تعجُّبي أن يكون أحدٌ من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك، فقلت: كان لي جار يُنادِم الملوك، فإذا تعطلَّ حضرْتُ معه، فربّما حدّث بما سمعت، فأخذتها عنه. فقالت: لعمري لقد أحسنتَ الحفظ، وما هذا إلا لقريحة جيّدة، وأخذنا في المذاكرة إذا سكّثتُ ابتدأتُ هي، وإذا سكّثتُ ابتدأتُ أنا، حتى قطعنا عامة الليل، وبخور العود يَغِيق، وأنا في حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً. فقالت: إنك من الرجال وضيء الوجه، بارع الأدب، وما بقي عليك إلا شيء واحد. قلت: وما هو؟ فقالت: لو كنت تترنّم ببعض الأشعار! فقلت: والله لقد يَمُا كَلَفْتُ به ولم أرزقه، فأعرضت عنه، وفي قلبي منه حزاة، وكنت أحب أن أسمع في مجلسي هذا منه شيئاً لتكمل ليلتي، قالت: كأنك عرضت بنا! قلت: والله ما هو تعريض، قد بدأت بالفضل وأنتِ جديرةٌ باستتمامه. فأخضِر عوداً بأمرها، فغنت بصوت ما سمعت كحسنه، مع حسن أدائه، وجودة الضرب. فقلت: والله لقد أكمل الله فيك خلالَ الفضل وحبَّ الكمال الراجح، والعقل الوافر، والأخلاق الرضية والأفعال السنية. قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى فيه؟ قلت: لا والله، قالت الشعر: لفلان، وكان سببه كذا والغناء لإسحاق، قلت: وإسحاق هذا جُعِلْتُ فداك في هذا الحال! قالت: بخ بخ! إسحاق بارع هذا الشأن، قلت: سبحان الله! لقد أعطى هذا ما لم يعطه أحد، قالت: فكيف لو سمعتَ هذا الصوت منه! فلم نزل كذلك حتى إذا انشقَّ الفجر أقبلت عجوز كأنها ذايةٌ، لها، قالت: أي بنية، إن الوقت قد حضر، فنهضت عند قولها، فقالت: مصاحباً، لتستر ما كنا فيه، فإن المجالس بالأمانات، فقلت: جُعِلْتُ فداك، فأحتاج إلى وصية في ذلك! وودعتها وجارية بين يديّ إلى باب الدار، ففتحت لي، وخرجت إلى داري فصلّيت الصبح، ونمت.

فأنبّهني رسول المأمون فسرْتُ إليه، فلما رأيته، قال: يا إسحاق، تشاغلنا عنك، فما كان حالك؟ قلت: اشتريت صبيّةً وكنت معلق القلب بها، فمضيتُ لها، وشربت معها ونمت، فقال: يتهيأ مثل هذا، فهل لك فيما كنا فيه أمس! فقلت: وما يمنع من ذلك؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس؛ فلما كان العشاء قال: لا ترم، فإني أجيتك ونهض، فتأملت

ما كنت فيه البارحة، فإذا هو شيء لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ. فقال الغلمان: الله الله، فإنه أنكر علينا تخليّتك، فوعدتهم أن آتي قبل أن يجيء، وأن خروجي لعذر، وفي الحين أرجع.

فنهضت إلى الزبيل فجلست فيه، فرفع بي إلى موضع البارحة، فإذا هي قد طلعت، فقالت: لقد عاودت، فقلت: ولا أظنّ إلا أنني قد ثقلت، فقالت: مادح نفسه يقرئك السلام، قلت: فهفوة فمنيّ بالفضل. قالت: قد فعلنا، ولا تعدّ، فأخذنا في مثل الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر.

فانصرفتُ إلى منزلي وصليت ونمت، فأنبهني رسولُ المأمون، فلما رأيته قال: أبيت إلا مكافأة لنا! فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما ذهبت إلى ذلك، ولكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل عني ببلدته، وأغفل أمري، وجاء الشيطان، فذكّرني أمر تلك الملعونة، فبادرت قال: فما كان منك؟ قلت: قضيت الحاجة منها، قال: فقد انقضى ما كان بقلبك منها، وواحدةً بواحدة، والبادي أظلم. قلت: بل أنا أظلم، وإليك المَعْدرة، قال: لا تثريبَ عليك، فهل لنا في مثل حالنا أمس؟ قلت: إي والله، فقمنا إلى موضعنا إلى الوقت، فقال: يا إسحاق ما عزمك؟ قلت: لا عذرَ لي، قال: فعزمت عليك لنجلس حتى أجيء، فإني عازم على الصُّبوح، وقد نَقَصَتْ عليّ منذ يومين، قلت: فالليلة إن شاء الله، فما هو إلا أن غاب وجالّث وساوسي، فلما تذكّرت ما كنت فيه البارحة هان عليّ ما يلحقني من سَخَطِهِ؛ فوثبت مبادراً، فوثب إليّ جند الدار، وحُبِست، فقلت: الله الله! إني معلّق البال ببعض ما في منزلي، فقالوا: ما إلى تركك من سبيل، فلم أزل أرغب هذا وأقبل يد هذا، ووهبت خاتمي لهذا، وردائي لهذا، وخرجت أعدّ وحاسراً حتى وافيت الزبيل، فقعدت فيه، فرفعتُ إلى موضعي، وأقبلت، فقالت: صديقنا! قلت: إي والله، قالت: أجعلتها دارَ مقام؟ فقلت: جُعِلَتْ فِذاك! حتى الضيافة ثلاث، فإن رجعتُ فأنتم في حلٍّ من دمي. قالت: والله لقد أتيتْ بِحُجَّة، ثم جلسنا في مثل تلك الحال، فلما قرُب الوقت علمت أن المأمون لا بُدَّ أن يسألني، ولا يقنع مني إلا بشرح القصة، فقلت لها: أراك ممّن يعجب بالغناء، ولي ابن عمّ أحسنُ مني وجهاً، وأظرف قداً، وأكثر أدباً، وأنا حسنة من حسناته، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق الموصلي، قالت: طفيلي وتقترح؟ قلت لها: أنت المحكمة، قالت: إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته، ثم جاء الوقت فنهضت فلم أصل إلى داري إلا ورسَل المأمون قد هجموا عليّ، وحملوني حملاً عنيفاً، فوجدته على كرسيّ وهو مغتاظ، فقال: يا إسحاق أخرجوا عن الطاعة! قلت: لا والله قال: فما قصّتك وما هذا الانحراف؟ فأصدقني، قلت: في خلوة، فأوماً إلى مَنْ بين يديه فتَنَحَّوْا فحدثته الحديث وقلت له: قد وعدتها في أمرك، قال: قد أحسنت، ولولا ذلك لنكّلت بك، فقلت: قد سلّم الله، فأخذنا في لذتنا في ذلك اليوم، وهو لا يسمع مني غيرَ حديثها، فلم يتمّ النهار إلا والمأمون معلّق القلب، فلما جاء

الوقت سِرْنا وأنا أوصيه وأقول: تجئُب أن تظهرني بحضرتها، ودعني من نخوة المُلك، وكن لي تبعاً، وهو يقول: نعم ويلك! وإن قالت: غنّ كيف أصنع؟ قلت: أنا أدفعها عنك.

ثم سرنا إلى زبيلين فقعدنا فيهما، فرُفَعنا إلى الموضع، فأقبلت فسَلّمت، فما تما لك إذ رآها أن بُهِت في حسنّها، وقالت لي: والله ما أنصَفْتَ ابن عمك إذ لم ترفع منزلته، وكان قد قعد دوني، فقالت: ارتفع فديتُك، أنت جديد، وهذا قد صار من أهل البيت، فنهض إلى صدر البيت، وأقبلت تُذَكِّره وتناشده وتمازحه، وهو يَظْهر عليها في كل فن. ثم أحضِرَ التَّبِيدَ فشرَبنا، وهي مقبلة عليه ومسرورة به، وهو أكثر، وأخذتِ العود فغنّت صوتاً، وقالت: وابن عمك هذا من التجار؟ قلت: نعم، قالت: إنكما لغريبان. فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب، ثم رأيته ينظر إليّ نظر الأسد إلى فريسته، فصاح: يا إسحاق، فنهضت وقلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: غنّ هذا الصوت، فلما عَلِمْتُ أنه الخليفة نهضت إلى كِلَّةٍ مضروبة، فدخلتها، فلما فرغت من الصوت، قال: انظر مَنْ رَبّ هذه الدار؟ فسألت عجوزاً، فقالت: هو الحسن بن سهل، فقال: عليّ به، فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر، فقال له: ألك ابنة؟ قال: نعم بوران، قال: فزوَّجتها! قال: لا والله، قال: فأني أخطُبها إليك، قال: هي أمتُك، وأمرها إليك، قال: قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألفاً نحملها إليك صبيحة يومنا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا، قال: نعم، ثم خرجنا.

فقال: يا إسحاق لا يقف على ما وقَفْتَ عليه أحد، فسترتُ الحديث إلى أن مات المأمون: فما اجتمع لأحد ما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام مجالسة المأمون بالنهار، ومجالسة بُوران بالليل، والله ما رأيْتُ أحداً من الرجال في ملوكهم مثل المأمون، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهماً وعقلاً، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه.

وفي المسعودي: انحدر المأمون إلى فم الصُّلح في شعبان سنة تسع ومائتين، وأملك بخديجة بنت الحسن بن سهل، ونثر الحسن في ذلك الإنملاك ما لم ينثره قطّ ملك في جاهلية ولا إسلام، نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب بنادق مسك، فيها رقاع بأسماء ضياع، وجوار وأسماء ديار ودواب وغير ذلك، فإذا وقعت البندقية بيد الرجل، فتحها فيجدها على قدر سعده، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج المسك على عامة الناس، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له: يا أبا محمد، سلّ حوائجك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أسألك أن تحفظ عليّ مكاني من قَيْلِكَ، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأهواز لسنة.

وذكر الحريري في الدرة أن المأمون لما بنى على بُوران، فرش له حصير منسوج

بالذهب ما مَسَّه أحد، وعليه در منثور، فوجَّه الحسن إلى المأمون أن هذا نثار يجب أن يُلْتَقَط، فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء: شَرِّفْنِ أبا محمد، فمَدَّت كل واحدة منهن يدها، فأخذت دُرَّةً وبقي باقي الدر يلوح على الحصرير المذهب، فقال: قاتل الله أبا نُواس، لقد شَبَّه بشيء ما رآه قط، فأحسن في وصف الخمرة والحباب الذي فوقها فقال! [البسيط]

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا خَضْبَاءُ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ
فَكَيْفَ لَوْ رَأَى هَذَا مَعَايِنَةَ!

ويقال: إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبة جواهر، وأشعل بين يديه شمعة عنبر، وزنها مائة رطل، فأمر له المأمون بمائة ألف ألف درهم، وأقطعه مدينة فم الصُّلح، وهي قرية من واسط، وكان الغُرس بها. وذكر المبرِّد أن الملاحين الذين تصرَّفوا في هذا العرس نَيَّفُوا على السبعين ألفاً، وكانت جراية السلطان عليهم، ولَمَّا بَنَى المأمون على بُوران وأراد غشيانها حاضت، فقالت: أتى أمر الله فلا تستعجلوه! فنام في فراش آخر، فلَمَّا أَصْبَح دخل عليه أفاضل ندمائه يهنئونه ويدعون له فأَنشدهم بديها: [المديد]

فَارِسٌ فِي الْحَرْبِ مَنْغِمِسٌ عَارِفٌ بِالطَّعْنِ فِي الظُّلَمِ
رَأَى أَنْ يُذِمِّي فَرِيْسَتَهُ فَاتَّقَتْهُ مَنْ دَمَ بِدَمِ
وَأَكْثَرُ الشُّعْرَاءِ فِي ذَلِكَ الْإِمْلَاكِ، وَأَسْتَظَرَفَ مِنْهَا قَوْلَ ابْنِ أَبِي حَازِمٍ الْبَاهِلِيِّ:
[مجزوء الخفيف]

بَارِكْ اللَّهُ لِلْحَسَنِ وَلِبُورَانَ فِي الْخَتَنِ
يَا بْنَ هَارُونَ قَدْ ظَفِرَ تَ وَلَكِنْ بَبَنْتَ مَنْ!

فلما وصلت إلى المأمون قال: لا والله ما نَذِرِي أخيراً أراد أم شراً.

ويشبه هذا أن رجلاً أتى رجلاً خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً، فقال: والله لأفصلته لك تفصيلاً، لا يُذَرَى أقميص هو أم قباء؟ ففعل ذلك، فقال له صاحب الثوب: وأنا والله لأدعوك لك دعاء لا يُذَرَى ألك هو أم عليك؟ وكان الخياط يسمي بشراً، وكان أعور، فقال: [الرمل]

خَاطَ لِي بِشَرِّ قَبَاءٍ لَيْتَ عَيْنِيهِ سَوَاءٍ
وَأَتَى الْمَأْمُونُ بِجِهَازٍ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ قَطَّ كَانَ فِيهِ الْقُرْشُ مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ.

وقال إبراهيم بن العباس الصُّولِيُّ يهنئ الحسن بمصاهرة المأمون: [البسيط]

هَتَّتَكَ أَكْرُومَةً جَلَّلْتَ نَعَمَتَهَا أَعْلَتْ وَلِيَّتَكَ وَاجْتَثَّتْ أَعَادِيكََا

ما كان يُحْبَى بها إلا الإمام ولا كانت إذا قُرِئَتْ بالخَلْق تعدوكا
وماتت بُوران في سنة إحدى وسبعين ومائتين، وقد بلغت ثمانين سنة.
وثُمَّ بُوران أخرى وهي بنت كسرى، وأمها مريم بنت قيصر، ملكت سنة ونصفاً،
وليست المعنية في المقامة.

[بلقيس وعرشها]

وأما بلقيس فهي ابنة شراحيل بن أبي سرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ،
وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدهد، وبه يُعرف قُرب الماء من بعده، فنزل
سليمان عليه السلام بمفازة، فدعا بالهدهد فلم يُوجَد، فقال وهو غاضب ﴿مَا لِي لَا أَرَى
الْهُدْهَدَ﴾ [النمل: ٢٠] الآيات. وكان الهدهد قد مرَّ بعرش بلقيس وبساتينها، فلما رجع
تلقته الطير، فقالوا: تَوَعَّدَكَ رسول الله بنثف ريشك أو بذبحك، فينقطع نسلُك، فقال:
وما استثنى؟ قالوا: بلى، قال: ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ٢١]، أي بعذر مبين
فأتى سليمان فقال: ما غَيَّبَكَ عني؟ قال: ﴿أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢] حتى
بلغ ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَ سَنُنظِّرُ أَصْدَقْتَ﴾ [النمل: ٢٨] الآيات فوجهه بالكتاب،
فوافقها في قصرها، فسَدَّ عليها بالكتاب ضوء طاق، فالتفتت فالتقى إليها الكتاب، فأخذته
وغطته بثوب، ونادت في قومها فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ [النمل: ٢٩] الآيات، فقالوا لها:
﴿نَحْنُ أَوْلَوْ قُوَّةً...﴾ [النمل: ٣٣] الآيات. ثم قالت: إن قَبِلَ الهدية فهو مَلِكٌ من
ملوك الدنيا وأنا أعزُّ منه، وإن لم يقبلها فهو نبي من عند الله.

فلما رجع بالهدية قال سليمان: ﴿أَتَمِدُّوْثَنَ بِمَالٍ﴾ إلى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].
فلما رجع إليها رسلها بالخبر، خرجت فرقة في قومها - قال ابن عباس رضي الله
عنهما: ومعها ألف قَيْل، وأهل اليمن يسمون القائد القَيْل - مع كل قَيْل عشرة آلاف.
وكان سليمان مهيباً لا يبدؤه أحدٌ بشيء حتى يسأل عنه، فخرج فرأى رَهْجاً قريباً منه،
فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس، قال: وقد نزلت منّا بهذا المكان. ثم قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِنِي
بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨] فأناه به الذي عنده علم الكتاب قبل ما قطع كلامه، وصرف
بصره، فرآه مستقراً عنده، فقال: هذا من فضل ربي. ثم جاءت بلقيس وقعدت إلى
سليمان، فقيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢] فنظرت إليه وقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾
[النمل: ٤٢] ثم قالت: تركته في قصري والجنود محيطة به، فكيف جيء به! وكانت
شعراء الساقين، فقالت الجن: إن نكحها سليمان فولدت له غلاماً ما تنفك من العبودية
أبداً، فهلم نبني له بنياناً، فيرى شجرها فيه فلا يتزوجها، فبنوا له صَرْحاً أخضر من قوارير
كأنه الماء، وجعلوا في باطن طرائقه كل شيء من الدواب والسمك وغيره، وألقي
لسليمان كرسي في أقصاه، فلما رأى منه ما رأى قعد عليه، ودعا بها، فلما رأت صور

السّمك فيه حسبته لجة، وكشفت عن ساقها. فأبصر شغرها سليمان، فصرف بصره عنها، وقال إنه صرح ممرد من قوارير، فقالت: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» [النمل: ٤٤] الآية. فقال سليمان للجن: ما يذهب الشعر؟ فقالوا: له الثّورة، فاستنكحها سليمان عليه السلام.

وذكر ابن إسحاق أنها لما أسلمت، قال لها سليمان: اختاري رجلاً من قومك أزوجه، فقالت: ومثلي يُنكح، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان! فقال لها: ما ينبغي أن تحرّمي ما أحل الله لك، فزوجهها ذا تبع ملك همدان، وملكه اليمن، وردّها معه، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان. وكانت بلقيس من بيت المملكة، قيل: إنها ولدها أربعون ملكاً، واختلف في أمها فقيل: إنسية وقيل جنية.

وأما عرشها، وهو سريرها، فقيل: كان طوله ثمانين ذراعاً، وعرضه كذلك. وكان عرشها صفائح من ذهب وفضة قد ركبت فيه فصوصُ الياقوت الأحمر والزّبرجد الأخضر والدّر واللؤلؤ، وكان له قائمتان من ياقوت وقائمتان من زّبرجد، والملك لله وحده، الذي سخر لسليمان هذا الملك العظيم ومن أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجوع الطرف!

وذكر الحريري في الدرّة: أن صواب لفظ «بلقيس» أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يُعرّب فقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب، قال: وعلى ذلك بلقيس.

وقرأت في أخبار سيف الدولة أن الخالدين مدحاه، فبعث إليهما وصيفاً ووصيفة، مع كلّ واحد منها بذرة وتخت من ثياب مصر والشام، فكتباً إليه: [الكامل]

لم يَغْدُ شكرك في الخلّاتِ مطلقاً	إلا ومالك في النّوال حَبِيسُ
خولّتنا شمساً وبذراً أشرقت	بهما لدينا الظلمة الجنديسُ
رَشَأُ أتاناً وهو حُسْناً «يوسفُ»	وغزاة هي بهجة «بلقيسُ»
هذا ولم تقنع بذاك وهذه	حتى بعثت المال وهو نفيسُ
أتيت الوصيفة وهي تحمل بذرة	وأتى على ظهر الوصيف الكيسُ
وكسّوننا مما أجادت حوكه	مصرّ وزادت حُسْنُهُ تَنيسُ
فغدا لنا من جودك المأكول والمـ	شروب والمنكوح والملبوسُ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسنأ، إلا في لفظ «المنكوح»، إذ ليست مما يخاطب بها الملوك.

وهذا من بديع نقده المليح وشواهد ذكائه الصريح.
وأما الزّباء: فقد تقدّم ملكها في الرابعة والعشرين.

[رابعة العدوية]

وأما رابعة فهي بنت إسماعيل العدوية، وكانت قد بلغت من التَّسْك والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منوَّرة البصيرة، مطهَّرة السريرة، حَظِيَّتْ بالمكاشفات الربانية، وكان سفيان الثوري يذهب إليها ويسألها عن مسائل دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد ابن زيد، فقالت له بعد أن حجَّبه أياماً ثم أذنت له: يا شهوان، أي شيء رأيته في من آية الشهوة! ألا خطبتُ شَهوانية مثلك!

وقال أبو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب لها، وقمت إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السَّحَر، فقلت: ما جزاء من قَوَّانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غداً.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمِّها، فقالت: اسكتوا عن ذمِّها، فلولا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها! ألا مَنْ أَحَبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شيء فقيل لها: لو بعثت إلى فلان؟ قريب لها فقالت: والله لا أطلب الدنيا ممَّن يملكها، فكيف ممَّن لا يملكها!

وحَدَّث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدي سفيان الثوري فقال لي: سربي إلى المؤدِّبة التي لا أجدني أستريح إذا فارقتها - يعني رابعة - قال: فلما دخلت عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ السَّلامَةَ! فبكت رابعة، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: أَنْتَ عَرَضْتَنِي لِلْبُكَاءِ، فقال لها وكيف ذلك؟ فقالت: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ السَّلامَةَ مِنَ الدُّنْيَا تَرْكُ مَا فِيهَا، فكيف وَأَنْتَ متلَطِّخ بها!

وقال سفيان الثوري لرابعة رحمة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبده خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبدهُ حباً له وشوقاً إليه، وقالت في معنى ذلك: [المتقارب]

أَحَبُّكَ حُبَّتَيْنِ: حَبُّ الْهَوَى	وَحُبُّ لَأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حَبُّ الْهَوَى	فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشَفَكَ لِي الْحُجُبَ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَا لِيَا	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وقيل لها: كيف حبَّكَ لرسول الله ﷺ؟ فقالت: شغلني حبُّ الخالق عن حبِّ المخلوقين.

ودخل سفيان عليها وهي قائمة تصلي، فلم تعرِّج عليه، ودخل جعفر - وكان يخدمها - فقال لسفيان: أي شيء دار بينك وبينها؟ قال: ما كَلَمْتَنِي. فقال لها: يا سبحان الله! الشيخ جاء إليك فما كَلِمَتُهُ، فقالت: إن العبد إذا كان مقبلاً على الله عزَّ وجلَّ كان

الله مقبلاً عليه، وقد كنتُ مقبلة على الله عزّ وجلّ، ولست أشكّ في إقباله عليّ، فأیما أحبّ إليك أن أكون مقبلة على الله ويكون مقبلاً عليّ، أو أقبل على هذا؟ ثم قالت: الله أكبر.

وقال لها رجل: إني أحبك في الله، فقالت: فلا تَعْصِي الذي أحببتني له وأنشدت:
[الوافر]

أَتَضْمَنُ يا فَتَى تركَ المعاصي وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قومٌ فاستراحوا ولم يتجرّعوا عُصَصَ المعاصي

[خندف]

وأما خندف، فهي لیلی بنت حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وهي امرأة إلیاس ابن مضر، ولدت منه عمراً وهو مدركة، وعامراً وهو طابخة، وعميراً وهو قَمعة، فنذت لهم إبل، فخرجوا في طلبها فأدركها عمرو، فسَمِي مدركة، واقتنص عامر أرنباً فطبخها، فسَمِي طابخة، وانقمع عمير في بيته فسَمِي قَمعة، فلما أبطؤوا عليها خرجت في إثرهم، فقالت: ما زلت أخندف في إثركم؟ فلَقِبَت خندف، والخندفة بالهرولة، وهي أمّ عرب الحجاز، وجميع ولد إلیاس من خندف، ولخندف يُنسبون، وجميع ولد مضر من إلیاس وخندف، فمن مدركة كنانة وأسد ابنا خُزَیمة، ومن طابخة ضبّة بن طابخة، ومزينة والرّباب، وهم عدي وتميم بن مرّ بن أد بن طابخة، وثور وعُكل بن مدركة، وقُريش وهو في كنانة.

ومنها سيد ولد آدم رسول الله ﷺ، إلى ما في كنانة من الشجعان المشاهير في الجاهلية.

ومن طابخة تميم، وهي أكبر قبيلة في العرب وأشجعها، وهي عدد لا يحصى، وعزّ لا يدرك.

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب ودعا بُرْدَين فقال: ليلبس هذين البردين أكرم العرب وأشرفهم حسباً وأعزّهم قبيلة، فأحجم الناس، فقام الأحمر بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فلبس أحدهما وارتنى الآخر، فقال له المنذر: ما حجتك فيما ادعيت؟ قال: الشرف من نزار في مضر، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في بهدلة، قال: هذا أنت في أصلك، فكيف أنت في عشيرتك؟ قال: أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال: هذا أنت في عشيرتك، فكيف أنت في نفسك؟ فقال: شاهد العين شاهدي، ثم قام فوضع قدمه في الأرض، وقال: من أزالها فله مائة من الإبل، فلم يقم إليه أحد، وفي ذلك يقول الفرزدق: [الطويل]

فما تمّ في سعدٍ ولا آل مالكٍ غلام إذا ما قيل لم يتبهذل^(١)
 لهم وهب التعمان بردي محرق بمجد معدّ والعديد المحصل
 فلخندف هذا الفخر في الجاهلية ثم النبوة، ثم الملك إلى يوم القيامة وفيها يقول
 الراجز: [الرجز]

* وخندف هامة هذا العالم^(٢) *

[الخنساء]

وأما الخنساء فهي ثماضر بنت عمرو بن الشريد، من سرة قبائل سليم بن منصور
 ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم،
 ولسليم في الإسلام سابقة حسنة، حضر منهم مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحرب حنين
 ألف رجل.

وذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشد الخنساء ويعجبه شعرها، فكانت تنشده وهو
 يقول: هيه يا خنساء! ونظرتها عائشة رضي الله عنها، وعليها صدار من شعر، فقالت: يا
 خنساء، أتلبيين الصدار وقد نهى عنه رسول الله ﷺ؟ فقالت: لم أعلم بنهي رسول الله
 ﷺ وكان للصّدار سبب، كان زوجي رجلاً مثلاً فأملق، وأراد أن يسافر، فقلت له: أقم
 حتى آتي أخي صخرأ، فأتيته فشاطرني، ماله فأتلفه زوجي، فعدت إليه فعاد بمثل ذلك،
 فأتلفه زوجي، فعدت إليه في الثالثة والرابعة، فقالت له زوجته: إن هذا المال متلف،
 فامنحها شرار مالك، فقال: [الرجز]

والله لا أمّئحها شرارها وهي حصان وقد كفتني عارها^(٣)

ولو هلك خرق خمارها واتخذت من شعرها صدارها

فلما هلك اتخذت هذا الصّدار.

وقيل لجريز: من أشعر الناس؟ قال: أنا، لولا هذه الفاعلة - يعني الخنساء - قيل
 له: فيم فضلتك؟ قال بقولها: [البسيط]

(١) البيتان في ديوان الفرزدق ص ٧٤٤.

(٢) الرجز للعجاج في ديوانه ٤٦٢/١، ورفض المباني ص ٥٦، وسر صناعة الإعراب ٩٠/١، وشرح
 المفصل ١٢/١٠، ١٣، وشرح شواهد الشافية ص ٤٢٨، ولسان العرب (بيت)، (علم)، وجمهرة
 اللغة ص ٦٤٩، وبلا نسبة في رفض المباني ص ٤٤٧، وشرح شافية ابن الحاجب ٢٠٥/٣،
 والممتع في التصريف ٣٢٤/١، ومقاييس اللغة ١١٠/٤.

(٣) الرجز لصخر بن عمرو السلمي في الشعر والشعراء ص ٣٥٣، والكمال ص ١٣٩٧، وخزانة الأدب
 ٤٣٥/١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٢٩.

إِنَّ الزمان وما تفنى عجائبه أبقى لنا ذنباً واستؤصل الرأس^(١)
أبقى لنا كل مجهول وفجعنا بالحالين فهم هام وأرماس
إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس
فأجمع علماء الشعر أنه لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.

وكان النابغة الذبياني يجلس لشعراء العرب بعكاظ على كرسي، ينشدونه فيفضل من يرى تفضيله، فأنشدته في بعض المواسم فأعجب بشعرها، وقال لها: والله لولا أن هذا الأعمى أنشدني قبلك - يعني الأعشى - لفضلتك على شعراء هذا الموسم.
وكان بشار يقول: لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه، فقيل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربع خصى.

ومن جيد ما رثت به صخرأ قولها: [الوافر]

ألا يا صخرُ إن أبكيت عيني لقد أضحكتنني دهرأ طويلاً^(٢)
بكيتك في نساء معولات وكننت أحق من أبدى العويلاً
دفعت بك الجليل وأنت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً
إذا قبُح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلاً
ومنه: [الوفر]

يؤزقني التذكر حين أمسي ويردعني عن الأحزان نُكسي^(٣)
على صخرٍ وأي فتى كصخرٍ ليوم كريبه وطعان خلّس
ولم أر مثله رزأ لجن ولم أر مثله رزأ للإنس
يذكرني طلوع الشمس صخراً وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي
ومنه أيضاً: [السريع]

أبعد ابن عمرو من ال شّريب بد حلت به الأرض أثقالها^(٤)
لعمر أبيه لنعم الفتى إذا النفس أعجبها مالها

(١) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٥٥.

(٢) الأبيات في ديوان الخنساء ص ٢٢٥، ٢٢٦، والبيتان الثالث والرابع في لسان العرب (بكا)، وتاج العروس (بكي).

(٣) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٥٠.

(٤) ديوان الخنساء ص ٢٠١.

فقد كان يكثر تقتالها
وزُلزلت الأرض زلزالها

ومنه أيضاً: [المقارب]

ألا تبكيان لصخر الندى^(١)
ألا تبكيان الفتى السيّد
دَسَادَ عَشِيرَتِهِ امِرَدًا

فإن تك مُرّة أودت به
فخر الشوامخ من فقده

أعيثي جوداً ولا تجمداً
ألا تبكيان الجريء الجميل
طويل النجاد رفيع العما

ومنه أيضاً: [المقارب]

وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً^(٢)
فأصبحتُ من بينهم مستقزاً
إذ الناس إذا ذكَّ مَنْ عَزَزَا
وفخر العشيرة مجدداً وعزاً
وكانوا يظنُّون ألا تُجَزَا
ب ألا يصاب فقد ظنَّ عَجَزَا

تعرفني الدهر نهشا وحرّاً
وأفنى رجالي فبادوا معاً
كأن لم يكونوا جَمَى يُتَقَى
وكانوا سَراةً بني مالِك
جززنا نواصي فرسانها
وَمَنْ ظنَّ مَمَّنْ يلاقي الحرو

ومنه أيضاً: [البسيط]

أهل الموارد وما في وزده عاراً^(٣)
له سلاحان أنياب وأظفار
لها حنينان إعلان وإسار
فإنما هي إقبال وإدبار
صخر فللدهر إحلاء وإمرار
وإن صخرأ إذا نشئوا لنحار
كأنه علم في رأسه نار

يا صخرُ وزاد ماء قد تبادره
مشى السببني إلى هَوزاء معضلة
وما عجولٌ على بو تحن له
تَرْتَع ما رَتَعَتْ حتى إذا اذْكَرَتْ
يوماً بأوجع مني حينَ فارقني
وإن صخرأ لوالينا وسيّدنا
وإن صخرأ لتأتُم الهداة به

وحدث المفضل قال: كنت جالساً يوماً على باب منزلي، أحتاج إلى درهم واحد، وعليّ دين عشرة آلاف درهم، إذا جاءني رسول المهديّ، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: وما بعته إلي! لعلّ ساعياً سعى بي عنده، ثم دخلت منزلي، ولبست ثيابي، وسرّت إليه فلما مثلت بين يديه أوماً إليّ بالجلوس، فلما سكن جأشي، قال لي: يا مفضل، ما أفخر بيت قالته العرب؟ فأرتجّ عليّ ساعة، ثم قلت: يا أمير المؤمنين قول الخنساء، فاستوى جالساً وكان متكئاً، فقال: أيّ، [بيت هو؟] فقلت قولها: [البسيط]

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمَّ الهداءُ به كأنه علَمٌ في رأسِهِ نارُ
فقال: قد قلت له فأبى عليّ - وأوماً إليّ إسحاق بن بزيع - قلت: الصواب مع أمير المؤمنين، ثم قال: يا مفضل، حدّثني فحدّثته حتى انتصف النهار، قال: أنشدني، فأنشدته قول الحسين بن مطير الأسديّ: [الطويل]

وقد تَغِدِرُ الدنيا فيضحى غنيها فقيراً وَيَثْرَى بعد بؤسٍ فقيرُها^(١)
وكم قد رأينا من تَغْيُرِ عيشةٍ وأخرى صفا بعد كَدٍ غديرها
فلا تقربِ الأمرِ الحرامِ فإنه حلاوته تَفْنَى ويبقى مريزُها

وكان المهدي رقيقاً فبكى، وقال: يا مفضل، كيف حالك؟ فقلت: كيف يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم، وليس معه منها درهم واحد، قال: يا إسحاق، أعطه عشرة آلاف درهم قضاء لدينه، وعشرة آلاف درهم يستعين بها على حاله، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه.

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الخنساء، تطوفُ بالبيت محلوقةَ الرأس، تبكي وتلطم خدها، وقد علّقت نعل صَخْرٍ في خمارها، فوعظها فقالت: إني رُزئت فارساً لم يُرْزَأَ أحدٌ مثله، فقال: إن في الناس من هو أعظم مرزأة منك، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله، وإنه لا يحلّ لك لطم وجهك ولا كشف رأسك، فكفّت عن ذلك وقالت: [الوافر]

هَرِيقِي مِنْ دُمُوعِكَ واستفيقي وقُولِي إنَّ خَيْرَ بني سُلَيْمٍ
ألا هَلْ تَرْجِعُنَّ لَنَا الليالي وإذ فينا معاوية بن عمرو
فنبكيه فقد أودى حميداً فنبكيه فقد أودى حميداً
فلا والله لا تَسْلُوكِ نفسِي فنبكيه فقد أودى حميداً
ولكنني رأيت الصبر خيراً من الثَّغْلين والرأس الحليق
وصبراً إنَّ أَطْفَتِ وَلَنْ تُطِيقِي^(٢) وأكرمهم بصحراء العقيق
وأيامٌ لنا يَلُوى الشَّقِيقِ وأيامٌ لنا يَلُوى الشَّقِيقِ
على أذماء كالجمال القنيق أمين الرأي محمود الصديق
لفاحشة أتيت ولا عُقُوقٍ لفاحشة أتيت ولا عُقُوقٍ
من الثَّغْلين والرأس الحليق من الثَّغْلين والرأس الحليق

وأما أبو العباس المبرّد فقال: وقالت الخنساء ترثي أخاها معاوية بن عمرو، وكان أخاها لأبيها وأمها، [وكان صخر أخاها لأبيها] وكان أحبهما إليها.

(١) يروى البيت الثاني:

وكائن ترى من حال دنيا تغيّرث وحالٍ صفا بعد اكدرارٍ غديرها

وهو لابن المطير الأسدي في لسان العرب (كدر)، وتاج العروس (كدر).

(٢) الأبيات في ديوان الخنساء ص ١٧٣.

واستحق ذلك الأمور: منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود، معروفاً بالتقدم والشجاعة، محظوظاً في العشيرة، ثم أنشد الأبيات المتقدمة.

وكان صخر أجمل رجل في العرب، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً، أغار على بني أسد بن خزيمة، فنذروا به والتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فإرفض أصحاب صخر عنه، فطعنه ربيعة بن ثور الأسدي، فأدخل جوفه حلقاً من الدرع، فاستقل منها وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح، ونتأ منه مثل اليد، فأضناه ذلك حولاً، فسمع سائلاً يقول لامرأته: كيف صخر اليوم؟ فقالت: لا حي فيرجى، ولا ميت فينعى، ولقد لقينا منه الأمرين - وامرأته بديلة الأسدية وكان سبأها من بني أسد، واتخذها لنفسه - فلما سمع قولها علم أنها برمت منه، ورأى تحزن أمه عليه، فقال: [الطويل]

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ لَا تَجْفُ دُمُوعُهَا وَمَلْتُ سُلَيْمَى مُضْجِعِي وَمَكَانِي^(١)
وما كنت أخشى أن أكون جنازة عليك، ومن يغتر بالحدثان
أَقِم بِأَمْرِ الْحَزْمِ لَوْ أَسْتَطِيعُهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزَوَانِ
لَعَمْرِي قَدْ نَبَّهْتُ مِنْ كَانَ نَائِماً وَأَسْمَعْتُ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ
فَأَيُّ امْرِئٍ سَاوَى بَأْمٍ حَلِيلَةٍ فَلَا عَاشَ إِلَّا فِي شَقَى وَهَوَانِ
ثم عزم على قطع ذلك الموضع، فلما قطعه يش من نفسه، فقال: [الطويل]

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخَطُوبَ قَرِيبُ عَلَى النَّاسِ، كُلِّ الْمَخْطُئِينَ تَصِيبُ
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلِّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ
فلما مات دفن في أرض بني سليم بقرب عَسِيب.

وحضرت الخنساء القادسية مع بنيتها وهم أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو؛ إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعملون ما أعد الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَبِّطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا أصبحت غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا لقتال عدوكم مستبصرين، وبالله على

(١) البيت الثاني لصخر بن عمرو في الأغاني ٧٦/١٥، وبلا نسبة في لسان العرب (جنز)، وتهذيب اللغة ٦٢٢/١٠، وكتاب العين ٧٠/٦، ومقاييس اللغة ٤٨٥/١، والبيت الثالث لصخر أيضاً في الأصمعيات ص ١٤٦، وخزانة الأدب ٤٣٨/١، والشعر والشعراء ٣٥٢/١، ولسان العرب (نزا)، وبلا نسبة في مغني اللبيب ٥١٦/٢، والمنصف ٦٠/٣، والبيت الرابع بلا نسبة في كتاب العين ٤/٦٠.

أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتهم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجلّت ناراً على أوراقها، فتيّموا وطيسها وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار اللخلد والمقامة، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد يُنشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم، حتى قُتلوا عن آخرهم، فبلغها الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة.

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيتها الأربعة، وكان لكلّ منهم مائتا درهم، حتى قبض رضي الله تعالى عنه.

وقوله: قعيّدة رحلي، أي امرأة بيتي، وناقّة طروقة: بلغت أن يطرقها الفحل. وأنفت. استنكفت وكرهت.

قال: فتذمرت المرأة وتنمرت، عن ساعدها وشمرت، وقالت له: يا ألام من مادر، وأشام من قاشير، وأجبّن من صافير، وأطيش من طامر؛ أترميني بشنارك، وتفرّي عريض بشيفارك، وأنت تعلم أنك أحقر من قلامه، وأغيب من بغلة أبي دلامة، وأفضح من حبة، في حلقة، وأحير من بقّة في حقة.

وهبك الحسن في وعظه ولفظه، والشعبي في علمه وحفظه، والخليل في عروضه ونحوه، وجريراً في غزله وهجوه، وقساً في فصاحته وخطابته، وعبد الحميد في بلاغته وكتابه، وأبا عمرو في قراءته وإعرابه، وابن قريب في روايته عن أعرابه؛ أتظنني أرضاك إماماً لمحرابي، وخُساماً لقرابي، لا والله ولا بواباً لبابي، ولا عصاً لجرابي.

تذمرت: غضبت، وتذمر الرجل، إذا رأى ما يكرهه فغضب وتهذد. والذمر: اللوم والحض، وذمر قائد الجيش أصحابه يذمرهم، إذا لامهم وأسمعهم ما يكرهون ليجدوا في القتال، تنمرت: تغيّرت وتشبهت بالنمر، ولا يوجد النمر إلا مستنكراً غضبان، ونمر الرجل وتنمر: تنكّر وتغيّر. حسرت عن ساعدها: شمرت عن ذراعها. أطيش: أخف والطيش: خفة العقل.

والطامر: البرغوت، يقال له طامر بن طامر، قال الأصمعي: كنت بالبادية فرأيت أعرابياً قد بسط كساءه ليفليه في الشمس، فوقف أنظر إليه، فجعل يأخذ البراغيث، ويدع القمل، فقلت له: لم تأخذ بعضاً وتدع بعضاً؟ فقال: أبدأ بالفرسان ثم أعكر على الرجالة.

سمع رسول الله ﷺ رجلاً يسبُّ برغوثاً، فقال: «لا تسبه فإنه نبيّ نبيّاً من الأنبياء لصلاة الفجر».

أبو الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا آذاك البراغيث، فخذ قَدْحاً من الماء، واقرأ عليه سبع مرات، ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢] إلى قوله: ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فكفّوا شرّكم وأذاكم عنا، ثم ترشّ الماء حول فراشك، فإنك تبيت الليلة آمناً من شرّها».

شنارك: عيبك وعارك: تفري: تقطع، وفري، يستعمل في القطع على جهة الإصلاح، وقد جاء هنا في الإفساد، ومنه قوله الشاعر: [الطويل]

فَرَى نَائِبَاتُ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَصَزَفَ اللَّيَالِي مِثْلَ مَا فَرَى الْجِلْدُ

ابن سيده: فَرَى الشيء يفريه فرياً وفراًه تفريّة، كلاهما شقه وأفسده وأفراه أصلحه، والمتقنون من أهل اللغة، يقولون: فرى: شقّ الإفساد وأفري للإصلاح وقيل: أفراه أفسده، وفراه: قطعه للإصلاح قال الأصمعي رحمه الله؛ أفري الجلد مزقه وأفسده، يفريه إفراء، وفري المزايدة يفريها فرياً: خرزها، القلامة: ما يقص من الظفر، وبها يتعلق وسخه، فهي مع حقارتها مستقدرة.

[أبو دلامة]

وأما أبو دلامة، فاسمه زند - بالنون - ابن الجون، وهو كوفي أسود، مولى لبني أسد، أدرك آخر أيام بني أميّة، ونبغ في أيام بني العباس، ومدح السّفاح والمنصور والمهدي، وكان صاحب نوارد ومُلَح، وكان خليعاً فاسد الدين، رديء المذهب، وقد تقدّم له شيء من ذلك في الصّلاة والحجّ، ونذكر له هاهنا شيئاً في الصيام، ونضيف له فنوناً من سائر مُلحه.

وأما بغلته فكانت جامعة لعيوب الدوابّ كلها، وكانت أشوة الدوابّ خِلقةً في منظر العين وأسوأها خلقاً في مخبرها، فكان إذا ركبها تبعه الصبيان يتضحكون به، وكان يقصد ركوبها في مواكب الخلفاء والكبراء، ليضحكهم بشماسها؛ حتى نظم فيها قصيدته المشهورة وهي: [الوافر]

أُبْعِدَ الْخَيْلَ أَرْكَبُهَا كَرَاماً	وَبَعْدَ الْفُرْهِ مِنْ مَنْ حُضِرَ الْبَغَالِ
رُزِقْتُ بُغْيِلَةً فِيهَا وَكَالٌ	وَلَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ الْوِكَالِ
رَأَيْتُ عِيوبَهَا كَثُرَتْ وَغَالَتْ	وَأَنْ أَكْثُرْتُ ثُمَّ مِنَ الْمَقَالِ
لِيَحْصِيَ مَنْطِقِي وَكَلَامَ غَيْرِي	عُشِيرَ خَصَالِهَا، شُرَّ الْخَصَالِ
فَأَهْوَنَ عَيْنِهَا أَنِّي إِذَا مَا	نَزَلْتُ وَقَلْتُ: أَمْشِي لَا تُبَالِي
تَقُومُ فَمَا تَبُتْ هُنَاكَ شَبِراً	وَتَزْمُحْنِي وَتَأْخُذُ فِي قَتَالِي

وَحِينَ رَكِبْتُهَا أَذِيَتْ نَفْسِي
وبالرجلين أركضها جمعاً
أتاني خائبٌ يَسْتَأْمُ مني
وقال تبيعُها؟ قلتُ ارتبَطُها
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً
هلم إلي يَخْلُو بي خِداً
فقلت بأربعين فقال أحسن
فأتركُ خمسةً منها لعلمي
فلما ابتاعها مني وبُتَّت
أخذتُ بثوبه وبرئتُ ممّا
برئتُ إليك من مَشَشٍ قديم
ومن فَتَقٍ بها في البطن ضخم
ومن قطع اللسان ومن بياضٍ
ومن عض الغلام ومن خراطِ
وأقطى من فُريخ الذر مشياً
وتكسرُ سراجها أبداً شماساً
ويُذبرُ ظهرها من مَسِّ كفٍ
تظل لِرَكِيبةٍ منها وقيداً
ومثفازٌ تقدّم كل سرج
وتَحَفَى لو تسيرُ على الحشايا
إذا استعجلتها عَثَرَتْ وبالث
وتضربُ أربعين إذا وقفنا
فتقطع منطقي وتحول بيني
وتدعُرُ للدجاجة إذ تراها
فأما الاعتلاف فأذن منها
وأما القَتَّ فأت بألف وقرٍ
فلسْتُ بعالفٍ منها ثلاثاً
وإن عطشت فأوردها دُجَيْلاً
فذاك لريّها سُقيتُ حميماً

بضربٍ باليمين وبالشمالِ
فيا لك في الشقاء وفي الكلالِ
عريق في الخسارة والضلالِ
بحكمك إن بيعي غَيْرَ غالٍ
وقال أراك سهلاً ذا جمالٍ
وما يدري الشقيّ بمن يُخَالِي
إليّ فإن مثلك ذو سِجَالٍ
بما فيه يصيرُ من الخبالِ
له في البيع غير المُسْتَقَالِ
أعدّ عليه من سوء الخلالِ
ومن جرّدٍ ومن بللِ المخالي
ومن عُقالها ومن إنفَتالِ
بعينيتها ومن قرض الحبالِ
إذا ما همّ صحبك بارتحالِ
بها عَمَرَنَ وداء من سُلالِ
وتقمص للإكاف على اغتيالِ
وتهزم في الجمام وفي الجلالِ
يخاف عليك من ورم الطحالِ
تصيرُ دَفْنِهِ على القَذالِ
ولو تمشي على دَمِ الرّمالِ
وقامت ساعة عند المبالِ
على أهل المجالس للسؤالِ
وبين حديثهم فيما توالي
وتنفر للمصفير، وللخَيالِ
من الأتبان أمثال الجبالِ
بأعظم حملِ أحمال الجمالِ
وعندك منه عودٌ للخلالِ
وإذا أوردت أو نهري بلالِ
وإن مذ القُرات فللنّهالِ

وكانت قارحاً أيام كسرى وتذكُرُ تُبْعاً عند الفِعالِ
وقد دَبَرْتُ ونُعمانُ صبي وقَبِلَ فصاله تلك الليالي
وتذكُرُ إذ نشأ بهرام جور وعامِلَه على خَزج الجوالي
وقد مَرَّت بِقَرْنٍ بعد قَرْنٍ وآخرُ عهدا لهلاك مالي
فأبدلني بها يا رب طرَفاً يزين جمال مشيته جَمالي

وأنشدها المهدي: فقال: لقد أقلت من بلاء عظيم، فقال: والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهراً أتوقع صاحبها أن يردها، فقال المهدي لصاحب دوابه: خيِّره بين مركبين في الإصطبل، فقال: إن كان الاختيار إليّ فقد وقعت في شرٍّ من البغلة، ولكن مره يختار لي، ففعل.

وفي القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها، فمنها يقال: واكَلَتِ الدابة وكالا: أساءت السير. ورمحت ترمح: ضربت برجليها والمشش: داء في قوائمها. والجرد استرخاء العصب، والعُقَال: أن تنقبض القوائم ولا تنبعث، والخِرَاط: الجماح، والعَرَن: حكة وشقاق في القوائم، وقد عرن عَرَنًا، وقمص يقمص ويقمص قمصاً وقمصاً: رفع يديه معاً وطرحهما معاً، وعجن بيديه، وقطا بقطو: قارب الخطو.

وكان لأبي دلالة بِرْذُونٌ أعجف محطم هَرَم، فدخل على المهدي يوماً وبين يديه سَلَمَة الوصيف، فقال: يا أمير المؤمنين، إني جلبت لبابك مهراً ليس لأحد مثله، وأحببت أن أهديه لك، فإن أحببت أن تشرفني بقبوله! فأمر بإدخاله، فخرج وأدخل برذونه، فقال له المهدي: أي شيء هذا ويلك! ألم تزعم أنه مُهر، فقال له أبو دلالة: أو ليس هذا سلمة الوصيف قائم بين يديك تسميه الوصيف وله ثمانون سنة! فإن كان سَلَمَة وصيفاً فهذا مُهر، فجعل المهدي يضحك وسَلَمَة يشتمه، فقال له المهدي: ويلك! إن لهذه أخوات، والله ليضحكن بك في المحافل، فقال: والله يا أمير المؤمنين لأفضحنه، فليس في مواليك أحد إلا وقد وصلني غيره، فما شربت الماء له قطّ فحكم عليه المهدي أن يشتري نفسه بثلاثة آلاف درهم، فقال له سلمة، على ألا تعاود، فقال أبو دلالة: أفعَل، فحملها إليه.

ومما ينتظم بهذا النمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حملَ أبا العيناء على فرس، فكتب إلى أبيه: أعلم الأمير أعزه الله أن أبا محمد أراد أن يبرّني فعقّني، وأن يُركبني فأرجلني، وأمر لي بدابة تقف للتبيرة، وتعثر بالبعرة، كالقضيبي اليابس عجفاء، وكالمهجور البائس دنفاء، قد أذكر الرواة عروة العذري والمجنون العامري، مباعداً أعلاه لأسفله، حباقة مقرون بسعالة، فلو أمسك لترجيئت، ولو أفرد لتعزيت، ولكنه يجمعها في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد، يضحك من فعله التَّسْوَان، ويتناعى من أجله الصبيان، فمن صائح يصيح: داوه بالطباشير، ومن قائل

يقول: نَقَّ له الشعر، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار، ولحق العلماء في الأمصار، فلو أعين بنطق لروى بحق وصدق، عن جابر الجعفي وعامر الشعبي، ولم أوت من أمر الأمير أعزه الله وإنما أُتيت من كاتبه الأعور؛ الذي إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر، فإن رأى الأمير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما أضحك متي، يمحو بحسنه وفراسته، ما سطره العيب بقبحه ودناءته، ولست أذكر سرجه ولجامه، لأن الأمير أكرم من أن يسلب ما يهديه، وينقص ما يمضيه. فوجه إليه ببرذون بسرجه ولجامه، ثم اجتمع بابنه محمد عنده، فقال له عبيد الله: شكوت دابة محمد، وقد أخبرني أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار، وهذا ثمنه لا يؤخر عنك، فقال: أعز الله الوزير! لو لم أكذب مستزيداً، لم أذهب مستفيداً، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوِدُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

وقال ابن رشيق في بغل: [الرجز]

أَوْصِيكَ بِالْبَغْلِ شَرًّا
لَا يَصْلُحُ الْبَغْلُ إِلَّا
كَالْعَبْدِ إِنْ لَمْ تُهَيْئْهُ
مَا اعْتَاضَ بَغْلًا بِطَرْفٍ
وله أيضاً فيه: [الطويل]

فَأَوْصِيكُمْو بِالْبَغْلِ شَرًّا فَإِنَّهُ
وَكَيْفَ يَجِيءُ الْبَغْلُ يَوْمًا بِحَاجَةٍ
وله من قصيدة: [الكامل]

أَوْ بَغْلَةٍ سَفَوَاءَ تَعْرِضُ لِلْفَتَى
سَأَلْتُ إِلَى الْأُمِّ النِّجَابَةَ مِنْ أَبِي
وَكَأَنَّهَا قَدْ أَفْرِغَتْ فِي قَالِبٍ
وله من قصيدة أيضاً: [المقارب]

كَأَنِّي بَعْضُ نُجُومِ السَّمَاءِ
عَلَى رِسَالَةٍ مِنْ هِبَاتِ الْمَلُوكِ
تَعَاوَنَ فِي جَذْلِ أَعْضَائِهَا
تَصَعَّدَ فِي الْجَوِّ ثُمَّ انْحَدَرَ
لِ سَفَوَاءَ مَلْمُومَةٍ كَالْحَجَرِ
بَنُو أَخْدَرٍ وَبَنَاتُ الْأَغَرِ

ولمحمد بن يسير الخارجي في بغلة: [الكامل]

نَزَعْتُ عَنِ الْخَيْلِ الْعَتَاقَ نَجَاءَهَا
قَحَّةٌ وَطُولُ صَبَارَةٍ وَمِرَانٍ
مِنْهَا وَعِثْقَ سَوَالِفٍ وَلَبَّانٍ
وَلَهَا مِنَ الْأَعْيَارِ عِنْدَ مَسِيرِهَا

رجعنا إلى أخبار أبي دلامة.

يحكى أنّ المهديّ أو المنصور - أنشده ما أعجبه، فكساه طيلساناً وأمر له بمال، وعاهده ألاّ يشرب الخمر، فحلف له وخرج إلى بني داود بن عليّ فضحكوا به. وقصّ عليهم خبره فسقوه حتى أسكروه وأخرجوه، فأعلم المهديّ الخبر، فأرسل فيه، وأمر الرسول بسجنه وتخريق ساجّه، وألاّ يمكن من قرطاس ولا مداد، ففعل به الرسول ذلك، فانتبه في جوف الليل فنادى جاريته فقال له السجان: طعنة في كبذك فقال له: ويلك! مَنْ أنت، وأين أنا؟ فقال له: سلّ نفسك أين كنت عشاء أمس؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال: أنا السّجان، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سكران، فأمرني أن أحبسك مع الدجاج، فقال: أحبّ أن تُسرج لي سراجاً، وتأتيني بدواة وقرطاس، ولك عندي صِلة، فقال له أما السّراج فنعم، وأما القرطاس والدواة، فقد أميزت ألاّ أمكنك منهما. فلما أناه بالسّراج وجد ساجّه مخرقاً ملطخاً بإزبال الدجاج، ورأى نفسه جالساً بينها، فقال له: ادع لي ابني دلامة، فدعاه، فأمره أن يجيّد حلاقة رأسه، وأن يأتيه بقُحمة، ففعل، فكتب على رأس ابنه: [الوافر]

كأنّ شعاعها لهبُ السّراج	أمن صهباء صافية المزاج
إذا برزت تشرق في الرّجّاج	تهشّ لها القلوب وتستهيها
كأنّي بعض عمال الخراج	أقاد إلى السجون بغير جرم
ولكنّي حبست مع الدّجاج	ولو معهم حبست لكان خير
فقيم حبستني وخرقت ساجي	أمير المؤمنين فدتك نفسي
لخَيْرِكَ بعد ذاك الشرّ راجي	على أني وإن لاقيت شراً

ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذه أمانة، فإذا قرأتها فمزق الرقعة. ثم أمر دلامة أن يدخل على أمير المؤمنين ويقرئه ما في رأسه، فأتى الباب وصاح: دعوة المظلوم، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله، فكشف رأسه، وقال: إن ظلامي مكتوبة في رأسي، فأذني منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكّه، وعجب من حيلته وأمر بإخراجه، وقال: ما كان أحوج هذه الرقعة أن تُمزق، ثم وصله بصلة، ونهاه أن يوجد سكران.

وخرج المهديّ يتصيد ومعه عليّ بن سليمان، فسنّح له قطع من الطّباء، فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل، فرمى المهديّ سهماً فصرع ظبياً، ورمى عليّ بن سليمان سهماً فصرع كلباً، فقال أبو دلامة: [الرمّل]

شَقَّ بالسَّهْمِ فُؤَادَهُ	قَدْ رَمَى المهديّ ظبياً
نَ رَمَى كَلْباً فَصَادَهُ	وعليّ بن سليماً
يَ يَكُلُّ زَادَهُ	فهنيئاً لهما كلُّ امر

فضحك المهدي حتى كاد يسقط .

ومن ملحه، أنه دخل على المهدي، وعنده وجوه بني هاشم، فقال: أنا أعطى الله عهداً لئن لم تهجّ واحداً ممن في البيت لأقطعن لسانك، فنظر إلى القوم، فكلماً نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاء، قال: فعلمت أنني وقعت، وأنها عزمة من عزماته لا بدّ منها، فلم أر أدعى إلى السّلامة من هجاء نفسي، فقلت: [الوافر]

ألا أبلغ لديك أبا دلامة	فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة كان قرداً	وخنزيراً يكون بلا عمامة
جمعت دمامة وجمعت لؤماً	كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا	فلا تفرخ فقد دنت القيامة

فضحكوا، ولم يبق أحد إلا أجازّه .

وخرجت له صبيّة فأخذها على كتفه، فبالت عليه فرمى بها، وقال: [الوافر]

بللت عليّ - لا حييت - ثوبي	فبال عليك شيطان رجيّم
فما ولدتك مريم أم عيسى	ولا ربّاك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمّمك أم سوء	إلى لبّاتها وأب لئيم

ولما خرجت الخيزران إلى الحج تلقّاه، فصاح: الله الله في أمري! فسألته عن أمره فقال: إني شيخ كبير، وأجرك فيّ عظيم، تهبّين لي جارية تؤنّسني وترفّق بي، وتريحني من عجوز عندي، قد أكلت رِفدي، وأطالت كذي، وقد عزف جلدّها جلدي، وتمتّيت بُعدها، وتشوقت فقدها، فوعدهت بها، فلما جاءت من الحجّ دخل على أم عُبيدة حاضنة موسى وهارون، فدفع إليها رقعة، فدفعتها إلى الخيزران وفيها: [مجزوء الرمل]

أبلغني سيّدتني إن	شئت يا أم عبيدة
أثّها أرشدها الله	وإن كانت رشيده
وعدثني قبل أن تخرّ	ج للـحجّ وليده
إنني شيخ كبير	ليس في بيتي قعيده
غير عَجْفَاء عجوز	ساقها مقل القديده
وجها أقبح من حو	ب طريّ في عصيده
ما حياتي - مع أنثى	مثل عرسي - بحميده

فضحكت واستعادت «حوتاً في عصيده» وهي تضحك، ثم قالت لجارية: خذي ما عندك في قصري وأمشي إليه. فلما بلغها الرسول منزله لم يجده، فدفعها إلى امرأته، ودخل دلامة وأمة تبكي، فسألها فأخبرته وقالت: إن أردت بري يوماً من الدهر، فاليوم .

قال لها: قولي ما شئتِ أفعله، قالت: تدخل إليّها، وتُعَلِّمها أنّك مالِكها، فتطوُّها فتحرمُ عليه، وإلّا شغلته فجفاني وجفاك. ففعل، وجاء أبو دلامة فسألها عنها، فقالت: هي في ذلك البيت، فدخل ومدّ يده إليها، وذهب ليقبّلها، فرأت شيخاً محطّماً قبيح الوجه، فقالت: تنخ وإلّا لطمتك لطمَةً دَقَقْتُ بها أنفك. فقال: وبهذا أوصتكَ سيدتك؟ فقالت: إنها بعثتني إلى فتى من صفته كذا وكذا، وقد نال حاجته مني آنفاً. فعلم أنه دهاء من دلامة وأمه، فخرج ولطمه ولَبَّيه. وحلف ألا يفارقه إلّا إلى المهديّ، فمضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهديّ، فقال له: ما بالك ويحك! فقال له: عمل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعملهُ أحدُ أبائيهِ، ولا يرضيني إلّا أن تقتله، وأخبره الخبر. فضحك المهديّ حتى استلقّى، وأبو دلامة يقول: يعجبك فعله، فتضحك منه! فقال: عليّ بالسيف والنّطع، فقال دلامة: اسمع حجتي يا أمير المؤمنين، كما سمعتُ حُجَّتَه، فقال: هات، فقال: هذا الشيخ أصفقُ الناس وجهاً، وهو ينيك أُمي منذ أربعين سنة فما غضبت، ونكّت جاريته مرة واحدة فغضب. فضحك المهديّ أشد من ضحكه الأوّل، فقال: دعها له [يا أبا دلامة]، وأنا أعطيك خيراً منها، فقال: على أن تخبأها بين السماء والأرض، وإلّا ناكها كما ناك هذه، وحلف لدلامة إن عاد ليقتلّه.

وجاء دلامة لأبيه في محفل، وجلس بين يديه، وقال للجماعة: إنّ شيخي كما ترون قد كبر سنّة، ورقّ جلده ودقّ عظمه، وبنا إلى حياته حاجة، وأنا لا أزال أشير عليه بشيء يُمسِك رَمَقَه، ويبقي قوَّتَه؛ فيخالفني. وأرغب إليكم أن تسألوه قضاء حاجة فيها صلاح جسمه، فقالوا: حبّاً وكرامة، فأخذوا أبا دلامة بالسنتهم، فقال: قولوا له الخبيث فليقل ما يريد، فستعملون أنه لم يأت إلّا ببليّة. فقال: إنما يقتله كثرة الثّيك، ولا يدفعه عنه إلّا الخصاء، فتعاونوني عليه حتى أخصيه، فضحكوا منه كثيراً، وقالوا لأبيه: قد سمعتُ فما عندك؟ فقال: قد عرّفتكم أنّه لم يأت بخير، وقد جعلتُ أمه حكماً بيني وبينه، فقوموا إليها، فدخلوا عليها وقصّوا القصّة عليها، فأقبلت على الجماعة وقالت: إنّ ابني أبقاه الله، قد نصح أباه وبرّه، وأنا إلى بقاء أبيه أحوج منه إليه؛ إلّا أنّ هذا الأمر لم تقع فيه تجربة عندنا، ولا جرت به عادة، وهو قد ادّعى معرفة ذلك، فليبدأ بنفسه فليخصّها، فإذا عوفي ورأينا ذلك قد أبقي عليه أثراً محموداً، استعمله أبوه على علم، فجعل القوم يضحكون ويغجّبون من اتّفاقهم في الخُبث.

وأمره المهديّ أن يلزم المسجد في رمضان، وقال له: إن تأخّرت فلشرب الخمر، ولئن علمتُ ذلك لأقتلنك، فشق عليه ذلك، وتشقّع إليه بكل إنسان، فلم يشفعه، فأدخل إلى رِيْطه رقعة، وكان المهديّ لا يخالفها - وفيها: [الوافر]

أبلغا رِيْطه أني كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه الله وأوصى بي إليها

جاء شهرُ الصومِ يمشي مشيةً لا أشتهيها
قائداً القلعة ليذ ركائي أبتغيها
تنطح القبلة شهراً جنبهتي لا تأتليها
فاطلبي لي فرجاً من ها وأجري لك فيها
فضحكت، وقالت: يصبر حتى تمضي ليلة القدر، فقال: إذا مضت ليلة القدر فيني الشهر. وكتب إليها: [الرمل]

خافي إليك في نفسٍ قد اخضرت قامت قيامتها بين المصلينا
ما ليلة القدر من همي فاطلبها إني أخاف المنايا قبل عشرينا
لا بارك الله في خير أو مله في ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا
يا ليلة القدر قد كسرت أرجلنا يا ليلة القدر حقاً ما تمنينا!
فلما قرأتها ضحكت، ودخلت إلى المهدي فشفعها فيه. وأخباره كثيرة.

* * *

وعلى قوله: جاء شهر الصوم قال أبو القاسم الثعالبي: أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون: [الهج]

أشهر الصوم ما مثلك عند الله من شهر
على أنك حرمت علينا لذة السكر
وقزع الكأس بالكأس ورشف الثغر بالثغر
وإنني والذي شر فأوقاتك بالذكر
وما أمسى يصلي في ك من شفع ومن وثر
لمسرور بأن تفني على أنك من عمري
وقال ابن المعتز: [المقارب]

تجلى عشاء هلال الصيام بنحس على الكأس والبربط
وكم من فتى راح بين القيا ن نيشوان ذا فرح مفريط
وكان نشيطاً فلما رآ هم بهم ولم ينشط
فأعرض عنه كما أغرقت فتاة عن الجانب الأسمط
وقال ابن رشيق: [الخفيف]

لاخ لي حاجب الهلاك عشاء فتمنيت أنني من سحاب
قلت أهلاً وليس أهلاً لما قل ت ولكن أسمعها أصحابي

مظهرٌ حُبّه وعندِي بُغْضٌ لعدوّ الكؤوس والأكوابِ
الحَبْنَةُ: الضَّرْطَةُ، والحَلْفَةُ جماعة الناس، وربما تؤدّي فضيحتُها أمام القوم إلى أن يموتَ صاحبها غمًّا، وقد وُجد ذلك.

[طرائف متفرقة]

وَحَبَّقَ أَعْرَابِيٌّ فِي جَمَاعَةِ فَاسْتَحْيَا، فَأَشَارَ نَحْوَ اسْتِهِ، وَقَالَ: إِنَّهَا خَلْفَ نَطَقَتْ خُلْفًا.

وذكر الحريري أن مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية كانوا يشربون ذات يوم، ومعهم نديم لهم، فبرزت منه قُلْتَة، فخجل وغاب عنهم أياماً، فكتب إليه مطيع: [البسيط]

أَمِنْ قُلُوصٍ غَدَتِ لَمْ يُوْذِهَا أَحَدٌ إِلَّا تَذَكَّرَهَا بِالرُّمْلِ أَوْطَانَا
خَانَ الْعِقَالَ لَهَا فَانَبَتَ إِذْ تَفَرَّتْ وَإِنَّمَا الذَّنْبُ فِيهِ لِلَّذِي خَانَا
أَظْهَرْتَ مِنْكَ لَنَا هُجْرًا وَمَعْتَبَةً وَغَبْتَ عَنَا ثَلَاثًا لَسْتَ تَغْشَانَا
هَوْنٌ عَلَيْكَ فَمَا فِي النَّاسِ ذُو إِبِلٍ إِلَّا وَأَيْنَقَهُ يَشْرُذَنَ أَحْيَانَا

دخل أبو الفضل بديع الزمان على الصّاحب بن عبّاد، ففرح به، وأجلسه معه على سريرة فَحَبَّقَ البديع حَبْنَةً منكّرة، ثم أراد أن ينفي عن نفسه التّهمة، فقال: يا مولانا هذا صرير التّخت، فقال له: بل صفير «التّحت»، فخرج البديع خجلاً، وانقطع عن الوصول إليه فكتب إليه الصّاحب: [البسيط]

قُلْ لِلصَّفِيرِ لَا تَذْهَبْ عَلَى خَجَلٍ مِنْ ضَرْطَةٍ أَشْبَهَتْ نَايَا عَلَى عُودٍ
فَإِنَّهَا الرِّيحُ لَا تَسْطِيعُ تَدْفَعُهَا إِذْ لَسْتَ أَنْتَ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ

تزوَّجَ أَعْرَابِيٌّ امْرَأَةً، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا عَابَثَهَا، فَضَرَطَتْ، فَخَرَجَتْ غَضْبِي إِلَى أَهْلِهَا، وَقَالَتْ: وَاللّهِ لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِ أَوْ يَفْعَلُ مَا فَعَلْتُ، فَقَالَ لَهَا: عُودِي لِأَفْعَلْ، فَعَادَتْ، فَعَابَثَهَا فَضَرَطَتْ أُخْرَى، فَقَالَ: [السريع]

طَالِبْتَنِي دَيْنًا قَدِيمًا فَلَمْ أَقْضِيكَ حَتَّى زِدْتَ فِي قَرْضِكَ
فَلَا تَلُومِينِي عَلَى مُطْلِهِ إِنْ كَانَ ذَا دَابَّكَ لَمْ أَقْضِكَ

قيل لأعرابي: ما تقول في الضرطة؟ فقال: لا بأس بها، وربما سببت الضرطة وأنا راکع في الصلاة.

قدم أبو علقمة الأزدي على الفضل بن عبد الرحمن الهاشمي بالبصرة، فقال: الفضل لجلسائه: إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرب أحدكم ثم الآخر ثم

الآخر، وليكن بين كلّ ضرطتين فرجة، فلما وُضعت المائدة فعلوا ذلك، فأخذ أبو علقمة المائدة، وقام بها، فقيل له: إلى أين يا أبا علقمة؟ قال: إلى الكنيف، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريباً.

وجلس ثقيل إلى بشار، فضرط بشار ضرطّة منكراً، فظن الرجل أنها فلتة، فمشى في حديثه، فضرط بشار ثانية وثالثة، فقال له: ما هذا يا أبا معاذ؟ قال: رأيت أو سمعت؟ قال: قال: بل سمعت، كلّ ما سمعت ريح لا تصدق حتى ترى.

قوله: حُقه، أي وعاء الطيب، ويقال له: حقّ والجمع حقاق، وتبدل عامتنا من قافه كافا، والروائح العطرة مضرة بهذه الهوام الممتنة، وقد قال المتنبي: [البيسط]

بذي العباوة من إنشادها ضررٌ تضرّر كما تضرّر رياح الورد بالجعل^(١)
قوله هبك، أي حسبك.

[الحسن بن أبي الحسن البصري]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبي الحسن البصريّ، وهو من التابعين. ولد بالمدينة لستين بقيتاً من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأمّه اسمها خيرة، وكانت مولاة لأمّ سلمة زوج النبي ﷺ، فكانت تُغطيها ثديها إذا اشتغلت أمه، فدرّ ثديها له باللبن، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه. وأبوه مولى لامرأة من الأنصار، وقيل إن أبويه كانا مملوكين لرجل من بني النجار، فتزوج امرأة في بني سلمة من الأنصار، فساقهما إليها من مهرها فأعتقتهما، وكان أحسن الناس لفظاً، وأبلغهم وعظاً، وكان زاهداً عالماً مقدماً في العلم والدين على نظرائه من التابعين.

وكان الحجاج له معظماً ومتعجباً من فصاحته، ولم ينفك من مجلس وعظ أو تدريس علم، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت قطّ أوعظ ولا أفصح من الحسن البصريّ.

وقال أبو أيوب السخيتاني: ما سمع أحد كلام الحسن البصريّ إلا ثقل عليه كلام الرجال.

قال حميد: قال لي الشعبي ونحن بمكة: أحب أن اختلي بالحسن، فقلت: ذلك للحسن، فقال: إذا شاء، فجاء الشعبي، فقلت له: ادخل عليه، فإنه في البيت وحده،

فقال: أحب أن تدخلَ معي، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القبلة يقول: يا بن آدم، لم تكن فُكُوتَ، وسألت فأعطيت، وسئلت فمُنعت، فبئس ما صنعت! ثم يذهب فيرجع بُعيد ذلك حتى أعادها مراراً، فقال لي الشعبي: يا هذا انصرف فإن الشيخ في غير ما نحن فيه. ولما دخل على الحجاج فقال له: ما تقول في عليّ وعثمان؟ قال: أقول فيهما ما قال مَنْ هو خيرٌ مني بين يدي مَنْ هو شرُّ منك، قال: وَمَنْ ذلك؟ قال: موسى وفرعون حيث قال له فرعون: ﴿فَمَا بِالْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ [طه: ٥١].

الشعبي قال: قدما على الحجاج في البصرة في جماعة من قُرَاء الشام والعراق في يوم صائف شديد الحرّ، وهو في آخر ثلاثة أبيات، فدخلنا الأوّل فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه، وفي الثاني أكثر وفي الثالث أكثر، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه فجلسنا على الكراسي، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَلَ، فقال الحجاج: مرحباً بأبي سعيد! خلع قميصك، فجعل الحسن يعالج زرّ القميص فأبطأ به، فطأطأ له الحجاج رأسه تَلُطُفاً به حتى حلّه، وجاءت جاريةً بدُهنٍ فوضعت على رأس الحسن وحده، فقال له الحجاج: يا أبا سعيد، ما لي أراك منهوَك الجسم، لعلّ ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية! ألا نأمر لك بنفقة توسّع بها على نفسك، وخادم لطيف! فقال: إني من الله تعالى لفي سعة ونعمة وإني منه لفي عافية، ولكن الكبر والحرّ، فأقبل الحجاج على عنبسة، وقال: لا والله، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه، فلم يسمعها الحسن، وسمعتها أنا لقُزبي من عنبسة، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه وبلّنا منه مرضاةً له، وفَرَقاً من شرّه، والحسن عاضٌ على إبهامه، فقال له: ما لي أراك ساكتاً؟ فقال: وما عسى أن أقول: فقال: أخبِرنا برأيك في أبي تراب، قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقَبِيلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] فعليّ مَنْ هدى الله، ومن أهل الإيمان وابن عمّ نبي الله ﷺ وختنه على بنته، أحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقَتْ له من الله عز وجل، لن تستطيع أنت ولا أحدٌ من الناس يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها. فتغيّر وجه الحجاج وقام مغضباً عن سريره، ودخل بيتاً خلفه وخرجنا وأخذت بيد الحسن، فقلت: يا أبا سعيد، أغضبت الأمير، وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، ألسنّ شيطاناً من الشياطين إذ توافقه في رأيه! ألا صدقت إذ سئلت أو سكّت فسلمت! فقلت: قتلها والله، وأنا أعلم بما فيها، قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشدّ في التبعة. ثم خرجت إلى الحسن التحف والطرف، وكانت له المنزلة واستخفّ بنا وجفانا، فكان أهلاً لما أتى إليه، وكنا أهلاً لما أتى إلينا، فما رأيت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربيّ فيما بين المقاريف، وما شهدنا بط مشهداً إلا برّز علينا بفضلّه، وقال الله، وقلنا موافقة للولادة، وكان يقول: جَدُّدُوا هذه الأنفس فإنها

سريعة الدثور، وأقدَعُوها فإنها طامحة وإنكم إن لم تقدعوها تنزغ بكم إلى شر غاية.

وقال لمطرّف بن عبد الله بن الشّخير: عظ أصحابك، فقال له: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال له: يرحمك الله، وأينا يقول ما يفعل! يودّ الشيطان أنه ظفر بهذه منكم، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

ونظر إلى الناس في مصلى البصرة يضحكون ويلعبون في يوم عيد، فقال: إن الله تعالى جعل الصوم مضماراً لعبيده، ليستبقوا إلى طاعته، ولعَمري لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه، ومسيء بإساءته عن تجديد ثوب أو ترجيل شعر.

ومات في سنة عشرة ومائة وله تسعون وتقدم موت ابن سيرين بمائة يوم، ومات في رجب ليلة الجمعة.

وقال عبد الواحد بن زيد: رأيت ليلة مات الحسن في الثوم أبواب السماء كأنها مفتحة، وكأن الملائكة صفوف، فقلت: أن هذا لأمر عظيم، فقال لي قائل: ألا إن الحسن البصري قدّم على الله وهو عنه راض!.

وسمع بعض أصحابه في منامه ليلة مات كأنّ منادياً ينادي في السماء: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه

[عامر بن شراحيل الشعبي]

والشعبيّ، اسمه عامر بن عبد الله بن شراحيل بن عبيد بن ذي كبار الشعبيّ من شعب هَمْدَان، وكنيته أبو عمرو، منسوب إلى شعبان بن عمرو، وهو من جَمِير، فمن كان منهم باليمن فهو حميريّ، ويقال: له شعبانيّ، ومَنْ كان بالعراق فهو هَمْدانيّ، ويقال له شعبيّ. وولد لست سنين من خلافة عمر رضي الله عنه سمع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن والحسين وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهو كوفيّ، وبه يَضْرَب المثل في الحفظ، فيقال: أحفظ من الشعبيّ.

وقال الزُّهريّ: العلماء أربعة: سعيد بن المسيّب بالمدينة، وعامر الشعبيّ بالكوفة، والحسن البصريّ بالبصرة، ومكحول بالشَّام.

وقال ابن شُبْرُمة: سمعت الشعبيّ يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدّثني رجل قطّ بحديث إلا حفظته، ولا أحببتُ أن يُعيدَه عليّ.

وقال الشعبيّ لأصحابه: ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر، ولو شئتُ لأنشدتكم شهراً لا أعيد.

وكان الشعبيّ فقيهاً عالماً حافظاً أديباً، وقال: لولا ما زوجت في الرحم ما قامت لأحدٍ معي قائمة.

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إليّ رجلاً يَضْلُح للدين والدنيا، أتّخذه سميّراً وجليساً، فبعث إليه بالشعبيّ، فلما دخل عليه وجده مغتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال ذكرت قول زهير: [الطويل]

كأنّي وقد جاوزتُ تسعين حِجَّةً خلعتُ بها عَنّي عِذارَ لجامي
رمثني بناتُ الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يَزِمِي وليس برام^(١)
فلو أنني أزمى بنبل رميْتُها ولكنتني أزمى بغير سهامي
على راحتين تارة وعلى العصا أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيامي
فقال له الشعبي: ليس كذلك، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة: [الطويل]

كأنّي وقد جاوزت سبعين حِجَّةً خلعت بها عن مَنكِبي ردائيا^(٢)
فلما بلغ سبعاً وسبعين، قال: [البسيط]
باتت تشكّي إليّ الموت مجهشةً وقد حملتُك سبعاً بعد سبعينا^(٣)
فإن تراخت ثلاثاً تبلغني أملاً وفي الثلاث وفاء للثمانينا^(٤)
فلما بلغ التسعين، قال: [الكامل]

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذي النَّاس كيف لبيدُ
وعنيتُ سبتاً قبل مجرى داحسٍ لو كان للنفس اللجوج خلودُ
فلما بلغ عشرين ومائة، قال: [الطويل]

أليسَ ورائي إن تراخت منيَّتي لزومُ العصا تُحنّي عليها الأصابع^(٥)

(١) البيت الثاني لعمر بن قميئة الضبعي في ديوانه ص ٤٥، ومقاييس اللغة ٣٠٦/٢، والأبيات ليست في ديوان زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت في ملحقات ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٦١.

(٣) البيت في ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٥٢، والبيت الأول في لسان العرب (جهش)، وجمهرة اللغة ص ٤٧٩، وتاج العروس (جهش)، وكتاب العين ٣/٣٨٣، ومجمل اللغة ٤٦٧/١، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ٤٨٩/١.

(٤) البيت في ديوان لبيد ص ٣٥، والبيت الأول في خزنة الأدب ٢/٢٥١، ولسان العرب (نصب)، والبيت الثاني في لسان العرب (سبت)، (عمر)، (جرا)، وكتاب العين ٧/٢٣٩، والمخصص ٢/٦٤، وتاج العروس (سبت)، (عمر)، (جري).

(٥) يروى عجز البيت الأول:

لزوم العصا تشنى عليها الأصابع

وهو في ديوان لبيد ص ١٧٠، ولسان العرب (ورأ)، (وري)، وتهذيب اللغة ٣٠٤/١٥، والبيت الثاني في ديوان لبيد ص ١٧١، ولسان العرب (ركع)، ومقاييس اللغة ٣٤٥/٢، وكتاب العين ١/٢٠٠، والمخصص ٨٧/١٣، وتاج العروس (ركع)، وفي الديوان «أدب» بدل «أنوء».

أخْبَرَ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَنْوَهُ كَأَنِّي كَلَّمَا قَمْتُ رَاكِعٌ
فلما بلغ ثلاثين ومائة حضرته الوفاة، فقال: [الطويل]

تَمْنَى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ^(١)
فَقُومُوا فَقُولَا بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَخْمِشَا خَدًّا وَلَا تَخْلِفَا شَعْرَ
وَقُولَا هُوَ الْمَرْءُ الَّذِي لَا صَدِيقَهُ أَضَاعَ وَلَا خَانَ الْخَلِيلَ وَلَا غَدَزَ
إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَدَزَ

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

وقال الحريري في الدرّة: حدثني أحد شيوخي أن ليلى الأخيلية كانت تتكلم بلغة بهراء، فتكسر حرف المضارعة، فتقول: «أَنْتِ تَعْلَمُ» فاستأذنت يوماً على عبد الملك بن مروان وبحضرته الشعبي، فقال: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في الغَضِّ منها؟ فقال: افعل، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبي: يا ليلى، ما بال قومك لا يكتنون! فقالت: ويحك أما نَكْتَنِي - بكسر النون - فقال: لا والله ولو فعلت لاغتسلت، فخرجت عند ذلك، واستغرق عبد الملك في الضحك.

الأصمعي: وجّه عبدُ الملك الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمور، فاستكبر الشعبي، فقال له: مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَلِكِ أَنْتَ؟ قال: لا فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة، وقال له: إِذَا بَلَغْتَ صَاحِبِكَ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ نَاحِيَتِنَا فَادْفَعْ إِلَيْهِ هَذِهِ الرِّقْعَةَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ذَكَرَ لَهُ مَا احتاج إلى ذكره، ونهض. فلما خرج ذَكَرَ الرِّقْعَةَ، فرجع فقال: يا أمير المؤمنين إِنَّهُ حَمَلَنِي إِلَيْكَ رِقْعَةً أَنْسَيْتُهَا، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك، وأمر برده فقال: أعلمت ما في الرقعة؟ قال: لا، قال: فيها عجبٌ من العرب كيف ملكت غير هذا! أفتردي لم كتب إلي بهذا؟ قال: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن يُغْرِنِي بِقَتْلِكَ، فقال السَّعْبِيُّ: لو رَأَيْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا استكبرني. فبلغ ذلك ملك الروم، فذكر عبد الملك وقال: لله أبوه! والله ما أردت إلا ذلك.

وكان الشعبي خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج، فلما هُزِمَ عبد الرحمن أُتِيَ به موثقاً مع الأسرى، وكان حكم الحجاج فيهم: مَنْ أَقْرَأَ أَنَّهُ كَافِرٌ أَبْقَاهُ، وَمَنْ أَقْرَأَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ قَتَلَهُ. قال: فلما جئتُ بابَ القصرِ لَقِيتُ يَزِيدَ بْنَ مُسْلِمٍ كَاتِبَهُ، فقال: إنا لله

(١) الأبيات في ديوان لبید ص ٢١٣، والبيت الأول في الأغاني ٣٠٥/١٥، وأمالی المرتضى ١/١٧١، ٥٥/٢، والبيتان الثاني والثالث في لسان العرب (عذر)، وتهذيب اللغة ٣٠٦/٢، وتاج العروس (عذر)، والبيت الرابع في الأشباه والنظائر ٩٦/٧، والأغاني ٤٠/١٣، والخصائص ٢٩/٣، والعقد الفريد ٧٨/٢.

يا شعبي، إِمَّا بَيْنَ دَفْتِكَ مِنَ الْعِلْمِ! وَلَيْسَ بِيَوْمِ شَفَاعَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْمَخْرَجُ؟ فَقَالَ بُؤْ لِلْأَمِيرِ بِالشُّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَبِالْحَزَى أَنْ تَنْجُو، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى الْحَجَّاجِ قَالَ لِي: وَأَنْتَ يَا شُعْبِي مِمَّنْ حَرَجَ عَلَيْنَا! قُلْتُ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! أَخَزَّنَ بِنَا الْمَنْزَلَ، وَأَجْدَبَ بِنَا الْجَنَابَ، وَاسْتَخْلَسَنَا الْخَوْفَ، وَضَاقَ الْمَلِكُ، وَخَبَطَتْنَا قَتْنَةً، لَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَّةَ أَوْلِيَاءَ، وَلَا فَجْرَةَ أَقْوِيَاءَ، قَالَ: اللَّهُ أَبُوكَ! لَقَدْ صَدَقْتَ وَاللَّهِ مَا بَرَرْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ عَلَيْنَا، وَلَا قَوَيْتُمْ خُلُوعَ سَبِيلِهِ.

وَكَلَّمَ ابْنَ هَبِيرَةَ فِي قَوْمِ حَبْسِهِمْ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ حَبَسْتَهُمْ بِيَاظِلٍ، فَالْحَقُّ يُطْلِقُهُمْ، وَإِنْ كُنْتَ حَبَسْتَهُمْ بِحَقٍّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ.

وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ التَّوَكَّى، وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَةٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ؟ فَقَالَ لَهُ: هَذَا، فَقَالَ: مَا تَقُولُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فِي رَجُلٍ شَتَمَنِي فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ هَلْ يُؤْجَرُ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ: أَمَا إِنْ كَانَ قَالَ لَكَ: يَا أَحْمَقُ، فَأَرْجُو لَهُ الْأَجْرَ.

وَسَأَلَهُ آخَرَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَدْخَلَ إِبْصِعَهُ فِي أَنْفِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهَا دَمٌ، أَتَرَى لَهُ أَنْ يَحْتَجِمَ؟ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَقَّلَنَا مِنَ الْفَقْهِ إِلَى الْحِجَامَةِ.

وَسَأَلَهُ آخَرَ، كَيْفَ كَانَتْ تَسْمَى امْرَأَةُ إِبْلِيسَ؟ قَالَ ذَلِكَ نِكَاحَ لَمْ نَشْهَدِهِ.

وَدَخَلَ الْحَمَامُ فَرَأَى دَاوُدَ الْأَوْدِيَّ بِلَا مَثَرَةٍ، فَغَمَضَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: مَتَى عَمِيتَ يَا أَبَا عَمْرُو؟ فَقَالَ: مَذْهَبُكَ اللَّهُ سَتَرَكَ. وَمَاتَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً.

[الخليل بن أحمد الفراهيدي]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي ينسب إلى فراهيد بن مالك بن فُهْم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدي ويقال: اليَحْمَدِيُّ. واليَحْمَدُ بَطْنٌ مِنَ الْأَزْدِ.

وكان الخليل من أزهدي الناس وأعلاهم نفساً، وأشدَّهم تعقُّفاً، ولقد كان الملوك يقصِّدونه ويتعرَّفون إليه لينال منهم، فلم يفعل، وكان يعيش من بُسْتَانٍ لَهُ خَلْفُهُ عَلَيْهِ وَالِدُهُ، وَكَانَ يَغْزُو سَنَةً وَيَحْجُجُ أُخْرَى، حَتَّى جَاءَهُ الْمَوْتُ.

محمد بن حميد، قال: تزوّجت إلى جيران الخليل، فنزلتُ عليهم، فكنتُ أسمع قرآن الخليل طول الليل، فقالوا لي: ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى، وإنه ليغيب عَنَّا فِي غَزْوٍ وَحَجٍّ فَتَتَوَخَّشُ إِلَيْهِ، وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ الصَّرَاطُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّحَابَةِ أَدَقُّ ذَهْنًا مِنَ الْخَلِيلِ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْفَضِيلَةُ فِيهِ بِبَرَكَةِ اسْمِ أَبِيهِ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَسَمَّى بِأَحْمَدَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

أبو عاصم: دخلت عليه قبل وفاته بأيام، فقال: والله ما فعلت قطُ فعلاً أخاف على

نفسى منه وكان لى فضل فكر، صرفته إلى جهةٍ وِدِذْتُ أنى كنت صرفته إلى غيرها. وما علمت أنى كذبت متعمداً قط، وأرجو أن يغفر الله لى التأول.

واجتمع أدباء من كلّ أفاق، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم، ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها.

النّضر: ما رأى الراؤون مثل الخليل، ولا رأى الخليل مثل نفسه. وكان أشعث الرأس، شاحب اللون، قشيف الهيئة، متخزق الثياب، متقلّع القدمين، مغموراً في الناس لا يُعرف.

محمد بن الفضل: كان بالبصرة رجل يعطي دواءً لظلمة البصر، فينتفع به الناس، فمات فأضرّ ذلك بمن كان يستعمله، فذكر للخليل فقال: أله نسخة؟ فقالوا: لم نجدها، قال: فهل كان له أنية يعمله فيها؟ قالوا: نعم، إنا نجمع فيه أخلاطاً، قال: فجيئوني به، فجعل يتشّمّمه، ويخرج نوعاً نوعاً حتى أخرج خمسة عشر نوعاً، ثم سأل عن جمعها ومقاديرها فعرفه مَنْ كان يعالج مثله فعمله، وأعطاه الناس، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة. ثم وجدت النسخة في كُتب الرجل، فإذا فيها ستة عشر خلطاً، فلم يغفل إلا عن خلط واحد.

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية، فخلا به شهراً حتى فهمه، فقبل له في ذلك، قال: قلت: لا بدّ أن يفتتح الكتاب باسم الله تعالى وما أشبهه، فبنيت أول الحروف على ذلك حتى انقاسَتْ لى.

النّضر بن شميل: جاء رجل من حلقه يونس، فسأل الخليل عن شيء، فأطرق يفكر، فقالوا له: ما هذا مما يحتاج إلى فكر يفكر فيه! فقال لهم: فما الجواب عندكم؟ قالوا: كذا، قال: فإنه يزيدكم في الجواب كذا، قالوا: يقول كذا، يقول: كذا، فانقطعوا، فقال: ما أجبت بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما عليّ فيه.

وكان يخرج من منزله فلم يشعر إلا وهو في الصحراء، ولم يرّدها لشغله بالفكر. وقال النضر: سمعت الخليل يقول: الأيام ثلاثة: فمعهود وهو أمس، ومشهود وهو اليوم، وموعود وهو غد.

وقال الخليل: إذا نسخ الكتاب ثلاث نسخ ولم يعارض به تحوّل بالفارسية. ورأى مع رجل دُفترأ وفيه خطّ دقيق، فقال لصاحبه: أيسّت يا هذا من طول عمرك!

وقال: إن لم تعلّم الناس ثوباً فعلمهم لتدرس بتعليمهم علمك، ولا تجزع من تفرّع السؤال، فإنه ينّبئك على علم ما لم تعلم.

وقال: أكثر من العلم لفهم، واختر قليلاً منه لتحفظ.

وكان يقول: إذا خرجت من منزلي لقيت أحد ثلاثة، إما رجلاً أعلم بشيء مني، فذلك يوم فائدة، أو مثلي فذلك يوم مذاكرة، أو دُوني فذلك يوم ثواب.

وقال: من الناس مَنْ يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاتبعوه، ومنهم مَنْ لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فاحذروه، ومنهم مَنْ يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك ضالٌّ فأرشدوه.

وكان يقول: إذا أردت أن تعلم خطأ معلّمك من صوابه فجالس غيره.

وقال: أنا أول مَنْ سَمِيَ الأوعية ظروفًا؛ لأنّها جُعِلَتْ ظرفاً للأدب والنظافة.

وقال: أدركت بعض ما أنا فيه باطّراح الحشمة بيني وبين المعلّمين، ومَنْ رَقَّ وجهه في طلب العلم رَقَّ علمه.

وقال: إذا أخطأ بحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا تردّ عليه خطأه، فإنك إذا نبهته على خطئه أسرعَ إفادته، واكتسبتَ عداوته.

وقال: اجعل ما تكتب بيتَ مال، وما في صدرك للنفقة.

وقال: العلوم أفعال والسؤالات مفاتيحها.

وقال: الناس في سجن ما لم يتمازحوا.

وقال: الرجل بلا صديق، كاليمين بلا شمال.

وقيل له: إن استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو، فقال: نعم، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه.

وقيل له: ما الجود؟ فقال: بذل المجهود، قيل له: فما الزهد؟ قال: ألا تطلب المفقود، حتى تفقد الموجود.

وقال: الدنيا أمد، والآخرة أمد.

وقال: حسب امرئ من الشر أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحه، ومَنْ علم بفساد نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحول أن يتحوّل المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلاع عنه.

وقال: الدنيا أضداد متجاوزة وأشباه متباينة، وأقارب متباعدة، وأباعد متقاربة.

وقال: ثلاثة أشياء أنا أحبّها لنفسي ولمن أحبّ رشده: أحبّ أن أكون بيني وبين ربي من أفضل عباد، وأكون بيني وبين الخليقة من أوسطهم، وأكون بيني وبين نفسي من شرّهم. وقال عبد الله بن داود: لو كتب شيء بالذهب لكتب هذا.

ونظر في فقه لأبي حنيفة، فقيل له: كيف ترى؟ فقال: أرى جدّاً وطريق جدّ، ونحن في هزل وطريق هزل.

وقال عبد الله بن داود: لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرغائب، وإنه لبين أخصاص البصرة، يزهد فيما يُرْغَب فيه.

وقال: ثلاثٌ يُنْسِن المصائب: مَرّ الليالي، والمرأة الحسناء، ومحادثة الرجال. التّضر: سمعت الخليل يقول؛ التواني إضاعة، والحزم بضاعة، والإنصاف راحة، واللجاج وقاحة.

وكان له غلام كثير الخلاف عليه، فقال له يوماً: قُمْ، فقال: لا أقوم، فقال: اقعد: فقال: لا أقعد، قال: فأَي شيء تصنع؟ قال: لا أصنع شيئاً ويشبه هذا قول الشاعر في امرأته: [الطويل]

سكّْتُ فقالتِ لَمْ سكّتْ عن الحقِّ	وقلْتُ فقالت: ما دَعَاكَ إلى التُّطْقِ
فأومأتُ هل من حالٍ بين ذاودا	فقالت وذا الإيماء أيضاً من الحُمُقِ
فلم أر لي إذ حلتِ الغربَ راحةً	من الشرِّ إلا في الهروب إلى الشَّرْقِ
فلما أتيت الشَّرْقَ أَلْفَيْتُهَا به	وقد قعدت لي منه في ضيقِ الطُّرْقِ

وإنما أكثرنا من أخباره لأنها آداب، وحِكْمٌ مَن اقتدى بها اهتدى، وما تركناه من أخباره أكثر، وذكر النحو والعروض مؤخّر إلى الخمسين إن شاء الله تعالى: ولتقدّمه في العلم ضربت الشعراء به المثل، فمن ذلك قول أبي تمام يهجو عياش ابن لهيعة: [الوافر]

ولو نشر الخليلُ له لعمّت	بلاذته على فِطْنِ الخليل ^(١)
فما أدري عَمائي عن رشادي	دَهَانِي أم عماك عن الجميل

وقال آخر: [مجزوء الكامل]

يا مَنْ يَزِيدُ تَمَقُّتاً	وتباعُضاً في كل لحظة
والله لو كنتُ الخليلُ	لَ لَمَّا رَوَيْنَا عَنْكَ لَفُظَةً

وأشدد المبرد: [الكامل]

لم تدرِ ما علمُ الخليل فتقتدي	ببيان ذاك ولا حدود المَنَظِقِ
-------------------------------	-------------------------------

وقال المعري: [الطويل]

إذا قيل نُسِكَ فالخليل ابن آزر	وإن قيل فهمُ فالخليل أخو الفُهم
--------------------------------	---------------------------------

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقاً لي، فدخلت عليه يوماً؛ فقال: أَجْزُ [الطويل]

* رأيت غنى الإنسان نفساً زكية *

فقلت : [الطويل]

* مُطَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ وَبَاطِلٍ *

فقال : [الطويل]

* ففِي عَاجِلِ الدُّنْيَا مَدِيحٌ وَرَفْعَةٌ *

فقلت : [الطويل]

* وَخَيْرٌ عَظِيمٌ عَاجِلٌ بَعْدَ آجِلٍ *

فقال : والله جئت بما في نفسي ، ثم قال : [الوافر]

كَأَنَّكَ كُنْتَ قَدْ خَامَزْتَ قَلْبِي فَجِئْتُ بِمَا شَفَيْتَ بِهِ الْعُغْلِيلَا
رَأَيْتَ بَرَاعَةَ الْإِيْجَازِ أَشْفَى فَصَارَ كَثِيرٌ غَيْرِكَ لِي قَلِيلَا

وله : [البسيط]

الْعِلْمُ يَذْكِي عَقُولاً حِينَ يَصْحُبُهَا وَقَدْ يَزِيدُهُمَا طَوْلَ التَّجَارِبِ
وَذُو التَّأْدُّبِ فِي الْجَهَّالِ مَغْتَرِبٌ يَرَى وَيَسْمَعُ أَلْوَانَ التَّعَاجِبِ

وكان صديق سليمان بن حبيب ، وأنشده الشعراء ، فتشاغل عنهم سليمان ، فذكروا ذلك للخليل فكتب إليه : [الكامل]

لَا تَقْبَلَنَّ الشُّعْرَ ثُمَّ تَعَقُّهُ وَتَنَامَ وَالشُّعْرَاءُ غَيْرَ نِيَامٍ
وَأَعْلَمَ بِأَتَهُمْ إِذَا لَمْ يَنْصَفُوا حَكَمُوا لَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْحُكَّامِ
وَجَنَایَةِ الْجَانِي عَلَيْهِمْ تَنْقُضِي وَكُلُّوهُمْ تَبْقَى عَلَى الْآيَامِ

[جرير بن عطية الخطفي]

وأما جرير فهو ابن عطية بن الخطفي . شاعر من فحول العرب ، واتفقت العلماء على أنَّ أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وأكثرهم على تفضيله عليهما . وسأذكر لك شيئاً من غزله وهجوه ، نستدل به على منزلة شرفه في الشعر : ورأت أمه وهي حامل به كأنها ولدت حبلاً من شعر أسود ، فلما سقط جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فازعة فأولت الرؤيا ، فقيل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا أسر وشدة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدته سمته جريراً ، باسم الحبل الذي رآته ، فهاجاه ثمانون شاعراً ، فغلبهم .

وقال جرير : ما عشقتُ ولو عَشِقتُ لنسبتُ نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها . قالوا : وأرق ما جاء في النسيب قوله : [البسيط]

إِنَّ الْعَيُونَ أَلَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يَحْيَيْنَ قَتْلَانَا^(١)
يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ لَهُ وَهَنْ أَوْعَفُ خَلَقَ اللَّهُ أَرْكَانَا
أَتَبَعْتُهُمْ مُقْلَةً إِنْسَانَهَا غَرِقُ هَلْ مَا تَرَى تَارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا!

ومثل هذا أوجب على الحريري أن يذكر جريراً بالغزل، وإلا فقد أخذ عليه في ذكر جرير بالغزل، وإنما الذي اشتهر في زمانه بالغزل مثل عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل وقيس بن ذريح وأمثال هؤلاء، وإنما اشتهر جرير بالمدح والهجو، ولانطباعه قد جاء في شعره من الغزل الرقيق كثير، وإن كان تكلفاً إذ لم يعيش. قال الجاحظ: كان الفرزدق مشتهراً بالنساء، ومع ذلك فليس له بيت واحد في التسيب، وكان جرير عفيفاً لم يعشق امرأة قط، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً.

وسئل الفرزدق عنه فتنفّس حتى كادت حيازيمه تنشق، ثم قال: قاتلة الله! فما أحسن ناحيته وأشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكى الشابة على أحبابها، والعجوز على شبابها، ولسكنهم هزؤه فوجدوه عند الهراش نابحاً، وعند الجراء قارحاً، ولقد قال بيتاً، لأن أكون قلته أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، وهو: [الوافر]

إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا
وَقَالَ مَسْعُودُ بْنُ بَشَرَ: قلت لابن مناذر: مَنْ أشعر الناس؟ قال: من إذا شئت جدّ، وإذا شئت لعب، وإذا شئت أطمعك لعبه، وإذا رمته بُعد عليك، وإذا جدّ فيما قصد له آيسك من نفسه. قلت: مثل مَنْ، قال: مثل جرير إذ يقول حين لعب: [الكامل]

إِنَّ الَّذِينَ عَدَدُوا بِلَبِّكَ غَادَرُوا وَشَلًّا بَعِينُكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا^(٢)
غِيْظُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقَلْنِ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَى وَلَقِينَا!
ثم قال حين جدّ: [الكامل]

إِنَّ الَّذِي حَرَمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنَّبُوَّةَ فِينَا^(٣)
مَضْرُ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يَا خُزَرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبٍ كَأَبِينَا
هَذَا ابْنُ عَمِي فِي دِمَشْقٍ خَلِيفَةً لَوْ شِئْتُ قَادَكُمْ إِلَيَّ قَطِينَا

(١) الأبيات في ديوان جرير ص ١٦٣، والبيت الأول في شرح شواهد المغني ٧١٢/٢، والمقاصد النحوية ٣/٣٦٤، والمقتضب ١٧٣/٢.

(٢) البيت الأول بلا نسبة في لسان العرب (وشل)، وتاج العروس (وشل)، والبيت الثاني في ديوان جرير ص ٣٨٦، وتاج العروس (غِيْظُنْ)، وهو بلا نسبة في لسان العرب (غِيْظُنْ).

(٣) البيت الأول في ديوان جرير ص ٣٨٧، ولسان العرب (أذن)، والبيتان الثاني والثالث في ديوان جرير ص ٣٨٨.

فلما بلغ عبد الملك هذا، قال: ما زاد ابن المراغة أن جعلني شُرْطِيًّا له! أما إنه وقال: «لو شاء ساقكم» لَسَقْتُهُمْ إليه كما قال.

ونزل الفرزدق حين قدم على الأخوص فقال: ما تشتهي؟ قال شواء وظلاً وغناء، قال: ذلك لك، ومضى به إلى قينة فغتنه: [الوافر]

ألا حيّ الديار بسعدٍ إنّي أحبُّ لحبِّ فاطمة الديار^(١)
إذا ما حلَّ أهلك يا سُلَيْمَى بذارة ضُلُصِّلٍ شَحَطُوا مَزَارَا
أراد الظاعنون ليحرموني فهاجوا صدع قلبي فاستطارا
فقال: ما أرقّ أشعاركم يا أهل الحجاز! قال: أو تدري لمن هذا؟ قال: هو لجريز يهجوكم، قال: ويل لابن المراغة! ما كان أحوجه مع عَفَافِهِ إلى صلابة شعري، وأحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره، وفي الفرزدق منها: [الوافر]

وكنْتَ إذا نزلتُ بدار قوم رحلتُ بخزِيةٍ وتركتُ عارا^(٢)
وقال جريز: [الطويل]

لقد طال كتمانِي أمانة حبِّها فهذا أوان الحبِّ تَبْدُو شواكلُه^(٣)
وإنّي وإن لام العواذلُ مولعٌ بحبِّ العُضا من حبِّ مَنْ لا يزايلُه
ولما استقرَّ الحبُّ القَتَّ بي العصا ومات الهوى لَمَّا أصيبت مقائلُه
وقلن تَزَوُّجٌ لا يكن لك حاجة وقلبك لا تشغل وهُنَّ شواغلُه
وقال أيضاً: [الكامل]

يا أخت ناجية السّلام عليكُم قبل الرّحيل وقبل لوم العُدلِ^(٤)
لو كنتُ أعلم أنّ آخرَ عهدِكُم يومُ الفراق فعلتُ ما لم يفعل

(١) الأبيات في ديوان جريز ص ٨٨٦، والبيت الأول في جمهرة اللغة ص ٦٤٥، ومجمل اللغة ٦٨/٣، وتاج العروس (سعد)، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ٧٥/٣.

(٢) البيت لجريز في ديوانه ص ٨٨٧، ولسان العرب (خزا)، وتاج العروس (خزي).

(٣) الأبيات في ديوان جريز ص ٩٦٤، ويروى صدر البيت الرابع:

وقلن تَزَوُّجٌ لا يكن لك ضيعة

وهو في لسان العرب (ضيع)، وتهذيب اللغة ٧٢/٣، وتاج العروس (ضيع).

(٤) يروى البيت الأول في ديوان جريز ص ٤٤٣:

يا أم ناجية السّلام عليكم قبل الرواح وقبل لوم العُدلِ

ديوان جريز ص ٢٧٩، والبيت الثالث في لسان العرب (عرض)، (بشم)، وتهذيب اللغة ١/٤٦٧.

وقال أيضاً: [الوافر]

بنفسي مَنْ تجنّبهُ عزيز
وَمَنْ أُمسي وأصبح لا أراه
أتذكر إذ تودّعنا سُلَيْمَى
عليّ وَمَنْ زيارثُهُ لِمَامٌ^(١)
وَيَطْرُقني إذا هَجَعَ النِّيامُ
بفرع بِشامةٍ سُقِي البِشَامُ

وقال أيضاً: [الكامل]

لا تكثرون إذا جَعَلْتَ تلومني
كان الخليطُ هُم الخليطُ فزايَلُوا
لَا يَلْبَثُ الْقُرْناءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
لا يذهبَنَّ بفعلك الإكثَارُ^(٢)
ولقد تبدّل بالديار ديارُ
ليلٌ يكرّ عليهم ونهارُ

ومن هجوه في الراعي: [الوافر]

فغضّ الطرف إنك من نُميرٍ
عندما قال هذا البيت ونب قائماً حتى أصاب السقف رأسه، وقال: أخريته والله
وغصصته، وقدمت أخويه عليه، والله لا يفلح بعدها، وكان كما قال، ما أفلح بعدها هو
ولا نمير.

وقال في جندل بن الراعي: [الوافر]

أجندلُ ما تقول بنو نميرٍ
إذا ما الأيز في است أبيك غابا^(٤)

وأشد القصيدة والفرزدق واقف، فلما بلغ إلى قوله: [الوافر]

* تَرَى برصاً بأجمع إسكتيها *

وضع الفرزدق يده على فيه، وغطى عنقه فقل: [الوافر]

* كَعَثَقَةَ الفرزدق حين شابا *

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهم أخزه، ولقد علمت حين بدأ البيت ألا يقول
غيرها، ولكن طمعتُ ألا تأتيه.

وقال في ابن لجأ: [البسيط]

(١) ديوان جرير ص ٨٦٤، والبيت الثالث بلا نسبة في لسان العرب (لبث).

(٢) البيت في ديوان جرير ص ٨٢١، وجمهرة اللغة ص ١٠٩٦، ولسان العرب (حدد)، وهو بلا نسبة في الكتاب ٥٣٣/٣.

(٣) البيت في ديوان جرير ص ٨٢١، وخزانة الأدب ٧٢/١، وهو بلا نسبة في سر صناعة الإعراب ٢/٦٧٧.

(٤) البيت في ديوان جرير ص ٨١٧، ولسان العرب (أسك)، وتاج العروس (أسك)، وهو بلا نسبة في المخصص ٣٨/٢.

تَعَرَّضْتُ تيمَ ليَ عمدًا لأشْتِمَها كما تَعَرَّضَ لاسْتِ الخارِءِ الحَجَرُ^(١)
يا تيمَ تيمَ عديَّ لا أبالْكُم لا يلقىنْكُم في سوءِ عَمُرُ
وقال يذكر أمه: [البسيط]

تقول والعبْدُ مسكين يُزَحِرُها رفقا فِدأً لك أئتِ النَّاكِحَ الذَّكَرُ^(٢)
وبينا جرير ينشد في زوجته: [الكامل]

لولا الحياءَ لعادني استعبارُ ولزرت قبرك والحبیبُ يُزارُ^(٣)
كانت إذا هَجَرَ الضَّجِيعُ فراشها كُتِمَ الحديثُ وعَقَّتِ الأسرارُ
لا يلبث القرناءُ أن يتصدَّعوا ليلُ يكرَ عليهم ونهارُ
إذ طلع الأخوصُ فقطع إنشاده، ورفع صوته، يقول: [الوافر]

عَوَى الشعراءُ بعضهم لبعضِ عليّ فقد أصابهم انتقامُ^(٤)
إذا أرسلتُ صاعقةً عليهم رأوا أخرى تحرق فاستداموا
فمصطلَمُ المسامعِ أو خَصِيٍّ وآخرُ عظمُ هامتيهِ حُطامُ

ثم عاد. فقيل: لم فعلت هذا؟ قال: إني نهيت الأخوص أن يعين الفرزدق [علي].
وإني والله يا بني عمرو بن عوف ما تعودت من شاعر قط، ولولا حقكم ما تعودت منه.
الأصمعي: حدثني أبي قال: رأى رجل جريراً في المنام، فقال: ما فعل الله بك؟
قال: غفر لي، قال: بماذا قال بتكبيره كبرت الله في الخمر - وهو ماء بالبادية - قال: فما
فعل أخوك الفرزدق؟ قال: هيات أهلكه قذُفُ المحصنات.
قال الأصمعي: لم يدَّعه في الحياة ولا في الممات، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة.

[قس بن ساعدة الإيادي]

وأما قس بن ساعدة الإيادي، فيضرب به المثل في الفصاحة والخطابة، فيقال: أبلغ
من قس، وهو أسقف نجران، وهو من حكماء العرب، وكان مؤمناً بالله ومبشراً برسوله،
وهو أول من خطب متوكلناً على عصا، وأول من كتب: من فلان إلى فلان، وفيه يقول
الأعشى: [الطويل]

(١) البيت في ديوان جرير ص ٢١٠، ولسان العرب (خور).

(٢) ديوان جرير ص ٢٢٦.

(٣) الأبيات في ديوان جرير ص ٨٦٢، والبيت الأول في لسان العرب (حيا).

(٤) الأبيات في ديوان جرير ص ٢٨٠.

وأفصح من قُسّ وأجرى مِنَ الذي بذى العين من خَفَّان أضْبَح خادراً^(١)

ولمّا قدم وفد بكر على رسول الله ﷺ، سألهم عن رجل كان فيهم نازلاً، يقال له: قُسّ بن ساعدة الإياديّ، قالوا: هلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأيته بعكاظ يخطب على جمل له أورك وهو يقول: أيّها الناس اجتمعوا، واسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت، ليل موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحر يَمور. أمّا بعد، فإنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعبراً، ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا كما هم فناموا أقسم بالله قُسّ قسماً حقاً، فما حنّ ولا أثم، إنّ لله ديناً هو أرضى من ديننا، هذا الذي نحن عليه، ثم قال أبياتاً ما أحفظها»، فقال رجل من الأنصار: أنا شاهد يا رسول الله، بأبي أنت وأمّي! قال: فأشدنا، قال: سمعته يقول: [مجزوء الكامل]

في الذّاهبين الأوليـ	ن من القُرون لَنّا بصائر ^(٢)
لَمّا رأيت موارداً	للموت ليس لها مصادراً
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا	يبقى من الباقيين عابز
أيقننتُ أني لا محـا	لـة حيث صار القوم صائر

وقال صاحب الأغاني فيه هو قُسّ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن أيدعان ابن النُجَير بن وائلة بن الطَّمْثان بن عبْد مناة بن يقدم بن أفصى بن دُعَمي بن إياد. وكان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه، فقال له قيصر: ما أفضل العلم؟ قال: معرفة الرجل بنفسه، قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف المرء عند علمه، قال: فما أفضل الأدب؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه: قال: فما أفضل المروءة؟ قال: قلة رغبة المرء في إخلاف وعده، قال: فما أفضل المال؟ قال: ما قُضي به الحق.

ابن عباس رضي الله عنهما: وفد الجارود بن عبد الله في وفد عبد القيس، وكان سيّداً في قومه معظماً في عشيرته، فأمن وآمن قومه، فسرّ النبي ﷺ بهم، ثم قال: «يا جارود، هل في جماعة عبد القيس من يعرف لنا قُسا؟» قال: كلنا نعرفه يا رسول الله، وأنا كنت من بينهم، أفقوا أثره، وأطلع خبره، كان قُسّ سنبطاً من أسباط العرب، صحيح

(١) لم أجد البيت في ديوان الأعشى.

(٢) البيت الأول لقس بن ساعدة في تاج العروس (بصر)، وأساس البلاغة (بصر)، وبلا نسبة في لسان العرب (بصر)، وتهذيب اللغة ١٢/١٧٧، وكتاب العين ٧/١١٨، والبيت الرابع لقس بن ساعدة أيضاً في الأغاني ٥/١٩٣، وحماسة البحتري ص ٩٩، وخزانة الأدب ٩/١٨٨، ولسان العرب (محل).

النسب، فصيحاً، ذا شيمة حسنة، عُمِرَ سبعمائة سنة، يتقَفَرُ القِفَارَ، ولا تَكُنْهُ دار، ولا يُقَرُّه قرار، يتَحَسَّى في تقَفَرِهِ بعضَ الطعام، ويَأْنَسُ بالوحوش والهوام، يلبس المُسَوَّح ويتبع السياح على منهاج المسيح، لا يَغَيِّرُ الرِّهْبَانِيَّةَ، مقرُّ بالوحدانية، تُضْرَبُ بحكمته الأمثال وتكشف به الأهوال، وتتبعه الأبدال، أدرك رأس الحواريين سمعان، فهو أول من تألَّهُ من العرب وأَعْبَدَ مَنْ تَعَبَّدَ في الحَقِّبِ، وأيقن بالبعث والحساب، وحذَّرَ سوء المنقلب والمآب، ووعظ بذكر الموت، وأمر بالعمل قبل الفوت، الحَسَنُ الألفاظ، الخاطب بسوق عكاظ، العارف بشرق وغرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، كأني أنظر إليه، والعرب بين يديه، يقسم بالربِّ الذي هو له: لِيَبْلَغَنَّ الكتابُ أجله، وليُوقِنَنَّ كُلُّ عاملٍ عمله، ثم أنشأ يقول: [الخفيف]

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهِ أَذْكَارُ	وَلِيَالٍ خِلَالِهِنَّ نَهَارُ
وَنَجُومٌ يَحْتَهَا قَمَرُ اللَّيْلِ	لِشَمْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَدَارُ
ضَوْءُهَا يَطْمَسُ الْعَيُونَ وَإِرْعَا	دُشْدِيدٍ فِي الْخَافِقِينَ مُثَارُ
وَعِلَامٌ وَأَشْمَطُ وَرَضِيْعٌ	كُلُّهُمْ فِي التَّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ
وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوْتَ الْخَيْ	رَ وَأُخْرَى خَوَتْ فَهِنَّ قَفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تَقْصُرُ عَنْهُ	حَدْسَةُ النَّاطِرِ الَّذِي لَا يَحَارُ

والَّذِي قَدْ ذَكَرْتَ دَلَّ عَلَى اللَّهِ نَفُوسًا لَهَا هَدًى وَاعْتِبَارُ.

فقال النبي ﷺ: «على رسلك يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ، على جمل له أَوْزَق، وهو يتكلم بكلام مونت، ما أظن أحفظه، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار مَنْ يحفظ لنا منه شيئاً؟» فوثب أبو بكر قائماً، وقال: يا رسول الله، أنا أحفظه وكنت حاضراً بعُكَاظ حين خطب فأطنبت، ورهب ورغب، وحذر وأندر، وقال في خطبته: أيها الناس اسمِعُوا وُعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه مَنْ عاش مات، وَمَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ، مَطَرٌ ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، وَجَمْعٌ وشتات، وآيات بعد آيات، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لِعِبْرًا. ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات رتاج، وبحار ذات أمواج، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا! أقسم قُسُّ بالله قسماً حقاً لا أثمأ فيه ولا حائثاً، إنَّ الله ديناً هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيّاً قد حان حينه، وأظلكم أو أنه وأدرككم إباته، فطوبى لمن آمن به فهداه، ووَيْلُ لمن خالفة وعصاه! ثم قال: تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية! يا معشر إِيَاد، أين الآباء، والأجداد، وأين المريض والعواد، وأين الفراعنة الشُّداد؟ أين مَنْ بنى وشيد، وزخرف ونجد، وغره المال والولد! أين مَنْ بَغَى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى

ألم يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا، وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالًا، طَحَنَهُمُ الثَّرَى بِكَلْكَلِهِ، وَمَزَقَهُمُ بِنِطَاوَلِهِ، فَتَلَّكَ عِظَامُهُمْ بِأَلِيَّةٍ، وَبَيَّوتَهُمْ خَاوِيَّةٌ، عَمَّرَتْهَا الذَّنَابُ الْعَاوِيَّةُ كَلًّا بَلْ هُوَ الْمَعْبُودُ، لَيْسَ بِوَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ... الْأَبْيَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ. قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَامَ رَجُلٌ ذُو هَامَةٍ عَظِيمَةٍ، وَقَامَةً جَسِيمَةٍ، فَقَالَ: يَا سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، وَصَفْوَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ قُسٍّ عَجَبًا؛ أَشْرَفَ بِي جَمَلِي عَلَى وَادٍ، وَشَجَرٌ مِنْ شَجَرِ عَادٍ، مُورِقَةٌ مُونِقَةٌ، وَقَدْ تَهَذَّلَ أَغْصَانُهَا. قَالَ: فَدَنُوتُ مِنْهُ، فَإِذَا يُقْسُّ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، بِيَدِهِ قَضِيبٌ مِنْ أَرَاكَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ وَهُوَ يَتَرْتَمُ، وَيَقُولُ: [الْبَسِيطُ]

يَا نَاعِيَّ الْمَوْتَ وَالْمَلْحُودَ فِي جَدَثٍ	عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا خَزْمِهِمْ خِرَقٌ
دَغْمِهِمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُطَاخُ بِهِمْ	فَهُمْ إِذَا انْتَبَهُوا مِنْ نَوْمِهِمْ فِرَقٌ
حَتَّى يَعُودُوا بِحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمْ	خَلْفًا جَدِيدًا كَمَا مِنْ قَبْلِهَا خُلُقُوهَا
مِنْهُمْ عِرَاءٌ وَمِنْهُمْ فِي ثِيَابِهِمْ	مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْمَنْهَجُ الْخَلْقُ

قَالَ: فَدَنُوتُ مِنْهُ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَإِذَا بَعِينٌ خَرَارَةٌ، فِي أَرْضِ خَوَارَةٍ، وَمَسْجِدٌ بَيْنَ قَبْرَيْنِ، وَأَسْدِينِ عَظِيمَيْنِ، يَلُودَانِ بِهِ، وَيَتَمَسَّحَانِ بِأَثْوَابِهِ، فَأَرَادَ أَحَدُهُمَا أَنْ يَسْبِقَ إِلَى الْمَاءِ، وَتَبِعَهُ الْآخَرُ يَطْلُبُ الْمَاءَ، فَضْرِبُهُ قَسٌّ بِالْقَضِيبِ، وَقَالَ: ارْجِعْ تُكَلِّثُكَ أَمْكُ! حَتَّى يَشْرَبَ الَّذِي وَرَدَ قَبْلَكَ. فَرَجَعَ ثُمَّ وَرَدَ بَعْدَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا الْقَبْرَانِ؟ قَالَ: هَذَا قَبْرُ أَخَوَيْنِ لِي كَانَا يَعْبُدَانِ اللَّهَ مَعِيَ فِي هَذَا الْمَكَانِ، لَا يُشْرِكَانِ بِاللَّهِ شَيْئًا، فَأَدْرَكَهُمَا الْمَوْتُ فَقَبِرْتُهُمَا، وَهَذَا أَنَا بَيْنَ قَبْرَيْهِمَا، حَتَّى أُلْحَقَ بِهِمَا. ثُمَّ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَتَغَرَّغَتْ عَيْنَاهُ بِالْدمُوعِ، وَانْكَبَتْ عَلَيْهِمَا، وَجَعَلَ يَقُولُ: [الطَوِيلُ]

خَلِيلِي هَبَا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا	أَجِدُّ كَمَا لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانٍ مَفْرَدٌ	وَمَا لِي فِيهَا مِنْ خَلِيلٍ سَوَاكُمَا
مَقِيمٌ عَلَى قَبْرَيْكُمَا لَسْتُ بَارِحًا	طَوَّلَ اللَّيَالِي أَوْ يُجِيبُ صَدَاكُمَا
أَبْكِيكُمَا طَوَّلَ الْحَيَاةَ وَمَا الَّذِي	يَرُدُّ عَلَيَّ ذِي عَوْلَةٍ إِنْ بَكََاكُمَا
كَأَنَّكُمَا وَالْمَوْتَ أَقْرَبَ غَايَةٍ	بِرُوحِي فِي قَبْرَيْكُمَا قَدْ أَتَاكُمَا
أَمِنْ طَوَّلِ نَوْمٍ لَا تَجِيبَانِ دَاعِيَا	كَأَنَّ الَّذِي يَسْقِي الْعَقَّارَ سَقَاكُمَا
فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وَقَايَةً	لَجَدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ قُسًّا، إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَنْعِثَهُ اللَّهُ أُمَّةً وَحْدَهُ».

[عبد الحميد الكاتب]

وأما عبد الحميد، فهو ابن يحيى بن سعيد، كاتب مروان بن محمد، آخر ملوك في أمية، وكتب أيضاً للمنصور. وقيل إنه قُتل مع مروان.

وكان رأساً في الكتابة، ومقدماً في الفصاحة والخطابة، بليغاً مرسلأً، وقال فيه ابن عبد ربه: كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان، وكتب لسليمان بن عبد الملك، وليزيد بن عبد الملك، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية؛ حتى انقضت دولتهم.

وعبد الحميد أول من فتن أكرام البلاغة، وسهل طرقها، وفك رقاب الشعر.

وقال له مروان حين أيقن بزوال ملكه: قد احتججت أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي؛ فإن إعجابهم بأدائك يدعوهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرمتي بعد وفاتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك، وأقبحهما لي، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله لي ولك، أو أقتل معك. ثم قال: [الطويل]

أَسِرُّ وفاءً ثم أظهر غَدْرَةً فمن لي بعذر يُوسِعُ الناسَ ظاهِرُهُ

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات، وهو أول من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، واستعملت بعده، وهو القائل: البلاغة تقرير المعنى في الأفهام، من أقرب وجوه الكلام.

ولم يزل الشعراء ومهّرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال في كتبهم وأشعارهم في القديم والحديث، كفضل صاحب وقرنائه، مع طبع سَمَحٍ ولفظ عذب، وصلة نشر ينظم، فإن شاء قال: أنا الوليد، وإن شاء قال: أنا عبيد، وإن شاء قال: أنا عبد الحميد، وإن شاء قال: أنا سعيد.

وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

[أبو عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحُصين بن الحارث بن جَلْهم بن خُزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: واسمه وكنيته واحد في الأشهر.

الفنجدية: اختلف في اسمه على تسعة عشرة قولاً، فقليل: اسمه محمد أو حميد أو حماد أو عثمان أو سفيان أو غير ذلك، وأصحها زَبَّان.

واختلف في مولده. فقليل: ولد سنة خمس وستين بمكة في أيام عبد الملك بن مروان: وقيل: سنة سبعين.

أبو عبيدة: كان أبو عمرو أَسَمَر طويلاً ضَرْبَ اليدين، حاذَ النظر، ما رأيت مثله قبله ولا بعده في فهمه ولا علمه، وكان صَاحِبَ غريب ونحو وعلم، وهو أحد الأئمة في القراءة، وعنه أخذ يونس والأصمعيّ وأبو عبيدة. وفيه يقول الفرزدق: [البسيط]

ما زِلْتُ أَغْلِقُ أَبْوَاباً وَأَفْتَحُهَا حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو بِنِ عَمَّارٍ^(١)

وقال ابن مجاهد: كان أبو عمرو مقدماً في عصره، عالماً بالقراءة ووجوهها، قدوة في العلم باللغة، إمام الناس في العربية.

وكان مع ذلك متمسكاً بالآثار، ولا يكاد يخالف في اختياره ما جاء من الأئمة قبله، متواضعاً في علمه.

وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالقرآن والعربية وآيام العرب وأنسابها وشعرها، وكانت دفاتره ملاء بيت، فلماً تنسك أحرقتها، وجعل على نفسه أن يختم القرآن في كل ثلاث ليال، فلما أسنّ اختلط بالناس، واحتاجوا إليه فعول على حفظه، فأملئ من حفظه كتب الناس ووقع عليه الإجماع.

روى الأصمعيّ عن أبي عمرو قال: كنتُ اسمر مع مسلم بن قتيبة الباهليّ وكان يعجبه الرّويّ على السين، فأنشدته ليلة ستين قصيدة على السين لستين شاعراً، اسمهم عمرو.

الأصمعيّ: كان لأبي عمرو كلّ يوم من غلّة داره قُلَسَان: فلس يشتري به كوزاً، وفلس يشتري به ريحاناً، يشرب في الكوز يومه، ويشمّ الريحان يومه، فإذا أمسى تصدّق بالكوز، وأمر الجارية أن تجفّف الريحان وتدقّه في الأشنان.

الأصمعيّ: قال أبو عمرو: كنت في ضيعتي، فاشتدّ عليّ الحرّ، فكنت أدور في سِدْرٍ فيها نصفُ النهار، فسمعت قائلاً يقول: [الطويل]

وَإِنْ أَمْرًا دَنِيَاهُ أَكْبَرُ هُمَ لِمَسْتَمْسَكُ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ^(٢)

فقلت: إنسي أم جنيّ؟ فما أجابني، فنقشته في خاتمي، فكان نقش خاتمه.

الأصمعيّ: كنت واقفاً بالمزبد، وإذا أنا بأبي عمرو، فلما بصر بي مال إليّ، فقال: ما وقوفك هنا يا أصمعيّ؟ قلت: إني أحبّ المزبد وأكثر الجلوس فيه، فقال: الزمه، فإنه

(١) البيت للفرزدق في أدب الكاتب ص ٤٦١، وسر صناعة الإعراب ٤٥٦/٢، ٥٢٨، وشرح أبيات سيبويه ٢٦١/٢، والكتاب ٥٠٦/٣، ٦٣/٤، ٦٥، ولسان العرب (غلق)، والبيت ليس في ديوان الفرزدق، وهو بلا نسبة في الأشباه والنظائر ١١٨/١.

(٢) يروي البيت:

وَإِنْ السَّيِّدُ يَمْسِي وَدَنِيَاهُ هُمَ لِمَسْتَمْسَكُ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ

وهو لهاني بن توبة الشيباني (الشويمع) في لسان العرب (حمد)، (شعر).

يشدّ النظر ويجلو البصر، ويجمع بين ربيعة ومضر. ثم أردت الانصراف، فقال: إلى أين يا أصمعي؟ فقلت: إلى صديق لي، فقال: إما لفائدة أو لعائدة أو لمائدة وإلا فلا. ثم قال لي: مالي أراك بلا عمامة؟ قلت: لا عمامة لي، فنزع عمامته عن رأسه فدفعها إليّ، فكبر ذلك عليّ، فقال لي: إنّ لي بدلها إحدى عشرة عمامة، ثم قال لي: الزم العمامة، فإنّها تشدّ الألامه، وتحفظ الهامة، وتزيد في القامة، ثم استخرج من كُمة كيساً فدفعه إليّ ثم قال: يا أصمعي، لا زلتم بخير ما دتمت تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، فإذا تركتم ذلك سلّط الله عليكم أقواماً غلاظاً فظاظاً، خبّرتكم على قدر معرفتكم.

وأما قراءته وإعرابه المذكوران في المقامة، فإن شجاع بن نصر، قال: قلت لأبي عمرو: كيف طلبت قراءة القرآن؟ قال: لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ، وكما أنزل عليه، فقلت له: وكيف ذلك؟ قال: هرب أبي من الحجاج، وأنا شاب، فقدمنا مكة، فلقيت بها عدّة من التابعين ممّن قرأ على أصحاب رسول الله ﷺ، مثل مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وغيرهم، فقرأت عليهم القرآن، وأخذت العربية عن العرب الذين سبقونا باللحن، فهذه التي أخذت بها قراءة رسول الله ﷺ، فاشدّد يدك بها.

وقال: خرج أبي هارباً من الحجاج إلى اليمن، فإنّا لنسير في الصحراء باليمن إذ لحقنا لاحقاً ينشد: [الخفيف]

رَبِّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ رَلَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعَقَالِ^(١)

فقال له أبي: ما الخبر؟ فقال: مات الحجاج، فأنا بقوله: «فَرْجَةٌ» بفتح الفاء أشدّ سروراً مني بموت الحجاج، فقال أبي: اصرف ركبانا إلى البصرة.

الفنجديهي: رأيت في بعض الفوائد أنّ الحجاج قال لأبي عمرو: ما وجه قراءتك: ﴿لَا مَنَ اغْتَرَفَ غَرْفَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩] بفتح الغين؟ فقال: ابلعي ريقِي، فقال: قد أبلغتكَ الفرات. وقال: قاتل الله ابن أم الحجاج، لئن لم تأتني بالجواب إلى خمسة عشر يوماً لأقتلنك شرّ قتلة، ووكل به موكلين، فخرج أبو عمرو يطوف في أحياء العرب، فلم يجد له حُجَّةً إلى يوم وعده، فجرّه الموكلون به ليرجعوه إلى الحجاج، فسمع راعياً ينشد: رَبِّمَا تَجْزَعُ النَّفُوسُ . . . البيت، فقال له أبو عمرو: كيف تنشّد هذا البيت: له فَرْجَةٌ أو فَرْجَةٌ، فقال: فَرْجَةٌ وفَرْجَةٌ، وكذلك كلّ ما جاء على فَعْلَةٍ، فلنا فيه ثلاث لغات، فقال له أبو عمرو: فما سبب إنشادك هذا البيت في هذا الوقت؟ فقال: إنّنا كنّا خائفين من

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٥٠، وحماسة البحتري ص ٢٢٣، والكتاب ١٠٩/٢، ولسان العرب (فرج)، وله أو لحنيف بن عمير أو نهار ابن أخت مسيلمة الكذاب في شرح شواهد المغني ٧٠٧/٢، ٧٠٨، والمقاصد النحوية ٤٨٤/١، وله أو لأبي قيس صرمة بن أبي أنس أو لحنيف في خزنة الأدب ١١٥/٦، ولعبيد بن الأبرص في ديوانه ص ١٢٨، وبلا نسبة في أساس البلاغة (فرج)، والبيان والتبيين ٢٦٠/٣.

الحجاج، وقد بلغنا نعيه، قال: والله لا أدري بأيهما كنت أشدَّ فرحاً، بوجداني الجواب والحقَّة لقولي واختياري، أم بموت الحجاج!.

سفيان بن عيينة: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت له: يا رسول الله، قد اختلفت عليَّ القراءات، فبقراءة مَنْ تأمرني أن أقرأ؟ قال: بقراءة أبي عمرو بن العلاء.

وقال أبو العباس بن سريج: من أراد أن يتظرف فعليه بمذهب الشافعي، وقراءة أبي عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز، فقليل له: قد عرفنا مذهب الشافعي وقراءة أبي عمرو ابن العلاء، فأنشدنا من شعر ابن المعتز ما يوجب الظرف فأنشد: [المنسرح]

كنت صَبَاحِي قَرِيرَ عَيْنٍ فصرْتُ أُمْسِي صَرِيعَ بَيْنٍ
بعين نفسي أصبْتُ نفسي فالله بيني وبين عيني
وكان يقول: إنَّما نحن فيمن مضى، كبقل في أصول نُخل طوال.

وقال أبو عمرو: ناظرت عمرو بن عبيد في الوعيد، فقال: إن الله تعالى لا يُوعدنا بشيء فيخلفه، فقلت له: يا أبا عثمان، ليس لك علم باللغة، إنَّ خلف الوعيد عند العرب ليس بخلف، وأنشد: [الطويل]

وإني وإن أوعذته أو وعذته ليكذب إبعادي ويصدق مؤعدي^(١)

وقال أبو عمرو: كنت رأساً والحسن حيّ. وتوفّي بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن ست وثمانين سنة، وعلى قبره مكتوب «هذا أبو عمرو بن العلاء مولى بني حنيفة».

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بني حنيفة.

أبو عبيدة: دخل أبو عمرو على سليمان بن عبد الملك، فسأله عن شيء فصدقه فيه، فلم يعجبه ما قال، فخرج أبو عمرو وهو يقول: [المتقارب]

أنفت من الذلّ عند الملوك وإن أكرموني وإن قرّبوا
إذا ما صدقت لهم خفتهم ويرضون مني بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد: رأيت أبا عمرو في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: دعني مما فعل الله بي، مَنْ أقام ببغداد على السنّة والجماعة ومات، نُقل من جنة إلى جنة.

(١) يروى عجز البيت:

لمخلف إبعادي ومنجز موعدي

وهو لعامر بن الطفيل في ديوانه ص ٥٨، ولسان العرب (وعد)، (ختا)، وتاج العروس (ختأ).

[الأصمعي]

وأما ابن قُريب، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عليّ بن أصمع، وإلى أصمع هذا يُنسب. وأصمعُ فخذٌ من بني قتيبة بن معن بن أعصر بن سعيد بن قيس بن خِيلان، وبنو معن هُم بنو باهلة وباهلة، امرأة من هَمْدان تزوّجت معناً فَنُسب ولده إليها. والأصمع في اللغة الضامر الذي ليس بمنتفخ، ومنه الصُّومعه لضمّرها، وتدقيق رأسها، ومثله قولهم: جاء بشريدة مصمعة؛ إذا رققها وأخذ رأسها، وسهم متصمّع: متلطّخ بالدم، فانضمت قذذه.

وكان الأصمعيّ حافظاً عالمّاً عارفاً بأشعار العرب وأخبارها، كثير التطوّف بالبوادي لاقتباس علومها وتلقّي أخبارها، فهو صاحب غرائب الأشعار، وعجائب الأخبار، وقُدوة الفضلاء، وقبلة الأدباء، قد استولى على الغايات، في حفظ اللغات، وضبط العلوم الأدبيات، صاحب دين متين، وعقل رصين، وكان خاصّاً بالرشيد، أخذاً لإصلاّته كثيراً، وقد تقدّم في هذا الكتاب من الحكايات المسندة إلى الأصمعيّ، ما يدلّ على تبحّره وحفظه.

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريري هنا: حدّث الأصمعي رحمه الله، قال: أعرابي: حُسن التدبير مع الكفاف، أكفى من الكثير مع الإسراف.

الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: مَنْ كساه الحياء ثوبه، أخفى على الناس عيبه، الأصمعي: قال أعرابي: من اقتصد في الغنى والفقر، فقد استعدّ لثوابات الدهر.

قال: وقال أعرابي: عداوة الحكيم أقلّ عليك ضرراً من مودة الجاهل منهم.

قال: وقال أعرابي: أعجزُ النَّاس مَنْ قَصُر في طلب الإخوان، وأعجز منه مَنْ ضَيَّع مَنْ ظَفِر به منهم.

وقال: تزوّج أعرابي إلى بعض الحاضرة، فلمّا كان ليلة دخوله بها، إذا هي أدماء مجدورة، فخرج من البيت وهو ينشد ويقول: [السريع]

رَوَّجَتْنِي أدماء مجدورة كأنها من خشب البيت

قبيحة الوجه لها منظر يفتر منه ملك الموت

قال: وجرى بين أعرابي وبين امرأته كلام بالمزيد، فشمته، فقال لها: اسكتي، فوالله ما شعرك بوارد، وما فوك ببارد، ولا ثديك بناهد، ولا بطئك بوالد، ولا الخير فيك بزائد، ولا الشرّ فيك بواحد، وما أنا لك بحامد، ولا بعد موتك بواجد.

ونذكر بعد ذلك حكايته المشهورة مع الرشيد ووزرائه، ويحتمل طولها لما احتوت عليه من غرائب الآداب، وكان مجلس مذاكرة بين أفراد، فأظهر كلّ رجل منهم أفضل ما يذكر.

حدث الأصمعيّ قال: استدعاني الرشيد في بعض الليالي، وقد تصرّمت قطعة من الليل، فراعنتني رسله، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه، وإذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل، فلما لحظني الرشيد استدعاني، فدنوت منه فتبين ما لبسني من الوجمل، فقال لي: ليُفْرِخَ رُوعك، فما أردناك إلا لما يُراد له مثلك، فمكثتُ هُنيهةً إلى أن ثابت إليّ نفسي بعد أن كادت تطير شُعاءً، فقال: إني نازعتُ هؤلاء القوم في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، ولم يقع إجماعنا على بيت، فأردناك لفصل هذه القضية، واجتناء ثمرة الخطار فيها فقلت: يا أمير المؤمنين، إن التعبين على بيت واحد في نوع واحد - قد وسعت العرب فيه، وجعلته معلماً لأفكارها، ومستراحاً لخواطرها - لبعيد أن يقع النص عليه، ولكن أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس في قوله: [الطويل]

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرهَا الْعُتَابُ وَالْخَشْفُ الْبَالِي^(١)

وفي قوله: [الطويل]

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْجُلُنَا الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يَثْقُبْ^(٢)

وفي قوله: [المقارب]

وَلَوْ عَنْ نَأَا غَيْرِهِ جَاءَنِي وَجُرَحَ اللِّسَانِ كَجِرْحِ الْيَدِ^(٣)

وفي قوله: [الطويل]

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ^(٤)

فالتفت إليّ يحيى، وقال: هذه واحدة، قد نصّ على امرئ القيس أنه أبدعهم تشبيهاً. قال يحيى: هي لك يا أمير المؤمنين، ثم قال لي الرشيد: فما أبدع تشبيهاته عندك؟ قلت: قوله يصف فرسا: [المقارب]

كَأَنَّ تَشْوَقَهُ بِالضَّحَى تَشْوُفُ أَزْرَقَ ذِي مِخْلَبِ

إِذَا قَرَعَتْهُ حَلَالٌ لَهُ تَقُولُ سَلَبَتْ وَلَمْ تَسْلَبِ

فقال: هذا حسن، وأحسن منه قوله: [الطويل]

فَرُخْنَا بِكَابِنِ الْمَاءِ يُجَنَّبُ وَسَطُنَا تَصَوَّبَ فِيهِ الْعَيْنُ طَوْرًا وَتَرْتَقِي^(٥)

(١) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٣٨، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٤٤، ولسان العرب (أدب).

(٢) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٥٣، ولسان العرب (جزع)، وكتاب العين ١/٢١٦.

(٣) البيت في ديوان امرئ القيس ص ١٨٥، ولعمرو بن معديكرب في ملحقات ديوانه ص ٢٠٠، ولامرئ القيس أو لعمرو بن معديكرب في سمط اللآلي ص ٥٣١.

(٤) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٣١، وبلا نسبة في لسان العرب (حب)، وتهذيب اللغة ٤/١٠.

(٥) البيت في ديوان امرئ القيس ص ١٧٦، وأدب الكاتب ص ٥٠٥، ولسان العرب (كوف).

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، ما هذا التحكم؟ قال الرشيد: وكيف؟ قال: يذكر أمير المؤمنين ما وقع اختياره عليه، ونذكر ما اخترناه، ويكون الحكم واقعاً بعد، فقال الرشيد: أمرضت، فاستحسنها - يقال: أمرض الرجل: إذا قارب الصواب - ثم قال الرشيد: بل تبدأ يا يحيى، فقال يحيى: أحسن الناس تشبيهاً النابغة في قوله: [الكامل]

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظرت السقيم إلى وجوه العود^(١)
وفي قوله: [الطويل]

فإنك كالليل الذي هو مُذكرِي وإن خلت أن المنتأى منك واسع^(٢)
وفي قوله: [البسيط]

من وحش وجرة موشى أكارعه طاوي المصير كسيف الصقيل الفرد^(٣)
فقال الأصمعي: أما تشبيهه مرض الطرف فحسن، إلا أنه هجته بذكره العلة، وتشبيهه المرأة بالليل. وأحسن منه قول عدي بن الرقاع العاملي: [الكامل]

وكأنها بين النساء أعارها عينية أحور من جاذر جاسم^(٤)
وسنان أقصده النعاس فرثقت في عينه سنة وليس بنائم
وأما تشبيه الإدراك بالليل، فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه، وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم، حتى يأتي بمعنى يفرد به، ولو قال قائل: إن قول النمرى في هذا أحسن، لوجد مساعاً إلى ذلك حيث يقول: [الطويل]

فلو كنت بالعنقاء أو بسنامها لخلت إلا أن تُصد تراني
وأما قوله: [البسيط]

* طاوي المصير كسيف الصقيل الفرد *

فالطرماح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوده وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه، وقول الطرماح: [الطويل]

يَبْدُو وتُضمِرُه البلاد كأنه سيف على شرف يسَل ويُغمَد^(٥)

(١) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٩١.

(٢) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٣٨، ولسان العرب (طور)، (نأى)، وكتاب العين ٣٩٣/٨.

(٣) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٧، وبلا نسبة في لسان العرب (فرد)، وتهذيب اللغة ٩٩/١٤.

(٤) البيت الأول لعدي بن الرقاع في ديوانه ص ٩٩، ولسان العرب (جسم)، والبيت الثاني في ديوان عدي ص ١٠٠، ولسان العرب (نمس)، (رنق)، (وسن).

(٥) البيت في ديوان الطرماح ص ١٤٦، وأساس البلاغة (ضمر)، والحيوان ٣/٤٦٥، وكتاب الصناعتين ص ٨٥، ٢٥٣.

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله: «وتضمّره البلاد» وتشبيهه اثنين بقوله: «يبدو وتضمّر» «ويسلّ ويغمّد»، وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة.

قال الأصمعيّ: فاستبشر الرشيد وبرّقت أسارير وجهه، حتى خلت برقاً يومض منها، وقال ليحيى: فضلتك ورب الكعبة، فانتقع يحيى، فكأنّ الرّماد ذرّ على وجهه، قال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين، حتى أمر ما قلته بسمعه، فقال: قل، قال: أحسن الناس تشبيهاً طرفه في قوله: [الطويل]

ووجه كأنّ الشمس ألقت رداءها عليه نقيّ اللون لم يتخذد^(١)
وفي قوله: [الطويل]

يشقّ حباب الماء خيزومها بها كما قسم الثّرب المقيال باليد^(٢)
قال: فقلت: هذا حسن وغيره أحسن منه، قد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء، وبعد فطرفة صاحب واحدة، لا يقطع بقوله مع التجوّز، وإنما يعدّ من أصحاب الواحدة قال: ومن أصحاب الواحدة؟ قلت: الحارث بن حلّزة في قوله: [الخفيف]

أذنّنا بينها أسماء رُبّ ثاوٍ يملّ منه الثّواء^(٣)
والأسعر الجعفي في قوله: [الطويل]

هل دان قلبك من سلّيمي فأشتفي ولقد عنيت بحبّها فيما مضى
والأفوه الأوديّ في قوله: [الرمل]

إنّ ترى رأسي فيه قدّع وشوايتي خلة فيها دوار^(٤)
وعلقمة في قوله: [الطويل]

* طحا بك قلب في الحسان طروب^(٥) *

وسويد بن أبي كاهل في قوله: [الرمل]

(١) البيت في ديوان طرفه بن العبد ص ٢١، ولسان العرب (ردى).

(٢) البيت في ديوان طرفه بن العبد ص ٢١، ولسان العرب (حب)، (فيل)، وكتاب العين ٣/ ٣٢، ٨/ ٣٣٥.

(٣) البيت للحارث بن حلّزة في ديوانه ص ١٩، والأغاني ١١/ ٣٦، وشرح القصائد السبع ص ٤٣٢، وشرح القصائد العشر ص ٣٧٠، وشرح المعلقات السبع ص ٢١٦، وشرح المعلقات العشر ص ١١٩، ولسان العرب (أذن)، (قفا)، (قوا).

(٤) البيت في ديوان الأشعر الجعفي ص ١١.

(٥) عجزه:

بَسَطْتُ رَابِعَةَ الْحَبْلِ لَنَا فوصلنا الحبلَ منها فأتَّسَع

وعمر بن كلثوم في قوله: [الوافر]

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاضْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا^(١)

وعمر بن معد يكرب في قوله: [الوافر]

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَزِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ^(٢)

فاستخفت الرشيد الأريحية، وقال: ادنه، فَإِنَّكَ جُحِيشَ وَحْدِكَ، وزدت في عيني

نبلا، فقال جعفر: [الرجز]

* لَبُثْ قَلِيلاً يَدْرِكُ الْهَيْجَا حَمَلُ^(٣) *

يعرض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله، فقال له الرشيد: فاتتك والله السوابق، وجئت سُكِيناً ذا زوائد أربع، قال: ورأيت الحمية في وجهه، فقال جعفر: على شريطة حلمك. قال: أترأه يسع غيرك ويضيق عنك؟ فقال جعفر: لست أنصُ على شاعر واحد أنه أحسن الناس في بيت تشبيهاً، ولكن قول امرئ القيس: [الطويل]

كَأَنَّ غُلَامِي إِذْ عَلَا حَالَ مِثْنِهِ عَلَى ظَهْرِ بَارِزٍ فِي السَّمَاءِ مَحَلِّ^(٤)

وقول عدي بن الرقاع: [الكامل]

يَتَعَاوِرَانِ مِنَ الْغُبَارِ مَلَاءَةً غَبْرَاءَ مُحْكَمَةً هُمَا نَسَجَاهَا^(٥)

تَطْوِي إِذَا وَرَدَا مَكَاناً جَاسِياً وَإِذَا السَّنَابِكُ أَسْهَلَتْ نَشْرَاهَا

وقول النابغة: [الطويل]

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعْتَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ^(٦)

قال الأصمعي: قلت: هذا حسن كُلُّهُ بارع، وغيره أحسن منه، وإنما يجب أن يقع

(١) البيت في ديوان عمرو بن كلثوم ص ٦٤، وخزانة الأدب ١٧٨/٣، ولسان العرب (مدر)، (ندر)، (صحن).

(٢) البيت في ديوان عمرو بن معديكرب ص ١٤٠، والأصمعي ص ١٧٢، والأغاني ٤/١٠، ولسان العرب (سمع).

(٣) الرجز لحمل بن سعدانة بن عليم العليني في تاج العروس (حمل)، وبلا نسبة في لسان العرب (حمل).

(٤) البيت في ديوان امرئ القيس ص ١٧٣، والمخصص ٢٣٣/١٤، وبلا نسبة في لسان العرب (حول).

(٥) البيت في ديوان عدي بن الرقاع ص ٥٠، وأساس البلاغة (جساً)، والطرائف الأدبية ص ٩٦.

(٦) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١٣.

التعيين على ما اخترعه قائله فلم يُتعرَّض له، أو تعرَّض له شاعر، فوقع دونه، فأما قول امرئ القيس: [الطويل]

* على ظهرِ بازٍ في السَّماءِ محلِّي *

فمن قول أبي دواد: [الطويل]

إذا شاء راکِبُه ضَمَّه كما ضمَّ بازي السماء الجناح^(١)

وأما قول عدي: [الكامل]

* يَتَعَاورَانِ مِنَ الْغُبَارِ مَلَاءَةٌ *

فمن قول الخنساء: [الكامل]

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهَمَّا يَتَعَاورَانِ مُلَاءَةُ الْحُضُرِ^(٢)

وأول من نطق به جاهلي من بني عقيل، قال: [الطويل]

أَلَا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالْبَرَدَانِ عَقَّتْ جَجَجٌ بَعْدِي لَهَنَ ثَمَانِي^(٣)

فلم يبق منها غير نوى مهتم

وأثار هابٍ أوزق اللون سافرت

قِفَارٌ مَرُورَةٌ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا

يُثِيرَانِ مِنْ نَسِجِ الْغُبَارِ عَلَيْهِمَا

وشارك عدياً أبو النجم، وأورده في أحسن لفظ، قال يصف غيراً وأتانا وما أثاراه

من الغبار بعدوهما: [الرجز]

أَلْقَى بِجَنْبِ الْقَاعِ مِنْ حِيَالِهَا سَرِيَالَهُ وَانْشَامَ فِي سِرِّيَالِهَا

وأما قول النابغة: [الطويل]

* بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَلُوكُ كَوَاكِبٌ *

فقد تقدّمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند، وهو أحقّ به من

النابغة؛ إذ كان أبا عُذْرَتِهِ، فقال: [الطويل]

(١) يروى البيت:

إذا شاء فارسه ضَمَّه كما ضمَّ بازي السماء الجناحا

وهو في ديوان أبي دؤاد الإيادي ص ١٣.

(٢) البيت في ديوان الخنساء ص ٢٥٩.

(٣) الأبيات في خزنة الأدب ٢٧٦/٣، ومعجم البلدان ٣/٥.

كادَتْ تَمِيدُ الْأَرْضَ بِالنَّاسِ إِذْ رَأَوْا لِعَمْرَوِ بْنِ هَنْدٍ غَضِبَةً وَهُوَ عَاتِبُ
هُوَ الشَّمْسُ وَأَقْتِ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمَلُوكِ كَوَاكِبُ

قال: فكأنني والله ألقمت جعفرًا حَجَرًا. فاهتز الرشيد فوق سريره، وكاد يطير عَجَبًا وطربًا، وقال: والله، ليله ذَرَكْ يا أصمعي، اسمع الآن ما كان وقع عليه اختياري، فقال: ليقبل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه، فقال: عَيَّنْتَ على ثلاثة أشعارٍ، أقسم بالله إنني أملك السبق بأحدها، فقال يحيى: خَفَضَ على هينتك، فأبى الله إلا أن يكون لك الفضل، ثم قال الرشيد: أتعرف يا أصمعي تشبيهاً أفخَرَ وأعظم في أحقر مثبته وأصغره في أحسن معرض، من قول عنترة الذي لم يسبقه إليه سابق، ولا نازعه منازع، ولا طمع في مجاراته طامع، حين شبه ذباب الروض العازب في قوله: [الكامل]

وخلَا الذَّبَابُ بِهَا فليس ببارِحِ غِرْدًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ المِترُثُ^(١)
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ فَعَلَ المُكِبِّ على الزَّنَادِ الأَجْدَمِ

ثم قال: يا أصمعي هذا من التشبيهات العُظم التي لا تنتج، شبهت بالريح العقيم التي لا تُنتج ثمرة، ولا تلقح شجرة، فقلت: كذلك هو يا أمير المؤمنين، وبمجدك آليت ما سمعت قط أحداً يصف شعراً بأحسن من هذه الصفة، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية، فقال: مهلاً، لا تعجل! أتعرف أحسن من قول الحُطَيْثَةِ يصف لُغَامَ نَاقَتِهِ، أو تعلم قبله أو بعده شبه تشبيهه حيث يقول: [الطويل]

تَرَى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إِذَا مَا تَرَعَمَتْ لُغَامًا كَنَسَجِ العَنَكِبُوتِ المَمْدَدِ^(٢)

فقلت: والله ما علمتُ أحداً تقدّمه إلى هذا التشبيه، أو أشار إليه بعده ولا قبله، قال: أتعرف بيتاً أبدع وأوقع من تشبيه الشّماخِ لنعامةٍ سقط ريشها، وبقي أثره في قوله: [البيط]

كَأَنَّمَا مُنْتَنَى أَقْمَاعٍ مَا مَرَّطَتْ مِنَ الْعِفَاءِ بِلِيَّتَيْهَا الثَّالِيلِ^(٣)

فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فالتفت إلى يحيى، فقال: أوجب، فقال: وجب، فقال: أأزيدك؟ فقال: وأي خيرٍ لَمْ يَرِذْنِي منه أمير المؤمنين! قال: وقول النابغة الجعدي: [الطويل]

رَمَى ضَرْعٍ نَابٍ فَاسْتَهَلَ بِطَعْنَةٍ كَحَاشِيَةِ البُرْدِ اليماني المِسْهَمِ^(٤)

(١) البيتان في ديوان عنترة ص ١٩٧، والبيت الأول في أساس البلاغة (هزج)، والبيت الثاني في لسان العرب (قدح).

(٢) البيت في ديوان الحطّية ص ٤٩، ولسان العرب (رغم)، وتاج العروس (رغم).

(٣) البيت في ديوان الشماخ ص ٢٧٨.

(٤) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص ١٤٣.

ثم التفت إلى الفضل، فقال: أوجب؟ قال: وجب، قال: أزيدك، قال ذلك لأمير المؤمنين، قال: قول الأعرابي: [الطويل]

به ضرب أنداد العطايا كائنه ملاعب ولدان تحط وتمضغ

ثم التفت إلى جعفر، فقال: أوجب؟ قال: وجب، قال: أزيدك، قال: لأمير المؤمنين علو الرأي، قال: قول عدي بن الرقاع: [الكامل]

تُزجِي أغنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قلم أصاب من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا^(١)

فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا بيت حسدٍ عدياً عليه جرير، قال: وكيف ذلك؟ قلت: زعم أبو عمرو بن العلاء أن جريراً قال: لما ابتدأ عدي يَنشد: [الكامل]

* عرفَ الدِّيارَ تَوْهُماً فاعتادَهَا^(٢) *

فقلت في نفسي: ركب والله مركباً صعباً، سيُبدع فيه، فما زال يتخلّص من حَسَنِ إلى حسن، إلى أن قال: [الكامل]

* تُزجِي أغنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ *

فرحمته، وظننت أن مادته تَقْصُر به، فلما قال: [الكامل]

* فلم أصاب مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا *

حالت الرحمة حَسَدًا، فقال: لله أبوك يا أصمعي؟ ثم أطرق ورفع رأسه، وقال: أتراك تعينني في انحطاطك في هواي؟ فقلت: كلا يا أمير المؤمنين، إنك لتجل عن ذلك، قال: انظر خمساً، قلت: قد نظرت، قال: فالسُّبْق لمن؟ قلت: لأمير المؤمنين، قال: فقد أسهمت لك في العُشْر والعُشْر كثير، ثم رمى بطرفه إلى يحيى، وقال: المال الساعة، وأولى لك! فما كان ساعة حتى حضرت البِدْر بيني وبينه، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع، فأشار إلى خادم على رأسه، كم هي؟ فقال: ثلاثة آلاف ألف درهم، فقال: دونك احتمل ثلاثين ألفاً إلى منزلك، ونهض عن مجلسه، وأمر الخَدم بمعاونتي على حَمْلِهِ، فكانت أسعدَ ليلة ابتسم فيها الصباح عن أحدٍ بالغنى. فهذه الحكاية تدلُّك على تبخره في علوم العربية وسعة حفظه.

تبع ابن الرَّمادي عترة في قوله: «وخلا الذباب» بقوله: [الطويل]

(١) البيت في ديوان عدي بن الرقاع ص ٣٥، ولسان العرب (بلد)، (قرش)، (زجا).

(٢) عجزه:

من بعد شمل البلى أبلاذها

والبيت في ديوان عدي بن الرقاع ص ٣٣، ولسان العرب (بلد)، والأغاني ٢٩٠/١.

وكأسٍ كريق الإلف شَغَشَعَهَا به
وعيشي مَن هذا الشُّراب المُشَغَّشَعِ
إذا ما شربنا كأسنا صُبَّ فضلُها
على روضنا للمسِّعِ المتخلِّعِ
وقال ابن الرومي: [الطويل]

وأذكى نسيْمُ الروض ريعانَ ظلِّه
وعَنِّي مغْنِي الطير فيه فرجعا
وكانتْ أهزِيجُ الذباب هنا كم
على شِدَوَاتِ الطير صوتاً موقَّعا

وكان أبوه قُريب بخلافه، كان نذلاً خسيساً، وكان عطاء الملك أتى بجماعة من البصرة إلى قُريب فوجدوه ملتقاً بكساء، نائماً للشمس، فوكزه برجله، وصاح به: قم يا قُريب ويلك! قال: أَلْقَيْتُ أحداً من أهل العلم قطّ أو من أهل اللغة أو الفقهاء أو من المحدثين؟ قال: لا والله، قال لِمَنْ حَضَرَ: اشهدوا على ما سمعتم، لا يقول لكم غداً الأصمعيّ أو بعد غد: أنشدني والدي أو حدّثني؛ ففضحه.

ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعيّ: حدّثني أبي قال: أتني عبدُ الملك بن مَرْوان برجل مع بعض مَنْ خرج عليه، فقال: اضربوا عنقه، فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ما هذا جزائي منك، قال: وما جزاؤك؟ قال: والله ما خرجت مع فلان إلّا بالتطير لك، وذلك أتى رجل مشؤوم، ما كنت مع رجل قط إلّا غلب وهُزِمَ، وقد بان لك صحة ما ادّعت به، وكنت عليك خيراً لك من مائة ألف معك. فضحك منه وخلّى سبيله.

وكان للأصمعيّ بَنٌ ظريف، فقيل له يوماً: أين أبوك؟ فقال: في بيته يكذب على الأعراب.

ومرض الأصمعيّ فعاده أبو ربيعة - وكان يحب أهل الأدب - فقال له: أقرضني خمسة آلاف درهم، ففعل، وقال: أتستهي غير هذا؟ فقال: نعم، فصأ حسناً، وسيفاً قاطعاً، وبرذوناً حسناً وسَرْجاً محليّ، فبعث بذلك إليه.

وكان إسحاق الموصليّ يعظّمه ويقرأ عليه، فدخل الأصمعيّ يوماً على الفضل بن يحيى وإسحاق ينشده في صفة فرس: [الرجز]

كأنه في الجَلّ وهو سامٍ
مشمّلٌ جاء من الحَمَامِ
يسور بين السَّرج واللجامِ
سور القطامي إلى الجَمَامِ

فقال الأصمعيّ: هات بقيّتها، فقال له إسحاق: ألم تقل لي: ما بقي منها شيء فقال: ما بقي إلّا عيونها. ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتاً، فغضب إسحاق وعزّف الفضل قِلَّةَ شكره لعارفة، وبخله بما عنده، وأخذ يصف فضل أبي عبيدة ونزاهته، وبذله لما عنده، واشتماله على علوم العرب، فأنفذ إليه الفضل مالاً جليلاً، واستقدمه من البصرة، وسعى بالأصمعيّ عند الرشيد؛ حتى حطّ منزلته. وقال إسحاق يهجوه: [الوافر]

أصْنِمَعَ بِأَهْلِيَّاءِ يَسْتَطِيلُ أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ قِرْدَاً
أَبَا عَمْرٍو وَيَسْأَلُهُ الْخَلِيلُ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُفْتَى
لَمَّا يَأْتِي بِهِ وَلَمَّا يَقُولُ إِذَا مَا قَالَ: «قَالَ أَبِي» عَجِبْنَا
تَزُولُ الرَّاسِيَّاتُ وَلَا يَزُولُ وَجَلَلَهُ عَطَاءُ الْمُلْكِ عَارَاً
وَحَادِبُهُ عَنِ الْقَضْدِ السَّبِيلُ فَقُلْ لِأَبِي رُبِيعَةَ إِذْ عَصَانِي
وَضَاعَ الْفَضُّ وَالسَّيْفُ الصَّقِيلُ لَقَدْ ضَاعَتْ بُرُودُكَ فَاخْتَسَبْنَاهَا
بَأَنَّكَ غَبْنَهَا لَا تَسْتَقْبِلُ فَأَمَّا الْخَمْسَةُ الْآلَافُ فَاعْلَمْ
وَالْأَصْمَعِي لَا يَقْدَحُ هَذَا الْقَدْرُ فِي جَانِبِهِ، لِأَنَّ بَعْضَ مُحَاسِنِهِ يَغْطِي عَلَى كُلِّ
مِثَالِهِ .

وكان منشؤه بالبصرة، وبها تُوفِّيَ سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا وثمانين سنة .
قوله : محرابي، وما بعده في معناه، يعني قَرْجَهَا . والإمام وما بعده، يعني به
ذَكَرَهُ . وَسَمِّيَ محراب المسجد محراباً لأنه يباعِدُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَقْرَبَهُ، إِذْ هُوَ أَرْفَعُ
مَا فِي الْمَسْجِدِ، وَفُلَانٌ حَزْبٌ لِفُلَانٍ، أَي مَبَاعِدُ لَهُ . وَالْقِرَابُ : وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ يُجْعَلُ فِيهِ
السَّيْفُ مَعَ غَمْدِهِ . وَالْقِرَابُ : وَعَاءُ الزَّادِ .

فَقَالَ لَهُمَا الْقَاضِي : أَرَأَيْتُمَا شَيْئاً وَطَبَقَةً، وَجِدَاءَةً وَبُنْدُقَةً، فَاتَرَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ
اللَّدَدَ، وَاسْلُكْ فِي سَيْرِكَ الْجَدَدَ . وَأَمَّا أَنْتَ فَكُفِّ عَنِ سَبَابِهِ، وَقِرِّي إِذَا أَتَى الْبَيْتَ
مِنْ بَابِهِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَاللَّهِ مَا أَسْجُنُ عَنْهُ لِسَانِي، إِلَّا إِذَا كَسَانِي، وَلَا أَرْفَعُ لَهُ
شِرَاعِي، دُونَ إِشْبَاعِي . فَحَلَفَ أَبُو زَيْدٍ بِالْمَحْرَجَاتِ الثَّلَاثِ، إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ سِوَى
أَطْمَارِهِ الرِّثَاثَ .

فَنَظَرَ الْقَاضِي فِي قَصَصِهِمَا نَظَرَ الْأَلْمَعِيِّ، وَأَفْكَرَ فِكْرَةَ اللُّؤْذَعِيِّ . ثُمَّ أَقْبَلَ
عَلَيْهِمَا بِوَجْهِ قَدْ قَطَبَهُ، وَمِجَنُّ قَدْ قَلَبَهُ، وَقَالَ : أَلَمْ يَكْفِكُمَا التَّسَافُهُ فِي مَجْلِسِ
الْحُكْمِ، وَالْإِقْدَامُ عَلَى هَذَا الْجُرْمِ، حَتَّى تَرَاقَيْتُمَا فِي فُحْشِ الْمُقَادَعَةِ، إِلَى خُبْتِ
الْمُخَادَعَةِ ! وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ أَخْطَأْتَ اسْتُكْمَا الْحُفْرَةَ، وَلَمْ يُصِبْ سَهْمُكُمَا الثُّغْرَةَ ؛ فَإِنَّ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَعَزَّ اللَّهُ بَقَائِهِ الدِّينَ، نَصَبَنِي لِأَقْضِي بَيْنَ الْخُصَمَاءِ ؛ لَا لِأَقْضِيَ دَيْنَ
الْغُرَمَاءِ . وَوَحَقُّ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَحَلَّتْ لِي هَذَا الْمَحَلَّ، وَمَلَكَتْ لِي الْعَقْدَ وَالْحَلَّ، لَنْ لَمْ

تَوْضَحًا لِي جَلِيَّةَ خَطْبِكَمَا، وَخَيْثَةَ خَبُّكَمَا، لَأَنْدَدَنَّ بِكُمَا فِي الْأُمْصَارِ، وَلَأَجْعَلَنَّكُمَا
عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ.

وَاللَّدَدُ: شِدَّةُ الْخَصُومَةِ. الْجَدَدُ: الْأَرْضُ الصَّلْبَةُ، وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: أَسْلَكَ فِي
سِرِّكَ الْجَدَدَ، جَامِعُهَا فِي الْفَرْجِ لَا غَيْرُهُ، وَفِي الْمَثَلِ: مَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ أَمِنَ الْعَثَارَ.
قَرِي: اسْكُنِي. الْبَيْتَ، كُنَايَةً عَنْ فَرْجِهَا. مِنْ بَابِهِ، يَرِيدُ أَلَّا يَأْخُذَ الْجَارُ بِالْجَارِ.
وَقَوْلُهَا: إِلَّا إِذَا كَسَانِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اغْرُوا النِّسَاءَ يَلْزُمَنَّ الْجِجَالُ»^(١).
وَالشَّرَاعُ: قَلْعُ السَّفِينَةِ، وَأَرَادَتْ بَرْفَعَهُ كَشَفَ ثِيَابَهَا وَرَفَعَ رَجْلَيْهَا حِينَ يَطْوُهَا، وَقَالَ
أَبُو نَوَاسٍ فِي مَعْنَاهُ: [الْمُقَارَبُ]

تَرْفُقُ قَلِيلًا قَدْ أَوْجَعْتَنِي وَأَلْحَقْتَ قُرْطِي بِخَلْخَالِيهِ
وَالْقُرْطُ فِي الْأُذُنِ، وَالْخَلْخَالُ فِي الرَّجْلِ، فَانْظُرْ مَتَى يَجْتَمِعَانِ. وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ
فِي ذَلِكَ: [الْبَسِيطُ]

يَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ لَوْ بَصُرْتَ بِهَا إِذَا الْأَكْفَ لَسَاقَيْنِهَا خَلَاخِيلُ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ: [الْمَنْسَرَحُ]

لَمْ تَخْطُ بِبَابِ الدَّهْلِيزِ خَارِجَةً إِلَّا وَخَلْخَالَهَا مَعَ الشُّنْفِ^(٢)
وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ: [الْكَامِلُ]

لَوْ أَنَّ رَجُلِي عَزَسْنَا يَدَاهَا مَا أَخْطَأَتْهَا رَحْمَةٌ تَغْشَاهَا
قَدْ خُلِقَتْ مَرْفُوعَةً رِجْلَاهَا كَأَنَّمَا يَسْتَغْفِرَانِ اللَّهَ
وَلَهُ أَيْضًا: [الرَّجَزُ]

شَيْخٌ لَنَا يَكْنَى أَبَا حَفْصَلٍ أَقْرَنُ مِثْلَ الْأَيْلِ الْأَثْوَلِ
تَبِيتَ فِي مَنْزِلِهِ نِسْوَةٌ يَلْبَسُنَ ثُوبَ اللَّيْلِ كَالْمَنْزَلِ
يَعْمَلْنَ فِيهِ عَمَلًا صَالِحًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ إِلَى أَسْفَلِ
يَسْتَغْفِرُ النَّاسَ بِأَيْدِيهِمْ وَهَنْ يَسْتَغْفِرْنَ بِالْأَرْجُلِ

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قُلْتُ لِأَمَةِ ظَرِيفَةٍ: يَا جَارِيَةُ هَلْ فِي يَدَيْكَ عَمَلٌ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ
فِي رَجْلِي.

(١) رَوَاهُ ابْنُ الْأَثِيرِ الْجَزْرِيُّ فِي النِّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ ٣٤٦/١.

(٢) الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِ الْبَحْتَرِيِّ ص ١٤١١.

والمحرّجات الثلاث: هي الطّلاق والعِثْق والمَشْي إلى مكة، وقيل: هي الطّلاق الثلاث ومحرّجات: فيها حَرَج، أي إثم وضيق.

وحدّث أبو حاتم، عن الأصمعيّ عن عيسى بن عمر، قال: اشتكى رجل امرأته، فقال له شيخ من بني نصر، كان أسنّ منه: ألا نكشفها بالمحرّجات - يعني الطلاق - قال: قاتلك الله! فما أغزك، وعليّ الطلاق ثلاثاً.

حدّثنا أبو بكر محمد بن أسد الدبليّ قال: سمعت أبا فتنان الدارع يقول: الطلاق الثلاث البتّ لازم لي، لقد سمعتُ أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول: الطلاق الثلاث، البتّ لازم لي، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء، يقول الطلاق الثلاث البتّ لازم لي، إن كانت العرب قالت أخكم من هذه الآيات: [الكامل]

كُنْ لِلْمَكَارِهِ بِالْعَزَاءِ مَقْتَعاً	فَلَعَلَّ يَوْماً لَا تَرَى مَا تَكْرَهُ
فَلَرَبِّمَا اسْتَرْتِ الْفَتَى فَتَنَافَسَتْ	فِيهِ الْعَيُونَ وَإِنَّهُ لَمَمُوءُ
وَلَرَبِّمَا خَزَنَ الْكَرِيمُ لِسَانَهُ	حَذَرَ الْجَوَابِ وَإِنَّهُ لَمَفُوءُ
وَلَرَبِّمَا ابْتَسَمَ الْكَرِيمُ مِنَ الْأَذَى	وَفَوَّادَهُ مِنْ حَرِّهِ يَتَأَوُّهُ

قوله: أطماره الرّثاث، أي ثيابه الخلقة. الألمعيّ: المتوقّد الحاضر الذّهْن.

ابن الأعرابي: الألمعيّ: الذي إذا لمع له أوّل الأمر عرف آخره، فيكتفي بظنّه دون تعيينه. واللّودعيّ: الفطن الذّكيّ الظريف الحديد الفؤاد. قطّبه: عبّسه. مجنّ: تُرْس. وقلّبه، كناية عن إبداء الشرّ بعد الخير، وقد تقدّم. التّسافه: الإفحاش. والشّم: الجُزْم: الذنب. المقاذعة: المشاتمة بما فحش. الثُّغرة: الحفيرة في أصل العُنق. خَبِكما: خداعكما وغشكما. أنذدّن: أسمع الناس بما يتالكما عندي من المكروه، ونذّد به: شتمه وأسمعه القبيح. الأمصار: البلاد. عبرة: موعظة. أولي الأبصار: أهل العقول.

فأطرق أبو زيد إطراق الشُّجاع، ثم قال له: سَمَاعِ سَمَاعِ: [الرجز]

أَنَا السَّرُوجِيّ وَهَازِي عَزِيّ	وَلَيْسَ كُفّاً الْبَدْرِ غَيْرُ الشَّمْسِ
وَمَا تَنَافَى أَنْسَهَا وَأَنْسِي	وَلَا تَنَاءَى دِيرُهَا عَنْ قُسِّي
وَلَا عَدَتْ سُقْيَايَ أَرْضَ غَزِيّ	لَكِنَّا مُنْذَلِيَالِ خَمْسِ
نُضْبِحُ فِي ثَوْبِ الطَّوَى وَنُْمْسِي	لَا نَعْرِفُ الْمَضْغَ وَلَا التَّحْسِي
حَتَّى كَأَنَّا لِحُفُوتِ النَّفْسِ	أَشْبَاحُ مَوْتَى نُشِيرُوا مِنْ رُمْسِ
فَحِينَ عَزَّ الصَّبْرُ وَالتَّأْسِي	وَشَقْنَا الضَّرُّ الْأَلِيمُ الْمَسِّ
قُمْنَا لَسْغِدِ الْجَدِّ أَوْ لِلنَّحْسِ	هَذَا الْمَقَامُ لاجْتِلَابِ فَلْسِ

وَالْفَقْرُ يُلْجِي الْحَرَّ حِينَ يُزِي
إِلَى التَّجَلِّي فِي لِبَاسِ اللَّبْسِ
فَهَذِهِ حَالِي وَهَذَا دَرَسِي
فَانْظُرْ إِلَى يَوْمِي وَسَلْ عَنْ أَمْسِي
وَأُمُرْ بِجَبَرِي إِنْ تَشَأْ أَوْ حَبْسِي
فَفِي يَدَيْكَ صِحَّتِي وَنُكْسِي

* * *

أطرق: أمال رأسه ساكناً. الشُّجَاع: الحية. سماع سماع، أي اسمع مني، كُفء
البدر: أي نظيره، والكفاء: النُّظير والمِثْل. ذَبْرُهَا: فرجها. قُتِي: ذَكَرِي. وأصل الذَّيْر
للنصارى، والقَسَّ والقَسيس: عالمهم وعابدهم. عَدَتْ: جارت وخرجت عن طريقها.
وَالسُّقْيَا: الشرب، وهي هنا مصدر بمعنى السَّقْي. والتَّحْسِي: شرب الحَسْوَة، وأراد
بالمضغ والتَّحْسِي أكل الخُبْز واللحم، وحَسْو مرقه. وقيل: المضغ في الرِّخَاء والحَسْو
في الشدَّة، كاستعمالهم فيها حَسْو السَّخِينَة وغيرها. وعَزَّ: قَلَّ. التَّأْسِي: الاقتداء بالغير،
وقد تَأَسَّى تَأْسِيًا إِذَا اقْتَدَى بِفَعْلٍ غَيْرِهِ وَتَصَبَّرَ، وهذا بابٌ غلبت عليه الخنساء بقولها:
[الوافر]

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي^(١)
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ
أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي
فَزَادَ عَلَيْهِ ابْنُ الْعَبَّاسِ الرُّومِي، فِي الْمَعْنَى وَبَيْنَهُ حَتَّى اسْتَحَقَّه حَيْثُ قَالَ: [الوافر]

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَجْرَحُ ثُمَّ يَأْسُو
يُؤْسِي أَوْ يَعْوِضُ أَوْ يَنْسِي
أَبَتْ نَفْسِي الْهَلَاغَ لِرِزْءِ شَيْءٍ
كَفَى رِزْءًا لِنَفْسِي رِزْءُ نَفْسِي
أَتَجَزَّعُ وَحِشَةً لِفِرَاقِ الْفِ
وَقَدْ وَطَنْتُهَا لِحُلُولِ رَمْسِي

فذهب في هذه الأبيات كلَّ مذهب، ثم أراد أن يظهر ما عنده من فضل المنة
وحُسن التصرف، فقال: [الخفيف]

يَا شَبَابِي وَأَيَّنْ مِثِّي شَبَابِي
وَمَعَزَّ عَنِ الشَّبَابِ مَوْسُ
قَلْتُ لِمَا انْتَحَى يَغْدَأُ سَاهُ
بِمِصَابِ شَبَابِهِ بِمِصَابِ
لَيْسَ تَأْسُو كُلُّوْمُ غَيْرِي كُلُّوْمِي
مَابِهِ مَابِهِ وَمَا بِي مَا بِي

وَكَزَّرَ هَذَا الْمَعْنَى فَأَحْسَنَ مَا شَاءَ، وَذَهَبَ فِيهِ مَذَاهِبُ أُخْرَى، فَقَالَ: [الطويل]
خَلِيلِي قَدْ عَلَلْتُمَانِي بِالْمُنَى
وَأَنْعَمْتُمَا لَوْ أَنَّ بِي أَتَعَلَّلُ
أَلْنَّاسَ إِيشَارِي وَإِلَّا فَمَا الْأَسَى
وَعِيشِكُمَا إِلَّا ضَلَالٌ مُضَلَّلُ

وما راحة المرزوء في رزء غيره
كَيْلاً حَامِلِيْ أَوْ فِي الرِّزِيَةِ مَثْقُلُ
أَيَحْمَلُ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَتَحَمَّلُ !
وَلَيْسَ مَعِيناً مَثْقُلُ الظَّهْرِ مَثْقُلُ
تَعَزَّيْكَ بِالْمَرْزُوءِ حِينَ تَأْمَلُ
وَلابن رَشِيْق : [المقارب]

رَأَيْتُ التَّعَزِّيَّ مِمَّا يَهِيْجُ
وَمَا نَالَ ذُو أَسْوَةِ سَلْوَةٍ
عَلَى الْمَرْءِ سَاكِنَ أَوْ صَابِهٍ
وَلَكِنْ أَتَى الْحَزْنَ مِنْ بَابِهِ
تَفَكَّرَ فِي مِثْلِ أَرْزَائِهِ
فَذَكَرَهُ مَا بِهِ مَا بِهِ
وَقَالَ ابْنُ رَشِيْق : أَخَذْتُهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ : [الوافر]

وَذُو السُّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى
وَأَخَذَهُ عَمْرٌ مِنْ قَوْلِ مَتَمِّ بْنِ نُورَةَ : [الطويل]

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ
لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالذُّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الْأَسَى يَنْبَعُ الْبُكَاءِ
دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرِ مَالِكٍ

خُفُوتَ : ضَعْفُ النَّفْسِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ ، وَخَفَّتْ خَفُوتًا : ضَعْفٌ وَسُكُنٌ وَمَاتَ .
وَالْأَشْبَاحُ : الْأَشْخَاصُ ، وَأَصْلُ الشُّبْحِ الشَّخْصُ تَبْصُرُهُ عَلَى بَعْدٍ ، فَلَا تَعْرِفُ مَا هُوَ ، وَيَقَعُ
الشُّبْحُ عَلَى كُلِّ شَخْصٍ مَرْتِيٍّ . نُشِرُوا : أَحْيَا . رَمَسَ : قَبَرَ ، وَالْمَسَ : لَصُوقَ جَارِحَةً
بِأُخْرَى . الْجَدُّ : الْحِظُّ وَالنَّصِيبُ . يُزْسِي : يَثْبِتُ وَيَقِيمُ . التَّجَلَّى : الْبُرُوزُ وَالظُّهُورُ .
الْلَبْسُ : التَّخْلِيْطُ . دَرَسِي : ثَوْبِي الْخَلْقُ الْجَبَرُ : أَنْ تُغْنِيَ الرَّجُلَ مِنْ فَقْرٍ ، أَوْ تَصْلِحَ عَظْمَهُ
مِنْ كَسْرٍ ، وَجَبَرَهُ اللَّهُ : سَدَّ مَفَاقِرَهُ . وَالثُّكْسُ : بَضْمُ النَّوْنِ : عَوْدُ الْمَرَضِ بَعْدَ الْقُوَّةِ ،
وَنَكَسَ نُكْسًا .

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : لِيُثْبِتْ أَنْسُكَ ، وَلِتَطْبِثَ نَفْسُكَ ، فَقَدْ حَقَّ لَكَ أَنْ تُغْفَرَ
خَطِيئَتُكَ ، وَتُوفَّرَ عَطِيئَتُكَ . فَثَارَتِ الزَّوْجَةُ عِنْدَ ذَلِكَ وَاسْتَطَالَتْ ، وَأَشَارَتْ إِلَى
الْحَاضِرِينَ وَقَالَتْ : [السريع]

يَا أَهْلَ تَبْرِيزَ لَكُمْ حَاكِمٌ
مَا فِيهِ مِنْ عَايِبٍ سِوَى أَنَّهُ
أَوْفَى عَلَى الْحُكَّامِ تَبْرِيزًا
قَصْدَتُهُ وَالشَّيْخُ نَبَغِي جَنَى
يَوْمَ الثُّدَى قَسَمَتُهُ ضِيْزَى
فَسَرَّحَ الشَّيْخُ وَقَدْ نَالَ مِنْ
عُودِلِهِ مَا زَالَ مَهْزُوزًا
جَذَوَاهُ تَخْصِيصًا وَتَمْيِيزًا

وَرَدَّنِي أَخِيْبَ مِنْ شَائِمٍ بَرَقَ أَخْفَافِي شَهْرَ تَمُورًا
كَأَنَّهُ لَمْ يَذَرِ أَنِّي الْتَمِي لَقَنْتُ ذَا الشَّيْخِ الْأَرَاكِيزَا
وَأَتْنِي إِنْ شِئْتُ عَادَرْتُهُ أَضْحُوكَةً فِي أَهْلِ تَبْرِيزَا

ليثب: أي ليرجع. تُوقَّر: تكثر. ثارت: ظهرت، وأفشت سرّها. واستطالت: جرحت بلسانها، وأعلت كلامها. أوفى: أشرف عليهم وزاد. تبريزاً: ظهوراً وسبقاً. ضيزى: غير مستوية، فيها بخس ونقصان، وقد صارَ الحاكم، إذا جار، وضازه يضيّزه ضيزاً، إذا نقصه ومنعه حقه. ويحكى أن مزيداً المدني - ويكنى أبا إسحاق - صلى يوماً، فلما فرغ من صلاته قالت امرأته: اللهم أشركني في دعائه، فقال مزيد اللهم اصلبني، فقالت امرأته: أما على هذا فلا، فقال يا ضرّاطة، تلك إذا قسمة ضيزى.

قوله والشيخ: منصوب على المفعول معه. نبغي: نطلب. الندى: الكرم. وجئى العود: ما يجنى من ثمره، وأرادات كرم القاضي. ما زال مهزوزاً، أي ما زال القاصدون يهزّون عوده فيتساقط عليهم جثاه، فمعنى ما زال مهزوزاً، أي مطلوب منه العطايا. جدّواه: عطاياه تخصيصاً: ترفيعاً. تميزاً: تعييناً، وقد تخصّص الرجل: تشبّه بالخواص، وتعيّن: تشبّه بالأعيان. شائم: ناظر للبرق. خفي: لمع. تموز: يوليه بالسريانية، وهو أشدّ الشهور حرّاً. لقنت: فهمت وحفظت. غادرت: تركته. أضحوكة: يضحك به من رآه.

قال: فلما رأى القاضي اجترأ جنائهما، وانصلات لسانهما، علم أنّه قد مُنيَ مِنْهُمَا بِالذَّاءِ الْعِيَاءِ، وَالذَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ؛ وَأَنَّهُ مَتَى مَنَحَ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ، وَصَرَفَ الْآخَرَ صِفَرَ الْيَدَيْنِ، كَانَ كَمَنْ قَضَى الدِّينَ بِالدِّينِ، أَوْ صَلَّى الْمَغْرِبَ رَكَعَيْنِ. فَطَلَسَمَ وَطَرَسَمَ، وَاخْرَنْطَمَ وَبَرْطَمَ، وَهَمَّهَمَ وَغَمَّعَمَ، ثُمَّ التَّفَتَ يَمَنَةً وَشَامَةً وَتَمَلَّمَلَ كَابَةً وَنَدَامَةً، وَأَخَذَ يَذُمُّ الْقَضَاءَ وَمَتَاعِبَهُ، وَيُعَدُّ شَوَائِبَهُ وَنَوَائِبَهُ، وَيُقِنْدُ طَالِيَهُ وَخَاطِبَهُ. ثُمَّ تَنَفَّسَ كَمَا يَتَنَفَّسُ الْحَرِيبُ، وَانْتَحَبَ حَتَّى كَادَ يَفْضُحُهُ التَّحِيبُ، وَقَالَ: إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ! أَلْزَسْتُ فِي مَوْقِفٍ بِسَهْمَيْنِ! أَلْزَمَ فِي قَضِيَّةٍ بِمَغْرَمَيْنِ! أَطِيقُ أَنْ أَرْضِيَ الْخَضْمَيْنِ، وَمِنْ أَيْنَ وَمِنْ أَيْنَ!

اجترأ: إقدام وتشجع جنائهما: قلبهما، يريد أنهما لم يهاباه. انصلات لسانهما: خروجه بالكلام وطاقته بالشر، وانصلت السيف؛ تسلل من غمده وخرج. مني: بلي.

الدَّاءُ العِيَاءُ: الذي يعيي الطبيب. والدَّاهِيَةُ: كلُّ أمرٍ فظيع لا يُطاق. الدهِيَاءُ: مبالغة وتأكيد لمعنى الدَّاهِيَةِ، أي الداهية الشديدة. مَنَحَ: إعطاء. صَفَّرَ: فارغ. وَمَنْ قَضَى الدِّينَ بالدِّينِ، فكأنَّه ما قضاها وأنشدوا:

إذا كنتَ تقضي الدِّينَ بالدِّينِ لم يَكُنْ قضاءً ولكن كان غُزْماً على غُزْمٍ

تملئ: توجع وتقلب. كآبة: حزن وهم. شوائب: ما يكره ويختلط به. نوائبه: نوازله. يفتد: يُخطئ. الحريب: المحزون المسلوب ماله، وقد حَرَبَهُ، إذا سلبه «فعل» بمعنى «مفعول». انتحب: بكى. يفضحه: يشهره. أرشق: أرمي، والرَّشَقُ جملة السهام تُزْمَى مجتمعة، وقال لبيد: [الرمل]

فرميت القومَ رِشْقاً صائباً ليس بالطيش ولا بالمفتعل^(١)

وإذا وقعت السهام مجتمعة عند الغرض سُميت رِشْقاً، القضية: القضاء والحكومة. المغرم والغرامة واحد.

* * *

ثُمَّ عَطَفَ إِلَى حَاجِبِهِ، الْمُنفَذِ لِمَآرِبِهِ، وقال: ما هذا يومُ حُكْمٍ وَقَضَاءٍ، وَفَضْلٍ وَإِمْضَاءٍ؛ هذا يومُ الاغْتِمَامِ، هَذَا يومُ الاغْتِرَامِ، هذا يَوْمُ الْبُخْرَانِ، هذا يَوْمُ الْخُسْرَانِ، هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ، هذا يَوْمٌ نُصَابٌ فيه ولا نُصِيبُ؛ فَأَرخِنِي مِنْ هَذَيْنِ الْمِهْذَارَيْنِ، واقطع لِسَانَهُمَا بدينارين. ثم فرَّق الأصحاب، وأغلق الباب، وأشيع أَنَّهُ يَوْمٌ مَذْمُومٌ، وَأَنَّ الْقَاضِيَّ فِيهِ مَهْمُومٌ، لِثَلَا يَخْضَرُنِي خُصُومٌ.

قال: فَأَمَّنَ الْحَاجِبُ عَلَى دُعَائِهِ، وتباكى لبكائه ثم نَقَدَ أَبَا زَيْدٍ وَعِزْسَهُ الْمُثْقَلَيْنِ، وقال: أَشْهَدُ إِنَّكُمَا لِأَخِيْلٍ الثَّقَلَيْنِ؛ وَلَكِنْ احْتِرَمًا مَجَالِسِ الْحُكَّامِ، واجْتِنَبًا فِيهَا فُخْشَ الْكَلَامِ؛ فما كلُّ قَاضٍ قَاضِي تَبْرِيْزٍ، ولا كُلُّ وَقْتٍ تُسْمَعُ الْأَرَاجِيزُ، فقال له: مِثْلُكَ مَنْ حَجَبَ، وَشُكْرُكَ قَدْ وَجَبَ، وَنَهْضًا وَقَدْ حَظِيًّا بدينارين، وَأَضْلِيًّا قَلْبَ الْقَاضِي نَارَيْنِ.

* * *

(١) يروى عجز البيت:

ليس بالعصل ولا بالمقتعل
وهو في ديوان لبيد ص ١٩٤، ولسان العرب (روق)، (عصل)، (فعل)، (رقم)، ويروى أيضاً:
ليس بالعصل ولا بالمقتعل

مآربه حوائجه . البُخْران : كالْيَوْم السابع من المَرَض ، والبُحْران عند الأطباء : مدافعة عظيمة تقع بين الطبيعة والعلة ، وبَحْر الرجل بحراً ، إذا اجتهد في العَدْو طالباً أو مطلوباً ، فانقطع وضعف . ورجل بحر : مسلول ذاهب اللحم . عَصِيب : شديد . المهذارين : الكثيرين الكلام بلا فائدة . اقطع لسانهما ، أي صلّهما حتى ينقطع بالدينارين كلامهما ، وهذا اللَّفْظ الذي هو قَطْع اللسان بالصلّة قد نطق به رسول الله ﷺ حين أعطى المؤلّفة قلوبهم من نَفْل حُنين ، مائة مائة ، وأعطى العباس بن مِرْداس أباعر ، فسخطها وقال : [المقارب]

أَتَجْعَلْ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْ - د بَيْنَ عَيْنَةٍ وَالْأَفْرِع^(١)
وما كان حُضْنٌ ولا حَابِسٌ - يفوقان مِرْداسَ في مَجْمَع
وما أنا دون امرئ منهما - وَمَنْ يُخَفِّضِ الْيَوْمَ لَمْ يُزْفَع

فقال ﷺ : « اقطعوا عني لسانه » . فأعطي حتى رضي وقد جاء في النوادر في حكاية ليلى الأخيلى حين قال الحجاج : يا غلام اذهب إلى فلان ، فقل له يقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجام ، فقالت : ثكلتك أمك ! إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلّة ، وهي لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهي .

قوله : أَمْن ، قال : آمين ، ومعناه الرغبة في الإجابة . تباكى : استعمل البكاء . الثَّقَلَيْن : الإنس والجن ، والواحد ثَقْلٌ وثَقْلٌ كَمَثَلٍ ومِثْل ، وأصله ما يُحْمَل من الشيء الثقيل ، فقليل لهما : ثَقْلان ، لأنهما كالثَقْل على الأرض . والفحش في القول كالفاحشة في الفعل . نهضا : تقدما . شكرك قد وجب : يقال : وَجِبَ البيع والحق ، معناه وقع ، وعنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ [الحج : ٣٦] أي وقعت على الأرض وسقطت . ووجب الحائط : سقط ، ووجب قلبه : فرغ وخفق . حَظِيئا : سَيِّدا . أَضْلِيئا : أَوْقِدا وأَصَقا به .

تفسير ما أودع هذه المقامة

من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « لَقِيتُ مِنْهَا عَرَقَ الْقَرْبَةِ » ، هذا مَثَلٌ يُضْرَب لِمَنْ يَلْقَى شِدَّةً مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي يُزَاوِلُهُ ، كما أن حَامِلَ الْقَرْبَةِ يَلْقَى جَهْدًا حَتَّى يَغْرُق .
وقوله : « جَعَلْتُهُ ذَبْرَ أَذْنِي » ، يعني طرخته ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فَتَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

(١) الأبيات في ديوان العباس بن مرداس ص ٨٤ ، والبيت الأول في لسان العرب (نهب) ، (عبد) ، والبيت الثاني في الأغاني ٢٩١/١٤ ، والإنصاف ٤٩٩/٢ ، ولسان العرب (ردس) .

وقوله: «أَكْذِبْ مِنْ سَجَاحٍ» يعني التي تنبأت في عهد مُسَيْلَمَةَ الكذاب، وسارت إليه لثناظره وتختبره ثم آمنت به، ووهبت نَفْسَهَا له؛ وهذا الاسم، مبني على الكسر، مثل حَذَامٍ وقِطَامٍ، لكونه من الأسماء المعدولة، واشتقاقه من السَّجَاحَةِ، وهي السُّهولة، ومن قولهم: مَلَكْتُ فَأَسْجَعُ.

وقولها: «أَكْذِبْ مِنْ أَبِي ثُمَامَةَ»، هذه كنية مُسَيْلَمَةَ الكذاب، وكان تنبأ باليمامة. ومَخْرَقٌ بها، إلى أن سار إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه فقتله.

وقوله: «لَا نَعِمَ عَوْفُكَ». العَوْفُ: الحال، والعَوْفُ أيضاً الذَّكَرُ، ويُدْعَى للبانِي على أهله فيقال له: «نَعِمَ عَوْفُكَ».

وقوله: «يا دَفَارٍ يا فَجَارٍ». هذان الاسمان معدولان من دَافِرَةٍ وفَاجِرَةٍ، والدَّفَرُ: الثَّنُ؛ وبه سُمِّيَتِ الدُّنْيَا أم دَفَرٌ؛ وكلَّ ما سُمِّيَ بصفة غالبية، ثم عُذِلَ بها إلى «فَعَالٍ»، بُني على الكسر عند النداء، كقولك: يا لَكَاعٍ يا خَبَاثٍ، يا دَفَارٍ يا فَجَارٍ، ولا يجوز استعمال ذلك في غير النداء إلا في ضرورة الشعر، كقول الحطيئة: [الوافر]

أَطُوفْ مَا أَطُوفْ ثُمَّ آوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لَكَاعٍ^(١)

وأما قوله: «أَخْمَقُ مِنْ رِجْلَةٍ»، فهي ضرب من الجِمُضِ ثَنُبَتْ في جاري السَّيْلِ فيجرُّها.

وأما قولها: «الْأُمُّ مِنْ مَادِرٍ»، فهو رَجُلٌ من بني هلال بن عامر؛ كان اتَّخَذَ حَوْضاً لِسَقْيِ إِبِلِهِ، فَلَمَّا رَوَيْتْ سَلَحَ فِيهِ، وَمَدَّرَهُ بِسَلَحِهِ؛ لثَلَا يَنْتَفِعَ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ.

وأما قولها: «أَشَامُ مِنْ قَاشِرٍ»؛ فَإِنَّهُ فَحَلٌّ كَانَ فِي قِبَائِلِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ، مَا طَرَقَ إِبِلًا إِلَّا مَاتَتْ. وقيل: المرادُ به العام المجذب، وَسُمِّيَ قَاشِراً لِقَشْرِهِ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتِ.

وأما قولها: «أَجِينُ مِنْ صَافِرٍ»، فقد اختلف في تفسيره، فقال بعضهم: عَنَى بِهِ كُلَّ مَا يَصْفَرُّ مِنَ الطَّيْرِ، وَخَصَّ بِالْجَبْنِ لِكَثْرَةِ مَا يَتَّقِيهِ مِنْ جَوَارِحِ الْجَوِّ وَمَصَايِدِ الْأَرْضِ. وقيل: إِنَّهُ طَائِرٌ بَغِيْنِيهِ؛ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ تَعَلَّقَ بِبَعْضِ الْأَغْصَانِ، وَلَمْ يَزَلْ يَصْفَرُّ طَوْلَ لَيْلَتِهِ خَوْفاً عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَنَامَ فَيُؤْخَذَ. وقيل: إِنَّهُ الَّذِي يَصْفَرُّ بِالْمَرْأَةِ لَرَبِيَّةٍ وَهُوَ يَجْبِنُ وَقَدْ صَغِيرُهُ مَخَافَةً أَنْ يُظْهَرَ عَلَى أَمْرِهِ. وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي الْمَثَلِ الْمَصْفُورُ بِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي يَنْدَرُ بِالصَّفِيرِ لِيَهْرَبَ، فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَاعِلٌ هُنَا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أَي مَذْفُوقٍ وَكَقَوْلِهِمْ: رَاحِلَةٌ بِمَعْنَى مَرْجُولَةٌ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ، وَقَدْ جَاءَ «مَفْعُولٌ» بِمَعْنَى «فَاعِلٍ»، كَقَوْلِهِ

(١) البيت في ملحق ديوان الحطيئة ص ١٥٦، والدرر ٢٥٤/١، وهو لأبي الغريب النصري في لسان العرب (ل kec)، وبلا نسبة في شرح ابن عقيل ص ٧٦.

تعالى: ﴿حَجَابًا مَسْتَوْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي ساتراً. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١].

وأما قوله: «أَطْيَشُ من طَامِر»، فالمراد به البُرغوث؛ ويسمى طَامِر بن طامر؛ لكثرة وثوبه.

وأما قول القاضي: «أَزَاكُمَا شَنًّا وَطَبَقَةً، وَجِدَاةً وَبُنْدَقَةً»، فإنه أراد به أن كلا منكما كفء لصاحبه وقاوم له. ولكل من المثلين تفسير مختلف فيه. أما شَنُّ وطَبَقَةٍ؛ فإن العلماء مختلفون في معنى قولهم: «وافق شَنُّ طبقة»، فقال الأكثرون: إنهما قبيلتان؛ فشَنُّ هو ابن أفضى بن دُعَمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. وطَبَقَةٌ حيٌّ من إياد؛ وكانت طَبَقَةٌ لا تَطَاق، فأوقعت بها شَنُّ، فأنقصت منها.

وقال بعضهم: كان شَنُّ رجلاً من ذُهاة العرب، وكان ألزَمَ نفسه ألا يتزوّج إلا بامرأة تلائمه، فكان يجوب البلاد في ارتياد طَلَبَتِهِ، فصاحبه رجلٌ في بعض أسفاره، فلما أخذ منهما السيّر، قال له شَنُّ: أتحمّلني أم أحملك؟ فقال له الرجل: يا جاهل وعليّ يحمل الراكب الراكب! فأمسك وساراً حتى أتيا على زرع، فقال له شَنُّ: أترى هذا الزرع أكَل أم لا؟ فقال له: يا جاهل، أما تراه في سنبله! فأمسك إلى أن استقبلتهما جنازة، فقال له شَنُّ: أترى صاحبها حيّاً أم لا؟ فقال: ما رأيتُ أجهل منك، أتراهم حَمَلُوا إلى القبر حيّاً! ثم إنهما وصلا إلى قرية الرجل، فصار به إلى منزله، وكانت له بنت تسمى طَبَقَةً، فأخذ يُطْرِفُهَا بحديث رفيقه، فقالت له: ما نطق إلا بالصواب، ولا أستفهمك إلا عما يستفهم عن مثله ذُوو الألباب. أما قوله: أتحمّلني أم أحملك، فإن أراد: أتحدثني أم أحدثك، حتى نقطع الطريق بالحديث. وأما قوله: أترى هذا الزرع أكَل أم لا؟ فإنه أراد: هل استسلف أربابُه ثمنه أم لا! وأما استفهامه عن حياة صاحب الجنازة، فإنه أراد به: فخلّف عقباً يحيا ذكره به أم لا. فلما خرج إلى الرجل حدّثه بتأويل ابنته كلامه، فخطبها إليه، فزوجه إياها، فلما سار بها إلى قومه وخبروا ما فيها من الدّهَاء والفِطْنَة قالوا: وافق شَنُّ طَبَقَةً، فسار مثلاً.

وَحِكْيٍ عن الأصمعيّ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال: أظنُّ أنّ الشَّنَّ وعاء من آدم كان قد استشَنَّ، فلما اتَّخذ له غطاء وافقه، ضرب فيه هذا المثل.

وأما جِدَاةً وبُنْدَقَةً؛ فإنه يقال في المثل المضروب لمن يفزع بعدوه أو يئلى بنظيره: حدّاً حدّاً أو وراءك بُنْدَقَةً؛ وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء، فرخّم في النداء وقد اختلف في المراد بهما، فقيل: الحدأة هو الطائر المعروف، وبُنْدَقَةُ الرامي.

وقيل: إنهما قبيلتان من سعد العشيرة، فأغارت جِدَاةٌ - وكانت تنزل بالكوفة - على بُنْدَقَةٍ، وكانت تنزل باليمن، فنالت منهم، ثم كرث بُنْدَقَةً على جِدَاةٍ فأنحت عليهم.

وروى بعضهم هذا المثل: حَدّاً حَدّاً، غير مهموز، على مثال عصا وقفاء، وزَعَم أَنَّهُ اسم القبيلة.

وأما قوله : «أخطأت استكما الحفرة» ؛ فإنه مثل يُضْرَب لمن يُخْطِئ في مقصده ويضع الشيء في غير موضعه .

وأما قوله : «طلسم وطرسم» ، فمعنى طلسم كره وجهه ، ومعنى طرسم أطرق .

وقوله : «اخرنطم وبرطم» أي غضب وقطب وجهه .

وقيل : معنى اخرنطم غضب مع تكبر . ومعنى برطم غضب مع تعبس .

وأما قوله : «همهم وغمغم» أي لم يبين الكلام .

المقامة الحادية والأربعون

وهي التَّسْبِئَةُ

حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: أَطَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي، فِي غُلُوءِ شَبَابِي؛ فَلَمْ أَزَلْ زِيْرًا لِلْغَيْدِ، وَأُذْنًا لِلْأَغَارِيدِ؛ إِلَى أَنْ وَافَى التَّذِيرَ، وَوَلَّى الْعَيْشُ التَّضْيِيرَ؛ فَقَرِمْتُ إِلَى رُشْدِ الْإِنْتِبَاهِ، وَنَدِمْتُ عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي كَسْحِ الْهَنَاتِ بِالْحَسَنَاتِ، وَتَلَا فِي الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ؛ فَمِلْتُ عَنْ مُعَادَاةِ الْعَادَاتِ، إِلَى مُلَاقَاةِ الثَّقَاةِ، وَعَنْ مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ، إِلَى مَدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ، وَآلَيْتُ إِلَّا أَصْحَبَ إِلَّا مَنْ نَزَعَ عَنِ الْعَيِّ، وَفَاءَ مَنْشَرُهُ إِلَى الطِّيِّ، وَإِنْ أَلْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ، مَدِيدُ الْوَسَنِ، أَنَايْتُ دَارِي عَنْ دَارِهِ، وَفَرَزْتُ عَنْ عَرِهِ وَعَارِهِ.

* * *

أَطْلَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي، يَقَالُ: أَطَعْتُ كَذَا، وَطَعْتُ لَهُ، أَيِ انْقَدْتُ. وَالْمَطِيعُ: الْمُنْقَادُ، وَالتَّصَابِي: التَّظَاهَرُ بِالصُّبَا وَالتَّشَاغُلُ بِهِ. وَدَوَاعِيهِ: مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَغُلُوءُ الشَّبَابِ: أَوَّلُهُ وَسُرْعَتُهُ، أَرَادَ: مِلْتُ إِلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ فِي أَوَّلِ شَبَابِي، فَلَمَّا أَتَى الشَّيْبَ أَحْبَبْتُ الرَّجُوعَ إِلَى الْخَيْرِ. زِيْرًا: كَثِيرَ الزِّيَارَةِ. وَالْغَيْدُ: جَمْعُ غَيْدَاءٍ، وَهِيَ اللَّيْنَةُ الْعَنُقُ وَالْمَفَاصِلُ مِنَ النُّعْمَةِ. أَذْنًا لِلْأَغَارِيدِ، أَيِ كَثِيرِ الْإِسْتِمَاعِ لِلْغِنَاءِ، وَفُلَانٌ أُذُنٌ، إِذَا كَانَ يَسْتَمِعُ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ، وَيَقْبَلُ مِنْهُ. وَافَى: أَتَى، وَالتَّذِيرُ: الشَّيْبُ، لِأَنَّهُ مُنْذِرُ الْإِنْسَانِ بِتَمَامِ الْعُمُرِ، أَيِ يُعَلِّمُهُ. وَلَّى: رَجَعَ وَزَالَ. التَّضْيِيرُ: النَّاعِمُ، يَرِيدُ زَمَنَ الشَّبَابِ. وَنَوْخُرُ ذِكْرِ الشَّيْبِ، فَإِنَّهُ يُوْذِي إِلَى تَغْيِيرِ شَرْحِ الْمَقَامَةِ، وَنَتَكَلَّمُ هُنَا عَلَى ذَهَابِ الشَّبَابِ.

[البكاء على ذهاب الشباب]

قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ: مَا بَكَتِ الْعَرَبُ شَيْئًا مَا بَكَتِ الشَّبَابَ، وَمَا بَلَغَتْ بِهِ مَا يَسْتَحِقُّهُ.

الْأَصْمَعِيُّ: مِنْ أَحْسَنِ أَلْفَاظِ الشَّعْرِ الْمَرَاثِيِّ وَالْبُكَاءِ عَلَى الشَّبَابِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الدُّنْيَا الْعَافِيَةُ، وَالشَّبَابُ الصَّحَّةُ.

ومن ألفاظ أهل العصر: الشَّبَابُ باكورة الحياة، وروائح الجنة في الشباب. أطيّب العيش أوائله؛ كما أن أطيّب الثمار بواكرها.

قال الصولي: قد أكثر في ذكر الشَّبَابِ القدماء وأهل الإسلام. وأجمع الحَذَاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه؛ أنه لم يُقَلَّ فيه أحسن من قول منصور التَّمَرِي، ووقع الإجماع عليه، فما ضَرَّ تأخّره، وهو: [البسيط]

مَا تَنْقَضِي عِبْرَةٌ مِنِّي وَلَا جَزَعُ
بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَتْني مَسْرَتُهُ
مَا كُنْتُ أَوْفِي شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ
إِنْ كُنْتُ لَمْ تَطْعَمِي كُلَّ الشَّبَابِ وَلَمْ
أُبْكِي شَبَاباً سُلْبَنَاهُ وَكَانَ وَلَا
مَا وَاجِهَ الشَّيْبُ مِنْ عَيْنٍ وَإِنْ رَمَقَتْ
وقال أبو نواس: [الكامل]

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ
كَانَ الْجَمَالُ إِذَا ارْتَدَيْتُ بِهِ
كَانَ الْبَلِيغُ إِذَا نَطَقْتُ بِهِ
كَانَ الْمَشْفَعُ فِي مَآرِبِهِ
وَالْبَاعِثِي وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا
وقال جحظة: [السريع]

وَاهِياً لَأَيَّامِ الشَّبَابِ
وَزَوَالِهِنَّ بِمَا عَرَفَ
أَيَّامَ ذِكْرِكَ فِي دَوَا
وقال ابن أبي حارثة: [البسيط]

وَلَى الشَّبَابُ فَخْلِي الْعَيْنَ تَنْهَمِلُ
لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
وقال آخر: [الكامل]

شَيْثَانُ لَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمَا
عَيْنَايَ حَتَّى تَوْذِنَا بِذَهَابِ

(١) الأبيات في الأغاني ١٣/١٤٥، وأمالِي المرتضى ٢/٦٠٦.

(٢) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ٣١١.

لم أبلغ المعشَرَ من حَقْنِهِمَا: فقد الشَّباب وفُرقة الأحباب
أعرابي: [الكامل]

يا طيبَ أيامِ الشَّبابِ وعُضْرِهِ ما كان أقصرَ ليلَه ونهارَه
وقال ابن عبد ربه: [الكامل]

قالوا شَبَابُكَ قد مَضَتْ أَيامُه لله أية نعمة كان الصُّبا
حَسَرَ الشَّبابُ قناعَه عن رأسه فكأنَّ ذاك العَيْشَ ظِلُّ غَمَامَةٍ
وقال أيضاً: [الوافر]

صِبائي كَيْفَ صِرْتَ إلى نَفَادٍ فما أَبْقَى الحوادثُ منك إلا
فراقك عَرَفَ الأَخْزَانَ قلبي زمانٌ كان فيه الرُّشْدُ غِيًّا
يقبِّلُني بَدَلُ مَنْ قَتُولٍ وأَجْنُبُهُ فيعطيني قِياداً
قال الفرزدق: [الكامل]

إنَّ الملامَةَ مثل ما بَكَرْتُ بها قالت: وكيف يميل مثلك للصُّبا
والشَّيْبُ ينهَضُ في الشَّبابِ كَأَنَّهُ إنَّ الشَّبابَ لرابح مبتاعه
من تحت ليلَتِها عليك نَوَارُ^(١) وعليك من سِمَةِ الحليم عَذَارُ
ليلٌ يصيحُ بجانبه نَهَارُ والشَّيْبُ ليس لبائعِهِ تَجَارُ

قال إسحاق الموصلي: قال لي المعتصم: لقد فَضَحَكَ الشيب في عارضيك،
فقلت: نعم يا سيدي، وبكيت ثم قلت: [المتقارب]

تولَّى شَبَابُكَ إلا قليلاً وحلَّ المشيب فصبراً جَمِيلاً
كَفَى حَزْناً بفراق الصُّبا وإن أَصْبَحَ الشَّيْبُ منه بديلاً

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ٣٧٢/١، والبيت الثالث في لسان العرب (نهر)، (ليل)، والتنبيه والإيضاح ٢٢٠/٢.

فلَمَّا رأى الغانيات المشي بَ أغضين دوني طَرْفًا كَحِيلَا
سَأْنَدُبَ عَهْدَ انْقِضَاءِ الصُّبَا وأبكي الشَّبَابِ بكاءً طويلًا
وغَنِّيَها. فبكى المعتصم، وقال: لو قدرتُ على ردِّ شبابك لفعلتُ ولو بشَطْرِ
مُلْكِي؛ فلم يكن لكلامه عندي جواب إلاَّ أَنْ قَبَّلْتُ البساط بين يديه.

وأبْكَى بيت وَرَدَ في فقد الشباب قول أبي الغَضَنِ الأسدي: [الوافر]
أَتَأْمُلُ رَجْعَةَ الدُّنْيَا سَفَاهًا وقد صار الشَّبَابُ إلى ذهابٍ
فَلَيْتَ البَاكِياتِ بِكُلِّ أَرْضٍ جُمِعْنَ لَنَا فَنُحْنُ عَلَى الشَّبَابِ
وقال سَلَامَةُ بن جندل، وهو جاهلي: [البسيط]

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيداً ذُو التَّعَاجِبِ أَوْدَى وَذَلِكَ شَأْوٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ^(١)
وَلَى حَثِيثاً وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لو كان يدركه رَحْضُ الِيعَاقِبِ
أَوْدَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجَّدَ عَوَاقِبُهُ فِيهِ نَلَذُّ وَلَا لَذَاتٍ لِلشَّيْبِ
وقال سَلَامَةُ أيضاً: [البسيط]

يَا خَدُّ أَمْسَى سَوَادَ الرَّأْسِ خَالَطُهُ شَيْبُ الْقَذَالِ اخْتِلَاطُ الصَّفْوِ بِالْكَدْرِ^(٢)
يَا خَدُّ أَمْسَتْ لُبَانَاتُ الصَّبَا ذَهَبَتْ فَلَسْتُ مِنْهَا عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرِ
كَانَ الشَّبَابُ لِحَاجَاتٍ وَكَانَ لَهُ فَقَدْ فَرَعْتُ إِلَى حَاجَاتِي الْأُخْرِ
وَأُنْشَدَ أَبُو الْعِيَاءِ: [الكامل]

مَا فِي يَدَيَّ مِنَ الصُّبَا إِلَّا الصُّبَابَةُ وَالْأَسْفُ
جَاءَ الشَّبَابُ فَمَا أَقَا م وَلَا أَلَمَ وَلَا وَقَفُ
كَانَ الشَّبَابُ كَزَائِرِ مَلِّ الزِّيَارَةِ وَأَنْصَرَفُ
والباب لا يُخَصِّي كثرة.

قوله: قَرِمْتَ لكَذَا، أي اشتَدَّتْ شهوتي إليه، وأصله شِدَّةُ الشهوة إلى اللحم.
والرُّشْدُ والرَّشْدُ واحد. فَرَطْتُ: ضَيَّعْتُ، وفَرَطَ في الشيء: قَدَّمَ فيه التقصير والعجز،
وهو من قولهم: فَرَطَ الْفَارَطُ في طلب الماء، أي تقدَّمَ القومَ إليه. وقرئ: «يَا حَسْرَتَنَا

(١) الأبيات في ديوان سلامة بن جندل ص ٨٨، ٨٩ والبيت الأول في المخصص ١٢/١٤٧، ١٦/١١٣، وشرح اختيارات المفضل ص ٥٦٦، والبيت الثاني في لسان العرب (عقب)، (ركض)، ومقاييس اللغة ٢/٢٩، والمخصص ١٦/١١٣، والبيت الثالث في تخلص الشواهد ص ٤٠٠، والشعر والشعراء ص ٢٧٨.

(٢) الأبيات في ديوان ابن مقبل ص ٧٣، وجمهرة اللغة ص ٣٤٦، وفي الديوان «يَا حُرَّ» بدل «يَا خَدُّ»، والبيت الثاني في أساس البلاغة (تلو)، ومقاييس اللغة ١/٣٥١.

على مَا فَرَطْنَا فِيهَا [الأنعام: ٣١]، بتخفيف الراء، ومثله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، ومعنى القراءتين التقصير في جَنْبِ اللَّهِ، أي في حقه، وقيل: في أمر الله، وقيل في طاعته.

ابن الأعرابي: في قرب الله. الفراء: الجَنْب: القرب، والجَنْب معظم الشيء وأكثره، ومنه: هذا قليل في جنب مودتك. الزجاج: أي على ما فَرَطْتَ في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه.

وكَسَعَ الهَنَات، أي طَرَدَ القبائح والقاذورات، والهَنَات، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة، مأخوذ من الهَن، وهو الفرج، وكَسَعُهَا: دَفَعَهَا وإزالتها، والكَسْع أي أن تضرب بيدك على دُبُر الشيء، وكَسَعْتُهُم بالسيف، إذا اتَّبَعْتَ أَدْبَارَهُمْ، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أتبعها بالدفع والضرب؛ حتى نفاها بحسناته، والكَسْع أيضاً: أن تضرب الشيء بصدر قدمك وقد كَسَعْتَهُ. الأصمعي: الكسع: سرعة المر، وكسعته بكذا: جعلته تابعاً له.

تلافي: تَذَارَكَ. الهَفَوَات: السَقَطَات والزَّلَّات، وقد هفا الرَّجُلُ، إذا فعل المنكر وما يُكْرَهُ. الفوات: الموت. مغادة: مباركة، وقد غاداه: أنه بالغدو، والغادات: التَّواعم من النساء، الواحدة غادة، والتقاء: الخائفون، الواحد تقي، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، يجوز أن يكون الأتقياء، ويجوز أن يكون مصدرأ، وهو أجود القولين: تقيته، واتَّقَيْتُهُ تُقَى وَتَقِيَّةً وَتَقَاً وتقاء، أي حذرته، والاسم التقوى. مقاناة: مخالطة وملازمة، وهي مفاعلة من القينة، وهي الجارية المغنية، والجمع قَيْنَات. مدانة: مقاربة ديانات، هي من الدين، أراد بها الطاعة. أَلَيْتَ: حلفت. نزع: زال وكف. الغي: الضلال. فاء: رجع. مَنَشَره: انتشاره في الصُّبَا واللَّهُو. أَلْفَيْتَ: وجدت. خَلِيع الرِّسَن: مَسِيَّب في المعاصي، لا يكفه عن إتيانها عقل ولا دين، وَخَلَعْتُ رَسَنَ الدَّابَّة: تَرَكْتُهَا تَرعى حيث شاءت سائبة، ومثله خَالَعِ الْعِدَار، وخلع عذاره، أصله في الدَّابَّة إذا خُلِعَ عِذارُها فُسِيَّت، فإن انْقَلَت رَسْنُهَا الذي تمسكها به ففَرَّت، قيل: جَرَّت رَسْنُهَا، وفلان يجز رسنه، وبابه في الاستعارة أنه مَسِيَّب في الشهوات مجاهر بها. مديد الوسن: طويل النَّوْم، أي فارغ البال من ذكرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة. أنأيت: أبعدت. عَرَه: جربه ودائه، يريد أنه خَلَفَ أَلَا يصاحب إِلَّا مَنْ كَفَّ عَنِ الصُّبَا واللَّهُو والنساء، ومتى وجد أهل اللهو والغزل فرَّ عنهم وتركهم، وقال الألبيري فأحسن: [مجزوء الكامل]

مَنْ حَادَ عَنْ نَهْجِ الْهَدَى فَأُضِلَّ قَضْدَ سَبِيلِهِ
فَتَوَقَّ خَلَّتْهُ فِدِيهِ مِنْ الْمَرَّةِ دِينَ خَلِيلِهِ

وله أيضاً: [الوافر]

أَلَا خَبِرَ بِمَنْتَرَحِ النَّوَاجِي أَطِيرَ إِلَيْهِ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ

وَأَسْأَلُهُ وَالطُّفْهَ عَسَاهُ سَيَأْشُو مَا بَدِينِي مِنْ جَرَّاحِ
وَيَجْلُو مَا دَجَى مِنْ لَيْلِ جَهْلِي بِنُورِ هُدَى كَمَنْبِلِجِ الصُّبَّاحِ
فَأَبْصُقُ فِي مُحِيًّا أَمْ دَفِيرِ وَأَهْجُرُهَا وَأُدْفَعُهَا بِرَاحِي
وَأَصْحُو مِنْ حُمِيَّاهَا وَأَسْلُو عَفَافًا عَنْ جَاذِرِهَا الْمِلَاحِ
وَأَصْرَفُ هَمَّتِي بِالْكَفِّ عَنْهَا إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ وَالنُّجَاحِ

* * *

فَلَمَّا أَلْقَيْتَنِي الْغُرْبَةَ بِتَيْسٍ، وَأَحْلَيْتَنِي مَسْجِدَهَا الْأَيْسِ، رَأَيْتُ ذَا حَلْقَةٍ
مُلْتَحِمَةً، وَنَظَارَةَ مُزْدَحِمَةً؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجَاشٍ مَكِينٍ، وَلِسَانٍ مُبِينٍ: مِسْكِينُ ابْنِ آدَمَ
وَأَيُّ مِسْكِينٍ! رَكَنَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ رَكِينٍ، وَاسْتَعَصَمَ مِنْهَا بِغَيْرِ مَكِينٍ، وَذُبِحَ مِنْ
حُبِّهَا بِغَيْرِ سَكِينٍ، يَكْلَفُ بِهَا لِعِبَاوَتِهِ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِشَقَاوَتِهِ، وَيَعْتَدُّ فِيهَا
لِمُقَاخَرَتِهِ، وَلَا يَتَزَوَّدُ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ.

أَفْسِمُ بِمَنْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ، وَنَوَّرَ الْقَمَرَيْنِ، وَرَفَعَ قَدَرَ الْحَجَرَيْنِ: لَوْ عَقَلَ ابْنُ
آدَمَ، لَمَّا نَادَمَ، وَلَوْ فَكَّرَ فِيمَا قَدَّمَ، لَبَكَى الدَّمَ، وَلَوْ ذَكَرَ الْمُكَافَاتِ، لاسْتَدْرَكَ مَا
فَاتَ. وَلَوْ نَظَرَ فِي الْمَالِ، لَحَسَنَ قَبْحَ الْأَعْمَالِ.

يَا عَجِبًا كُلَّ الْعَجَبِ، لِمَنْ يَفْتَحُمُ ذَاتَ اللَّهَبِ، فِي اكْتِنَازِ الذَّهَبِ، وَخَزَنِ
النَّشَبِ، لِذَوِي النَّسَبِ. ثُمَّ مِنَ الْبُذْعِ الْعَجِيبِ، أَنْ يَعْظَكَ وَخَطُ الْمَشِيبِ، وَتُوْذَنَ
شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ، وَلَسْتَ تَرَى أَنَّ تُنِيبَ، وَتَهْذُبَ الْمَعِيبِ.

* * *

[تَيْس]

تَيْسُ بِلْدَةٌ كَبِيرَةٌ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ أَحْدَقَتْ بِهَا بَحِيرَةٌ يَتَّصِلُ بِهَا النِّيلُ، فَتَعَذَّبُ عِنْدَ
زِيَادَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، وَتَمْلَحُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، وَيَتَّصِلُ بِهَا خَلِيجٌ دَمِيَاطُ، وَخَلِيجُهُا يَنْقَسِمُ عَلَى
شَرْقِيَّهَا غَرْبِيَّهَا، وَيَلْتَقِيَانِ فِي الْبَحِيرَةِ، فَيَسِيرُونَ بِسَفْنِهِمَا مِنْ دَمِيَاطَ إِلَى تَيْسٍ؛ دَخُولُهُمَا لَهَا
وَخُرُوجُهُمَا بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ مُحْكَمَةٍ. وَأَهْلُ تَيْسٍ ذَوُو يَسَارٍ، وَأَكْثَرُهُمْ حَاكَةٌ. وَثِيَابُ الشُّرُوبِ
الَّتِي تُصْنَعُ بِهَا وَبِدَمِيَاطَ لَا يُصْنَعُ مِثْلُهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا طَرَاظٌ كَتَّانٌ يَبْلُغُ الثَّوْبُ
مِنْهَا دُونَ أَنْ يَعِينُ بِذَهَبِ مِائَةِ دِينَارٍ، غَيْرَ طَرَاظِ تَيْسٍ وَدَمِيَاطَ، وَيَكْتَفِي ثَوْبُهَا بِقَصَارَةِ يَوْمٍ
وَاحِدٍ فِي الْبَحِيرَةِ فَيَبْيَضُ. قَالَ الْيَعْقُوبِيُّ: مَدِينَةُ تَيْسٍ يَحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْأَعْظَمُ الْمِلْحُ وَلَهَا
بَحِيرَةٌ يَأْتِي مَآوُهَا مِنَ الثَّلِيلِ، وَهِيَ مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ بِهَا تُعْمَلُ الثِّيَابُ الرَفِيعَةُ الصَّفَاقُ وَالْعَضْبُ
وَالْبُرُودُ وَالْوَشْيُ، وَبِهَا مَرَسَى الْمَرَائِبِ الْوَارِدَةِ مِنَ الشَّامِ وَالْمَغْرِبِ.

قوله: ملتحمة، أي منضمة ملتصقة. ذا حلقة: يريد واعظاً قد حلّقه الناس والنظارة: الناظرون إليه. جاش: تنفس. مكين: شديد. مبين: مفسح. أي مسكين: ترخم عليه لكثرة مسكنته وتعجب منه. ركن: سكن ولجأ. ركين شديد: قوي يُركن إليه، ورجل ركين، أي وقور بين الركائز، والركين: الثابت. مكين: عزيز له مكانة، أي منزلة رفيعة. ذبح من حبها بغير سكين: إشارة لعذابه فيها ومحنته، لأن السكين تذبح المذبح من ساعته، ومن يُذبح بحجر أو عُود أو غير ذلك، فهو في تعذيب.

أبو موسى: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَتَرَ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»^(١).

وقال سفيان بن عيينة: ويلكم يا علماء سوء، لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب فيمر ويمسك الثخالة، فكذلك أنتم تُخرجون الحكمة من أفواهكم، ويبقى الغل في صدوركم، ويحكم! إن الذي يخوض النهر لا بد أن يصيب ثوبه الماء وإن جهد ألا يصيبه، كذلك من يحب الدنيا لا ينجو من الخطايا.

يكلّف، أي يولع بها ويشتدّ حبه فيها. غباوته: جهله. يكلّب: يشتدّ حرصه، وكلّب على الشيء: ألحّ في طلبه، وأصله من الكلب وهو الشعر في الكلاب. يعتدّ: يستعدّ. مرج: خلط، وقيل: أرسلهما وخلاهما كما تشرح الدابة في مرعاها. والقمرين: الشمس والقمر، غلب لفظ القمر لخفته بالتذكير وإن كانت الشمس أنور، وهي أضلّ لنور القمر، ولهذا قال المتنبي: [الوافر]

وَمَا الثَّانِيْتُ لاسم الشمس عَيْبٌ وَلَا التَّذْكَيرُ فخرٌ لِلْهَلَالِ^(٢)

أراد أن الشمس أنور وأضوأ، فما يضرّها تأنيث اسمها، وما ينفع الهلال تذكير اسمه، وهو ناقص عنها، فلخفة لفظ القمر غلب، كما قالوا: العمران لأبي بكر وعمر، وأبو بكر أفضل من عمر باتفاق من أهل السنّة، فغلب لفظ عمر لخفته بإفراده وقلة حروفه.

[القمر ومما قيل منه]

ومما يحسن موقعه مع قوله: ونور القمرين؛ أن أعرابياً أضلّ الطريق فمات جزعاً، وأيقن بالهلاك، فلما طلع القمر اهتدى، ووجد الطريق، فرفع إليه رأسه ليشكره، فقال له: والله ما أدري ما أقول لك، ولا ما أقول فيك! أقول: رفعك الله، فإله قد رفعك، أم أقول: نورك الله، فإله قد نورك، أم أقول: حسنك الله، فإله قد حسنك، ولكن ما بقي إلا الدعاء أن يُسبّح الله في أجلك، وأن يجعلني من سوء فداءك.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤١٢.

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٣/١٨.

وَضَلَّتْ نَاقَةَ لِأَعْرَابِيٍّ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ، فَأَكْثَرَ فِي طَلِبِهَا، فَلَمْ يَجِدْهَا، فَلَمَّا طَلَعَ الْقَمَرُ
وَانْبَسَطَ نُورُهُ وَجَدَهَا إِلَى جَانِبِهِ بَعْضُ الْأَوْدِيَةِ، وَقَدْ كَانَ اجْتَازَ بِمَوْضِعِهَا مِرَاراً فَلَمْ يَرَهَا
لَشِدَّةِ الظَّلَامِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْقَمَرِ، وَقَالَ: [البسيط]

ماذا أقول وقولي فيك ذو خطرٍ وقد كفيْتَنِي التَّفْصِيلَ والجَمَلا
إن قلت لا زلت مرفوعاً فأنت كذا أو قلت زأنك ربِّي، فهو قد فعَلا

ومما قيل في ذمّه: عرِبد بعض المَجَان على القمر، فقال: والله إنك لتفتت الكَتَّان،
وتُغَيِّر الألوان، وتصفّر الأسنان، وتختثر الأبدان، وتسدد الآذان، وتفضح السِّكران،
وتظهر الكتمان وتقلق الصبيان، وتبيض الأرجوان، وتلحس الزعفران، وتهزل الحِيتان،
وتمحق الأدمغة بالنقصان.

وقال ابن المعتز يذمه: [الكامل]

يا سارق الأنوارِ من شَمْسِ الضُّحَى يا مُثْكِلي طيبَ الكرى ومنغصِي
أما ضياءُ الشمسِ فيك فناقصُ وأرى حرارة نارها لم تنقصِ
لم يظفرِ التَّشْبِيهِ فيك بطائل متسلخ لوناً كلون الأبرص

قوله: الحجرين، أي الذهب والفضة. وقيل الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام.
نادم: صاحب، والتَّذِيمُ الصَّاحِبُ عَلَى الْخَمْرِ. المكافآت: المجازاة. المأل: المرجع. ذات
الذهب: صاحبة النار، يعني جهنم. يقتحم: يتراعى فيها، وهذا من قول رسول الله ﷺ: «إني
لأخذ بِحُجَزِكُم عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا، كَمَا تَقْتَحِمُ الْفَرَّاشُ وَالْجَنَادِبُ»^(١).

الْحَزَنُ: الجمع. البَذْعُ: الحدث لم يكن ثم كان، وقد ابتدعت الشيء: أحدثته،
وسقت الناس إلى فعله. وَحَظٌ: اختلط، وَقَدْ وَحَظَ الشَّيْبُ الشَّعْرَ، إِذَا خَالَطَهُ وَفَّشَا فِيهِ.
وتَوَذَّنَ: تعلم. شمسك بالمغيب: نفسك بالذهاب. تنيب: ترجع وتتوب. تهذب:
تخلصه من العيب. والمعيب: الكثير العيب. يرشد: يهدي ويدل الطريق.

[الدنيا ومما قيل فيها]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في الدُّنْيَا موافقةً للحريري، ثم نعود إلى ذكر الشيب:

ومن حُطْبَةِ قَطْرِ بَنِ الْفُجَاءَةِ فِي ذَمِّ الدُّنْيَا:

أَلَسْتُ فِي مَسَاكِنَ مَنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَوْضَحَ آثَاراً، وَأَكْثَرَ
جَنُوداً، وَأَعَدَّ عَتَاداً، وَأَطْوَلَ عِمَاداً؟ تَعَبُّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِثَارٍ، وَظَعَنُوا

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٦، ومسلم في الفضائل حديث ١٧،

١٨، والترمذي في الأدب باب ٨٢، وأحمد في المسند ١/٣٩٠، ٤٢٤، ٢/٢٤٤، ٣١٢، ٥٤٠،

٣/٣٦١، ٣٩٢، ٤٠/٥.

عنها بالكُزْه والصَّغَار، فهل بَلَّغكم أَنَّ الدُّنْيَا أَسْمَحَتْ لَهُمْ نَفْسًا، وَأَغْنَتْ عَنْهُمْ بِحِيلَةٍ، بَلْ أَرَهَقْتَهُمْ بِالْحَوَادِثِ، وَضَغَضَعْتَهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَدَهَمَتْهُمْ بِالمَصَائِبِ، أَرَأَيْتُمْ مَكْرَهَا بِمَنْ دَانَ لَهَا وَآثَرَهَا، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أُرِيكَ الدُّنْيَا جَمْعَاءَ بِمَا فِيهَا؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى، فَأَخَذَ بِيَدِي، وَأَتَى وَادِيًّا مِنْ أَوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ، فَإِذَا مَزْبَلَةٌ فِيهَا رُؤُوسُ النَّاسِ وَعَذِيرَاتُ وَخَرَقٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، هَذِهِ الرُّؤُوسُ كَانَتْ تَحْرَصُ حُرُصَكُمْ، وَتَأْمُلُ أَمْلَكُمْ، ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ، ثُمَّ غَدَا رَمَادٌ، وَهَذِهِ الْعَذِيرَاتُ أَلْوَانُ أَطْعَمْتَهُمْ اِكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اِكْتَسَبُوهَا فَقَذَفُوهَا فِي بَطُونِهِمْ، فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامُونَهَا، وَالرِّيحُ تَصْفَقُهَا، وَهَذِهِ عِظَامُ دَوَابِّهِمْ الَّتِي كَانُوا بِهَا يَنْتَجِعُونَ أَطْرَافَ الْبِلَادِ، فَمَنْ كَانَ بَاكِئًا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَكْ! فَمَا بَرَحْنَا، حَتَّى اشْتَدَّ بَكَؤُنَا.

مَرَّ أَبُو عَثْمَانَ الدَّبَّاعُ، بِرَجُلٍ عَلَى كَنِيفٍ، فَقَالَ لَهُ: إِلَى هَذَا انْتَهَتْ دُنْيَا الْقَوْمِ..
وَقَالَ الشَّاعِرُ: [الكامل]

وَلَقَدْ سَأَلْتُ الدَّارَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ فَتَبَسَّمَتْ عَجَبًا وَلَمْ تُبْدِي
حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى الْكَنِيفِ فَقَالَ لِي أُمُوالُهُمْ وَنُوالُهُمْ عِنْدِي
وَيُرَوِّى أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَرَّ بِجَمْعَةٍ فَضَرَبَهَا بِرِجْلِهِ،
وَقَالَ: تَكَلِّمِي بِإِذْنِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: يَا رُوحَ اللَّهِ، أَنَا مَلِكٌ زَمَنْ كَذَا، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي
مُلْكِي، عَلَيَّ تَاجِي، وَحَوْلِي حَشَمِي وَجُنُودِي عَلَى سُرِيرِي، إِذْ بَدَأَ لِي مَلِكُ الْمَوْتِ
وَوَظَرُ، فزَالَ عَنِّي كُلُّ عَضْوٍ مِنْ مَوْضِعِهِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَيْهِ نَفْسِي.

وَلِبَعْضِ الزَّهَادِ: [الكامل]

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنَّ نِي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا
مَدَّتْ إِلَيَّ يَمِينَهَا فَقَطَعَتْهَا، وَشِمَالَهَا
مَنْعَ الْإِلَهِ حَرَامَهَا وَأَنَا اجْتَنَنْتُ حَلَالَهَا
وَرَأَيْتُهَا مُخْتَاجَةً فَوَهَبْتُ جُمْلَتَهَا لَهَا
وَلِبَعْضِهِمْ: [الوافر]

هَبِ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالٍ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ فَيءٍ أَظْلُكَ ثُمَّ أَدْنُ بِالزَّوَالِ
أَبُو الْعَتَاهِيَةِ: [البسيط]

يَا مَنْ تَرَفَّعَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا لَيْسَ التَّرَفُّعُ رَفَعَ الطِّينِ بِالطِّينِ

إذا أزدت شريف القوم كُلِّهِمْ
أرى أناساً بأدنى الدِّين قد قَنَعُوا
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما الله
وقال التهامي: [الكامل]

فانظر إلى مَلِكٍ في زِيٍّ مِسْكِينٍ
ولا أراهم رَضُوا في العيش بالدُّون
تَغْنَى الملوك بدنياهم عن الدِّين

حُكْمُ المنيّة في البريّة جاري
بيئاً يُرى الإنسان فيها مخبراً
طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها
ومكلف الأيّام ضِدَّ طباعِها

وقال أبو حاتم: إنما بيني وبين الملوك واحدة؛ أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم في غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم! أخذه أبو العتاهية فقال: [البيسط]

حَتَّى متى نحن في الأيّام نحسبُها
يومٌ تولى ويومٌ نحن نأملُه
ولحاتم: [الطويل]

هل الدَّهر إلا اليومُ أو أمسٍ أو غدُ
ترد علينا ليلةً بعدَ يومِها
وللفقيه الباجي: [المتقارب]

إذا كُنْتُ أعلم علماً يقيناً
فلم لا أكون ضنيناً بها
وله أيضاً: [الطويل]

تبلغ من الدُّنيا بأيسرٍ زادٍ
وغُض عن الدنيا وزخرف أهلها
وجاهد عن اللذات نفسك جاهداً
وما هي إلا دارُ لهوٍ وفتنةٍ
وقال آخر: [الوافر]

وما أهل الحياة لنا بأهلٍ
ولا دارُ القَناء لئلا بدارٍ

(١) الأبيات في ديوان علي بن محمد التهامي في ديوانه ص ٤٧، والبيت الأول في تاج العروس (تهم).

(٢) البيتان في ديوان أبي العتاهية ص ٢٧٢.

وما أموالنا إلا عوارٍ
ولأبي العتاهية : [الكامل]

قطعتُ منك حبال الآمالِ
ووجدتُ بزد اليأس بين جوانيحي
فالآن يا دنيا عرفتُك فاذهبي
والآن صار لي الزمان مؤذياً
يأئبها البطُل الذي هو من غدٍ
جِيلُ ابن آدم في الأمور كثيرةٌ
وللقاضي أبي حفص بن عمران : [المديد]

أيها المغترُّ بالزَّمنِ
حبَّك الدنيا وزينتها
ظَلَّتْ والحالاتُ شاهدةٌ
فاهجرنها إنَّ زينتها
خدعتُك إنَّها قُبِحتُ
واسألُ عن حرصٍ وعن طَمَعٍ
ولتقدِّم ما تُسرِّبه
فكأنَّ أخراك ما برحتُ
في هواه خالِع الرُّسَنِ
فتنة عَمَّتْكَ بالفتنِ
عاكفاً منها على وَثَنِ
زيننةً شانت ولم تَزِنِ
باطناً في ظاهرٍ حَسَنِ
أملأ يردِي وعِن وعِنِ
قبل طول البَثِّ والحَزَنِ
وكأنَّ دنياك لم تَكُنِ

ثم اندفع يُنشدُ، إنشادٌ من يُرشد : [السريع]

يَا وَيْحَ مَنْ أُنْذَرُهُ شَيْبُهُ
يَغْشُو إِلَى نَارِ الْهَوَى بَعْدَمَا
وَيَمْتَطِي الْلَهْو وَيَغْتَدُّهُ
لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الَّذِي مَا رَأَى
وَلَا انْتَهَى عَمَّا مَا نَهَاهُ النَّهَى
فَذَلِكَ إِنْ مَاتَ فَسُخْقاً لَهُ
لَا خَيْرَ فِي مَحْيَا امْرِئٍ نَشْرُهُ
وَهُوَ عَلَى عَيِّ الصَّبَا مُنْكَمِشٍ
أَضْبَحَ مِنْ ضَعْفِ الْقَوَى يَزْتَعِشُ
أَوْ طَامَا يَفْتَرِشُ الْمُفْتَرِشِ
نَجْوَمُهُ ذُو اللَّبِّ إِلَّا دُهِشَ
عَنْهُ وَلَا بَالَى بِعِزِّ خُدِشِ
وَإِنْ يَعْشُ عُدَّ كَأَنْ لَمْ يَعْشِ
كَتَشَرَ مَيْتَ بَعْدَ عَشْرِ نُبُشِ

قوله: يا ويح من أنذرته شيبه، ويح كلمة ترحم؛ أنذرته: أبلغه وحذره. غَيَّ: ضلال. منكمش: مسرع إليه ملازم له، وقد كَمَشَ الرَّجُلُ وانكمش في أمره: استمرَّ ومَضَى فيه مسرعاً.

ومن قولهم في الشيب

في هذا المعنى ما قال أكثم بن صيفي: الشيب عنوان الموت.

وقال العتابي: الشَّيْبُ نذيرُ الموت.

وقال الثُميري: هو عنوان الكبير.

قيس بن عاصم: هو خطام المنية.

محمود الوراق: الشَّيْبُ إخذى الميتتين.

المعز بن سليمان: الشيب موت الشَّعْر، وموت الشَّعْر عِلَّةٌ لموت البشر.

أعرابي: كنت أنكر السوداء، فيا خير مبدول ويا شرَّ بَدَلٍ! أخذه حبيب فقال:

[الخفيف]

شَابَ رأسي وما رأيتُ مشيبَ الرَّا سِ إِلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الْفُؤَادِ^(١)

وكذاك الرؤوس من كلِّ بؤسٍ ونعيم طلائع الأَجْسَادِ

طال إنكارِي البياض وإنْ عُمُ رثُ شيئاً أنكرتُ لون السَّوَادِ

زارني شخصه بطلعة ضَمِ عَمَرْتُ مجلسي من العُؤَادِ

قيل للنبي ﷺ: عَجَّلَ عليك الشيب يا رسول الله، فقال: «شَيَّبَتْنِي هُودُ

وأخواتها»^(٢).

وقيل لعبد الملك: عَجَّلَ عليك الشيب يا أمير المؤمنين، فقال شَيْبَنِي ارتقاء المنابر

وتوقع اللحن.

وقيل لشاعر: عَجَّلَ عليك الشيب، فقال: كيف لا، وأنا أعصِرُ قلبي في عملٍ لا

يُزَجِّي ثوابه، ولا يؤمن عقابه.

وقال محمود الوراق رحمه الله: [المقارب]

بَكَيْتُ لِقُزْبِ الْأَجَلِ وَيَغْدِفَوَاتِ الْأَمَلِ

ووافدِ شَيْبِ طَرَا بَعَثِبِ شَبَابِ رَحَلِ

شَبَابٌ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَشَبَبٌ كَأَنْ لَمْ يَزَلْ

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٧٥.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٥٦، باب ٦، بلفظ: «شَيَّبَتْنِي هُودُ والواقعة».

وقال حبيب: [الطويل]

عَدَا الشَّيْبُ مُخْتَطًّا بِفُودِي خُطَّةً طَرِيقُ الرَّدَى مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ مَهْيَعٌ^(١)
هُوَ الزُّورُ يُجَفَى وَالْمُعَاشِرُ يُجْتَوَى وَدُو الْإِلْفِ يُقْلَى وَالْجَدِيدُ يَرْقَعُ
لَهُ مَنَظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ
وَنَحْنُ نُرْجِيهِ عَلَى السُّخْطِ وَالرِّضَا وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه: [الوافر]

شَبَابُ الْمَرْءِ تُنْفِذُهُ اللَّيَالِي وَإِنْ كَانَتْ تَصِيرُ إِلَى نَفَادٍ
فَأَسْوَدُهُ يَعُودُ إِلَى بَيَاضٍ وَأَبْيَضُهُ يَعُودُ إِلَى سَوَادٍ

أخذ هذا من قول المستوغر بن ربيعة حين دخل على معاوية، وهو ابن ثلاثمائة سنة، فقال: كيف تجدك يا مستوغر؟ قال: أجدني قد لَانَ مَنِي مَا كُنْتُ أَحَبَّ أَنْ يَشْتَدَّ، وَأَبْيَضَ مَنِي مَا كُنْتُ أَحَبَّ أَنْ يَسْوَدَّ.

وقال ابن عبد ربه: [البسيط]

أَطْلَالُ لَهْوِكَ قَدْ أَقَوْتُ مَغَانِيهَا لَمْ يَبْقَ مِنْ رَسْمِهَا إِلَّا أَثَافِيهَا
هَذِي الْمَفَارِقُ قَدْ قَامَتْ شَوَاهِدُهَا عَلَى فَنَائِكَ وَالْدُنْيَا تَرْكِيهَا
لِلْمَوْتِ سَفْتَجَةٌ فِيهَا مَعْنُونَةٌ لَمْ يَبْقَ لِلْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَسْحِيهَا

قوله: يعيش، أي ينظر ببصر ضعيف. يمتطي: يركب. يعتده: يحسبه. المفترش: المضطجع على الفراش، يريد أنه يركب اللهب فيلتهده ويجده وطيثاً. يَهَبُ: يَخْفُ. اللَّبُ: العقل: دُهِش: تحير. النُّهْيُ: جمع نُهْيَةٍ، وهي العقل ينهى عن القبيح، وينتهي به إلى حسن الرأي في الأمور، ويقال: نهاه عن ذلك نهاه، أي عقله.

وأشدد أبو طاهر السلفي، قال: أنشدني القاضي أبو محمد بن الحسن بن نصر بن مرهف النُّهَّاوندي، قال: أنشدني الأديب المدني لنفسه في نفسه: [الخفيف]

لِي عَلَى النَّاسِ فَضْلٌ نَظْمٍ وَنَثْرِ مَنْ أَبَاهُ هَجْوُهُ وَأَبَاهُ
وَإِذَا مَا أَتَى صَفَعْتُ قَفَاهُ وَقَفَا مَنْ أَعَانَهُ وَقَفَاهُ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَرَادَ مُحَالاً فَنَهَاهُ عَنِ الْمَحَالِ نُهَاهُ

قوله: حُدِش، أي ذمَّ وَسُبَّ، وأصل الخدش الأثر في الجلد، ثم اتسع فيه، فَجُعِلَ لِلْعَرَضِ. سَحَقًا: بعداً، وَالنُّشْرُ: الرِّيحُ؛ طَيِّبَةٌ كَانَتْ أَوْ خَبِيثَةً. نُيْشُ: أَخْرَجَ، وَكُلُّ مَدْفُونٍ

أخرجته فقد نبشته . وأخذ هذا البيت من قول ابن المعتز: [الطويل]

تَبَحُّثُ عَنْ آثَارِهِ فَكَأَنَّمَا نَبَشْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ ثَالِثَةِ الدَّفْنِ
وله: [الكامل]

أُثْنِي عَلَيْكَ بِمِثْلِ رِيحِكَ مِيتًا فِي عَقَبِ يَوْمِ تَزُقُّكَ الْأَعْوَادُ
وأخذ هذا وهذا من قول عمر بن عبد العزيز: لو رأيته بعد ثالثة! وتقدم في
الحادية عشرة [السريع]

وَحَبَّبًا مَنْ عَرَضَهُ طَيِّبٌ يَرُوقُ حُسْنًا مِثْلَ بُرْدِ رُقِشٍ
فَقُلْ لِمَنْ قَدْ شَاكَهُ ذَنْبُهُ: هَلَكْتَ يَا مُسْكِينُ أَوْ تَنْتَقِشُ
فَأَخْلَصَ التَّوْبَةَ تَطْمِئِنَ بِهَا مِنَ الْخَطَايَا السُّودِ مَا قَدْ نُقِشُ
وَعَايِرَ النَّاسَ بِخُلُقٍ رِضًا وَذَارِ مَنْ طَاشَ وَمَنْ لَمْ يَطِشْ
وَرِشَ جَنَاحَ الْحُرِّ إِنْ حَصَّهُ زَمَانُهُ، لَا كَانَ مَنْ لَمْ يَرِشْ
وَأَنْجِدِ الْمَوْتُورَ ظَلَمًا فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَادِهِ فَاسْتَجِشْ
وَانْعَشْ إِذَا نَادَاكَ دُوْ كَبُورَةٍ عَسَاكَ فِي الْحَشْرِ بِهِ تَنْتَعِشْ
وَهَاكَ كَأْسَ التُّصْحِ فَاشْرَبْ وَجُذْ بِفَضْلَةِ الْكَاسِ عَلَى مَنْ عَطِشْ

يروق: يُعْجِب: بُرد: ثوب. رُقش: رِقَم وَزَيْن، تقول: رَقِشْتَ يَدَ الْمَرْأَةِ بِالْحِثَاءِ
والْحَائِطَ بِالأَصْبَاحِ وَالْقِرطَاسَ بِالْمِدَادِ، وشبه هذا شَاكَهُ ذَنْبُهُ، يقال: شَاكَهُ يَشُوكُهُ، إذا
دخل فيه شَوْكَةٌ، قال الشاعر: [الكامل]

لَا تَنْقُشَنَّ بِرَجْلِ غَيْرِكَ شَوْكَةً فَتَقِي بِرَجْلِكَ رِجْلَ مَنْ قَدْ شَاكَهَا^(١)

فشاكها، أَدْخَلَ فِيهَا الشَّوْكَ، وشَاكَتْهُ الشَّوْكَةُ: دخلت فيه، وشُكَّتْهُ أَنَا، إذا أَدْخَلْتَ
الشَّوْكَةَ فِي جِسْمِهِ، فَإِنْ أَصَابَكَ الشَّوْكَ قُلْتَ: شَاكَنِي الشَّوْكَ يَشُوكُنِي شَوْكًا. وانتقشت
حَقِّي مِنْ فُلَانٍ، إذا اسْتَخْرَجْتَهُ وَلَمْ تَتْرَكْ مِنْهُ شَيْئًا.

وقال عليه السلام: «وإن شيك فلا انتقش»^(٢)، فشيك أصابه الشوك ومعناه إذا وقع في شر
فلا يخلص منه.

تَنْتَقِشُ: تَخْرِجُ الشَّوْكَةَ وَتَبْحَثُ عَلَيْهَا، وَأَوْ بِمَعْنَى إِلَّا. والمناقشة: البحث
والاستقصاء، ومنه مناقشة الحساب، وبذلك سمي المِنْقَاشُ، وقال ابن الرومي: [الطويل]

(١) البيت ليزيد بن مقسم الثقفي في تاج العروس (شوك)، وبلا نسبة في لسان العرب (نقش)، (شوك).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٨.

إذا رُمْتُ بالمنقاشِ نَتَفَ أَشَاهِي أتيح لها من بينهنَّ الأباهمُ
يُراوغ منقاشي نجومَ مسايحي وهنَّ بعيني طالعاتُ نَوَاجِمُ
تَطْمِسُ: تمحو. ونقش: كتب، والنَّقْش يستعمل في مثل الخشب والحائط
والصُّخْر، والنَّقْش: الفتحة والتأثير في نفس المنقوش. وقال الألبيري في معنى هذا
البيت: [الكامل]

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِي الْخِلَاصِ لِنَفْسِهِ كَانَتْ سَعَايَتُهُ عَلَيْهَا، لَا لَهَا
إِنَّ الذَّنُوبَ بَتَوْبَةٍ تُمَحَى كَمَا يَمْحُو سَجُودُ السُّهُوِ غَفْلَةً مَنْ سَهَا
قوله: عاشر، أي صاحب. دار: عامله بما يحب، وَاَمْشِ عَلَى غَرْضِهِ طَاش: خَفَّ
عَقْلُهُ، ورجل طَيَّاشٌ غير مقتصد في قوله، وهو مِنْ طَاش السهم، إذا لم يصب ووقع
على غير قُصْد، ومثله قول أعرابي لبنيه: عَاشَرُوا النَّاسَ مُعَاشَرَةً إِذَا غَبْتُمْ حُنُوتًا إِلَيْكُمْ،
وإن مَثَمَ بَكُوا عَلَيْكُمْ؛ وهذا من قول الشاعر: [الطويل]

وأكرم كريماً إن أتاك حاجةٌ لفأقته إن العضة تُرُوحُ^(١)
وقال الأضبط بن قريع: [المنسرح]

لا تهين الفقيرَ عَلكَ أنْ تَزَكَّعَ يَوْماً والدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ^(٢)

رش الجناح: اكسه الريش، والمعنى أصلح حال الحرِّ إذا افتقر. حَصَه: نتفه.
أَنَجِدَ: قَوِّ وَأَعِزِّ، والموتور: المظلوم الذي قُتِلَ له أخ أو ولد أو نسيب. اسْتَجَشَّ: اجمع
جيشاً، والمعنى: إذا لم تقدر على إعانة مظلوم، فتوسَّطَ لِمَنْ يُعِينُهُ. انعش: ارفع. كبوة:
سَقَطَةٌ وعثرة. تنتعش: ترتفع وتقوم من عَثْرَتِكَ. هَاك: خذ، والمعنى خذ كأس النصيحة
فاشرئبها فإذا رويت فاسقٍ غيرك. ولا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب.

قال: فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ مُبَكِّيَاتِهِ، وَقَضَى إِنْشَادَ أُبَيَّاتِهِ، نَهَضَ صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ،
وَأَعْرَى الْبَدَنَ، وَقَالَ: يَا ذَوِي الْحَصَاةِ، وَالْإِنْصَاتِ إِلَى الْوَصَاةِ، قَدْ وَعَيْتُمُ الْإِنْشَادَ،
وَفَقَّهْتُمُ الْإِرْشَادَ، فَمَنْ نَوَى مِنْكُمْ أَنْ يَقْبَلَ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ، فَلْيُؤْنِ بِبِرِّي عَنْ
نِيَّتِهِ، وَلَا يَغْدِلْ عَنِّي بِعَطِيَّتِهِ؛ فوالذي يعلم الأسرار، ويغفر الإضرار؛ إِنَّ سِرِّي لَكَمَا

(١) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة روح.

(٢) البيت للأضبط بن قريع في الأغاني ٦٨/١٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٥١، وبلا
نسبة في الإنصاف ٢٢١/١، وشرح ابن عقيل ص ٥٥٠، ولسان العرب (قنس)، (ركع)، (هون)،
واللمع ص ٢٧٨.

تَرَوْنَ، وَإِنَّ وَجْهِي لَيَسْتَوْجِبُ الصُّونَ؛ فَأَعِينُونِي رُزِقْتُمُ الْعَوْنَ.

قال: فَأَخَذَ الشَّيْخُ فِيمَا يَغْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ؛ وَيُسْنِي لَهُ الْمَطْلُوبَ؛ حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ. فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ؛ انْصَلَّتْ يَمِيسُ، وَيَحْمَدُ تَيْسُ، وَلَمْ يَحُلْ لِلشَّيْخِ الْمَقَامَ، بَعْدَمَا انْصَاعَ الْغَلَامَ. فَاسْتَرْفَعَ الْأَيْدِي بِالْدُعَاءِ، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الْانْكَفَاءِ.

قوله: قضى، أي أتم. نهض: قام وتقدم. شَدَنَ: اشتد وقوي، وأصله في الظني والصبي، تقول: شَدَنَ الظبيُّ، إِذَا اشْتَدَّ وترعرع، وكذلك الصبيُّ قال عمر بن أبي ربيعة: [البسيط]

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضُهُ وَمَقْلَتِي جُوذَرٍ لَمْ يَغْدُ أَنْ شَدَنَّا^(١)

أراد أنه ترعرع للمشي والرَّغِي. أغرَى البدن: تركه غرياناً. ذَوِي الْحَصَاة: أهل العقول: والإنصات: السكوت وحسن الاستماع، والوَصَاة، بمعنى الوصية كالتقاة بمعنى التقية، وأصلها «وقية» قُلِبَتِ الْوَاوُ تَاءً وَالْيَاءُ أَفَاءً، وَالْوَاوُ إِذَا انْضَمَّتْ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَةِ كُنَتْ بِالْخِيَارِ، إِنْ شَتَّتْ تَرْكُتْهَا، وَإِنْ شَتَّتْ قَلْبَتْهَا، وَلِهَذَا تُرِكَتْ فِي الْوَصَاةِ. وَقِيلَ الْوَصَاةُ بَفَتْحِ الْوَاوِ فِي الْوَصِيَّةِ، وَبِضْمَتِهَا جَمْعُ وَاصٍ كِرَاعٍ وَرُعَاةٍ، وَعَيْتَمَ: حَفَظْتَمَ. فَهَمْتَمَ: الْإِرْشَادُ: الْهَدَايَةُ: أَيِ قَدْ فَهَمْتَمَ مَا دَلَّيْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فَافْعَلُوا. نَوَى: قَصَدَ وَأَضْمَرَ، وَهُوَ مِنَ النِّيَّةِ، وَأَرَادَ بِالْمُسْتَقْبَلِ، مَا يَسْتَقْبَلُهُ مِنْ أَفْعَالِهِ. فَلْيَيْنَ: فَلْيَفْصَحْ وَيَبَيِّنْ. بَبْرِي: بِإِكْرَامِي. عَنْ نِيَّتِهِ: عَنْ قَصْدِهِ وَصِدْقِ بَاطِنِهِ. يَعْدِلُ: يَمِلُ. الْإِصْرَارُ: الْإِقَامَةُ عَلَى الذَّنْبِ، سَرِّي لَكَمَا تَرَوْنَ، أَيِ هُوَ ظَاهِرٌ لَكُمْ غَيْرُ مُسْتَتَرٍ. الصُّونُ: الْخُوطَةُ فِيمَا يَعْطَفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبُ، يَرِيدُ أَنَّهُ أَخَذَ فِي كَلَامٍ تَحَنَّنَ بِهِ لِلصَّبِيِّ قُلُوبَ النَّاسِ. يَسْنِي: يَسْهَلُ وَيُسَيِّرُ. أَنْبَطَ: أَخْرَجَ الْمَاءَ. الْقَفْرُ: مَا لَا نَبَاتَ فِيهِ. اعْشَوْشَبَ تَغَطَّى بِالْعَشْبِ، يَرِيدُ أَنَّهُ اسْتَغْنَى بَعْدَ الْفَقْرِ، وَضَرَبَ بِأَنْبَطَ وَاعْشَوْشَبَ الْمَثَلُ. تَرَعَ: امْتَلَأَ، وَالْكِيسُ: وَعَاءُ الدَّرَاهِمِ انْصَلَّتْ: تَسَلَّلَ وَخَرَجَ بِسَهُولَةٍ. يَمِيسُ: يَتِمَّائِلُ وَيَتَبَخَّرُ. انْصَاعَ: ذَهَبَ مُسْرِعاً وَانْفَتَلَ رَاجِعاً. اسْتَرْفَعَ: طَلَبَ رَفْعَهَا. نَحَا نَحْوَ الْانْكَفَاءِ، أَيِ قَصَدَ قَصْدَ الْانْصِرَافِ.

قال الراوي: فَارْتَحْتُ إِلَى أَنْ أُعْجِمَهُ، وَأَحُلَّ مُتَرْجَمَهُ، فَتَبَعْتُهُ وَهُوَ يَشْتَدُّ فِي سَمْتِهِ، وَلَا يَفْتَقُ رَتْقُ صَمْتِهِ؛ فَلَمَّا أَمِنَ الْمُفَاجِي، وَأَمَكَنَ التَّنَاجِي، لَفَّتْ جِيدَهُ إِلَيَّ،

وَسَلَّمَ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: أَرَأَيْكَ ذَكَاءَ ذَاكَ الشُّوَيْدِينَ؟ فَقُلْتُ: إِي
وَالْمُؤْمِنِ الْمُهِيمِينَ؛ قَالَ: إِنَّهُ فَتَى السَّرُوجِيِّ، وَمُخْرِجُ الدَّرِّ مِنَ اللَّجِيِّ. فَقُلْتُ: إِنَّكَ
لَشَجَرَةٌ ثَمَرَتِهِ، وَشَوَاطِئُ شَرَرِيَّتِهِ. فَصَدَّقَ كَهَانَتِي، وَاسْتَحْسَنَ إِبَانَتِي. ثُمَّ قَالَ: هَلْ
لَكَ فِي ابْتِدَارِ الْبَيْتِ؛ لِنَتَنَازَعَ كَأَسَ الْكُمَيْتِ؟ فَقُلْتُ لَهُ: وَيَحَاكَ! ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، فَافْتَرَّ افْتِرَازَ مُتَضَاحِكَ، وَمَرَّ غَيْرِ مَمَاحِكَ.
ثُمَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ تَرَاوَعَ إِلَيَّ، وَقَالَ: اخْفِظْهَا عَنِّي وَعَلَيَّ: [السريع]

اضْرِفْ بِصِرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ الْأَسَى وَرُوحَ الْقَلْبِ وَلَا تَكْتَثِبْ
وَقُلْ لِمَنْ لَامَكَ فِيمَا بِهِ تَذْفَعُ عَنْكَ الْهَمُّ: قَدْكَ أَتَيْبْ

قوله: ارتحت، أي اشتفيت وطربت. أعجمه: أخبره. مترجمه: ملتبسه. يشتد:
يجري. سمته: طريقه. يفتق رتق: يشق غلق. صمته: مبهم أمره والفتق: الخرق،
والرثق: الإغلاق، وهو ضده، وذلك أن يضم المتخرق بعضه إلى بعض. التناجي:
التحادث. لفت جيده: عطف عنقه. البشاشة: الخفة وإبداء السرور. أراك؟: أأعجبك؟
ذكاء: حذق، والذكاء: توقد الذهن. الشويعين: تصغير شادن، وأراد ابنه. والمؤمن
المهمين، هو الله تعالى، والإيمان: التصديق. وقال أبو بكر بن العربي: البارئ تعالى
مؤمن بتصديقه لنفسه بقوله، وذلك حقيقته، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
[آل عمران: ١٨]، أو بتصديقه لرسله بإظهار المعجزة، أو لأوليائه بإظهار الكرامة، وهما
مجازان، والمهمين: الرقيب الحافظ.

الكسائي: المهمين: الشهيد. أبو عبيدة: الرقيب، وقد هَيَمَنَ هيمنة. ابن الأنباري:
القائم على خلقه، قال الشاعر: [الطويل]

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ مُهِيمِنُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالتُّكْرِ^(١)

أي القائم على الناس بعده، وأصله «مؤيمن» فأبدلوا من الهمزة هاء كما قالوا:
أَرَفَّتْ وَهَرَفَتْ. وفي مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر: [الطويل]

فَإِنْ خَلَقْتُهُ السَّنَّ فَالْعَقْلُ بِالْغُ بِهِ رَتْبَةُ الْكَهْلِ الْمَرْشَحِ لِلْمَجْدِ
فَقَدْ كَانَ يَحْيَى أَوْتَى الْحَكْمَ قَبْلَهُ صَبِيًّا وَعَيْسَى كَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

وقال البحتري: [البسيط]

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ صِغَرٍ فِي السَّنِّ وَانْظُرْ إِلَى الْمَجْدِ الَّذِي شَادَا^(٢)

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (همن)، وتهذيب اللغة ٦/ ٣٣٤.

(٢) البيتان في ديوان البحتري ص ٦١٠، وفيه «لا تنظرن إلى الفياض» بدل «لا تنظرن إلى العباس».

إِنَّ النُّجُومَ نَجُومُ الْجَوِّ أَحْقَرُهَا فِي الْعَيْنِ أَكْثَرُهَا فِي الْجَوِّ إِصْعَادًا

[من نوادر الولدان]

ولمّا ذَكَرَ لهذا الصَّبِيِّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر، وجب علينا أن نذكر من نوادر الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذَكَر، لئلا نخلّ بما شرطناه، فقد تروى للولدان نوادر، ربما عجزت عنها الكهول ذوو البصائر.

حكى الخطّابيّ أنه قدِمَ على عمر بن عبد العزيز وقدّ فيهم شاب، فتحوَّس للكلام، فقال عمر: كَبُرُوا كَبُرُوا، أي ليتكلّم الكبراء منكم، فقال: الغلام يا أمير المؤمنين، لو كان [الأمر] بالسّن لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك. قال عمر: صدقت! تكلّم.

فتحوَّس: فتهيّأ للكلام.

وفي رواية: قدِمَ وفد الحجاز على عمر فقدّموا غلاماً منهم للكلام، فقال عمر: مهلاً، ليتكلّم مَنْ هو أسنُّ منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، إنّما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الحلية. قال: تكلّم، قال: نحن وفود الشكر، لا وفود المرزئة، لم تُقدِّمنا إليك رغبة ولا رهبة، لأنّا أمّنا في زمانك ما خفنا، وأدركنّا ما طلبنا.

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قُبِضت ضياعهم وهو غلام صغير، فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك، سليلُ نعمتك وابن دولتك، وغصنٌ من أغصان دوحتك؛ أفتأذن لي في الكلام؟ قال: نعم. فحمد الله تعالى وصلى على نبيه، ثم قال: أمتنا الله بحيطة ديننا ودنيانا، ورعاية أقصانا وأداننا، ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا، وفي أثرك من آثارنا، ويقيّنك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، هذا مقام العائد بظلك، الهارب إلى كنفك وفضلك، الفقير إلى رحمتك وعدلك. ثم سأل حوائجه فقضاها.

وقَحَطَتِ البادية أيام هشام بن عبد الملك؛ فوفد عليه رؤوس القبائل فجلس لهم، وفيهم صبيٌّ، ابن أربع عشرة سنة، يسمّى درواس بن حبيب، في رأسه ذؤابة، وعليه بُرْدَةٌ يمانية. فاستصغره هشام وقال لحاجبه: ما يشاء أحدٌ أن يصل إلينا إلا وصل، حتى الصبيان! فقال درواس: يا أمير المؤمنين، إنّ دخولي لم يُخلّ بك ولا انتقصك، ولكنّه شرفني، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمرٍ فهابوك دونه، وإن الكلام نشر، والسكوت طي لا يُعرَف إلا بنشره؛ فأعجبه كلامه، وقال: انشر لا أم لك! فقال: إنا أصابتنا سنون ثلاثة، فسنة أكلت اللحم، وسنة أذابت الشحم، وسنة أنقّت العظم^(١)، وفي أيديكم فضول أموال،

(١) النقى: منح العظم، وأنقت العظم: أي أخرجت النقى منه.

فإن كانت لله عز وجل ففرّقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا تحتبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدّقوا بها عليهم؛ فإن الله يجزي المتصدّقين، ولا يضيع أجر المحسنين؛ وإنّ الوالي من الرعيّة كالروح من الجسد، لا حياة له إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً، وأمر بمائة ألف دينار ففرّقَتْ في أهل البادية، وأمر له بمائة ألف درهم: فقال: ازدّدها في جائزة العرب، فما لي حاجة في خاصّة نفسي دون عامّة المسلمين.

أحمد بن يحيى: حدّثني السدري أن ثُميراً غزت حَنيفة فغنمَتْ، وتبعَهم حنيفة فهزموهم، وردّوا غنائمَهم، فلقيْتُ غلاماً منهم، فقلت: كيف صنع قومك؟ فقال: تبعوهم والله، وقد أحقبوا كل جُمالية خَيْفانة، فما زالوا يخصفون أخفاف المطيِّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم بعد ثالثة. فجعلوا المَران أُرشيّة الموت، فاستَقَوْا بها أرواحَهم.

وهذا كلام فصيح كثير الاستعارة. أحقبوا: أَرَدَفُوا بموضع الحقيقة، والجُمالية المرأة الجميلة: وخصف: خرز، وتشبيه المَران - وهي الأرماع - بالأُرشيّة وهي الجبال حَسَن.

وجلس خالد القسريّ يوماً للشعراء على الفرات، فأنشدوه وأخذوا الجوائز وانصرفوا، ولم يبق إلا غلام، فقال خالد: يا غلام، أشاعر أنت؟ قال: لا ولكني مُتعلّم، وقد قلتُ شيئاً، قال: هات، فأنشأ يقول: [الطويل]

ألا هل ترى مَوَجَ الفُراتِ كأنّه جِبال سُورٍ قد أتَيْتْكَ عَوماً
وما ذاك من عاداته غيرَ أنه رأى شيمَةً من جاره فتعلّماً

وكان بقي على البساط فضلة مال، فقال له خالد: اطوِ البساط بما عليه، فأخذه الغلام بما عليه.

ورأى بعض الملوك غلاماً يسوق حماراً، وهو يعْتَف عليه، فقال: ارفُق يا غلام، فقال: أيها الملك، في الرفق مضرة عليه، قال: وما مضرّته؟ قال: يطول طريقه، ويشتدّ جوعه، وفي العنف عليه إحسانٌ إليه، يخفّ حملُه، ويطول أكله. فأعجب به، وقال: قد أمرت لك بألف درهم، قال: رزقٌ مقدور، وواهب مأجور. قال: وقد أمرت بإثبات اسمك في حَشَمي، قال: كُفَيْتُ مؤونة، ورزقت بها معونة، قال: لولا صغرك لاستوزرتك، قال: لم يعدم الفضل من رزق العقل، قال: أفصلح لذلك؟ قال: إنما يكون الحمد أو الذمّ بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلّوها، فاستوزره فوجده ذا رأي صائب.

دخل الفرزدق - وهو غلام يافع - على سعيد بن العاص، وقد أنشد أشعاراً والحطيئة حاضر فأنشده: [الوافر]

ترى الغرّ الجحاجح من قُرَيْشٍ إِذَا مَا الْأَمْرُ فِي الْحَدَثَانِ عَالَا^(١)
 قِيَاماً يَنْظُرُونَ إِلَى سَعِيدٍ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ بِهِ الْهَيْلَالَ
 فقال الحطيئة: هذا والله الشعر، لا ما تعلّل به نفسك هذا اليوم، يا غلام أدركت
 مَنْ قَبْلَكَ، وسبقت مَنْ بَعْدَكَ، وَإِنْ طَالَ عَمْرُكَ لَتَبْرَزَنَّ، ثم قال له: هل أنجدت أُمَّكَ يا
 غلام، قال: لا بل أنجد أبي، فوجده لقناً حاضراً الجواب فأعجبه.

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع، فأتى بابيه، فخرجت له بُنْيَّةٌ له صغيرة
 اسمها مكية، فقال لها: ابنة مَنْ أَنْتِ؟ قالت: ابنة الفرزدق، قال: فما بالك حبشيّة؟
 قالت: فما بال يدك مقطوعة؟ قال: قُطِعَتْ في حرب الحرورية، قالت: بل قطعت في
 اللصوصية، فقال: عليك وعلى أبيك لعنة الله، ثم أخبر الفرزدق بالخبر، فقال: أشهد
 أنها ابنتي حقاً، ثم قال: [الرجز]

سَامٍ إِذَا مَا كُنْتَ مَخْمِيَّةً بِدَارِمِيٍّ أُمُّهُ ضَبِّيَّةٌ
 * صَمَخَمَحَ مِثْلَ أَبِي مَكِّيَّةٍ^(٢) *

وقرّع باب عديّ بن الرقاع جماعة من الشعراء، فخرجت إليهم بُنْيَّةٌ له صغيرة
 فقالت: ما تريدون من أبي؟ فقالوا: جئنا لُتْهَاجِيَه، فقالت: [الطويل]

تَجْمَعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَوَجْهَةً عَلَى وَاحِدٍ لَا زَلْتُمْ قِرْنَ وَاحِدٍ^(٣)
 فَأَفْحَمْتَهُمْ، وَرَجَعُوا بِأَخْرَى حَالَةٍ.

وقال معاوية لعمر بن سعيد وهو صغير: إلى مَنْ أوصى بك أبوك؟ فقال: إنَّ أباي
 أوصى إليّ ولم يوصِ بي. أخذه بعضهم فقال: [المتقارب]

وَكُنْتُ النَّجِيبَ لَدَى نَاجِلِي فَأَوْصَى إِلَيَّ وَلَمْ يَوْصِ بِـي
 قَالَ يَحْيَى بْنُ يَزِيدَ: اسْتَشْدْتُ غَلَاماً، فَأَنْشَدَنِي أَرْجُوزَةً، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذِهِ؟ فَقَالَ:
 لِي. فَرَجَزْتُهُ فَأَنْشَأَ يَقُولُ: [الرجز]

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ وَكَانَ فِي الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي

(١) البيتان في ديوان الفرزدق ص ٦١٨.

(٢) يروى الرجز:

شَاهِذٌ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا مَحْمِيَّةٍ بِرَجُلٍ مِثْلَ أَبِي مَكِّيَّةٍ

وهو للفرزدق في أساس البلاغة (حمي).

(٣) يروى صدر البيت:

تَجْمَعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَحَاضِرٍ

وهو لابنة عدي بن الرقاع في الشعر والشعراء ص ٦٢٢، وذيل الأمالي ٧٠/٣، والكامل ص ٣٤٣،

والأغانى ٣٥٤/٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٢٩.

فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في القول كل فن
الأصمعي رحمه الله: قال وقف علي غلام بحمي ضرية، ما ظننته يجمع بين
كلمتين، فقلت: له: ما اسمك؟ قال: حُرَيْقِص، فقلت له: ما كفى أهلك أن سموك
حرقوصاً حتى صغروا اسمك! فقال: إن السَّقْط ليحرق الحرجة، فعجبت من جوابه.
فقلت: أنشد شيئاً من أشعار قومك؟ قال: نعم أنشد لمُرَّارنا: [الكامل]

سَكُنُوا شُبَيْثاً والأخص فأصبحث نزلت منازلهم بنو دُبَيَّانِ
وإذا يقال أُنِيْتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا حتى تقيم الخيل سوق طِعَانِ
وإذا فلان مات عن أكرومية رفعوا معاوَزَ فقره لفلانِ

قال: فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر، فحدثت الرشيد الحديث
فقال: وددتُ يا أصمعي لو رأيتُ هذا الغلام، فكنت أبلغه أعلى المراتب. فهذا الغلام
سُمِّيَ بحقير مصغر، وهو في معناه جليل معظم.

ويُنظر إلى هذا من باب الضد ما حدث أبو العباس عن الرياشي عن الأصمعي،
قال: مرّ بنا أعرابي، وهو ينشد ابناً له، فقلت له: صفه، فقال: ديمري، فقلنا: لم نره،
فلم نلبث أن جاء بجعلٍ على عنقه، فقلنا له: لو سألت عن هذا لأرشدناك، ما زال هذا
اليوم بين أيدينا.

الأصمعي: قيل لأبي المَحْشَر: أما كان لك ابن؟ فقال: المَحْشَر، قيل: وما كان
المَحْشَر؟ قال: أشدقُ خُرْطُمانيّ، إذا تكلم سأل لعبه، كأنما ينظر من فلسين، وكأنَّ
ترقوته بُوان أو خالفة، وكأن مشاش منكبيه كركرة جمل؛ فقا الله عيني هاتين إن كنت
رأيت أحسن منه قبله أو بعده، وأنشد: [المنسرح]

نعم ضجيع الفتى إذا برد اللي ل سحيراً وقَرْقَفَ الصِّرْدُ
زَيْنها الله في الفؤاد كما زَيْن في عين والد ولد

وقال أبو المَحْشَر: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفاً كأنها طلعة،
في ذراع كأنها جمارة، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلا خَصَّني بها، فزَوَّجتها، وصار
يجلس معي على المائدة ابن لي، فيبرز كفاً كأنها الكرنافة، في ذراع كأنها سباطة، فلا
تقع عيني على أكلة نفيسة إلا سبقت يده إليها قبلي.

المَحْشَر: الذي ينخس في القوم، يدخل معهم وهم يأكلون، وأراد بمثل الفُلْسَيْن
عَوْرَ عينيه. وقيل خُفرتهما. خُرْطُمانيّ: طويل الأنف، وسيلان اللعاب يدل على قوة
النفس. البُوان: عمود في مقدّم البيت، والكرنافة: طرف الكَرَب العريض المتصل بالنخلة
كأنها كتف.

اليزيدي: أوّل ما ظهر من نجابة المأمون وسداده أني كنت أوذبه فوجهت إليه يوماً

ليخرج، فأبطأ، فقلت لسعيد الجوهري وهو في حُجرة: إن هذا الفتى قد اشتغل بالبطالة، فقال سعيد: قومه بالأدب، فلما خرج ضربته ثلاث دَرَرٍ، فإنه لِيبيكي إذا بجعفر بن يحيى قد استأذن عليه، فوثب إلى فراشه مسرعاً، وهو يمسح عينيه، فجلس ثم قال: ليدخل، فدخل، فقامت من المجلس وخشيت أن يشكوني إلى جعفر، فألقى منه ما أكره، فأقبل عليه بوجه طَلَقٍ وحادثه وضاحكه، فلما هم بالحركة قال: يا غلام، دابته، ورجعت. فقال: ما حَمَلَك أن قمت عنا! فقلت: خفت أن تشكوني إليه فيوثخنِي، فقال: إنا لله يا أبا محمد! ما كنت أطلع الرشيد على هذا، فكيف أطلع جعفرأ على أني أحتاج إلى أدب! يغفر الله لك. فكنت أهابه بعد ذلك.

وشُكِي إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان، فضربهم حتى انتهى إلى عبد الرحمن، فهَدَّده فقال: [البسيط]

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ مُعْتَزلاً في دار حَسَّانِ أَصْطَادِ الْيَعَاسِيَا

فتركه. وبلغ حسان، فضمَّه إليه وقال: أنت والله ابني حقاً فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي!.

ودخل عليه يوماً يبكي من لسعة زنبور، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: لسعني طائر كأنه ملتفٌ في بُرْدَى حَبْرَةٍ، فقال: قَلَّتْ وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ الشَّعْرُ.

وجاءت سَكِينَةُ بنت الحسين أمُّها الرِّباب وهي تبكي، فقالت: ما لك؟ فقالت: سَرَبَتْ بِي طُورِيَةٌ فَلَسَعَتْني بِأَبِيرَةٍ.

ويروى: مَرَّتْ بِي دُبِيرَةٌ، تصغير دُبْرَةٍ وهي النخلة.

قوله: اللجِّي: البحر. شَواطِ: لهب النار. والكِهانة: بالكسر: حرفة الكاهن، وبالفَتْح فعل الكاهن، وهو المصدر، والكاهن: المخبر بالغيب.

وافترَّ: تبسم. متضاحك: مستعمل الضحك. مُمَاحِك: لجوج، أي مشى غير غاضب.

احفظها عني، أي حَصَلْها وَعِهَا. وعليّ، أي اكتمها واسترها، وقامت الواو مقام تكرير الفعل. اصرف: أزل ونَحَّ. صِرَف الراح: خالص الخمر الأسى: الحزن. تكتئب: تهتم وتحزن. قَدْكَ: حسبك. اتئب: ارتجع وكَفَّ وقيل: معناه اسْتَحْي، يقال منه: وأب واتأب، أي خزي واستحيا والأبة والمؤبة: الخزي والحياء والانقباض، وأوأبه واستأبه: رده بخزي وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتأب أو تأب فأبدلت الواو تاء وأدغمت في التاء بعدها، وهي من وأب الحافر يئب وأبأ إذا انضم. وحافر وأب، أي خفيف، والتؤبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب: [الكامل]

قَدْكَ اتَّئِبَ أَرَبَيْتَ فِي الْغُلُوعِ كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمْ شَجَوِي

فهذا يبين لك موقعها في المقامة .

وعلى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، قال: أنس: قال رسول الله ﷺ: «مررت برجالٍ ليلة أُسْرِي بي، تُقْرِضُ شفاهمم وألْسنتهم بمقاريضٍ من نار، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أَمَتِكَ الذين يأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ»^(١).

أبو أمانة عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ يُجْرُونَ قَصَبَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فيقال لهم: مَنْ أَنْتُمْ؟ فيقولون: نحن الذين كنا نأمر بالبر وننسى أنفسنا»^(٢).

قال أبو العتاهية في منصور بن عمار وكأته يخاطب واعظ المقامة: [البسيط]

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً
إذ عبت منهم أموراً كُنت تأتيها
كالملبس الثوب من عُرِي وعورته
للناس بادية ما إن يُوارِيها
وأعظم الأمر بعد الشرك تعلمه
في كل نفس عماها عن مساويها
عزفائها بعيوب الناس تبصرها
منهم ولا تبصر العيب الذي فيها
ومن لزوميات المعري: [الوافر]

رُوِيْدَكَ قد خُدِغْتَ وأنت كهلٌ
بصاحب حيلة يعظ النساء^(٣)
يحرم فيكم الصهباء صُبْحاً
ويشربها على عمْدٍ مساءً
يقول لكم: غدوتُ بلا كِسَاءٍ
وفي لذاتها رَهَنَ الكِسَاءِ
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى
فمن جهتين لا جهة أساء

[الخمريات]

ونذكر هنا من الأبيات الخمريات ما يأتي على معنى البيتَيْن اللذين أنشد، قال الحسن: [السرّيع]

ما مثل هذا اليوم في حسنه
عطل من لهو ولا ضيعة^(٤)
هل لك أن تغدو على قهوة
تسرع في المرء إذا أسرعا
ما وجد الناس ولا جربوا
لهم شيئاً مثلها مُدْفِعاً

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ٩، وتفسير سورة ٥، باب ١٣، ومسلم في الجنة حديث ٥٠، ٥١.

(٣) اللزوميات ص ٥١.

(٤) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ٣٠٣.

وله أيضاً: [الطويل]

حَلَبْتُ لأصحابي بها دِرَّةَ الصُّبَا
إِذْ مَا أَتَتْ دُونَ اللَّهَاءِ مِنَ الْفَتَى

وله: [البسيط]

دع ذا فديتك واشربنها معتقة
من كف مختصر الزنار معتدل
لو كان لومك نصحاً كنت أقبله

وقال الصابي: [الوافر]

كَوَكَّبُ الإصباح لاحاً
فاسقنيها قهوة تأ
ذات نشر كنسيم الرؤ
يا غلامي ما أرى فيـ

وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب: [المتقارب]

كَأَنَّ الكُؤُوسَ بِأَيْدِي السُّقَاةِ
كَأَنَّ تَسْكَابَهَا فِي الزُّجَاجِ
فَلَمَّا بَرَزْنَ إِلَى الْهَمِّ فِيـ
جَرَى الضَّرْبِ مُخْتَلِفاً بَيْنَنَا
وقال أبو بكر البلوي: [مجزوء الرمل]

ومدام كست الكأ
ظَهَرَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ
لَمْ يَكُنْ وَقْتُ صَبَاحٍ
وقال أبو بكر الخالدي: [الكامل]

مَا عَذَرْنَا فِي تَرْكِئِ الْأَعْنَابِ
فَأَدِمْنَا لَذَاةَ عَيْشِنَا بِمُدَامَةٍ
سَقَرْتُ وَغَابَ حَبَابُهَا مِنْ لَحْظِهَا
ولابن المعتز: [الطويل]

ونارٍ قد خناها سراعاً بسُخْرَةٍ

بصفراء من ماء الكروم شُمُولٍ^(١)
دعا همُّه من صدره برحيلٍ

صفراء تعبق بين الماء والزبد
كغصنٍ بانٍ تشئى غير ذي أودٍ
لكن لومك محمولٌ على الحسدِ

طالعاً والديك صاخاً
سومين الهم جراحاً
ض غب القطر فاحاً
ك ولا فيها جناحاً

سيوف لها بالدماء احمرارُ
حريق لها من حباب شرارُ
له ولي بالسرور عليه اقتدارُ
فمات وعشت وقد نيل ثارُ

س من النور وشاحاً
فكأن الفجر لاحاً
فحسبنا صباحاً

سقط الندى صفاء الهواء وطاباً
زادت على هرم الزمان شباباً
فعلاً محاسنها فصار نقاباً

متى ما يُرَقُّ ماءٌ عليها توقدُ

يجول حباب الماء في جَنَابَاتِهَا كما جال دمع فوق خد مُورَد

ثم قال: أما أنا فسانطلق، إلى حيث أصطبح وأغتبق؛ وإذا كنت لا تَصَحَب،
وَلَا تُلَاقُ مَنْ يَطْرَب؛ فَلَسْتُ لِي بِرَفِيق، وَلَا طَرِيقَكَ لِي بِطَرِيق؛ فَخَلَّ سَبِيلِي
وَنَكَب، وَلَا تَنْقُرْ عَنِّي وَلَا تَنْقُب؛ ثُمَّ وَلَّى مُذْبِرًا وَلَمْ يَعْقُب.

قال الحارث بن همام: فالتَهَبْتُ وَجَدَ عند انطلاقي، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أَلَاقِهِ.

قوله: أصطبح، أشرب صَبُوحًا وهو شُرْبُ الغُدُو. وأغتبق: أشرب غَبُوقًا، وهو
شُرْبُ العَشِيِّ، تلاثم: توافق. نكَب: تنحَّ عن طريقي واجعله لجهة منكبك. تنقُرْ وتنقُب:
تبحث وتفتش، وقد نَقَرْتُ عن الأمر إذا طلبت علم باطنه ونَقَبْتُ عنه، إذا بحثت عليه
بظنك حتى تستخرج سرّه، وفلان نَقَاب، أي فطن ذَكِيٌّ يحدث بالغائب، والتَّنْقِيبُ في
البلاد: تطلع أحوال أهلها وتجريب أمورهم. وَلَّى: أدبر، وترك طريقه الذي كان
يستقبله. يُعَقَّب: ينظر. والوجد: الحزن. والتَهَبْتُ. اشتعلت. ووددت: تمنيت.

ومما قيل في ترك الوداع: [الخفيف]

صدّني عن حلاوة التّشيع اجتنابي مرارة التّوديع
لا يفي أنسُ ذا بوحشة هذا فرأيت الصّواب ترك الجميع

المقامة الثانية والأربعون

وهي النجرائية

حكى الحارث بن همام قال: تَرَامَتْ بي مَرَامِي النَّوَى، وَمَسَارِي الْهَوَى؛ إِلَى أَنْ صِرْتُ ابْنَ كُلِّ تُزْبَةٍ، وَأَخَا كُلِّ غُزْبَةٍ؛ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَقْطَعُ وَادِيًا، وَلَا أَشْهَدُ نَادِيًا؛ إِلَّا لَأَقْتَبَسَ الْأَدَبَ الْمُسْلِيَّ عَنِ الْأَشْجَانِ، الْمُغْلِيَّ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ؛ حَتَّى عُرِفْتُ لِي هَذِهِ الشُّنْشِينَةُ، وَتَنَاقَلَتْهَا عَنِّي الْأَلْسِنَةُ، وَصَارَتْ أَعْلَقَ بِي مِنَ الْهَوَى بِنَبِي عُدْرَةٍ، وَالشَّجَاعَةِ بِآلِ صُفْرَةٍ.

ترامت بي: رمثني هذه إلى هذه وهذه إلى هذه. والمرامي: المواضع التي ترميه. والمساري: مواضع السرى، وهو سير الليل، وهو جمع مرمى ومسرى، ويكون المرمى والمسرى مصدرين. والنوى: الغربة والبُعد عن الأهل، أراد أن البلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة، وجهة إلى جهة، فهو أبدأ في الجولان. وابن كل تربة، أي ينسب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيها. نادياً: مجلساً. الاقتباس: الاكتساب. المسلي: المذهب للهيم، وتسليت عن الهيم: نسيت. والأشجان: الأحزان، وقد تقدم شرح هذه المعاني وتكرر. الشُنْشِينَةُ: الطليعية. أعلق: ألصق.

[بنو عذرة]

وبنو عذرة: قبيلة معروفة من قبائل العرب، وهم أولاد عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سويد بن أسلم بن الحاف بن قضاة.

الفنجدية: عذرة قبيلة من العرب، يستلذون مرارة العشق مثل الضرب، جُبلت المحبة في طينتهم، وجُنيت المودة من لينتهم، وصار الهوى وصفهم الذي لا ينفك، ورهائن قلوبهم من حارات الشوق لا تُفك، استأرهم العشق أسراً، واستأصلهم الحب قهراً وقسراً؛ فمنهم من يموت من أوام غرامه، ومنهم من يموت بهيام سقامه.

ومن مشاهيرهم جميل بن عبد الله بن مَعْمَرِ الْعُدْرِيِّ صاحب بثينة بنت عبد الله العُدْرِيَّة، وعروة بن حزام صاحب عفراء بنت مالك العُدْرِيَّين.

وقال: سعيد بن عتبة الهمداني: قلت لأعرابي: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا

ماتوا، قلت: عُدْرِي؟ قال: عُدْرِي ورب الكعبة، قلت: وممّ ذاك؟ قال: لأنّ في نساءنا صباحة، وفي فتياننا عفة.

وسئل أعرابي منهم فقيل له: ما حدّ الحب عندكم؟ فقال: أعينُ تتّلا حظ وألسن تتلافظ، وعِدّات تتقضى، وإشارات تدل على السخط والرضا. قيل له: فالمباضعة؟ قال: ذلك طلب الولد، الحب إذا نُكح فسد.

سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عُدرة - ورأيت بها هوى غالباً حتى خفت عليها الموت: ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُدرة من بين أحياء العرب؟ قالت: فينا جمال وتعفف، فالجمال يحملنا على العفاف به، والعفاف يورثنا رقة القلب، والعشق يفني آجالنا وإنا نرى محاجرَ لا ترونها.

أبو عمر بن العلاء: حدّثني رجل من تميم، قال: خرجت في طلب ضالّة لي، فبينما أنا أدور في أرض بني عُدرة أنشدّها، إذا بيت من عزل عن البيوت، وفي كِسْرِه شابٌ مغمى عليه، وعند رأسه عجوز بها بقية جمال، ساهمة تنظر إليه، فسلمت عليها، فردّت السلام، فسألته عن ضالّتي فلم تعلم بها، فقلت: من هذا الفتى؟ فقالت: ابني، فهل لك في أجرٍ لا مؤنة فيه؟ فقلت: والله إنني أحبُّ الأجر وإن رُزئت، فقالت: إن ابني هذا يَهْوَى ابنة عمّ له، علقها وهما صغيران، فلما كبرت خطبها غيره، فأخذته شبيه الجنون، فخطبها إلى أبيها، فمنعه وزوجها غيره، فنحل جسمه واصفرّ لونه، وذهب عقله، فلما كان منذ خمس رُقّت إلى زوجها، فهو كما ترى مغمى عليه، لا يأكل ولا يشرب، فلو نزلت إليه فوعظته! قال: فنزلت إليه فلم أدع موعظة إلا وعظته بها، حتى قلت له: إنهنّ الغواني صاحبات يوسف، الناقضات العهد، وقد قال فيهن كثير: [البسيط]

هل وصلّ عَزّة إلا وصلّ غانيةً في وصل غانية من وصلها خَلَفُ^(١)

قال: فرفع رأسه محمّرة عيناه كالمغضب، وهو يقول: لست ككثير، إن كثيراً رجل مائق، وأنا وامق، ولكني كأخي تميم حيث يقول: [الطويل]

ألا لا يضرّ الحبّ من كان صابراً ولكن ما اجتأب الفؤادَ يَضِيرُ

ألا قاتل الله الهوى كيف قادني كما قيد مغلولُ اليدين أسيرُ

فقلت له: فإنه قد جاء عن نبينا ﷺ أنه قال: «من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي»^(٢) فأنشأ يقول: [الوافر]

ألا ما للمليحة لم تُعْذِني أبخل بالمليحة أم صدود!

مرضتُ فعادني أهلي جميعاً فما لك لم تُرني فيمن يعود!

(١) البيت في ملحق ديوان كثير عزة ص ٥٥٥.

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة باب ١٤.

فقدتُك بينَهم فبكيت شوقاً وفقد الإلف يا أملي شديداً
وما استبطأت غيرك فاعلميه وحولي من ذوي رحمي عديداً
ولو كنت المريض لكنت أسعى إليك وما يهددني الوعيدُ
ثم شَهِقَ شهقةً، وخفت خفته، فداخِلني أمرٌ ما داخِلني مثله قطً، والعجوز تبكي،
فلما رأَتْ ما حلَّ بي قالت: يا فتى، لا تُرغ؛ مات والله ولدي بأجلِه، واستراح من
تَباريحه وِغصَصِه، فهل لك في استكمال الصَّنِيعَةِ؟ قلت: قولي.

ما أحببت، قالت: تأتي البيوت فتنعاه إليهم، ليعاونوني على رَمْسِه، فإني وحيدة،
فركبتُ فرسي، وأتيت البيوت، رافعاً صوتي بنعيه، فلم ألبث أن خَرَجْتُ لي جارية،
أجملُ ما رأيت من النساء، ناشرةً شعرها، حديثه عهد بعُرس، تقول: بفيك الحجر
المصمت! مَنْ تَنَعَى؟ قلت: أنعى فلاناً، قالت: أو قد مات! قلت: إي والله قد مات.
قالت: فهل سمعت له قولاً؟ قلت: اللهم شعراً، قالت: وما هو؟ فأنشدتها أبياته،
فاستعبرت وأنشأت تقول: [الوافر]

عَدَا بي أن أزورك يا مُرادِي معاشرُ كُلِّهم واشٍ حَسود
أشاعوا ما علمت من الدَّواهي وعابونا وما فيهم رشيدُ
فأما إذ ثوبت اليوم لَخدَا وكلُّ الناس دورهم لحودُ
فلا طابت لي الدنيا فَوَاقَا ولا لهم ولا أثرى العَديدُ
ثم شهقت شهقةً، فوقعت مغشياً عليها، وخرجت النساء من البيوت فاضطربت
ساعةً، وماتت.

فوالله ما برحتُ حتى دفتُهُما جميعاً.
هشام بن عروة: أذن معاوية للنَّاس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتى من بني عُذرة،
فقام بين السَّماطين وأنشأ يقول: [الطويل]

أَتَيْتُكَ لَمَّا ضاق في الأرض مسلُكي وأنكرتُ ممَّا قد أَصِبتُ به عَفْلي
ففرَّجَ كلاك الله عَنِّي فإِنني لقيت الذي لم يلقَهُ أحدٌ قَبْلي
وخذ لي هداك الله حَقِّي من الذي رمانِي بسهمٍ كان أهْوُهُ قَتْلي
وكنت أرجي عَدْلَهُ إذا أتيته فأكثرَ تَرْدادي مع الخبس والكَبْلِ
فطلقْتُها من جُهدٍ ما قد أصابني فهل ذا أميرَ المؤمنين من العَدْلِ!

فقال له معاوية: اذنُ بارك الله عليك، ما خطبك؟ قال: أطال الله بقاء أمير
المؤمنين، إني رجل من بني عُذرة، تزوجتُ ابنة عم لي. وكانت لي صِرمَةٌ^(١) من الإبل

(١) الصرمة: الجماعة من الإبل ما بين العشرين والثلاثين.

وشؤبهات، فأنفقت ذلك عليها، فلما أصابتني نائبات الزمان وحادثات الدهر رغب عني أبوها - وكانت جارية منها الحياء والكرم، فكرهت مخالفة أبيها - فأتيت عاملك عبد الرحمن ابن أم الحكم فذكرت ذلك له. وبلغه جمالها، فأعطى أباه عشرة آلاف درهم وتزوجها، وأخذني فحبسني، وضيق عليّ، فلما أصابني مس الحديد وألم العذاب طلقته، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين، وأنت غياث المحروب، ومعيد المسلوب، فهل من فرج؟ ثم بكى وهو يقول: [مجزوء الرمل]

في القلب منّي نار	والنار فيها شرار
وفي فؤادي جمر	والجمر فيه احمرار
والجسم منّي نحيل	واللون فيه اصفرار
والعين تبكي بشجر	فدمعها مذرار
والحُب داء عسير	فيه الطبيب يحار
حملت منه عظيماً	فما عليه اضطبار
فليس ليلى ليلاً	ولا نهاري نهار

فرق معاوية له؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفي آخره: [البسيط]

ركبتُ أمراً عظيماً لست أعرفه	أستغفرُ الله من جورِ امرئ زاني
قد كنتُ تُشبهه صوفياً له كتب	من الفرائض أو آيات فرقان
حتى آتاني الفتى العذريّ منتحياً	يشكو إليّ بحق غير بُهتان
أعطي الإله عهداً لا أخيس بها	أولا فبرئت من ديني وأيماني
إن أنت راجعتني فيما كتبتُ به	لأجعلنك لحماً بين عقبان
طلّق سعاد وفارقها بمجتمع	وأشهد على ذاك نضراً وابنَ ظبيان
فما سمعتُ كما حدثتُ من عجب	ولا فعالك حقاً فعل إنسان

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم، تنفس الصعداء، وقال: وددت لو أن أمير المؤمنين خلّى بيني وبينها سنة، ثم عرض عليّ السيف، وجعل يؤامر نفسه في طلاقها فلم يقدر، فلما أزعجه الوفد طلقها ثم قال: يا سعاد اخرجي، فخرجت شكلة غيصة ذات هيئة وجمال، فلما رآها الوفد قالوا: ما تصلح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابي، وكتب الجواب: [البسيط]

لا تحنن أمير المؤمنين فقد	أوفي بعهدك في رفق وإحسان
فما ركبتُ حراماً حين أعجبني	فكيف سُميتُ باسم الخائن الزاني!
فسوف تأتيك شمس لا خفاء بها	أبهى البرية من أنس ومن جان

حوراء يقصر عنها الوصف إذ وُصِفَتْ أقول ذلك في سرٍّ وإعلان
فلما وردت على معاوية، قال: إن كانت أعطيَتْ حسن النعمة مع هذه الصفة، فهي
أكمل البرية، فاستنطقها، فإذا هي أحسنُ الناس كلاماً، وأكملهم شكلاً ودلاً، فقال: يا
أعرابي، هل من سلُوْ عنها بأفضل الرغبة؟ قال: نعم إذا فرَّقْتُ بين رأسي وجسدي، ثم
أنشأ يقول: [البسيط]

لا تجعلني والأمثال تُضْرَبُ بي كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاداً على خيرٍ أن مكتئب يُفسي ويصبح في همٍّ وتذكارٍ
قد شَفَه قَلْقُ ما مثله قَلْقُ وأُسْعَرَ القلبُ منه أي إسعارٍ
والله والله لا أنسى محبَّتَها حتى أغيب في رَمْسٍ وأحجارٍ
كيف السلوْ وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صَبَّارٍ
فغضب معاوية غضباً شديداً، ثم قال لها: اختاري مَنْ شئت، أنا أو ابن أم الحكم
أو الأعرابي؛ فأنشأت تقول: [الرجز]

هذا وإن أَضْبَحَ في أَطْمَارٍ أو كان في بعضٍ من اليَسَارِ
أكبرُ عندي من أبي وجاري وصاحبِ الدرهم والدينار
* أخشى إذا غَدَزْتُ حَرَّ النارِ *

فقال له معاوية: خذها لا بارك الله لك فيها، فأخذها وأنشأ يقول: [الرجز]

خَلُّوا عن الطَّرِيقِ للأعرابي أَلَمْ تَرَقُّوا وَنَحْكُمُ لِمَا بي!

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم، وأدخلت لبعض قصوره حتى انقضت
عِدَّتُها من ابن أم الحكم، ثم دفعها للأعرابي.

وقال بعضهم: كنت سائراً في بلاد عُذْرَةَ فولجتُ بعضَ أوديتهم وإذا شابٌ حسنُ
الوجه، بيده زمام ناقة، عليها هودجٌ مسجَّفٌ، به جارية، ومن وراء الناقة خمس قلائص،
وقد رفع عقيرته ينشد ويقول: [الكامل]

ته كيف شئت وسِرْ على مهل كلُّ الجَمال عليك يا جَمَلُ
عليَّ أُنْكَ لا ترى كَلْلاً ما دام فوقك هذه الكِلَلُ

فسلمتُ عليه، فردَّ، وسألته وسألني وتناشدنا، واتصل الأُنسُ بيننا، وسرنا غير
قليل، فرأى قانصاً في أحبولة ظبي، فلما رآه يضطرب في الأحبولة أجهش بالبكاء،
وأنشأ يقول: [الطويل]

ودكرني مَنْ لا أبوح بحبه محاجرَ ظبي في حُبالة قانص
فقلتُ وجفُنُ العين يجري بَعْبَرَةً ولحظي إلى عينيه لحظة شاخص

ألا أيُّ هذا القانص الظبيَّ خَلَّه وخذ عَوْضاً منه جِيادَ قلائِصِي
خَفِ اللهُ لا تحبسه إنَّ شَبِيهه حياتِي قد أَرَعَدَتْ منه فرائِصِي

فقال القانص: الله إن فعلت؟ قال: الله، فأرسل الظبي، واستاق القلائص. وحدث رجل من بني عذرة قال: كان فينا فتى ظريف غزل، كثيراً ما يتحدث إلى النساء، فهو يَ جارية من الحي، فراسلها فأظهرت له جفوة، فوق مضى مُدْنَقاً وظهر أمره، وتبيَّن دَنْقُه، ولم يزل النساء من أهلها وأهله يَكْلُمُنها فيه، حتى أجابت، فسارت إليه عائدةً ومسلِّمةً، فلما نظر إليها تحدّرت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول: [الطويل]

أريْتُكَ إن مرّت عليك جنازتي تروح بها أيدي طوالٍ وتسرعُ
أما تَتَّبَعِينَ النُّعشَ حتّى تسَلَمِي على رمس مَيّتٍ بالحفيرة يودعُ!
فبكت رحمة، وقالت: والله ما ظننت أن الأمر بلغ بك هذا، فوالله لأساعدنك ولأداو من على وصالك، فهملت عيناه بالدموع، وأنشأ يقول: [الطويل]

دَنَتْ وظلالُ الموت بيني وبينها ومثّت بوصلٍ حيث لا ينفع الوصلُ
ثم شهِق شهقة فخرجت نفسه، قال: فوقعت عليه تلثمه، ثم رجعت عنه مغشياً عليها، فما مكثت بعده إلا أياماً حتّى ماتت.

قال حماد الراوية: انصرفت من جنازة لبعض السكاسك، فإذا بصبي من عذرة ظريف، حسن الوجه، صغير السن، موصوف بقول الشعر، فوقفتا فسلمنا، فقام إعظاماً لنا، فقلت: أنشدنا شيئاً، فكانه استحيا، فقلت له: لا بد، فأنشدنا: [مجزوء الرمل]

هل من الحبِّ مجيرٌ من ملاحٍ يعتدُّونا
قد شكّونا بخضوع عَذَل قوم يعتذُّونا
في جوى نلقاه ممن لا يبالي ما لقينا
وبكّينا بدموع أغرقت منا الجفونا

قال حماد: فكدت أرقص طرباً وقلت: فداؤك عمك! وجلسنا إليه تعجباً من رفته وجماله وفصاحته، فأنشدنا: [الرمل]

ولقد أرسلتُ دمعِي شاهداً ثم صيَّرت إليها المشتكى
فتولت، ثم قالت شغلي كلُّ مَنْ شاء تبكي! فبكى

قال حماد: قلت له: فديتك، تحب هذه الجارية؟ قال: يا عم، والحب عيب! إن كان عيباً تركته. ثم قال: يا عم إذا قرأت أو بلغني أحاديث قومي مثل عروة وجميل، أفلا أشتهي أن أكون واحداً منهم! فانصرفنا عنه متعجبين.

[آل أبي صفرة]

قوله: والشجاعة بآل أبي صفرة، أبو صفرة هو ظالم بن سراق بن كندئ بن عمرو ابن عدي، ويتصل بعمر مزيقياً، ثم بأزدباً، وأزدباً ما بين عُمان والبحرين، وكانوا أسلموا ثم ارتدوا في خلافة أبي بكر، فبعث إليهم أبو بكر عكرمة بن أبي جهل، فقاتلهم وسبى ذراريهم وبعث بهم إلى أبي بكر، وأبو صفرة غلام، فحبسهم أبو بكر، فلما توفى أطلقهم عمر، فنزل أبو صفرة البصرة، فشرّف بها.

وروى بعضهم أن أبا صفرة طلب من عمر أن يولّيه عملاً، فسأله عن اسمه فقال: ظالم بن سراق، فقال: تظلم أنت ويسرق أبوك! ولم يولّه عملاً تطيراً باسمه.

والمهلبية تزعم أن أبا صفرة قدم على النبي ﷺ، وعليه حلة صفراء يسحبها خلفه ذراعين. وله طول ومنظر وفصاحة، فأعجب النبي ﷺ ما رأى من جماله وخلقه، فقال له: «من أنت؟» قال: أنا قاطع بن سارق بن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلّاق ابن الجلندي بن المستكبر بن الجلندي، الذي كان يأخذ كل سفينة غضباً، فقال له النبي ﷺ: «أنت أبو صفرة، ودع عنك ظالماً وسارقاً»، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسوله حقاً، إن لي لثمانية عشر ذكراً، ورزقت بأخركم بنتاً سميتها صفرة.

وأما أولاد أبي صفرة، فكانوا كُتّاباً شجعاناً أبطالاً حماة، منهم أبو سعيد المهلب. وذكروا أن أبا صفرة وقد على عمر رضي الله عنه ومعه عشرة من ولده - والمهلب أصغرهم - فتوسّمهم عمر، ثم قال: هذا سيّد ولدك المهلب، والمهلب هو صاحب حروب الأزارقة، وولاه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين، ومات سنة ثلاث وثمانين، واستخلف يزيد ابنه عليها، فأقره عبد الملك عليها ستين أو ثلاثاً. وغزا يزيد جرجان في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين، في ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم أشهراً، ثم صالحهم على أن يعطوا خمسمائة ألف درهم كل عام، يؤدونها إليه، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طبرستان، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة وقر زعفران وأربعمائة رجل مع كل رجل بزنس وطيلسان وخاتم فضة، وسرقة حرير وكسوة، فقبل ذلك وانصرف عنهم. ثم غدر أهل جرجان بمن خلف عليهم من المسلمين فقتلهم، فلما فرغ من طبرستان سار إليهم، فقاتلهم شهراً، ثم نزلوا على حكمه، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم وصلبهم فرسخين، وقاد منهم اثني عشر ألفاً إلى وادي جرجان، فقتلهم وأجري الماء في الوادي على الدّم، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن، واختبز وأكل، وكان قد حلف على ذلك.

الأصمعي: قبض الحجاج على يزيد، وأخذ به سوء العذاب، فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم، فكان دأبه أنه إذا أداها تركه، وإلاّ عذّبه إلى الليل، فجمع يوماً مائة ألف درهم، يشتري بها عذابه، فدخل عليه الأخطل فأنشده: [الطويل]

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعدكم وقال ذؤوب الحاجات أين يزيد؟
فما سُقي المَزوان بعدك قَطْرَةً ولا اخضرَ بالمزوين بعدك عُودُ
وما لسرير بعد ملكك بهجةً ولا لجواد بعد جودك جوْدُ

فأعطاه المائة الألف. فبلغ ذلك الحجاج، فدعا به، وقال: يا مروزي، أكل هذا الكرم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبتُ لك عذاب اليوم وما بعده.

ابن عبد الحكم: أخبرنا الشافعي قال: طعن يزيدُ بن المهلب رجلًا من الخوارج، فصرعه فوثب الخارجي بالسيف، وهو يقول: [الطويل]

وإنَّا لقومٌ لا نعوْدُ خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرًا
وننكرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا من الدم حتى نحسبَ الوزدَ أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردّها صحاحاً ولا مستنكر أن تُعقرا

قال يزيد: فكرهت أن أقتل مثله، فانصرفت عنه. وقُتل يزيد يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة، وهو ابن سبع وأربعين سنة.

وقيل للمهلب: بم نلتَ ما نلتَ؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى. وقيل لأبي إسحاق الهمداني: لم رويتَ عن المهلب؟ قال: لأنني لم أر أميراً أُبينَ منه تقيّة ولا أشجع منه، ولا أبعد ممّا يكره، ولا أقرب ممّا يحب.

ومرَّ المهلبُ بقوم فعظّموه وسوّدوه، فقال رجل: ألهذا الأعور تسودون! والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفي درهم، فسمعه المهلب، فقال لبعض مَنْ معه: أتعرف الرجل؟ قال: نعم، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه بألفي درهم. فقال له: لو زدنا في القيمة لزدناك في العطية، فخجل الرجل، وعرف منزلته.

وللمهلب وبنيه وإخوته في حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قط في جاهلية ولا إسلام.

وقتل المهلب وأولاده وإخوته ومن معه من الأزارقة في ليلة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة، وانهزم بقيّهم مع قَطْرِي، فنفاهم إلى أقاصي البلاد حتى قُتل قَطْرِي ومن معه.

وسئل المهلب عن ابنه: أيهما أشجع أيزيد أم حبيب؟ فقال: إن الولد ربّما سبق رأي أبيه فيه، وقَطْرِي قد مارسهما، فسلوه عنهما. فلما كان من الغد واصطفوا للقتال صاح رجل: يا أبا نعمة، فقال: أفرجوا له، ثم قال: قد سمعتَ فقل؛ فقال: إنّا سألنا الأميرَ عن ابنه يزيد وحبيب: أيهما أشجع، فقال: سلّوا أبا نعمة، فقال: على الخير سقطت، أمّا صاحب الكرّ والفرّ والإقدام والإحجام، وصحّة التدبير ومبارزة الكميّ المدجّج فالحرون يزيد، وأمّا إذا التقت غياطيل الليل، وخفتت الأصوات إلّا الغماغم، وقرع الحديد بالحديد فالخيار حبيب.

- الغيطة التباس الظلام، وخفتت: سكنت. والغمجمة: أصوات الأبطال في القتال -.

وسأل الحجاج كعب بن مَعْدَانَ الأشقرِيَّ حين وفد عليه بالفتح، فقال له: أخبرني عن بني المهلب، فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً، وجوادهم وسخيتهم قبيصة، وما يستحي الشُّجاع أن يفرَّ من مُدْرِك، وعبد الملك سَمَّ نافع، وحبيب موت دُعاف، ومحمد ليث غاب. وكفأك بالمفضل نجدة. فقال: كيف كانوا في البأس؟ قال حماة السُّرح نهاراً، فإذا أَلْيَلُوا ففرسان البيات. قال: فأَيُّهم كان أنجد، قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها.

وحين وفد المهلب على الحجاج أجلسه إلى جانبه، وأظهر إكرامه، وقال: يا أهل العراق، أنتم عبيد المهلب، ثم قال له: أنت والله كما قال لَقِيط الإيادي: [البيط]

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمُ اللَّهُ دَرْكُمُ	رَحَبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لَا مَتَرَفًا إِنْ رَخَا فِي الْأَمْرِ سَاعِدُهُ	وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
مَا زَالِ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ	يَكُونُ مَتْبِعًا طَوْرًا وَمَتَّبَعًا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرَارَتُهُ	مَسْتَحْكَمِ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعًا

فقام رجل وقال: أصلح الله الأمير! والله لكأنِّي أسمع الساعة قَطْرِيًّا يقول للمهلب كما قال لَقِيط الإيادي... وأنشد الأبيات، فامتأ الحجاج سروراً....

وقال له الحجاج: اذكر لي الذين أبلَّوا وصف لي بلاءهم، فقدَّم بنيه، وقال: والله لو تقدَّمهم أحد في البلاء لقدَّمته عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخزتهم. فقال له الحجاج: نعم إنهم لسيوف من سيوف الله تعالى في الأرض.

وقال يوماً عبد الملك للشعراء: تشبَّهونني مرة بالأسد الأبخر، والجبل الأوعر، والبحر الأجاج وبالصقر والباز، ألا قلتُم كما قال كعب الأشقرِيَّ في المهلب وبنيهِ: [الوافر]

بِرَاكِ اللَّهِ حِينَ بَرَاكَ بِحَرًّا	وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غَزَارًا
بَنُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالِي	إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الْقَحَارًا
كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ حَوْلَ بَدْرِ	دَجُوجِي تَكْمَلُ وَاسْتَدَارًا
مَلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرِ	إِذَا مَا الْهَامُ يَوْمَ الرُّوعِ طَارًا
رِزَانٌ فِي الْأُمُورِ تَرَى عَلَيْهِمُ	مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلِ وَالنُّجَارًا
نَجُومٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا	أَخُو الْغَمَرَاتِ فِي الظُّلُمَاءِ حَارًا

وفي ديوان الحماسة: [البيط]

أَلِ الْمَهْلَبُ قَوْمٌ خُولُوا شَرَفًا مَا نَالَهُ عَرَبِيٌّ لَا وَلَا كَاذًا

لو قيل للمجد جذ عنهم وخلهم
إن المكارم أرواح يكون لها
ولبعضهم: [الوافر]

إذا كان المهلب من ورائي هذا ليلى وقّر له فؤادي
ولم أخش الدنيّة من أناس ولو صالوا بقوة قوم عاد

وثوّقي المهلب بفنجدية بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين؛ فبعد أربعمئة وثلاثين من وفاته، رأى بعض علماء فنجدية في المنام كأن المهلب يقول: الله، الحقني قبل أن يأخذني روذمرو - وهو نهر عظيم يغير عليه بالسفن - وانقلني إلى بعض مقابر المسلمين، وأنا مدفون على شاطئ هذا النهر الكبير في الموضع الفلاني، وقد حفر الماء تحت قبري، وقرب أن يأخذني، فلما أصبح الرجل أخذ جماعة من أصحابه معهم المساحي والفؤوس فمضوا إلى ذلك الموضع، وحفروا حتى وصلوا إلى قلبه فكشفوا التراب عنه، فكانت عظامه ما بليت بعد، فدفنوه بمقبرة مذونة.

قال الفنجدية: وهي محلتنا؛ وسمعت معنى هذه الحكاية من والذي رحمه الله.

فلما ألقى الجران بنجران، واصطفيت بها الخلان والجيران، اتخذت أنديتها معتمري، وموسم فكاهتي وسمري؛ فكنّت أتعهد لها صباح مساء، وأظهر فيها على ما سرّ وساء؛ فبينما أنا في نادٍ مخشود، ومحفّل مشهود؛ إذ جئتم لدينا هم، عليه هدم؛ فحيّا تحية ملق، بلسان ذلق؛ ثم قال: يا بدور المحافل، وبُحور الثوافل، قد بين الصبح لذي عينين، وناب العيان مناب عدلين، فماذا ترون؟ فيما ترون أتحسبون العون، أم تناون إذ تدعون! فقالوا: تالله لقد غطت، ورمت أن تنبط فغضت.

قوله: بنجران: بلد من كور نجد ممّا يلي بلاد اليمن، سميت بنجران بن زيد بن سبأ. اصطفيت: اخترت. الخلان: الأصحاب. اتخذت، بمعنى اتخذت. أنديتها: مجالسها ومجتمع أهلها. معتمري: موضع زيارتي، واعتمرت الموضع: قصدته وزرته. موسم: عيد. فكاهتي: مباحثتي. سمري: حديثي بالليل. أتعهد لها صباح مساء: اسمان مركبان جعلا كخمسة عشر، وأراد يزورها في الصباح والمساء. نادٍ مخشود: مجلس مجموع الأهل، ومثله المحفل المشهود. جئتم: برك. هم: شيخ هرم، قد أذهب الكبر قوته، ولحمه، وتقول: هممت الشحم: أذنبته، ومنه قولهم: هذا الأمر لا

يَهْمُنِي، بفتح الياء وكسر الهاء، أي لا يذيني، ومن قال بضم الياء فمعناه لا يقلقني. هَذُمَ: ثوب خَلَقَ كَأْتُهُ هدمه الْبَلَى. مَلَقَ: متلطف في كلامه. ذَلَقَ: حديد. النُّوافِلُ: العطايا. بَيَّنَّ الصبح لذي عينين، مثل، ويريد أنَّ الليل يتساوى في ظلمته الأعمى والصحيح، فإذا ظهر ضوء الصبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر، وقيل معنى بَيَّنَّ الصبح، أي تَبَيَّنَ، والعيان: المشاهدة، وعايته: شاهده، أي أنتم مَمَّن لا يخفى عليكم حالي، يريد أنَّ المعاينة تغني عن الشهود العدول. فماذا ترون: فما رأيكم؟ وهي من رؤية القلب. فيما تَرَوْنَ، أي فيما تنظرون وتبصرون، وهو من رؤية البصر. وقال الفنجديهي في شرحه: فما ترون؟ أي فما تظنون فيما تَرَوْنَ؟ أي فيما تبصرون. تناؤن: تبعدون. غظت، من الغيظ، أي لقد حُرِّكْتَ غيظاً. رُمْتَ أن تنبط أردت أن تخرج ماء. غِضْتَ. غيبتَه وجَفَفْتَه، والغَيْضُ نقيض الفَيْض، وغاض الماء: ذهب في الأرض.

* * *

فناشدَهُم الله عَمَّا ذَا صَدَّهُمْ؛ حَتَّى اسْتَوْجِبَ رَدَّهُمْ؛ فقالوا: كُنَّا نتناضَلُ بالألغاز؛ كَمَا يَتَنَاضَلُ يَوْمَ الْبَرَّازِ؛ فما تمالكَ أَنْ شَعَتْ مِنَ الْمُنْضُولِ، وَأَلْحَقَ هَذَا الْفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ.

فَلَسَنَتُهُ لُسُنُ الْقَوْمِ، ووخزوه بأسيئة اللوم، وأخذ هو يَتَنَضَّلُ من هَفَوْتِهِ، ويتندَّم على قَوَهْتِهِ، وَهُمْ مُضِيبُونَ على مؤاخذته؛ وَمُلبُونَ دَاعِي مُنَابَذَتِهِ، إلى أن قال لهم: يا قوم؛ إن الاحتمالَ مِنْ كَرَمِ الطَّبِيعِ، فَعَدُّوا عَنِ اللَّذَعِ وَالْقَذَعِ، ثُمَّ هَلُمَّ إِلَى أَنْ نُلْغِزَ، ونحكَمَ المبرِّزَ.

* * *

ناشدهم: حَلَفَهُمْ. صَدَّهُمْ: صرفهم وأزالهم. نَتَنَاضَلُ: نترامى. البراز: القتال والألغاز: جمع لُغْز، وهو الكلام المعمى، واللغز، إذا عمى كلامه فلم يفهم ما يقصده، وأصله من اللُّغْز وهو الحجر الملوئى. ما تمالك: ما أبطأ ولا ملك نفسه.

شَعَتْ: غَبَّرَ، وَيُروى «شَعَبَ». من المنضول أي نقصه وفرقه، والمنضول: المرمي، أي قَبِحَ فعلهم ومراماتهم. الفنجديهي: شَعَتْ الدهرُ ماله، أي أخذه، والمنضول: المغلوب في النضال، والمعنى فما صَبَرَ عن تشييت همَّ المغلوب ونصره وتخليصه عَمَّا أُرْتِجَ عليه من اللُّغْز، ويقال: شَعَتْ منه، أي عابه وتنقصه، وكأنه عاب المنضول كيف أُرْتِجَ عليه شيء سهل! وهذا تفسير حسن، إلا أنَّ مساق كلام الحريري أدلُّ على التفسير الأول.

نَمَطُ: نوع. لَسَنَتُهُ: أخذه بلسانه. لُسُنُ الْقَوْمِ: فصحاؤهم. وخزوه: طعنوه.

يَتَنَصَّلُ: يَتَبَرَّأُ وَيَعْتَذِرُ. هَفُوتُهُ: سَقَطَتْهُ. فَوَهْتُهُ: كَلِمَتُهُ الَّتِي فَاهَ بِهَا، أَيْ نَطَقَ. مُضِيبُونَ: مَقِيمُونَ مُلْتَزِمُونَ، وَأَضْبَ عَلَى الشَّيْءِ: لَازَمَهُ. مُؤَاخَذَتُهُ: إِنْشَابُ الشَّرِّ مَعَهُ، وَتَوَاخَذَ الرَّجُلَانِ: أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ بِضَرْبٍ أَوْ شَتْمٍ. مُلِيبُونَ: مُجِيبُونَ. مَنَابَذَتُهُ: مَتَارَكَتُهُ وَمَهَاجَرَتُهُ، وَقَدْ نَبَذْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا رَمَيْتَهُ مِنْ يَدِكَ. الْإِحْتِمَالُ: الصَّبْرُ عَلَى الْجَفَاءِ. عَدُّوا: انْصَرَفُوا وَتَنَحَّوْا. اللَّذَعُ: إِحْرَاقُ الْقَلْبِ بِاللُّومِ وَالْعَتَبِ. وَالْقَذَعُ: السَّبُّ. نُلْغِزُ: نَعْمِي الْكَلَامَ وَنَلْبِسُهُ عَلَى السَّامِعِ. الْمَبْرَزُ: الْغَالِبُ.

فَسَكَنَ عِنْدَ ذَلِكَ تَوْقُدُهُمْ، وَانْحَلَّتْ عُقْدُهُمْ، وَرَضُوا بِمَا بِهَا شَرَطَ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ، وَاقْتَرَحُوا أَنْ يَكُونَ أَوْلَهُمْ، فَأَمْسَكَ رَيْثِمًا يُعْقَدُ شَيْعٌ، أَوْ يُشَدُّ نِسْعٌ، ثُمَّ قَالَ: اسْمَعُوا وَقِيَّتُمُ الطَّيْشِ، وَمُلَيْتُمُ الْغَيْشِ، وَأَنْشَدُ مُلْغِزًا فِي مِرْزُوحَةِ الْخَيْشِ: [الطويل]

وَجَارِيَةٍ فِي سَيْرِهَا مُشْمَعَلَةٌ وَلَكِنْ عَلَى إِثْرِ الْمَسِيرِ قُفُولُهَا
لَهَا سَائِقٌ مِنْ جَنْسِهَا يَسْتَحْجِئُهَا عَلَى أَنَّهُ فِي الْإِحْتِثَاتِ رَسِيلُهَا
تَرَى فِي أَلْوَانِ الْقَيْظِ تَنْطَفُفٌ بِالْنَدَى وَيَبْدُو إِذَا وَلَّى الْمَصِيفُ قُحُولُهَا

رَيْثٌ، أَيْ بُطْءٌ. شَيْعٌ: شِرَاكَةُ النَّعْلِ. أَنَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَنْقُطَعَ شَيْعٌ أَحَدَكُمْ إِلَّا مِنْ ذَنْبٍ عَلَيْهِ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَرْجِعْ فَإِنَّهَا مُصِيبَةٌ عَرَضَتْ عَلَيْهِ». وَالنَّسْعُ: شِرَاكَةُ مَضْفُورَةٌ عَلَى هَيْئَةِ النَّعَالِ، وَيَشَدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَغَيْرُهُ.

وَقِيَّتُمْ: كَفَيْتُمْ. الطَّيْشُ: خَفَةُ الْعَقْلِ. مُلَيْتُمْ: طَوَّلَ لَكُمْ. الْغَيْشُ: ثِيَابٌ خَشَنَةٌ مِنَ الْكَتَانِ، وَهَذِهِ الْمِرْزُوحَةُ تَسْتَعْمَلُ بِبِلَادِ الْعِرَاقِ تَكُونُ شِبْهَ الشَّرَاحِ لِلْسَفِينَةِ، وَتَعْلَقُ مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ، يَشَدُّ فِيهَا حَبْلٌ وَيُدَارُ بِهَا مَشْيُهَا، وَتُبَلُّ بِالْمَاءِ وَتَرَشُّ بِمَاءِ الْوَرْدِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ فِي الْقَائِلَةِ أَوِ اللَّيْلِ أَنْ يَنَامَ جَذَبَهَا بِحَبْلِهَا، فَتَذْهَبُ بِطَوْلِ الْبَيْتِ وَتَجِيءُ؛ فِيهِبَ عَلَى الرَّجُلِ مِنْهَا نَسِيمٌ طَيِّبٌ الرِّيحِ بَارِدٌ فَيَذْهَبُ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ وَيَسْتَطِيبُ بِهِ النَّوْمَ وَهِيَ فَوْقَهُ ذَاهِبَةٌ وَجَائِيَةٌ، وَلِذَلِكَ سَمَّاهَا جَارِيَةً. وَمُشْمَعَلَةٌ: سَرِيعَةُ الذَّهَابِ. قُفُولُهَا: رَجُوعُهَا. وَالسَائِقُ: الشَّرِيطُ الَّذِي يَسُوقُهَا إِذَا جُذِبَتْ بِهِ. يَسْتَحْجِئُهَا: يَسْتَعْجِلُهَا، وَمِنْ جَنْسِهَا، أَيْ هُوَ مِنْ كَتَّانٍ مِثْلُهَا أَوْ مِنْ قَتَبٍ. وَالْإِحْتِثَاتُ: التَّعْجِيلُ. رَسِيلُهَا، أَيْ مَرَسِلُهَا، وَيُرْسَلُ مَعَهَا لِرِزَاوَةِ الْبَيْتِ وَيَرْجِعُ مَعَهَا، وَالرَّسِيلُ: الْفَرَسُ يُرْسَلُ مَعَ آخَرٍ فِي السَّبَاقِ. أَوَانُ الْقَيْظِ: وَقْتُ الصَّيْفِ. تَنْطَفُفٌ: تَقَطَّرَ، وَنَطَفُ الْمَاءِ: سَالٌ وَقَطَرٌ، وَالْنَدَى: الرَّشُّ الضَّعِيفُ. وَقُحُولُهَا: يَبْسُهَا. وَلَّى: أَدْبَرَ، وَإِذَا وَلَّى الْحَرُّ لَمْ يُخْتَجِ إِلَيْهَا، فَلَا تُرَشُّ وَلَا تَسْتَعْمَلُ فَتَيْبَسُ. وَلِلْسَرِيِّ الْمَوْصَلِيِّ فِيهَا: [الطويل]

ومبثوثة في كلِّ غربٍ ومشرقٍ
يحرِّك أنفاسَ الرِّياحِ حراكُها
وله أيضاً: [الطويل]

وخيش كما انجرتْ ذيولُ غلائلٍ
وقد أطلعتْ فيها الشمالُ وانثنتْ
وممَّا يكتب على مروحة الكفِّ: [مجزوء الرمل]

أنا في الكفِّ لطيفة
أنا لا أصلح إلا
أو وصيف حسن القـ
وفيها أيضاً: [الرجز]

إنني أجلبُ الرِّيا
وحجاب إذا الحبيبُ
ح وبني يدفع الخجلُ
ئنني الرأس للقبـ

ثمَّ قال: وَهَآكُم يَا أُولِي الْفَضْلِ، وَمَرَاكِزَ الْعَقْلِ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزاً فِي حَابُولِ النَّخْلِ:
[مجزوء الوافر]

وَمُنْتَسِبٍ إِلَى أُمٍّ
يُعَانِقُهَا وَقَدْ كَانَتْ
بِهِ يَتَوَصَّلُ الْجَانِي
تَنْشَأُ أَضْلُهُ مِنْهَا
نَفْسُهُ بُرْهَةٌ عَنْهَا
وَلَا يُلْحَى وَلَا يُنْهَى

قوله: هَاكُم، أي خذوا. مراكز العقل: مواضعه ومحالّه، كأنَّ العقل رُكَّزَ فيهم. والحابول: حبل يُضَعَّد به على النخل يُعْمَل من ليفها، وهو حبل يُعَقَّد حَلَقَةٌ، ويدخل فيها الرجل ويدرجه على النَّخْلَةِ شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها، وحبل النخل ليس فيه شيء من الملاسة ولا في النخلة ذلك، فله بها استمساك، ولذلك جعله معانقاً لها، لأنه استدار بها، وقيل له: حابول لأنه لا يُسْتَعْمَل إلا للصُّعود على النخيل، فَرَقاً بينه وبين الحبل المستعمل لكلِّ شيء، ولَمَّا كَانَ يُضْنَع من ليف النخل، جعل النَّخْلَةَ أمه. برهة: زماناً. والجاني: الذي يجني الثَّمَر، ألغز به وأوهم أنه الذي يجني جناية. يُلْحَى: يلام ويسب.

ثم قال: وَدُونَكُمْ الْخَفِيَّةُ الْعَلَمُ، الْمَعْتَكِرَةُ الظُّلَمِ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزاً فِي الْقَلَمِ: [الوافر]

وَمَأْمُومٍ بِهِ عُرِفَ الْإِمَامُ
كَمَا بَاهَتْ بِصُخْبَتِهِ الْكِرَامُ

لَهُ إِذْ يَزْتَوِي طَيْشَانُ صَادٍ وَيَسْكُنُ حِينَ يَعْرِوهُ الْأَوَامُ
وَيُذْري حِينَ يُسْتَسْعَى دُمُوعاً يَرْقُنَ كَمَا يَرُوقُ الْابْتِسَامُ

قوله: العَلم، أي الرِّقْم في الثوب، فأراد أنها خَفِيَّة في اللغز، فعلمها الذي تُعَرَف به خَفِي. والمعتكرة: الشديدة السواد. ومأموم: برأسه أمة، أي شجة، يريد الشق برأسه، والإمام: أمير المؤمنين، وجعله معروفاً بالقلم، لأنَّ القلم يبدي أسرار الملك وأخباره في كتبه. وقيل: الإمام الكتاب، من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَائِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أي بكتابهم، وقيل بنبيهم، ولا يمتنع أن يريد بالمأموم المتَّبِع، وإمامه. الذَّهن الذي يملئ عليه، أو يد الكاتب به، وقيل: سمَّاه مأموماً، لأنه يؤم القرطاس، أي يقصده ويتبعه والإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يتَّبِع ويؤتَم به، ويُقْتَدَى بما فيه. باهت: افتخرت. والكرام: الكتبة لقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦ - ١٧]. ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة، ولذلك قال الصابي: [الطويل]

وقد علم السُّلطان أنَّي لسانه وكاتبه الكافي السُّديد الموقُّ
أوازِره فيما عَرا وأمَّده برأي يَريه الشَّمْسُ واللَّيْلُ أغسَقُ
فيمنائي يمناه ولفظي لفظه وعيني له عينٌ بها الذَّهرُ يَرمُقُ

طَيْشَانُ صَاد، أي جَوْلان عاطش، وطاش: خَف. يَغْرُوه: يقصده. والأوام: العطش، يريد أن القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع في الكتابة وإذا جَفَّ توقف وأمسك. يَرْقُن: يُعْجِن. ونظر المأمون إلى جارية تكتب، فقال: [الطويل]

وزادَتْ لدينا حُظُوةً حين أطرقت وفي إضْبَعَيْهَا أَسْمُرُ اللون أَهْيَفُ
أَصْمُ سَمِيع ساكنٌ متحرِّكُ يَنالُ جَسِيَماتِ العلا وهو أعَجَفُ
وقال العَلَوِي: [الطويل]

إذا ما التقينا وانتضينا صَوَارِمًا يكاد يصمُّ السامعين صَرِيرُهَا
تَساقط في القرطاس منها بدائع كمثل اللآلي نظمها ونشيرها
ثُمَّ قَالَ: وَعَلَيْكُمْ بِالْوَاضِحَةِ الدَّلِيلِ، الفاضحة ما قيل، وأنشد ملغزاً في

الميل: [الطويل]

وما ناكحَ أَخْتَيْنِ جَهراً وَخَفِيَةً وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي النِّكَاحِ سَبِيلُ
مَتَى يَغْشَى هَذِي يَغْشَى فِي الْحَالِ هَذِهِ وَإِنْ مَالٌ بَغْلٌ لَمْ تَجِدْهُ يَمِيلُ
يَزِيدُهَا عِنْدَ الْمَشِيبِ تَعَهُداً وَبِراً وَهَذَا فِي الْبَعُولِ قَلِيلُ

قوله : الواضحة ، أي البينة . الفاضحة ، أي المبدية لعيب ما قيل قبلها من اللغز .
والميل : المزود . والأختين : العينين . ليس عليه سبيل ، مع أن الجمع بين الأختين . لا
يجوز . يَغش : يدخل لها . مَال : عدل وزال عنها . والبغل : الزوج . تعهداً : تفقداً . برأ :
إكراماً . يريد أن الأبصار عند الكبر يضعف نظرها فتحتاج إلى الكحل . وقيل : عبّر
بالمشيب عن مرّه العين وهو فسأدها من ترك الكحل .

* * *

ثم قال : وهذه يا أولي الألباب ، معيار الآداب ، وأنشد ملغزاً في الدُولاب : [الوافر]
وجافٍ وهو موصولٌ ووصولٌ ليس بالجافي
غريق بارز فأعجب له من راسب طافي
يسُخ دُموع مهضموم ويهضم هضم مثلاف
وتُخبشى منه جدته ولكن قلبه صافي

* * *

أولي الألباب ، أي أهل العقول . معيار : مقياس يعبر به ، وتقول : عايرت المكايل ،
إذا قست بعضها ببعض ، وساويتَ بينها . والدُولاب : الناعورة . والجافي : الثقيل ، يريد
أن الدُولاب جاف في نفسه وخلقته ، وليس بجاف لسرعة حركته ودورانه . وموصول :
ليس من غود واحد . ووصول ، يعني للرياض بمائة ولهذه المنفعة صنع . قوله : ليس
بالجافي ، يعني إذا فارق الماء عاد إليه لا يجفوه ، والجفاء يكون في الخلقة والخلق ،
يقال : رجل جافي الخلقة ، أي غليظ ، وجافي الخلق إذا كان كزاً غليظ العشرة ، وجفا
الشيء يجفو جفاء : لم يلزم مكانه ، وجفا جنبه عن الفراش : لم يطمئن ، ويجفوه ، ضدّ
يصله ، جفوة : مرة واحدة ، وجفاء مصدر عام ، ورجل وصول : كثير الوصل .

وقال الرُّصافي في هذا المعنى فأحسن : [مخلع البسيط]

وذي حنين يكاد شوقاً يختلس الأنفس اختلاساً
إذا غدا للرياض جاراً قال له المخل : لا مَساساً
يبتسّم الرّوض حين يَبكي بأعين ما رأيَنَ باساً
من كل جفن يسل سيفاً صار له غمده رئاساً

ولأبي الفضل بن الأعمى في قوايس الساقية : [السريع]

وتُسك كعبتهم حفرة من فارق الحفرة يبكّيها
حتى إذا ما أنفذوا دمعهم خرّوا على رؤوسهم فيها

وقال أعرابي في ساقية : [الكامل]

باتت تحنّ وما بها وجدي وأحنّ مشتاقاً إلى نجد

فدموعها تحيا الرياض بها ودموع عيني أحرقت خدي

قوله: غريق بارز، يريد أن بعضه يَغْرَق في الماء وبعضه يبرز منه، وهو معنى راسب طافي، لأنك تقول: رَسَبَ الشيء في الماء، إذا هبط في قعره وسَفُل فيه، وطفأ، إذا ارتفع على وجه الماء. يسَخ: يصب. مهضوم ويهضم: ينقص. متلاف: مبذر للمال، يريد كثرة أخذه للماء وإراقته له. حدته: سرعة جريه، لأنه إن نشب بأحد في جريه أهلكه. وقلبه صافي، لأنه ليس من الحيوان فيعتقد شراً إن أخرج. ولابن سعد الخير البلنسي بن دولاب: [البيسط]

لله دولاب يفيض بسلسل
قد طارحته بها الحمام شجوها
وكانه دنف يدور بمعهدي
ضاقت مجاري دمه عن جفيه
ولبعض أصحابنا: [المنسرح]

وقده الحسن في محاسنها
تبكي فتبدي حنين ذي نسك
إذا بكت في الرياض من طرب
كأن ما انهل من مدامعها
للعين قيد وللحجا شرك
بعد التصابي وما بها نusk
بدا بوجه الأزهري الضحك
رجوم شهب يقلها فلك

قال: فلما رَشَق، بالخَمْس التي نَسَق، قال: يا قوم تَذَبُّرُوا هذه الخمس، واغْدُوا عليها الخمس، ثم رَأَيْكُمْ وَضَمَّ الذَّيْل، أو الازدياد من هذا الكيل. قال: فاستَفَزَّت القوم شهوة الزيادة، على ما أشربوا من البلادة، فقالوا: إن وقوفنا دون حدك، ليفحمننا عن استيراء زنديك، واستشفاف فرندك، فإن أتممت عَشراً فَمِنْ عِنْدك؛ فاهتَزَّ اهتِزَّازَ مَنْ فَلَجَ سَهْمُهُ، وانخزل خَصْمُهُ. قوله: رَشَق، أي رمى، مأخوذ من رَشَق السهام، يقال: رَشَقْتُ رَشْقاً، أي رَمَيْتُ، والرَّشَق بالكسر: اسم للسهم، وهو اسمٌ للهِدْف الذي يرمونه. نَسَق: تابع واحداً بعد واحد، وكلُّ شيء تبع بعضه بعضاً على السواء فهو نَسَق. ضَمَّ الذيل: التضمير. الفنجديهي: ضمَّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجي الخمس، والسكوت عن طلب الزيادة، يريد بالازدياد من الكيل، أن يزيدهم من حسن الأحاجي.

واستفَزَّتْهم: استدعتهم واستخفَّتْهم، الرَّجَاج في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي استدعه لتستخف به إلى إجابتك، واستفَزَّهُ: ختله حتى ألقاه في مهلكة. أشربوا: سَقُوا ودَوَّخُوا وخولطوا، وكلُّ لون خالط لوناً آخر فقد أشرب به.

والبَلَادَة: التَّحِيرُ فِي الْأَمْرِ، وَالبَلِيدُ الْمُتَحِيرُ: الَّذِي لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّه، الْأَصْمَعِيُّ:
البَلِيدُ: الَّذِي يُضْرَبُ بِإِحْدَى بِلَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى مِنَ الْغَمِّ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ. وَالبَلْدَةُ هِيَ
الرَّاحَةُ، يُقَالُ: تَبَلَّدَ الرَّجُلُ، إِذَا تَحَيَّرَ وَضُرِبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، يُرِيدُ أَنَّ الْبَلَادَةَ
مَشَتْ فِيهِمْ وَأَشْرَبَتْهُمْ.

* * *

ثُمَّ افْتَتَحَ الثُّطُقُ بِالْبَسْمَلَةِ، وَأَنشَدَ مُلْغِزاً فِي الْمَزْمَلَةِ: [الطويل]

وَمَسْرُورَةٌ مَغْمُومَةٌ طَوَّلَ دَهْرَهَا	وَمَا تَذَرِي مَا السَّرُورُ وَلَا الْغَمُّ
تُقَرِّبُ أَحْيَاناً لِأَجْلِ جَنِينِهَا	وَكَمْ وَلَدٍ لَوْلَاهُ طُلُقَتِ الْأُمُّ
وَتُبْعَدُ أَحْيَاناً وَمَا حَالُ عَهْدِهَا	وَلِإِنْعَادِ مَنْ لَمْ يَسْتَحِلْ عَهْدَهُ ظُلُمٌ
إِذَا قَصُرَ اللَّيْلُ اسْتَلِدَّ وَصَالِهَا	وَإِنْ طَالَ فَالْإِعْرَاضُ عَنْ وَضْلِهَا نُغَمٌ
لَهَا مَلَبَسٌ بَادٍ أَتَيْقُ مُبْطَنٌ	بِمَا يُزْدَرَى لَكِنْ لَمَّا يُزْدَرَى الْحُكْمُ

* * *

قوله: المزملة، أي الملففة، وقد زُملت، إِذَا لُفَّتْ، وَهِيَ آتِيَةٌ يُرِيدُ فِيهَا الْمَاءُ، شَبَّهَ
الْخَابِيَةَ، تَسْتَعْمَلُ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ وَتَوْضَعُ عَلَيْهَا لِفَافَةٌ ثِيَابٍ خَشَنَةً، وَتُعْشَى بِجِلْدٍ أَوْ ثَوْبٍ
مَزِينٍ، حَسَنٍ لِنَظَرِ الْعَيْنِ، وَمِنْ تَحْتِهِ تِلْكَ الْأَغْشِيَةُ الْخَشَنَةُ الَّتِي لَهَا السَّرُّ وَالْحَكْمُ فِي تَبْرِيدِ
الْمَاءِ. وَمَسْرُورَةٌ، أَيُّ مَحْمُولَةٍ عَلَى سَرِيرٍ، وَهُمْ يَجْعَلُونَ تَحْتَهَا مِزْفَعاً مِنْ عُودٍ أَوْ حَدِيدٍ،
تَرْتَفِعُ بِهِ عَنِ الْأَرْضِ فَهُوَ سَرِيرُهَا، وَكَذَلِكَ رَأَيْتُ خَوَابِي الْمَاءِ بِسَجْلِمَاسَةٍ، كُلُّهَا عَلَى
أَسْرَةِ عُودٍ. وَقِيلَ مَسْرُورَةٌ: مَغْمُومَةٌ مَغْطَاةٌ، وَسَرِيرُ الْكَمَاءِ: مَا غَطَاها مِنَ التَّرَابِ. وَالْغَمُّ:
ضِدُّ السَّرُورِ. جَنِينُهَا: وَلَدُهَا، أَرَادَ بِهِ الْمَاءَ. وَحَالٌ: تَغْيِيرٌ. عَهْدُهَا: التَّقَاؤُهَا وَقَرَبُهَا.
غُثْمٌ: غَنِيمَةٌ. أَتَيْقُ: مُعْجَبٌ. يُزْدَرَى: يَحْتَقَرُ، وَأَرَادَ بِالْحَكْمِ مَعْنَى تَبْرِيدِ الْمَاءِ، وَأَرَادَ أَنْ
مَا بَدَأَ مِنْهَا لِلنَّاظِرِ فَهُوَ غَشَاءٌ حِينَ يَعْجَبُ مَنْ رَأَاهُ، وَهُوَ قَدْ بَطَنَ بِلِفَافَةٍ غِلَظٍ مُسْتَحْقَرَةٍ،
وَلَهَا مَعْنَى تَبْرِيدِ الْمَاءِ، وَقَالَ السَّرِيُّ الْمُوصِلِيُّ فِي الْمَزْمَلَةِ: [الطويل]

وَحَافِظَةُ مَاءِ الْحَيَاةِ لِفَتِيَةٍ	حَيَاتُهُمْ أَنْ تُسْتَلَذَّ الْمَشَارِبُ
تَسْرُبُلُهَا أَجْفَى اللَّبَاسِ وَإِنَّمَا	يَلِيْقُ بِهَا أَفْوَاهُهُ وَالسَّبَاسِبُ
عَلَى جَسَدٍ مِثْلِ الزَّبْرِجَدِ لَمْ يَزَلْ	يَشَاكِلُهُ فِي لَوْنِهِ وَيُنَاسِبُ
إِذَا اسْتَوْدَعَتْ حُرَّ اللَّجِينِ سَبَائِكَأ	تَصَوَّبُ فِي أَحْسَائِهَا وَهُوَ ذَائِبُ

فهذه القطعة وقطعة المقامة تدل على تفسيرنا، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهور
رحمه الله، حدثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أضر عنه. وأما الفنجديهي ففسر المزملة
بتفسير غير مرضي، وذلك أنه قال: المزملة موضع يغطى؛ ويحشى تبناً، ويوضع في
وسط التبن وعاء في القيقظ يبقِي الماء بارداً، ويترك ثقبه في وسط الموضع لدخول الجرة

فيها، ولهذا قال: «مسرورة» أي مقطوعة السرة، وهو من سرّ الصبي، إذا قطعت القابلة سرته.

ثُمَّ كَشَرَ عَنْ أَنْيَابِهِ الصُّفْرَ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزاً فِي الظَّفَرِ: [الوافر]

وَمَزْهُوبِ الشَّبَا نَامَ وَمَا يَرَعَى وَلَا يَشْرَبُ
يُرَى فِي الْعَشْرِ دُونَ الثُّخِ رِفَاسْمَخَ وَضَفَهُ وَاعْجَبُ

كَشَرَ: كشف. أنيابه: أضراسه. الصُّفْر، يريد أنه لا يتعهدها بالسواك، فلذلك اصفرت وتلك الصفرة تسمى الْقَلَح، وقد قال في السادسة والعشرين: «بحسن مُلْجِه وقبح قَلْجِه». مرهوب: مخوف. الشَّبَا: الحد. نام: زائد، والظفر إذا ترك بغير تقليم طال. وما يرعى، يريد أن نمو الخلق وزيادته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء. والعشر في الظاهر: عشر ذي الحجة. والتحر: يوم النحر أي يوم العيد فأراد أن هذا المرهوب الشبا إنما يظهر في العشر خاصة، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر، وإنما يعني بالعشر الأصابع. والتحر: العنق، أي أن الأظفار خُلِقَتْ في الأصابع لا في العنق، أو يريد أن الظفر يرى في الأصابع العشر في عشر التَّحَر من ذي الحجة.

ثُمَّ تَخَاوَزَ تَخَاوَزَ الْعِفْرِيتِ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزاً فِي طَاقَةِ الْكِبْرِيتِ. [الوافر]

وَمَا مَحْقُورَةٌ تُدْنَى وَتُقْصَى وَمَا مِنْهَا إِذَا فَكَّرَتْ بُدُ
لَهَا رَأْسَانِ مُشْتَبِهَانِ جَدًّا وَكُلُّ مِنْهُمَا لِأَخِيهِ ضِدُّ
تُعَذِّبُ إِنْ هُمَا خُضِبَا وَتُلْفَى إِذَا عَدِمَا الْخِضَابُ وَلَا تَعْدُ

قوله: تَخَاوَزَ، أي نظر بمؤخر عينيه مستقلاً لذلك، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه. والعفريت: الشيطان المؤذي، وهو الرئيس من الجن، والكبريت، معروف فارسيّ معرّب. وطاقاته: قضبانه التي تجعل شيئاً على شيء وهو الوقود الذي يشعل به المصباح. تُقْصَى: تبعد. جدًّا، أي كثيراً، ويريد بالرأسين طرفي قضيب الوقيد اللذين ينغمسان في الكبريت، وجعلهما ضدّين لأن هذا في طرف وهذا في طرف، فقد تباعدا وضد الشيء بعيد عنه، وجعلهما متشبهين؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد. وَخُضِبَا: غمسا في الكبريت. وتُلْفَى: تهجر وتترك، وقال ابن رشيق: [البيسط]

إِنْ كُنْتَ تَنْكُرُ مَا مِنْكَ ابْتَلَيْتَ بِهِ فَلِإِنْ بُرِّءَ سِقَامِي عَزَّ مُطْلِبُهُ

أشِرْ بَعُودٍ مِنَ الْكِبْرِيتِ نَحْوِ فَمِي وانظر إلى زفراتي كيف تُلهِبُهُ

ثُمَّ تَخْمُطُ تَخْمُطُ الْقَرْمِ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزاً فِي حَلَبِ الْكَزْمِ: [مجزوء الوافر]
وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَسَدَا تَحَوَّلَ غَيْثُهُ رَشْدَا
وإن هُوَ رَاقٍ أَوْ صَافَاً أَثَارَ الشَّرِّ حَيْثُ بَدَا
رُكْبِي الْعِزْقِ وَالْإِدَّةُ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدَا

قوله: تَخْمُطُ، أي تكبر وتهيناً للقول، وأصل التَّخْمُطُ للمقزم، وهو فحل الإبل، وتَخْمُطُ: تهيناً للهدير وأخذ في الصَّباح والهجوم على الإبل. وحَلَبُ الْكَزْمِ، أراد الخمر، لأنها تُحَلَبُ من العنب. والحلب: اللبن المحلوب، يقول: الخمر إذا فسدت صارت خلا، فحل استعمالها، فقد صار غيها وهو فسادها رشداً، أي صلاحاً، وقال أبو بكر بن القَبْطُرْنة في خمرٍ له فسدت فصارت خلاً: [الطويل]

أَبَا حَسَنِ إِنِّي فَجَعْتُ بِصَاحِبِ أَنَيْسٍ يَسْلِي الْهَمَّ عِنْدَ احْتِلَالِهِ
غَدْتُ بِنْتُ بَسْطَامَ بْنِ قَيْسٍ بَدْنَهَا وَأَمَسْتُ كَجِسْمِ الشَّنْفَرَى بَعْدَ خَالِهِ
قوله: «غدت بنت بَسْطَامَ بْنِ قَيْسٍ»، أي صهباء، لأن بَسْطَامَ بْنَ قَيْسٍ يَكْنَى أَبَا الصَّهْبَاءِ. وقوله: «وَأَمَسْتُ كَجِسْمِ الشَّنْفَرَى»، أي خلاً، لأنه يريد قول الشَّنْفَرَى: [المديد]

* إِنَّ جِسْمِي مِنْ بَعْدِ خَالِي خُلٌّ^(١) *

أي مختل.

وقال آخر في ذلك: [البيط]

حَسِبْتُهَا بِنْتُ بَسْطَامَ لَهَا أَرْجُ ثُمَّ افْتَضَضْتُ خَتَاماً مِنْ أَبِي سَلَمَةَ
عَرَضَ بِأَبِي سَلَمَةَ الْخَلَّالُ.

ومن التعريض المركَّب على هذا المعنى قول الشاعر: [المقارب]

شَرِبْتُ مَدَاماً تَسْرَ التَّرِيفَا فَأَصْبَحْتُ تَجَرَّعَ خَلَا ثَقِيْفَا

(١) يروى البيت:

فَاسْقَنْيَهَا يَا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخُلٌّ
والبيت للشَّنْفَرَى فِي دِيْوَانِهِ ص ٨٤، وملحق ديوانه ص ٨٩، ولسان العرب (سَلَعٌ)، (خَلَلٌ)، ولتأبط شراً فِي دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ لِلتَّبْرِيزِيِّ ١٦٣/٢، وتاج العروس (خَلَلٌ)، ولابن أخت تأبط شراً فِي الْعَقْدِ الْفَرِيدِ ٣/٣٠٠، والحيوان ٣/٧٠، ولخلف الأحمر فِي شَرْحِ دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ لِلتَّبْرِيزِيِّ ٢/٨٣٨، وبلا نسبة فِي مَقَائِيسِ الْلُغَةِ ٢/١٥٦.

وصرت حجازاً جديب المحلّ
وقال آخر: [الرمل]
وقد كنت للطالب الخضب ريفاً

يا عُقاراً صار خلاً
سِرْ فمالي فيك حظّ
وملاذاً للبعوض
كان ذا قبل الحموض
ما أبالي بعد أكل الزبّ
مد من طَرَح المخيض

قوله: راق أوصافاً، أي حسنت أوصافه وحسنتها أن توصف بالزّقة والصفاء والحمرة والقدّم وقوة الفعل، يقول: فإذا كانت أوصافه معجبة أوفد الشر حيثما حضر فإذا فسدت أوصافه صلح. زكيّ العِرْق: كريم الأصل، والزكاء: النماء والزيادة، أي كثير الفضل والخير، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب والزبيب والزّب، ولكنها تلد ولد سوء، وهو الخمر، وأخذ هذا المعنى من قول الشاعر: [البيط]

فإن فخرت بآباء لهم شرف
قلنا صدقت، ولكن بنس ما ولدوا
أو يريد لذة العنب.

ثُمَّ اغْتَضَدَ عَصَا التَّسْيَارِ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزاً فِي الطَّيَّارِ: [المقارب]

وذي طَيْشَةٍ شِقُّهُ مائلٌ
يُرَى أبداً فوقِ عِلْيَةٍ
وما عابَهُ بِهِمَا عاقلٌ
كما يَغْتَلِي المَلِكُ العادِلُ
تساوى لَدَيْهِ الحِصَا والنُّصَارُ
وأعْجَبُ أوصافه إِنْ نَظَرْتَ
كما يَنْظُرُ الكَيْسُ الفاضِلُ
وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ مائلٌ
تَرَاضَى الخصومُ به حاكماً

قوله: اغتضد، جعلها تحث عضده. التسيار: السير. والطيار: ميزان معروف عندهم، يرجّحه أيسر شيء؛ فليخفته سُمِّي الطيار. وقيل: الطيار. ميزان الدراهم المعروف عندهم بالقرسطون. الفنجديهي: الطيار: لسان الميزان.

طَيْشَةٌ خفة. شِقُّهُ: نصفه وجانبه، فيريد بالظاهر: وذي حمق وخفة أصابه خدر وفالج، فيبس جنبه فمال على الجانب الصحيح، ومع ذلك لا يُرَى أبداً إلا في مكان مرتفع عالياً كما يفعل الملك، والحجارة والذهب عنده سواء. والنصار: الذهب، ثم قال: وإذا نظرت إليه نظر كَيْسٍ حاذق رأيت في وصفه عجباً حين كان الناس يتراضون بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الخلقة، لا يعدل في حكمه إنما هو ميّال مع أحد الخصمين. والعليّة: اليد التي يمسك عليها الميزان.

[من الألفاز]

وقال أبو نواس يلغز: [السريع]

واسم عليه جُنُنٌ للصبا وضُمَّه للوصف دَوَّارُ
فضحَّتْ عنه سرُّ كتمانِه وكان من شأني إظهارُ
يُحذَفُ أول مبتدأ لاسمه ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل في لعل وفي قولك في حارث: يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا أح لمن تلذعه النار
الاسم راحة، يحذف أول حرف وآخر حرف، ويبقى أح، وهو من لذعته النار.
وقال آخر: [السريع]

ويلي من الحبِّ وويلاة مُلِّكَ قلبي وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ورابع العنبر أولاهُ
وقوله عند سؤالي له: ما في اسمه والحافظ الله؟
الاسم رعبلان. وأنشد ابن إسحاق النحوي: [الكامل]

حلف الحبيب عليَّ لا سميَّه فكُنِّيته وأطعْتُ خوف تغاضبه
ظبي إذا ما زارني حلَّ اسمُه قلبي وذاك من عجيب عجائبه
ويكون إن رخمته وجزمته وقلبته ما تشتهي من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت في التَّضْخِيف مقلوباً أشدَّ معائبه
الاسم فرجة. وأشدَّ معاييه فرج، وهو ما يشتهي من صاحبه، إذا حذفت الهاء.
وقال ابن شرف: [السريع]

ما أَكَلُ يعطى على أكلة إعطاء إقلال وإكثار
لُقْمَتُه قيمتها وحدها من غير خلف ألف دينار
هو فرج المرأة.

وله في المرأة: [الرمل]

ما يقول الشيخ في شي ء تراه ويراك
ثم لا تلقاه إلا حين لا يلقي سواكا
وله أيضاً في الإبرة: [الرجز]

ضئيلة الجسم لها فعل متين السَّبَب

حَافِرُهَا فِي رَأْسِهَا وَعَيْنُهَا فِي الذَّنْبِ
ولغيره في الميزان: [الوافر]

وقاضٍ قد قضى في الأرض عدلٌ له كفٌ وليس له بَنَانٌ
رأيتُ النَّاسَ قد قَبِلُوا قَضَاءَهُ ولا نطقٌ لديه ولا بَيَانٌ
وقال العلويُّ الأصبهاني يلغز في النَّسر الواقع: [الطويل]

وركب ثلاث كالأنافي تعاوِروا دُجَا الليل حتى أومضت سِنَّةُ الفجر
إذا اجتمعوا سميتُهم باسم واحدٍ وإن فرَّقوا لم يُعرفوا آخرَ الدهر
وأشد الحامي في الخفاش وهو طائر الليل: [الطويل]

أَرَى عُلَمَاءَ النَّاسِ لا يعرفونني وقد ذهبوا لِلْعِلْمِ في كلِّ مَذْهَبٍ
بجلدة إنسان وصورة طائرٍ وأظفار يَرْبُوعٍ وأنياب ثعلبٍ
وأشد في الطائر وظله: [الوافر]

عجبت لطائرٍ في الحوم طارًا وكأنا واحدًا فائنين صارًا
فهذا طائر في الجوَّ يهوي وذا مستأنس لَزِمَ الْقَرَارَا
وأشدوا في مصراع الباب: [الطويل]

عجبتُ لِمَحْرُومِينَ من كلِّ لَذَّةٍ يبيتان طولَ اللَّيْلِ يعتَنِقَانِ
إذا أمسيا كانا على الناس مرصداً وعند طلوع الشمس يفترقانِ
وأشدوا: [الطويل]

فما مَيِّتٌ أَحْيَا به الله مَيِّتاً ليخبر قوماً أَنْذَرُوا ببَيَانٍ
وعجفاء قد قامتْ لَتُنْذِرَ قومها وأهل قُرَاهَا رهبة الحَدَثَانِ
الميت الأول بقرة بني إسرائيل، والميت الثاني الذي ضرب ببعضها والعجفاء نملة
سليمان عليه السلام.

والألغاز أكثر من أن يأتي عليها الحصر.

قال: فظَلَّتِ الأفكارُ تهيمُ في أودِيَةِ الأوهام، وتجول جَوْلَانِ المستهام، إلى
أن طال الأمد، وَحَضَّحَصَ الكَمَد. فَلَمَّا رَأَهُمْ يَزِيدُونَ وَلَاسِنَا، وَيَقْضُونَ النَّهَارَ
بِالْمُنَى، قال: يا قوم؛ إلام تَنْظُرُونَ، وَحَتَّامَ تَنْظُرُونَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكُمْ اسْتِخْرَاجُ
الْخَبِيِّ، أَوْ اسْتِسْلَامُ الْغَيْبِ! فقالوا: تَاللَّهِ لَقَدْ أَغْوَضْتَ، وَنَصَبْتَ الشَّرْكَ فَقَنْضْتَ؛
فَتَحَكَّمْ كَيْفَ شِيت، وَخَزِ الْعُنْمَ وَالصَّيْتَ، فَفَرِّضْ عن كُلِّ مَعْمَى فَرَضاً، وَاسْتَخْلَصْهُ

مِنْهُ نَضًا. ثُمَّ فَتَحَ الْأَقْفَالَ، وَوَسَمَ الْأَغْفَالَ، وَحَاوَلَ الْإِجْفَالَ. فَاعْتَلَقَ مِذْرَةَ الْقَوْمِ، وَقَالَ لَهُ: لَا لُبْسَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ. فَاسْتَنْسِبَ قَبْلَ الْإِثْلَاقِ؛ وَهَبَهَا مُتْعَةً الْمَطْلَاقِ، فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ مُرِيبٍ، ثُمَّ أَنْشَدَ وَالْدَمْعُ مُجِيبَ.

قوله: تهيم أي تتحير والهائم: الذي يركب رأسه ويمشي على غير هداية. الأوهام: جمع وَهْم وهو ما تتوهمه وتتصوره في نظر مسألة مشكلة، إما خطأ وإما صواباً، وأراد أن أفكارهم كانت تتحير في نظر ألغازه ولا تهتدي. تَجُول: تتصرف. المُسْتَهَام: العاشق الذي ذهب به الحب كل مذهب. حصحص: تبين الكمد: الحزن والهم. يَزِيدُونَ ولا سناً: يقدحون الزند، ولا يظهر لهم ضوء، أي تضرب أذهانهم الألغاز، فترجع بلا فهم. ويقضون: يقطعون يومهم بأمني لا محصول لها.

[مما قيل في التمني]

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إِيَّاكَ وَالْمَنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ التَّوَكُّي، وَتَثْبُطُ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَأَشْرَفَ الْغِنَى تَرَكَ الْمُنَى.

علي بن عبيدة الزنجاني: الأمانى مخايل الجهل.

وقال غيره: الأمانى تخدعك وعند الحقائق تدعك.

وفي ضده: أفلاطون: التمني حلم المستيقظ وسلوة المحروم.

غيره: الأمل رفيق مؤنس إن لم يبلغك فقد أهلك.

قيل لأعرابي: ما أمتع لذات الدنيا؟ قال: مغازلة الحبيب، ومحادثة الصديق،

وأمانى تقطع بها أيامك. وأنشد الثعالبي: [السريع]

ولا تكن عبدَ المنى فالمنى رؤوس أموالِ المفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد: [الطويل]

وأكثر أفعال الغواني إساءة وأكثر ما تلقى الأمانى كواذباً

وأنشد أبو تمام في ضده: [الطويل]

مَنْى إن تكن حقاً تكن أحسنَ المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغباً

أمانى من لئلى حسناً كأنما سقتني بها لئلى على ظمأ برزاً

ابن المعتز يصف ساقياً: [البيط]

فظلُّ يُنَاجِينى يقلب طرفه بأطيب من نجوى الأمانى وألطفاً

غيره:

عَلَّيْنِي بِمَوْعِدٍ وَأَمْطَلِي مَا حَيَّيْتَ بِهِ

ودعيني أفوز مِنْ — كِ بِنَجْوَى تَطْلُبُهُ
فَعَسَى يَغْثُرُ الزُّمَانُ — نَ بِخَطِيءٍ فَيَنْتَبِهْ

قوله: تَنْظُرُونَ، أي تَوَخَّرُونَ. يَأْنِ: يَحْنُ وَيَقْرَبُ. الْخَبِيءُ، أي المخبوء المستور، يريد ما خَبَأَ لَهُمْ فِي الشَّعْرِ مِنَ اللَّغْزِ. اسْتِسْلَامٌ: انْقِيَادٌ. الْغَبِيُّ، أي الجاهل بالشيء. أَغْوَضْتُ: أَتَيْتُ بِعَوِيصٍ وَهُوَ الصَّعْبُ. الشَّرْكُ: آلَةٌ يُصَادُ بِهَا. قَنَضْتُ: صَدْتُ. الْغَنَمُ: الْغَنِيْمَةُ وَالْجَائِزَةُ. الصَّيْتُ: الذَّكْرُ الْحَسَنُ. يُنْشَرُ فِي النَّاسِ وَيَشِيْعُ. قَرْضٌ: قِسْطٌ. وَأَوْجِبُ: وَالزَّمُ. وَالْفَرَضُ: الْعَطِيَّةُ وَاسْتِخْلَاصُهُ: جَعَلَهُ خَالِصاً. نَضًّا: حَاضِراً. فَتَحَ الْأَقْفَالَ، أي حَلَّ أَلْفَاظَ الْأَلْغَازِ وَالْبَاسِهَا وَكَانَتْهَا لِتَعْمِيَّتِهَا كَأَنَّ عَلَيْهَا أَقْفَالاً، فَحَلَّهَا بِتَفْسِيرِ. وَالْأَغْفَالُ: جَمْعُ غُفْلٍ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمَهْمَلُ لَيْسَ لَهُ عَلَامَةٌ يَعْرِفُ بِهَا. وَسَمَهَا: جَعَلَ لَهَا عَلَامَةً حَاوِلَ الْإِجْفَالِ، أَرَادَ الْفِرَارَ، وَأَجْفَلَ الْقَوْمَ: انْهَزَمُوا. وَمِذْرَةُ الْقَوْمِ: لِسَانُهُمْ وَفَصِيحُهُمِ الْمَتَكَلِّمُ عَنْهُمْ، وَأَصْلُ الْمِدْرَةِ الْمِدْفَاعُ، وَقَدْ دَرَهَتْهُ، إِذَا دَفَعَتْهُ: لُبْسَةٌ: شَبْهَةٌ، وَقَدْ التَّبَسَّ الْأَمْرُ إِذَا أَشْكَلَ، وَمُتَّعَةُ الطَّلَاقِ، أَنْ يَهَبَ الرَّجُلُ لَامِرَاتِهِ شَيْئاً مِنْ مَالِهِ إِذَا طَلَّقَهَا يَسْلِيَهَا بِذَلِكَ عَنْ فِرَاقِهِ لَهَا، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: أَكْثَرُ الْمَتْعَةِ خَادِمٌ، وَأَقْلَاهَا ثَلَاثُونَ دِرْهَماً، وَقِيلَ: أَكْثَرُهَا خَادِمٌ وَأَوْسَطُهَا ثَوْبٌ وَأَقْلَاهَا مَالُهُ ثَمَنٌ. وَهَبَهَا: أَحْسَنَهَا، يَقُولُ: أَحَسَبَ انْتِسَابَكَ لَنَا مُتَّعَةً وَتَسْلِيَةً لِفِرَاقِكَ عَنَّا. أَطْرَقَ: أَمَالَ رَأْسَهُ وَسَكَتَ مُرِيبٌ: صَاحِبُ رِيْبَةٍ. وَالذَّمْعُ مَجِيبٌ، يَرِيدُ أَنْ يُنْشِأَهُ دَعَا دَمْعَهُ فَأَجَابَهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: [البسيط]

* أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سَوَى طَلَلٍ ^(١) *

يريد أنه لَمَّا وَقَفَ عَلَى الطَّلَلِ وَهُوَ أَثَرُ دَارِ أَحِبَّابِهِ هَيَّجَهُ لَهُمْ فَبَكَى، فَالطَّلَلُ لَمَّا دَعَاهُ لِلتَّذَكُّرِ أَجَابَهُ بِدَمْعِهِ. [المجثث]

* * *

سَرُوجٌ مَطْلَعُ شَمْسِي — وَرَبْعٌ لَهْوِي وَأُنْسِي
لَكِنْ حُرِمْتُ نَعِيمِي — بِهَا وَلَذَّةُ نَفْسِي
وَاعْتَضْتُ عَنْهَا اغْتِرَاباً — أَمْرٌ يَوْمِي وَأَمْسِي
مَا لِي مَقَرٌّ بِأَرْضٍ — وَلَا قَرَارٌ لِعَنْسِي
يَوْمًا بِنَجْدٍ وَيَوْمًا — بِالشَّأْمِ أَضْحِي وَأَمْسِي

(١) عجزه:

دعا فلباه قبل الركب والإبل

والبيت في ديوان المتنبي ٧٤ / ٤.

أزجي الزمان بقوت
ولا أبيت وعندي
مُنْعَصٍ مُسْتَحَسٍّ
فَلَسْ، وَمَنْ لِي بِفَلَسٍ!
ومن يَعِشْ مِثْلَ عَيْشِي
بَاعَ الْحَيَاةَ بِبَخْسٍ
ثُمَّ إِنَّهُ اخْتَبَنَ خُلَاصَةَ النَّصِّ، وَنَدَرَ ضَارِباً فِي الْأَرْضِ، فَنَاشَدْنَاهُ أَنْ يَعُودَ،
وَأُسْنَيْنًا لَهُ الْوَعْدُ؛ فَلَا وَأَيُّكَ مَا رَجَعَ، وَلَا التَّرْغِيبُ لَهُ نَجَعٌ.

قوله: مَطْلَع شمسي، يريد أن سَروِج هي بلده التي نشأ فيها. ربع: منزل.
اغْتَضَتْ: استبدلت. أمر: جَعَلَهُ مُرًّا. مَقَرَّ: إقامة. قرار: سكون وإقامة عَنَسِي: ناقتي
الوثيقة، نَجَد: ما ارتفع من الأرض، وأنجد: أتى نجداً. والشَّام: أخذ من اليد الشؤمي.
أَزْجِي: أسوق. مَنْعَص: مكدر، ويقال: نَعَص علينا فلان، أي قطع علينا ما كنا نحَبُّ
الاستكثار منه، وكلَّ مَنْ قَطَعَ شَيْئاً يَحِبُّ الْإِزْدِيَادَ مِنْهُ فَهُوَ مَنْعَص. مُسْتَحَسٍّ: مستهجن.
بَخْس: نقصان.

اخْتَبَنَ: جعله في خُبنته، وهو طرف ثوبه، والخُبْنَةُ كَالْحُجْزَةِ لِلإِزْرَارِ، والخُلَاصَةُ:
ما خلص له منه وصفاً. وندر: سبق، وذهب يضرب في الأرض إذا سار فيها، وأصل
نَدَرَ، خرج وطار، مثل النّوَاة إذا طارت من تحت المرضخ وشبهها. فَنَاشَدْنَاهُ: حلفناه.
يعود: يرجع. أُسْنَيْنًا: عَظُمْنَا وجعلناها سِنِيَّةً أي رفيعة. والوعود: جمع وَغْد، وهو ما
وعدوه به من المال. التَّطْمِيعُ: التَّطْمِيعُ، وقد رَغَبْتَهُ فِي الشَّيْءِ إِذَا زَيَّنْتَهُ لَهُ وَطَمَعْتَهُ فِيهِ.
ونجع: نفع، وقد نجع عليه الطعام، إذا أصْلَحَ عَلَيْهِ جِسْمُهُ.

المقامة الثالثة والأربعون

وهي البكرية

حكى الحارث بن همام قال: هَفَا بِي الْبَيْنُ الْمُطَوَّحُ، وَالسَّيْرُ الْمَبْرُحُ، إِلَى أَرْضٍ يَضِلُّ بِهَا الْخَرِيتُ، وَتَفَرَّقُ فِيهَا الْمَصَالِيتُ، فَوَجَدْتُ مَا يَجِدُ الْحَائِرُ الْوَحِيدُ، وَرَأَيْتُ مَا كُنْتُ مِنْهُ أَحِيدُ؛ إِلَّا أَنِّي، شَجَعْتُ قَلْبِي الْمَزْءُودَ، وَنَسَأْتُ نَضْوِي الْمَجْهُودَ، وَسِرْتُ سَيْرَ الضَّارِبِ بِقَدَحَيْنِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلْحَيْنِ؛ وَلَمْ أَزَلْ بَيْنَ وَخْدٍ وَذَمِيلٍ، وَإِجَازَةٍ مِيلَ بَعْدَ مِيلٍ؛ إِلَى أَنْ كَادَتْ الشَّمْسُ تَجِبُ، وَالضِّيَاءُ يَحْتَجِبُ فَارْتَعَتْ لِإِظْلَالِ الظَّلَامِ، وَافْتِحَامِ جَيْشِ حَامٍ، وَلَمْ أَذِرْ أَكْثُ الدَّيْلَ وَأَزْتَبِطُ، أَمْ أَغْتَمِدَ اللَّيْلَ وَأَخْتَبِطُ!.

هَفَا، أَي طَارَ وَخَفَ. الْمُطَوَّحُ: الْمُبْعَدُ الْمُشْفِي عَلَى الْهَلَاكِ، وَقَدْ طَوَّحْتُ الشَّيْءَ، إِذَا رَمَيْتُ بِهِ وَأَلْقَيْتَهُ إِقَاءً مُنْكَرًا. الْمَبْرُحُ: الشَّاقُّ الْمَتْعَبُ، وَقَدْ بَرَّحَ الْأَمْرُ، إِذَا عَظُمَ وَاشْتَدَّ. يَضِلُّ: يَتَحَيَّرُ وَيَتَلَفَّ. الْخَرِيتُ: الدَّلِيلُ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْ خَرَّتْ الْإِبْرَةُ كَأَنَّهُ مِنْ حَسَنِ دَلَالَتِهِ يَهْتَدِي عَلَى مِثَالِ خَرْتِ الْإِبْرَةِ وَهُوَ تُقْبَاهَا. تَفَرَّقَ: تَفَرَّعَ الْمَصَالِيتُ: الشَّجْعَانِ الْمَاضُونَ فِي الْحُرُوبِ، وَاحِدُهُمْ مِضْلَاتٌ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْمُنْصَلَّتُ: الْمُسْرِعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَمْعُهُ مَصَالَتٌ وَمَصَالِيتٌ. أَحِيدُ: أَخَافُ وَأَمِيلُ عَنْهُ. الْمَزْءُودُ: الْمَفْرَعُ، وَزَنَدَ الرَّجُلُ: فَرَعَ نَسَأْتُ: ضَرَبْتُ بِالْمِنْسَاءِ، وَهِيَ الْعَصَا. نَضْوِي: بَعِيرِي. الْمَجْهُودُ: الْمُتْعَبُ قَدَحَيْنِ: سَهْمَيْنِ.

[قداح الميسر]

وكان الرجل في الجاهلية يُمْسِكُ ثَلَاثَةَ أَقْدَاحٍ، عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ: «أَمْرَنِي رَبِّي»، وَعَلَى الثَّانِي «نَهَانِي رَبِّي»، وَالثَّالِثُ عُقْلٌ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ وَهُوَ الْمَنِيحُ، فَإِذَا أَرَادَ سَفْرًا أَوْ أَمْرًا ضَرَبَ بِهَا، فَإِنْ خَرَجَ لَهُ «أَمْرَنِي رَبِّي» مَضَى أَمْنًا، وَإِنْ خَرَجَ لَهُ «نَهَانِي رَبِّي» تَرَكَ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَإِنْ خَرَجَ لَهُ عُقْلٌ أَعَادَ الضَّرْبَ.

وقيل: كان يُمْسِكُ قَدَحَيْنِ مَكْتُوبَ عَلَى أَحَدِهِمَا «أَفْعَلُ» وَعَلَى الثَّانِي «لَا تَفْعَلُ»، فَإِنْ خَرَجَ «أَفْعَلُ» مَضَى، وَإِنْ خَرَجَ «لَا تَفْعَلُ» تَرَكَ.

وقيل: كان لا يمضي حتى يخرج له «افعل» ثلاث مرات، ولا يترك المضي حتى يخرج له «لا تفعل» ثلاث مرات، فإن خرج له مرة «افعل» ومرة «لا تفعل» ولم يخلص له أحدهما، فإن مضى في ذلك الأمر مضى وهو يرجو ويخاف، وهذا هو الذي أراد الحريري لأنه كان بين الرجاء والخوف.

ولما قُتِل حجر أبو امرئ القيس، أخذ امرؤ القيس أزالامه وهي القِداح، وأتى ذا الخُلصة - وهو صنم لدؤس وخثعم وبجيلة - فاستقسم عندها بالأزالام فخرج له القِدح الذي يكره، فأخذ الأزالام وكسرها وضرب بها وجه صَنَمِها، وقال: [الرجز]

لو كنت يا ذا الخُلص الموثورا^(١)

مثلي وكان شيخك المقبوراً

لم تنه عن قتل العدة زوراً

وحكى الفَنجديهي، قال: الضارب بقَدْحين، يعني به قول الناس: إِمَّا الغُثم، وإِمَّا الغُزم، وإِمَّا المُلْك وإِمَّا الهُلْك قال الشاعر: [المتقارب]

ضربتُ بها البيت ضَرْب القِدَا ح إِمَّا لِهَذَا وإِمَّا لِهَذَا
والقِدح: السهم قبل أن يُراش ويركَّب نُصْلُه.

وحكى ابن ظَفَر أن الأزالام سبعة قِداح، مكتوب على أحدها «نعم» وعلى الآخر «لا» وعلى قِدَح «منكم» وعلى قِدَح «من غيركم» وعلى قِدَح «مُلصَق» وعلى قِدَح «العقل»، وعلى قِدَح «فضل العقل». وكانت بيد سادن الأصنام، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم، فيسأل الصنم أن يوضح له ما سأل عنه، ثم يضرب بالقِداح، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار في مثله ضَرْب له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا، فإن خرج «نعم» مضى على فعله وإن خرج «لا» ترك ذلك. فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له بالأقداح الثلاثة التي فيها «منكم» «من غيركم» «ملصق» فإن خرج «منكم» أضافوا نسبه إلى أنفسهم، وإن خرج «من غيركم» كان حليفاً وإن خرج «ملصق» لم يكن له حلف ولا نسب. فإن أتى سائل عن قتيل أو جنابة ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل، فإن خرج على قوم «العقل» برىء منه الآخرون، وإن عقلوا ففَضَّل شيء، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدَح الذي عليه فضل العقل، فإن خرج عليه أداه.

ومعنى الاستقسام بها الرضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهي والبراءة والوجوب.

وسهام الميسر عشرة: ثلاثة يتكثَّر بها لا أنصباء لها، وسبعة لها أنصباء، فأولها الفَدَّ، وفيه فرضة واحدة وله نصيب واحد، والثاني التوأم وفيه فرضتان وله نصيبان، ثم

الرقيب وفيه ثلاث فُرض، وله ثلاثة أنصباء، ثم الجِلس بأربع، والنافس بخمس، والمسبل بست، والمعلّى، وهو أعلاها بسبع فرض وعلى عدد الفرض هي الأنصباء وقال ابنُ بُال فجمعها في بيت: [الكامل]

فدُ وتوأم والرقيب ونافسٌ والجِلس ثُمّت مُسبلٌ ثم المعلّى

واسم الثلاثة التي يُكثرُ بها: الفسيح والمَنِيح والوغد؛ فإذا أرادوا الضُّرب بها طلبوا أوّل رجل يَلْقُونَه، فشَدُّوا عينيهِ، ويسمونه الحرضة، وأقاموا له الرقيب وضُرب، فكلّما خرج له قِدْحُ دفعه إلى الرقيب، والرقيب هو الأمين على الضُّرب بالقِداح، قال الشاعر: [المقارب]

لها خلف أذناها أزمَل مكان الرقيب من الياسر

وكان أهلُ اليسار والجود من الجاهليّة عند شدّة الزمان، ينحَرُونَ الجَزور ويَقْتَسِمُونَهَا ويضربون عليها بالقِداح، فَمَنْ قَمَرَ جعل نصيبه لأهل الميسر، والقمار يُكْنَى عنه بالميسر، وأصل المَيِّسر موضع تُنحر به الجَزور، والياسر: الجَازر، وتقسم الجَزور عشرة أجزاء: العَضدان في الكتفين جزآن، وهما ابنا ملاط، والعَجَز والزُور جزآن، والكاهلُ واللحاء عليهما الجنب بنصفين جزآن، والوركُان عليهما الذِّراعان جزآن، والفَخِذان وعليهما العُنُق مقسوماً جزآن. وبقي جَنْب، وهم يستثنونه وقد لا يستثنونه، فيردُّ منه على جزء الكاهل ضلعان وعلى سائرهما ضلعٌ ضلع، فإن فضلت قطعة أو عَظْم سَمِيَ الزَّيْم، قال الشاعر: [الطويل]

وكنّت كعظم الريم لم يدر جازرٌ على أيّ أدنى مقسّم اللّحم يجعل^(١)

وقال الأصمعيّ في الميسر: إنّه شيء كانت الجاهلية تفعله، فليس عندنا منه حقيقة.

قوله: المستسلم للحنين، أي المنقاد للهلاك. الوخذ: نوع من السَّير وهو أن ترجَم الأرض بقوائمها لسرعة سيرها. والذَّمِيل: سيرٌ لَين. تجب: تسقط للمغيب ارتعت: فزعت لإظلال: لُقُزْب ودُنُو. اقتحام: دخول الشيء على غَرَر وحام، هو ابن نوح وقد تقدّم في الحادية والعشرين، وأراد بجيش حام ظلام الليل، لأنّ حاماً أبو السُّودان، أكفّت: أقبضه وأشمره. أرتبط: أربط بعيري أعتمد: أقصد. أختبط: أمشي على غير هداية، وأراد أنه لا يدرى ما يفعل، أينزل ويبيت، أم يسير في الليل على غَرَر.

(١) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص ٦٠، وفيه «يُوضَع» بدل «يجعل»، وبلا نسبة في لسان العرب (بدأ)، (ريم).

وَبَيْنَمَا أَنَا أَقْلِبُ الْعِزْمَ، وَأَمْتَحِضُ الْحَزْمَ، تَرَأَى لِي شَبَحُ جَمَلٍ، مُسْتَذِرٌ
بِجَبَلٍ، فترجيته قُعْدَةُ مُرِيحٍ، وَقَصْدُهُ قَصْدَ مُشِيحٍ؛ فإذا الظَّنُّ كَهَانَةً، وَالْقُعْدَةُ
عَيْرَانَةً، وَالْمُرِيحُ قَدْ اِزْدَمَلَ بِبِجَاةٍ، وَاكْتَحَلَ بِرُقَادِهِ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ؛ حَتَّى هَبَّ
مِنْ نُعَاسِهِ؛ فَلَمَّا اِزْدَهَرَ سِرَاجَاهُ، وَأَحْسَّ بِمَنْ فَاجَاهُ، نَفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الْمُرِيْبُ. وَقَالَ:
أَخُوكَ أَمْ الذَّيْبُ! فَقُلْتُ: بَلْ خَابِطُ لَيْلٍ ضَلَّ الْمَسْلَكَ، فَأَضَىءَ لِي أَقْدَحُ لَكَ فَقَالَ:
لَيْسَرُ عَنْكَ هَمُّكَ، قَرَبَ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ. فَأَنْسَرَى عِنْدَ ذَلِكَ إِشْفَاقِي، وَسَرَى
الْوَسْنُ إِلَى آمَاقِي، فَقَالَ: عِنْدَ الصُّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرَى، فَهَلْ تَرَى كَمَا أَرَى!

العزم والحزم: اجتماع رأي الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردد فيه. أمتخص: أحرك وأحلب، وأراد أنه أخذ يحدث نفسه ويدبر رأيه: هل يسري أو يقعد. تراءى، أي ظهر. مستذر: مستعل، والذروة أعلى الشيء، أراد أنه ظهر له شبح جمل، أي شخصه في أعلى جبل. قعدة: بعير يُقْعَدُ عليه عند الركوب. مريح: مستريح، قد نزل يريح نفسه وبعيره. مشيح: مُجِدَّ. والقعدة: المركوب. والعيرانة: الناقة الصلبة تشبه بالعير، وهو حمار الوحش.

واِزْدَمَلَ: التفَّ. ببجاده: بكسائه. هب: انتبه. ازدهر: انفتح وأضاء سراجاه: عيناه. فاجاه: أتاه على غفلة. المريب: الذي أتى ريبة. أخوك أم الذيب، مثل، كأنه خاطب نفسه، فقال: أخوك هو الذي رأيت أتى لمؤانستك أم ذئب لإذابتك، وتضمن الكلام أن الاستفهام وقع بالذي رآه، فكأنه قال له: يا هذا، أخ أنت أم صاحب فأركن إليك أم عدو فأحذر؟ فأجابه بأن قال له: بل خابط ليل، أي ماش فيه على جهالة. ضل المسلك: أخطأ الطريق. أضىء لي: اكشف لي عن حالك. أقدح لك: أكشف لك عن حالي، وهذا أيضاً مثل، وفي هذا التباس؛ لأنه إذا أضاء له، أي أعطاه ضوءه أو أظهره له، فأبى حاجة له في القَدْح، وهو الضرب بالزُّنْد ليخرج ناره، وإنما معناه أن رجلاً كان طلب لآخر ضوءاً مثل فتيل يوقده، فتخيل من صاحبه أنه لا يعطيه، فقال له: أضىء لي، أي أعطني ضوءاً فليس عليك فيه تكلف فإنك إن أتيتني في مثلها فلم تجد لي ضوءاً قدحت لك زندي، وتكلف لك ذلك، ثم استعمل فيمن يطلعك على أمره فتطلع من أمرك على ما هو أفيد ممّا أطلعك عليه، فمعناه أطلعني على ظاهر أمرك أطلعك على باطن أمري ويروى: «أكدح لك» قال أبو زيد: إذا طلب الرجل إلى الرجل حاجة فلم يعرف وجهها، قال: أضىء لي أكدح لك، أي بين لي فأكدح لك، أي أسعى لك، وكدح لمعيشته: سعى واكتسب، وأضىء: أسرج.

الفنجديهي: أضىء لي أكدح لك، مثل يضرب في المساواة بالأفعال، والمعنى:

كن لي أكن لك، واسع لي أسع لك، والمراد به كُن لي أكثر مما أكون لك لأن الإضاءة أكثر نفعاً من القَدْح، ويقال: معناه: تول الأمر الهين أتول الأمر الصعب. لِيَسُرَّ: لِيَزُلَّ وليذهب. سَرَى عِزْق الشجرة يسري: دب تحت الأرض، وسرى يسري سار.

[قصة المثل: رب أخ لم تلده أمك]

رُبَّ أَخ لك لم تلده أمك، معناه قد وجدت مني صديقاً يقوم لك مقام شقيقك، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجُلٌ وهي تلاعبه ويلاعبها، ومعها صبيٌّ صغير ييكي، وهما قد أقبلتا على شأنهما لا يكثران به، فسألها عن الرجل، فقالت: هو أخي، فقال ربَّ أخ لك لم تلده أمك، يكذبها في قصدها أي هو أخوك بالمحبة والصدقة لا بالولادة. وقال في الدرّة: حكى ابن نصر الكاتب أن أبا العباس بن ياسر دخل عليه، رجل نصرانيّ ومعه فتى من أهل ملته حسن الوجه، فقال له: مَنْ هذا الفتى؟ فقال له: بعض أخواني، فأنشد أبو العباس: [الطويل]

دعنتي أخاها أم عمرو ولم أكنْ أخاها ولم أرضع لها بلِبان^(١)
دعنتي أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يصنع الأخوان
وقالوا في هذا المعنى: ربَّ بعيدٍ أقرب من قريب، وقالوا: القريب مَنْ قَرَبَ نفعه، وقال أبو تمام: [الكامل]

ولقد سَبَرْتُ الناسَ ثم خبرتهم وبلوت ما وصفوا من الأسباب
فإذا القربة لا تقرب قاطعاً وإذا المودة أقرب الأنساب
وقال ابن ميادة: [الطويل]

ولائي لزوار لمن لا يزورني إذا لم يكن في وده بمريبٍ
تقرب لي دار الحبيب وإنْ نأَتْ وما دار من أبغضته بقريبٍ
فلا تطلبنَّ القربَ والبعدَ بعدها إلى غير نياتٍ وغير قلوب
وقال آخر: [الطويل]

أخو ثقة يُسرّ ببعض شائي وإن لم تُذنه منِّي قرابة
أحبُّ إليّ من ألفي قريب بنات قلوبهم لي مُستَرابة
وقال ابن هزّمة: [الكامل]

هشُّ إذا وقف الوفودُ ببابه سهل الحجاب مؤدّب الخدام

(١) البيت الأول لعبد الرحمن بن الحكم في معجم شواهد العربية ص ٣٩٧، وبلا نسبة في تخلص الشواهد ص ٤٤٠، وشرح شذور الذهب ص ٤٨٢، وشرح المفصل ٢٧/٦، والمقرب ١/١٢١.

فإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيهما أخو الأرحام
انسرى: زال وذهب، وسزوئث الثوب عني إذا جردته. إشفاعي: خوفي. سرى
الوسن: أقبل النوم. آماقي: آخر عيني، والموق طُرف العين من جهة الأنف.

[قصة المثل: عند الصباح يحمد القوم السرى]

قوله: عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرى مثل؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل قطعوا
أرضاً كثيرة والأرض تُطَوَّى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حمِدُوا سيرهم.

وهذا المثل بيت من رجز وَقَعَ في شعر الشَّماخ، وذلك أنه سافر في قوم من بني
ثعلبة، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من تيماء، قال الشماخ لابن أخيه: انزل فاحد بنا، فنزل
فحدّا بهم ثم نزل القوم للحداء واحداً بعد واحد، فوقعت أرجيزهم في ديوان الشَّماخ،
فَنُسِبَتْ إليه، وأول الرجز: [الرجز]

طَافَ خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى فَاغْتَرَى
بَنَجْدٍ أَوْ تِيْمَاءٍ أَوْ وَادِي الْقُرَى
فَمَنَعَ النُّومَ وَمَنَّى بِالْمُنَى

وفي آخره: [الرجز]

عِنْدَ الصُّبْحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرَى
وَتُنْجِلِي عَنْهُمْ غَيَابَاتُ الْكَرَى^(١)

قال المفضل الضبي: أول من قال ذلك خالد بن الوليد، لما بعث إليه أبو بكر
رضي الله عنه وهو باليمامة أن ينزل إلى العراق، فأراد سلوك المفازة، فقال له رافع
الطائي: قد سلكتها في الجاهلية، وهي خمس للابل الواردة، وما أظنك تقدّر عليها إلا
أن تحمّل من الماء، فاشتري مائة شارب فعطشها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان
خاف العطش على الناس والخيّل، وخشي أن يذهب ما في بطون الإبل، نحرها،
واستخرج ما في بطونها. فسقى الناس والخيّل ومضى، فلما كان في الليلة الرابعة قال
رافع: انظروا، هل ترون سدرأ عظيماً؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك، فنظر الناس فرأوها
فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد: [الرجز]

لِلَّهِ دُرُّ رَافِعٍ أَتَى اهْتَدَى
فَوَزَّ مَنْ قَرَأَ قَرَأَ أُنَى سَرَى
خُمْساً إِذَا سَارَ بِهَا الْخَيْسُ بَكَى

(١) الرجز لخالد بن الوليد في لسان العرب (سرى)، وتاج العروس (جيس)، ولحسن في أساس البلاغة
(فوز)، وبلا نسبة في كتاب العين ٣٤٩/٤، و٣٨٩/٧، ومقاييس اللغة ٤٥٩/٤.

ما سارَها من قبله إنسٌ سرى

عند الصُّباحِ يَحْمَدُ القومُ السرى

ويقال: فوز إذا ركب المفازة. وقراقر: اسم قرية من اليمن. والخيس: الجبان الضعيف، وقيل: الثَّقليل. قال أبو عبيدة: والخمس أن تشرب الإبل يومَ وردها وتُصدِر يومها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم الصدر، وتردُّ اليوم الرابع فذلك الخمس.

فقلت إنِّي لك لأطوِّعُ مِنْ حِذائك، وأوفِّقُ من غذائك، فَصَدَعَ بِمَحَبَّتِي، وَبَخْبَخَ بِصُخْبَتِي، ثُمَّ اخْتَمَلْنَا مُجْدِّينَ، وَازْتَحَلْنَا مُذْلِجِينَ، وَلَمْ نَزَلْ نُعَانِي السرى، وَنَعَايِي الْكرى؛ إِلَى أَنْ بَلَغَ اللَّيْلُ غَايَتَهُ، وَرَفَعَ الْفَجْرُ رَايَتَهُ.

فلَمَّا أَسْفَرَ الْفَاضِحَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَاضِحٌ، تَوَسَّمتُ رَفِيقَ رِحْلَتِي، وَسَمِيرَ لَيْلَتِي، فَإِذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ مَطْلَبُ النَّاشِدِ، وَمَعْلَمُ الرَّاشِدِ، فَتَهَادَيْتَا تَحِيَّةَ الْمُجِبِّينَ؛ إِذِ التَّقِينَا بَعْدَ الْبَيْنِ، ثُمَّ تَبَاثُنَا الْأَسْرَارَ، وَتَنَاشْنَا الْأَخْبَارَ، وَبَعِيرِي يَنْحَطُّ مِنَ الْكَلَالِ، وَرَاحِلَتُهُ تَزِفُ زَفِيفَ الرَّالِ؛ فَأَعْجَبَنِي اشْتِدَادُ أَسْرِهَا، وَامْتِدَادُ صَبْرِهَا؛ فَأَخَذْتُ أَسْتَشِفُّ جَوْهَرَهَا، وَأَسْأَلُهُ مِنْ أَيْنَ تَخَيَّرَهَا.

فقال: إِنَّ لِهَذِهِ النَّاقَةَ خَبيراً حُلُوَ الْمَذَاقَةِ، مَلِيحَ السِّيَاقَةِ. فَإِنْ أَحْبَبْتَ اسْتِمَاعَهُ فَأَنْخُ، وَإِنْ لَمْ تَشَأْ فَلَا تُصِخْ.

قوله: حِذائك، أي نعلك. صَدَعُ: كَشَفَ وَأَظْهَرَ. وَبَخْبَخَ: قال: بخ بخ، وهي كلمة تقول عند الإعجاب. مُجْدِّينَ: مُجْتَهِدِينَ. مُذْلِجِينَ: مَاشِيِينَ بِاللَّيْلِ. نَعَانِي: نَقَاسِي. الْكرى: النوم. رايته، أراد ضوءه. أَسْفَرَ: أَضَاءَ الْفَاضِحَ: مِنْ أَسْمَاءِ الصُّبْحِ سَمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْضَحُ الْأَشْيَاءَ، أَيْ لَا يَظْهَرُهَا. وَاضِحٌ: بَيِّنٌ، يَرِيدُ أَنَّ الصُّبْحَ كَشَفَ مَا سَتَرَهُ اللَّيْلُ فَاسْتَبَانَ كُلُّ شَيْءٍ. تَوَسَّمتُ: نَظَرْتُ. الْفَنَجْدِيَّيْهِ: وَاضِحٌ: نَجْمٌ، وَالنَّجْمُ الَّذِي يُرَى بَعْدَ الصُّبْحِ مُضِيئاً فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَهُوَ الزُّهْرَةُ. ابْنُ سِيدِهِ: الْوَاضِحُ: الْكَوَاكِبُ الْخَمْسُ، إِذَا اجْتَمَعَتْ مَعَ الْكَوَاكِبِ الْمَضِيئَةِ مِنْ كَوَاكِبِ الْمَنَازِلِ. وَالْخُمْسُ: الرَّاجِعَةُ وَالْمُتَأَخِّرَةُ وَالْمُنْتَبِضَةُ. رِحْلَتِي: ارْتِحَالِي. وَالسَّمِيرُ: مُحَادِثُكَ بِاللَّيْلِ. مَطْلَبُ النَّاشِدِ، أَيْ حَاجَةُ الطَّلَابِ الَّتِي تَلَفَتْ لَهُ، فَجَعَلَ يَطْلُبُهَا. مَعْلَمُ الرَّاشِدِ: دَلِيلُ الْهَادِي، وَالْمَعْلَمُ: الْجَبَلُ يَغْلَمُ بِهِ الطَّرِيقَ. فَتَهَادَيْتَا تَحِيَّةَ الْمُحِبِّينَ، أَيْ أَهْدَيْتَهُ سَلامَ مُحِبٍّ أَهْدَى لِي مِثْلَ ذَلِكَ. تَبَاثُنَا:

تكاشفنا، أي كُشِفَتْ له سِرِّي وكشف لي سرّه. تناثنا: تفاشينا، أي أفسيت له خبري وأفشى لي خبره، والبت أصله التفریق، والتث بالنون: أصله نشر الحديث وإفشاؤه الفنجديهي: تناثنا: تذاكرنا، والتث: الذُكْر وتَثَوْتُ الذُكْر وتَثَوْتُ الحديث، أنثوه، إذا أذعته وأفشيته. ابن الأعرابي النشاء في الحسن والقبیح من الكلام، وقيل: التث: نشر الحديث الذي كُتِبَ أولی من نشره، وفي معنى هذا اللقاء قال المعري: [الوافر]

ولو لم ألقَ غيرَكَ في اغترابي لكان لقاءكَ الحظَّ الجزيلاً^(١)
ستَحْمِلُ ناجباتُ العيسِ مني صديقاً عن ودادك لن يحولاً
يؤمّل فيك إسعافَ الليالي وينتظر العواقب أن تُديلاً

ينحط: يزفر ويتنفس من شدة التعب، والتخط: خروج النفس بصوت، وهو صوت يعترى المهموم والمتعوب من صدره بتوجع، وقد نَحَطَ يَنْحُطُ نَحْطاً ونَحِيطاً، والتحيط يعترى الذابة إذا كَلَّتْ أو زيد في حملها، فتسمع لها زفيراً بصوت، فذلك هو النَحِيطُ، وقد نَحَطَ الْقَصَّارُ إذا ضرب بالثوب على الحجر وتنفس ليكون أرواح له. تزف: تسرع. والزفيف: مشى في سكون مُتَتَابِعٍ والرأل: فرخ النعامة والجمع الرئال. أسرها: قوتها وشدة خلقها. امتداد: طول. أَسْتَشِفَّ: أنظر. جوهرها: خلقها وجوهر كل شيء: ما وُضِعَتْ عليه جِبِلَّتُهُ. أنخ: حُطَّ بعيرك وانزل. تُصَخ: تستمع.

فأنخت لقوله نضوي، وأهدفتُ السَّمْعَ لما يزوي، فقال: اعْلَمَ أَنِّي استعرضتها بحضرموت، وكابدت في تحصيلها الموت، وما زِلْتُ أجوبُ عَلَيْهَا البلدان، وأطسُ بأخفافها الطَّران؛ إلى أَنْ وجدتها عَبرَ أسفار، وعُدَّة قرار، لا يلحقها العناء، ولا تُراهقها وجنء، ولا تَذْري ما الهناء. فأرصدتها للخير والشر، وأحللتها محلَّ البرِّ السرِّ، فاتفق أن نَدَّتْ مُنْذُ مُدَّة، وما لي سواها قُعْدَة، فاستشغرتُ الأسف، واستشرفتُ التَّلف، ونسيتُ كلَّ رزءٍ سَلَف، ومكثتُ ثلاثاً، لا أستطيع انبعاثاً، ولا أطمعُ التَّوم إلا جثائاً، ثم أخذتُ في استقراء المسالك، وتفقد المَسَارح والمبارك، وأنا لا أَسْتَشِي منها ريحاً، ولا أَسْتَغْشي يأساً مُريحاً؛ وكلما أذكرتُ مضاءها في السَّير، وانبرأها لمباراة الطير، لاعني الادكار، واستهوئي الأفكار.

نضوي: بعيري المهزول. أهدفت: جعلته غرضاً يَقَع فيه كلامه. والسمع: الأذن. والهدف: الغرض تَزِمِي عليه، استعرضتها: طلبت أن تعرض عليّ للبيع. حضرموت: كورة من كور اليمن فيها مدائن، وتعمل بها النعال الحضرمية وهي غاية في الجودة. كابدت: قاسيت. أجوب: أقطع أطس: أكسر. والوطس: الوطاء الشديد المؤثر. الطزان: واحداً طَزَرَ، بظاء منقوطة وراءين، وهي الحجارة العريضة، وقيل المحددة. عبر أسفار: أي قوّة على السَّفَر كأنها تُعَبِّرُ بها المراحل، أي تقطع، وأصله عَبَزَتْ في النهر إذا جزته من جهة إلى جهة أخرى. فرار، أي قد استعدت للفرار والهرب. العناء: التعب. تُرَاهِقها: تدانيتها وتقاربها، وقد أرهقتُ الرَّجُلَ، إذا دانيته، وذلك أن يذهب أمامك فتتبعه، فإذا قُرِبَتْ منه قلت: رهقته، فإذا أدركته قلت: أرهقته: ورواية ابن جهور «تَوَاهِقها» بالواو، ومعناها تواظب على المشي معها، والمواهقة: المعارضة في السير. وجناء: ناقة قوّة غليظة. والوجين: ما صلب من الأرض، وقيل: الوجناء: العظيمة الوجئات. والهناء: القَطْران، أي ليس بها داء فتحتاج إليه فهي لا تعرفه. أرصدها: أعددها. البَرّ: الذي يُبَرِّك ويكرمك. والسَرّ: ما يسرك: نذت: فَرَّتْ وشرذت. استشعرت: لبست. الأسف: الحزن. استشرفت التلف: عاينت الهلاك ونظرت، واستشرفت فلاناً إذا رفعت رأسك لتنظر إليه ويدك على حاجبك. والرُزء: فقد الشيء. سلف: مَضَى. مكثت: أقمت. انبعثاً: نهوضاً وخروجاً إلى السفر. حثّاثاً: قليلاً، والحثاث: أن يصيبك التَّوْمُ ثم يزول عنك في الحال، ويوصف به فيقال: يوم حثاث، أي قليل. والطعم: الذوق. استقراء: تَتَبَعَ. والمسالك: الطُرُق. المسارح: المراعي وحيث تسرح الإبل. والمبارك: مراقد الإبل حول الماء. استنشاء الريح: شَمَّها، مهموز وغير مهموز. استغشى ثوبه: تَغَطَّى به اليأس: قطع الرّجاء. مريحاً: يُدْخِلُ على صاحبه الراحة. اذكرت: تذكرت. مضاءها: نفادها وإسراعها. انبراءها: نهوضها، وقد انبرى لك فلان إذا عَرَضَ لك. مباراة: معارضة لاعني: أحرقتني، اللوعة: حرقه القلب من شدة الوجد. استهوتني: هَوَتْ بي في كلّ طريق. الأفكار: تذكر الهموم.

* * *

فبينما أنا في جِواء، بعض الأحياء، إذ سمعتُ من شخص مُتَبَعِد، وصوت متَجَرَّد: مَنْ ضَلَّتْ له مطيئة، حَضْرِمِيَّةٌ وطِيَّةٌ، جلدُها قد وُسِمَ، وعَرُها قد حُسِمَ، وزمامُها قد ضفر، وظَهْرُها كأنَّ قد كُسِرَ ثمَّ جُبِرَ، تَزِينُ الماشية، وتُعِينُ النَّاشِيَةَ، وتقطع المسافة النائية، وتَظَلُّ أبداً لك مُدَانِيَةً، لا يَعْتَوِرُها الْوَنَى، ولا يَعْتَرِضُها الْوَجَى، ولا تُخَوِّجُ إلى العصا، ولا تَغْصِي فيمَنْ عَصَى؟.

قال أبو زيد: فجذبني الصَّوْتُ إلى الصَّائِت، وبَشَّرَنِي بِدَرْكِ الْفَائِت فَلَمَّا

أفضيت إليه، وسلّمت عليه، قلت له: سلّم المطيّة، وتسلّم العطيّة، فقال: وما مطيّتك، غفرت خطيئتك؟ قلت له: ناقة جُثّتها كالهضبة، وذروتها كالقبة، وحلبها ملء العلبة، وكنتُ أعطيتُ بها عشرين، إذ حللتُ يَبرين، فاستزدت الذي أعطى، ودريّت أنه أخطأ.

قوله: جِواء: بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها. الأحياء: القبائل. متجرّد. ماض ظاهر، وقيل ضعيف لبُعده. ضلّت: تلفت وضاعت. مطية، يعني بها نعلًا في المعنى وناقة في اللفظ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما. وطية: لا تحرّك الراكب، وهي الذّلّول، وفراش وطيء: وثير لا يؤذي جنب النائم عليه، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما] في حديث عتبة بن غزوان عن النبي ﷺ: «إذا ضل أحدكم شيئاً وأراد غوثاً وهو بأرض ليس بها أحد فليقل: يا عباد الله المسلمين أعيئوني، يا عباد الله المسلمين أعيئوني، فإنّ الله عبّاداً لا نراهم»، وقد جرّب ذلك. وسم: حُرّز، أي جعل الخرز فيها كالعلامة. عَرّها: جَرّها. حُسيم: استؤصل بالقطع، يريد أنّ أثار الجرب التي كانت في الجلد الذي صُنعت منه هذه النعل قد قُطعت وأزيلت. وزمامها: شَرَكها. كُسِر ثم جُبر، يريد أنّ ظهرها ييس فتكسر، فوُصل بجلد آخر فصَح.

والماشية: الرّجل التي تمشي فيها، وكذلك الناشية، ويقال: نشأ الرجل، إذا نهض لحاجته وتنشأ أيضاً. وسهل الناشية لأجل الماشية وأصلها الهمز الفنجدية: تُعين الناشية، أي تُعين على السير في ناشئة الليل، قال ابن عَرَفَة: كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة. الأزهرّي: ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على «فاعلة» بمعنى النّشء كالعافية والخاتمة بمعنى العفو والختم، وقيل: الناشية والنّشيئة أن تنام أوّل الليل ثم تقوم. وقيل: الناشئة أوّل النهار أوّل الليل، وأكثر المفسرين على أنّ ناشئة الليل أوّلها، عاصم: يهمزُه والباقون لا يهمزون. جَدّني، ساقني بعُنف. الصّائت: صاحب الصوت الذي سمع، وقد أصات إذا رفع صوته، دَرَكَ الفائت: لحقّ التالف. أفضيت: وصلت تسَلّم: خذ. جُثّتها: جسدها، والجثّة: شخص القائم والقاعد والراكب والهضبة: الصخرة العظيمة، وقيل الجبل المنبسط الأملس. ذروتها: أعلى ظهرها. والعلبة: إناء من جلود. يَبرين: أرض فيها رمل.

قال: فأعرّض عني، حين سَمِعَ صفتي، وقال: لست بصاحب لُقّطتي. فأخذتُ بتلابيبي، وأصرّرت على تكذيبه، وهَمَمْتُ بتمزيق جلابيبي، وهو يقول: يا هذا ما مطيّتي بطلبك، فاكفُف عني من غَرْبك، وعدّ عن سَبِّك؛ وإلاً فقاضيني إلى

حَكَمَ هَذَا الْحَيَّ، الْبَرِيءَ مِنَ الْغَيِّ، فَإِنَّ أَوْجَبَهَا لَكَ فَتَسَلَّمْ، وَإِنْ زَوَّاهَا عَنْكَ فَلَا تَتَكَلَّمْ، فَلَمْ أَرْ دَوَاءَ قِصَّتِي، وَلَا مَسَاغَ غُصَّتِي، إِلَّا أَنْ آتِيَ الْحَكَمَ، وَلَوْ لَكُمْ.

فانخرطنا إلى شَيْخٍ رَكِينِ النُّصْبَةِ، أَثْنَقِ الْعِصْبَةِ، يُؤَنِّسُ مِنْهُ سَكُونُ الطَّائِرِ، وَأَنْ لَيْسَ بِالْجَائِرِ، فَاثْدَرَأْتُ أَتَظَلَّمُ وَأَتَأَلَّمُ، وَصَاحِبِي مُرِيماً لَا يَتَرَمَّرَمُ، حَتَّى إِذَا نَشَلْتُ كِنَانَتِي، وَقُصِّيتُ مِنَ الْقُصَصِ لُبَانَتِي، أُبْرَزُ نَعْلًا رَزِينَةَ الْوُزْنِ، مَخْذُوءَةً لِمَسْلَكِ الْحَزْنِ، وَقَالَ: هَذِهِ الَّتِي عَرَفْتُ، وَإِيَّاهَا وَصَفْتُ، فَإِنْ كَانَتْ هِيَ الَّتِي أُعْطِي بِهَا عَشْرِينَ، وَهَآ هُوَ مِنَ الْمُبْصِرِينَ، فَقَدْ كَذَبَ فِي دَعْوَاهِ، وَكَبُرَ مَا افْتَرَاهُ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَمُدَّ قَدَّالَهُ، وَيُبَيِّنَ مِصْدَاقَ مَا قَالَهُ.

أَعْرَضَ: نَحَى وَجْهَهُ. وَاللُّقْطَةُ: مَا تَجَدَّه قَدْ سَقَطَ مِنْ غَيْرِكَ فَتَلْتَقِطُهُ، وَعَامَّةُ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى فَتْحِ قَافِهَا مِثْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَيَعْقُوبَ وَالْمُفْضِلَ وَثَعْلَبَ وَابْنَ قُتَيْبَةَ وَغَيْرَهُمْ. وَحَكَّى ابْنُ خَالَوَيْهِ أَنْ تَسْكِينَهَا لُغَةً تَمِيمَ، وَفَتْحَهَا لُغَةً أَهْلِ الْحِجَازِ، فَهَمَا لُغَتَانِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ التَّقَطَ لُقْطَةً فَلْيُشْهَدْ ذَا عَدْلٍ ثُمَّ لَا يَكْتُمُ وَلَا يَغِيبُ، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا، وَإِلَّا فَهُوَ مَالُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(١). تَلَابِيهِ: أَطْوَاقُ ثَوْبِهِ، وَالتَّلْبِيبُ الْجَنْبُ، وَأَخَذْتُ بِتَلْبِيبِ فُلَانٍ، إِذَا جَمَعْتَ ثَوْبَهُ الَّذِي حَوَالِي صَدْرِهِ وَقَبَضْتَ عَلَى نَحْرِهِ، وَالْجَلْبَابُ: الْمِلْحَفَةُ وَالرِّدَاءُ. أَصْرَرْتُ: أَقَمْتُ. تَمْزِيقُ جَلَابِيهِ: تَخْرِيقُ ثِيَابِهِ. بَطْلَبُكَ: بِمَا تَطْلُبُ. وَالطَّلَبُ: اسْمُ مَا تَطْلُبُ. ابْنُ دَرِيدٍ فَلَانَةُ طَلَبُ فُلَانٍ، إِذَا كَانَ يَطْلُبُهَا وَيَهْوَاهَا. عَدَّ: كَفَّ وَاصْرَفَ. سَبَّكَ: شَتَمَكَ. قَاضِنِي: حَاكِمِنِي الْحَيَّ: الْقَبِيلَةَ. الْغَيَّ: الضَّلَالَةَ وَالْفُسَادَ. زَوَّاهَا: نَحَّاهَا.

قوله: مَسَاغَ غُصَّتِي، أَي بَلَغَ مَا اخْتَنَقَ بِهِ، وَسَاغَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ فِي الْحَلْقِ: سَهْلَ نَزُولِهِ فِيهِ. لَكُمْ، يَلِكُمْ: ضَرَبَهُ بِجُمُوعِ كَفُّهُ.

انخرطنا: سَرْنَا مُسْرِعِينَ. رَكِينِ النُّصْبَةِ: وَقُورُ الْهَيْئَةِ، وَفُلَانٍ رَكِينٌ بَيْنَ الرِّكَانَةِ، أَيِ ثَقِيلِ الْمَجْلِسِ ثَابِتٍ قَوِيٍّ. الْأَزْهَرِيُّ. يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ وَقُورًا سَاكِنًا: إِنَّهُ لَرَكِينٌ، وَقَدْ رَكُنَ رِكَانَةً. الْجَوْهَرِيُّ. يُقَالُ جَبَلٌ رَكِينٌ، أَيِ لَهُ أَرْكَانٌ عَالِيَةٌ، فَيَحْتَمِلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ رَكِينِ النُّصْبَةِ، عَالِيِ الْإِتِّصَابِ حَسَنِ الْقَامَةِ، وَالنُّصْبَةُ الْفِعْلَةُ مِنَ الْإِتِّصَابِ، وَأَرَادَ بِهَا هَيْئَةَ إِتِّصَابِهِ فِي جُلُوسِهِ وَحَالَتِهِ. أَثْنَقُ: مُعْجِبٌ. الْعِصْبَةُ: هَيْئَةُ الْعِمَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ، تَقُولُ: عَصَبْتُ رَأْسِي بِالْعِمَامَةِ إِذَا شَدَّدْتَهُ بِهَا، وَالْعِصْبَةُ هَيْئَةُ التَّعَمُّمِ، يَقُولُ: إِنْ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي اللَّقْطَةِ بَابَ ٩، وَابْنُ مَاجَهَ فِي اللَّقْطَةِ بَابَ ٢، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٤/١٦٢،

هذا الشيخ الحاكم رزِينٌ في جلوسه حَسَنَ التَّعَمُّمِ والهيئة. يؤنس: يبصر. سكون الطائر، كناية عن الوقار والحلم، وإنما ذُكِرَ الطائر لأنه لا ينزل إلا على ساكن، وإذا نزل عليه سكن هو، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش، قيل: طارت عصافيره، فإذا كان القوم أهل وقارٍ قيل: كأنَّ على رؤوسهم الطير. اندرأت: اندفعت. اتظلم: أتشكى الظلم. أتالم: أتوجع. مُرِمٌ: ساكت. لا يترمرم: لا يُجيب ولا يتحرك، وتكلم فما تَرَمَرَمَ، أي ما أجاب، وأصل تَرَمَرَمَ تحرَّك. نثلتُ كيناتي: أخرجت ما فيها من السَّهام، وأراد أتممت كلامي وقضيت: أتممت. والقَصَص: ذكر الخبر. لُبَّاتي: حاجتي. أبرز: أظهر رزينة: ثقيلة.

محدوة، جعل عليها الجِذاء؛ وهو الجلد الذي تُثَغَل به. مسالك: طرق. والحزن: ما غُلِظ من الأرض. عَرَفْتُ: صِخْتُ بها ليعرفها صاحبها. ما افتراه: ما جاء به من الادعاء والكذب. قَذالة: عنقه، والقَذال: ما بين ثُقرة القفا إلى الأذن، وجمعه قُدُل، يقول: فإن كانت هذه النعل تُساوي عشرين - وها هو يبصر أنَّ هذا باطل - فقد صارت دعواه باطلة، اللهم إلا أن يمدَّ عنقه ويأتي ببيان أنها تساوي عشرين، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب، وهو ضعيف ولا يكون لمدَّ قذا له معنى ولا لما بعده.

والتفسير الحسن الذي فيه جِلاءٌ للمعنى ما كان يفسره به شيخي أبو بكر بن أزهري عن ابن جهور، وذلك أنه كان يفسر أعطى بمعنى صُفِع وضرب، وكذلك كتب عليه في طرة كتابه، أنَّ أعطى بمعنى ضَرَب، لغة أهل الشرق، وقد حَدَّثْتُ أنا عنهم أنَّ الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر في أثره: أعطيه، بمعنى اصفعه، فهي لفظة متعارفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هُنا أنه لما ادعى السَّروجي أنه أُعْطِيَ بناقته عشرين، فوصفها بما يصحُّ معناه في حقها من أنها تساوي عشرين. ثم قال: إنَّ المعروف أبرز نعلًا رزينة الوزن، أي ثقيلة في الميزان. محدوة لمسلِك الحزن، أي قد جعل عليها جِذاء، أي رُقِعَ من الجلد طرقت بها ليسلُك بها الحزن، أي ليمشي بها في أرض ذات حجارة فلا تؤثر فيها لتلك الأطراف، وبذلك الأطراف صارت ثقيلة في الوزن، فلما أبرز هذه النعل التي وصفها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له: هذه النعل التي عَرَفْتُ، وإياها وصفتُ، فإن كانت هذه التي أُعْطِيَ بها عشرين، أي صُفِع بها عشرين. فقلت: الإعطاء للنعل بمعنى يوافقها إذ عدَّ عشرين دينار في ثمنها بعيد، ثم بينه بقوله: وها هو من المبصرين. والضرب الجافي في العنق تدمع له العينان، وإذا أفرط فيه عَمِيَ له المصفوع، فيقول المعروف: هذه النعل لو صُفِع بها إنسان صَفْعَةً واحدة لَعَمِيَ وهذا يقول إنه صُفِع بها عشرين وهو سالم البصر، فقد كذب في ادَّعائه أنه صُفِع بها عشرين، وكبرت فزيته، اللهم إلا أن يمدَّ قفاه فيرينا فيها أثر الصفع، وأثره احمراره وتعجيره، فيتبين بذلك الأثر صدق قوله. فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه، وابن جهور الذي شافه الحريري بمشكلات كتابه كان أَضْبَطَ لها ممن يتحكم فيها بنظره، فيكون تخليصُ المعنى إنَّ

المعرّف يقول: هذه النعل يدّعي هذا أنه أُعْطِيَ بها عشرين، وأنتم ترونه سالمَ البصر، ومحالٌّ أن يُضْفَعَ بها إنسان لخشنها وثقلها عشرين صَفْعَةً إلا ويعمى، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فنرى فيها أثر الصفع والرّزء فنصدّقه في دعواه. وفي رواية غير ابن جهور «بعد المبصرين» فقال: كذّب دعواه وهو داخل في قول المعرّف الأوّل فلا يحتاج إلى ادعائه، ولو جاء هنا بثمّ مكان الفاء لكان أبَيّن فكان بمعنى قوله، قال: ثم يمشي في كلامه ثم ينسّق عليه قال: لكلام ثان، وإنما وضع الفاء موضع ثَمّ لأن جواب الشرط الذي هو «فإن كان» مضمّن في قوله «وها هو من المبصرين» فإنه يتضمّن قوله: «وها هو من المبصرين» معنى فقد كذب، وليس فيه لفظ الجواب، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظي، ووقعت قال: موطئة لقال الأولى، ألا ترى أن في رواية ابن جهور مكان فقال فقد، والكلام بها متصل حسن، قال أبو الرقعمق يصف العمى من الصفع: [مجزوء الرمل]

ورؤوس القوم تُسَلَّبُ	ولقد بتنا على زمنٍ
وبها اللّذات والطّرَبُ	وكؤوس الصّفع دائرة
شُعْلُ النّيران تلهبُ	وكان الصّفع بينهمُ
عنه باللّذات مقتربُ	والعمى منهم وإن شغلوا

وله: [مجزوء الكامل]

بالقرع في زمن القشور	إنّ الذين تصافعوا
حضرُوا ولم أكن في الحضور	أسفوا عليّ لأنهم
من أخذ بيد الضرير	لو كنت ثم لقليل هل
والصّفع مفتاح السرور	يال لرجال تصافعوا
يسْتَلُّ أحقاد الصُّدور	لا تغفلوه فإنّه

وقال يصف أثر الصّفع في قفاه: [البيط]

قليله لكثير الحمق إكسيرُ	ففي ما شئت من حمق ومن هوسٍ
وكيف يُذرك ما فيه قناطيرُ	كم رام إدراكه قوم فأعجزهم
وقد حضرت يرى في الرأس تعجيرُ	لا عيب فيّ سوى أنّي إذا طربوا
لكثرة المزح توريمٌ وتخميمُ	والأخدعان فما زالا يرى لهما

ففي هذه الأشعار تتبين لك تلك الأغراض التي قدمنا ذكرها.

[ابن المغازلي]

وتنتظم في سلكها حكاية ابن المغازلي، وكان رجلاً يتكلّم ببغداد على الطّرق

بأخبار ونوادر متنوعة، وكان نهايةً في الحذق لا يستطيع مَنْ سَمِعَهُ ألا يضحك قال: وَقَفْتُ يوماً على باب الخَاصَّة أَضْحَكُ النَّاسَ وَأَتَنَادِرُ، فحضر خَلْفِي بعضُ خَدَامِ المَعْتَصِدِ، فأخذت في نوادر الخدم، فأعجِبَ بذلك وانصَرَفَ، ثم عاد فأخذ بيدي وقال: دخلت فوقفت بين يدي سيدي فتذكرتُ حكايتك فضحكْتُ، فأنكر عليّ، وقال: ما لك ويلك! فقلت: على الباب رجل يعرف بابن المُغازلي يتكلّم بحكايات ونوادر تُضْحِكُ الثُّكُولَ، فأمر بإحضارك ولي نصف جائزتك، فطمعت في الجائزة، وقلت: يا سيدي أنا ضعيف وعليّ عيلة، فلو أخذت سُدْسَهَا أو ربعها! فأبى وأدخلني فَسَلَّمَتِ فَرْدَ السَّلامِ، وهو ينظر في كتاب، فنظر في أكثره، وأنا واقف، ثم أطبقه ورفع رأسه إليّ، وقال: أنت ابن المغازلي؟ قلت: نعم يا مولاي، قال: بلغني أنك تحكي وتُضْحِكُ بنوادرَ عجيبة، فقلت: يا أمير المؤمنين الحاجة تفتقُ الحيلة، أجمع النَّاسُ حكايات أتقربُ بها إلى قلوبهم فالتمس برّهم، فقال: هاتِ ما عندك، فإن أضحكَنِي أَجَزْتُكَ بخمسمائة درهم، وإن أنا لم أضحك فما لي عليك؟ فقلت للحين: ما معي إلا قفاي، فاسأل ما أحببت، قال: أنصفتَ إن لم تُضْحِكَنِي أصفَعَكَ بذلك الجراب عشر صفعات، فقلت في نفسي: مَلِكٌ لا يصفع إلا بشيء لَين خفيف، والتفتُ فإذا بجراب من آدم معلق في زاوية البيت، فقلت: ما أخطأ ظنّي، عسى فيه ربحٌ إن أضحكته ربحت، وأخذت الجائزة، وإلا فعشر صفعات بجراب منفوخ شيء هين، ثم أخذت في النوادر والحكايات والتعاشة والعبارة، فلم أدع حكاية أعرابي، ولا نحوي، ولا مخنث، ولا قاضٍ، ولا نَبْطِيّ، ولا سِنْدِيّ، ولا زنجي ولا خادم، ولا تركي، ولا شاطر، ولا عيَّار، ولا نادرة، ولا حكاية إلا وأحضرتها حتى نَقَدَ كُلُّ ما عندي، وتصدّع رأسي، وفترت وبردت، ولم يبق ورائي خادم، ولا غلام إلا وقد ماتوا من الضحك، وهو مقطّب لا يتبسّم، فقلت: قد نَقَدَ ما عندي، ووالله ما رأيت مثلك قط، فقال لي: هيه، ما عندك؟ فقلت: ما بقي لي سوى نادرة واحدة، قال: هاتِها، قلت: وعدتني أن تجعل جائزتي عشر صفعات وأسألك أن تُضعفها لي وتضيف إليها عشر صفعات أخرى. فأراد أن يضحك ثم تماسك، قال: نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاي فَضَفَعْتُ بالجراب صَفْعَةً، فكأثما سقطت على قفاي قطعة من جبل، وإذا هو مملوء حصاً مدوراً فَضَفَعْتُ عشراً، فكادت أن تنفصل رقبتي، وطئت أذناي وانقَدَحَ الشعاع من عيني، فصحتُ يا سيدي، نصيحة، فرفع الصّفْعَ بعد أن عزم على العشرين، فقال: قل نصيحتك، فقلت: يا سيدي إنه ليس في الديانة أحسن من الأمانة، وأقبح من الخيانة، وقد ضَمِنْتُ للخادم الذي أدخلني نصفَ الجائزة على قُلُوبِهَا وكُفْرِهَا، وأمير المؤمنين بفضلِهِ وكرمه قد أضعفها وقد استوفيتُ نصفِي، وبقي نصفهُ. فَضَحِكُ حَتَّى اسْتَلَقَيْ، واستفزّه ما كان سمع، فتحامل له، فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويُمسِكُ بمراق بطنه، حتى إذا سكن قال: عليّ به، فأتي به، وأمر بصفعه، وكان طويلاً، فقال: وايش جنائتي؟ فقلت له: هذه جائزتي وأنت شريك فيها، وقد استوفيتُ

نصيب منها، وبقي نصيبك، فلما أخذه الصَّفْع وطرق قفاه الوقع، أقبلت ألومه وأقول له: قلت لك إني ضعيف معيل، وشكوت إليك الحاجة والمسكنة، وأقول لك خذ ربَّعها أو سدسها، وأنت تقول: لا آخذ إلا نصفها، ولو علمت أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصَّفْع وهبها لك كلها. فعاد إلى الضحك من عتابي لل خادم، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرة فيها خمسمائة درهم، وقال: هذه كنت أعددتها لك فلم يدعك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك، فقلت: وأين الأمانة؟ فقسمها بيننا وانصرفت.

فقال الحَكَم: اللَّهُمَّ غَفِراً، وَجَعَلْ يَقْلِبَ النَّعْلَ بَطْناً وَظَهْراً؛ ثم قال: أَمَّا هَذِهِ النَّعْلُ فَتَغْلِي؛ وَأَمَّا مَطِيئَتُكَ فَفِي رَحْلي، فَانْهَضْ لِتَسْلُمَ نَاقَتِكَ، وَافْعَلِ الْخَيْرَ بِحَسَبِ طَاقَتِكَ، فَقَمْتُ وَقَلْتُ: [الرجز]

أَقْسَمُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذِي الْحُرْمِ
وَالطَّائِفِينَ الْعَاكِفِينَ فِي الْحُرْمِ
إِنَّكَ نِعْمَ مَنْ إِلَيْهِ يُخْتَكَمُ
وَخَيْرُ قَاضٍ فِي الْأَعَارِبِ حَكَمُ
فَاسْلَمْ وَدَمَ دَوْمُ النُّعَامِ وَالنَّعَمِ

فأجاب من غير روية، ولا عَقْدِ نِيَّةٍ، وقال: [الرجز]

جُزِيتَ عَنْ شُكْرِكَ خَيْرَ بَنٍ عَمٍ
إِذْ لَسْتُ أَسْتَوْجِبُ شُكْرَ مَنْ يُلْتَزَمُ
شَرُّ الْأَنَامِ مَنْ إِذَا اسْتَقْضِيَ ظَلَمَ
ثُمَّ مَنْ اسْتُرْعِيَ فَلَمْ يَزَعْ الْحُرْمَ
فَذَانِ وَالْكَلْبُ سَوَاءٌ فِي الْقِيَمِ

ثم إنه نفَّذَ بين يدي، مَنْ سَلَّمَ النَّاقَةَ إِلَيَّ، وَلَمْ يَمْتَنِ عَلَيَّ، فَرُحْتُ نَجِيحَ الْأَرْبِ، أَجْرُ ذِيلِ الطَّرَبِ، وَأَقُولُ يَا لِلْعَجَبِ!

قوله: اللَّهُمَّ غَفِراً، أَيِ اغْفِرْ غَفِراً، والغفر: السَّتر والتغطية. انهض: تقدّم لتسلّم: لقبض العتيق: القديم. الحُرْم: جمع حُرمة. والعاكفين: المقيمين فيه للعبادة، والعمكوف: الإقامة، والحرم حَرَم مكة. اسلم: دعاء، معناه سَلَمَكَ اللهُ والنعم: طير معروف. الأعراب: الأعراب وهم سكان البادية. والنعم: جمع نِعْمة، والدَّوْم والدوام

واحد. رويّة، أي فكرة. عَفْدَ نِيَّةً: أي تدبير. اسْتُرْعِي: جُعل راعياً، أي حكماً على الناس. يَزْعَى: يحفظ فدان، أي فهذان القِيم: جمع قيمة. يَمْتَنّ: يعتنّها مَنّة، وامْتَنّ فلانٌ عليك، إذا فعل معك معروفًا فمتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبّهك به، وقالت الحكماء: أخِي المعروف بإماتة ذكره، وعظّمه بالتصغير له.

قال الحارث بن همام: فقلت لَهُ تَاللّهِ لَقَدْ أَطْرَفْتَ، وَهَرَفْتَ بِمَا عَرَفْتَ، فَنَاشَدْتُكَ اللّٰهَ: هَلْ أَلْقَيْتَ أَسْحَرَ مِنْكَ بِلَاغَةٍ، وَأَحْسَنَ لِلْفُظْ صِيَاغَةٍ؟ فقال: اللّٰهُمَّ نَعَمْ، فَاسْتَمِعْ وَانْعَمْ... كُنْتُ عَزَمْتُ حِينَ أَتَهَمْتُ، عَلَى أَنْ أَتَخَذَ طَعِينَةً، لَتَكُونَ لِي مُعِينَةً؛ فَحِينَ تَعَيَّنَ الْخِطْبُ الْمُلْبِ، وَكَادَ الْأَمْرُ يَسْتَتِبْ، أَفَكَزْتُ فِكْرَ الْمُتَحَرِّزِ مِنَ الْوَهْمِ، الْمَتَأَمِّلِ كَيْفَ مَسْقِطِ السَّهْمِ، وَبِئْسَ لَيْلَتِي أَنْاجِي الْقَلْبَ الْمُعَذِّبَ، وَأَقْلُبُ الْعَزْمَ الْمَذْبَذَابَ، إِلَى أَنْ أَجْمَعْتَ عَلَى أَنْ أُسْجِرَ، وَأُشَاوِرَ أَوَّلَ مَنْ أَبْصِرَ. فَلَمَّا قَوَّضْتَ الظُّلْمَةَ أَبْوَابَهَا، وَوَلَّتْ الشَّهْبُ أَذْنَابَهَا، غَدَوْتُ غَدَوَ الْمُتَعَرِّفِ، وَابْتَكَرْتُ ابْتِكَارَ الْمُتَعَيِّفِ فَنَبْرَى لِي يَافِعٌ فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ، فَتَيَمَّمْتُ بِمَنْظَرِهِ الْبَهِيحِ، وَاسْتَقْدَخْتُ رَأْيَهُ فِي التَّزْوِيجِ فَقَالَ: أَوْ تَبْغِيهَا عَوَانًا، أَمْ بَكَرًا تُعَانِي؟ فقلت: اخْتَرْ لِي مَا تَرَى، فَقَدْ أَلْقَيْتَ إِلَيْكَ الْعُرَى.

أَطْرَفْتُ: أَتَيْتَ بِطُرْفَةٍ، يَرِيدُ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ غَرِيبٍ. هَرَفْتُ بِمَا عَرَفْتُ، أَي تَكَلَّمْتُ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ، وَالْهَرَفُ: الْإِطْنَابُ فِي الْمَذْحِ، وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ لَا تَهْرِفْ بِمَا لَا تَعْرِفُ. نَاشَدْتُكَ: حَلَفْتُكَ: صِيَاغَةٌ: صِنْعَةٌ وَسَبْكٌ. أَتَهَمْتُ: أَتَيْتُ تِهَامَةً، وَهِيَ مَا انْخَفَضَ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ ظَعِينَةٌ: زَوْجَةٌ. الْخِطْبُ: النِّكَاحُ. وَتَعَيَّنَ: تَحَقَّقَ. يَسْتَتِبُ: يَتَمُّ. الْوَهْمُ: الْغُلْطُ الْمَتَأَمِّلُ: النَّاضِرُ الْمَذْبَذِبُ: الْمَضْطَرِبُ، الَّذِي لَا يَعْتَمِدُ عَلَى رَأْيٍ، أَزْمَعْتُ: عَزَمْتُ. أُسْجِرُ: أَخْرُجُ فِي السَّحَرِ. قَوَّضْتُ: هَدَمْتُ. وَالْأِطْنَابُ: حِبَالُ الْخِيَابِ وَتَقْوِيضُهَا: إِزَالَتُهَا. الشَّهْبُ: النُّجُومُ، وَجَعَلَ لَهَا أَذْنَابًا مُجَازًا، وَأَرَادَ أَنَّ الْفَجْرَ إِذَا طَلَعَ وَانْتَشَرَ غَابَتِ النُّجُومُ، فَكَأَنَّهُا قَدْ وَلَّتْ أَذْنَابُهَا وَقَالَ التَّهَامِيُّ فِي ذَلِكَ: [الْبَسِيطُ]

فَظَلْتُ أَعْثُرُ فِي ثَوْبِ الدُّجَى وَلِهَا	وَالْجَوَّ رَوْضٌ وَزَهْرُ الشَّهْبِ كَالزَّهْرِ
وَلِلْمَجْرَةِ فَوْقَ الْأَرْضِ مَعْتَرِكٌ	كَأَنَّهُا حَبَبٌ يَعْلُو عَلَى نَهْرٍ
وَلِلشَّرِيَا رَكُودٌ فَوْقَ أَرْحُلِنَا	كَأَنَّهُا قِطْعَةٌ مِنْ قَرْوَةِ النَّوْمِ
كَأَنَّ أَنْجَمَهَا وَالصَّبْحُ يُغْمِضُهَا	قَسْرًا عَيُونٌ غَفَتَ مِنْ شِدَّةِ السَّهْرِ

المتعرّف: المكتسب لأنه يعرف ما جهل. المتعيّف: الزّاجر، من عاف الشيء إذا كرهه. يافع: فتى شابّ وقد أيفع إذا شبّ. في وجهه شافع، أي هو حسن الوجه يشفع حسن وجهه إذا أذنب أو أخطأ.

[مما قيل في الوجه الحسن]

وفي وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قنبر.
وقال يحيى بن عليّ المنجم: كنت يوماً بين يدي المعتضد، وهو مقطّب، فأقبل بدرّ مولاه، فلما رآه من بعيد ضحك وقال: يا يحيى من الذي يقول: «في وجهه شافع»؟ فقلت: يقول ابن قنبر المازني البصريّ، فقال لله: ذره، فأنشد هذا الشعر، فأنشدته: [البسيط]

وَلَيْلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النُّومَ فَاْمْتَنَعَا	وَزَادَ قَلْبِي عَلَى أَوْجَاعِهِ وَجَعَا
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ فِي أَعْطَافِهِ لَمَعَتْ	حُسْنًا أَوْ الْبَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا
مُسْتَقْبَلُ بِالَّذِي يَهْوَى وَإِنْ كَثُرَتْ	مِنْهُ الذُّنُوبُ وَمَعْذُورٌ بِمَا صَنَعَا
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ	مِنْ الْقُلُوبِ وَجِيَةٌ حَيْثُمَا شَفَعَا

أنس، قال النبي ﷺ: «حسن الوجه مال».

وقال ﷺ: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه».

وقال الشاعر: [الخفيف]

أنت شرط النبيّ إذ قال يوماً اطلبوا الخير من حسان الوجوه
وقال النبي ﷺ: «من آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً، وجعله في موضع غير شائن، فهو من صفوة الله من خلقه».

ابن عمر رضي الله عنهما قال ﷺ: «ثلاثة تجلّو البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن»، نظمها الشاعر فقال: [السريع]

ثَلَاثَةٌ يُذْهَبْنَ لِلْمَرْءِ الْحَزْنَ الْمَاءُ وَالْخَضْرَاءُ وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ
قَوْلُهُ تَيْمَنْتُ: تَبَرَّكَتُ. الْبَهِيحُ. الْحَسَنُ. اسْتَقْدَحْتُ: طَلَبْتُ، وَأَصْلُهَا، فِي قَذْحِ النَّارِ. تَبْغِيهَا: تَطْلُبُهَا. عَوَانًا: ثِيْبًا. تَعَانِي: تَعَالَجُ وَتُرَاضِي. الْعَرَا: جَمْعُ عُرْوَةٍ.

فقال: إِلَيَّ التَّائِبِينَ، وَعَلَيْكَ التَّعِينِ، فَاسْمَعْ أَنَا أَفْذِيكَ، بَعْدَ دَفْنِ أَعَادِيكَ؛ أَمَا الْبَكْرُ فَالِدُرَّةُ الْمَخْزُونَةُ، وَالْبَيْضَةُ الْمَكْنُونَةُ، وَالْبَاكُورَةُ الْجَنِيَّةُ، وَالسُّلَاقَةُ الْهَنِيَّةُ،

والرَّوْضَةُ الْأَنْفُ، والطُّوقُ الَّذِي ثُمَّنَ وَشَرُفَ؛ لم يدنُسها لامِسٌ، ولا اسْتَعْشَاهَا لَابَسٌ، ولا مَارَسَهَا عَابِثٌ، ولا وَكَّسَهَا طَامِثٌ، وَلَهَا الْوَجْهَ الْحَيَّ، وَالطَّرْفَ الْخَفِيَّ، وَاللِّسَانَ الْعَيَّ، وَالْقَلْبَ النَّقِيَّ. ثم هي الدَّمِيَّةُ الْمُلَاعِبَةُ، واللُّعْبَةُ الْمُدَاعِبَةُ، وَالْعَزَالَةُ الْمُعَاذِلَةُ، وَالْمُلْحَةُ الْكَامِلَةُ، وَالْوِشَاحُ الطَّاهِرُ الْقَشِيبُ، وَالضَّجِيعُ الَّذِي يُشَبُّ وَلَا يُشِيبُ. . . أما الثِّيبُ فَالْمِطِيَّةُ الْمُدَلَّلَةُ، وَاللُّهُنَةُ الْمُعَجَّلَةُ. وَالْبِغْيَةُ الْمُسَهَّلَةُ، وَالطَّبَّةُ الْمُعَلَّلَةُ، وَالْفَرِيَّةُ الْمُتَحَبِّبَةُ، وَالْخَلِيلَةُ الْمُتَقَرَّبَةُ، وَالصَّنَاعُ الْمُدَبَّرَةُ، وَالْفِطْنَةُ الْمُخْتَبِرَةُ. ثُمَّ إِنَّهَا عُجَالَةُ الرَّاكِبِ، وَأَنْشَوَطَةُ الْخَاطِبِ، وَقَعْدَةُ الْعَاجِزِ، وَنُهْزَةُ الْمُبَارِزِ، عَرِيكَتُهَا لَيِّنَةٌ، وَعُقْلَتُهَا هَيِّنَةٌ، وَدِخْلَتُهَا مُتَبَيِّنَةٌ، وَخِذْمَتُهَا مُزَيِّنَةٌ، وَأَقْسِمُ لَقَدْ صَدَقْتُ فِي الثَّغَتَيْنِ، وَجَلَوْتُ الْمَهَاتَيْنِ، فَبَايَتَهُمَا هَامَ قَلْبِكَ، وَعَلَى أَيْتَهُمَا قَامَ رُبُّكَ؟.

الدَّرَّةُ: الجوهرة. المخزونة: التي جُعِلَتْ فِي الْخِزَانَةِ لِرَفْعَتِهَا، يَرِيدُ أَنَّ الْبَكْرَ تَحْجَبُ وَتُصَانَ: الْبَيْضَةُ الْمَكْنُونَةُ، أَرَادَ بَيْضَةَ النِّعَامِ، وَيُشَبُّ بِهَا النِّسَاءُ لِبَيَاضِهَا وَالصُّفْرَةَ الَّتِي تُضْرِبُ فِيهَا، وَقَدْ تَقَدَّمتْ هَذِهِ الصِّفَةُ فِي الْعَاشِرَةِ، وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: [الطَّوِيلُ]

كِبْكِرَ مُقَانَاةَ الْبَيَاضِ بِصُّفْرَةٍ عَذَاهَا تَمِيرُ الْمَاءَ غَيْرَ الْمَحْلَلِ^(١)

وقال ذو الرُّمَّة: [البسيط]

* كَانَتْهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَهَا ذَهَبٌ^(٢) *

والمَكْنُونَةُ: الْمَصُونَةُ، وَالنِّعَامَةُ تُكْرَنُ بِيَضَّتِهَا بِرِيْشِهَا، وَلَا تَبْدِيْهَا لِلشَّمْسِ وَالرِّيحِ لِثَلَا تَتَغَيَّرُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصَّافَات: ٤٩]، الْبَاكُورَةُ: أَوَّلُ مَا يُبَاكِرُ مِنَ الثَّمَرِ. وَالسَّلَافَةُ: الْخَمَرُ، وَالْمَذْخُورَةُ: الْمَحْجُوبَةُ فِي آيَتِهَا الْأَنْفُ: الَّتِي لَمْ تُدْخَلْ وَلَا رَعِيَتْ. وَالطُّوقُ: ثَوْبٌ رَفِيعٌ. ثُمَّنُ: كَثُرَ ثَمَنُهُ اللَّامِسُ: الَّذِي يَلْمَسُ الشَّيْءَ بِيَدِهِ وَيَدْنُسُهُ، وَأَرَادَ بِهِ الَّذِي يَلْعَبُهَا وَيَعْضُهَا ابْنُ عَبَّاسٍ: اللَّامِسُ وَالْمَلَامِسَةُ وَاللَّمَّاسُ، كُنَايَةُ

(١) الْبَيْتُ فِي دِيْوَانِ امْرِئِ الْقَيْسِ ص ١٦، وَشَرْحُ الْمَفْصَلِ ٩١/٦، وَلِسَانُ الْعَرَبِ (نَمْر)، (حَلَل)، (قَنَا)، وَتَاجُ الْعُرُوسِ (حَلَل)، (قَنَا).

(٢) صَدْرُهُ:

كَخَلَاءٍ فِي بَرَجٍ صَفَرَاءٍ فِي دَعَجٍ

وَالْبَيْتُ فِي دِيْوَانِ ذِي الرُّمَّةِ ص ٣٣، وَجَمْهَرُ اللَّغَةِ ص ١٣٣١، وَجَمْهَرَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ص ٩٤٥، وَالكامل ص ٩٣٤، وَالْبَيْتُ بِلَا نِسْبَةٍ فِي الْمَخْصَصِ ٩٨/١.

عن الجماع، وفلانة لا ترد يد اللامس، أي لا تمنع مجامعتها مَنْ أَرَادَهَا. استغشاهَا: جَامَعَهَا، وغشيان النساء: مجامعتهنَّ. واللابس: الذي لابسها واختلط بها، يريد نكحها. مارسها: عالجها وعانها. عابث: مفسد، وأراد من يَغْبِثُ بها عند الجماع. وَكَسَهَا: نَقَصَهَا، ووضع منها، والوكس: الخسارة في البيع، طامث: ناكح. والطامث: المفتضُّ للبكر. العَيّ: الذي لا يعرف تصرفات الكلام: والدّمية صورة الرخام. واللّعبة: ما يلعب به، وتقول: لمن اللعبة؟ أي لمن الغلب في لعب الشطرنج وشبّهه. عليّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المرأة لعبة زوجها، فإن استطاع أن يُحسِن لعبته فليفعل» والمداعبة: الممازحة والمغازلة: تقول غازلتني المرأة إذا تماجّنت عليك في كلامها، وأشارت لك بعينها وغمزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صَدَّتْ عنك. والمُلّحة: الصورة المستملحة كالدمى وكالصورة التي تلعب بها البنات والشطّار، وهي اللعبة وجاء بمُلّحة أي بكلمة طيبة مليحة. والوشاح: الحزام. والقشيب: الجديد جعلها كالوشاح عند عناقها وجماعها. والضجيع: المراقد. يشبّ: يردك شاباً. يُكسِبُك الشيب. اللّهنة: ما يعجّل للضيّف قبل القرى والطّبة: الحاذقة بمصالحها. المعلّلة: التي تعطيك ما تريد منها مرّة بعد مرّة، وهي بكسر اللام، والمعلّلة: التي تعلّل مرتشفها بالريق، قال امرؤ القيس [الطويل]:

* وَلَا تَمْنَعِينَا مِنْ جَنَّاكِ الْمَعْلَلِ (١) *

ابن الأعرابي: المعلّل: المعين بالبرّ بعد البرّ، ومن نصّب اللّام فمعناه المطيّب مرّة بعد مرّة، والتعليل سقي بعد سقي. والقرينة: الصّاحبة. والحليلة: الزّوجة. والصّناع: الحاذقة بالصّناعة. وعجالة الراكب: ما يعجّل له من الطعام والشراب، مثل التمر والسويق، وما لا يتعب بمعالجته، وكانت العرب لكرمها يمر عليها الرجل، وهو راكب فتعرض عليه النزول للقرى، فيمتنع لأعذار له فيمسك؛ حتّى يُخرَجَ له من البيوت أيسر ما يوجد، يأكله وهو راكب، فجعل الثّيب لسهولتها كالعجالة التي لا يتكلّف لها، وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: البكر كالبرة تطعننها وتعجننها وتخبزها وتأكلها، والثّيب عجالة الراكب تمر وسويق. والأنشودة: عُقْدة تُحلُّ بسهولة. نهزة: فرصة وغنيمة سهلة. عريكتها: طبيعتها، ورجل لّين العريكة إذا كان سهلاً سليس القياد، وأصل العريكة سنام البعير، وكانوا يعمدون للبعير إذا كان فيه شماس وامتناع، فيقطعون في حَدْبَتِهِ وهي مرتفعة يَضْعُبُ الرّكوب عليها، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان، وتوطأ موضع الرّكوب منه فيقال: قد لانت عريكته وقال الشاعر: [الطويل]

(١) يروى البيت:

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعدينني من جنّاك المعلّل
وهو في ديوان امرئ القيس ص ١٢، وبلا نسبة في لسان العرب (علل)، وتهذيب اللغة ١/١٠٥.

من اللواتي إذا أودت عريكُها يَبْقَى لها بعدها أَلٌ ومجهودٌ

قوله : أودت، أي زالت وذهبت، فهذا يدلُّ على ما ذكرنا. عُقِلَتْها: حبستها، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شيء هين، والعُقْلَة مثل العقدة، ولفلان عُقْلَة يعقل بها الناس فيغلبهم ويصرعهم. دَخَلَتْها: باطن أمرها، وفلان عفيف الدخلة وخبيثها، أي الباطنة والسريرة. متبينة: مكتشفة ظاهرة، أي سرُّها ظاهر. المهاتين: البكر والثيب، والبقرة الوحشية هي المهاة. هام: تحير من شدة الحب.

قال أبو زيد: فرأيتُه جندلة يتقيها المَراجِم، وتُدَمَى منها المحاجِم؛ إلا أنني قلت له: كنتُ سمعتُ أنَّ البَكَرَ أشدُّ حُبًّا، وأقلُّ حُبًّا، فقال: لعمري قد قيل هذا، ولكن كم قولٍ أذى، ويحك! أما هي المَهْرَةُ الأبيَّة العنان، والمَطيَّة البُطيَّة الإذعان، والزُنْدَة المتعسرة الاقتداح، والقَلْعَة المُستَصعَبَة الافتتاح. ثم إنَّ مُؤنَّتْها كثيرة، ومَعُونَتْها يسيرة، وعِشْرَتُها صِلْفَة، ودَأَلَتُها مُكَلَّفَة، ويَدُها خَرْقَاء، وفتنتها صَمَاء، وعَريكتُها خَشْنَاء، وَلَيْلَتُها لَيْلَاء، وفي رِياضَتِها عَنَاء، وَعَلَى خِمَرَتِها غِشَاء، وطالما أَخَزَتِ المُنَازِل، وفَرِكَتِ المَعَازِل، وأخَنَقَتِ الهَازِل، وأضْرَعَتِ الفَنِيْقَ البازِل. ثم إنها التي تقول: أنا ألبس وأجلس، فأطلب من يُطْلِق وَيَخْبِس.

فقلت له: فما ترى في الثَّيِّب، يا أبا الطَّيِّب؟ فقال: وَيَحْك! أترغَّب في فُضالة المآكل، وثُمَالَة المَنَاهِل، واللِّباس المُستبدِّل، والوعاء المُستَعْمَل، والدَّوَاقِع المتطرِّفة والخَرَاجَة المُتَصَرِّفة، والوَقَاح المُتَسَلِّطَة، والمُحتَكِرَة المُتَسَخِّطَة. ثم كَلِمَتُها: كنتُ وصِرْتُ، وطالما بُغِيَ عليَّ فَنُصِرْتُ وشَتَّان بين اليوم والأمس، وأين القمرُ من الشمس! وإن كانت الحَنَانَة البُرُوك، والطَّمَاحَة الهَلُوك، فهي العُلُّ القَمِيل، والجُرح الذي لا يندَمِل.

قوله: المَراجِم، أي الذي ترجمه ويرجمك. حُبًّا: مكرراً وخديعة، ورجل حَبٍ: غاش فاجر. الأبيَّة العنان: الممتنعة القيادة. الإذعان: الخضوع والذلة الرُّندَة: ما ترنَّد منه النار. المتعسرة الاقتداح: التي يعسر إخراج النار منها القَلْعَة: الجحش والمكان المرتفع. عشرتها: صُحبَتها. صِلْفَة: مجاوزة حدَّ الطُّوق، وأصل الصِّلَف الإعراض عن الشيء كأنه إذا استقبلك أبديت له صَليْفَك، وهو صفحة عُثْقك، ودَأَلَتها: انبساطها، يريد انبساطها إذا أرادت أن تُدِلَّ عليك تتكلَّف ذلك. خَرْقَاء: لا تحسن العمل. صَمَاء: شديدة، كأنها لا

تسمع الثَّهْي والعُذْل. وفَتْنَتْهَا: شرها. خَشْنَاء: خَشِينَة صعبة. ليلاء: شديدة السَّواد طويلة. خِمَزَتْهَا: لبستها الخِمَار. غِشَاء: غطاء وسِتْر. فُضَالَة: بقية، وكذلك ثَمَالَة المنهل: موضع الماء. والنَّهْل: الشرب الأول. والدَّوْقَة المتطرفة، أي التي تذوق طَرَف الشيء وتتركه أو تذوق بطَرَفِ لسانها ثم تبصِّقُه، وتَطَرَّفَت الناقة: رَعَتْ بأطراف المرعى، ف يريد أنها لا تبقى على زوج واحد، إنما هي تذوق كلَّ زوج وتجرب لذة مباشرتهم، وقال رجل للنبي ﷺ: إني قد طَلَقْتُ زوجتي فقال النبي ﷺ: «إن الله لا يحب الذَّوَاقِينَ ولا الذَّوَاقَات»^(١). الخَرَاجَة: الكثيرة الخروج. المتصرفة: الجَوَالَة الوَقَاح: الصُّلْبَة الوجه التي ليس عندها حياة. المتسلطة: المستطيلة اللسان والمحتكرة: التي تُسْرِق رِزْق زوجها، ثم تحتكره، أي تدخره وترفعه، فإذا احتاج زوجها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكراً. كُنْتُ وصرت: تخاطب به زَوْجها أي كنت في نعمة مع الزوج الأول وأنا معك على شقاء بُغِي عليّ، أي اجتمع عليّ بالظلم، والبغي: الظلم. وشَتَان: بُعد. واليوم وأمس: الزوج الحاضر معها والزوج المفقود، وهو الذي أراد بالقمر والشمس، ويقال: شتان زيد وعمر وترفعهما بشتان، وتفتح نونها للالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال: شتان ما زيد وعمر، فتجعل ما صلة أو تنصيها على التمييز على حدِّ نَعَم رجلاً زيداً والتقدير: شتان شبيهاً زيد وعمر، وبرفعهما بشتان بمعنى بُعد شبيهاً زيد وعمر، ويجوز كسر نون شتان على أنها تنثية شت، وهو التفرق، وجمعه أشتان، ويقال: شتان ما بين زيد وعمر، فترفع «ما» بشتان على أنها بمعنى الذي، وبين صلَّتها، ولا يجوز كسر نون شتان لأنها اسم واحد، ومعنى هيهات بُعد الحثانة: صاحبة الولد الذي من غير الزوج الذي هي معه، فمتى رأَتْ ولدها حثت لوالده، والبروك: التي تتزوج ولها ولدٌ كبير، ويسمى ولدها الحويند. والطماحة الهلوك: هي التي فارقتها زوجها فتطمح له أبداً وتتهالك في محبَّته. وقيل: الطماحة التي تطمح إلى كلِّ شهوة، والهلوك الفاجرة. والغُلّ: الشَّرْك التي يُغَلُّ بها الأسير أي يربطها في عنقه ويديه. والقَمِيل: الذي كثرت فيه القمل ويضرب بالغُلّ القَمِيل المثل للمرأة السيئة الخلق. لا يندمل: لا يبرأ.

أبو موسى رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت عنده امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهاً، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم﴾ [النساء: ٥]، ورجل كان له على رجلٍ دَيْنٌ فلم يشهد عليه».

المقدمي: قال بعض الحكماء: أربعة أشياء يمنعُ النومَ والقَرَار: المرأة السوء، والولد الجاهل، والعشِير المخالف، والعبد اللئيم. قال الأصمعي: قال لي زائدة البندار: قيل لي بالشَّام: هل لك أن ترى العَجَب؟ فذهبتُ فإذا سبعة في شق، جدٌ وستة من ولده

وولد ولده، وإذا الجَدّ السابع أشب من الابن السابع، فسألت عنه فقيل: كان للجدّ امرأة مُوافقة وللابن السابع امرأة سَلِيطة.

وقال ﷺ: «أربعة لا يشبَعْنَ من أربعة: عَيْنٌ من نظر، وأَرْضٌ من مَطَر، وأنثى من ذكر، وعالم من علم».

قال الأصمعي: تزوّج رجل من عُذرة امرأة من بليّ حمقاء، فغاب عنها غيبةً ثم قدم عليها، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول: [الرجز]

ما مَسَّنِي بعدك مَنْ إنْسِي	غير غلامٍ واحدٍ جَعْدِي
ورجلٍ أحْمَق من بَلِي	ورَجُلَيْن من بني عَدِي
وتسعة كانوا مع المِطِي	وسبعة كانوا على الطَوِي
وخمسة وافوا مع العَشِي	من بين جَدِّي إلى مَكِي

* ومن تَهَامِي إلى نجدِي *

فقام إليها بالسوط فضربها، فاجتمع لذلك مَنْ حوله يلومونه، فقال: والله لولا ما قمتُ لضربها لَعَدَّت عليّ أهل عَرَفَات ومِنَى.

وقيل ليحيى المدني: ما الجرحُ الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم.

فقلت له: فهل تَرَى أنْ أترهَّب، وأَسْأَلَك هَذَا المَذْهَب؟ فانتَهَرَنِي انتَهَارَ المؤدَّب، عند زَلَّة المتأدَّب، ثم قال: ويلك! أتقتدي بالرهبان، والحقُّ قد اسْتَبَانَ! أَفْ لك وَلِوَهْنِ رَأْيِكَ، وتبّاً لك ولأولئك أتراك ما سمعت بأن لا رهبانية في الإسلام، أو ما حَدَّثت بمناكح نبيِّك عليه أذكى السلام. ثم أما تعلمُ أن القرينة الصالحة تَرُبُّ بيتك، وتلبّي صوتك وتغضّ طَرْفَكَ، وتُطَيِّب عَرْفَكَ، وبها تَرَى قُرّة عَيْنِكَ، وريحانة أنْفِكَ، وفرحة قَلْبِكَ، وخُلْد ذِكْرِكَ، وتعلّة يَوْمِكَ وغَدِكَ! فكيف رغبتَ عن سُنّة المرسلين، ومُتعة المتأهلين، وشِرْعة المُحْصَنِينَ ومجلبة المال والبَنِينَ: والله لقد ساءني فيك، مَا سَمِعْتُ مِنْ فيك. ثم أعرض إعراض المغضَّب، ونَزَا نَزَوَان العُنْطَب، فقلت له: قاتلك الله! أَتَنْطَلِقُ مُتَبَخِّرًا، وتَدْعُنِي متحيراً! فقال أظنك تدعي الحيرة، لِتَجْلِدَ عُمَيْرَةَ، وتَسْتَغْنِي عن المُهَيَّرَةِ. فقلت له: قَبِّحَ الله ظَنِّكَ، ولا أشبَّ قرنك. ثم رُحْتُ عنه مَرَّاح الخزيان، وثُبْتُ من مشاورة الصبيان.

قوله: أترهَّب، أي أترك التزويج، والترهّب ترك النساء، انتَهَرَنِي: زجرني وأخذني

بلسانه. زَلَّة: سقطة. استبان: ظهر. الأفّ وسخ الأذنين، والوهن: الضعف والخسران، ولأولئك، إشارة للرهبان. السّكن: الزوجة يُسكّن إليها تُرَبّ: تصلح. تلبّي: تجيب. تَغَضّ طرفك، أي تحصّنك وتمنّعك من نظر النساء. عَزَفك: ريحك الطيب، وقرة العين: ما يتمنى وتقرّ به العين.

ريحانة: شجرة طيبة الريح، وريحانة من صفة المرأة. قال عليّ رضي الله عنه في وصيته لابنه محمد ابن الحنفية: «لا تملُكن المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، وإن ذلك أدوم لحالها وأرضى لبالها» وما أحسن ما قال ابن اللبّانة يرثي أخت المرتضى صاحب مَيُورقة، ومات بعد أخيها: [الطويل]

أبنتُ العلا جدّدت منعي على منعي مضى المرتضى أصلاً وأتبعته فرعاً
جرى الموت جَرِيّ الرّيح في منبتكما فأذواكِ ريحاناً وكسّره نُبْعاً

تَعَلّة: أي تتعلّل وتتنفّع بما عندها من القيام بمؤنتك. ومُتعة: ما يمتّع به ويتلذذ. المتأهلين: المتزوجين الذين لهم أهل. شِرْعة: طريقة، المحصّنين: المتزوجين. نزا: وثب وارتفع. العُنْظُب: ذكر الجراد.

[الزواج والترغيب فيه]

ونذكر هنا فصلاً يليق بهذا الموضوع.

قال رسول الله ﷺ لعطاف بن وداعة الملاي: «يا عطاف ألك امرأة؟ قال: لا قال: فأنت إذاً من إخوان الشياطين، إن كُنْتُ من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت مِنّا فسئتُنا النكاح»^(١).

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ركعتان من المتأهل خير من اثنتين وثمانين ركعة من العزّب».

وقال ﷺ: «تزوجوا الولود الودود من النساء فإنني مكاثرٌ بكم الأمم»^(٢).

وقال ﷺ «النساء ثلاث: صِنْفٌ كالرّحى تحمِل وتَضَع، وصِنْفٌ كالعَرّ وهو الجَرَب، وصِنْفٌ ودود ولود تُعِين زوجها على إيمانه فهي خيرٌ له من الكنز»^(٣).

ابن عمرو رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «إذا أتى على أمّتي مائة وثلاثون سنة فقد حلّت لهم العزبة والترهب في رؤوس الجبال».

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٦٣/٥، وابن ماجه في النكاح باب ١، بلفظ: «النكاح من ستي».

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣، والنسائي في النكاح باب ١١، وأحمد في المسند ١٥٨/٣، ٢٤٥.

(٣) أخرجه البخاري في الشروط باب ١٥.

وقال ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»^(١).

وقال خالد بن صفوان لرجل: أتزوجت؟ قال: لا، قال: فتزوج، ثم قال بعد ساعة: لا تتزوج، فقال: لم؟ قال: إنك إن تزوجت واحدة فتظهر إن طهرت وتحيض إن حاضت وتغضب إن غضبت، فإن تزوجت بائنتين تقع بين صرتين، فإن تزوجت ثلاثاً تقع بين أثافٍ، وإن تزوجت بأربع يغلسنك ويهرمنك. قال: أفترحم ما أحل الله لك؟ قال: لا، ولكن كوزان وخماران وعباءة وقُرْصان.

وقال رجل: أردتُ النكاح فقلت: لأستشيرن أول من يطلع عليّ، فأعمل برأيه، فأول من طلع عليّ هبثقة القيسيّ الأحمق وتحتة قصبة، فقلت له: إني لأستشيرك في النكاح، فقال: البكر لك والثيب عليك، وذات الولد لا تقربها، واحذر جوادي لا ينفحك.

وقال رجل لولده: يا بني لا تتخذها حنّانة ولا أناة ولا مئانة ولا عشيبة الدار ولا كية القفا، فالحنّانة التي لها ولد من غيره فهي تحنّ إليه، والأناة: التي مات زوجها فهي إذا رأت الثاني أتت للأول وقالت: يرحم الله فلاناً، والمئانة التي لها مال، فهي تمنّ به على زوجها متى احتاج إليه، وعشيبة الدار: خضراء الدمن، وقد تقدّمت، وكية القفا: التي انصرف ابنها أو زوجها من بين القوم قال رجل قد كان بيني وبين أم هذا أو زوجته شيء.

وسئل أعرابي عن النساء، وكان ذا تجربة لهنّ فقال: أفضلهنّ أطولهنّ إذا قامت، وأكظمنّ إذا قعدت وأصدقهنّ إذا قالت، التي إذا غضبت حلمت وإذا ضحكت تبسمت، وإذا صنعت شيئاً جودت، التي تلزم بيتها ولا تعصي زوجها العزيرة في قومها، الدليلة في نفسها، الودود الولود، وكلّ أمرها محمود.

نظر خالد بن صفوان إلى جماعة في مسجد البصرة فقال: ما هذه الجماعة قالوا: امرأة تدلّ على النساء، فأتاها فقال لها: أبغي امرأة، قالت: فصفها، قال: أريدها بكراً كثيب، أو ثيباً كبير، خلوة من قريب، ضخمة من بعيد، كانت في نعمة، وأصابتها حاجة، ففيها أدب النعمة وذلة الحاجة، إذا اجتمعنا كنّا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة، قالت: قد أصبّتها لك، قال: فأين هي؟ قالت: في الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها.

[خالد بن صفوان والسفاح]

وقال خالد لأبي العباس السفّاح - وكانت عنده أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومي، وكان تزوّجها قبل الخلافة، وحلف ألا يتزوج عليها، ولا يتسرّى -: يا أمير

(١) أخرجه مسلم في الرضاع حديث ٥٩، وابن ماجه في النكاح باب ٥، وأحمد في المسند ١٦٦/٢.

المؤمنين، إني تفكرت في أمرك، مع سعة ملكك، وقد ملكتك امرأة واحدة، إن مرضت مرضت لمرضها، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ بالجواري ومعرفة جلالتهن، فإنّ منهنّ الطويلة العيّداء، والفضة البيضاء، والعقيقة الأذماء، والرقيقة السمراء، والبربرية العجزاء، يفتنّ بمحادثتهنّ. ونأتك عن بنات الأحرار والنظر إليهنّ، ولو رأت الطويلة البيضاء، والسمراء العيّناء، والبيضاء العجزاء، والمولدات من البصريّات والكوفيات ذوات الألسن العذبة والقودود المهفهفة، والأوساط المخضرة والأصداغ المزرنقة، والعيون المكحلة، والثديّ المحقّقة، وحسن زينتهنّ وشكلهنّ، لرأيت شكلاً حسناً، فقال له: ويحك يا خالد! ما سلك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعت منك. فانصرف وبقي أبو العباس متفكراً. فدخلت عليه أم سلمة فرأته، مغموماً فقالت له: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين، هل أتاك خبر فارتعت له؟ قال: لا، قال: فما قصّتك، فزوى وجهه عنها، فلم تزل به حتى أخبرها، قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال: سبحان الله! ينصحنني وتشتمينه! فخرجت مغضبة، وأرسلت إليه جماعة من العبيد، وبأيديهم مقامع من حديد، وأمرتهم ألا يتركوا من خالد عضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفت مسروراً لما رأيته من إعجابه بما ألقى عليه، ولم أشك أن صلتني ستأتي.

فإني لقاعد على باب داري، وإذا بالعبيد قد أقبلوا نحوي فلم أشك في الجائزة، فسألوا عني فقلت: أنا خالد، فأهوى أحدهم إليّ بهراوة فوثبت إلى منزلي، وعلمت أني أتيت من أم سلمة. وطلبني أبو العباس طلباً شديداً، وأنا مستخف، فهجم عليّ في الثالث، فقالوا: أجب أمير المؤمنين. فأيقنت بالموت، فدخلت عليه وليس في وجهي دم، فسلمت وجلست، وإذا خلف ظهري ستر خلفه حركة فقال لي: يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام؟ قلت: عليلاً، قال: إنك وصفت لي من أخبار النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي قط شيء أحسن منه، فأعذه عليّ، قلت: نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وإن أحدهم لم يكن عنده أكثر من واحدة إلا كان في جهد قال: ويحك لم يكن هذا في الحديث! قلت: بلى والله، وأعلمتك أن الثلاث من النساء كأنافيّ القدر يغلى عليهنّ. قال أبو العباس: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك في حديثك، قلت: وأخبرتكم أن الأربع شؤم مجتمع لصاحبهنّ، يسقمنه ويهرمنه ويشيبنه قال: والله ما سمعت هذا منك قط! قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين، قال: ويحك! وتكذبني! قلت: وتريد أن تقتلني! قال: مرّ في حديثك، قلت: وأخبرتكم أن أبكار النساء رجال ولكن لا خصى لهنّ، قال: وسمعت الضحك من وراء الستر، قلت: وأخبرتكم أن بني مخزوم ريحانة قريش وعندك ريحانة من الرياحين، وأنت تطمح إلى غيرها من الإمام! فقيل لي من وراء الستر: صدقت والله يا عمّاه وبررت، وبهذا حدثته، ولكنه غير وبدل. فقال لي أبو العباس: ما لك قاتلك الله وأخراك! وفعل وفعل! فتركته

وخرجت، فما شعرت إلا برسول أم سلمة، ومعهم عشرة آلاف درهم، وتخت وبرذون وغلام، فقبضتها.

وفي هذا الحديث المليح تعلق بما ذكر الحريري من مدح النساء وذمهن، وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه، وقد تقدم في الثالثة هذا الفن.

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيون: كيف علمك بأخوالي يا خالد؟ قال: يا أمير المؤمنين، هم هامة الشرف وعززين الكرم، وغرس الجود، وفيهم خصال ليست لغيرهم، إنهم لأصونهم أمًا، وأحسنهم أمًا، وأكرمهم شيمًا، وأطيبهم طعمًا، وأوفاهم ذممًا، وأبعدهم همًا، الجمرة في الحزب، والوقد عند الجذب، وهم الرأس في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العُجب. فقال: لقد وصفت يا بن صفوان فأحسنت، فزاد أخواله في الفخر، فغضب أبو العباس لأعمامه فقال: افخر يا خالد، فقال: أعلیٰ أخوال أمير المؤمنين؟ قال: فأين أنت من أعمامه! قال: كيف أفاخر قومًا هم بين ناسج بزذ وسائس قرد، ودابغ جلد، دلّ عليهم هدهد، وغرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة!.

ودخل خالد على أبي الجهم العدوي وهو يريد ركوب حمار، فقال خالد: أما علمت أن العير عار، وأن الجمار شنار، منكر الصوت، قبيح الفوت، مترنح في المخل، مرتطم في الوخل، ليس بركوبة فحل، ولا مطية رخل، راكبه مقرّف، ومسايه مشرف. فاستوحش العدوي من ركوبه، فركب فرسًا وركب خالد الحمار، فقال: ويحك يا خالد! أنتهى عن شيء وتأتي مثله! قال: أصلحك الله عير من بنات الكداد، أسحم السريال، مدمج الأوصال، محملج القوائم، يحمل الرحلة، ويبلغ العقبة، ويمنعني من أن أكون جباراً عنيداً، أو ملكاً شديداً، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين! ذلك لك، وهذا لي. فتبسم العدوي.

[مما قيل في وصف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تتبين بها أوصافهن، قال العدلي بن الفرخ: [الكامل]

لَعِبَ النِّسِيمَ بَهَنَ فِي أَظْلَالِهِ	حَتَّى لَبَسْنَ زَمَانَ عَيْشِ غَافِلٍ
يَأْخُذْنَ زِينَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا يُرَى	وَإِذَا عَطَّلْنَ فَهِنَّ غَيْرَ عَوَاطِلِ
وَإِذَا أَرَيْنَ خُدُودَهُنَّ أَرِيئَهَا	حَدَقَ الْمَهْيَ وَأَخَذْنَ سَهْمَ الْقَاتِلِ
وَرَمَيْنَنِي لَا يَسْتَتِرْنَ بِجَنَّةِ	إِلَّا الصُّبَا وَعَرَفْنَ أَيْنَ مِقَاتِلِي
وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ طَرْخَانَ: [الطويل]	
تَقْسَمَنَّ قَلْبًا كَانَ مَجْتَمِعَ الشَّمْلِ	وَفَرَّقْنَهُ بَيْنَ الْمَسَالِكِ وَالسُّبُلِ

زَرَعْنَ الهوى في القلب ثم سَقَيْنَهُ
رَمَيْنَ فلما أن أَصْبَنَ مقاتِلِي
وقال البحرِي: [الكامل]

لَمَّا مشِينَ بِذِي الأراك تشَابَهَتْ
في يَمْنَتِي جَبَرِ وِزْوَضٍ فالتقى
وَسَقَرْنَ فامتلاَّت عيونُ راقِها
ومتى يساعدا الوصالُ ودَهرنا
وقال التهامي: [الكامل]

ماتَتْ لفقدِ الطَّاعِنِينَ ديارُهُمْ
لا عيبَ فيهم غير شُخْ نَسائِهِمْ
طرقته في أترابِها فجَلَّتْ له
وأَنشد الأصمعي: [الطويل]

خُزاعِيَّةُ الأَطرافِ مُرِيَّةُ الحَشَى
لِها حُكْمُ لِقمانٍ وصورةُ يوسف
وقال الأسعد بن نبط: [الطويل]

غُلَامِيَّةٌ جَاءَتْ وقد جَعَلَ الدُّجَى
فقلت: أحاجيها بما في جفونها
محبِّرة العَيْنِينَ من غير سَكْرَةٍ
أرى صُفْرَةَ المِسْوَكَ من حُمْرة اللَّمَى
عَسَى قَدَحٌ قَبْلَتَهُ فإِخْالَهُ

صَبَابَاتِ ماءِ الشوقِ بالأغْنِ التَّجْلِ
تولَّيْنَ وانضَمَّتْ جِراحِي على التَّئْلِ

أعطافِ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ^(١)
وَشِيَانٍ: وَشِي رُبّاً وَوَشِي بُرُودِ
وردان: وَزْدُ جَسِيٍّ وَوزْدُ خَدُودِ
يومان: يوم منى ويوم صدود!

فكَأَنَّهُمْ كانوا لَهَا أَزْوَاحاً
وَمِنَ السَّماحةِ أن يَكُنَّ شَحاها
وهنا من الغرر الصُّباح صباحا

نِزارِيَّةُ العَيْنِينَ طائِيَّةُ الفَمِ
وَنُغْمَةُ دَاوُدَ وَعِقَّةُ مَرْيَمَ

لخاتمِ فيها فصَّ غانِيَةٍ خَطَا
وما بالشفاه اللُّغْسَ من حُسْنِهَا المعطَى
متى شربت الحَاطِ عَيْنِيكَ إِسْفَنْطَا
وشاربك المَخْضَرَّ بالمسكِ قد خُطَا
على الشفة اللَّمِيَاءِ قد جاء مُنْحَطَا

فتصور في البيتَيْن قبل هذا أحسنَ مقابلةً، وتصور في البيتَيْن من آخر هذه القطعة ثلاث تشبيهات شَبَّهَتْ بشيء واحد يتضمنها جميعاً.

وقال ابن شرف: [البيسط]

قامَتْ تجر ذِيُولَ العَصَبِ والحَبِرِ
تخطو فتولي الحِصَا من حَلِيها نُبْداً
تَلَفَّتَتْ عن طَلاَّ وَسَنانَ وابتسمتْ

ضعيفة الخَطُوطِ والمِشايقِ والتُّظَرِ
وتخلِطُ العنبرَ الوردِي بالْعَقَرِ
عن واضحٍ مثل نَوْزِ الرُّوضَةِ العَطرِ

(١) الأبيات في ديوان البحرِي ص ٦٩٨.

ليلاً سمرناه بين الضال والسمر
تساقط الدر في اللبآت والثغر

ما لذّ للعين نومٌ بعد ما ذكرت
تساقط الطل من فوق التحور به
وقال الرمادي : [البسيط]

لولا تالؤها في ليلهنّ عشوا
لأنها بضمير القلب تنخمش
لحسن هذا وذاك الرؤم والحبش
إذا تأملت إلا الطيف والفرش؟

شطت نواهم بشمس في هودجهم
شكت محاسنها عيني وقد عذرت
شغرت ووجه تباري في افتخارهما
شكت في سقي منها، أفي فرشي
ولبعض أصحابنا : [الكامل]

ورد الحجيح بها سقاية زمزم
بالزعفران وخدّها بالعندم
من ذيلها ولبست جلد الأرقم
لم تستحل دم المحبّ المسلم
للأجر فانقلبوا بكبر المائم
بجفونها ونجوا بسافكة الدم

سائل سقاة الحي عن نجدية
صفراء كالدينا رعل تريبها
لبست برود السابري فأفضلت
يا ليت شعري وهي أنسك ناسك
نبئت أن الظاعنين بها سفوا
سفكوا دماء الرائحين إلى متى

وهذا القدر في هذا الموضع كاف، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة في أوصاف النساء.

[ما جاء في الاستمنا]

قوله : لتجلد عميرة، يقال لهذا الفعل الخضضة والتدليك والاستمنا والاعتماد، واعتمر الرجل : جمع يديه وضّمهما لذلك، والإلطف للنساء مثل الخضضة للرجال، يقال منه : ألطف المرأة، وقال القتيبي بيتاً ما سمعناه على وجه الدهر [الطويل] :

فاضرب عميرة لا عاز ولا حرج

إذا مررت بواد لا أنيس به

آخر : [الكامل]

أصبخت أغني من يروح ويغتدي
فمطيتي رجلي وجاريتي يدي

بيدي ورجلي لا عدت كليهما
أمشي على هذي وأنكح هذه

آخر : [الرجز]

فلأنني يا بنّة آل مرثد

تسألني عن عتدي وعندي

* راحلتي رجلاي وامراتي يدي *

وقال أعرابي : [الرجز]

فإن عندي راحتي وريقي

إن تبخلي بالمركب المحلوق

أشهى من التصبيح والتغبيق

وذلكات لسن للتمزيق

وقال الخزامي: [المقارب]

وما كنت من شر خطاياها
سوى ريقة أتجرى بها
وبكراً إذا شئت أوتى بها
وعن ذكر سلمى وأترابها

خطبت إلى ساعدي راحتي
وما إن تكلّفت من مهرها
فإن شئت أوتى بها ثيباً
ونزّهت نفسي عن الغانيات

وقال الحسن: [الطويل]

فأنكح حسيباً راحة لابن ساعدي
لها ساحة حفت بخمس ولائد

إذا أنت أنكحت الكريمة كفوها
وقل بالرّفا ما نلت من وصل حرّة

وقال ابن الرقعمق: [مخلع البسيط]

معرّض بي إلى المنون
وليس يهدأ من الزّنين
لشقتي زوجتي يميني
خشيت والله تجلدوني
وخلّصوها وزوجوني

ومن بلائي أبو عمير
منتصباً ما ينام وقتاً
من يك ذا زوجة فإني
عميرة قد جلدت حتى
فراقبوا الله في يميني

وقال آخر يشتكي غلظ يده: [البسيط]

لكنه خشن أرى على السفين
وما ألاقي من الإملاق والحزن

لو أنها لذنة قضيت من وطري
أشكو إلى الله نعظاً قد منيت به

آخر: [مجزوء الوافر]

يظنّ سواه قد جرحاً
فعاد عليه ما اجترحاً
فتاة كان قذلمحاً
ولكن نفسه نكحاً

ومفتاب إذا نبحاً
ومن لم يدر لم يألّم
كناكح كفه ينوي
وما نكح الفتى أحداً

فنكاح الكف هو جلد العميرة.

قال ابن الأزهري: مررت على برذعة الموسوس، وقد أدخل يده في جيبه، وهو يخضخض، فضربته برجلي، فأنكشف، فإذا هو منعظ، فقلت: ما هذا؟ فقال: أما ترى تلك! وأشار بيده إلى جارية جميلة في علية متطلعة، فقال: إني دعوتها إلى نفسي فلما لم تجبني أجبتها، فقلت: قبّحك الله! ووليت عنه. فلم يلبث أن لحق بي،

وَقَالَ: قَضَيْتُ الْحَاجَةَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِكَ، ثُمَّ أَشْدُنِي: [الطويل]

أَتَكْرَهْتَ مَا عَايَنْتَ مِنْ كَفِّ دَالِكَ وهل يُنْكِرُ التَّدْلِيكَ فِي قَوْلِ مَالِكِ
لَقَدْ أَمِنَ الدَّلَالُكَ مَنْ أَنْ تَنَالَهُمْ حُدُودَ الزُّنَا فِي وَاضِحَاتِ الْمَسَالِكِ
وَإِنِّي قَدْ سَكَنْتَ عِزْمَةَ عَمَلْتِي بِحَسَنِ عَيُونِ وَالشَّدِيِّ الْعَوَاتِكِ

كذب على مالك والشافعي، وعامة العلماء يحرمون الاستمناء، وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٦].

الفنجديهي: وقد جاء في تحريم الخضخضة حديث مشهور، وسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم ولا يجمعهم مع العالمين، ويُذخِلهم النار مع الداخلين؛ إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومُدْمِن الخمر، والضَّارِب أبويه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره». وإِنَّمَا رُوِيَ الرِّخْصَةُ فِي ذَلِكَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ.

وروي عن ابن عباس أنه سئل عن الخَضْخَضَةِ فَقَالَ: نِكَاحُ الْأَمَةِ خَيْرٌ مِنْهَا وَهِيَ خَيْرٌ مِنَ الزَّانَا.

الأزهري: أبو عمير ذَكَرَ الرَّجُلَ.

الفنجديهي: سمعتُ الحافظ أبا العلاء يقول: الخضخضة على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل جائزة لمن استولت عليه الشهوة حتى خاف على نفسه إتيان الفواحش.
أبو الفرج محمد بن أبي جعفر الطائي بهمدان، قال: أنشدنا الإمام أبو المظفر المعاوي لنفسه، وكان من أروع الفضلاء وأزهدهم: [الطويل]

خَلِيلِي لَا بَغْدَادَ تَدْنُو فَتَنْقُضِي همومي ولا الريّ البغيضة تبعدُ
فَلَيْسَ مِنَ الْأَنْصَافِ وَالْعَدْلُ أَنْكُمْ تَنِيكُونَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ وَتُجَلِّدُ
وَتَرْضَوْنَ بِالْحَرَمَانِ لِلْفَيْشَةِ الَّتِي عَلَى غَضَبٍ بَاتَتْ تَقُومُ وَتَقَعْدُ
فَلَا تَحْسَبُوا جَلْدِي عُمِيرَةً وَصَمَةً عَلَيَّ فَقَدْ أَفْتَى بِهَا الشَّيْخُ أَحْمَدُ
وَلَوْ وَسَعَتْهَا رَاحَتِي لَاحْتَمَلْتُهَا فَمَا حِيلَتِي إِذْ ضَاقَ ذَرْعًا بِهَا الْيَدُ
وَذَكَرَ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ.

قال: وأنشدني إمام أهل اللغة أبو المعالي إسماعيل بن الحسن البديع لبعضهم: [مجزوء الرمل]

إِنَّمَا هُمِّي كَسَيَرَةٌ نَشَفَتْ مَاءَ قُدِيرَةٍ

وخميرة في ذكيره بُلغَتِي مِنْهَا سُكَيْرُهُ
وغلام أو فتاة قد كفي جلد عَمِيرُهُ
مَنْ رَأَى عَيْشِي هَذَا عاش لا يؤثر غَيْرُهُ

قال: وأنشدني البديع أيضاً لبعضهم: [مخلع البسيط]

يا سيدي نحن في زمان أبدلنا الله منه غَيْرُهُ
فكل ذي خِسةٍ وذُلٍّ مَتَّعَ بِالطَّيِّبَاتِ أَيْرُهُ
وكل ذي فطنةٍ وكَيْسٍ يجلد في بيته عَمِيرُهُ

قوله: أشبَّ قرنك: يُدْعَى بذلك للصبي أن يكبر وتطول قامته، كما تقول للصبي في ضد ذلك: لا كبرك الله. ويقال: شبَّ الصبي يشبُّ بكسر الشين شَبَاباً يفتح الشين وكسرهما، إذا طال ونما جسمه والصبي شاب، وأشبَّ الله قرنه، أي جعله شاباً أسود الذؤابة، والقرن الضفيرة، وهي الذؤابة وقيل: القرن جانب الرأس. المراح كالرواح. الخزيان: المهان والمستحي، وخزي يخزي خزيًا: أهين، وخزاية استحيا، فهو خزيان أي مستحي، وقوم خزايا.

وثبت من مشاورة الصبيان، قال عمر رضي الله عنه: خصلتان من علامة الجهل: مشاورة النساء والصبيان، واستكثام السر النساء والصبيان.

قال الحارث بن همام: فقلتُ له: أقسم بمن أثبت الأيك، أن الجدَل منك وإليك؛ فأعرب في الضحك، وطرب طربة المنهمك، ثم قال: العَقِ العسل، ولا تسَلْ، فأخذت أسهب في مدح الأدب، وأفضل ربّه على ذي الشَّشب، وهو ينظر إليّ نظر المستجهل، ويغضي عني إغضاء المتمهل. فلما أفرطت في العصبية، للعصبة الأديبة، قال لي: صه، واستمع مني وافقه: [المتقارب]

يَقُولُونَ إِنَّ جَمَالَ الْفَتَى وَزِينَتَهُ أَدَبُ رَاسِخُ
وما إن يزين سوى المكشرين ومن طود سودده شامخُ
وأما الفقير فخير له من الأدب القُرص والكامخُ
وأَيُّ جمالٍ أن يقال أديبٌ يعلم أو ناسخُ!

ثم قال: سيضع لك صدق لهجتي، واستنارة حجتني.

الأيك : شجر . الجدَل منك وإليك ، أي إنَّما كان هذا الخصام بينك وبين نفسك ، ولم يكن ثَمَّ صبي تحاوره ، أي أن حديثك مصنوع لا أصل له .

[الأخبار المصنوعة]

ومن مستعمل الأخبار المصنوعة ما يحكى أن حبيب بن أوس ، قال : لَقِينَا أعرابي ، وقد خرجتُ في أيام الواصل إلى سرَّ مَنْ رأى ، فقلت له : ممنَ ؟ قال : من بني عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال : قَتَلَ أرضاً عالمها ، قلت : ما تقول في أمير المؤمنين ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشجى العاصية ، وقَمَعَ العادية ، وعدل في الرعيَّة . قلت : فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد ؟ قال : هَضْبَةٌ لا ثرام ، وجبل لا يُضام ، تُشَحَذُ له المُدَى ، وتُنْصَبُ له الحبال ، حتى إذا قُيِدَ وثب وثبة الذئب ، وَخَتَلَ خَتَلَ الضَّب . قلت : فحمد بن عبد الملك ؟ قال : وسعَ الداني شره ، ووصل البعيد ضُرّه ، له في كل يوم صريع ، لا يُرَى فيه أثر نابٍ ، ولا تَدَبُّ مِخْلَب ، قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ قال : ذلك الرجل نُشِرَ بعد ما قُبِرَ ، فعليه حياة الأحياء ، وَخَفَتِ الموتى . قلت : فابن الخصب ؟ قال : أَكَلَ أَكَلَةٌ نَهَم ، وذرق ذرقةً بِشِم ، قلت : فأخوه إبراهيم ؟ قال : أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أياَن يُبْعَثُونَ ، قلت فأحمد بن إبراهيم ؟ قال : لله دَرَه ! أي رجل هو ! اتَّخَذَ الصَّبِرَ دثاراً ، والحق شعاراً ، وإن هَوَّنَ عليه يهَم ، قلت : فسلمان بن وهب ؟ قال : ذلك رجلُ السلطان ، وبهاء الديوان ، قلت : فأخوه الحسن ؟ قال : عُوْدٌ نضير ، غُرَسَ في منابت الكرم حتى إذا اهتز لهم خَصَدُوهُ ، قلت : فإبراهيم بن نجاح ؟ قال : ذلك رجلٌ أوثقه كرمه ، وأسلمه حسبه ، وله دعاء لا يُسلمه ، وربُّ لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه ، قلت : فنجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره أي طالبٍ وثِرٍ ومدركٍ ثار ! يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة في الأنام جلسة تزيل نعماً ، وتحلَّ نَقْماً ، قلت : يا أعرابي أين منزلك ؟ قال : اللهم غَفْراً إذا اشتمل الظلام ، ألتحف الليل ، فحيثما أدركني الرقاد رقدت ، ولا أخلق وَجْهِي بمسألتهم ؟ أما سمعت هذا الطائي يقول : [البسيط]

وما أبالي وخيرُ القوم أصدقه : حَقَنْتَ لي ماء وجهي أو حقَنْتَ دمي

فقلت له : أنا قاتل هذا الشعر ، قال : أثْنُكَ لأنْتَ الطائي ! قلت : نعم ، قال : لله أبوك ، أنت الذي تقول : [البسيط]

ما جودُ كَفْكَ إنْ جَادَتْ وإنْ بَخَلتَ من ماء وجهي إذا أخلقته عِوَضَ

قلت : نعم ، قال : أنت أشعر أهل زمانك .

ونُوي خبره إلى ابن أبي داود فأوصله إلى الواصل ، فأعطاه ألف دينار ، وأخذ له من أهل الدولة ما عَنِي به عَقِيْبُه بعده .

وهذا الخبر خرج عن أبي تمام، فإن كان صادقاً وما أراد، فقد أحسن الأعرابي الوصف، وإن كان صنعه فقد قَصُرَ إذ منزلته أكبر من هذا.

قوله: أغرب، أي أكثر الضحك حتى دمعث عيناه. المنهمك: المبالغ الطرب. العق العسل ولا تسَلْ، معناه إن طاب لك الكلام فاحفظه ولا تسَلْ عن صدقه ولا باطله، كما إذا وجدت العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نخله وقد قال فيما مضى: [المتقارب]

* ولا تسأل الشَّهَد عن نَخْلِهِ *

فهذا هو ذلك أسهب: أبالغ وأكثر. ذي النّشب: صاحب المال يغضي: يتغافل. المستجهل: الذي يحسبني جاهلاً. الممهّل: المؤخّر، وقد أمهله أي أخره. صه: معناه اسكت. القُرْص: الخبز، وتسمّى الخبزة قرصة؛ لأن الخابز يقرصها من العجين، أي يقطعها.

[الكامخ]

والكامخ: شيء يصنع من اللبن الحامض، وهو أنواع.

وقد قُدّم لأعرابيٍّ كامخ، فقال: ما هذا؟ قالوا: كامخ، فقال: قد علمت فأأيكم كامخ به؟ يقال: كامخ البعير إذا أخرج ثَلْطه رقيقاً.

وقُدّم لأعرابيَّين كامخ، فذاقه أحدهما، فلم يستطبه، فقال: هذا خراء، وذاقه الآخر فاستطابه، فقال: يوشك أن يكون خراء الأمير!

وقُدّم لأعرابيٍّ كامخ فلم يستطبه قال: ما هذا؟ قالوا كامخ، قال: ومن أي شيء صُنع هذا؟ قالوا: من الحِنْطَة واللّبن قال: أبوان كريمان: وما أنجبا.

وقُدّم لأعرابيٍّ كامخ، فلم يستطبه، وأكل منه شيئاً وخرج، ودخل المسجد والإمام في الصلاة يقرأ: ﴿حُزِمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، فقال الأعرابي: والكامخ لا تنسه أصلحك الله!

وقيل: هو طعام يؤتدّم به.

وقيل: هو البقل في الطعام مثل الكبر والزيتون والمريء والعناب إذا غلب طخاء الشحم على المعدة، أخذ الرُّجُلُ منه شيئاً، فانجلى عن معدته، وتنشّط للأكل.

وقال أعرابي يصف إبْطِيه بالتَّن: [الرجز]

كَأَن إِبْطِيَّ وَقَدْ طَالَ الْمَدَى نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَامِيخِ الْقُرَى

الأصمعي: قدم علينا أبو طَيِّبَة الأعرابي بعد ما خرج إلى البادية، وتفقه، فقلنا له: ما قولك في البيض؟ قال: حرام، فقلنا: ولم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا

حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ [الأنعام: ١٤٦] والدجاج عندي من ذوي الأظفار. قلنا: فما قولك في الكامخ؟ قال: حرام، قلنا: ولم؟ قال: لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]، والكامخ يتخذ من الفخار، فأظنُّ بينه وبين الجلد نسبة.

قوله: وافقه، معناه افهم. راسخ: ثابت. المكثرين: الأغنياء طود سؤدده: ارتفاع سيادته. والطود: الجبل. شامخ، أي ثابت مرتفع وقال النبي ﷺ «يأتي على الناس زمان من لم يكن معه فيه أصفر وأبيض لم يتمن العيش» - يعني الذهب والفضة.

وقال مهيار الديلمي: [المتقارب]

تشرف بحظ فإن الحظوظ	حُلَى كُلِّ ذِي نَسَبٍ يَفْضُلُ
وما الحظ في أدب مُفْصَحٍ	وَمِنْ دُونِهِ نَسَبٌ مُجْهَلُ
تُرَاضِي الفتى رتبة وهو حي	ث يَجْعَلُهُ مَالَهُ يُجْعَلُ

وقال ابن قاضي ميلة: [الكامل]

أسعد بجدك لا تكون أديباً	أو أن يرى فيك الورى تهذيباً
إن كنت مستوياً ففعلك كله	عوج، وإن أخطأت كنت مصيباً
كالنقش ليس يصح معنى ختمه	حتى يكون بناؤه مقلوباً

قوله: لهجتي، أي منطقي، وقيل: هي جرس الكلام، وقيل: هي طَرَف اللسان، وفلان فصيح اللهجة، وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادها ونشأ عليها. استنارة: ظهر نورها.

وسِرْنَا لا نَأْلُو جُهْدًا، ولا نستفيق جَهْدًا؛ حتَّى أَدَانَا السَّيْرُ، إلى قرية عَزَبَ عنها الْخَيْرُ، فدخلناها لللازتياد، وكِلَانَا مُنْفِضٌ مِنَ الزَّادِ؛ فما إِنْ بَلَّغْنَا الْمَحَطَّ، والمناخَ الْمُخْتَطَّ، أو لَقِينَا غَلامَ لم يبلُغ الْحِنْثَ وعلى عاتقه ضِغْث. فحيَّاه أبو زيد تحيةَ المُسْلِم، وسأله وَفَقَةَ الْمُفْهِم، فقال: وعمَّ تسأل وفقك الله؟ قال: أَيْبَاعُها هنا الرُّطْبُ بِالْخُطْبِ؟ قال: لا والله. قال: ولا الْبَلْحُ بِالْمَلْحِ؟ قال: كلا والله، قال. ولا الثَّمَرُ بِالسَّمَرِ؟ قال: هيهات والله. قال: ولا الْعَصَائِدُ بِالْقَصَائِدِ؟ قال: اسْكُثْ عافاك الله. قال: ولا الثَّرَائِدُ بِالْفَرَائِدِ؟ قال: أين يذهبُ بِكَ أَزْشَدَكَ اللهُ! قال: ولا الدَّقِيقُ بِالْمَعْنَى الدَّقِيقِ؟ قال: عَدَّ عن هذا أصلحك الله!.

نألو: نقصّر. جهداً: طاقة واجتهاداً. نستفيق جهداً: نستريح من المشقة أدانا:

أوصلنا. والقرية: في كلامهم: الموضع الذي يجتمع الناس فيه، وقَرِيتُ الماء في الحوض جمعته فيه. وعَرُبَ: بَعْدَ اللارتياد: لطلب ما يُؤكل مُنْفَض: فارغ، وأنْفَضَ: فني زأده ففَض مِرْزُودَه من الفئات. المحطّ: المنزل الذي تُحطّ فيه الأحمال. والمناخ: مثله في المعنى. والمُخْطَط: المُعْلَم عليه بخطّ، وكلّ موضع أردت حمايته ومنعه خَطَطْتُ عليه بخطّ، فمن رآه علم أنه محميّ فاجتنبه. الحنث: الإثم، أي لم يبلغ حدّ التكليف، وهو الحلم فيكتب عليه إثم. على عاتقه ضِغْث، أي على عنقه حزمة حشيش، والعاتق: ما بين المثكب والعنق، والضغْث قبضة من أخلاط النبات أو من قُضبان مختلفة المُفْهِم: المخبر المبين. أبيع هاهنا الرُطْبُ بالرُطْب؟ الرُطْب والبلح نوعان من الثمر. والسمر: السهر بالليل على الحديث. هيهات، أي بعد.

ابن عباس رضي الله عنهما: ما باع الدقيق برّ ولا فاجرٌ إلّا اصفّر لونه وقسا قلبه، ونزّعت الرّحمة من قلبه.

الفرائد: جواهر الكلام. أين يذهب بك: أين تتلف وتضل! ولذلك دعا له، فقال: أرشدك الله، أي هداك الطريق. عَدّ: كَفّ واضرف.

واستخلى أبو زيد تراجع السؤال والجواب، والتكاييل من هذا الجراب. ولمح الغلام أن الشوط بطين، والشيخ شويطين، فقال له: حسبك يا شيخ قد عرفت فنك، واستبنت أنك، فخذ الجواب صبرة، واكتف به خبرة؛ أمّا بهذا المكان فلا يشتري الشغُر بشعيرة، ولا النثر بُنْثارة، ولا القَصَصُ بقصاصة، ولا الرسالة بغسالة، ولا حِكْمُ لُقْمان بلُفْمة، ولا أخبار الملاحِمِ بلُخْمة. وأما جيلُ هذا الزمان، فما منهم من يَمِيع، إذا صَيَغَ لَهُ المَدِيح، ولا مَنْ يُجيز، إذا أنشِدَ له الأراجيز، ولا مَنْ يُغيث، إذا أَطْرَبَهُ الحَدِيث، ولا مَنْ يَمِير، ولو أنّه أمير وعندهم أن مثل الأديب، كالزّيع الجديب، إن لم تجدِ الرّبع ديمة، لم تكن له قيمة، ولا دأته بهيمة. وكذلك الأدب، إن لم يغضده نَشَب، فدرسه نَصَب، وحزّنه حَصَب. ثم انسَدَرَ يَغْدُو، وولّى يَخْدُو.

لمح: نظر. الشّوط: الطلق والجزي إلى الغاية: الأخفش الشّوط أن تأتي إلى موضع تريده، ثم ترجع وإن رجعت إليه مرّة أخرى، فذلك شوط آخر، ومن الحجر إلى الحجر شوط: وجزى الفرس شوطاً إذا بلغ مجراه ثم عاد. بطين: متّسع، ومعناه: علم أن كلام الشيخ كثير، ورجل بطين: عظيم البطن، وكيس بطين، أي ملآن، وأخذه من قول كعب بن زهير: [المقارب]

وَزَخَزَخْنَ بَيْنَ أَدَانِي الْغَضَى وَبَيْنَ عُنَيْزَةِ شَوَطَا بَطِينَا^(١)
 شُوَيْطِينَ، أي دويهة لا تقاوم، وتصغيره بمعنى التعظيم. حسبك: يكفيك. فذك:
 نوعك وطريقك. استبنت أنك، أي تحققت أنك داهية: ضبرة: أي جملة بغير كيل،
 وكُدُسُ القمح، وما يكال يُسَمَّى ضَبْرَةً. أكتف: اقتنع خبرة: اختبار النثر: ضد النظم مثل
 التراسل والخطب. والنثار: ما تناثر من الشيء، أي تفتت، تقول: نثرت الشيء أي رميت
 به مُفْتَرَقًا، واسم ما يتساقط منه النثارة. والقَصَص: أخبار المتقدمين. والفَصَاصَة: ما
 تساقط من الشعر إذا قُصَّ. والغُسَالَة: الماء الذي قد غُسل به بقية الطعام أو غير ذلك
 ويروى: «بفضالة»، مكان غسالة، والفضالة من الزرع إذا غُرِبَل تَبَقَّى في الغربال فتدرَس
 بعد ذلك، ويخرج ما فيها من الزُّرْع.

وَأُنْشِدُ الْفَنَجْدِيَّ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي: [الطويل]

عرضت على الخبَّاز نحوَ المبرِّدِ وكُتِبَ حِسَانًا لِلخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدِ
 ورؤيا ابن سيرينٍ وَخَطُّ مهلهلٍ وتجويد عمرٍ وَبَعْدُ فقه محمَدِ
 وأنشدته شعر الكَمِينِ وَجَزُولٍ وغُنَيْتُهُ لحنَ الغَرِيضِ وَمَغْبَدِ
 فما نفعني دون أن قلتُ هاكها مدوِّرة صُفْرًا تَطْنُ عَلَى اليَدِ
 وقال أخبرني أبو المحاسن بن أبي العلاء بن محمد الأديب، قال: أنشدني لنفسه
 أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب.

[لقمان عليه السلام]

قوله: ولا حكم لقمان بلقمة، في لقمان سبعة أقوال:
 قال قتادة: خيَّره الله بين النبوة والحكمة، فاختر الحكمة، فقدمها عليه جبريل،
 وهو نائم، فأصبح ينطق بالحكمة، فُسِّلَ عن ذلك، فقال: لو أرسل الله إليَّ النبوة عزيمة،
 لرجوت الفوز بها، ولكنه خيَّرني فخفت أن أضعف عن النبوة.
 وقيل: كان من النبوة قصيرا أفطس الأنف.
 وقيل: كان حبشيا.

سعيد بن المسيب: كان أسود من سُودان مصر، ذا مشفر، حكمته حكمة الأنبياء.

(١) يروى البيت:

ويصصن بين أداني الغضا وبين عنيزة شأوأ بطينا
 وهو لكعب بن زهير في ديوانه ص ١٠٢، ولزهير بن أبي سلمى في أساس البلاغة (بطن)، وليس في
 ديوانه وبلا نسبة في جهمرة اللغة ص ٣٦١، وتاج العروس (بصص)، (بطن)، ولسان العرب
 (بصص)، (بطن).

وقيل: كان خياطاً.

وقيل: كان راعياً؛ فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال: ألسنتَ عبد بني فلان كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى؟ قال: فما بلغ بك ما أرى، قال: وما يُعْجِبُكَ من أمري؟ قال: وطء الناس بساطك، وغشيهم بآبك؟ ورضاهم بقولك؟ قال: يا بن أخي، إن صنعتَ ما أقولُ لك كنتَ كذلك، قال: وما تُصْنَعُ؟ قال غَضُّ بصري، وكفُّ لساني، وعَقَّة طمعي، وحفظُ فَرْجِي، وقيامِي بعَهْدِي، ووفائي بوَعْدِي، وتكرمة ضيفي، وحفظ جاري؛ وترك ما لا يعنيني؛ فذلك الَّذِي صَيَّرَنِي كما ترى.

ويروى أنه قال: قَدَّرَ الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنيني.

أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «الحكمة تزيد الشريف شرفاً، وترفع المملوكَ حتى يجلسَ مجالس الملوك، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾» [لقمان: ١٢].

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبي المفسر: اتفق العلماء على أن لقمان كان حكيماً، ولم يكن نبياً، إلا عكرمة فإنه تفرد بأنه نبي.

ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حقاً أقول، لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً صَمُصَامَةً، كثير التفكير، حسن اليقين، أحبَّ الله فأحبه، ومنَّ الله عليه الحكمة».

وهب بن منبه: كان لقمانُ ابن أخت داود عليه السلام، وقيل: ابن خالته، وكان في زمنه، وكان داود يقول له: طوبى لك! أوتيت الحكمة، وصرفت عنك البلوى، وأوتي داودُ الخِلافةَ وبُليّ بالبليّة، وكان داود يَغْشَاهُ ويقول: انظروا إلى رجلٍ أوتي الحكمة، ووُفِّي الفتنه.

عبد الوارث: أوتي لقمانُ الحكمة في قالَةٍ قالها، فقيل: وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحق؟ فقال: إن تختر لي فسمعاً وطاعة، وإن تخيّرني أختار العافية فقيل: وما عليك أن تكون خليفة فتعمل بالحق؟ قال: فإن أعمل بالحق فبالحري أن أنجو، وإن أخطئ الحق أخطئ طريق الجنة، وإنه من يبيع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعاً، وأن أعيش حقيراً ذليلاً أحبُّ إليَّ من أن أعيش قوياً عزيزاً. فشكر الله تعالى مقالته، فغَطَّه في الحكمة غُطَّة فاضبَحَ وهو أحكم الناس.

وقيل: كان عبداً نجاراً فقال له سيِّده: اذبح شاةً وأتني بأطيب مُضْغَتَيْنِ، فأثابه بالقلب واللسان، ثم أمره بمثل ذلك، وأن يُخْرِجَ أخْبثَ مُضْغَتَيْنِ، فأخرج القلب واللسان، فقال له: ما هذا؟ فقال: ليس شيء أطيبُ منهما إذا طابا، ولا أخْبثُ منهما إذا خَبَّتَا.

وأما حكمته فقد ذكر الله تعالى منها في كتابه ما عُلِمَ، وذكر مالك في مُوطَّئِهِ منها كلاماً كثيراً، وذكر منها فصلاً في كتاب الجامع من الموطأ.

ومن حكمته: يا بني إنَّ الناس قد تَطاولَ عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سِرَاعاً يذهبون، وإنَّك قد استدبرت الدنيا منذ كنت، واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب من دارٍ تخرج منها. يا بني ليس غنى كَصِحَّة، ولا نعيمٌ كطيبِ نفس. يا بني لا تجالس الفُجَّار ولا تماشيهم؛ اتق أن ينزل عليهم عذابٌ من السَّماء فيصيبك معهم، وجالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله تعالى يُحيي القلوب الميِّتة بالعلم، كما يُحيي الأرض بوابل المطر.

أبو إسحاق الثعالبي بإسنادٍ له عن عكرمة. قال: كان لقمان من أهون ممالك سيِّده عليه، فبعثه مولاه مع عبيدٍ له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمرٍ فجاؤوه وما معهم شيء، وقد أكلوا الثمر، وأحالوا على لقمان، فقال لقمان لمولاه: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً، فاسقني، وإياهم ماء حميماً ثم أرسلنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيؤون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء، فعرف مولاه صدقه وكذبهم.

قال: وأوَّل ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه؛ فدخل مولاه المبرِّز فأطال فيه الجلوس، فناده لقمان: إنَّ طول الجلوس مع الحاجة ليَجْع منه الكبد، ويورث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويئى، قال: فخرج وكتب حكمته على باب الحُش.

قال: وسكر مولاه يوماً فخاطر قوماً أن يشرب ماءً بُحيرة، فلمَّا أفاق عَرَف ما وقع فيه، فدعا لقمان فقال له: لمثل هذا كنت اختبأتك، فقال لمولاه: أخرج أباريقك ثم اجمعهم؛ فلما اجتمعوا قال: على أيِّ شيء خاطرتموه؟ قالوا: على أن يشرب ماء هذه البُحيرة. قال: فإن لها موادَّ فاحبسوا عنها موادَّها، قالوا وكيف نستطيع ذلك! قال لقمان: كيف يستطيع هو أن يشربها ولها موادَّ!.

وأراد مولاه بيعه. فقال: يا مولاي إن لي عليك حقاً فلا تبغني إلا ممَّن أحبَّ، قال: لك ذلك، فكان الرَّجل إذا جاء يستامه قال: لأيِّ شيء تريدني؟ فقال أحدهم: تحفظ عليَّ بابي. قال: اشترني، فلما جنَّ الليل أغلق الباب، وقام يصلي في الدهليز. وكان لبنات الرجل أخلاءً فجاؤوا فضربوا الباب، فقلن: يا لقمان، افتح الباب، فقال: بأبي أنتن وأمي! ليس لهذا اشتراني أبوكن، فضرِبته ضرباً كِذَن أن يأتين منه على نفسه، فلما أصبح لم يخبر أباهن، فلما كانت الليلة الثانية عاودنه بمثل ذلك، فلما أصبح لم يخبر أباهن، فلما كانت الليلة الثالثة عاودنه بمثل ذلك. فلما أصبح لم يخبر أباهن فأقبل بعضهن على بعض فقلن: ما جعل الله هذا العبد الأسود أولى بهذا الخير منا، قال: فنسكن نسكاً لم يكن في بني إسرائيل أفضلُ منهم.

عبد الله بن دينار، قال: قَدِم لقمان من سفرٍ، فاستقبله غلام له في الطريق، فقال له

لقمان: ما فعل أبي؟ قال: مات، قال: الحمد لله ملككُ أمري، قال: ما فعلت أمي؟ قال: ماتت، قال الحمد لله، ذهب همي. قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال الحمد لله جدُّ فراشي، قال: ما فعلت ابنتي؟ قال ماتت، قال: الحمد لله سُرَّتْ عورتِي، قال: ما فعل ابني؟ قال مات، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، انقطع ظهري!.

وقيل له: ما أقبح وجهك! قال: أتعب عليّ هذا النَّقْشُ أم على النقاش!.

وقال النبي ﷺ: «سادة السودان أربعة: لقمان والنجاشي وبلال ومهجع».

وتمَّ لقمانُ آخر وهو لقمان بن عاد، وهو تذكره العرب في أخبارها، وكان أيضاً حكيماً، وكانت له أخت محمّقة فقالت لامرأته: هذه ليلة طهوري، فهبي لي ليلتك، طمعاً في أن تعلق من أخيها ينجيب، ففعلت فولدت لُقَيْمَ بن لقمان، وفيه يقول النَّمِر بن تولب: [المقارب]

لُقَيْمُ بن لقمانَ من أُخْتِهِ فكان ابنَ أُخْتٍ له وإِنَّمَا^(١)

وقال المسيّب يذكره: [الكامل]

أَنْتَ الرَّئِيسُ إِذَا هُمْ نَزَلُوا وتَوَاجَهُوا كَالْأَسَدِ وَالنَّمِرِ
ولأَنْتَ أَبَيْنَ حِينَ تَنْطِقُ مِنْ لقمانَ لَمَاعِي بِالْفَكْرِ

وقالت بنت عثمان بن وثيمة ترثي أباه: [مجزوء الكامل]

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ الثَّلَا دَلَّنا وَكَفَيْنا الْعَظِيمَةَ
وَالدَّفْعُ الْخَصْمَ الْأَلَّ دَ إِذَا تَفَوَّضَ فِي الْخَصُومَةِ
بِلِسَانِ لُقْمَانَ بْنِ عَا دَوْضَلْ خُطْبَتَهُ الْحَكِيمَةَ
أَجْمَتَهُمْ بَعْدَ التَّجَا دُبُ وَالْتَدَفَعَ فِي الْحُكُومَةِ

قوله الملاحم: مواضع الحروب التي تَلْتَجِمُ فيها الجموع، وتختلط عند القتال وتسمّى أخبار الوقائع والحروب ملاجِم. جيلك: أهل عصرك. الأوان: الحين والعصر. يميح: يعطي معروفًا؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء، والمائح: النازل في قَعْرِ البئر، يخرج ماءها، وقد ماح الماء، إذا استقاه. صيغ: صنِع. يُجِيزُ: يُعْطِي الجائزة. يُغِيثُ: يتكرّم ويوجد، وهو من الغيث. يَمِير: يُعْطِي الميرة، والميرة: الطعام المجلوب. والرَّبْع: المنزل. الجديد: الذي لا يمطر، ديمة: مَطَر دائم. دانت: قاربت. يعضّده:

(١) البيت في ديوان النمر بن تولب ص ٣٨٣، والبيان والتبيين ١/ ١٨٤، وتخليص الشواهد ص ٢١٣، ٢٢٢، والحيوان ١/ ٢٢، ولسان العرب (حمق)، (قلم)، والمقاصد النحوية ١/ ٥٧٥، وهو بلا نسبة في سمط الآلي ص ٧٤٣.

يقوّيه. تَشَبَّ: مال نَصَب: تعب. حزيه: أهله، والحَصَب: وهو الحطب الملقى في النار، وكلّ ما تطعمه النار فهو حَصَب، وهو من حَصَبْتُهُ بالحصباء، أي رميته بها، ائْسَدَرَ: جرى وانصبّ في جريه، وانسدر البازي، إذا انحطّ. يَغْدُو: يسرع. يحدو: يتابع الجري، وكل شيء اتبعته فقد حَدَوْتُهُ.

فقال لي أبو زيد: أعلِمت أنّ الأدب قد بَارَ، وولت أنصاره الأذبار؛ فبؤث له بحُسنِ البصيرة، وسلّمتُ بحكم الضرورة، فقال دَغْنَا الآن من المِصَاع، وخُضْ في حديث القِصَاع، واعلم أنّ الأسجَاع، لا تُشيعُ مَنْ جَاع؛ فما التدبير فيما يُمسكُ الرَّمَق، ويُطفئ الحَرَق؟ فقلت: الأمرُ إليك، والزّمام بيدك، فقال: أرى أن ترهنَ سيفك، لتُشيع جوفَكَ وضيْفَكَ، فناولنيهِ وأقم، لأنقلب إليك بما تَلْتَمِمْ.

فأحسنت به الظنّ، وقلدته السَّيْفَ والرَّهْن، فما لبث أن ركب النّاقة. ورفض الصّدق والصّدّاقة؛ فمكثتُ ملياً أترقبُهُ، ثم نهضت أتعبُهُ؛ فكنتُ كمن ضيَع اللّبن في الصَّيْف، ولم ألقه ولا السَّيْف.

بَارَ: هَلَكَ. ومنه بار الطعام؛ إذا كسد، وفي الحديث: «نعوذ بالله من بَوَرِ الأيِّم»^(١)، أي من كسادها، وقال الله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، أي لن تَكْسَد، وقال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي هالكين. قال الفراء: البور يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع بلفظ واحد، أبو عبيدة رحمه الله: هو جمع بائر كعائذ وعوذ، ويدلّ على صحة قول الفراء قوله ابن الزُّبَيْرِ: [الخفيف]

يا رسول المليك إنّ لسانِي راتق ما فتقْتُ إذ أنا بُورٌ^(٢)

بؤث: رجعت. البصيرة: اليقين والاعتماد الصحيح، المِصَاع: مراجعة الكلام. والمِصَاع في الأصل: القتال والدفاع وكلّ ما عانيته بشدّة وجدّ فقد ماصعته، القِصَاع في الأصل: صحاف الطعام، الأسجَاع: الكلام المفقر. الرَّمَق: بقية النفس. والحَرَق: جمع حُرقة، وأراد بطفء الحَرَق تسكين ألم الجوع، ما لبث: ما أقام ولا استقرّ. رَفَضَ:

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١/١٦١.

(٢) البيت لعبد الله بن الزبير السهمي في ديوانه ص ٣٦، ولسان العرب (بور)، والمخصص ٣/٤٨، ٧/٣٠، ٣١، ١٤/٣٣، ومقاييس اللغة ١/٣١٦، ولعبد الله بن راحة في ديوانه ص ٩٥، ولأحد الاثنين في تاج العروس (بور)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٣٠، وتهذيب اللغة ١٥/٢٦٧.

ترك. الصدق: قول الحق، والصداقة: الصحبة، مكثت ملياً: أقمت زماناً. أترقبه: أنتظر مجيئه. أتعقبه: أمشي في أثره وأطلبه.

[قصة المثل: ضيع اللبن في الصيف]

وضيَع اللبن في الصيف، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره، ثم تعرَّض لاستدراكه بعد فوته، قاله عمرو بن عُدَس التميمي، وكان تزوّج دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة - وكان شيخاً مُسنّاً ذا مال كثير - فأبغضته بسببِ كِبَرِهِ وسألته طلاقها، فطلقها وتزوجها عمير بن مَعْبِد بن زُرارة - وكان شاباً معدّماً - فبينما هو معها جالس إذ مرّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل لكثرتها، فقال لها عمير: ابعني إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة، فأرسلت إليه رسولاً بذلك، فقال لرسولها قل لها: الصَّيْفُ ضَيَّعَ اللبن، فلما بلغها ذلك ضربت على كتف ابن عمها، وقالت: هذا ومذقه خير، ف يريد أنه طلقها في الصَّيْف فضاع لبنها في ذلك الوقت، وقال في الدرة: خَصَّ الصَّيْف بالذِّكر لأنها كانت سألته الطَّلاق فيه، فكانها يومئذ ضيَّعت اللبن. والله أعلم.

المقامة الرابعة والأربعون

وتعرف بالشتوية

حَكَى الحارثُ بن همام قال: عَشَوْتُ فِي لَيْلَةٍ دَاجِيَةِ الظُّلَمِ، فَاجِمَةِ اللَّمَمِ، إِلَى نَارٍ تُضَرِّمُ عَلَى عِلَمٍ، وَتُخْبِرُ عَنْ كَرَمٍ، وَكَانَتْ لَيْلَةً جَوْهَا مَقْرُورٌ وَجَنِبُهَا مَزْرُورٌ، وَنَجْمُهَا مَغْمُومٌ، وَغَيْمُهَا مَزْكُومٌ وَأَنَا فِيهَا أَصْرَدُ مِنْ عَيْنِ الْخُرْبَاءِ، وَالْعِزْرِ الْجُرْبَاءِ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْصُ عَنَسِي، وَأَقُولُ: طُوبَى لَكَ وَلِنَفْسِي، إِلَى أَنْ تَبْصُرَ الْمَوْقِدَ الْكِيَّ، وَتَبَيَّنَ إِرْقَالِي، فَانْحَدَرَ يَغْدُو الْجَمْزَى، وَيُنْشِدُ مُرْتَجِزاً!.

دَاجِيَةٌ وَفَاحِمَةٌ: شَدِيدَةُ السَّوَادِ. وَاللَّمَمُ: جَمْعُ لِمَةٍ، وَهِيَ جُمَّةُ الشَّعْرِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِالْمَنْكَبِ، أَيْ قَارِبَتِهِ. وَجَعَلَ لِلَّيْلَةِ لِمَةً مَجَازاً، وَهُوَ يَرِيدُ شِدَّةَ سَوَادِهَا، تُضَرِّمُ: تَوْقِدُ. عِلَمٌ: جَبَلٌ. جَوْهَا: نَاحِيَةُ سَمَائِهَا. مَقْرُورٌ: بَارِدٌ. وَأَرَادَ أَنْ مَا يَجِيءُ مِنْ جَوْهَا مِنَ الرِّيحِ وَالْهَوَاءِ بَارِدٌ جَدًّا. مَزْرُورٌ: مَشْدُودٌ بِالْأَزْزَارِ، وَهِيَ أَطْوَاقُ الثِّيَابِ، وَهَذَا يَكُونُ فِي طَوْقِ الصَّغِيرِ يُشَقُّ فِي صَدْرِ الثَّوبِ عَوْضاً عَنِ الْجَيْبِ، وَيَتْرَكُ مِنَ الطَّوْقِ طَرْفَانِ عَلَى ذَلِكَ الشَّقِّ، فَإِذَا لَبَسَ الثَّوبَ شَدَّ الطَّرْفَيْنِ، فَيَقَالُ عِنْدَ ذَلِكَ: قَدْ زَرَرْتُ الثَّوبَ، يَرِيدُ أَنْ السَّحَابَ قَدْ تَكَاثَفَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَلَا تَبْصُرُ الْعَيْنُ فِيهَا لَشِدَّةَ ظِلَامِهَا، لِأَنَّ الثَّوبَ إِذَا شَدَدْتَ أَزْرَارَهُ، لَمْ يَجِدْ رَأْسَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ، فَلَمَّا جَعَلَ لَلَّيْلَةِ ثَوْباً مِنَ الظَّلَامِ وَالسَّحَابِ جَعَلَهُ مَرْبُوطاً مَشْدُوداً مَغْمُوماً مُسْتَوِراً، غَيْمِهَا: سَحَابُهَا، مَرْكُومٌ، أَيْ مُتَرَكَبٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، أَنْصُ عَنَسِي، أَيْ أَجْهَدُ نَاقَتِي وَأَتَعَبُهَا، وَالتَّصَّ رَفَعَ السَّيْرَ، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا كُنْتُ قَائِلَةً لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَارِضَكَ بِبَعْضِ الْفُلُواتِ نَاصَةً قَلُوصاً مِنْ مَنَهْلٍ إِلَى آخِرٍ، وَمِنْهُ نَصَّ الْحَدِيثُ إِلَى فُلَانٍ، أَيْ رَفَعَهُ إِلَى شَخْصٍ. وَإِرْقَالِي: سُرْعَتِي. يَغْدُو: يُسْرِعُ. الْجَمْزَى: عَدُوٌّ شَدِيدٌ. [الرَّجَز]

هَدَاهُ بِلْ أَهْدَاهُ ضَوْءُ النَّارِ	حُيَيْثُ مِنْ خَابِطِ لَيْلِ سَارِي
مُرْحَبٍ بِالطَّارِقِ الْمُمْتَارِ	إِلَى رَحِيبِ الْبَاعِ رَحْبِ الدَّارِ
لَيْسَ بِمَزُورٍ عَنِ الزُّوَارِ	تَرْحَابَ جَعْدِ الْكَفِّ بِالذِّينَارِ
إِذَا اقْشَعَرَّتْ تُرَبُّ الْأَقْطَارِ	وَلَا بِمَعْتَامِ الْقَرَى مِثْخَارِ

وضنّت الأنواء بالأمطار فهو على بُوس الزمان الضاري
جَم الرُماد مُزَهَفُ الشَّفَار لم يَخُلْ في ليلٍ ولا نَهَارِ
* من نَحَرَ وَاِرٍ واقْتَدَحَ وَاِرِي *

قوله: ساري، أي آتٍ بالليل. والخابط: الماشي على غير علم بالطريق. هده، من الهدية. وأهداه، من الهدية. رحيب الباع: كثير البر. واسع العطاء: واسع البر. والزحِب: المتسع. مَزَحَبٌ؛ يقول: مرحباً بك. والطَّارِق: الآتي بالليل. الممْتَار: طالب الميرة، وهي الطعام يُجَلَب من بلد إلى بلد. جعد الكف، هو البخيل أي يرحب بالضيف كما يرحب البخيل بالدينار إذا وقع في كفه.

نظر أعرابي إلى درهم في يد رجل، وأدام النظر إليه، فقال له الرجل: لو كان لك ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر عهده باليد.

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم في يده يخاطبه ويقول له: أنت عَقْلِي وديني وصلاتي وصيامي وجامع شملي وقرّة عيني وأنسي، وقوتي وعُدَّتِي وعمادي ثم يقول له: [السريع]

أهلاً وسهلاً بك من زائرٍ كنتُ إلى وجهك مشتاقاً

ثم يقول: يا نورَ عيني وحبیب قلبي، قد صرّت إلى من يصونك، ويعرف قدرك، ويُعظّم حقّك، ويراعي قيمتك، ويشفق عليك، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظّم الأقدار وتعمّر الديار، وتفتضّ بك الأبقار، وتسمو على الأشراف، وترفع الذكر، وتعلي القدر وتؤنس من الوحشة، ثم يطرحه في الكيس، ويقول: [الطويل]

بنفسي محجوبٌ عن العين شخصه ومَن ليس يخلو من لساني ولا قلبي
ومَن ذكره حظي من الناس كلهم وأوّل حظي منه في البعد والقربِ

مُزَوَّر: منقبض. معتام: مؤخر مبطىء. والقرى: طعام الضيف، معناه أنه لا يؤخر طعامه، ويقال: أعتَم بابلُه إذا أخر حَلَبها، ومنه العَتَمَة لتأخر وقتها. مثخار: كثير التأخر. اقشعرت: انقبضت من شدة البرد.

تُرب: جمع تربة وهي وجه الأرض. والأقطار: البلاد والنواحي. ضنّت الأنواء: بخلت النجوم. وكانوا يستمطرون بها. بؤس: شدة. الضاري: المعتاد، أي الذي عادته ألا يكون فيه غير بؤس. جَم: كثير، وإذا كثر الرماد كان عن كثرة النار، وكثرة ما يُطبخ عليها، مرهف: قاطع. اقتداح: ضرب بالزند. وَاِر: بغير سمين، ووريّ المعخ: اكتنز فهو وَاِر، ووريّ الزند فهو وَاِر، أي مبد للنار.

ثُمَّ تَلْقَانِي بِمَحِيَّاتٍ حَيَّيْ، وَصَافِحَنِي بِرَاحَةِ أَرِيحَيْ، وَاقْتَادَنِي إِلَى بَيْتِ عِشَارِهِ تَحُورُ،
وَأَعْشَارُهُ تَقُورُ، وَوَلَائِدُهُ تَمُورُ، وَمَوَائِدُهُ تَدُورُ، وَبَأْكَسَارِهِ أَضْيَافٌ قَدْ جَلَبَتْهُمْ جَالِيِي، وَقُلَّبُوا
فِي قَالِيِي، وَهُمْ يَجْتَنُّونَ فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ، وَيَمْرَحُونَ مَرَحَ ذِي الْقَتَاءِ، فَأَخَذْتُ مَأْخَذَهُمْ فِي
الاضْطِلَاءِ، وَوَجَدْتُ بِهِمْ وَجْدَ الثَّمَلِ بِالطَّلَاءِ.

مُحِيَّاتٌ: وَجْه. صَافِحَنِي: وَاجِهَنِي وَقَابَلَنِي. بَرَاةٌ: بِكَفٍ. أَرِيحَيْ: كَرِيمٌ يَهْتَزُّ
لِلكَرَمِ. اقْتَادَنِي: سَاقَنِي. وَلَائِدُهُ: حَدَمُهُ. تَمُورُ: تَسِيرُ وَتَخْتَلِفُ. بِالطَّعَامِ مَوَائِدُهُ: جَمْعُ
مَائِدَةٍ.

أَبُو عَبِيدٍ: سُمِّيَتْ مَائِدَةٌ لِأَنَّهَا مِيدَ بِهَا صَاحِبُهَا، أَيْ أُعْطِيَهَا وَتُفَضَّلُ عَلَيْهِ بِهَا وَالْعَرَبُ
تَقُولُ: مَادَنِي فَلَانٌ يَمِيدُنِي، إِذَا أَحْسَنَ إِلَيَّ، فَكَأَنَّ الْمَائِدَةَ تَمِيدُ مِنْ حَوَالِيهَا مِمَّا أُخْضِرَ
عَلَيْهَا، قَالَ رُوَيْبَةُ: [الرجز]

* إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَمْتَاذِ ^(١) *

أَيُّ الْمُسْتَعْطَى غَيْرُهُ، سَمِيَتْ مَائِدَةٌ لِأَنَّهَا تَمِيدُ بِهَا عَلَيْهَا، أَيْ تَتَحَرَّكُ، وَمَادَ الْغَصْنَ
يَمِيدٌ: مَالٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ رَوَاسِيًّ أَنْ تَمِيدَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، الْجَزْمِيُّ
يَقَالُ: مَائِدَةٌ وَمِيدَةٌ وَأَنْشُدُ: [الرجز]

وَمِيدَةٌ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ تُصْنَعُ لِلْإِخْوَانِ وَالْجِيرَانِ ^(٢)

وَذَكَرَ الْقَوْلِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي دُرَةِ الْغَوَاصِ وَزَادَ أَنَّهُ لَا يَقَالُ لَهَا مَائِدَةٌ إِلَّا أَنْ يُخْضَرَ
عَلَيْهَا طَعَامٌ، وَإِلَّا فَهِيَ خِوَانٌ، وَاسْتَدَلَّ بِأَنَّ الْخَوَارِيثِينَ لَمَّا اقْتَرَحُوا عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةٌ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا.

قَالَ: وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: غَدَوْتُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى زِيَارَةِ صَدِيقٍ لِي، فَلَقِينِي أَبُو
عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا أَصْمَعِيُّ؟ فَقُلْتُ: إِلَى صَدِيقٍ لِي، فَقَالَ: إِنْ كَانَ
لِفَائِدَةٍ أَوْ لِعَائِدَةٍ أَوْ لِمَائِدَةٍ، وَإِلَّا فَلَا، وَهَذَا بَابٌ يَتَسَعُّ كَثِيرًا، وَسَأَسُوقُ جُمْلَةً تَأْتِي عَلَى
أَكْثَرِهِ.

[الكرم وقرى الضيف]

وهذه الحالة التي وصف من إيقاد النار هي التي كان يفعل حاتم، وكان إذا اشتدَّ

(١) الرجز في ديوان رُوَيْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ ص ٤٠، وَلِسَانُ الْعَرَبِ (مِيدَ)، وَتَهْذِيبُ اللُّغَةِ ٢١٩/١٤، وَتَاجُ
الْعُرُوسِ (مِيدَ).

(٢) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (مِيدَ)، وَتَاجُ الْعُرُوسِ (مِيدَ)، وَتَهْذِيبُ اللُّغَةِ ٢١٩/١٤.

البرد وكَلَب الشتاء أمر غلامه، فأوقد ناراً في يفاعٍ من الأرض، لينظر إليها مِنْ أَضَلِّ الطريق ليلاً فيهتدي إليها، وقال في ذلك: [الرجز]

أوقد فإنَّ الليلَ ليلٌ قَرٌّ والريحُ يا موقدَ ريحٍ صِرٌّ^(١)
عَلَّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ إن جلبت ضيفاً فانتَ حُرٌّ
ولا بن هَرمة في هذا أشعار مُستَحسنة منها: [الكامل]

أغشى الطريق بقبّتي ورواقها وأحلُّ في قُللِ الرُّبا وأقيم^(٢)
إنَّ امرأَ جعلَ الطَّريقَ لبيته طُئباً وأنكر حقّه للثيم
وقال مهيار: [الكامل]

صَرَبُوا بمذَرَجَةِ الطَّريقِ قِبَابَهُمْ يَتَقَارِعُونَ على قَرى الضُّيفان
ويكاد مُوقدها يَجُود بنفسه حُبَّ القَرى - حَطَباً على النُّيران
ولا بن هَرمة أيضاً: [الطويل]

ومستنبح تستكشط الرِّيح ثوبه ليسقط عنه وهو بالرَّمْلِ مُغصم^(٣)
عَوَى في سواد اللّيل بعد اغتساقه لِيُثْبَحَ كَلْبٌ أو لِيَفْزَعَ نُوْمٌ
فجاوبه مُستَسْمِع الصُّوتَ للقرى له عند إتيان الملبين مَطْعَمٌ
يكاد إذا ما أبصر الضيفَ مقبلاً يكلّمه من حُبّه وهو أعجم
وقال بعض المحدثين: [الكامل]

ويدل ضيفي في الظلَامِ على القَرى إشراقُ ناري أو تُباح كلابي
حتى إذا واجهنه ولقيئته حيئنّه ببصائص الأذئاب
وتكاد من عِرْزان ما عودته من ذاك أن يُفصِّحن بالتّرحابِ
ولا بن هَرمة في ذلك أيضاً: [البسيط]

كيف احتيالي لبسط الضيف من حَصَرٍ عند الطعام فقد ضاقت به جِيلي^(٤)
أخاف تردد قولِي: «كل» فأقطعه والسَّكْتُ ينزله منّي على البَحْلِ
وقال حاتم: [الطويل]

سَلي الطَّارِقَ الممتارَ يا أمَّ مالِكٍ إذا ما اعتراني بين قِذري ومَجْزَري^(٥)

(١) الرجز في ديوان حاتم الطائي ص ٦٠. (٢) البيتان في ديوان ابن هَرمة ص ١٩٤.

(٣) ديوان ابن هَرمة ص ٤٩. (٤) ديوان ابن هَرمة ص ١٨٢.

(٥) البيتان ليسا في ديوان حاتم الطائي، وهما لعروة بن الورد في ديوانه ص ٧٣.

أَيْسِفِر وجهي إنه أَوَّل القِرَى
وقال أيضاً: [الطويل]

أما وَالَّذِي لا يَعْرِفُ السَّرَّ غَيْرُهُ
لقد كنت أختار القِرَى طاوي الحشى
وإني لأستحيي يميني وبيئتها
وقال أيضاً: [الطويل]

أَكْفُ يَدِي من أن تنالَ التماسَها
أبيتُ هُضيمَ الكشحِ مضطرمَ الحشى
وإني لأستحيي رفيقي أن يَرَى
وإنك إن أعطيتَ بَطْنَكَ سؤله
وقال أبو زياد الأعرابي: [الوافر]

له نارٌ تُشَبَّ على يفاع
فلم يكُ أَكثَرَ الفتيانِ مالا
وقال آخر: [البسيط]

لَعَلَّ عاراً إذا ضيفَ تأوِّبني
جُهدَ المُقِلِّ إذا أعطاك نائله
وقال آخر: [البسيط]

تركت ضائني تودَ الذئبِ راعيها
الذئبِ يطرُقُها في الدهرِ واحدة
وقال آخر: [البسيط]

وسَّعَ بمدك ماء اللحمِ تقسيمه
وسَّعَ به وتلفَّت نحو حاضِره
وَأَكْثَرُ الشُّوبِ إن لم يكثُر اللَّبَنُ
إنَّ الكريمَ الَّذِي لم يخله الفطنُ

(١) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ٨٧، والبيت الأول في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٧١٥، ولسان العرب (رمم)، والبيت الثاني في لسان العرب (قوا)، وتاج العروس (قوي).

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ٦٩، والبيت الأول في أمالي القالي ٣١٨/٢، والدرر ٣/١٤٤، وشرح شواهد المغني ٧٤٤/٢، والبيت الثالث في أساس البلاغة (قرع)، والبيت الرابع في الجنى الداني ص ٦١٠، وخزانة الأدب ٢٧/٩، والدرر ٧١/٥، وشرح شواهد المغني ص ٧٤٤.

وقال الغنوي: [الطويل]

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ
أَحَدُهُ إِنْ الْحَدِيثُ مِنَ الْقِرَى

وقال آخر: [الطويل]

وَأَنَا لَمْشَاوُونَ بَيْنَ رَحَالِنَا
فَذُو الْحَلَمِ مَثًا جَاهِلٌ دُونَ ضَيْفِهِ

وقال آخر: [الطويل]

سَأَقْدَحُ مِنْ قِذْرِي نَصِيبًا لِحَارَتِي
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُشْرِكْ رَفِيقَكَ فِي الَّذِي

ولبعض أصحابنا: [الطويل]

وَسَارٍ تَحْلَى أَنْجَمَ اللَّيْلِ زِينَةً
رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَأَنْسَ ضَوْءَهَا
أَتَانَا فَحْيَانَا فَكَانَ جَوَابُهُ
وَمَا أَنَا مِنْ سَوَالِهِ مَتْنِ الْفَتَى
فَدَاكَ الَّذِي أَوْدَى بِمَا اكْتَسَبَتْ يَدِي

[مما قيل في البخل]

وقال آخر في ضد ما قلناه: [الوافر]

أَرَانِي مِنْ بَنِي حَكَمٍ غَرِيبًا
أَنْأَسَ يَأْكُلُونَ اللَّحْمَ دُونِي
الْقَتْرُ وَالْقَطَرُ: الْجَانِبُ.

وقال آخر: [مجزوء الرمل]

مَاتَ فِي غُرْسٍ سُلَيْمًا
مَاتَ أَقْوَامٌ وَقَوْمٌ
لَمْ يَكُنْ يَوْجَدُ فِيهِ الْخَبْزُ

آخر: [الطويل]

وَمَا تُنْسِنِي الْأَيَّامَ لَا أَنْسَ جَوْعَنَا
ظَلَلْنَا كَأَنَّا بَيْنَهُمْ أَهْلُ مَاتِمٍ
بِدَارِ بَنِي بَذْرِ وَطَوَّلَ التَّلْدُدُ
عَلَى مَيِّتٍ مُسْتَوْدَعٍ بَطْنٌ مَلْحَدٍ

يحدث بعض بعضنا عن مصابه ويأمر بعض بعضنا بالتجلد

وفي هذا طرف من قول الآخر: [الطويل]

إذا ما عراكم حادث فتحدثوا فإن حديث القوم يُنسي المصائب

وأهل الحزن يستعملون الحديث اشتغالاً عن المصيبة.

وقال بشار: [البسيط]

أبناء عمرو لفي خفيض وفي دعة وفي عطاءٍ لعمري غير ممثوع

وضيف عمرو وعمرو ساهران معاً عمرو لبطنته والضيف للجوع

وآخر: [البسيط]

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة حتى نزلت على قوم بميسان

قوم إذا حل ضيف بين أظهرهم لم يُنزّلوه ودلّوه على الخان

آخر:

والناس في فطرٍ سوى شهرهم ودهر أضيافك شهر الصيام

آخر:

كتبت له صيفاً فظنّ بأنني كتبت له صيفاً فقام إلى السيف

فقلتُ خيراً فظنّ بأنني ذكرتُ له خبزاً فمات من الخوف

وإن ابن هرمة ألأم الناس مع ادّعائه في شعره الكرم، قال رجل: أتيناها في جماعة من قريش أحبينا أن يتنزه عندنا، ومشينا بزادٍ كثير فخرج علينا، وقال: ما جاء بكم؟ قلنا: شعرك حيث قلت: إن امرأ جعل الطريق لبيته...، وقولك أيضاً [الكامل]

وإذا تنوّر راكباً مستنبح نَبَحَتْ فدلّثه عليّ كلابي

وعوّنَ يستعجله فلقينه يَضْرِبُهُ بِسُرايِفِ الأذنان

وسمعناك تقول: [المنسرَح]

كم ناقةٍ قد وجأت منحرها بمستهلّ الشؤبوب أو جَمَلٍ

لا أمتِع العودَ بالفصال ولا ابتاعَ إلا قريبةً الأجل

فنظر إلينا وقال: ما على وجه الأرض عصبٌ أسخفُ عقولاً منكم، أما سمعتم قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦] في الشعراء، والله أني لأقول ما لا أفعل، وأنتم تريدون أن أفعل ما أقول، والله لا أغضب ربّي في رضاكم، فضحكنا منه وأخرجناه معنا يتنزه حتى فني الزاد.

أتى الحطيثة رجلٌ وهو في غنمه، وقال: يا صاحب الغنم، سلام عليك فرفع

الحُطَيْيئة العصا، وقال: إنها عَجْرَاء من سَلَم، فقال الرجل: إني ضَيْف، فقال: للضيفان أعددتُها، فأعاد السَّلام، فقال: إن شئتَ قمتَ بها إليك.

ومرَّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته، فقال: السَّلام عليكم، فقال: قد قلتَ ما لا ينكر.

وقال: خرجت من أهلي بغير زاد، قال: ما ضمنتُ لأهلك قراك، قال: أفتأذن لي أن آتي ظلَّ بيتك؟ قال: دونك الجبل يفيء عليك، قال: أنا ابن حمامة، قال: انصرف وكن ابن أيِّ طائرٍ شئت. يروى هذا عن أبي الأسود الدؤلي.

ونزل الغضبانُ بن القَبْعَثري خارج كِرمان وهي قرية كثيرة الرَّمضاء، فضرب قَبْته، فورد عليه أعرابيٌّ، من بكر، فقال: السَّلام عليك، قال: السَّلام عليك كثير، وهي كلمة مقولة، قال الأعرابيُّ: ما اسمك؟ قال: آخذ، قال أو تعطي؟ قال: ما أحبُّ أن يكون لي اسمان، قال: ومن أين جئت؟ قال: من الدَّلُول، قال: وأين تريد؟ قال: أرضنا أمشي في مناكبها، قال: ومن عُرض اليوم؟ قال آل فرعون على النَّار، قال: فمن بُشِّر؟ قال: الصَّابرون، قال: فمن غَلَب؟ قال: حزب الله قال: أفقرض؟ قال: إنما تقرض الفأرة، قال: أفتُسمع قال: إنما تُسمع القينة، قال: أئنشد؟ قال: إنما تُنشد الضَّالة، قال: أفتقول؟ قال: إنما يقول الأمير، قال: أفتسجّع؟ قال: إنما تسجع الحمامة، قال: أفتنطق؟ قال: كتاب الله ينطق، قال: إنك لمنكر، قال: إني لمعروف، قال: ذلك أريد. قال: وما إرادتك؟ قال: الدُّخُول عليك، قال: وراءك أوسع، قال: قد أضرتني الشَّمس، قال: الساعة يأتيك الفَيء، قال: الرَّمضاء أحرقت قدمي، قال: بُلْ عليهما تبرداً، قال قد أوجعني الحرُّ، قال: ليس لي عليه سلطان، قال: إني لا أريد طعامك ولا شرابك، قال: أتعرضُ بهما؟ والله لا تذوقهما عندي، قال: سبحان الله! قال: قبل كَوْنك، قال: ما أرى عندك: قال: هراوة أرزن، أدقُّ بها رأسك. فتركه وانصرف.

الأصمعيُّ: عدلت أعرابية أباهما في إتلاف ماله، فقالت: يا أبت، حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه للسؤال، وقد أتلفت التلاد، وبقيت ترقب ما بأيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه يوشك أن يقع فيما يضرُّه، أخذه ابن المعتز فقال: [السرّيع]

يا ربَّ جودٍ جرَّ فقر امرئٍ فقام للناس مقامَ الدَّلِيلِ
فاشدُّ عُرًا مالك واستبقه فالبخل خيرٌ من سؤال البخيلِ

وقال بعض البخلاء: [الكامل]

أغدذتُ للأضياف كلباً ضارباً عندي وفضل هراوة من أرزنِ
ومعاذراً كذباً ووجهاً باسراً وتشكياً عضَّ الزمان الألزنِ

الألزن: المضيق.

محمد بن الجهم: ودذتْ أَنْ عَشْرَةً من الفقهاء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الأدباء، تواطؤوا على ذمي حتى ينتشر ذلك عنهم في الآفاق، فلا يمتدّ إلى أمل آمل، ولا ينبسطُ نحوي رجاء لراج.

وكان يقول: مَنْ وَهَبَ في عملِهِ فهو مخدوع، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو أحمق، ومن وَهَبَ في جوائز سلطانه، أو عمل لم يتعب فيه فهو مخدول، ومن وَهَبَ من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه، المختوم على سمعه وبصره.

وقال: مَنْع الجميع، أَرْضَى للجميع، وهذا كقول الأصمعي! لو قسمت في الناس ألف ألف لكان أكثر للأئمة من لو أخذتها منهم، قالوا: ولم يُرد البخل؟ ولكن إذا تعذر عليه أن يعمّ فلا يخصّ.

وقال آخر: قول «لا» يدفع البلاء وقوله «نعم» يزيل النعم.

دعبل كَثَا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع، فدعا بغداده، فإذا بصحفة فيها مَرَقٌ ولحم ديك، قد هَرَمَ، لا تحزّ فيه سكين ولا يؤثر فيه ضرس، فأخذ قطعة من خبز فتلع بها جميع المرق، وفقد الرأس فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام وقال: أبْنِ الرأس؟ قال: رميتُ به. قال: ولم؟ قال: لم أظنك تأكله، قال: ولم ظننتُ ذلك؟ فوالله إنّي لأمقت مَنْ يرمي برجله فضلاً عن رأسه، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل في الصفاء، فيقال: شراب مثل عين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، فإن كان بَلَغَ من جهلك أنني لا آكله، فإنْ عندنا من يأكله، انظر أين هو؟ قال: والله لا أدري أين رميت به، قال: لكنني والله أدري، رميتُ به في بطنك.

ولسهل هذا رسالة مدح فيها البخل وفَضَّله على السخاء، ليرى في ذلك بلاغته، وأهداها إلى الحسن بن سهل في وزارته للمأمون فوقع عليها: لقد مدحت ما ذمّه الله، وحسنت ما قُبِحَ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معنك، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها، وتناذب فيها بأدبك. ولم يعطه شيئاً.

وقيل: إنّ الذي أهدى إليه كتاب ألفه، مدح فيه البخل، وذمّ الجود فوقع عليه بما تقدم، قال دعبل: [البيسط]

صَدَّقَ أَلَيْتَهُ إِنْ قَالَ مَجْتَهِداً لا والرغيفِ فذاك البرُّ من قَسَمِهِ
فَإِنْ هَمَمْتَ بِهِ فَافْتِكْ بِخُبْرَتِهِ فَإِنْ مَوَّعَهَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ
قَدْ كَانَ يَعْجِبُنِي لَوْ أَنَّ غَيْرَتَهُ عَلَى جُرَادِقِهِ كَانَتْ عَلَى حُرْمِهِ

أبو نواس في البؤبؤ الزنديق: [السريع]

لَقِيتُ فِي آلِ زِيَادِ فَنَى يَلْقَبُ الْبُؤْبُؤَ حُلُوَ ظَرِيفُ

ينزل للضيف بنياته
وإن في النّيك لمستمعاً
آخر: [مجزوء الكامل]

صيانة منه لعرض الرغيف
عند اعتياض الخبز للمستضيف

أما الرغيف لدى الخوا
ما إن يُحسّ ولا يمسّ
فتراه أخضر يابساً
آخر: [الوافر]

ن فمن حمامات الحرّم
ولا يذاق ولا يُشَمّ
بالي الثّقوش من الهرم

أبو نوح دخلت عليه يوماً
وقدم بيئاً لهما سميناً
فلما أن رفعت يدي سقاني
فكان كمن سقى الظمآن آلاً

فغدّاني برائحة الطّعام
أكلناه على طبّق الكلام
كووساً خمّرها ريح المدام
وكنت كمن تغدّي في المنام

وقال في أبي نوح أيضاً: [مجزوء الرمل]
لأبي نوح رغيف
فهو تخميه مدى الدهر
وله كاتب صدق
فسيكفيكم الله
آخر: [مجزوء الكامل]

أبدأ في ججر دايّة
ربكم ووقايّة
خطّ فيه بعنايه
إلى آخر الآيّة

استبق وذا أبي الممقا
سيان كسر رغيفه
فارفق بكسر رغيفه
وتراه من خوف الثّزو
آخر: [الطويل]

تل حين تأكل من طعامه
أو كسر عظم من عظامه
إن كنت ترغب في كلامه
ل به يروّع في منامه

خان عهديّ عمرو وما خئت عهده
ليس لي مذ حيت ذنب إليه
آخر: [المقارب]

وجفاني وما تغيرت بغده
غير أنّي يوماً تغديت عنده

أبو جعفر رجل عالم
تخوف نخمة أضيافه

بما يصلح المعدة الفاسدة
فعودهم أكلة واحدة

أبو نواس : [الوافر]

فَتَى لَرغيفِهِ قُرْطٌ وَشَنْفٌ
ودون رغيفه قلعُ الثنايا
وإن كُسِرَ الرُّغيفُ بَكَى عليه

آخر : [الوافر]

رغيف أبي عليّ حلّ خوفاً
إذا كسروا رغيفَ أبي عليّ

آخر : [الخفيف]

إنّ هذا الفتى يصون رغيفاً
هو في قفتين من آدم الطا
في جراب في جوف تابوت موسى

ابن بسام : [المتقارب]

أنا بخبزٍ له يابس
إذا ما تنفّست عند الخوان

وقال عباس الخياط : [السريع]

رغيفُ النّجم لمن رامه
كأنه في جوف مرآته
وقلّسه الأمل الذي قد مضى

آخر : [الوافر]

رغيف في الحجال عليه قفلٌ
رأى في بيته يوماً رغيفاً

اعتلّ أبو هقان في منزل ابن أبي طاهر فأبطؤوا عليه بالغداء فقال : [مجزوء الرمل]

أنا في منزلٍ خلّ
رجلٌ أعمار من منز
ليس لي أكل سوى لحم

ولجحظة يهجو رجلاً : [الكامل]

لا تعدلونني إن هجرت طعمه

ولؤلؤتان من خرزٍ وشذّر
وحربٌ مثل وقعة يوم بدر
بكا الخنساء إذ فُجِعت بصخر

من الأضياف منزلة السّماكِ
بكى يَبكي بُكاءَ فهو باكٍ

ما إليه لناظرٍ من سبيلٍ
ثف في سلّتين في منديلٍ
والمفاتيح عند ميكائيلٍ

كمثل الدرّاهم في خلقته
تطّير في البيت من خفته

يُرى ولا يُطمعُ في لمسهِ
يَبْدُ ولا يُطمعُ في جسهِ
بل أمسه أوجدُ من قلّسهِ

وخزانٌ وأبوابٌ منيعه
فقال لضيّفه هذا وديعه

مشفق بي ورفيقي
له ظهر الطريق
حي وشربٌ غير ريفي

خوفاً على نفسي من المأكول

فمتى أَكَلْتُ قَتَلْتَهُ من بخله
وله أيضاً يذم بخيلاً: [المتقارب]

تَبَرَّم إِذْ جِئْتَهُ لِّلْسَلام
فقلت له: لا يَرُغَكَ الدُّخُولُ
وأبدى لِي الكُرةَ لَمَّا دَخَلْتُ
فوالله ما جِئْتُ إِلا أَكَلْتُ
أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصولي: [الطويل]

لنا إِبِلٌ كَوْمٌ يَضِيقُ بِهَا الْقَضَا
وتفتَرُّ عنها أَرْضُها وسماؤُها
فمن دونها أَنْ تَسْتَبَاحَ دِماؤُنا
وَمِنْ دوننا أَنْ تُسْتَدَمَّ دِماؤُها
جَمَى وَقَرَى فالَموتُ دُونَ مَرَامِها
وأهونُ خَطْبٍ في الحقوقِ بناؤُها
وقوله: [الخفيف]

لا تَلومِي فَإِنَّ هَمْلِكَ أَنْ تُثْ
هَمِي وهَمِي مكارم الأخلاقِ
كَيْفَ يَسْتَطِيعُ حَفْظُ ما جَمَعْتَ كَفَا
هَمْنٌ ذاقَ لَذَّةَ الإِنْفِفاقِ
وقوله: [الكامل]

تَلْجُ الضُّيُوفُ بِيُوتِهِمْ وَتَرَى لَهَا
عن جارِ بَيْتِهِمْ أَزْوارَ مَنائِبِ
وتراهم بِسِيفِهِمْ وَشَفارِهِمْ
مستشرفين لِرَاغِبٍ أو راهِبِ
حَامِينَ أو قارينَ حَيْثُ لَقِيَتَهُمْ
نَهَبَ العَفَاةَ وَنَهَزَةَ لِلرَّاغِبِ

وجلس هارون بن محمد بن الزيات في مجلس عبد الله بن سليمان، فجعل هارون
يُنشد من شعر أبيه محاسنه، فقال له ابن برد الخباز: إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم:
[الرملي]

أَسَدٌ ضارٍ إِذا ما هَجَّتْهُ
وَأَبٌ بَرٌّ إِذا ما قَدَّرَا
يَعْرِفُ الأَبْعَدَ إِذا أَثَرَى ولا
يَعْرِفُ الأَدْنَى إِذا ما افْتَقَرَا

أو مثل قوله: «تلج الضيوف» البيتين فاذكُرهُ وفاخرَ به، وإلا فأقلِّل من الفخار
والتطاوُل بما لا طائل فيه، فحجل هارون. وإبراهيم هذا أشعر الكتاب بلا خلاف.

[مما قيل في القدور]

وذكر الحريري القدور، وممن وصفها فأحسن الفرزدق حين قال: [الطويل]

وقد علم الجيران أَنَّ قُدُورَنا
ضَوا مَنُ لِلأرزاقِ والريحِ زَفْزَفُ^(١)
تُفَرِّغُ في شِيزي كأَنَّ جَفانَهُم
حِياضُ المَلَأَ مِنْها مِلاءً وَنُصَفُ

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٥٦٠.

ترى حولهنّ المعتفين كأنّهم على صنمٍ في الجاهليّة عُكّف
وقال أمية بن أبي الصلت: [مجزوء الكامل]

وكأنّها بفنائها للضيف مترعة زواخر^(١)
وكأنّهنّ بما شحن وما حمين به ضرائر
زبد وقرقرة كقر وقال النابغة في مثله: [الطويل]

له بفناء البيت سؤداء فحمة تلقم أعضاء الجزور العراعر^(٢)
بقية قدر من قدور تُورثت لآل جلاح كابرأ بعد كابر
يظلّ الإماء يبتدرن قديحها كما ابتدرت سعد مياة قراقر
- قديحها: مرقها لأنه يقدح، أي يؤخذ بالمقدحة، وهي المغرفة - وقال آخر:
[الطويل]

وسوداء لا تكسي الرقاع نبيلة لها عند قرّات العشيات أزمّل
إذا ما قرّناه قراها تضمّنت قري من عرانا أو تزيد فتفضّل
وقال مسكين الدارمي: [الوافر]

كأنّ قدور قومي كلّ يوم قبابُ الثرك ملبّسة الجلال
بأيديهم مغارف من حديد أشبهها مقيرة الدوالي
الدالية: الحطارة.

وفي ضدّ ذلك لأبي نواس: [الطويل]
رأيت قدور الناس تبلى على الصلّى وقدر الرقاشيين بيضاء كالبدّر
يضيّق بحيزوم البعوضة صدرها ويُخرّج ما فيها على طرف الظفر

(١) يروى صدر البيت الأول:

فقدوره بفنائها

وهو في ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣١، ولسان العرب (زخر)، وتاج العروس (زخر).

(٢) يروى صدر البيت الأول:

له بفناء البيت جوفاء جونة

والأبيات في ديوان النابغة الذبياني ص ١٧٥، والبيت الأول في مقاييس اللغة ٣٧/٤، وكتاب الجيم ٣٠٣/٢، والبيت الثاني في لسان العرب (قدح)، (طبق)، وتاج العروس (قدح). والبيت الثالث في التنبيه والإيضاح ٢٦٢/١، وتهذيب اللغة ٣٢/٤، وأساس البلاغة (قدح)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٦٨/٥.

إذا ما تنادَوْا للرجيلِ سَعَى بِهَا
وقال الفرزدق: [البسيط]

لو أن قِذراً بَكَثَ من طول ما جَهَشَتْ
ما مَسَّهَا دَسَمٌ مذ فضَّ معدنُها
على الجفوف بَكَتِ قِذْرُ ابنِ عَمَّارٍ
ولا رَأَتْ بعدَ نارِ القين من نارٍ
وتسمَّى النار فاكهة الشتاء لما يُجْتَنَى من تسخينها:
وقد أحسن ابن قتادة في وصفها حيث قال: [الكامل]

هَاتِ الَّتِي لِأَيِّكَ أَصْلٌ ولَا دِهَا
يَتَقَشَّعُ الياقوتُ من لَبَّائِهَا
ولها جبينُ السُّنَمِ في الأَشْمَاسِ
أُنْسُ الوحيدِ وصبح عين المجتلي
يُوسَّسُ وَشَّاسٌ تُشْفِي من الوسواسِ
حمرَاءَ تَرْفُلُ في السواد كأنها
ولباس مَنْ أَمْسَى بغير لباسٍ
ضَرَبَتْ بَعْرَاقَ من بني العَبَّاسِ
وقال آخر: [الخفيف]

لَابِنَةُ الزُّنْدِ في الكوانين جَمْرٌ
خَبَّرُونِي عنها ولا تكذبوني
كَالذَّارَارِي في اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ
سبكت فحمها سبائك تبرٍ
أَلَدِيهَا صِنَاعَةُ الكِيمِيَاءِ
كُلَّمَا وَلَوُ النُّسِيمُ عليها
رَضَعْتُهَا بِالْفِضَّةِ البِيضَاءِ
سَفَرْتُ عن جبينها فآرَتُنَا
رَقِصْتُ في غِلَالَةِ حَمَرَاءِ
لَوْ تَرَانَا من حَوْلِهَا قَلْتُ شِرْبٌ
حَاجَبَ الشَّمْسِ طَالِعاً في العِشَاءِ
يَتَعَاطَرُونَ أَكْوَوسُ الصُّهْبَاءِ
وقال الفقيه الأديب ابن لبَّال رحمه الله: [السريع]

فحم ذكث في حشاه نارٌ
أَوْ خَذَ مَنْ قَدْ هَوَيْتُ لَمَّا
فَقَلْتُ مَسْكٌ وَجَلَّأَرُ
وقال البحرّي يصف كانوناً: [المقارب]

وذي أربع لا يطيق النهر
تَحْمِلُهُ سَبْجاً أَسوداً
ضَ لا يَأْلِفُ السَّيْرَ فيمن سَرَى^(١)
فَيَقْلِبُهُ ذَهَباً أَحْمَراً

قوله: قَلَّبُوا في قلبي، أي هم أمثالي لأن قالب الشيء كل ما يجعل فيه ليحيى مثله وقَلَّبُوا: جَعَلُوا في القالب. يمرحون: ينشطون ويضطربون. ذوي الفتاء: أهل الفتوة. والفتاء: الحداثة والشباب، يقال منه: فتؤ فتأ فتاءً، ويقال أيضاً: بكر فتى بين الفتاء،

وفتي من الناس: بين الفتوة، والفتى والفتية: الشاب والشابة. الاصطلاء: التسخن بالنار، التَّمْل: السكران، والطلاء: الخمر، وأصل الطلاء الرّبّ الثّخين الأسود، فسميت الخمر الصافية طلاءً بضد صفتها، كما سُمّي اللديغ سليماً، والأسود أبا البيضاء، والذئب أبا جعدة، وجعدة اسم الشاة.

* * *

ولما أن سرى الحَصْر، وانسرى الحَصْر، أتينا بموائد كالهالاتِ دوراً، والروضات نوراً، وقد شُحِنَ بأطعمة اللوائم، وحُمِن من العائب واللائم، فرفضنا ما قيل في البطنة، ورأينا الإمعان فيها من الفِطنة، حتى إذا اكتلنا بصاع الحُطَم، وأشفينا على خطر التُّخم، تعاوَرنا مشوش الغمر، ثم تبوأنا مقاعد السمر، وأخذ كل واحد منا يشول بلسانه، وينشر ما في صَوّانه، ما عدا شيخاً مشتبهاً فوداه مخلولقاً بُزّاه؛ فإنه رُبّ حَجَرَة، وأوسَعنا هَجَرَة، فغاطنا تجنّبه، الملتبس موجب، المعذور فيه مؤنّب، إلا أنا ألنا له القول، وخشينا في المسألة العول، وكلما رُمنا أن يفيض كما فضنا، أو يفيض فيما أفضنا أعرض إعراض العلية الأذلين، وتلا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]. ثم كأن الحمية حاجته، والنفس الأبية ناجته، فدلف، وازدلف، وخلع الصّلف، وبذل أن يتلافى ما سلف، ثم استرعى سَمْع السّامِر. واندفع كالسيل الهامِر وقال:

* * *

سَرَى الحَصْر، أي زال السكوت، والحصر: انقطاع الكلام، وهو العي، وحصر يحصر: عي، والحصر أيضاً: ضيق الصدر. انسرى الحَصْر: ذهب البزْد، والحصر: البارد، وخَصِر الرجل: إذا آذاه البرد وآلمه في أطرافه. والروضات نوراً، أي هي فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان. شُحِنَ: ملئن. اللوائم: الأعراس. حمين: مُنعن. العائب: الذي يعيب الطعام. واللائم: الذي يقف على رؤوس أضيافه، فيقول: ما أكلتم، استعملوا، زد يا فلان، فيخجل أضيافه لذلك، فلا يتمكّنون من الطعام. رفضنا: تركنا.

[البطنة]

البطنة: الامتلاء من الطعام، والذي قيل في البطنة: البطنة تُذهب الفِطنة، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه، ورأينا أن البطنة وهي امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه، أي المبالغة في الأكل يقوي الفطنة، ويولدها لا أنه يُذهبها، والفطنة: الذكاء وحدة الذهن.

معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحل الله حلالاً أبغض إليه من بطنٍ ملئ طعاماً، فقصّروا من الطعام تملؤوا من الحكمة».

المقدم بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من

بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يُقَمَّنْ صُلْبَه، فإن كان لا محالة، فثُلث لطعامه، وثُلث لشرابه، وثُلث لنفسه».

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أيها الناس، إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسد، مورثة للسقم.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إياكم والبطنة فإنها مفسدة للقلب. الأصمعي قال أعرابي: إذا كنت بطيئاً فعد نفسك زميئاً.

وقال الحارث بن كلدة: أربعة أشياء يُهرَمَنُ البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحَمَام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.

وقال الأصمعي: كنت عند هارون الرشيد فقَدِمْتُ إليه فالوذجة فقال: يا أصمعي، حدثني بحديث مزرد أخي الشماخ، قلت: إنَّ مزرداً كان رجلاً جسيماً، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد، وكان يُخَفِظُه ذلك منها، فذهبت يوماً في بعض حقوق أهلها، وخَلَفَتْه في بيتها فدخل خَيْمَتَهَا فأخذ صاعين من دقيق، وصاعاً من عجوة، وصاعاً من سمن، فضرب بعضه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول: [الطويل]

ولمّا مضتُ أمي تزورُ عيالها	أغرّت على العكّ الذي كان يُمنَعُ
خلطت بصاعني حنطة صاعَ عجوة	إلى صاع سمن فوقها يترَبَّعُ
ودلّيت أمثال الأثافي كأنها	رؤوس لعادٍ قُطِعت لا تجمَعُ
وقلتُ لبطني أبشِر اليوم إنّه	حمى آمنٌ مما يُغيّر ويُفزعُ
فإن مصفوراً فهذا داؤه	وإن كنت غزّاناً فذا اليوم تشبّعُ

فاستضحك منه حتى أمسك بطنه، واستلقى على ظهره، ثم قدّم يده بمال، وقال: خذ، فهذا يوم تشبّع يا أصمعي:

قوله الحُطَم، أي الذي يحطم ويُكسر، ورجل محطّم وحُطمة، إذا كان قليل الرحمة للماشية، وفي المثل: شرُّ الرّعاء الحُطمة، وقال الزاجر: [الرجز]

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ^(١)

فمعنى اكتلنا بصاع الحُطَم، أي أكلنا أكل أكل لا يُشْفِق على نفسه من السقم،

(١) الرجز لرشيد بن رميض العنزي في الأغاني ١٩٩/١٥، ٢٠٠، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٣٥٥، وللأغلب العجلي في الحماسة الشجرية ١٤٤/١، وللحطيم القيسي في شرح المفصل ٦٢/١، والكتاب ٢٢٣/٣، وله أو لأبي زغبة الأنصاري في شرح أبيات سيويه ٢٨٦/٢، وللحطيم القيسي أو لأبي زغبة، الخزرجي في لسان العرب (خفف) (سوق)، ولهما أو لرشيد بن رميض العنزي في لسان المعرب (حطم)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (حطم)، ومقاييس اللغة ٧٨/٢، والمخصص ٢٢/٥.

وأشفينا: أشرفنا. خطر: غَزَرَ الثَّخَمُ: جمع تُخْمَةٌ بفتح الخاء، وهو أن يثقل الطعام على المعدة ويتغير. والعامّة تسكُن الخاء، وقد يجيء ذلك في الشعر قال أعرابي: [مجزوء الوافر]

وإذا المعدة جاشت فازمها بالمنجنيق
بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق
تَهضم التَّخمة هضمًا حين تجري في العروق

وتعاورنا الشيء: تداولناه، وأخذه بعضنا من بعض، وأزلناه من موضع إلى موضع، وَعَوَرَ العين: زوالها. والغَمَر: ريح اللحم وزهمه. تبوأنا: أخذنا ونزلنا. السَّمر: الحديث يُسمر عليه. يشول بلسانه، أي يضرب به في كل كلام، وشال: رفع. والصَّوان: وعاء يُصان فيه الشيء. فواده: ناحيتا رأسه، والفود: ما بين طرف الجبهة والأذن. مخلولقًا: كثير البلى. بُرداه: ثوباه. رَبَضَ: جلس، وفي المثل: فلان يَرِبُضُ حَجْرَةً، ويرتقي وسطاً، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت في خير، فَرِبَضُ حَجْرَةٍ، أي جلس ناحية وبرك. أوسَعَنَّا: كثر لنا. الهجرة: المباحدة والمقاطعة، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلمهم بكلمة. تجثبه: تباعده، يقال: تجثبتك وتجانبتك، أي تباعدت عنك، والجار الجنب: البعيد. وما زاره إلا عن جناية، أي عن بعد. المتلبس موجب، أي الذي التبس علينا ما أوجب. مؤثبه: لائمه. العول: الزيادة. رُمْنَا: طلبنا، يفيض كما فُضْنَا: يتكلم كما تكلمنا والفيض زيادة الماء، ويُفيض فيما أفضنا، أي يأخذ معنا في النوع الذي أخذنا فيه. أعرض: لوى وجهه. العلية: الأشراف. الأرذلين: الأدنى. أساطير: تآليف وكتب. الحمية: عزة النفس. هاجته: حركته. الأبية: العزيزة. نأجته: حَدَّثْتُهُ. دلف: مشى إلينا، وازدلف: تقرب. خلع: أزال. الصلَف: مجاوزة قَدْر الطَّرْف حتى يفضي به ذلك إلى أن تأخذ به باباً ما فيخالفك ولا يعبأ بك. يتلاقى: يتدارك. سلف: مضى. استرعى: دعاهم للاستماع يقال: أرعني سمعك أي اسمع مني، الهامر: الكثير الانصباب. [البسيط]

عندي أعاجيب أزويها بلا كذب
عن العيان فكثوني أبا العَجِبِ
رأيت يا قوم أقواماً غداؤهم
بولُ العجوز وما أغني ابنة العَنَبِ
- بولُ العجوز: لبن البقرة، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر -

ومُسْنِتَيْنِ من الأعرابِ قوتهم
أن يَشْتَوْوا خِرْقَةً تُغْنِي من السَّعْبِ
- الخِرْقَة: القطعة من الجراد -

وقادرين متى ما ساء صنعهم
أو قصَّروا فيه قالوا الذَّنْبِ لِلْحَطَبِ

- القادر: الطَّابُخ في القَدْر، والقَدِير: المطبوخ فيها.

وكاتبين وما خَطَّتْ أُنَامِلُهُمْ حرفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكتبِ

- الكاتبون الخَرَّازون؛ يقال: كتب السقاء والمزادة؛ إذا خَرَزَهما وكتب البغلة أو الناقة، إذا جمع بين شفرهما وخاطهما، قال الشاعر: [البسيط]

لا تَأْمَنَنَّ فزاريّاً خَلَوْتَ به على قَلُوصِكَ وَاكْتَبَها بِأَسْيَارِ

وتابعين عقاباً في مسيرهم على تَكْمِيهِمْ في البَيْضِ واليَلْبِ

- العُقاب: الراية. كانت راية النبي ﷺ تسمى العُقاب^(١).

العيان، أي المشاهدة بالعين. مستتين: أصابتهن السنة، أي اشتدَّ عليهم. يَشْتَوُوا: يتخذوا شواء. السَّغْب: الجوع. تَكْمِيهِم: تسترهم. البَيْض: ما يجعل في الرؤوس في الحرب.

ومنتدين دَوِي ثُبُلٍ بدت لهمُ نبيلةٌ فأنشَنُوا منها إلى الهَرَبِ

- الثَّيْلَة: الجيفة، ومنه تَنَبَّل الأمير؛ إذا مات وأروح، يعني تن.

وعُصْبَةٌ لم تَرِ البيتَ العتيق وقد حَجَّتْ جُثَيَّا بلا شِكْ على الرُّكْبِ

- معنى حَجَّتْ جُثَيَّا، أي غلبت بالحجة مجادلين جاثين على الرُّكْب، وجُثَيَّا: جمع جاثٍ.

ونسوةٌ بعدما أذْلَجْنَ من حَلَبِ صَبَّخْنَ كاظمةً من غير ما تَعَبِ

- كاظمة في هذا الموضع من كَظَم الغيظ -

ومُدْلَجِينَ سَرَوْا من أَرْضِ كاظمةٍ فأصبحوا حينَ لاح الصُّبْح في حَلَبِ

- في حلب، أي أصبحوا يحلبون اللبن -

ويافعا لم يلامس قط غانيةً شاهدته وله نسلٌ من العَقَبِ

- التَّسْل هاهنا: العدو قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

والعقب: مؤخر القدم.

منتدين: مجتمعين. انشَنُوا: رجعوا. والثَّيْلَة: الحاذقة في فعلها. عُصْبَة: جماعة. أذْلَجْنَ: سرن بالليل، ومثله سَرَوْا. لاح: ظهر، يافعا: شاباً. يلامس:

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/٢٦٩. بلفظ: «أنه كان اسم رايته عليه السلام العُقاب».

يلاعب، ويمسها بيده. غانية: امرأة جميلة غَنِيَتْ بحسنها عن الزينة. صُبْخَن كاظمة، أي سَقِين الصَّبْرَح كاظمة غِيظها. وَصَبَحَه. سقاه صبوحاً، وكظم غيظه: تجرعه، وهو قادر على الإيقاع بعدوه ولم يمضه، وكظم خصمه: أجابه بالمسكِت فأفحمه، وأصل الكظم للبعير، وهو أن يردّد جِرتَه في حَلَقه ولا يجترها: وكاظمة: موضع على سيف البحر، أي على ساحله على مرحلتين من البصرة، وفيه ركابا كثيرة، وماؤها شروب.

وشائباً غَيْرَ مُخْفٍ للمشيب بدا في البدو وهو فتى السِّن لم يَشِبْ
- الشائب هاهنا: مازج اللبن، والمشيب: اللبن الممزوج، ويقال فيه مَشِيب
ومَشُوب. [البسيط]

ومُرْضَعاً بلبانٍ لم يَفُ قُمُهُ رأيتُه في شِجارٍ بَيْنَ السَّبَبِ
- الشُّجار: المحقة ما لم تكن مُظَلَّلَة فَإِنْ ظَلَّلَتْ فهو الهودج. والسَّبَب هاهنا:
الحبل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُذْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] - [البسيط]
وزارِعاً دُرَّةً حَتَّى إِذَا حُصِدَتْ صَارَتْ غُبَيْرَةً يَهْوَها أَخُو الطَّرَبِ
- الغبيراء: المُسَكِر المتَّخِذ من الذرة ويُسمى أيضاً السُّكرَكة، وفي الحديث: «إياكم
والغبيراء فَإِنَّها خمر العالم»^(١).

وراكباً وهو مغلولٌ على فرس قد غُلَّ أيضاً وما ينفك عن حَبَبِ
- المغلول هاهنا العطشان، وغُلَّ، أي عطش. [البسيط]

وذا يدٍ طُلِقَ يَفْتَاد راحلةً مستعجلاً وهو مأسورٌ أخو كُرَبِ
- المأسور: الذي يجد الأسر، وهو احتباس البول.

اللِّبان: لبن الآدميات. يَفُ: ينطق، يهواها: يحبها. أخو الطَّرَب: صاحبه المولع
به. ينفك: يزول. حَبَب: نوع من السير. طُلِقَ. سارح. كُرَب: هم.

وجالساً ماشياً تهوي مطيئته به وما في الذي أوردت من ريب
الجالس: الآتي نَجْداً، والماشي: الذي كثر ماشيته، وعليه فسر بعضهم قوله
تعالى: ﴿أَنْ امْشُوا﴾ [ص: ٦]؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة.

وحائكاً أجذم الكفّين ذا خرسٍ فإن عجبتم فكم في الخلق من عجبٍ
- الحائك هاهنا: الذي إذا مشى حرك منكبيه وفجج بين ركبتيه .

وذا شطاط كصدر الرُمح قامته صادفته بمنى يشكو من الحدبِ
- الحدب: ما ارتفع من الأرض -

ساعياً في مسرات الأنام يرى إفراحهم كالظلم والكذبِ
- إفراحهم: إنفالقهم بالدين، ومنه قوله عليه السلام: «لا يترك في الإسلام مُفْرَج»^(١)
أي مُفَقِّل من الدين أو يقضى عنه دينه -

ومُغَرِّماً بمناجاة الرجال له وماله في حديث الخلق من أربٍ
- الخلق هاهنا: الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾
[الشعراء: ١٣٧] -

وذا زمام وفّت بالعهد ذمته ولا ذمام له في مذهب العربِ
- الذمام الثاني: جمع ذمة، وهي البئر القليلة الماء. وعن المذهب المسلك، أي
ما له آبار قليلة الماء في البدو.

تهوي: تسقط وتسرع. ريب: شكوك. أجذم: مقطوع. خرس: بكم. شطط:
طول. مُغَرِّماً: شديد الحب. مناجاة: محادثة. أرب: حاجة.

وذا قوَى ما استبانت قط لينته ولبيته مُستبين غير محتجبِ
- اللين: نخيل الدفل، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ﴾ [الحشر: ٥].

وساجداً فوق فحلٍ غير مكتربِ بما أتى بل يراه أفضل القربِ
- الفحل: الحصير المتخذ من فحال النخل.

وعاذراً مَنْ ظلَّ يَغْذِرُهُ مع التلطف والمعدور في صخبِ
- العاذر: الخائن. والمعدور: المَخْتُون.

وبَلْدَةً ما بها ماء لمغترفِ والماء يجري عليها جري مُنْسَرِبِ
- البلدة: الفرجة بين الحاجبين، وتسمى أيضاً البلجة -

وقَرْنَةً دون أفحوص القطا شحنت بديلم عيشهم من خلسة السلبِ

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٤٢٣/٣ بلفظ: «العقل على المسلمين عامة فلا يترك في الإسلام مُفْرَج».

- القرية: بيت النمل. والديلم النمل الكثير. وخلسة السِّلَب: لِحَاء الشَّجَر.
وكوكباً يتوَارَى عند رؤيته الـ لِنَاسَانُ حتى يُرَى في أَمْنَعِ الحُجُبِ
- الكوكب: النُّكْة البيضاء التي تحدث في العين. والإنسان هاهنا: إنسان العين.

مكثرت: منكسر من الهمّ. القُرب: جمع قُرْبَة، وهي ما يتقرَّب به إلى الله تعالى من الأعمال البرِّ. عاذر: قابل العذر. مؤلماً: موجعاً، التلطف: الرفق واللين. الصَّحَب: الصباح، وتفسير ظاهر البيت أن تقول: رأيتُ عاذراً يوجع الذي يعتذر له مع تلطف العاذر للمعتذر وتليينه القول له، والمعتذر في صياح من شدة ضرراً لعاذراً له، فتقابل هذه الأضداد، فإذا فسرت بتفسير الحريري صحَّ المعنى. ومُنسَرَب: داخل في السَّرَب وهو الحفير في الأرض قرية: مدينة، وأفحوص القطا: مرقداه وهي تَفْحُصُه: برجليها توسعه. شُحِنَتْ: ملئت. والدَّيْلَمُ: أمة من العجم. خُلْسة: سرقة. والسِّلَب: المال المسلوب. يتوَارَى: يتغطى، وقال الحسن بن هانئ في صفة الكواكب الذي هو النُّكْة على إنسان العين: [الرمل]

أعورُ المفلة من غير عَوَج لو عداه عَوْرُ العين انْسَمَجَ
تحسب النُّكْة في ناظره درةً بيضاء في فصٍّ سَبَجَ

وَرَوْثَةٌ قُومَتْ مَالاً لَهُ خَطَرُ ونفسُ صاحبها بالمال لَمْ تَطْبِ
- الرُّوْثَة: مقدَّم الأنف -
وصحفةٌ مِنْ نُضَارٍ خالصة شُرَيْث بَغْدَ المكَاسِ بَقِيرَاطٍ مِنَ الذَّهَبِ
- النُّضَارُ هاهنا: شجر النَّبْع، ومنه قول بعض التابعين: لا بأس أن يُشْرَبَ في قدح النضار؛ عَنَى به هذا.

وَمُسْتَجِيشاً بخشخاشٍ لِيَذْفَعَ مَا أَظْلَهُ مِنْ أَعَادِيهِ فَلَمْ يَخْبِ
- الخشخاش: الجماعة عليهم دُرُوع وأسلحة -

وطالما مَرَّ بي كَلْبٌ وفي فيه ثَوْرٌ، ولكِنَّهُ ثَوْرٌ بلا ذَنْبِ
الثَّوْر: القطعة من الأقط، وهو نوع من الجبن.

وكم رأى ناظري فيلاً على جملٍ وقد تورَّك فوق الرُّخْلِ والقَتَبِ
- الفيل: الرجل الفائل الرأي.

وكم لقيتُ بعُرْضِ البِيدِ مُشْتَكِيَاً وما اشتكى قَطُ في جِدٍّ ولا تَعِبِ

- المشتكي: المتخذ شكوة وهي القزبة الصغيرة.

* * *

قوله: حَطَر، أي حظ كثير، والخطير: الرفيع القدر، نُضار: ذهب أحمر.
المكّاس: المماكسة بين المتبايعين، وهو أن يطلب صاحب السلعة من المشتري سوماً،
فلا يزال المشتري يراجعه وينقص له مما طلب شيئاً حتى يتفقا على ما يتراضيان عليه.
والمستجيش: الجامع للجيش. والخشخاش: بنت معروف، وقال ابن وكيع يصفه:
[الوافر]

وخشخاش كأننا منه نفري قميص زبّزجد عن جسم دُرّ
كأقداح من البلور صيغت وأغشية من الديباج خُضر
أظله: قُرْب منه، وكأنه أغشاه ظلّه. القَتَب: خشب الرّخل، والرّخل برذعة البعير.
بِعُرض اليد: بجانب القفار. [البسيط]

وكنت أبصرت كرازاً لراعية بالدوّ ينظر من عينين كالشّهْب
- الكراز: كبش يَحْمِل عليه الراعي أدواته.

وكَمْ رأْتُ مقلتي عينيّين ماؤهما يجري من الغرب والعينان في حَلَب
- الغرب: مجرى الدمع، والعينان: المقلتان.

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِقْتُ كَفّاه يوماً برمح لا ولم يَثِب
- القنا: ارتفاع الأنف وتحذّب وسطه، وصدع به، أي كشفه.

وكم نزلت بأرض لا نخيل بها وبغداً يوم رأيت البُسْر في القلب
- البُسْر: جمع بُسرة، وهو الماء الحديث العهد بالمطر، والقلب: جمع قليب -

وكم رأيت بأقطار القلا طَبَقاً يطير في الجو مُنصباً إلى صَبَب
- الطَبَق: القطعة من الجراد.

وكم مِنْ مشايخ في الدُّنيا رأيتهم مخلّدين، وَمَنْ يَنْجُو من العطَب
- المخلد: الذي أبطأ شبيه.

وكم بدا لي وَخَش يشتكي سَغْباً بمنطقٍ ذَلِقٍ أمضى من القُضْبِ
- الوحش: الرّجل الجائع.

وكم دَعَانِي مُسْتَنْجِحٌ فَحَادثنِي وما أخلّ ولا أخللتُ بالأدب
- المستنجي: الجالس على نجوة، وهر المكان المرتفع.

كرّاز: إناء. والدوّ: الصحراء، والغرب: الدلو العظيمة، في حلب: في سَيْلان

وَجَرِي. البُسْر: التمر الذي لم يَطْب. القليب البثر، والجمع القُلْب. أقطار الفلا: نواحي القِفار. والصَّب: الانحدار. العطب: الهلاك. السَّعْب: الجوع. ذلق: حاذ. أمضى: أقطع. القُضْب: السيوف. أخل: نقَص. المستنجي: الجالس لقضاء حاجة الإنسان.

وكم أنخت قُلُوصِي تحت جُنْبَذَةٍ تَظُلُّ ما شئت من عُجَمٍ ومن عُرُبٍ
- الجُنْبَذَة: القبة، والعُرُب: جمع عَرُوب؛ وهي المتحبة إلى زوجها، من قوله تعالى: ﴿عُرْبًا أُرَبَاءً﴾ [الواقعة: ٣٧].

وكم نظرت إلى مَنْ سُرَّ سَاعَتُهُ وَدَمَعُهُ مَسْتَهْلُ الْقَطْرِ كَالسُّحْبِ
- سُرَّ، أي قطع سَرَرَهُ، ويسمى ما يبقى بعد القطع السرة -

وكم رأيت قميصاً ضَرَّ صَاحِبَهُ حَتَّى انثنى واهي الأعضاء والعَصَبِ
- القميص: الدابة الكثيرة القُماص، وهو الوثوب والقفز.

وكم إزارٍ لَوَّ أَنَّ الدَّهْرَ أَتْلَفَهُ لَجَفَّ لِبْدٌ حَيْثُ السَّيْرِ مُضْطَرِبٍ
- الإزار: المرأة، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

* فَدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةَ إِزَارِي ^(١) *

[البسيط]

هذا وَكَمْ مِنْ أَفَانِينَ مُعْجَبَةٍ عِنْدِي وَمِنْ مُلَحِّ تُلْهِي وَمِنْ نُحْبٍ
فَإِنْ فَطِنْتُمْ لِلْحَنِ الْقَوْلِ بَانَ لَكُمْ صَدَقِي وَذَلِكَ مُطْلَعِي عَلَى رُطْبِي
وَإِنْ شِدْهْتُمْ فَإِنَّ الْعَارَ فِيهِ عَلَى مَنْ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْعُودِ وَالْخَشَبِ

أنخت: أبركت. قُلُوصِي: ناقتي الفتية. تَظُلُّ: تستر، سُرَّ: أدخل عليه السرور، وقد بيّن هو أنه المقطوع السرة، وقال في الدرة فيما يكنى في المعارض. المقلول: الذي ضُربَتْ قَلَتُهُ، أي أعلاه، والمركوب: الذي ضُربَتْ ركبته، والمذكور: الذي قُطِعَ ذكره، والمسرور: الذي قُطِعَتْ سَرَتُهُ، قال: ومن الأحاجي بأبيات المعاني:

(١) صدره:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا

والبيت لقبيلة الأشجعي (أبي المنهال)، في لسان العرب (أزر)، والمؤتلف والمختلف ص ٦٣، وعجزه لجعدة بن عبد الله السلمي في لسان العرب (أزر)، والبيت بلا نسبة في شرح اختيارات المفضل ص ٢٥٠.

نُسُرْهُمْ وَإِنْ هُمْ أَقْبَلُوا وَإِنْ أَدْبَرُوا فَهُمْ مِنْ سَبَبٍ
أَي نَطْعَنُهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا فِي السَّرَّةِ، وَإِذَا أَدْبَرُوا فِي السُّبَّةِ وَهُوَ الْإِسْتِ، وَأَنْشُدْ أَيْضاً:
[الطويل]

ذَكَرْتُ أَبَا عَمْرٍو فَمَاتَ مَكَائُهُ فَوَا عَجَباً هَلْ يَهْلِكُ الْمَرْءُ مِنْ ذَكَرٍ
وَزُرْتُ عَلِيّاً بَعْدَهُ فَرَأَيْتُهُ فَفَارَقَ دُنْيَاهُ وَمَاتَ عَلَى صَبَرٍ

ذَكَرْتُهُ: قَطَعْتُ ذَكَرَهُ، وَرَأَيْتُهُ: قَطَعْتُ رِئْتَهُ. مُسْتَهْلٌ: سَائِلٌ. الْقَطَرُ: مُصَدَّرٌ قَطَرَ.
إِذَا سَقَطَ، وَلَا يُقَالُ اسْتَهْلَ حَتَّى يَكُونَ مَعَ انْصِبَابِهِ صَوْتٌ. وَاهِي: ضَعِيفٌ. الْعَصَبُ:
حَبَالُ الْجَسَدِ. الْإِزَارُ، وَهُوَ الْمَتَزَّرُ الَّذِي يُجْعَلُ عَوْضاً مِنَ السَّرَاوِيلِ، حَثِيثٌ: مُسْرِعٌ أَرَادَ
بِهِ ذَكَرَ الْإِنْسَانِ فِي حَالِ نِكَاحِهِ الْمَرْأَةَ إِنَّهُ مُضْطَرِبٌ سَرِيعُ السَّيْرِ وَالِدْفَعِ فَيَقُولُ: إِنَّ الْمَرْأَةَ
الَّتِي كَانَتْ تَبْلُ الذَّكَرَ عِنْدَ الْجَمَاعِ لَوْ هَلَكْتَ لَبَقِيَ جَافِئاً وَأَرَادَ بِاللَّبْدِ مَوْضِعَ اللَّبْدِ وَهُوَ
الظَّهْرُ، الْفَنَجْدِيهِ يَقُولُ: كَمْ مِنْ امْرَأَةٍ لَوْ مَاتَتْ لَتَرَكَ زَوْجُهَا كَثْرَةَ الْحَرَكَةِ فِي طَلَبِ
الْمَعَاشِ مَرْضَاةً لَهَا، وَجُفُوفُ الْعِرْقِ قَدْ يَكُونُ مِنَ السَّكُونِ، وَالتَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ أَبِينٌ، وَهَذَا
الثَّانِي يُحْتَمَلُ إِمَّا وَصْفَهُ بِالسَّرْعَةِ وَالْاضْطِرَابِ، وَهُوَ صِفَةُ فَرَسٍ جَعَلَ لَهُ لَبِداً فَأَلْغَزَ بِذَلِكَ،
وَقَالَ أَعْرَابِي مَاتَتْ امْرَأَتُهُ: [الوافر]

وَكُنْتُ قَرِيسَتِي وَغِلَافَ بُضْعِي فَأَمْسَى الْبُضْعُ لَيْسَ لَهُ غِلَافٌ
وَمِنَ اللَّغْزِ فِيهِ قَوْلُ الْآخِرِ: [البسيط]

وَصَاحِبٌ مُعْجَبٌ فِي طَوْلِ صُخْبَتِهِ وَلَا يَنْفَعُ الدَّهْرُ إِلَّا وَهُوَ مُحْمَمٌ
تَأْتِيكَ فِي نَافِضِ الْحَمِيِّ مَنَافِعُهُ وَإِنْ أَفَاقَ يُرَى فِي وَجْهِهِ اللَّوْمُ
وَقَالَ الْأَقِشَرُ: وَكَانَ عَيْنِي، فَغَالَطَ فِي شَعْرِهِ بِالضَّدِّ: [الكامل]

وَلَقَدْ عَدَوْتُ بِمَشْرِفٍ يَافُوخُهُ عَسِرَ الْمَكْرَةُ مَاؤُهُ يَتَدَفَّقُ
أَرَنْ يَسِيلَ مِنَ النِّشَاطِ لِعَابِهِ وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَمَزَّقُ
حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مَشَقَّ ثَنِيَّةٍ طَوْرًا يَفُورُ بِهَا وَطَوْرًا يَغْرُقُ

قَوْلُهُ: أَفَانِينَ، أَيُ ضُرُوبٍ وَأَنْوَاعٍ، وَالْأَفَانِينَ: الْأَسَالِيبُ وَهِيَ أَجْناسُ الْكَلَامِ
وَطَرَقُهُ، وَالْأَزْهَرِيُّ: أَفَانِينَ: جَمْعُ أَفْنَانٍ: جَمْعُ فَنَنْ، وَهُوَ الْغَصْنُ وَالْخُصْلَةُ مِنَ الشَّعْرِ،
وَقِيلَ: الْأَفْنُونُ الْفَنَنْ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ، وَالْحَبَالُ، وَالْجَمْعُ أَفَانِينَ. مُلَحٌ: مَا يَتَكَلَّمُ
بِهِ مِنْ حُلُومِ الْكَلَامِ وَالْغَايَةِ. تُلْهِي: تَشْغَلُ تُخَبِّ: مُخْتَارَةٌ. لَحْنُ الْقَوْلِ: مَعْنَاهُ وَمَذْهَبُهُ،
وَاللَّحْنُ التَّوْرِيَّةُ، وَهِيَ أَنْ تُظْهَرَ خِلَافَ مَا تَضْمُرُ. الطَّلَعُ: أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الثَّمَرِ،
وَالرُّطْبُ: الطَّيِّبُ مِنْهُ. شُدِّفْتُمْ: تَحِيرْتُمْ.

قال الحارث بن همام: فطفقنا نَحْبُطُ في ثَقْلِبِ قَرِيضِهِ، وتَأْوِيلُ معارِضِهِ وهو يلهو بنا لهوُ الخَلْيِ بالشَّجِي، ويقول: ليس بَعْشُكَ فاذرُجِي، إلى أن تَعَسَّرَ النَّتَّاجُ، واستَحْكَمَ الْارْتِجَاجُ؛ فَالْقِينَا إِلَيْهِ الْمَقَادَةَ، وَخَطَبْنَا مِنْهُ الْإِفَادَةَ؛ فَوْقْنَا بَيْنَ الْمَطْمَعِ وَالْيَأْسِ، وَقَالَ: الْإِنْسَانُ قَبْلَ الْإِنْسَاسِ؛ فَعِلْمُنَا أَنَّهُ مِمَّنْ يَرْغُبُ فِي الشُّكْمِ، وَيَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ، وَسَاءَ أَبَا مِثْوَانَا أَنْ نُعْرَضَ لِلْعُزْمِ، أَوْ نَحْبَبَ بِالرُّغْمِ؛ فَأَحْضَرَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ نَاقَةً عِيدِيَّةً، وَحُلَّةً سَعِيدِيَّةً، وَقَالَ لَهُ: خُذْهُمَا حَلَالاً وَلَا تَرَزَّأْ أَضْيَافِي زِبَالاً، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهَا شِنْشِنَةٌ أَخْزَمِيَّةٌ. وَأَرِيحِيَّةٌ حَاتِمِيَّةٌ.

* * *

طفقنا: أَخَذْنَا نَحْبُطُ: نَتَكَلَّمُ بِالزَّائِدِ وَالنَّاقِصِ. تَأْوِيلُ: تَفْسِيرُ. معارِضِهِ: مَا عُرِضَ بِهِ وَلَمْ يَتِمَّهِ. الْخَلْيُ: الَّذِي لَا هَمَّ لَهُ، وَالشَّجِي: الْحَزِينُ وَبَاءُ الْخَلْيِ مُشَدَّدَةٌ وَبَاءُ الشَّجِي مُخَفَّفَةٌ. وَقَدْ شَدَّدَتْ بَاءُ الشَّجِي فِي الشَّعْرِ إِتِّبَاعاً لِبَاءِ الْخَلْيِ، وَقَالُوا: إِنِّي لَأَتِيهِ بِالْغَدَايَا وَالْعَشَايَا، فَحَمَلُوا الْغَدَايَا عَلَى الْعَشَايَا، وَحَكَى ثَعْلَبُ فِي غَيْرِ الْفَصِيحِ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ تَثْقِيلَ الْبَاءِ فِيهِمَا، وَمَنْ جَعَلَ شَجِي فَعَلَ كَحَذَرَ خَفَفَ، وَمَنْ جَعَلَهُ فَعِلَ مِثْلَ غَثَى شَدَّدَ، وَفَعَلَ بِغَيْرِ بَاءٍ أَقْبَسَ، وَالتَّشْدِيدُ فِي الْمِثْلِ أَحْسَنُ لِلِازْدَوَاجِ. تَعَسَّرَ: صَعُبَ. النَّتَّاجُ: مَا يَنْتِجُ لَهُمْ مِنَ الْمَعَانِي. اسْتَحْكَمَ: تَوَثَّقَ الْارْتِجَاجُ: الْانْغْلَاقُ، وَأُرْتِجَ عَلَى الْقَارِيءِ وَارْتَجَجَ، إِذَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْقِرَاءَةِ كَأَنَّهُ أَطْبَقَ عَلَيْهِ. وَيَرْتَشِي: يَأْخُذُ الرُّشُوءَ، وَعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَّ وَالْمَرْتَشِيَّ وَالرَّائِشَ»، فَقِيلَ: وَمَا الرَّائِشُ؟ قَالَ: الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا.

الْقِينَا إِلَيْهِ الْمَقَادَةَ: أَيِ انْقَدْنَا لَهُ، وَرَزَّاتُ الرَّجُلِ أَرْزَوْهُ؛ إِذَا أَصَبَتْ مِنْهُ خَيْرًا، وَرَزَّاتُهُ مَالُهُ: نَقَصَتْهُ وَالزُّبَالُ بِالْكَسْرِ: مَا تَحْمَلُهُ الثَّمَلَةُ بِفِيهَا، وَالْأَرِيحِيَّةُ: الْاهْتِرَازُ لِلْجُودِ. سَاءَ حَزْنٌ. وَالرُّغْمُ: الذَّلَّةُ وَالْهَوَانُ. شِنْشِنَةٌ: طَبِيعَةٌ حَاتِمِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ الْحِشْرِجِ أَحَدِ بَنِي ثَعْلَبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْغَوْثِ بْنِ طَبِئٍ.

[حاتم الطائي]

يَكْنَى أَبَا سَفَّانَةَ وَأَبَا عَدِيٍّ. فَارَسَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ، أَحَدَ الْأَجْوَادِ الَّذِينَ يُضْرَبُ بِهِمُ الْمِثْلُ، بَلْ هُوَ أَشْهَرُ مِنْهُمْ، وَهَمُّ: كَعَبُ بْنُ مَامَةَ، وَهَرَمُ بْنُ سَنَانَ، وَحَاتِمُ، وَكَانَ إِذَا قَاتَلَ غَلَبَ، وَإِذَا غَنِمَ نَهَبَ، وَإِذَا سَثَلَ وَهَبَ، وَإِذَا قَامَرَ سَبَقَ، وَإِذَا أَسَرَ أَطْلَقَ، وَإِذَا أَثَرَى أَنْفَقَ. وَيُقَالُ: أَنَّهُ لَا يُعْرِفُ مَيِّتَ قَرَى أَضْيَافَهُ إِلَّا هُوَ، وَذَلِكَ أَنَّ رَكْبًا مِنَ الْعَرَبِ نَزَلُوا بِمَوْضِعِ قَبْرِهِ، وَقَدْ نَفَدَ زَادُهُمْ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ يَكْنَى أَبَا خَيْبَرِيٍّ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَبَا سَفَّانَةَ، أَمَا تَقْرِي أَضْيَافَكَ أَبَا سَفَّانَةَ، إِنَّ أَضْيَافَكَ جِيَاعٌ، يَعِيدُهَا، فَلَمَّا نَامَ ثَارَ مِنْ نَوْمِهِ. وَهُوَ يَقُولُ: وَارَاحِلَتَاهُ! عُقِرَتْ وَاقَتِي، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا سَفَّانَةَ قَدْ انْشَقَّ عَنْهُ قَبْرُهُ فَاسْتَوَى قَائِمًا يَنْشُدُنِي: [الْمُتَقَارِبُ]

أبا خيبري لأنت امرؤ ظلوم العشيرة لَوَامُها
وماذا تريد إلى رمة بدوية صخب هَامُها
تبغي أذاها وإسعارها ودونك طي وأنعامها

ثم عمد إلى سيفي، فانتضاه من غمده، وعَقَر نَاقتي، وقال: دونكم فما أيقظني إلا رغاؤها؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث، فقالوا: قد والله قَرَاك حاتم فنحروها، وأكلوا وتزودوا واقتسموا متاع أبي خيبري، واستمروا لوجهتهم، فلما صاروا في الظهيرة وَضَح لهم: راكب يجنب بعيراً يؤم سمتهم، حتى التقوا فقال لهم: أفيكم أبو خيبري؟ قالوا نعم، فقال: فإن عدي بن حاتم رأى أباه البارحة، وهو يقول: إن أبا خيبري وأصحابه استقروني، فقريتهم ناقته، فعوضه منها، وزده بكرأ يحمل عليه متاعه؛ وهذه الناقة وهذا البكر، فارتحل أبو خيبري الناقة، وتخفف هو وأصحابه من أزوادهم، على البكر، ومضوا بأنهم قرى.

وأدرك عدي ابنه النبي ﷺ وروى عنه، وكان يحدث أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر في عدي: [الطويل]

أبوكَ أبو سَفَانَةَ الخير لم يزل لدنْ شَبَّ حتى مات في الخير راغبا
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقر قبرَ قبَله الدَّهر راكبا

وكانت سَفَانَةُ بنته من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الصَّرمَة من إبله فتبها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بنية إن الغويين إذا اجتمعوا في المال أتلُفاه، فإما أن أعطي وتُمسكي، وإما أن أُمسك وتُعطي أنت؛ فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت: والله لا أُمسك أبداً، قال: وأنا لا أُمسك أبداً قالت: فلا نتجاوز، فقاسمها ماله وتباينا.

وحكي أن أمه كانت من أسخى الناس، وأقراهم للضيف؛ وكانت لا تحبس شيئاً تملكه، وهي عُتْبَةُ بنت عُفَيف بن عمرو بن عبد القيس، فلما رأى إخوتها إتلافها، حجروا عليها ومنعوها مالها؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صرمة من إبلها، فجاءتها امرأة من هوازن تسألها، فقالت: دونك الصَّرمَة، فخذيها، فوالله لقد عَضَنِي من الجوع ما لا أُمْنَع بعده سائلاً أبداً، ثم أنشأت تقول: [الطويل]

لَعَمْرِي لِقَدْما عَضَنِي الجوع عَضَةً فَكَيْتُ أَلَا أُمْنَع الدَّهرَ جائعا
فقلولا لهذا اللائم: اليوم أعفني فإن أنت لم تفعل فعَضُ الأصابعا
فإذا عسيتم أن تقولوا لأخْتُكم سوى عدلكم أو عدل مَنْ كان مانعا
وهل ما ترون اليوم إلا طبيعة وكيف بتركي يا بنَ أم الطَّبَّابعا
فقد اكتنَّفه الجودُ من أمه وأبيه.

وقالت امرأته الثَّوار: أصابتنا سنة اقشعرث لها الأرض واغبرَّ أفق السماء، وضنت

المراضع عن أولادها فما تبصّ بقطرة، فأيقنا بالهلاك، فوالله إنني لفي ليله صَبِيرَةٌ^(١) بعيدة الطرفين، إذ تضاغى صبيئنا جوعاً: عبد الله وعدّي وسفانة، فقام إلى الصبيّين وقمت إلى الصبية، فوالله ما سكتوا إلّا بعد هدأة من الليل، وأقبل يعلّني بالحديث، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلما تغوّرت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت، فقال: مَنْ هذا؟ فقالت: جاريتك فلانة أتيتك من عند صبية يتعاوّن من الجوع عواء الذئاب، فما وجدتُ معوّلاً إلّا عليك أبا عدّي فقال: أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم، فأقبلت تحمل اثنين، ويمشي إلى جانبها أربعة، كأنها نعمة حولها رثالها، فقام إلى فرسه فوجأ لبّتها بمديّة، فخرّت، ثم كشط الجلد، ودفع المديّة إلى المرأة وقال شأنك، فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل، ثم جعل يأتيهم بيتاً بيتاً، ويقول: هبوا أيّها القوم، عليكم بالنار، فاجتمعوا والتفّ في ثوبه ناحية ينظر إلينا، والله إن ذاق منها مُزعة، وإنه لأحوجُ إليها منا، فأصبحنا وما على الأرض منها إلّا عظمٌ وحافر، فأنشأ يقول: [البسيط]

مهلاً نوار أقلّي اللوم والعذلا ولا تقولي لشيء فات ما فعلاً^(٢)
ولا تقولي لشيء كنت مهلكه مهلاً وإن كنت معطي العنّس والجمل
يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سُبلاً
ولم يكن يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا يجود به.

وذكر الحريري أن عُقَيْلاً تمثّل بقول حاتم: [الرجز]

* شَنْشَنَةٌ أعرُفُها من أَخْزَمِ^(٣) *

وكان عُقَيْل بن عُلفَة المريّ غيوراً فخوراً وكانت الخلفاء تُصاهره، فخطب إليه عبد الملك ابنته لبعض ولده، فقال: أمّا إن كان ولا بدّ، فجنّني هُجْناء ولدك، وخرج يمتار ومعه ابنه وابنته الجرباء فنزلوا بالشأم بدير سعد فلما ارتحلوا قال عُقَيْل: [الطويل]

قضت وطراً من دَيْرٍ سعدٍ وربّما على عُرُضٍ ناطحتّه بالجماجم
ثم قال لابنه أجزيا عملّس، فقال: [الطويل]
فأصبحن بالمزومة يحملن فتية نشاوى من الإدلاج ميلَ العمائم

(١) ليلة صبيّة: أي ليلة شديدة البرد.

(٢) الأبيات في ديوان حاتم الطائي ص ٧٤.

(٣) الرجز لأبي أخزم الطائي في لسان العرب (خزم)، (شنن)، ومجمل اللغة ١٨٣/٢، ولعقيل بن عُلفَة في جمهرة اللغة ص ٥٩٦، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢١٨/٧، ٢٨١/١١، وكتاب العين ٢٢٠/٦، والمخصص ١٩٤/٦، وديوان الأدب ١٠٦/٣.

ثم قال لابنته الجرباء: أجيزي، فقالت: [الطويل]

كأنّ الكرى أسقامهم صرخديّة عَقاراً تمشّت في المطا والقوائم

فقال لها: وما يدريك ما نعتُ الخمر؟ ثم سل السيف، فاستغاثت بأخيها فاختبل فخذيه بسهم، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم، فقالوا لأهل المياه: إنا أسقطنا جَزُوراً، فأدركوها فوجدوا عُقِيلاً باركاً، وهو يقول الأبيات: [الرجز]

* إِنَّ بَنِي ضَرَجُونِي بِالدَمِ^(١) *

ثمّ قابلنا بوجه بشره يشفّ، ونُضرته ترف وقال: يا قوم؛ إنّ اللّيل قد اجلودّ، والتعاس قد استخوذ، فافزعوا إلى المراقِد، واغتيموا راحة الرّاقِد، لتشرّبوا نشاطاً، وتُبْعَثُوا نشاطاً، فتعوا ما أفسّر، وتسهّل لكم المتعسر، فاستضوّب كلّ ما رآه، وتوسّد وسادة كراه. فلما وسّنت الأجنان وأغفّت الضّيفان، وثب إلى الثّاقة فرحلها ثم ارتحلها، وقال مخاطباً لها: [الرجز]

سَروج يا ناقَ سِيرِي وخِدي	وأذلّجي وأوبّي وأسِدي
حتّى تطا خُفّاك مَزعاها النّدي	فَتَنعَمي حينئذٍ وتسعدي
وتأمّني أن تُثهمي وتُنجدي	إيه فدّتك الثّوق جدّي واجهدي
وأفري أديم فذّدي فذّدي	واقْتَنعي بالنّشج عند الموردي
ولا تحطّي دون ذاك المقصدي	فقد حلّفتُ حلّفة المجتهد
بحرمة البيت الرّفيع العُمدي	إنّك إن أحلّلتيني في بَلدي

* حَلَلْتِ مِنِّي بِمَحَلِّ الْوَلَدِ *

قوله: بشره، أي طلاقته. يشفّ: يتلأأ ويزرق حتى يكاد يصف ما وراءه من السُرور. نُضرته: نعمته ورونقه. ترفّ: تندی. استخوذ: غلب واستولى، افزعوا: الجؤوا، لتشرّبوا نشاطاً، أي يتمشى النشاط في أجسادكم حتى تُروّوا به، تُبعثوا: تتبّهوا. نشاطاً: جمع نشيط ككريم وكرام، ونشط ينشط فهو نشيط، إذا كان طيّب النفس للعمل. تعوا: تحفظوا. المتعسر: الصعب. كراه: نومه. سنّت: خالطها الوسن، وهو النوم. أغفّت: نامت.

قوله: خِدي، أي أسرعي. تُثهمي وتُنجدي: تقصدي تهامة ونجداً. إيه، معناه

(١) راجع تخريج الرجز قبل قليل.

زيدي في سيرك، اجهدي: اتعبي. افري: أقطعي، أديم: جلد فدغد: أرض صلبة. وقيل
مستوية، وقيل فلاة، وأراد بالأديم وجه الأرض. ونَشَح ينشع نَشْحاً: شرب قليلاً قليلاً.
تَحْطِي: تنزلي، العُمْد، والعمود: ما يقوم عليه الخباء.

وقوله يخاطب ناقتة: [الرجز]

إنك إن أحللتني في بلدي حَلَلْتِ مِنِّي بِمَحَلِّ الْوَلَدِ
قد جاء في كلامهم نظيره وضده، وكلاهما في بابه حسن، قال الشماخ في ضده
من مجازاة الناقة على إحسانها بالسوء: [الوافر]

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ^(١)
وناقضه الآخر فقال: [الوافر]

أَقُولُ لِنَاقَتِي إِذَا بَلَّغْتَنِي لَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنِّي بِالْيَمِينِ
فَلَمْ أَجْعَلْكَ لِلْقَرِيبَانِ طَعْمًا وَلَا قَلْتُ اشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ
وتبعه ذو الرُّمَّة فقال: [الطويل]

أَقُولُ لَهَا إِذَا شَمَرَ اللَّيْلُ وَاسْتَوَتْ بِهَا الْبَيْدُ وَاسْتَنْتَ عَلَيْهَا الْحَزَاوُرُ^(٢)
إِذَا ابْنُ أَبِي مُوسَى بَلَالًا بَلَّغْتَهُ فَقَامَ بِفَأْسٍ بَيْنَ رَجْلَيْكَ جَاوِرُ

وتوجيه الحسن في هذا المذهب على شناعة ظاهره أنه لا يبالي بفقدها، لأن
الممدوح يحمله، ويعطيه فهو في غنى عنها، ومن يعيب هذا يقول مجازاة الحسن بالسوء
قبيح، وقد قال رسول الله ﷺ للمرأة التي قالت وقد نجت على ناقتة: نذرتُ إن نَجَّاني
الله عليها أن أنحرها: «بئس ما جازيتها، ولا نذر لك في مال غيرك»^(٣) والمذهب الأحمد
في ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حين خرج في جيش مؤتة يخاطب ناقتة:
[الوافر]

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحَسَاءِ^(٤)

(١) البيت في ديوان الشماخ ص ٣٢٣، ومقاييس اللغة ٢/٢٣٦.

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ١٠٤٢، والبيت الثاني في خزانة الأدب ٣/٣٢، ٣٧، وسمط اللآلي
ص ٢١٨، والكتاب ١/٨٢، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب ١/٢٩٦، ومغني اللبيب ١/٢٦٩،
وفي الديوان «بين وصليك» بدل «بين رجليك».

(٣) أخرجه أبو داود في الأيمان باب ٢١، والدارمي في السير باب ١، وأحمد في المسند ٤/٤٢٩،
٤٣٠، ٤٣٢.

(٤) البيت في ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري ص ٧٩، والبيت الأول في لسان العرب (حسا)،
والكامل ص ١٦٨، وسمط اللآلي ص ٢١٩، والبيت الثاني في لسان العرب (خلا)، وتهذيب اللغة
٧/٥٦٩، وخزانة الأدب ٢/٣٠٣، ٣/٣٩.

فشأنك فانعمي وخلالك ذم
ولا أرجع إلى أهلي ورائي
ولهذا تبعه الحريري في شعره.
وقال الحسن: [الكامل]

وإذا المطي بنا بلغن محمداً
فظهورهن على الرجال حرام^(١)
قربننا من خير من وطىء الشرى
فلها علينا حُرمة وذمام
وقال داود بن أسلم يمدح قثم بن العباس رضي الله عنهما: [السريع]
نجوت من حلٍّ ومن رِخلَةٍ
يا ناق إن بلّغتني من قُثم^(٢)
إنك إن بلّغتني غداً
عاش لنا الخير ومات العدم

قال: فعلمت أنه السروجي الذي إذا باع انباع، وإذا ملأ الصاع انصاع.
ولما انبلج صبايح اليوم، وهب النوام من النوم، أعلمتهم أن الشيخ حين أغشاهم
السُّبات، طلقهم البتات، وركب الناقة وفات؛ فأخذهم ما قدّم وما حدّث، ونسوا ما طاب
منه بما حبّث؛ ثم انشعبنا في كلّ مشعب، ودَهَبْنَا تحت كلّ كوكب.

قوله: انباع، أي جرى ومدّ باعه، ومعناه هرب منه في سيره. يقال: صُغت الشيء
فانصاع، أي فرّقه فتنفّرق، ومعناه إذا ملأ كيسه من عطاء قوم راح عنهم. انبلج: أضاء،
هبّ: انتبه، أغشاهم: غطّاهم. السُّبات: النوم الخفي كالغاشية: ثعلب: السُّبات ابتداء
النوم في الرأس حتى يبلغ القلب، وسبت الرجل فهو مسبوت: نعس. والبتات: القطع
البائن. فات. أي فرّ فلا يُلحق.

وذكر الحريري في درة الغواص: أن قولهم: حدّث أمر بضم الدال قياساً على
أخذهم ما قدّم وما حدّث خطأ، وإنما صُمّت الدال من حدّث حين قرن بقدّم للمحافظة
على الموازنة، فإذا أفردت لفظة حدّث زال موجب الضم، ووجب الردّ إلى الأصل. قال:
وأشدني بعض أدباء خراسان لأبي الفتح البستي: [الرجز]

جزعت من أمرٍ فظيع قد حدّث أبو تميم وهو شيخ لا حدّث
* قد حبس الأصلع في بيت الحدّث*

(١) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٦٤.

(٢) البيتان لسليمان بن قنة في الكامل ٢٢٩/٢.

لم نتعرض في شرح هذه المقامة، لما ثبت في كتاب المقامات من شرح منشيها، بل نُعقب ما أهمله، وكان الأولى إثبات ما شرح بنصه؛ إذ هو وَفَّقْ لغرضه.

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علي رحمه الله تعالى:

قد فَسَّرْتُ سِرَّ كل لغز تحته، ولم أبعد على مَنْ يقرؤه كشفه، وقد بقيت ألفاظ اشتملت عليها هذه المقامة ربما التبس تفسيرها على بعض مَنْ تقع إليه فأحببت إيضاحها له لِيُكَفَى حيرة الشبهة وكُلْفَة الفكرة، ووضَّمة البحث والمسألة، وبالله تعالى الاستعانة والقوة.

قوله: «عشوت إلى نار» يعني تنورتها فقصدتها فإن لم تقصدها قلت: عَشَوْتُ عنها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]، أي يُغْرِض.

وقوله: «وأنا أضرد من عين الحرباء والعنز الحزباء»، هذان مَثَلان يُضْرَبان لمن يبلغ منه البرد، وذلك لأنَّ الحرباء تدور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينها، ولذلك شبه ابن الرومي الرقيب بالحرباء في قوله: [الكامل]

ما بالها قد حُسْنَتْ وراقبها أبداً قَبِيحُ، قَبَّحَ الرُّقْبَاء

ما ذاك إلا أنها شمس الضحا أبداً يكون رقيبها الحزباء

والعنز الجرباء لا تدفأ في الشتاء لقلة شعرها، وذكر بعضهم أن العنز الجرباء تصحيف المثل الأول.

وقوله: «من نحر واري» يعني الجمل المكتنز شحمًا، الكثير مُخًّا.

وقوله: «عشاره تخور وأعشاره تفور» العشار: النوق الحوامل والأعشار: البرمة العظيمة. كأنها شُعبت لعظمها، يقال: بُرْمَة أعشار وجفنة أكسار وثوب أسمال وبرد أخلاق وحبل أرامام، ووصف الجماعة منها كوصف الواحد.

وقوله: «فاكهة الشتاء» كَتَى بها عن النار، ومنه قول بعض المحدثين: [الكامل]

النار فا كهة الشتاء فمن يُرَدُّ أكل الفواكه شاتياً فليضطل

إنَّ الفواكه في الشتاء شهيةٌ والنار للمقروور أفضل مأكَل

وقوله: «موائد كالهالات» يعني دارات القمر، ودارة الشمس تسمى الطفاوة.

وقوله: «مَشُوش المَمَر» يعني المنديل، يقال: مَشَّ يده بالمنديل، أي مَسَحَها، ومنه

قول امرئ القيس: [الطويل]

نَمُشُّ بأعراف الجياد أَكْفُنَا إذا نحن قُمْنَا عن شِواءٍ مُضْهَبٍ^(١)

وقوله: «مشتبهاً فوداه أي صاراً من الشَّيب في لون الأشهب، ومنه قول امرئ القيس:

قَالَتِ الْخَنَسَاءُ لَمَّا جِئْتُهَا شَابَ بَغْدِي رَأْسَ هَذَا وَاشْتَهَبَ^(١)

وقوله: «رَبِضَ حَجْرَةً» يعني ناحية، ويقال في المثل لمن يشارك في الرِّخاء ويجانب عند البلاء: يَزْتَعُ وسطاً وَيَرِبُضَ حَجْرَةً.

وقوله: «فَاسْتَرْعَى سَمْعَ السَّامِرِ» يعني السُّمار؛ لأن السامر اسم للجمع كالحاضر اسم للحَيِّ النازلين على الماء، وكالبقر: اسم لجماعة البقر.

وقال بعض أهل اللغة: هو اسم للبقر مع رُعَاتِهَا، واشتقاق السَّامر من السَّمر، وهو ظل القمر مأخوذ من السمرة فلَمَّا كان غالب أحوال السَّمار أنهم يتحدثون في ظل القمر اشتقَّ لهم اسم منه، وإلى هذا يَزَجِع قولهم: «لَا أَكَلَمَهُ الْقَمَرُ وَالسَّمر».

وقوله: «لَيْسَ بَعْشُكَ فَادْرُجِي» هذا مثل يضرب لمن يتعاطى ما لا ينبغي له، والعُشُّ: ما يكون في شجرة، فإذا كان في حائط أو كهف جبل فهو وكر.

وقوله: «الإيناس قبل الإيساس» هذا مثل أيضاً، ومعناه أنه ينبغي أن يؤنس الإنسان ثم يكلف، وأصله أن حالب الناقة يؤنسها حين يَرُوم حَلَبَهَا، ثم يبسُّ بها للحلب، والإيساس أن تقول لها: بس بس، لتسكن وتَدِرَّ وتسمى الناقة التي تَدِرُّ على الإيساس: البسوس.

وقوله: «يرغب في الشُّكْم» الشُّكْم ما أعطيتَه على سبيل المجازاة، فإن أعطيتَه مبتدئاً فهو الشُّكْد.

وقوله: «ساء أبا مثنوا» يعني المضيف الذي أووا إليه وثنوا عنده.

وقوله: «ناقة عيدية» قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب اسمه عيد، وقيل: هي منسوبة إلى فخذ من مَهْرَة اسمه عيد بن مهرة وكانت مهرة وعيد تتخذان نجائب الإبل، فنسبت إليهما.

وقوله: «حَلَّة سعيديّة» هي منسوبة إلى سعيد بن العاص، وكان رسول الله ﷺ كَسَاه وهو غلام حَلَّة فنُسِبَ جِنْسُهَا إليه.

وقوله: «لَا تَرَرَّا أَضْيَافِي زَبَالاً» أي لا ترزؤهم شيئاً وإن قل، والأصل في الزُّبَال ما تحمله النملة بفيها.

وقوله: «شنشنة أخزمية» أشار به إلى المثل الذي ضربه جدُّ حاتم بن عبد الله بن

(١) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٢٩٣، ولسان العرب (شهب)، والمخصص ٧٨/١، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٨٧/٦، وديوان الأدب ٣٩٤/٢.

سعد بن الحشرج بن أخزم الطائي، حين نشأ حاتم وتقبل أخلاق خذّه أخزم في الجود. فقال: «شنشنة أعرفها من أخزم» وتمثل عقيل بن علفة به حين قال: [الرجز]

إِنْ بَنِي ضَرَجُونِي بِالْدمِ مَنْ يَلْقَ آسَادَ الرِّجَالِ يُكَلِّمُ
* شِنْشِنَةً أَعْرَفَهَا مِنْ أَخْزَمِ^(١) *

ومن ادّعى أن المثل له فقدسها فيه.

وقوله: «اجلوذ» أي أسرع في الذهاب ومثله اخروط.

وقوله: «وَبَّ إِلَى النَّاقَةِ فَرَحَلَهَا» يعني شدّ عليها الرّخل، وبه سُميت الراحلة لأنها فاعلة بمعنى مفعولة كقوله تعالى: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي مَرْضِيَّة. وكقوله تعالى: ﴿مَنْ مَاءٍ ذَاقِي﴾ [الطارق: ٦]، أي مدفوق، والراحلة تقع على الناقة والجمل ودخولها الهاء فيها للمبالغة، مثل داهية وراوية.

وقوله: «ارتحلها» أي ركبها، وفي الحديث أن النبي ﷺ سجد، فركبه الحسن فأبطأ في سجوده، فلمّا قضى صلاته قال: «إِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكُرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ»^(٢).

وقوله: «ورحلها» أي أزعجها وأشخصها وأجدّ بها في الرحيل، ومنه الخبر: «تخرج عند اقتراب الساعة نارٌ من قَعْرِ عَدَنَ تَزْحَلُ النَّاسُ»^(٣).

وقوله: «فأذلجي وأويي وأسدي». الإدلاج: أن تسير الليل كلّهُ والاسم منه الدَّلْجَة بفتح الدال والاذلاج بالتشديد: أن تسير من آخره والاسم منه الدَّلْجَة، بضم الدال. وقيل فتحها وضمها بمعنى واحد. والتأويب: سِيرَ النَّهَارَ وحده، والإستاد: أن تسير ليلاً ونهاراً. والشُّح: أن تشرب دُونَ الرّيّ.

وقوله: «ما قَدُم وما حَدَثُ» يقال ذلك لمن تستولي الهموم عليه وتتلاعب به. وتضمّ الدال من «حَدَثُ» في هذا الموضوع وحده، ليوافق لفظها لفظ «قَدُم»؛ فإن أفردت «حَدَثُ» عن قَدُم وجب فتح الدال من «حَدَثُ». ومثله قولهم: هنأني ومرأني بحذف الألف من أمرأني إذ ذكر مع «هنأني» فإن أفردته قلت: أمرأني الشيء.

وقوله: «ذهبنا تحت كلّ كوكب» هذا المثل يضرب لمن تختلف في السفر طُرُقهم وتباين سبلهم.

(١) الرجز لأبي أخزم الطائي في لسان العرب (رمل) (خزم)، (شنن)، ومجمل اللغة ١٨٣/٣، ولعقيل بن علفة في جمهرة اللغة ص ٥٩٦، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢١٨/٧، ٢٨١/١١، وتاجر العروس (نشش)، وجمهرة اللغة ص ٨٠١، وكتاب العين ٢٢٠/٦، والمخصص ٦/٩٤، وديوان الأدب ١٠٦/٣.

(٢) أخرجه النسائي في التطبيق باب ٨٢، وأحمد في المسند ٤٩٤/٣، ٩٩/٦.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن حديث ٤٠، وأحمد في المسند ٧/٤.

المقامة الخامسة والأربعون

وهي الرَّمْلِيَّة

حكى الحارث بن همام قال: كنت أخذتُ عن أولي التجارِيب، أن السَّفَر مرآة الأعاجيب، فلم أزل أجوبُ كلَّ تَنُوفَةٍ، وأقتحم كلَّ مَخُوفَةٍ، حتى اجتلبت كلَّ أطروفة: فمن أحسن ما لمحتُه، وأغرب ما استَمَلَحْتُه، أن حَضَرْتُ قاضي الرَّمْلَةِ، وكان من أرباب الدَّولة والصُّولة، وقد ترفع إليه بال في بال، وذات جمال في أسمال، فهمم الشَّيْخُ بالكلام، وتبيان المَرَام؛ فمنعته الفتاة من الإفصاح، وخسأته عن الثَّبَاح، ثم نَضَّت عنها فضلة الشَّوْشاح، وأنشدته بلسان السَّلِيطة الوقاح.

أولي التجارِيب، أي أصحابها وأهلها. أجوب: أقطع، تنوفة: قفرة. أقتحم: أدخل. اجتلبت: رأيت. أطروفة: عجيبة. لمحتة: نظرت. استملحت: وجدته مليحاً. الصولة: الاستطالة. وقد صال إذا استطال وهذد. ترفع، أي تداعى للحكومة، ورفع كل واحد صاحبه. بال: شيخ كبير. في بال: في ثوب خَلَق. وأسمال، ثياب خَلَقَة، واحدها سَمَل، وسمل الثوب وأسمل، ويقال أيضاً: ثوب أسمال، فيوصف بالجمع، كما يقال: رمح أقصاد، وبرمة أعشار. تبيان المرام: تبين مراده. وإظهار حجته. الإفصاح: التبيين. خسأته: أبعدته وطرده، الثَّبَاح: الكلام هنا. وخسأ ونبح أصلهما في الكلب، ويقال: خسأت الكلب خسأً: طرده وأبعدته، وخسأ الكلب بنفسه، أي انخسأ، يتعدى ولا يتعدى، قال تعالى: ﴿اٰخَسُّوْا فِيْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي تباعدوا تباعد سُخْط. نضت: جردت. الشَّوْشاح: الحزام، وهو المنطقة، الفنجدية: الشَّوْشاح شبه قلادة تنسج من آدم عريضة وتُرَصَّع بالجواهر وغيرها، السَّلِيطة: المستطيلة بلسانها، الوقاح: التي ليس في وجهها حياة، فهي تقول ما شاءت. [السرير]

يا قاضِي الرَّمْلَةِ يا ذا الَّذِي	في يده التَّمْرَةُ والجَمْرَةُ
إليك أشكو جُورَ بَغْلِي الَّذِي	لم يَخْجُجِ الْبَيْتَ سِوَى مَرَّة
وليتَّه لَمَّا قَضَى نُسْكُهُ	وخَفَّ ظَهْرًا إِذْ رَمَى الْجَمْرَةَ
كَانَ عَلَى رَأْيِ أَبِي يَوْسُفَ	في صَلَاةِ الْحِجَّةِ بِالْعُمْرَةِ

هذا على أنى مُذْ ضَمَّنِي إليه لَمْ أعصِ له أَمْرَةٌ
فمِرَّةٌ إمَّا أَلْفَةٌ حُلُوءَةٌ تُرْضِي وإمَّا فَرْقَةٌ مُرَّةٌ
من قبل أن أخلع ثوب الحيا في طاعة الشيخ أبي مُرَّة

* * *

الرَّملة: قرية بالشَّام، وقسم الشَّام خمسة أقسام، فْخُمس منه فلسطين ومدينته العظمى الرَّملة، والرَّملة أربعة آلاف ضيعة، ومن مدن فلسطين إيلياء مدينة بيت المقدس، وبينها وبين الرَّملة ثمانية عشر ميلاً، وقال ابن ظَفَر: عشرون فرسخاً، التَّمرة والجمرة: الخير والشر، والنفع والضَّر، ويضرب بهما المثل في هذا المعنى، ومن قضى له بشيء فكأنه قد أعطاه. والبيت، وَعَنْتْ به فَرَجها يُحَجِّج: يقصد إليه بالجماع، وقولها سوى مُرَّة، تريد أول مُرَّة وطئها وافترعها ولم يَعْذْ لها بعد تلك المِرَّة، وتعني بالنسك افتراعها وما هناك من الدم. وَعَنْتْ برمي الجمرة إتيانها لها، وجمع الجمر جمار، وهي الحجارة الصغار عند العرب، وجمر الرجل تجميراً: رمى جمار مكة، قال عمر بن أبي ربيعة: [الطويل]

فلم أر كالتجمير منظرَ ناظرٍ ولا كَلْيالي الحج أفلتن ذا هَوَى
ومنه الحديث: «وإذا استجمرت فأوتر»^(١). معناه تمسَّحت بالحجارة.

[أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم]

أبو يوسف، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصاري. وأبو يوسف كوفي صاحب أبا حنيفة فغلب عليه؛ حتى قالوا: أبو يوسف أبو حنيفة. أي يسدُّ مسدَّه ويغني عنه، وروي عن أبي حنيفة والمطرف والمغيرة وهشام بن عروة الشيباني. وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم، وكان قاضي القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء: المهدي والهادي والرَّشيد، وكانت أم جعفر قد استفتته في مسألة، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده، فوافق بذلك مرادها، فأهدت له حُقّاً من فضة فيه طيب وجام فضة فيه دنانير، فقال له بعض مَنْ حضره: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْدَيْتَ لَهُ هَدِيَّةً فجلساؤه شركاؤه فيها»، فقال أبو يوسف تأوَّلت الخبر على ظاهره، والاستحسان قد منع من إمضائه، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التَّمر واللبن، لا في هذا الوقت، والهدايا ذهب وورق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الوضوء باب ٢٥، ٢٦، ومسلم في الطهارة حديث ٢٠، ٢٢، ٢٤، وأبو داود في الطهارة باب ١٩، والترمذي في الطهارة باب ٢١، والنسائي في الطهارة باب ٣٨، ٧١، وابن ماجه في الطهارة باب ٢٣، ٤٤، والدارمي في الوضوء باب ٥، ٣٢، ومالك في الطهارة حديث ٤، وأحمد في المسند ٢/٢٣٦، ٢٥٤، ٢٧٧، ٣٠٨، ٣١٥، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٧١، ٣٨٧، ٤٠١، ٤٦٣، ٤٨٢، ٢٩٤/٣، ٤٠٠، ١٥٦/٤.

قال أبو جعفر الطحاوي: ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة.

حماد: رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زُفر، وهما يتجادلان في مسألة، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده عليه زُفر، ولا يقول زُفر قولاً إلا أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده، فضرب بها فخذ زُفر، وقال: لا تطمع في رئاسة في بلد فيها أبو يوسف، فقضى لأبي يوسف.

علي بن حرملة التيمي: قال أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه، وأنا مُقل رث الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بني لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة، فإن خير أبي حنيفة مستو، وأنت محتاج إلى المعاش، فقضت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة والدي فتقذني أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلت أتعهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتته بعد تأخري عنه، قال لي: ما يشغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش، وطاعة والدي، فلما انصرف الناس دفع إلي صرة، وقال: استمتع بهذه، وإذا فيها مائة درهم، وقال لي: الزم الجماعة، فإذا نُفدت فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى، ثم كان يتعهدني كذلك، وما أعلمته بنفادها قط، وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت.

علي بن الجعد: حدثني أبو يوسف، قال: توفي أبي إبراهيم، وخلفني صغيراً في حجر أمي فأسلمتني، إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر على حلقة أبي حنيفة فأجلس وأستمع، فتجيء أمي فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يُعنى بي لما كان يرى من حرصي على التعلم، فلما طال ذلك على أمي وكثر عليها هربي، قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مغزلي، وأمل أن يكتسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مرّي يا رعاء، ها هو ذا يتعلم أكل الفالودج بذهن الفستق، فانصرفت عنه وهي تقول: أنت شيخ قد خرفت وذبح عقلك. قال: ثم لزمته ونفعني الله تعالى بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء، فكنت أجالس الرشيد، وأكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قُدم إليه فالودجة. فقال لي: كل يا يعقوب، فليس في كل يوم يُعمل لنا مثلها، فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه فالودجة بذهن فُسْتُق، فضحكت فقال لي: ممّ تضحك؟ فقلت: خيراً، وأبقى الله أمير المؤمنين، فقال: لتخبرني وألح عليّ، فحدثته بالقصة من أولها إلى آخرها. فعجب من ذلك، وقال: لعمرى إن العلم لينفع ويرفع ديناً ودنياً، وترحم على أبي حنيفة، وقال: إنه كان ينظر بعين عقله ما لا ينظره غيره بعين رأسه. وأبو يوسف أول من دُعي بقاضي القضاة في الإسلام.

إسحاق الموصلي: حدثني بشر بن الوليد، وسألت: من أين جاء؟ فقال: كنت عند أبي يوسف القاضي، وكنت في حديث ظريف. فقلت: حدثني به، فقال: قال لي أبو

يوسف: كنت البارحة قد أُوِنْتُ إلى فراشي، فإذا داق يدُق الباب بشدة، فأخذت علي إزارِي، وخرجت، فإذا هو ابنُ أَعِين يقول: أجب أمير المؤمنين، فقلت: يا أبا حارثة لي بك حُرمة، وهذا وقتٌ كما ترى، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين دعاني لمكروه، فإن أمكنك أن تدع الأمير إلى غد فلعله أن يحدث له رأي! فقال: ما لي إلى ذلك من سبيل، قلت: كيف كان السبب؟ قال: خرج إليّ مسرور الخادم، فأمرني أن آتي بك أمير المؤمنين، فقلت: أتأذن لي أن أصب عليّ ماء وأتحطّ فإن كان أمرٌ كنت قد أحكمتُ شائي، وإن رزق الله العافية فلن يضرّ، فدخلت ففعلت ذلك، وتطيبت ثم خرجنا إلى دار الرشيد ومسرور واقف، فقلت: يا أبا هاشم خِدْمَتِي وحُرْمَتِي، وهذا وقت ضيق، أفندري لم طلبني؟ قال: لا، قلت: فمن عنده؟ قال: عيسى بن جعفر وحده، ثم قال: مُرْ فإذا صرت في الصّحن فحرّك رجلِك، فإنه في الرواق ففعلت، فقال: مَنْ هذا؟ قلت: يعقوب، قال: ادخل، فدخلت فسَلِّمْتُ فردّ عليّ السلام، وقال: أظننا رؤّعناك؟ قلت: إي والله وَمَنْ خَلَفِي، قال اجلس، فلما سكن رَوْعِي، قال: يا يعقوب هل تدري لم دعوتك؟ قلت: لا، قال: لأشهدك على هذا؛ إن عنده جارية، فسألته أن يهبها أو يبيعها لي فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه. فالتفتُ إلى عيسى وقلت: وما بلغ قَدْر الجارية؟ أتمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ فقال لي: عجّل القول قبل أن تعرف ما عندي، إن عليّ يميناً بالطلاق والعناق وصدقة ما أملك ألا أبيعها لأحدٍ ولا أهبها، فالتفت إليّ الرشيد، فقال لي: هل لك في ذلك مخرج؟ فقلت: نعم، قال: وما هو؟ قلت: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يبيع ولم يهب، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت: نعم، قال: فأشهدك أنني قد وهبتُ له نصفها، وبعث منه نصفها بمائة ألف دينار، وأتيت بالجارية، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا يعقوب، وبقيت واحدة، قلت: يا أمير المؤمنين، وما هي؟ قال: هي مملوكة ولا بد أن تُسْتَبْرأ، والله إن نفسي لتخرج إن لم أبت معها. فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرّة لا تُسْتَبْرأ، قال: فإنني قد أعتقتها، فدعا بمسرور وحسن، وخطبتُ وحمدت الله ثم زوجت على عشرين ألف دينار، ودفع المال إليها، ثم قال: يا يعقوب انصرف، ثم قال: يا مسرور احمل إلى أبي يوسف مائتي ألف درهم وعشرين ثوباً، فحمل معي ذلك، قال بشر: فالتفت إليّ يعقوب، فقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا قال: فحقّق منها العُشر فشكرته، وذهبت: لأقوم وإذا بعجوز دخلت، فقالت: يا أبا يوسف، بنتك تقرّك السلام، وتقول: والله ما وصلني من أمير المؤمنين في ليلتي هذه إلا المهر الذي قد عرفت، وقد جعلت إليك النصف منه، وخلفت الباقي لما أحتاج إليه، فقال: رُدِّيهِ، فوالله لا قبلته، أخرجتها من الرّق وزوّجتها من أمير المؤمنين وترضيني بهذا، فلم نزل نتلطف إليه أنا وعمومتي يقبلها قبلها وأمر لي بألف دينار.

وأما صلة الحج بالعمرة التي ذكر الحريري، فإن أبا يوسف في ذلك مخالف لمالك

رضي الله عنهما في أن القرآن في الحج أفضل من الأفراد، وهو مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقوله: خَفَّ ظَهْرًا، أي حطَّ عن ظهره بعض الذنوب، والذي أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرَّة واحدة خَفَّفَ بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرَّتين فورَّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى.

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجها تستعديه عليه، وتذكر أنه عثين فقال الرجل: [الكامل]

الله يعلم يا مغيرة أنني قد دُسْتُهَا دَوْسَ الْحِصَانِ الْمُرْسَلِ^(١)
وأخذتها أخذ المعنف شاته عَجْلَان يَذْبَحُهَا الْقَوْمُ نُزْلِ
فقال له المغيرة: إني لأرى ذلك في شمائلك.

وخاصمت الدهناء بنت مسحل أحد بني مالك بن سعد بن زيد مناة العجاج، وكان من بني عمها إلى والي اليمامة، فكان أبوها يُعينها على ذلك، فقال له أهل اليمامة: ألا تستحي، تطلب العُسْبَ لابنتك! فقال: إني أحب أن يكون لها ولد، فإن أفرطتهم أجرت، وإن بقُوا دعوا الله لها، فدخلت على واليها، فقالت: إني منه بجمع، فقال: لعلك تغارين الشيخ؟ فقالت: إني لأرخي له بأذي، وأقيم ضلبي، فقال العجاج: [الرجز]

أظنت الدهنا وظن مسحل أن الأمير بالقضاء يعجل^(٢)
عن كسلاتي والحصان يكسل عن السِّفَاد وهو طِرْف هينكل
فقالت هي: [الرجز]

والله لولا خشية الأمير وخشية الشرطي والمثير^(٣)
لجلت من شيخ بني الفقير كجولان صغبة عسير
فأخذها وضمها إليه يقبلها فقالت: [الرجز]

تالله لا تخذعني بالضَّمِّ إليك والتَّقْيِيل بغد الشَّم^(٤)

(١) البيتان للعجاج في ملحق ديوانه ٣١٢/٢، وتاج العروس (فتح) ولسان العرب (فتح).

(٢) الرجز للعجاج في ملحق ديوانه ٣١١/٢، ولسان العرب (كسل)، (هكل)، (دهن)، وتهذيب اللغة ٦٠/١٠، وتاج العروس (كسل)، (دهن).

(٣) الرجز للدهناء بنت مسحل (امرأة العجاج) في لسان العرب (تور)، وتاج العروس (تأر)، (تور)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣٣٨/١، ومجمل اللغة ٣١٨/١.

(٤) يروي الرجز:

إلا بزِعْزَاع يُسَلِّي هَمِّي تُنْقِطُ مِنْهُ فَتَحْنِي فِي كَمِّي
وهو للدهناء بنت مسحل في لسان العرب (فتح)، (زعم)، والتنبيه والإيضاح ٢٨٨/١، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤٧٠/٤.

إلا بهزهاز يُسَلِّي همِّي ينزع عَنِّي فتجي في كُمِّي
فذهب بها إلى أهلها، فطلَّعها في تلك الليلة سراً، ولو استقبلها العجاج بما وصف
ابن الرومي حيث يقول: [الوافر]

ألا يا هند هل لك في ممدُّ غليظٍ تفرحين به متينٌ
يشدُّ به حشاك غلام نيكٍ من الفتيان منقطع القرينُ
فمن يره يبولُ يقول: أنثى بدا من فرجها ثلثا جنينُ
لرضيته، ولم تحاكمه.

قوله: ألفة: صُحبة. أخلع: أزيل. وأبو مرّة. كنية إبليس لعنه الله، وكني بذلك لما
تقدّم أن أبغض الأسماء إلى الله مرّة وحرب. تقول: إما يصاحبني صحبةٌ يرضيني فيها
بكثرة الجماع، وإلا أزلتُ عني الحياء وخرجت أزني وأفسق في طاعة إبليس، ولو عالجهما
بما كان يعالج به رجل زوجته، وكان إذا وقع بينهما شرٌّ انحنى عليها بالجماع، فكانت
تقول: لعنك الله! كلما وقع بيننا شرٌّ جئتني بشفيع لا أقدر على ردّه! فلو جاءها بهذا
الشفيع لما رفعته إلى الوالي.

محمد بن يحيى بن حيّان: عاتبت جدّتي جدّي في قلة الباه، فقال لها: أنا وأنت
على قضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالت: وما قضاء عمر؟ قال: قال: إن الرجل
إذا أتى امرأته في كلّ طهرٍ مرّة فقد أدّى حقها، قالت: فكلُّ الناس تركوا قضاء عمر،
وأقمْتُ أنا وأنت عليه!

وقال أعرابي كبر وعَجَز: [الرجز]

عجبت من أيّري كيف يَضْنَع أدفعه بإصبعي فيرجع
* يقوم بعد الشدِّ ثم يركع *

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز، فقال: [البسيط]

النَّفْس تطمع والأسباب عاجزة والنَّفْس تهلك بين العجز والطمع
خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز، فقال: ويحك! ما أوسع حرك! فقالت: [البسيط]
أنت الفداء لمن قد كان يملؤه ويشتكى الضيق منه حين يلقاه

وكان عروة بن شَيْمٍ أوفر الناس أيراً وأشدّهم نكاحاً، وكان إذا أنعط يستلقي على
قفاه فيأتي الفصيل الجرب فيحتك بأيره يظنه الجذل، وهو عود في العطن يُنصب لتحتك
به الإبل الجربى.

ويزعمون أنه أصاب أيره جنب عروس رُفَّت إليه، فقالت له: أتهددني بالركبة! وهو

القائل: [الطويل]

ألا رُبَّما أنْعَظْتُ حتَّى إِخالَهُ سَينَقْدُ لِلإنْعَاضِ أَوْ يَتمَرِقُ
فأُغْمِلُهُ حتَّى إِذا قَلْتُ: قَدَوْنِي أبى وَتَمَطَّى جَامِحاً يَتمَطِّقُ

وأقبل رجل على علي رضي الله عنه فقال: إن لي امرأة كلما غشيتها، تقول: قتلتي قتلتي! فقال: اقتلها وعليّ إثمها.

وقع أعشى همدان أسيراً عند الذيلم، ثم إن ابنة العليج الذي أسرَه عشقته، فمكنته ليلة من نفسها، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات، فقالت له: يا معشر المسلمين، أهكذا تفعلون بنسائكم! قال: هكذا نفعل كلُّنا، فقالت: بهذا العمل نصرتم، أفرأيت إن خلصتُك تصطفيني؟ فعاهدها، فحلت قيوده بالليل، وأخذت به في طرقِ تعرفها حتى تخلص، فقال أسير شاعر فيه: [الطويل]

فَمَن كان يَفْدِيهِ مِنَ الأسرِ مالُهُ فهُمْدانُ تَفْديها الغدَاةُ أيورُها

كان عبد الله بن عمر من أنزه الناس نفساً، وأبعدهم عن المزاح وذكر الفاحشة، فجاءه ابن أبي عتيق يوماً، وكان صاحب مزاح وفكاهة، وفي يده رُقعة فيها: [الطويل]

ذَهَبَ الإلهَ بِما تَعيشُ بِهِ وَقَمَرْتُ مالَكَ أَيَّما قَمَرِ

أنفقت مالك غير مكترث في كُلِّ زانِيَةٍ وفي الخمرِ

وكانت هجته بهما امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومي، فقال: يا أبا عبد الرحمن، انظر هذه الرقعة وأشر عليّ برأيك فيها، فلما قرأها عبد الله استرجع فقال: ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر؟ قال: أرى أن تعفو وتصفح، فقال: يا أبا عبد الرحمن، لئن لقيتُ صاحبه لأنيكئُه نيكاً جيداً، فأخذ ابن عمر من قوله وأرعد وأزبد، قال: ما لك؟ غضب الله عليك! فقال: ما هو إلا ما قلت لك، واقتربا، فلما كان بعد أيام لقيه ابن عمر، فأعرض عنه، فصاح: يا أبا عبد الرحمن، إني لقيتُ صاحب البيتِين فنكته والله نيكاً شافياً، وأقسم على ذلك، فصعق ابن عمر، فلما رأى ابنُ أبي عتيق ما حلَّ به دنا منه، وقال له في أذنه: إنها والله امرأتي، فقام ابن عمر وقد سُري عنه، وهو يضحك، فقبله بين عينيه، وقال أحسنت، زده من هذا الأدب، فلن يهجوكم بعدها أبداً.

فقال له القاضي: قد سمعتُ ما عزتكَ إليه، وتوَعَّدتكَ عليه، فجانب ما عرَّكَ، وحاذر أن تُفَرِّكَ، وتعرَّكَ، فجثا الشيخُ على ثَنائِهِ، وفجَّرَ ينبوعَ نَفائِهِ، وقال: [الرجز]

اسمَحْ عَدَاكَ الذَّمُّ قولُ امرئٍ يَوضَحُ فيما رابها عُدْرُهُ

والله ما أَعرضْتُ عنها قَلِيَّ ولا هَوَى قَلْبِي قَضَى نَذْرُهُ

وإنَّما الذَّهْرُ عَدَا صَرَفُهُ فابْتَزَّنا الدُّرَّةَ والدُّرَّةَ

فمنزلي قفرَ كمَا جيدهَا عَظِلَ من الجِرْعَةِ والشَّدَرَةِ
وكنْتَ من قَبْلِ أرى في الهَوَى وديْنِه رأى بنِي عذَرَةِ
فمُذْنِبَا الدَّهْرِ هَجَرْتُ الدُّمَى هَجَرَانْ عَفَّ أَخَذَ حِذَرَةَ
وملْتُ عن حَزْئِي لا رَغْبَةً عنه ولكن أَتَقِي بَذَرَةَ
فلا تَلُمَنَّ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ واعطفْ عليه واحتمِلْ هَذَرَةَ

قوله: عَزَّتْكَ، أي نسبتك. توعدتكَ: هذدتك. عَرَّكَ: شانك، وعابك ولطَّخَكَ بشرَ وساءك، وعَرَّ فلان قومه بشرَ: لطَّخهم به. حَاذِرُ خَفٍ. تُفَرِّكَ: تُبَغِّضُ، وفَرَّكَت المرأة زوجها: أبغضته. وتغرَّكَ: تُذَلِّكَ ذَلَكًا شديدًا مثل ذلك الأديم، وعركتُ القوم في الحرب قاتلتهم. جَنَّا يجثو جَثْوًا وجثيًا: جلس على رُكْبتيه. الثَّفِينَات: ما ولى الأرض من أعضاء البعير وعَلَّظَ؛ إذا برك على الرُّكبتين والكرَّكَ، ينبوع: ماؤها النابع. نَفَثَاتِه: كلماته. عَدَاكَ: تجاوزكَ. يُوضِح: يُبَيِّن. رابها: شكَّكها وأدخل عليها الرِّيَّة.

أغرَضْتُ: صَدَدْتُ. قَلَى: بغض. هَوَى: حب. النذر: أن ينذر الإنسان على نفسه شيئاً يفعلُه، وقضى نحبه: استوفى عَرَضُه، عدا: ظلم. صَرَفَه: تصرفه بالإنكاد، ابتزَّنَا: سلبنا، الدَّرَّة: اللؤلؤة، والذرة: اللبن، ومالُ العرب الإبل، وعيشهم من لبنها، فلهذا جئس بالذرة مع الدرة. جيدها: عنقها. عطل: خال الجزعة: حَرَزَ يمانِي، وهي التي فيها بياض وسواد. والشَّدر: قطع من ذهب، يفصل بها بين الجواهر، وقيل: الجزع: خَرَزَ مُلَوْن، والشَّدر: خرز أخضر، وقيل: الشَّدر: القطعة من الذهب تُلْتَقَط من المعدن من غير إذابة الحجارة.

بني عذرة. قبيلة يغلب على قلوبهم حب النساء، فكلَّ مَنْ أفرط في حبهن قبل له: عَذِرِي، فنسب إليهم. وسُئِلَ أعْرَابِي، فقليل له: من أين أنت؟ فقال: من قبيلة إذا أَحْبَبُوا ماتوا، فسمعتة جارية، فقالت: عَذِرِي ورب الكعبة.

قوله: نبا، أي ارتفع وزال خيرُه، الدَّمَى: النساء المشبهات في بياضهن وصفائهن بصور الرِّخام. وكان العاشق من العرب إذا غلب عليه العاشق والهجر ذهب إلى الأمصار فاشترى صورة من رُخام على صورة محبوبته، فإذا ركب بغيره أجلس الصُّورة بين يديه يحدثها، ويستريح إليها، فسمَّوا النساء دُمَى تشبيهاً بصور الرِّخام. عَفَّ: عفيف. البذر: ما يزرع في الأرض من الحبوب، وحرثه نكاحه، وأراد بالبذر ما يزرعه فيها من النُّطفة هذره: هذيانه، وكلامه الفارغ.

قال: فَالْتَطَّطِ المرأة من مَقَالِهِ، وانتَضَتِ الحُجَجُ لجداله وقالت له: ويلك يا مرقعان! يا مَنْ هو لا طعام ولا طِيعان؛ أتضيق بالولد دُرْعاً، ولكلِّ أكلةٍ مَرَعَى؛ لقد ضلَّ فهمك، وأخطأ سهمك، وسفِهت نفسك، وشقيت بك عِرْسُكَ.

فقال لها القاضي: أما أنت فلو جاذلتِ الخنساء، لانشئتِ عنكِ خَرْسَاء، وأما هو فإن كَانَ صَدَقَ في زعمه، ودَعَوَى عُدْمِهِ، فَلَهُ في هُمِّ قَبْقَبِهِ، مَا يَشْغَلُهُ عن دَبْدَبِهِ، فأطَرَقَتْ تنظر ازوراراً، ولا تَرْجِعُ حِوَاراً. حتى قلنا قد راجعها الخفر، أو حاق بها الظفر، فقال لها الشيخ: تَغْسَأُ لَكَ إن زُخْرَفْتَ، أو كَتَمْتَ مَا عَرَفْتَ. فقالت: ويحك! وهل بعد المنافرة كَتَمَ، أو بَقِيَ لنا على سِرِّ خَتَم! وما فينا إلا مَنْ صَدَقَ، وهتك صَوْنَهُ إذ نَطَقَ، فليتنا لاقينا الْبَكَمَ، ولم نلقِ الْحَكَمَ، ثم التَفَعَّتْ بوشاحها، وتباكَّتْ لا فِتْصَاحِها، وجعل القاضي يَغْجَبُ من خُطْبِهِمَا وَيُعْجَبُ، ويلوم لهما الذَّهْرَ وَيُؤْتِبُ، ثم أحضر من الورق أَلْفَيْنِ، وقال: أرضيا بهما الأَجَوْفَيْنِ، وعاصيا النازعَ بين الإلفين، فشكراه على حسن السَّراح، وانطلقا وهما كالماء والراح.

التَّظَلَّتْ: حَقَّدَتْ والتهبت غيظاً، وانتضت: جَرَدَتْ: جداله: خصامه.

مرقعان: كثير الرِّقَاعة، والرِّقَاعة كالحماقة، كأن عقله تخَرَّقَ فَرُقَّعَ، وضِقت بالشيء ذرعاً، إذا لم تقدر عليه، ضَلَّ: تحير. عرسك: زَوْجُكَ. جادلت: خاصمت. انشئت: رجعت. خرساء: بكماء. زَعَمَهُ: ما ادَّعاه. قوله: قَبْقَبِهِ، الْقَبْقَبُ: البطن، والقَبْقَبَةُ: الصوت الَّذِي يدور فيه، فَسَمِّيَ بِهِ.

والذَّبْدَبُ: الذَّكْرُ، وأصل الذَّبْدَبَةُ الاهتزاز والاضطراب، فسمي الذَّبْدَبُ لحركته، ونَظَرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شاب، فقال: يا شاب إن وُقِيت شرّ ثلاث، وُقِيت شرّ الشَّباب: لقلقلك، وذبذبك، وقببك، الأصمعي: اللقلق: اللسان، والقَبْقَبُ البطن، والذَّبْدَبُ: الذكر.

قوله: أطَرَقَتْ، أي سكنت مميلةً إلى الأرض رأسها حياءً. ازوراراً: مِيلَانَا.

والحِوَارُ: مراجعة الكلام. الْخَفَرُ: الحياء. حاق: لحق، وَالظَّفَرُ هنا: غلبة حُجَّتِهَا وظفرها به. تَغْسَأُ: هَلَاكاً، زخرفت هنا: زَيَّنْتَ الباطل، المنافرة: المحاكمة. خَتَمَ: ربط، أي قد أظهرنا جميع أسرارنا، هتك: خرق. صونته: صيانته. لاقينا الْبَكَمَ، أي أصابنا الْبَكَمُ وخلقنا خُرساء، فلم نبد ما أبديناه من القبايح، والبكم: الخرس مع عي. وقال ثعلب: البكم: أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكم بَكْماً وبَكَاماً، والحكم: الحاكم. التَفَعَّتْ: التَفَّتْ. والوشاح: الثوب، وقد توشحت بثوبها، جعلته موضع وشاحها. لا فتصاحها: لاشتهارها بالقبايح. خُطْبِهِمَا: أمرهما. يعجَبُ: يجعل غيره يعجَبُ منه، يؤْتِبُ: يوبِّخ ويلوم. الورق: الدراهم. الأَجَوْفَيْنِ: البطن والفرج. النازع: الماشي بالشر المفسد، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ نزغاً، أغوى وأفسد، والإلفين: الصاحبين، السَّراح: الانصراف. والراح: الخمر، وهي سريعة الامتزاج مع الماء، فيضرب بهما المثل في امتزاج نفوس المتحابين.

وقد جاء من ذلك في الشعر ما يستحسن، قال ابن أبي فتن: أحسن ما قيل فيه قولُ
العباس بن الأحنف: [البيسط]

ما أنسَ ما أنسَ يُمنّاها معطفةً على فؤادي ويُسراها على رَاسي^(١)
وقولها: ليته ثوبٌ على جسدي وليتني كنتُ سزبالاً لعباس
أو ليته كان لي خمراً وكنت له من ماء مزِنٍ فكنا الدهرَ في كاس
قال الحاتمي: وأحسن دعبل كل الإحسان في قوله: [البيسط]

الله يعلم والأيام دائرةً والمرء ما بين إيحاش وإيناس^(٢)
أنّي أحبُّك حبّاً لو تضمَّنهُ سَلَمَى سميكَ ذلك الشاهقَ الرّاسي
حبّاً تلبس بالأحشاء وامتزجا تمازج الماء بالصّهباء في الكاس
وقال البحرّي فأحسن: [البيسط]

تهتئزُّ مثلَ اهتزاز الغصن حرَّكه مُرور غيْثٍ من الرّسميّ سَحّاح^(٣)
إنّي وجدتك من قلبي بمنزلةٍ هي المصافاة بين الماء والراح

وطبق القاضي بعد مُسرحهما، وتثنّى شَبَحهما، يُثني على أدبهما. ويقول: هل من
عارفٍ بهما؟ فقال له عيْنُ أعوانه، وخالصةُ خُلصَانِه: أما الشيخ فالسُّرُوجي المشهودُ
بفضيلة، وأما المرأة فقعيدة رَحْلِه، وأما تحاكمهما فمكيدهُ من فعله، وأحبولةُ من حبال
ختله، فأحفظ القاضي ما سمع، وتلهب كيف خُذع، ثم قال للواشي بها: قُمْ فردّهما، ثم
اقصدهما وصدّهما، فنهض ينفض مِذْرويه، ثم عاد يضرب أصدْرَيْه، فقال له القاضي:
أظهرنا على ما نبئت، ولا تُخَفِ عَنّا ما استخبئت، فقال: وما زلتُ أَسْتَقْري الطرق،
وأستفتح العُلُق، إلى أن أدركتهما مُضْجِرَيْن، وقد زَمّا مَطْيَ البين، فرغبتهما في العَلل،
وكلفت لهما بنيل الأمل، فأشرب قلب الشيخ أن ييأس، وقال: الفِرار بقراب أكيس،
وقالت هي: بل العود أحمد، والفروقة يكمد.

قوله: طَقّق، أي جعل. مسرحهما: انصرفهما. تنائى شَبَحهما: بعد شَخْصهما،
وعين الأعوان: مقدّمهم. والخُلصان: الأحباب وخالصة: خيار، فكأنه خيار خيارهم.
قعيدة رَحْلِه: زوجته وصاحبة بيته. مكيدة: مكر أحبولة: شبكة. ختله: خداعه. أحفظ:

(١) الأبيات في ديوان العباس بن الأحنف ص ١٥٦.

(٢) الأبيات في ديوان دعبل بن علي الخزاعي ص ٩٤.

(٣) البيتان في ديوان البحرّي ص ٤٤٢.

أغضب. تلهف: تندم فصاح: يا لهفي! رُدَّهما: اطلبهما. مذرويه: أطراف أليتيه. والأصدران: عرقان في الصُّدغين، وقيل: هما المنكبان، وقيل: العطفان، ويقال: أتى فلان ينفض مِذْرَوِيَّه، إذا جاء غاضباً يتهدد، ويضرب أصدره، إذا جاء فارغاً بلا حاجة، فإذا قضى حاجته قيل: جاء ثانياً من عنانه، وقال الحسن البصري، ورأى الناس يوم عيد يضحكون، فقال: تلقى أحدهم أبيض بضاً يملخ في الباطل ملخاً، ينفض مِذْرَوِيَّه، ويضرب أصدره، يقول: ها أنا ذا فاعرفوني، قد عرفناك، مقتك الله، ومقتك الصالحون. يملخ: يلج، وقيل يشني ويتكسر. استخبثت: أصبته خبيثاً، أستقري: أتبع، الغلق: جمع غُلقة. وهي المغالقة التي تسدُّ بها الطرق وغيرها، وباب غلق، أي مغلق. مصحرين: ذاهبين في الصحراء. رَمَأَ: شذاً، والبين: الفراق. والعَلل هنا: العطاء. كَفَلْتُ: ضمنت، نيل الأمل: درك الحاجة. أشرب: دوحل وألقي في نفسه، والفرار بقراب أكيس، مثل، وقراب الشيء ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أكيس من الرجوع إلى الطمع، ويروى: الفرار بقراب، بكسر القاف، وهو مصدر بمعنى المقاربة، والمثل لجابر بن عمر المازني، وكان سائراً في الطريق ومعه أوفى بن مطر وشهاب بن قيس، فترأى آثار رَجُلَيْنِ معهما فَرَسَانِ وبعيران وكان قائفاً فقال: أرى آثار رَجُلَيْنِ شديد كلبُهما، عزيز سلبُهما، والفرار بقراب أكيس، ثم مضى هارباً، والمعنى: فرارنا ونحن بقرب السَّلامة خير لنا من أن نتورط في المكروه. والعود أحمد، أي أوفق وأحق أن يوجد محموداً، والعود أحمد مثل، أي الرجوع أحسن، وقال المرقش: [الطويل]

وأحسن فيما كان بيني وبينه فإن عاد بالإحسان فالعود أحمد^(١)

وأشدُّ أبو الحسن لعمارة: [الطويل]

بني دارم إن يفن عُمرِي فقد مَضَى حياتي لكم مني ثناء مخلدُ

بدأتم فأحسنتم وأثنت جاهدأ وإن عدتُم أحسنت والعود أحمدُ

قوله: الفروقة، أي الفزاع الكثير الفرق وهو الخوف، يكمد: يحزن حزناً لا يستطيع إمضاءه. تبين: علم. غَرَّر: خطر.

فلماً تبين الشيخ سَفَهَ رأيها، وغَرَّرَ اجترائها، أمسك ذلاًذِلَها ثم أنشأ يقول لها:
[الرجز]

دونك نُضحِي فاقتفي سُبُلَه واغنى عن التفصيل بالجُمْلَه

(١) يروى صدر البيت:

قد أحسن سعدٌ في الذي كان بيننا

وهو بلا نسبة في كتاب العين ٢/٢١٧، والمخصص ١٢/٢٣١.

طيري متى نقرت عن نخلة
وحاذري العود إليها ولو
فخير ما للصل الأيرى
وطلقها بثّة بتلة
سبلها ناطورها الأبله
ببقعة فيها له عمله

* * *

سَفَه: خفة. والسفيه: الخفيف العقل. اجترائها: جسارتها وجراتها. ذلّالها: أطراف ثوبها، وذلّال القميص: ما يلي الأرض من أسافله، الواحد ذلّل مثل قُمقم وُقماقم. دونك: معناه قاربك ما تطلب فتناوله. اقتفي: اتبعي. سبله: طرقه، نقرت: أكلت ثمرتها بمنقارك، وهو مثل، ونقرت أيضاً: بحثت، والتّنقير: البحث عن الشيء، يقول: متى ما أخذت من ثمر نخلة بنصيب ففارقها ولا ترجع إليها، وفي حديث أبي سعيد قال النبي ﷺ: «خلقت النخلة والزّمانة والعنب من فضل طينة آدم عليه السلام»، والبتّة البتلة: التي لا رجعة فيها، والبثّ: القطع، سبلها: طرقها وأصله لابن السبيل، الناطور: حارس النخل خاصة، بطاء غير معجمة، وقيل: هو حافظ الكرم، والجمع النواطير. الأبله: الكثير الغفلة. اللّص: السارق. وعُمله: سرقة وفعله قبيحة.

* * *

ثم قال لي: لقد عُثيت، فيما وُلّيت، فازجع من حيث جئت، وقل لمُرسلِك إن شئت: [الطويل]

رُويديك لا تُعقب جميلك بالأذى
ولا تتغضب من تزيد سائل
وإن تك قد ساءتْك مِنِّي خديعة
فقبلك شيخُ الأشعريين قد خُدغ
فترضحي وشملُ المالِ والحمدِ منصدغ
فما هو في صوغ اللسان بمبتدغ

فقال له القاضي: قاتله الله! فما أحسن شجونه، وأملح فنونه! ثم إنه أضحَب رائده بُزدين، وضرّة من العين، وقال له: سر سِير من لا يَرى الالتفات، إلى أن ترى الشيخ والفتاة، قبلَ يديهما بهذا الجباء، ويبن لهما انخداعي للأدباء.

قال الراوي: فلم أر في الاغتراب، كهذا العُجاب، ولا سمعتُ بمثله مِن جال وجاب.

* * *

عُثيت: تعبت. وُلّيت: كُلِفْتُ. رُويديك: رفَقك. أي أولنا منك الرفق والمهل. لا تُعقب: لا تتبع. الأذى: الضّرر، وشمل: جمع. منصدغ: متفرّق. صوغ اللسان: كذبه وجيله، وفي الحديث «هذه كذبة صاغها الصّوّاغ»^(١)، أي اختلقها الكذاب. مُبتدغ: أول

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٣/ ٦١، بلفظ: «من حديث أبي هريرة وقيل له خرج الدجال فقال: كذبة كذبها الصّوّاغون».

فاعل . ساءتكَ : أحزنتكَ . شيخ الأشعريين ، هو أبو موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ ، واسمه عبد الله بن قيس ، من ولد الأشعر بن أد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قهلان بن سبأ ، قدم مكة وأسلم بها ، ثم هاجر إلى أرض الحبشة ، ثم قدم مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة ، والذي خدعه هو عمرو بن العاص في قصة التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، وهي قصة مشهورة في كتاب العقد وفي كتاب المسعودي وغيرهما من كتب الأدب ، وفيهما أشياء مناكير في حق الصحابة رضي الله عنهم ، نلذلك أضربنا عن ذكرها .

رائده : طالبه أصحابه : جعله في صُحْبته . بُزْدِين : ثوبين : صُرَّة : خرقه تشدّ فيها الدراهم . العين : الذهب والفضة سير من لا يرى الالتفات ، أي سيراً سريعاً لا يلتفت معه إلى مهمّ . قوله : بَلْ أَيْدِيهِمَا ، يقال : بَلَلْتُ بِهِ أَيْدِيَّ إِذَا ظَفَرْتُ بِهِ ، وَبَلَلْتُ اللَّهُ بَابِن ، أي رزقكه ، وفي الحديث : «بَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ»^(١) ، أي صَلُّوْهَا ، وَبَلَلْتُ رَحِمِي أَبْلُهَا بِلَاءً وَبِلَالاً ، إِذَا نَدَيْتَهَا وَوَصَلْتَهَا . الحباء : العطاء جال : تصرف وقطع البلاد بالمشي .

المقامة السادسة والأربعون

وهي الحليّة

روى الحارث بن همام قال: نَزَعَ بي إلى حلب، شوقٌ غَلَبَ، وطلبُ يا له مِنْ طلب! وكنتُ يومئذٍ خفيف الحاذ، حديث النفاذ، فأخذتُ أَهْبَةَ السَّير، وخفقتُ نحوها خُفُوق الطَّيْرِ؛ ولم أزل مذ حَلَلْتُ رُبُوعها، وارتبعتُ ربيعها، أَفاني الأيام، فيما يشفي الغرام، ويُروى الأوام؛ إلى أن أقصر القلب عن وَلُوعه، واستطار غرابُ البين بعد وقوعه.

نَزَعَ بي، أي شوقني وَحَمَلَنِي.

[مدينة حلب]

حَلَب : مدينة عظيمة بالشام وقنسرين، خمس من أخماس الشام، ومدينته العظمى حَلَب وساحلها أنطاكية. وذكرها شيخنا ابن جببر فقال: حلب بلدة قدرها خطير، وذكرها في كلِّ زمان يطير، حُطابها من الملوك كثير؛ كانت في القديم ربوة فيما يقال، كان يأوي إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بغنمه، فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها، فسميت حَلَب، وبها مشهد كريم منسوب إليه، يَبْرُكُ الناس بالصلاة فيه، ولها قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزهت حصانة أن تُرام أو تُستطاع، قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها، ومن كمال جمالها الزائد على المشترك لحصانة القلع أنَّ الماء بها نابع وقد صنع عليها جفان، والطعام يصير فيها الدهر كله، وليس من شروط الحصانة أهم من هاتين الخَلَتَيْن، ويُطيف بجبلها سوران حصينان، يعترض دونهما خندق بالماء، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه، وسورها الأعلى مجلَّل، كله أبراج منتظمة فيها القلالي المنيعة، وقد فتحت كلها طبقات، وكل برج منها مسكون، والبلد ضخم جداً، جميل الترتيب، أسواقه متصلة الانتظام، تخرج من سماط صفة إلى سماط أخرى، وقيسارياتها وجامعها ومدارسها ما سُمع بمثل وصفها في بلد من بلاد الله تعالى؛ كل سوق من أسواقها مسقَّف بالخشب، يقيد البصر حسناً ويستوقف المستوفز تعجباً. وقيسارياتها حديقة بستان نظافة وجمالاً،

مطيفة بجامعها، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتّصل السماط كله خزانة واحدة، وتخللناها شرف حسنة، بديعة النقش وتفتّحت كلها حوانيت، فجاءت في أجمل منظر، وكلّ سِماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع.

ثم أخذ ابن جببر في وصف الجامع والمدارس والبيمارستان بأنواع من الأوصاف الحسان.

قوله: يا له! معناه التعجب كأنه قال: ما أعجبه من طلب: خفيف الحاذ، أي قليل العيال. وتقدّم الحاذ في السادسة. حيث النفاذ: سريع المضيّ في أموره، ورجل نافذ ونفوذ ونفاذ: ماض في جميع أموره. أهبة: عدة. خففت: ارتحلت بسرعة. حللت ربوعها: نزلت في بيوتها. ارتبعت ربيعها: التمتت خيرها. أفاني: أقاطع، وفني الشيء تم وانقطع. والغرام: عذاب الحب. والأوام: العطش. وأقصر: كف، وأقصرت عن الشيء: تركته، وأنت عليه قادر. ولوعه: مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه. استطار، بمعنى انتشر. وقوعه: نزوله، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذن عندهم بالفراق، وذلك أنهم لا يرون الغراب عند منازلهم إلا إذا حطّوا بيوتهم للرحيل، ينزل يلتمس ما يتركون مما يُلْقَط، ولذلك سمّوه غراب البين، واشتقوا من اسمه الغريب والغربة.

فأغراني البال الخلو، والمَرَحُ الخلو؛ بأن أقصد حمص لأصطاف ببقعتها، وأسبر رقاعة أهل رُقَعَتِهَا؛ فأسرعت إليها إسرَاع النّجم؛ إذا انقضّ للرّجم، فحين خيّمَتْ برُسومها، ووجدت رُوح نَسِيمها، لمح طرفي شيخاً قد أقبل هَرِيرُهُ، وأدبر غَرِيرُهُ، وعند عشرة صبيان، صنوانٌ وغير صنوان، فطاوَعْتُ في قصده الحِرص؛ لأخبر به أدباء حمص فبشّ بي حين وافيته، وحيّاً بأحسن ممّا حَيَّيْتُهُ، فجلست إليه لأبْلُو جَنَى نُطْقِهِ، وأكْتَنَهُ كُنْه حُمْقِهِ، فما لبث أن أشار بعُصِيَّتِهِ، إلى كُبر أَصْنِيْبِيَّتِهِ، وقال له: أنشد الأبيات العواطل، واحذر أن تُماطل، فجثا جَفْوَةً ليث، وأنشد من غير رِيث.

أغراني: حرّضني وسلّطني. الخلو: الفارغ. المرح: النشاط وخفة النفس من الطرب.

[مدينة حمص]

حمص مدينة عظيمة، بينها وبين دمشق مائة ميل، وأرض حمص خُمُس من أخماس الشام، وهي مدينة يقال إن لها سوراً وفي وسطها حصنها، ولا تدخلها حيّة ولا عقرب، وأول من ابتدع الحساب أهلها، لأنهم كانوا تجّاراً بإشبيلية وأحوازها، نزل أهل

حمص عند افتتاح الأندلس، فلذلك سميت حمص، وأخذت من قولهم: حَمَصَ الجُرْحُ يَحْمِصُ حُمُوصاً، وانحمص ينحمص انحماصاً. إذا ذهب وَرْمُهُ.

قال اليعقوبي: مدينة حمص من أوسع مباني الشام، ولها نهر عظيم، منه يشرب أهلها، وافتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. وفي حديث عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَبْعَثَنَّ الله تعالى من مدينة بالشام يقال لها حمص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم».

ودخلها شيخنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسائة وقال: هي فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، موضوعة في بسيط من الأرض، عريض مداه، لا يتخرّقه النسيم بمسراه، ويكاد البصر يقف دون منتهاه، وماؤها يجلب لها من نهرها العاصي، وهو منها بنحو ميل، ومنبعه في مغارة بسفح جبل بمرحلة منها، بموصل يقابل بَغْلَبْكَ، وأهل حمص موصوفون بالنجدة لمجاورتهم العدو، وأسوارها في غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة السود، وأما داخلها فما شئت من بادية شَعْثَاء، خَلْقَةُ الأرجاء لا إشراق لآفاقها، ولا زونق لأسواقها، وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة. وتجد فيها عند اطلاعك عليها بعض شَبَبٍ من مدينة إشبيلية يقع للحين في نفسك حبّها، ولذلك سميت باسمها في القديم، ولهذا نزل إشبيلية بعض أعراب حمص.

وقال الفنجديهي: بأهل حمص يضرب المثل في الحماقة، وكثرة الرقاعة، وتنسب إليهم حكايات مضحكة، حكى عن بعضهم أنه قال: دخلتها وفي فمي درهم لأشتري به بعض ما اشتيه، فإذا برجلٍ بباب الجامع جالس على كرسيّ، وعلى رأسه عمامة محنّك بها على قلنسوة، وقد لبس فزوة مقلوبة بلا سراويل، وقد تقلّد بسيف، وفي حجره مصحف يقرأ فيه، وعنده كلب رابض يمسكه بِمَقْوَدِهِ، فسلمت عليه، فردّ السلام، وقلت له: أترى القوم صَلُّوا؟ فقال لي: أو أنت أعمى! أما تراني قاعداً! قلت: من أنت؟ قال: أنا أبو خالد إمام الجامع، فقلت: ما هذه الحلية؟ قال: ورد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال، ويشتم أبا بكر الصناديقي وعمر القواريري وعثمان بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي عَسَّان الذي هو من حملة العرش، وزوجه النبي ابنته عائشة في زمن الحجاج بن يوسف، فاستولدها الحسن والحسين، فقلت: ما أعرفك بالمقالة والأنساب! قال: وما خُفِّيَ عنك أكثر، قلت: أتحنظ القرآن؟ قال: نعم، قلت: فاقرأ شيئاً منه، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنَهُ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا وَأَكِيدْ كَيْدًا فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَنهْلَهُمْ رُؤْيَاكَ﴾ [يوسف: ٥]، فصغته صفة سقطت عمامته، وبقي التحنّك في عنقه، فصاح بالناس: قلنسوتي! وقال: احملوه إلى المحتسب، فأوصلوني إلى رجل حاسر حافٍ، قد لبس درّاعة بلا سراويل، فقال: ما

صنع هذا؟ قالوا: صفع إمام الجامع، قال: يا مسكين، أهلكَت نفسك، قلت: هذا حكم الله فصبراً عليه؟ قال: أيّما أحبّ إليك سَمَلُ عينيكَ، أو قطع يديكَ، أو تدفع نصف درهم؟ قال: فرفعت يدي وصفعت المحتسب صفقة، ثم أخرجت الدرهم من فمي وقلت: يا سيدي خذ نصف درهم لك، ونصف درهم لإمامك.

وقال فيهم بعض الشعراء: [البسيط]

لأنهم أهل حمص لا عقول لهم بهائم غير معدودين في النَّاس
ونزلها في القديم أهل اليمن، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات، وكان لهم
إمام من مصر، فغضبوا عليه وعزلوه، فقال فيهم ديك الجن يهجوهم: [الكامل]

سمعوا الصلاة على النبي تَوَالِي فتفرّقوا شيعاً وقالوا: لا، لا^(١)
ثم استمرّ على الصَّلَاة إمامهم فتحزّبوا ورمى الرُّجَالُ رجالا
يا أهل حمص توقّعوا من عارها خزيّاً يحلّ عليكم ووبالاً
شاهت وجوهكم وجوهاً طالما رغمت معاطسها وساءت حالاً

قوله: أصطاف، أي أسكن في الضيف. وأسبر: وأختبر، والزقاعة تجاوز الحد في الوقاحة وصلابة الوجه. والبقعة: القطعة من الأرض، وكذلك الرقعة. وانقضّ النجم للرجم، إذا استطار لرجم الشياطين، وأراد أنه أسرع إليها بسرعة الخيل كسرعة النجم المنقضّ، قال خلف الأحمر: [الكامل]

كالكوكب الدريّ مبتهلاً سيراً يفوت الطرفَ أسرعاً
وكانما جهدت أليّته ألاّ تمس الأرض أربعه

وقال ابن الرومي: [البسيط]

خذها تبوعاً لمن أولى مسومة كأنها كوكب في إثر عفريت^(٢)
وما أحسن قول ابن المعتز في هذا المعنى:

كانما النجم والعفريت مسترقاً للسمع ينقضّ يُلقي خلفه لهباً
كفارس حلّ من عجب عمامته فردّها كلّها من خلفه عذبته

قوله: خيّمَت أي أقمت، وأصله ضربت خيمة. رسومها: آثارها. رُوح نسيمها: لذة ريحها: لمح طرفي: أبصرت عيني. هريره: صياحه، وقد هزّ الكلب هريراً، إذا نبج

(١) الأبيات في ديوان ديك الجن الحمصي ص ١١٠.

(٢) البيت في ديوان ابن الرومي ٣٧٩/١.

وحمل على مَنْ أنكره، وغريره: شبابه، والغرّة: صغر السن، ومعناه أقبل شرّه وسوء خلقه، وأدبر صباه وحسن خلقه، ولما كانت خليقته في هذه المقامة منبسطة مع صبيانه صار هذا التفسير فيه بُعد. وقال بعضهم: أقبل هريره، أقبل هَرَمَهُ وَيُسِّسه، من هَرَّ الشوكُ إذا اشتدَّ يُسِّسه حتى صار كأنياب الهرّ، وهذا يوافق الغرض، فمعناه أقبل هَرَمَهُ وَكِبَرَهُ وأدبر صباه وصِغَرَهُ، ومثله كالتب الإبل شجر الشوك، إذا رعت كأنها رعت فيه أنياب الكلاب لصعوبته، والغرير أيضاً: الضامن، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طول الحياة المفقود معناها في الهرم. والصُنو: الأخ الشقيق، وأصل الصُنو في النخيل والشجر، وهي التي تجتمع أصولها وتفترق أجسادها، الحرص: الرغبة والطمع.

أخبر: أجْرَب. بشّ: استبشر. والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه. وافيته، آتيته. جنى نطقه: ما يجني من كلامه ويحصل منه. أكتنه: أتعرف وأتحقق. كنه قدر وحقيقة، ابن الأنباري: الحمق عند العرب الخمر، ثم أخذ منه الأحمق وهو المتغيّر العقل.

[المعلمون ونواذرهم]

فمما يحكى من حماقتهم: كان حمزة المعلم متقلّساً فأشد فيه أبو جعفر الحاكم: [البسيط]

أرى على حمزة المقرّي قلنسوة عساكر القمل تجري في حواشيها
إن المعلم لا تخفى حماقته ولو تقلّس بالدنيا وما فيها
تقلّس: لبس القلنسوة.

الجاحظ: عقل مائة معلّم عقل امرأة، وعقل مائة امرأة عقل حائك، وعقل مائة حائك عقل خصيّ وعقل مائة خصيّ عقل صبيّ، قال الشاعر: [الطويل]

معلّم صبيان وصاحب دُرّة وليس له عقل بمقدار دُرّة

الفنجدبيهي: قال أبو طاهر: عقل امرأتين كاملتين عقل رجل، وعقل أربعة خصيان عقل امرأة، وعقل أربعين حائكاً عقل خصيّ، وعقل أربعين معلماً عقل حائك.

الزبير بن عبد الملك الهاشمي قال: مررت ببعض المعلمين ويعرف بكسرى، فرأيتهم يصلّون بالصبيان صلاة العصر، فلم أزل واقفاً أفكر فيه، فلما أن ركع أدخل رأسه بين رجليه، لينظر ما يصنع الصبيان خلفه، فرأى صبيّاً يلعب فقال له وهو راكع: يا ابن البقال؛ هو ذا؟ أندري ما تصنع!

الجاحظ: مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبي: «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه، ﴿يَا بَنِي لَا تَفْضُضْ رَأْيَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» [يوسف: ٥]، فقلت: ويحك! أتدخل سورة في سورة؟ فقال:

نعم عافاك الله، إن أبا العاضّ بَطَرُ أمه يدخل أجرة شهر في شهر، وأنا أيضاً أدخل آية في آية، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبيُّ يتعلم شيئاً.

أبو بكر القبطي: عبرت على معلم وهو يُملي على غلام بين يديه: «فريق في الجنة وفريق في السعيد»، ققلت: يا هذا ما قال الله من هذا شيئاً إنما هو في السعير، فقال: أنت تقرأ على حرف أبي عاصم بن العلاء الكسائي، وأنا أقرأ على حرف أبي حمزة بن عاصم المدني ققلت: معرفتك بالقراء أعجب إليّ؛ وانصرفت وروى بعض الفضلاء قال: مررت في بعض قُرى السّواد، وإذا معلم صبيان يقول: وَيَحْكُم يا صبيان، تفسون! فصاح به واحدٌ منهم، وقال: إنّما فسا أخي، فقال المعلم: أني لأعلم فسوته الخبيثة، ولكنّ أعلّل ننسي بالأباطيل، ثم قال: أني لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتكم، وحلف على ذلك ثم أنشد: [الطويل]

معلم صبيان يروح وَيَغْتَدِي على أنفه ألوان ريح فُسَائِهِمْ
وقد أفسدوا منه الدِّماغ بِفُسُوهِمْ ورفعهم أصواتهم في سَحَائِهِمْ

الجاحظ: كان في المدينة رجلٌ معلّم صبيان، يُفَرط في ضربهم، فلاموه على ذلك، فسأني حاله معهم، فاستفتح صبيّ، وقال: يا معلم، وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين ما بعده؟ فقال: بل عليك وعلى والديك لعائن الله ترى.

وجاء آخر فقال: يا معلم، اخرج منها فإنك رجيم، ما بعده؟ قال: ذاك أبوك الكَشْخَان، وجاء آخر، فقال: يا معلّم ما لنا في بناتك من حقّ، ما بعده؟ فقال: لا ولا رأيتهنّ، فقال: على هذا أضربهم، أتعدرونني؟ قلت: نعم.

العثبي: كان ببغداد معلّم يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه، فقلنا: يا شيخ ما يحلّ لك أن تشتم هؤلاء الصبيان؟ فقال: أنا مبتلى بهم، ما أشتّم إلا من يستحقّ الشتم، فاحضروا حتى تسمعوا بعض ما أنا فيه، فحضرنا معه، فقرأ عليه صبيّ: «عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون»، فقال: يا ماصّ بَطَرُ أمه، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهرزور، قال: فضحكنا والله حتى بال أحدنا في سراويله، فقرأ عليه آخر: «لا تنفقوا إلا من عند رسول الله»، وتردّد فقال: من عند أبيك القَرْنان أولى، فإنه أكثر مالاً يا بن الفاعلة. أتألزم النبي ﷺ نفقة لا تجب عليه؟ أعجبك كثير ماله؟ فقال: فكنت بعد ذلك أترك أشغالي، وأجلس عنده أتعجّب.

الجاحظ: سرق صبي عثمانيّ مصحفاً، فقال له المعلم: ماذا لقيت المصاحف منكم يا آل عثمان! أبوك أحرّقها وأنت تسرقها!.

قال أفلح التركي: خرجنا مرّة إلى حرب لنا، ومعنا معلم كان يقول: أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي؟ فأخرجناه معنا، فأول سهم جاء وقع في رأسه، فلما انصرفت دعاونا له معالجاً فنظر إليه، وقال: إن خرج الزّج وفيه شيء من دماغه مات، وإن لم

يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه، وقال: بشرك الله بخير، أنزعه فما في رأسي دماغ، فقال الطبيب: كيف ذلك؟ قال لأنني معلّم كتاب الله تعالى، وما في رؤوس المعلمين ذرّة من دماغ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا.

وقال موسى بن حسان الكاتب: رأيت بالبصرة معلّماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشمس، وهو يقول لأولاد الأغنياء: يا أهل الجنة، ابزقوا على أهل النار - يعني أولاد المساكين - فقلت: يا هذا، ما بال هؤلاء يببخسون؟ فقال: هؤلاء يببخسون الأخطار.

أحمد بن دليل: مررت بمعلّم يضرب صبيّاً، ويقول: والله لأضربنّك حتى تقول لي: مَنْ حفر البحر؟ فقلت: أعزّك الله، والله لا أدري أنا مَنْ حفر البحر، فقل لي حتى أتعلّم أنا، فقال: حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام.

أبو العنيس: كان في دزبنا معلّم طويل اللحية، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلّهُ به، فجئتُه يوماً وبين يديه صبيّ يقول له: ويلك! الدجلة من حفرها! قال: عيسى ابن مريم، قال: فالجبل مَنْ خَلَقه؟ قال: موسى بن عمران قال: فالبحر، مَنْ دَوّره في است الجمل، قال: شيطان يقال له الحيّ، قال: أحسنت، فأدّم مَنْ أبوه، قال: نوح، قال: بخ بخ، نجوت والله! فقلت: يا سبحان الله أليس آدم أبا البشر. قال: نعم. قلت: فكيف يَكُون نوح أباه! قال: ويلك أتعرفني بآدم وأنا أبو عبد الله المعلم، يا صبيان كزفسوه فكرفسوني، حتى صيروني مقيداً، فحلقت ألا أقف على معلم أبداً.

الجاحظ: أتت امرأة إلى معلّم بابن لها، وكان المعلّم طويل اللحية، فقالت: إن هذا الصبي عاق لا يطيعني فأحب أن تفزّعه، فأخذ المعلم لحيته وألقاها في فمه وحرك رأسه، وصاح صيحة، فصرّطت المرأة من الفزع، وقالت: إنما قلت لك: فزّع الصبي، ليس إياي، فقال: لها: مزي يا حمقاء إن العذاب إذا نزل هلك الصّالح والطّالح.

الأصمعي: مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبيّاً، ثم أقام الصبيان صفّاً وجعل يذور عليهم، ويقول: اقرؤوا، فلما بلغ الصبيّ المضروب قال لآخر إلى جنبه: قل له: يقرأ فإني لا أكلمه!

[الأدباء والمؤدبون]

ونذكر هنا في التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع، ثم نتبع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجري كالبيان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى.

قالت الحكماء: من أذب ولده صغيراً سرّ به كبيراً، ومن أذب ولده أرغم حاسده.

وقال ابن عباس مَنْ لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب.

وقالوا: أطبّع الطّين ما كان رطباً، وأغرّز العُود ما دام لدنا وقال رسول الله ﷺ:

«مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الصخر، والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب على الماء».

وسمع الأحنف: التعلّم في الصغر كالنقش على الحجر، فقال: الكبير أكبر عقلاً، ولكنه أشغل قلباً.

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه: قلب الحدث كالأرض الخالية إذا ألقيَ فيها شيء قبلته.

وقالوا: نشاط الألباب في عصر الشباب، والسودّد مع السواد، وشواظ النار قبل الرماد.

وقال الشاعر: [البسيط]

إنّ الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب
وقال آخر: [الكامل]

إنّ الكبير إذا تناهى سيئه أعييت رياضته على الرّواض
فإذا دفعت إلى الصغير فإنما تكفيك منه إشارة الإيماض
وقال آخر: [الكامل]

* ومن العناء رياضة الهرم *

وأنشدوا: [البسيط]

* أبعد شيبك هذا تبتغي الأدبا *

وقال الشاعر في تدريج الصبي برفق: [السريع]

سَدَد مرامي الطفل في شأنه بلفظة تشدّذ بها أزره
واغتنم اللمحة من فهمه إن المبادي أبداً نزره
كما ترى النار من شعلة والدوحة الغناء من بذره
وهذا ضدّ ما قال المعري: [البسيط]

لا يستوي ابنك في خلقي ولا خلقي إن الحديد أم السيف والجلم
فاضرب وليدك وادله على رشدي ولا تقل هو طفل غير محتلم
فرب شق برأس جرّ منفعة وقسى على نفع شق الرأس بالقلم

أشار إلى قوله تعالى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ [مريم: ١٢].

وقال صالح بن عبد القدوس: [السريع]

وإنّ من أدبته في الضبا كالعود يُسقى الماء من غرسه

حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي أبصرت من يُنْبِسِهِ
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوازي في ثَرَى رُمْسِهِ
إذا ارعوى عاوده جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه
ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقال عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده: ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيوبهم معقودة بعيبك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت، علمهم كتاب الله ولا تمهلهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم فيه فيهجروه، وروهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفّه، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يُحكّموه، فإن ازدحام الكلام في السَّمْع مشغلة في الفهم، وعلمهم سير الحكماء، وأخلاق الأدباء، وهددهم في أدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء، وجنبهم محادثة النساء، واستزدي بزيادتك إياهم اِزْدِك في بَرِي، وإياك أن تتكل على عذر منّي، فقد أتكلت على كفاية منك لي.

وأوصى الرّشيد مؤدب ولده الأمين، فقال: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمره قلبه، فصير يدك عليه مبسوطه، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعت أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، وروّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصّره مواقع الكلام، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، ولا تمرر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة، وبالله توفيقكما.

وقال للأصمعي: يا عبد الملك، أنت أعلم منّا، ونحن أعقل منك، لا تعلمنا في ملا، ولا تسرع بتذكيرنا في خلا، واطرطنا حتى نبتدئك بالسؤال؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق، فلا تزد إلا أن نستدعي ذلك منك.

الماوردي: إذا كان لبعض الملوك رغبة في العلم، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبطاح عليه والإدلال، وكتب شريح إلى معلم ولده: [الكامل]

تَرَكَ العِلاَةَ لَأَكْلِبِ يَسْعَى بِهَا يَبْغِي الْهَرَّاشَ مَعَ الْعَوَاةِ الرَّجَّسِ
فإذا هممت بضربه فبِدِرَةٍ وإذا بلغت به ثلاثاً فَاخْبِسِ
وإذا أتاك فعَضُّهُ بِمِلاَمَةٍ وعظنه موعظةً الأديب الأَكِيسِ
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه مع ما يجزّعني أعزُّ الأنفسِ

اتصل حمّاد عجرد بالربيع يعلم ولده، فكتب إليه بشار: [مجزوء الخفيف]

يا أبا الفضل لا تنم وقع الذئب في الغنم

إِنَّ حَمَادَ عَجَرِدٍ إِنَّ رَأَى غَفْلَةً هَجَمَ
 بَيْنَ فَخْذَيْهِ حَزْبَةٌ فِي غِلَافٍ مِنَ الْأَدَمِ
 إِنَّ خِلاَ الْبَيْتِ سَاعَةً تَجْمَعُ الْمَيْمُ بِالْقَلَمِ
 فطرده الربيع .

واتخذ المهديّ قطرباً لتأديب بعض ولده، وكان حماد يطمع في ذلك، فلم يتم له
 لتهتكه وشهرته في الناس بما قال بشار، فلما تمكن قطرب من موضعه، صار حماد
 كالملغى، فجعل يقوم ويقعد قلقاً، ثم دسّ إلى المهدي رقعة فيها: [البسيط]

قُلْ لِلْإِمَامِ جِزَاكَ اللَّهُ صَالِحَةً لَا تَجْمَعُ الدَّهْرَ بَيْنَ السَّخْلِ وَالذِّبِ
 السَّخْلُ غَرٌّ وَهَمُّ الذِّبِ فِرْصَتُهُ وَالذِّبُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّخْلِ مِنْ طِيبِ
 فقال المهديّ: انظروا لا يكون هذا المؤدّب لوطياً، ثم أخرجوه من الدار، فبعث
 الضجر حماداً حيث حَرَمَهُ بشار هذه المراتب إلى أن قال فيه: [الطويل]

لَقَدْ صَارَ بَشَارٌ بِصِيراً بِدَبْرِهِ وَنَظَرَهُ بَيْنَ الْأَنَامِ ضَرِيرُ
 لَهُ مَقْلَةٌ عَمِيَاءُ وَأَسَتْ بِصِيرَةٍ إِلَى الْأَيْرُ مِنْ تَحْتَ الثِّيَابِ تَشِيرُ
 عَلَى وَدَّهِ أَنَّ الْحَمِيرَ تَنِيكُهُ وَأَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ حَمِيرُ
 وقال فيه: [الهزج]

أَلَا مَنْ مَبْلَغَ عَنَى السَّ ذِي وَالسَّ دُهُ بُزْدُ
 إِذَا مَا ذُكِرَ النَّسَاسُ فَلَا قَبْلَ وَلَا بَعْدُ
 وَأَعْمَى يَشْبَهُ الْقَرْدُ إِذَا مَا عَمِيَ الْقَرْدُ
 قال فيه: [الطويل]

دُعِيَتْ إِلَى بُزْدٍ وَأَنْتَ لغيره وَهَبَكَ ابْنُ بَرْدٍ نَكْتُ أُمُّكَ مِنْ بُزْدٍ
 وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب الوليد لوطياً زنديقاً، وكان سعيد بن عبد
 الرحمن بن حسان بن ثابت جميل الوجه شاعراً، فدخل على عبد الصمد فراوده في نفسه
 فسبه، وخرج مغضباً، فدخل على هشام بن عبد الملك، وهو يقول: [الرملي]

إِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْتَ لَمْ يَنْجُ مِنِّي سَالِمًا عَبْدُ الصَّمْدِ
 فقال هشام: ولم؟ قال: [الرملي]

إِنَّهُ قَدْ رَامَ مِنِّي خُطَّةً لَمْ يَرْمُهَا قَبْلَهُ مِنِّي أَحَدُ
 قال: وما هي؟ قال: [الرملي]

رَامَ جَهْلًا بِي وَجَهْلًا بِأَبِي يُدْخِلُ الْأَفْعَى إِلَى غِيلِ الْأَسَدِ

فضحك هشام، وقال: لو فعلت به شيئاً لم أنكر عليك.

وكان سعيد يومئذ صغيراً في المكتب ومؤدّبه عبد الصمد هذا، فلما راوده عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع في الكناية، ورّقق هذا المنكر الأكبر بلفظ يقابل به خليفة، وغاية ذوي الحُكّة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته، وليس ببدع، فهو من بيت ثلاثة شعراء في نسق، وكان هذا الشعر سبب إبعاد عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء.

قوله: ما لبث، أي ما أقام ولا تأخر. كبر أصيبيته، أي أكبرهم، وكُبر ولد الرجل أكبرهم من الذكور، وكبر قومه: أقعدهم في النسب، أي أقربهم إلى الجد الأكبر، ومنه قيل: الولاء للكبر. أصيبيته تصغير أصبية. قال الجوهري: الصبي: الغلام، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو، ولَمَّا لم يقولوا: أصبية ولا أغلّة استغنوا عنهما بصية وغلّة، وجاء في الشعر أصيبية. وقال سيبويه: تصغير صِبة أصيبية، وتصغير أَصِبة صبية وكلاهما على غير قياس.

ابن سيده: عندي أن صبية تصغير صِبة وأصيبية تصغير أَصِبة، ليكون كل شيء منهما على بناء مكبره.

العواطل: التي لا نقطّ فيها. تماطل: تؤخر إنشادها. جثأ: برك. ليث: أسد. ريث: بطاء وتأخير.

[السريع]

وَأُورِدِ الْآمِلَ وَزَدَ السَّمَاخَ	أَغْدِذْ لِحَسَادِكَ حَدَّ السَّلَاخِ
وَأَعْمِلِ الْكُومَ وَسُمْرَ الرِّمَاحِ	وَصَارِمِ اللَّهْوِ وَوَضِلَ الْمَهَا
عَمَادُهُ لَا لِأَذْرَاعِ الْمِرَاخِ	وَاشْعَ لِإِدْرَاكِ مَحَلِّ سَمَا
وَلَا مَرَادِ الْحَمْدِ رُوْدُ رِدَاخِ	وَاللَّهِ مَا السُّودُّدُ حَسَنُ الْطَّلَا
وَهَمُّهُ مَا سَرَّ أَهْلَ الصَّلَاخِ	وَاهَا لِحُرٍّ وَاسِعِ صَدْرِهِ
وَمَالُهُ مَا سَأَلُوهُ مُطَاخِ	مُورِدُهُ خُلُوْ لِسَوَّالِهِ
مَا طَلَّهُ وَالْمَظْلُ لُؤْمُ صُرَاخِ	مَا أَسْمَعَ الْآمِلِ رَدَاً وَلَا
وَلَا كَسَا رَا حَالَهُ كَأَسْ رَاخِ	وَلَا أَطَاعَ اللَّهْوَ لِمَا دَعَا
وَرَزَعُهُ أَهْوَاءُهُ وَالطَّمَاخِ	سَوْدَهُ إِصْلَاحَهُ سِرَّهُ
مَا مُهِرَ الْعُورِ مُهَوَّرِ الصُّحَاخِ	وَحَصَّلَ الْمَدْحَ لَهُ عِلْمُهُ

أورد الآمل، أي أعطى الراجي. ورد السماح: ماء الكرم. صارم: قاطع. المها:

جمع مهاة وهي البقرة الوحشية، وأراد النساء. الكوم: جمع كَوْماء، وهي الناقة العظيمة السنام. اسع: اجر مسرعاً. محلّ سما: منزل ارتفع. والعماد: قائمة الخباء وإذا علت علا البيت. اذراع: لبس الذروع. والمراح: الطرب والنشاط، كأنه يقول: لا تشتغل باللهو واشتغل بكسب الشرف. حسو الطّلا: شرب الخمر. السّودد: الفعل الذي يرجع به فاعله سيّداً. مراد، بفتح الميم: مذهب وطريق، وأصله موضع اختلاف الإبل مقبلة ومدبرة وهو المرعى. رُود: جارية ناعمة شابة. والرّذاح: العظيمة العَجْزُ، وهو كما قال أبو نواس: [الوافر]

لئن خُلِقَ الأنام لحب كاسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعُودٍ
فلم يُخلَقْ بنو حمدان إلاّ لبأسٍ أو لمجدٍ أو لجودٍ

وهاً: عجباً. ما: بمعنى الذي. مطاح: هالك بالعطاء. صراح: ظاهر. راحاً: كَفّاً. راح الثاني: خمر. سؤدده: شرفه، وجعله سيّداً. سرّه: باطنه. ردعه: كفه. أهواءه: شهواته. والطماح: ارتفاع النظر. العور: جمع عَوراء وهي الفاقدة إحدى عينيها. مهور: جمع مهر، وهو الصداق، وأعمل علمه فيما بعده من الكلام، وضرب العور والصحاح مثلاً للأفعال الجميلة والذميمة، فأراد أن تميزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسناء، جعل ممدوحاً سيّداً. ومثل هذا الشعر الذي لم يَنْقُط ما أنشد أبو القاسم الزجاجي لأحمد بن الورد:

علم العدو ملامة اللّوام ودوام صدك وهو صدّ حمام
لولاك ما حذر السهاد دموعه ولما أطار كراه حرّ أوام
هل ما أسرّ وما أوْمَل رادع هول الهموم وروعة الأحلام
رُذ السلام وما أراك مسلماً وراك أهل هواك سرّ كلام
كم حاسد لك أو مسرّ وداده ومعلّل أهواه طول ملامي

وهي قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرون اقتدارهم في هذا الفن، إلاّ أنه قلّما يقع في ذلك بيت مستحسن، فلذلك تركنا أن نمشي مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها، وقد أكثر الناس القول في ذلك، وفائدته أن يقال: قدّر على لزوم ما لا يلزم لا أن يقال: قد أحسن فيما قال، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاء، منها: [الطويل]

أتيناك يا جَزَل العطية إننا رأيناك أهلاً للعطايا الجزائل
عقيل النّدى يا حار عدنا عقيلةً نعدك انتجاعاً للحسان العقائل

فقال له: أَحَسَنْتَ يا بُدَيْر، يا رَأْس الدَّيْر، ثم قال لِيَتْلُوهُ، المشتبه بِصْنُوهِ: اذن

يا نُؤِيرَة، يا قَمَر الدُّوِيرَة، فدنا ولم يَتَبَاطَا، حتّى حلّ منه مَقْعَد المِعَاطِي، فقال له:
اجلُ الأبياتِ العَرائِس، وإن لم يَكُنْ نَفائِس، فبرى القَلَمَ وقَط، ثم احتجَرَ اللُّوح
وخط: [الخفيف]

فَتَنَّتَنِي فَجَنَّنْتَنِي تَجَنِّي	بَتَجَنُّ يَفْتَنُّ غِبَّ تَجَنِّي
شَغَفَتَنِي بِجَفَنٍ ظَبِي عَضِيضٍ	عَنِجَ يَفْتَضِي تَعْيُضَ جَفَنِي
غَشِيَتَنِي بِزَيْنَتَيْنِ فَشَقَّتْ	نِي بِزِيٍّ يَشْفُ بَيْنَ تَنِّي
فَتَظَنِّيْتُ تَجَنِّي فَتَجَزِ	نِي بِنَفْتٍ يَشْفِي فَخِيْبَ ظَنِّي
ثَبَّتْ فِي غَشٍّ جِيْبٍ بِتَزْيِ	نِ خَبِيْثٍ يَنْغِي تَشْفِي ضَغْنِ
فَزَتْ فِي تَجَنِّي فَتَنَّتَنِي	بِنَشِيْجٍ يُشْجِي بِفَنٍّ فَنَّنِ

* * *

قوله: أحسنت يا بدير: تصغير بذر، صغره لصغر سنه، على أنه قد زعم أنه كبير
صبيانه. وفي مثل هذا البدر الذي قد نثر هذه الدرر قال الشاعر:

دُرَّانَ مِنْ قَمِهِ شَقًّا مَحْدُثَهُ	لِلنُّثْرِ وَالنُّظْمِ مَسْمُوعٌ وَمُلْتَثِمٌ
قَدْ قَلْتُ لَوْ قَبْلَ الْوَعْظِ الْمَبِينِ لَهُ	خَفِ الْمَهِيْمِينَ فِينَا إِنَّا نَأْسَمُ
فَقَالَ مَنْ ضَرَجَتْ خَدِي نَظَرُتُهُ	فَإِنْ سِيفَ جُفُونِي مِنْهُ يَنْتَقِمُ

يا رأس الدير: يا عظيم القوم، والدير، موضع القسيسين، أراد به حلقة أصحابه.
يلوه: التابع له، أو الجالس إلى جانبه. صنوه: أخوه الذي على قدر سنه. اذن: اقرب.
نؤيرة: تصغير نار، شبه في حدته وذكائه بها، أو في حسنه وبهائه. والدويرة: تصغير
دائرة، وهي حلقتهم التي اجتمعوا فيها، فكأنه قال: يا قمرأ في أصحابه.

[الغلمان والكتاب]

ومما قيل في غلام كاتب: سأل الثعالبي أبا الفضل الدارمي أن يصف له غلاماً كاتباً
حسن الخطين: خطي اليد والوجه، فقال: [السريع]

وَكَاتِبٌ أَهْدَيْتُ نَفْسِي لَهُ	فَهِيَ مِنَ الشُّوءِ فِدَى نَفْسِهِ
سَلَطْتُ خَدَيْهِ عَلَى مُهْجَتِي	فَاسْتَأْصَلَاهَا وَهِيَ مِنْ غَرْسِهِ
فَلَسْتُ أَدْرِي بَعْدَ مَا حَلَّ بِي	بِمِسْكِهِ أَتْلَفُ أَمْ نَفْسِهِ
وَقَالَ فِي ذَلِكَ: [السريع]	

وشادن أسرف في صده وزاد في التيه على عبده

الحسن قد بَثَّ على خدّه
رأبُثّه يكتب في طرسه
فخلت ما قد خطّه كفّه
ولا بن رشيق: [المتقارب]

كتبت ولو أنني أستطيع
قدذت البراعة من أنملي
وله أيضاً: [الطويل]

عزيز يُباري الصُّبح إشراق خدّه
يزفّ إليه ضاحكاً أقحوائه
ولا بن المعتر في العذار المشبه بالحروف: [الوافر]

بليت بشادن كالبدر حُسنًا
غلالة خدّه ورد جنّي
وله أيضاً: [البسيط]

كأن خطّ عذارٍ فوق وجنّيه
وخطّ فوق حباب الدّر شاربه
وله أيضاً: [الطويل]

لّه من عيون الوحش عينٌ مريضة
كأن غلاماً حاذقاً خطّه لّه
وقال آخر: [البسيط]

تعلم العطف من صُدغيه فانعطفًا
دبّ العذار على ميدان صَفْحَتِه
كأنه كاتبٌ عزّ المداد به
وقال أبو القاسم بن المغربي: [الطويل]

ولمّا احتوى بذرُ الدّجى صحنَ خدّه
كأن انعطاف الصُّدغ لأمّ أمالها
أديب يُجيد الخطّ أيّان يكتبُ

فهذه الأشعار المستعذبة التي بها تعلق بالغلّمان الذين يذكر أنهم كتاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم، وتطريزها بالعذار أحسن من ذكر شعر لزوميّ ليس فيه شيء من الأنس للنفس.

قوله تَبَاطَا: أي تأخر وأصله الهمز. المعاطى: الذي تعطيه كأس الخمر ويُعطِيها لك، وقد عاطيته وعاطاني وقد تعاطى فلان كذا، أي تناوله وأخذه، من قولهم: عَطَوْتُ أعطو عَطَواً، أي تناولت. العرائس: جمع عروس، وسَمَّاهَا عرائس لما فيها من التزيين بالنقطة، وكانت زينة العروس عند العرب أن تُنْقَطَ في خديها نقطٌ صغار بالزعفران، فلذلك سَمَّى هذه عرائس لنقطها، وسَمَّى التي قبلها عواطل لعدم نُقْطِها. نفائس: جمع نفيس، وهو الرفيع القدر، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفت، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هذه الأشعار إظهار الاقتدار، وعلى ما ذكر أنها غير نفائس فهي أحسن مما عمل في بابها، وما أحسن ما قال ديك الجن في جاريته: [الكامل]

أنظُرْ إلى شمس القصور وبدرِها	وإلى خُزامِها ونفحة زهرِها ^(١)
لم تَبْلُ عَيْنُكَ أبيضاً في أسود	جمع الجمال كوجهها في شُغْرِها
وردية الوجَنَات يخبِرُ اسمها	من ريقها من لا يحيط بخبرِها
وتمايلت فضحكتُ من أردافها	عجباً ولكني بكيت لخصرِها
تَسْقِيكَ كأس مُدَامَة من كَفَّها	وردية ومدامة من ثَغْرِها

ولابن الزقاق: [الطويل]

تَضَوَّغْنَ إشراقاً وأشرقْنَ أوجهاً	فهن منيرات الصُّباح بواسم ^(٢)
لئن كنَّ زهراً فالجوانح أبرجُ	وإن كنَّ زهراً فالقلوب كمائمُ

قوله: قط: قطع، وقيل: القَطُّ القَطْع عرضاً، والقَدُّ: القطع طولاً. احتجر: جعله في حجره. خط: كتب. فتنني، أي عذبت قلبي. جئتني: أي صيرتني مجنوناً. تجني: اسم امرأة، والتجني الدلال والتهيه.

وللبحتري: [الوافر]

إذا خطرث تأرَّج جانبِها	كما خطرث على الأرض القَبُولُ ^(٣)
ويحسن دُلَّها والموت فيه	وقد يستحسن السَّيفُ الصَّقِيلُ

شغفتني: بلغ حبها شِغاف قلبي، والشِّغاف حجاب القلب. طبي: غزال. غضيض: منكسر الطرف فاتر العينين. والغُنْج: تكسير الكلام وتخنيثه وهو المجانة. يقتضي: يتضمن. تغَيَّض جفني: سيلان عيني.

ومما قيل في مرض العينين وحسن فيه التشبيه قول البحتري: [الطويل]

(١) الأبيات في ديوان ديك الجن الحمصي ص ١٦٨.

(٢) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٢٩٧.

(٣) البيتان في ديوان البحتري ص ٨٢٢.

غداة تشئت للوداع وسلّمت
توهّمثها ألوي بأجفانها الكرى
وقال ذو الرّمة: [الطويل]

لها بَشْرٌ مثل الحرير ومنطقٌ
وعينان قال الله كونا فكانتا
وقد تقدّم جملة من هذا.

غشيتني: أتتني على غفلة. شفّتني: أنحلت جسمي. والزّي: الهيئة الحسنة من اللباس. يشفّ: يفضل. تشنّ: اهتزاز وانعطاف. تظنّيت: حسبت. تجتبيني: تختارني. بنفث: بلفظ وكلام. والجيب: القلب. يبغي: يطلب. تشقي ضغني: إزالة عداوتي. نزت: وثبت. تجتبي: بعدي. ثنتني: ردّتني. نشيج: صوت البكاء. يشجي: يحزن. بفنّ فننّ: بنوع فنوع.

فلما نظر الشيخُ إلى ما حبره، وتصفّح ما زبّره، قال له: بورك فيك من طَلا، كما بُورك في لا ولا. ثم هتَف: اقرب، يا قُطرب، فاقترَب منه فتى يَحكي نَجَم دُجّية، أو يُمثال دُمّية، فقال له: ازقُم الأبيات الأَخْياف، وتجنّب الخِلاف، فأخذ القلم، ورَقَم: [مخلع البسيط]

اسمَح فَبِتُ السَّماحِ زِينٌ
ولا تُجسز ردّ ذي سَوالٍ
ولا تظنّ الدُّهورَ تُبقي
واخلُم فجعن الكِرام يُغضي
ولا تُحُنْ عهدَ ذي ودادٍ
ولا تخبّ آملاً تُضَيّف
فئنّ أم في السّوال خفّف
مألَ ضنينٍ ولوّ تقشّف
وصدّرهُم في العطاء نفّف
ثبّت ولا تُبغ ما تُزَيّف

حبره: زينه. زبره: كتبه. طَلا: غزال. لا ولا، يعني الزيتون، ومن كلام العامة، بورك فيك كما بورك في الزيت، وأراد بلا ولا قوله تعالى: ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ [النور: ٣٥]، فأخذ من الآية لا ولا واكفى بهما.

الفنجديهي: يحكى أن بعض الناس ظهرت به علة مزمنة شديدة أعياء الأطباء

(١) البيتان في ديوان البحري ص ٨٤٤.

(٢) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٥٧٧، والبيت الأول في الخصائص ٢٩/١، ٣٠٢/٣، ولسان العرب (هراً)، (نزر).

علاجها، فلما أيسر رأى النبي ﷺ في الثّوم فشكا إليه علّته المزمّنة، فقال له: عليك بلاً ولا، فقصّ رؤياه على ابن سيرين، فقال له: إن صدقت رؤياك فإنه ﷺ أمرك بتناول الزيتون، فتناولها الرجل فبرىء من علّته، فقال لابن سيرين: من أين قلتها؟ قال: من قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]، المعنى من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية، أي ليست تطلع عليها الشمس أوّل النهار فقط، ولا غربية أي عند الغروب فقط، أي لا يسترها من الشمس في وقب من النهار شيء، فهو أنضر لها وأجود لزيته، وقال ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»^(١).

قوله: هتف: صاح. قطرب: خفيف النوم، والقطرب: دوية تمشي بالليل. وجتية: تبرك على الإنسان فيجد لها ثقلًا، والعامّة تبدل طاءها تاء، والعرب تسميها الثّندلان، والكاپوس والجاثوم، ويسميها أهل بغداد البحت. دُجّية: ظلمة. دمية: صورة رخام، وجمعها دُجى ودُمى وكأنّ صورة هذا الغلام الذي ذكر الشاعر: [الطويل]

بَدَا فبدا من وجهه البدرُ طالعا	لدى الروض يستعلي قضيبا منعمًا
وقد أرسلت أيدي العذارى بخذه	عذاراً من الكافور والمسك أسحماً
وأحسب هاروتاً أطاف بطرفه	يعلمه من سحره فتعلماً
ألم بنا في دامن الليل فانجلي	فلما اثثنى عنا وودّع أظلمًا

والأبيات للأمير أبي الحسن أحمد بن عضد الدولة.

وقال أبو إسحاق الحصري مؤلف كتاب الزهر: [مجزوء الكامل]

عليلٌ طرفٍ سقيتُ خمراً	من مقلتيه فمئتُ سكرًا
ترقرقت وجنتاه ماء	مازج فيه العتيق دُرًا
يُحرّك الدلّ منه غصناً	ويطلع الحسنُ منه بدرًا
قد نَمَّ مسكٌ بعارضيه	خلف للعاشقين عُذْرًا

قوله: الأخياف، أي المختلفة. وقوله: فأخذ القلم ورقم، كأنّ أبا إسحاق الحصري إيّاه عنى بهذه الأبيات: [البسيط]

إذا بدا القلم الأعلى براحيه	مطرزاً الرداء الفجر بالظلم
رأيت أسود في الأبصار أبيض في	بصائر لحظها للفهم غير عمي
كروضةٍ خطرث في وشي زهرتها	وافتر نوارها عن ثغر مبتسم

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ٤٣، وابن ماجه في الأطعمة باب ٤٣، والدارمي في الأطعمة باب ٢٠، وأحمد في المسند ٤٩٧/٣.

وكان الحسن استعار منه الدواة والقلم حيث قال: [المنسرح]

يا ريم هاتِ الدواة والقلمَا	أكتب شوقي إلى الذي ظَلَمَا
غضبان قد غرّني رضاه ولو	يُسأل فيما غضبت ما عَلِمَا
لو نظرتُ عينه إلى حَجَرٍ	ولَد فيه فتورُها سَقَمَا
فليس ينفكّ منه عاشِقُه	في جمع عذرٍ لغير ما اجْتَرَمَا
علقتُ مَنْ لو أوى إلى أنفُس الـ	حاضين والغابرين ما ندَمَا

قوله: اسمح: جُد. بث: نشر. آملا: راجياً. تضيّف: طلب منك أن تضيفه. فتن: أتى بفنون من السؤال. ضنين: بخيل. تقشّف: ترك النظافة. يُغْضي: يتغافل. نفنف: واسع، والنفنف متسع الأرض. ثبت: صادق الودّ، ويروى: نث أي نشر. تبغ: تطلب. تزيف: تنقص، وصار زائفاً، وهو الدرهم الرديء.

فقال له: لَا شَلَّتْ يداك، وَلَا كَلَّتْ مُداك، ثم نادى: يَا عَشْمَشَمْ، يَا عِطْر مَنَشَمْ، فَلَبَّاهُ غلامٌ كدّره عَوَّاص، أَوْ جَوْدَرٍ قَنَاص، فقال له: اكتب الأبيات المَتَائِم، وَلَا تكن من المشائِم، فتناول القَلَمَ المثقف، وكتب ولم يتوقّف: [الخفيف]

زَيْنَتْ زَيْنَبُ بِقَدْ يَقْدُ	وَتَلَاهُ وَيَلَاهُ نَهْدُ يَهْدُ
جُنْدُهَا جِيدُهَا وَطَرْفُ وَطَرْفُ	نَاعِسُ تَاعَسُ بِحَدُ يَحْدُ
قَدَرُهَا قَدْرُهَا وَتَاهَتْ وَبَاهَتْ	وَاعْتَدَتْ وَاعْتَدَتْ بِحَدُ يَحْدُ
فَارَقْتَنِي فَأَرَقْتَنِي وَشَطَطَتْ	وَسَطَتْ ثُمَّ نَمَّ وَجْدُ وَجْدُ
فَدَنْتُ فِدَيْتَ وَحَنَنْتُ وَحَيْتَ	مُغْضِباً مُغْضِياً يَوْدُ يَوْدُ

قوله كَلَّتْ، أي حفيت. مُداك: سكاكينك، جمع مُدْيَة. الغشمشم: الذي لا يرده شيء عن مراده.

[قصة المثل: دَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنَشَمْ]

عِطْرَ مَنَشَمْ، قيل: كانت مَنَشَمْ جارية عَطَّرت رجالها حين خرجوا للقتال، فَقُتِلُوا عن آخرهم، فضرب بها المثل في الشؤم. وقيل: بل الإشارة إلى عطارة، أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَهَا فَطَطِبُوا فاستغاثت بقومها، فخرجوا في طلبهم، فمن شَمُّوا عليه رائحة الطيب قتلوه، ومن أوله على هذا قال: عِطْرُ مَنْ شَمَّ، فجعلوه من كلمتين. وقيل: الكناية عن قرون السنبُل الذي يقال إنه سَمٌّ ساعة.

وذكر ابن الكلبي أنها امرأة من خُزاعة كانت تباع العطر فتطيب بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت، فماتوا.

وقال غيره: بل هي صاحبة يسار الكواعب، وكان عبداً أسود مُشوّه الخلقة راعي إبل، فمتى رآته النساء ضحككن منه، فتوهم أنهن يضحكن من إعجابهن بحسنه، فقال يوماً لرفيق له: أنا يسار الكواعب، ما رأيتني جارية كاعب إلا وعشقتني، فقال له رفيقه: يا يسار، اشرب لبن العشار، وكل لحم الحُوار، وإياك وبنات الأحرار، فأبى وراود مولاته عن نفسها، فقالت له: مكانك حتى آتيك بطيب أشمك إياه، فأتته بموسى، فلما أدنى أنفه ليشم الطيب جدّعه.

ويقال إنه لما راودها قالت له: أهكذا تأتيني بذُفركِ ووَسِخِك! ادنُ حتى أعطرك، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدتها له، فقبضت على ذكره وخصيته، فاقتطعت الجميع، فخرج فمن رآه على تلك الحالة قال له: ما هذا؟ فيقول: عطرٌ من شَم. وقيل: كانت تباع الحنوط وهو عطر الموتى. وقيل: المنشَم: الشر نفسه، وقيل: المنشَم ثمرة سوداء منتنة. وقيل فيها غير ما ذكر.

وذكر الحريري في الدرة أكثر هذه الوجوه، وذكر أن كسر شين منشَم أكثر وأشهر ويروى بفتحها.

قوله المتائيم: جمع مُتَم، وهي التي من عاداتها أن تلد توأمين، ولما كانت أبياته لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة، سميت متائيم، وقيل: المتائيم: جمع توأم على غير قياس. المشائيم: جمع مشام، وهو الكثير الشؤم، وشبه بدرة غواص في بياضه ورقة ديباجه. وجوذر قناص، هو الطبي الفاتر العينين، والقناص: الصيد، فكأنه يصطاد بعينه من نظر، وإن أضفت جوذر إلى القناص فمعناه مستقيم، فيصفه بالخوف وكثرة التلفت خشية أن يُصاد. وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحبيب أبو المطرف الزهري في هذا المعنى وكان جالساً في باب داره مع زائر له، فخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة الوجه كالشمس الطالعة، فحين نظرتهما على غفلة نفرت خجلة فزعة، فرأى الزائر ما أبهته، فكلفه وصفها، فقال مرتجلاً: [البسيط]

يا ظبيةً نفرت والقلب مسكئها خوفاً لختلي أو عمداً لتعذبي
لتأمني فابنُ عبد الحيّ الحقنا عدلاً يؤلف بين الطبي والذيب

وكان ابن رشيق وصف هذا الغلام الكاتب حيث قال: [السريع]

وفاتر الأجفان ذي وجنة كأنها في الحسن ورد الرياض
قلت له: يا ظبي خذ مهجتي داوي بها تلك الجفون المراض
فجاوبت من خده خجلة كيف ترى الحمرة فوق البياض

وقال أيضاً: [مجزوء الرمل]

بين أجفانك سحرُ
جَرَدَتْ عَيْنَاكَ سِيفِي
فَعَلَى خَدَيْكَ مِنْ نَزْ
وَمِنَ الْكَثْبَانِ شَطْرُ
وَسَوَاءَ قَلَلْتُ دُرَّ
وَيَمَازَا أَصْفَ الْخَضِ
بِكَ شَغْلِي وَاشْتَغَالِي

وقال خالد الكاتب: [الكامل]

قَدْ قَلْتُ لَمَّا أَنْ بَدَا مَتَبَخَّرًا
يَا مَنْ يَسْلُمُ خَضْرَاهُ مِنْ رِذْفِهِ
وَلَهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْكِتَابَةِ: [المقارب]

كَتَبْتُ إِلَيْكَ بِمَاءِ الْجَفُونِ
فَكَيْفَ تَخْطُ وَقَلْبِي يَمَلُّ
فَلَيْسَ يَتِمُّ كِتَابِي إِلَيْكَ

قوله: زينت زينب بقدّ يقدّ، إنما أراد بقدّ يقدّ، أي ينقطع لرقّة خصره، فعوّض منه يقدّ لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج. وقال البحتريّ في القدود: [الوافر]

مِنَ السَّمْرِ اللَّدَانِ إِذَا اسْتَبَكَّرَتْ
شَبِيهَاتُ الرِّمَاحِ قَنَى جَفُونِ
فَهَلْ مِنْ ضَرْبَةٍ أَوْ مِنْ سَنَانِ

وقال السريّ: [الكامل]

قَامَتْ وَخُوطُ الْبَانَةِ الـ
تَسْقِي بِصَهْبَاءَيْنِ مِنْ
وَيَهْزَاهَا سُكْرَانِ سُكْرِ
وَكَأَنَّ كَأْسَ مُدَامِهَا
تَوْرِيْدَ وَجَنَّتِيهَا إِذَا

وقال القاضي أبو حفص بن عمر: [الكامل]

هَذَا فَوَادِي أَقْصَدْتُهُ الْأَسْهُمُ
مَنْ ذَا يَرَى تِلْكَ الْجَفُونَ وَيَسْلُمُ

يا غِرّة حَكم الجَمال لَهَا على شمس الضحى وأصاب فيما يحكمُ
يحكي الجأذر جيدها ولحاظها هيهات دون العالم المتعلمُ
وكانَ قامَتها ونغمة لفظها غُضُنْ عليه بلبلُ يترنُّمُ
يضحي الخليّ إذا رآها عاشقاً والعقل توقظه اللحاظ النّومُ
وما أحسن ما قال أبو الحسن بن القبطرنة: [المقارب]

ذكرت سليمى وحرّ الوغى كقلبي ساعة ودّعثها
وأبصرت بين القنا قدها وقد ملن نحوي فعانقثها
قوله: تلاه، أي تبعه. ويلاه: دعا لنفسه بالويل والخسران حين رأى نَهْداً لا يصبر
عنه.

[مما قيل في النهود]

ومما جاء من التشبيهات الحسان في أوصاف النهود قول عمرو بن كلثوم: [الوافر]
وثدياً مثل حقّ العاج رخصاً مصاناً من أكفّ اللامسينا^(١)
بشار: [البسيط]

والنهد تحسبه وسنان أو كَسِلاً وقد تمايل ميلاً غير منكسرٍ
ابن الرومي: [الوافر]

صدور فوقهنّ حقائق عاج ودرّ زانه حُسنُ اتّساقٍ
يقول القائلون إذا رأوه أهذا الدرّ من هذي الحقائق!
وأخذه من قول عبد الله بن السبط: [المقارب]

كأنّ الثّدي إذا بدت وزان العقود بهنّ الثّحورا
حِقاقُ من العاج مكنونةً يَسْغَنُ من الدرّ شيئاً يسيراً
ولإدريس اليماني: [الطويل]

أيا ربّة الثّهد الذي بسنانه يحطّ فتى الهيجاء عن فرس نهدٍ
أحقان منّ عاج بصدرك أم هما رقيبان قد قاما على جَنّة الخلدِ

(١) البيت في ديوان عمرو بن كلثوم ص ٦٨، ولسان العرب (حقق)، وجمهرة اللغة ص ١٠١، وجمهرة أشعار العرب ٣٩٣/١، وشرح ديوان امرئ القيس ص ٣٢٢، وشرح القصائد السبع ص ٣٨١، وشرح القصائد العشر ص ٣٢٧، وشرح المعلقات السبع ص ١٦٩، وشرح المعلقات العشر ص ٨٩.

ومن البدائع الروائع قول الآخر: [المقارب]

وذا دلالٍ سبّث مهجتي بمستشرفين على مئزر
كأنهما خُوطُ كافورة بأعلاهما نُقْطَـةً غُبْر

وللقاضي عبد الوهاب، ويروي لغيره: [الكامل]

يا صاحبيّ قبّالتي خُمصانةً مالت فمال الدَّعْص من أعطافها
في الصّدر منها للطّعان أسنةً ما أشرعت إلّا لجثي قِطَافها
إن تنكرا قتلي بها فتبيّنا تجدا دمي قد جفّ في أطرافها
علي بن الجهم: [الرمل]

كنت مشتاقاً وما يحجزني عنك إلا مانع يمنعني
شاخص في الصدر غضباناً على قَبِـبِ البطين وطيّ العُكْن
يملاً الكفّ ولا يفضلها فإذا أثنيتهُ لا يئنّني

قوله جيدها: أي عنقها، وكأنّ حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله: [الكامل]

كالخوط في القدّ والغزاة في الد بَهْجة وابن الغزال في غيده
وما حكاه ولا نعيم له في حسنه بلّ حكاه في جيده

وإن كان هذا الجيّد عاطلاً حلّيناه بقول ابن العباس الأعمى: [الطويل]

ونبئت ذاك الجيّد أصبح عاطلاً خذي أدمي إن كنت غَضبي على الدّر
خذي فانظميها أو كليني لنظميها حُلِيّاً على تلك التّرائب والنّحر
خذي اللؤلؤ الرطب الذي لهجوا به مَحَارُثُه جفني ولجته ضذري
ولا تخبري حور الجنان فرّما غَصَبَنَـكـه بين الخديعة والمكر

طرف: عين. ظرف: حلاوة ورشاقة، وجعل الطّرف والعنق جنداً لها، لأنها لما حُسِنَتْ معنى هذه الصفات انقاد لها عشاقها أذلاءً، فكانها أغارت على قلوبهم فاستلبتها، وقد قال فيما تقدّم: [المقارب]

* وأحوى حوى رقي لفظه *

فجعله قد ملكه بحلاوته. وقال حبيب: [الكامل]

وحشيّة ترمي القلوب إذا اغتدت وشئى فما تصطاد غير الصّيد

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها، وهذا المعنى لا يحصى كثرة.

وأراد بالنّاعس الفاتر النّظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن. يحدّ: يمنع من

رآه من التسلي والتصبر. زها: تكبر. والته: ضرب من الزهو، وهو الكبر. باهت: فاخرت وعظمت. واعتدت: ظلمت. يخذ: يقطع، أي أن خذها يقطع في القلوب لا سيما إن كان قال من أحسن: [المقارب]

وبيضاء تحسبها ذرة
تتمّ بالمسك كافورتي
فقلت: أوصلك هذا البياض
فقلت: أبي كاتب للملوك
فخاف اطلاعي على سرّه
فوصفها بأنّ في خديها خيلانا.

قوله: أرقتني، أي منعنتني النوم. شطت: بعدت. سطت: بطشت. نم: أفضى السرّ، أي أفضى ما بي من الحب. وجد: حزن من الحب وهمّ. جدّ: اجتهد. فذنت: قربت. حنت: أشفقت. مغضياً: متغافلاً عما ينال منه. يودّ: يتمنى. يؤدّ: يحبّ، يقول: لما نمّ لها وجدي بما أجته من حبّها وأبصرت ما فعل هجرها بي دنت عند ذلك منّي شفقة، وحيتني بسلامها وأنا في حال غضبان، لما حلّ بي من الهجر متمنياً أن تجيئي، فلما سلمت عليّ أزال غصبي، وأغضيت عما سلف من الفعل القبيح.

[مما قيل في وصف الجوّاري شعراً]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هذه الجارية جملة مستظرفة، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: [المقارب]

يزيدني البعد شوقاً إليك
ولو كنت أملك ما تملكين
وقال آخر: [المقارب]

وما أنس لا أنس ذاك الخضوع
وخدي مضاف إلى خذها
وقال أبو مطرف الزهري: [البسيط]

مرث بنا وبذت كالبدن وانفلتت
تسربلت ببرود الحُسن والتحفت
وقال السري: [الكامل]

لبست مصندلة الثياب فَمَنْ رأى
قمرأ تسربل قبلها أثوابا

وحكّت من الظبي الغرير ثلاثة
وله أيضاً: [الوافر]

مذهبة الخدود بجلنار
سَقَانَا اللّهُ مِنْ رِيَاكِ رِيَا
وللقاضي أبي حفص: [الوافر]

هم نظروا لوحظها فهاموا
سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بَاكِ
يخاف النَّاسُ مَقْلَتَهَا سِوَاهَا
وأذكر قَدْهَا فَأَنُوحُ شَوْقاً
وأعقب هَمَهَا فِي الصُّدْرِ غَمّاً
وله أيضاً: [الوافر]

أعينك يا سليمى من سُلَيْمٍ
فَمَا لَكَ طَالِبٍ بِتَرَاتِ نَفْسِي
فؤادي سار نحوك عن ضُلُوعٍ
وداك صَحَّ فِي قَلْبِ سَلِيمٍ
إذا أَعْرَضْتَ تَسْوِدُ الْأَمَانِي
وإن أقبِلْتَ تَبْيِضُ الْهَمُومُ

فطفق الشيخ يتأمل ما سطره، ويقلب فيه نظره، فلما استخسن خطه،
واستصح ضبطه، قال له: لا شلّ عشرُك، ولا استُخِيتْ نُشْرُك. ثمّ أهاب بفتى
فتان، يُسْفِرُ عَنْ أَزْهَارِ بُسْتَانٍ، فقال له: أَنَشِدِ الْبَيْتَيْنِ الْمَطْرَفَيْنِ، الْمُشْتَبِهِي الطَّرَفَيْنِ،
اللَّذَيْنِ أَسْكَنَّا كُلَّ نَافِثٍ، وَأَمِنَّا أَنْ يُعَزَّزَا بِثَالِثٍ، فقال له: اسمع لا وُقِرَ سَمْعُكَ،
ولا هُزِمَ جَمْعُكَ، وأنشد من غير تلبّث، ولا تَرَيّت: [السريع]

سِمَ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارَهَا
وَأَشْكُرُ لِمَنْ أَغْطَى وَلَوْ سِمْسِمَةً
والمكرُ مَهْمَا اسْطَعَتْ لَا تَأْتَهُ
لَتَقَتَّنِي السُّؤْدُودَ وَالْمَكْرَمَةَ

قوله: طفق، أي أخذ. يتأمل: ينظر. سطره: كتبه. استصح: وجده صحيحاً،
والضبط: الشكل والنقط: لا شلّ عشرُك، دعاء، أي لا يبست أصابعك، ويروى: لا ثلّ

عرشك، أي لا هُدِم عرك، والزّوَاية الأولى هي الصحيحة. اسْتُخِثَ: فسَد وصار خبيثاً. نَشْرَك: رائحتك العطرة. أَهَاب: دعا وصاح. يُسْفِر: يكشف عن وجهه لثامه. عن أزهار بستان: عن بياض الوجه وحمرة الخدين والشفتين وسواد العينين والأشْفارِ وخضرة الشارب والعذار ومحاسن لا تفي بها ناضرات الأنوار، وقد يكون يُسْفِر بمعنى يَتَبَسَّم عن بياض شقيق وأقحوان واحمرار عقيق ومرجان، وكأنَّ هذا الغلام هو الذي ذكر أبو الرقعمق بقوله: [البسيط]

إذا جرث يدهُ في الطرس كاتبةً تبلّج الطرس عن دُرٍّ ومَرْجَانٍ
وإنْ تكلّم جاءته براءتهُ بكلّ ما شاء من فهمٍ وتبيانٍ
وقال بعضهم يصف غلاماً كاتباً: [الكامل]

انظر إلى أثر المدادِ بِطَرْسِهِ كبنفسج الرّوض المشوب بوردهِ
ما أخطأت نوناته من صُدْغِهِ شيئاً ولا ألفتاه من قَدِهِ
وكانمّا ألفتاه من شَغْرِهِ وكانمّا قرّطأسه من خَدِهِ
ولعمر بن فتح: [الكامل]

فنوناته من حاجبيه استعارها ولاماته من صُدْغِهِ المتعاطفِ
ومن صدّه المؤذي اسودأ مداده ومن وصله المحيي ابيضاض الصحائفِ
ولأبي إسحاق الحصري في وصف هذا الغلام: [الوافر]

أيا من تُمَسِّك الأوصافُ عنه أعنةً وضيئاً نظماً ونشراً
ومن يدعو القلوب إلى مُناها بعينيه فلا تأتيه قَسراً
ومن يُجْري اللآلئ في أقاح يمازج ظلمةَ بَرْدٍ وخُمْراً
ويعرض في رياض الدّلّ غصناً ويطلع في سماء الحسن بَدراً
كأن بخدّه ذهباً صَقِيلاً أذاب عليه ياقوتاً ودُّراً
ومنها في وصف الكتاب: [الوافر]

قرأت كتابك الأعلى محلاً لديّ وموقعاً شرفاً وقَدراً
فأحياني وقد غودرت مَيِّتاً وأنشُرني وقد ضُمْتُ قَبْراً
نقشت بحالكِ الأنقاش نَوْرًا جَلاً لعيوننا نُوراً وزَهْراً
فدبج من بَسِيط الفِكرِ رَوْضاً أنيقاً مشرق الجَنَباتِ نَضْراً
لو استسقى العليلُ به لأروي أو استشفى العليلُ به لأبْرِى
هَفّاً عطر الجنوب له نسيمٌ أقول إذا أناسم منه نَشْراً

نشرت لنا على الكافورِ مِسْكَاً
وله في العذار: [الكامل]

سَلَبْتُ محاسنهُ سوادَ عيوننا
فبدا طرازاً في أسيلٍ مشرقٍ
علم الذي استلبت له يدُ حسنه
فله توقّف مستريبٍ تائب
وقال أبو الفضل الدارمي: [الكامل]

ظبيّ إذا حَرَّكَ أصداغَه
غنى بشعريّ مُنشداً ليتني الد-
فكلما كرر إنشاده
ولمهيّار: [الرجز]

مغالطاً قلت لصحبي دَارُ مَنْ
في كفّه وطرفه سيفُ الفِتْنِ
ما أقبح الهجران بالوجه الحسن
ولأبي إسحاق الطليطي: [الكامل]

ومعدّزٍ رَقَّتْ له خمر الصبا
ديباج حسنٍ تاه عقلاً ناقصاً
وشكا الجمال مقيله في وزده
عامت بماء الصقل شامةً خده
إن كان يمحو نقشه من خده

قوله: المطرفين، أي الغريبين، وقد أطرفته، جثته بطرفة، أي بشيء معجب،
نافث: متكلم. يعزّزا: يقويا ويشدّدا، وإذا صلب الشيء قيل: تَعَزَّزَ وأصله من العزاز
وهي الأرض الصلبة.

وقال في الدرة: ويقولون شَفَعَتِ الرُّسُولِينِ بثالث فيوهمون فيه، والعرب تقول:
شفعت الرسول بآخر، أي جعلتهما اثنتين ليطابق معنى الشفع في كلامهم، وهو اثنان،
فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال: عززت بثالث، قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، والمعنى في عزّزته قوّيته، وأعزّزته: جعلته عزيزاً،
فإن وارتت الرّسل فالأحسن أن تقول قَفَّيت بالرسول، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم
بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وما أحسن ما قال ابنُ شرف في العذار وذكر التعزيز بثالث: [الكامل]

قد كنتَ في وعد العذار فأنجزا	وقضى لحسنك بالكمال فأوجزًا
وافي لنصرِ الحسن إلا أنه	ولّى إلى فئة الهوى متحيّزًا
عطفُ تعلّم منه قلبي عطفه	وجَدَ الفؤادُ به السَّبيلَ إلى العزا
لم يكف وجهك حسنه وبهاؤه	حتى اكتسى ثوبَ الجمالِ مطرّزا
سبحان مَنْ أعطاك حُسنًا ثانيًا	وبثالثٍ من حُسنٍ فعلك عَزْرًا

الوَقَر: الثقل في الأذن. تلبّث: طویل إقامة. تريث، إذا احتبس ومكث، ويقال: تريث بنقطتين وتربّث تربّثاً بواحدة، والمعنى فيهما واحد، سم: علّم. سمة: علامة سمسة: حبة جلجلان. المكر: الخداع، تقتني: تكتسب. السودد: الشرف. والمكرمة: الكرامة.

وممن اشترط أن يبتيه لا يعززان بثالث قبل الحريري أبو دلف حين قال: [البسيط]

أنا أبو دلف المهدي بقافية	جوابها يهلك الزاهي من الغيظ
مَنْ زاد فيها له رَحلي وراحلي	وخاتمي والمدي فيها إلى القيظ
وذكر الحضري الأعمى المكرمة في تجنيس قوافيه، فسمع قومًا يقدحون فيه وفي أبي خلصة فقصده وقال: [مجزوء الرمل]	

يا أديباً ملكثني	في يديه المكرّمات
ليت قوماً دأبهم فـ	يَّ وفيك المكرّماتوا
وله: [مجزوء الخفيف]	

رب ظبي هويته	ينتمي للهوازينه
قلت: ما أثقل الهوى	قال: ما للهوى زنة
وله أيضاً: [مجزوء الخفيف]	

إن كتمت الهوى فقد	صار سرّي علانيّة
بسقام أذابني	وشحوبٍ علانيّة

فقال له: أجَدَت يا زُغلول، يا أبا الغُلُول، ثم نادى: أوضَح يا ياسين، ما

يُشكِل من ذوات السّين، فنهض ولم يتأنّ، وأنشدَ بصوتٍ أغنّ: [البسيط]

نَفَسَ الدَّوَاةَ ورُسْعُ الكَفِّ مَثْبَتَةٌ	سَيْنَاهُما إن هُما خُطًا وإن دُرِسا
وهكذا السّين في قَسْبٍ وباسقةٍ	والسّفح والبَخْسِ واقْسرَ واقْتَسِ قَبْسا

وفي تقسّنت بالليل الكلام وفي مُسَيّطِرٍ وشموسٍ واتخذ جرساً
وفي قريسٍ وبردٍ قارسٍ فخذ الـ صوابَ مِنّي وكنّ للعلم مُقتبساً
فقال له : أحسنت يا نُعَيْشُ، يا صَنَاجَة الجيش، ثم قال : ثب يا عنبسة، وبين
الصادات المتلبسة، فوثب وثب شبلٍ مثار، ثم أنشد من غير عثار :

بالصاد يكتب قد قبضت دراهماً بأناملي وأصيح لتستمع الحَبَز
وبصقت أبصق والصماخ وصنجة والقص وهو الصذر واقتص الأثر
وبخضت مقلته وهذي فرصة قد أرعدت منه الفريضة للخوز
وقصرت هنداً أي حبست وقد ذنا فصح النصارى وهو عيدٌ مُنتظر
وقرّضته والخمر قارضة إذا حذت اللسان وكل هذا مُستطرز

أجدت : أتيت بجيد، الزغلول : الخفيف، وزغلول الرجل : ولده، والغلول : لخيانة
في المغنم، وأصله الستر والتغطية، تقول : غلّ الشيء غلاً وغلولاً، إذا ستره، وصفه كأنه
يغلّ العقول، أي يمسكها ويخون أصحابها فيها، وقالت عُليّة :

* يا غلّ الباب الرجال *

أوضح : بيّن . يتأنى يتباطأ ويفتر، والثاني : التثبت، وفي الحديث أنه نظر ﷺ إلى
رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، فقال : «أنيت وآذيت»^(١)، أي أخرت المجيء،
ويكون يتأنى من قولهم : فلان ذو أناة من وتى بني، وتكون الهمزة مبدلة عن واو، وهو
الأظهر، أغنّ : فيه غنة، وهو البَح الخفيف، والأغنّ : الذي يتكلم من قبل خياشيمه،
نفس : مداد، رسغ الكف : موصلها من الذراع، والقشب : نوى التمر، باسقة : نخلة
طويلة . السفح : أسفل الجبل، البخس : النقص، اقسر : اقهر واغلب . اقتبس قبساً :
اطلب شعلة من نار . وتقسست : تتبعت والشموس : الدابة التي تمنع أن تُسرج وأن
تُرَكَّب . جرساً : الذي يضرب به فيصوت . قريس : حوت . قارس : شديد . مقتبساً : طالباً
حريصاً على كسبه .

قوله : نُعَيْشُ، أي كثير الحركة، وقيل : نُعَيْشُ تصغير الثغاش من الرجال الحقير
الخلقة، الغاية في القصر، فصفا هذا الغلام أنه حقير الخلقة كثير الحركة، وقلّما تكون
تلك الخلقة إلا ومعها الحركة والحدة . ورواه الفنجديهي «نفيش» بالفاء، أي قصير .

(١) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ٨٨، وأحمد في المسند ٤/١٨٨، ١٩٠.

ثعلب: التّفاشون، هم القصار الضعاف الحركة، ومنه الخير أنه رأى نفّاشاً فسجد شكراً، قال: والتّفش: تحرّك الشيء في مكانه، يقال: دار تنتفش صبياناً، والتنفش: دخول الشيء بعضه في بعض، وصنّاجة الجيش: التي يُضرب بها المثل في الحروب، وقيل: الصنّاجة الضربة بالدفوف والطنابير وعود الغناء ونحوه من آلات اللّهُو، قال الهذلي وهو ساعدة بن جؤيّة: [الطويل]

وعاودني ديني فبتَ كأنما خلال ضلوع الصدر شزعُ ممّد^(١)
بأوب يدي صنّاجة عند مدمن غويّ إذا ما يئنّشي يتغرّد

يصف ما في صدره من الحرق، ودينه: حالته التي تعتاده من الهم، والشزع: الوتر يقول: كأنما في صدري عود، لأوتاره رنة مما أحدث به نفسي من الهموم. وأوب يديها: رجعهما بضرب الصنّج، أي بتحريك يديها حين تمرّ أوتارها، وينتشي: يسكر. ويتغرّد: يتغنّى، وفلان صنّاجة قومه، أي المقدم عليهم في الفضل، وقيل: صنّاجة الجيش هو البطل المعروف، ويقال: ليلة قمرأ صنّاجة وصيّاجة، إذا كانت مضيئة، وصنّج فلان بفلان إذا صرعه، وكان أعشى قيس يدعى صنّاجة العرب لفصاحته، وقيل: لرقه شعره، وقيل: الصنّاجة الغناء، ويريد بالجيش الصبية الذين جيشوا حوله، فُنغيش صنّاجتهم، أي أنبلهم وأحذقهم أو كالصنّجة في خلقته وقصره. ثب: اقفز، عنيسة: اسم أسد، والشبل: ولده مثار: مفزع، وقد أثير: استخرج من مكانه بالبحث عليه. قبصت: أخذت بأطراف أصابعي، والقبصة أقل من القبضة. أصخ: استمع. الصمّاخ: ثقب الأذن. صنّجة، وهي التي يوزن بها، والمقلة، شحمة العين. بخضتها: فقأتها. واستلبتها فرصة: نهزة وغنيمة. والفريضة: بضعة عند الكتف تُرعد عند الفزع. الخور: الضعف. قرصته: عضضته بظفري. حذت اللسان: قرصته بحدتها. مُسْتَطَر: مكتوب.

فقال له: رعيأ لك يا بنيّ، فقد أقررت عينيّ، ثم استنهض ذا جُتّة كالبيذق، ونغشة كالسودق، وأمره أن يقف بالمرصاد، ويسرّد ما يجري على السنين والصاد، فنهض يسحب بُردّيه، ثم أنشد مشيراً بيديه: [الطويل]

إن شئت بالسّين فاكْتَب ما أبينّه وإن تشأ فهو بالصادات يُكْتَب
مَغْس وفقس ومُسْطَار ومُمْلِس وسالغ وسراط الحق والسَّقْب
والسامِغان وسَفَر والسوبق ومنس للاق وعن كلّ هذا تُفصِح الكتب

(١) البيتان لساعدة بن جؤيّة الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١١٦٥، والبيت الأول في لسان العرب (شرع)، وجمهرة اللغة ص ٧٢٧، وتاج العروس (شرع)، والكتاب ٣/٢٢٥، والمقاصد النحوية ٤/٣٥٠.

فقال له: أحسنت يا حَبَقَة، يا عَيْنَ بَقَّة. ثم نادى: يا دَغْفَل، يا أبا زَنْفَل، فلباه فتى
أحسن من بَيْضَة، في روضة: فقال له: ما عَقَد هجاء الأفعال، التي آخرها حرف اعتلال،
فقال اسمع، لا صَمَّ صدّاك، ولا سمعت عِدّاك، ثم أنشد، وما استرشد: [الطويل]

إذا الفِعل يوماً غَمَّ عنك هجاؤه فألحق به تاء الخطاب ولا تقف
فإن تَرَ قبل التاء ياءً فكُتِبْهُ بياءً وإلا فهو يُكْتَبُ بالالف
ولا تحسب الفعل الثلاثي والذي تعدّاه والمهموز في ذاك يختلف

رَغِيّاً: حفظاً، أي رعاك الله رعيّاً. استنهض: أمره بالنهوض. جُتَّة: جسد. وبيدق
الشطرنج، معروف؛ يشبه به الخفيف الروح الحاذق. نغشة: حركة. والسؤذوق، هو
السّدّانق من الطير التي يُصطاد بها. بالمرصاد، أي قريب منه حيث ينظره. يسرد: يقرؤها
بسُرعة. يسحب برديه: يجزئ ثوبيه. وقال الحسن يصف مثل هذا الغلام: [المنسرح]

يأبها المبطلون مَعذِرَتِي أراكم الله وجه تحقيق
نَمَّ بما كنتُ لا أبوح به على لسان بالدمع مِنْطِيق
شوقاً إلى حسن صورة ظفرتُ من سلسبيل الجنان بالرّيق
وصيف كأسٍ محدثٍ مَلِكُ تيه مَغْنٍ وظَرْف زنديق
يشوبُ عِزّاً بذلةً فله ذُلُّ محبٍّ وزهو معشوق
أمشي إلى جنبه أراحمه عَمْداً وما بالطريق من ضيق
ومن مدحها: [المنسرح]

وإن عبّاساً مثل والده ليس إلى غاية بمسبوق
تأتق الحسن حين زانكما ففقتما النَّاسُ أي تأنيق
فصوّر الفضل من حجابٍ وندي وأنت من حكمةٍ وتوفيق
وله أيضاً: [الوافر]

تري للحسن والحركات فيه سَواماً لا تُذَاد عن القلوب
فيا مَنْ صيغ من حسنٍ وطيبٍ جَلَّ عن المشاكل والضّرِيب
أصبني منك يا أملي بذنبٍ تتيه على الذُّنوب به ذنوبي

قوله: سراط، أي طريق. والسَّقَر من الجوارح: التي يُصطاد بها، السُّويق: الشعير
إذا قُلِّي وطُحْن، حَبَقَة: ضرطة، عين بَقَّة، يقال: ذلك للصغير. دَغْفَل: اسم رجل كان
نسابة، والدَغْفَل، ولد الفيل، والدغفل: الزمن الخصب، فسُمِّي الصبي بأحدهما.
والزَّنْفَل، من أسماء الداهية، والبيضة: بيضة النعام، وجعلها في رَوْضَة، يريد أنها مصنوعة

منعمة، وتشبيههم للنساء بهذه البيضة مشهور في شعر امرئ القيس وغيره، وقيل للأوسيّة - وهي امرأة حكيمة من العرب - بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي منظر أحسن؟ فقالت: قُصُورُ بيض في حدائق خضر، فأنشد رضي الله تعالى عنه لعديّ بن زيد:

كَدُمَى العَاجِ فِي المَحَارِبِ أَوْ كَالْبَيْضِ فِي الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرٌ

قوله: لَا صَمَّ صَدَاكَ، أي لَا هَلَكْتَ، فَلَا يَكُونُ لَكَ صَوْتُ.

وقال امرؤ القيس في الدار الخالية: [السريع]

صَمَّ صَدَاها وَعَفَا رَسْمُها واستعجمت عن منطق السائل^(١)

والصّدى: الصوت الذي يجيبك من الجبل، أو من الموضع الخالي، والصّدى: طائر يخرج من رأس المقتول، فلا يزال يصيح: اسقوني اسقوني، حتى يُقتل قاتله على زعمهم، ولا صمّ صدّاك، دعاء بطول العمر، لأن الصدى تابع للصوت، فإذا مات الإنسان انقطع صوته، فلا يُسمع له صدى، فكأنّ صداه بعد موته أصمّ لا يسمع ولا يجيب، ما استرشد، أي ما طلب مَنْ يرشده ويدلّه.

فطرب الشيخ لما أذاه، ثم عَوَّذَهُ وَقَدَّاه، ثم قال: هَلَمْ يَا قَعْقَاع، يَا بَاقِعَةَ الْبِقَاع. فأقبل فتى أَحْسَنُ من نَارِ الْقِرَى، في عين ابن السّرى، فقال له: اصْدَعْ بِتَمَيِّزِ الظَّاءِ مِنَ الضَّادِ، لتصدع به أَكْبَادُ الْأَضْدَادِ؛ فاهتزّ لقوله واهتشّ ثم أنشد بصوت أجشّ: [الخفيف]

أَيُّهَا السَّائِلِي عَنِ الضَّادِ وَالظَّاءِ	ءٍ لِكَيْلَا تُضِلَّهُ الْأَلْفَاظُ
إِنْ حَفِظَ الظَّاءَاتِ يُغْنِيكَ فَاسْمَعُ	هَاجِرَ اسْتِمَاعِ امْرِئٍ لَهُ اسْتِيقَاطُ
هِيَ ظَمِيَاءُ وَالْمِظَالُ وَالْإِظْ	غَلَامُ وَالظُّلْمُ وَالظُّبْيُ وَاللِّحَاطُ
وَالْعِظَا وَالظُّلَيْمُ وَالظُّبْيُ وَالشَّيْ	ظَمُ وَالظُّلُّ وَاللَّظَى وَالشُّوَاظُ
وَالْتَّظَنِّي وَاللَّفْظُ وَالنُّظْمُ وَالْتَفْ	رِيظُ وَالْقَيْظُ وَالظَّمَا وَاللِّمَاطُ
وَالْحِظَا وَالنَّظِيرُ وَالظُّثْرُ وَالْجَا	حِظُ وَالنَّازِرُونَ وَالْإِيقَاطُ
وَالْتَّشْطِي وَالظُّلْفُ وَالْعِظْمُ وَالظُّنْ	جُوبُ وَالظُّهْرُ وَالشُّظَا وَالشُّظَاظُ
وَالْأَظَافِيرُ وَالْمِظْفَرُ وَالْمِخْ	ظُورُ وَالْحَافِظُونَ وَالْإِحْفَاطُ
وَالْحِظِيرَاتُ وَالْمِظَنَّةُ وَالظَّنْ	ةُ وَالْكَاطِمُونَ وَالْمُغْتَاظُ
وَالْوُظُفَاتُ وَالْمَوَاطِبُ وَالْكِظْ	ةُ وَالْإِنْتِظَارُ وَالْإِلْظَاظُ

(١) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٢٥٥، ولسان العرب (صمم)، (عجم)، (صدى)، وتهذيب اللغة

١٢٦/١٢، ٢١٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٤١، ٤/ ٢٤، وأساس البلاغة (عجم)، وكتاب العين ٧/

١٣٩، والبيت بلا نسبة في المخصص ١/ ٨٧، ٧/ ١٣.

ووظيف وظالع وعظيم
ونظيف والظرف والظلف الظا
وعكاظ والظفن والمظ والحث
وظراب الظران والسظف البا
والظرابين والحناطب والعند
والشناظي والدلظ والظاب والظب
والشناظير والتعاظل والعظ
هي هذي سوى التوادير فاحفظها
واقص فيما صرفت منها كما تفت
وظهير والفظ والإغلاظ
هرثم الفطيع والوعاظ
ظل والقارطان والأوشاظ
هظ والجغظري والجواظ
ظب ثم الظيان والأزعاظ
ظاب والعنظوان والجنعاظ
لم والبظر بعد والانعاظ
لثقفم آتارك الحفاظ
ضيه في أصله كقنيظ وقاظرا

* * *

أذاه: أبلغه، تقول: أديت الأمانة، إذا بلغت صاحبها، عوذه: قرأ عليه المعوذتين، وفذاه: قال: نفسي فداؤك. قعقاع: شديد الصوت، والقعقة، صوت متتابع، والبقاعة: الداهية. والبقاع: جمع بقعة، قطعة من الأرض، لقرى: طعام الضيف. ابن السرى، هو الطارق بالليل، وقد تقدم ذكر هذه النار عند قوله: [الرجز]

فلم أزل أنص عنسي وأقول: طوبى لك ولنفسي

وهم يضربون المثل بها وحدها في الحسن فيقولون: هو أحسن من النار، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل في ريح وبزد وجوع، لا يدري أين يتوجه، فرأى ناراً قد أوقدت لقرى الأضياف، فلا يقدر قدر حسنها إلا من جربها.

وقالت اعرابية: كنت في شبيتي أحسن من النار.

وأشد التوزي ملغزاً في النار: [الطويل]

وشعثاء غبراء الفروع كأنما
دعوت بها صحبي بليل كأنهم
فهذا مثل الذي ذكره الحريري.

وقال الآخر يصف ناراً: [الطويل]

ومشوبة لا يقبس الجار ريثها
متى ما يزرها زائر يلف دونها
وأشد أبو زيد فيها ملغزاً: [الطويل]
وزهراء إن كفتها فهو عيشها
ولا طارق الظلماء منها يؤنس
عقيلة دارى من المسك تغرس
وإن لم تكفنها فموت معجل

وكان الحسن بن وهب أشدَّ الناس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد وكانت تغني في مجلسه، وبين يديها كانون فحم، فتأذت بالنار، وأمرت بإبعادها، فقال الحسن مرتجلاً: [الكامل]

بأبي كرهت النَّارَ لَمَّا أوقِدَتْ فعرفتُ ما معنَاكَ في إبعادها
هي ضُرَّةٌ لك بالتِّماعِ ضيائها وبحسن صورتها لَدَى إيقادها
وأرى صنيعَكَ في القلوبِ صنيعها بأزَاكمها وسَيَالها وقتَادها
شركتُكَ في تلك الجهات بحسنها وضيائها وصلَاحِها وفسَادها

وكان مع أصحابه يوماً. فقال: لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات، فما تكلموا بشيء حتى دخلت، فقال: إني وإياك لكما قال علي بن أمية: [الطويل]

وفاجأتني والقلبُ نحوكَ شاخصٌ وذكرَاك ما بين اللِّسانِ إلى القلبِ
فيا فرحةً جاءت على إثرِ ترحه ويا غفلتي عنها وقد نزلت قربي

ودخلت عليه يوماً وهو محموم، فسلمت وقبَّلت يده، فأراد تقبيل يدها فأزعش وقال: [الطويل]

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كَفِّها ولي رعدة أهرتُ منها وأسكنُ
فديتكِ إني أشجع الناس كلِّهم لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

قوله: اصدع، أي بَيِّن وأظهر. تصدع: تشق، الأضداد: الأعداء. أجش: أبح. تضلُّه: تضيعه وتثله، استيقاظ: انتباه، ظمياء: عطشى.

الأزهري: شفة ظمياء، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمد ظموها، وليثة ظمياء، ورجل أظمى، وامرأة ظمياء، وقيل: شفة ظمياء، إذا كانت فيها سُمرة وساق ظمياء: قليلة اللحم. والظلم، بالفتح: ماء الأسنان، وقيل: بريقها وصفائها، والجمع ظلوم، واللاحظ: طرف العين الذي يلي الصُّدغ. العظاء: جمع عَظاية، وهي دويبة حمراء إلى الغبرة، ذات قوائم أربع. الظِّلِم: ذكر النعام. الشَّيْظم: الطويل، اللَّظَى: النار والشواظ: لهبها بغير دخان. التَّظني: مصدر تَظَنَّيت أي حسبت، والأصل تَظَنَّت بالنون، فأبدلت ياء. والتقرِيط: مدح الرجل حياً. والقيظ: فصل الحر. والظَّمأ: العطش، واللَّمَاظ: الشيء اليسير من الطعام وقد تَلَمَّظت، إذا تتبععت بلسانك بقيَّة الطعام بعد الأكل، واسم تلك البقية اللَّماظة، وقيل: التَّلْمَظ هو لَعَق الشفتين باللسان من عطش أو غيظ. الحظا: انتفاخ اللحم. النَّظير: المثل، الظُّثر: المرضع بالأجرة، الجاحظ: الذي بَرَزَت عيناه. الأيقاظ: ضدَّ النَّيام، الواحد يَقُظ بضم القاف وكسرها، قوله التَّشْطِي: أن تصيِّر العودَ فلقاً، والشَّطْية: الفِلَقَة منه. والشَّطَى: عظم لاصق بالركبة. وقيل هو تشقَّق عصب الذراع، والظِّلْف للغنم والبقر بمنزلة الحافر للدَّواب، وكل حافر مشقوق ظِلْف،

الظنوب: مقدّم عظم الساق، والشظاظ: عود الشّداد، الذي يشدّ به المتاع، وقيل: هو عود يدخل في عُرا الغرّارتين فيحملان به على ظهر البعير. المظفر: المؤيد. المحظور: الممنوع. الإحفاظ: الإغصاب. الحظيرات: جمع حظيرة، وهي الرّزب يعمل منه شبه الدار، تسكنها الغنم والإبل، وقد يكون من حائط، وأصل الحظر المنع، وكلّ مانع بين شيئين حظير. والمظنة: الموضع ترمي فيه بظنك، وفلان مظنة خير، أي يُظنّ فيه الخير، والظنة: التهمة، الكاظمون: المتجرّعون غيظهم، وقد كَظَمَ غيظه، تجرعه ورده. الوظائف: جمع وظيفة وهي ما يلزمك من المغرّم، المواظب: الملازم، وقد واظبت على الشيء، داومت عليه. الكِظّة: الامتلاء من الطعام، والإلظاظ: اللزوم. الوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرّسغ إلى الساق. والظالع: الأعرج. والظهير: القوي الظهر، وهو أيضاً المُعين، والفظّ: الغليظ، والفظاظة: الجفاء والغلظة، والإغلاظ: الجفاء. والتّظيف: التّقيّ الحسن. والظّلف المنع والرّد، وقد ظلفت أثري ظلفاً، إذا مشيت في حُزونة الأرض وصلابتها فمنعت أثرك أن يؤثر فيها والفظيع: الكريه المطعم، وقد فَظَعَ الشيء اشتدت كراهيته ومرارته. عُكاظ: موسم للعرب، الطعن: السفر. الحنظل: شجر مرّ، والباهظ: الغالب. والبظر: زيادة في فرج المرأة، ورجل أبظر: في شفته العليا نتوء، وامرأة بظراء، والأول راجع إلى هذا المعنى، الانعاظ: قيام الذكر. النوادر: الغرائب والشواذ. تقفو: تتبع. قيظ: شدة الحرّ، وقاظوا: دخلوا في زمن القيظ.

فقال له الشيخ: أحسنت لأفَضَ فوك، ولأبُرَّ مَنْ يجفوك، فوالله إنك مع الصّبا الغضّ، لأحفظُ من الأرض، وأجمع من يوم العرض، ولقد أوردتُك ورفقتك زُلالي، وثقفتكم تثقيف العوالي، فاذكروني أذكركم، واشكروا لي ولا تكفرون.

قال الحارث بن همام: فعجبتُ لما أبدى من براعه، معجونة برقاعة، وأظهر من حَذَاقه، ممزوجة بحماقة؛ ولم يزل بصري يصعد فيه ويصوب، وينقّر عنه وينقّب، وكنت كمن ينظر في ظُلَماء، أو يسري في بهماء؛ فلما استراث تنبّهي، واستبان تدلّهي، حملق إليّ وتبسّم، وقال: لم يبق من يتوسّم، فبُهِتُ لِفَحْوَى كلامه، ووجدته أبا زيد عند ابتسامه، فأخذت ألومه على تدبّر بقعة النوكى، وتخيّر جرفة الحمقى، فكان وجهه أَسِفٌ رماداً، أو أشرب سواداً، إلا أنه أنشد وما تمادى: [الوافر]

تخيّرَ وجِمَص وهذي الصّناعة	لأرزق حُظْوَةَ أهل الرّقاعة
فما يصطفي الدهرُ غير الرقيع	ولا يوطن المالُ إلا بقاعة
ولا لأخي اللبّ من دهره	سوى مالٍ غير ربيط بقاعة

فضّ: كسر، يجفوك: يغلظ لك في الكلام، الغضّ: الطري، يوم العرض: يوم

القيامة، ولما أشار مِنْ أَوَّلِ على أكبرهم، انحطَّ في أسنانهم إلى أصغرهم، فختم به كما بدأ بأكبرهم، فلذلك قال: مع الصبا الغضّ.

[مما قيل في الغلمان الصغار]

ومما قيل في الصغار من الشعر المستحسن، قال أبو الفضل الدارمي وقد سأله الثعالبي أن يصف له غلاماً صغيراً، بديع الحسن ليثبت ذلك في كتابه المترجم بألف غلام، فأنشد: [المجث]

إنّي عشقتُ صغيراً قد دبّ فيه الجمالُ
وكاد يفشي حديثُ الـ فُضول فيه الدّلالُ
لو مرّ في طرق الوضـ لي ما اعتراه الضّلالُ
يريك بدمراً منيراً في الحُسن وهو هلالُ
قال الحسن: [الخفيف]

حين أوفى على ثلاث وعشرٍ يطلّ عهد أذنه بالشُّنوفِ
غنة فيه للصبأ تغتليه بحّة الاحتلام للتشريفِ
حين رام النّساء منه بعينٍ وطوى أختها على التخويفِ
وقال آخر: [البسيط]

لئن يزيد على عشرٍ بواحدة وزاد أخرى وشاب الحبّ بالجَزَعِ
وجاوب اللّحظ منه لحظّ عاشقه وجوّز الوعد بين اليأس والطمعِ
قد كان غِزّاً بقتلي ليس يُخسِنهُ فاليوم يبديع في قتلي على البديعِ
وقال آخر: [مخلع البسيط]

قالوا أتبكي على صغيرٍ خصصته بالوداد طِفْلاً
فقلت إن البنان خمس أصغر ما بينها يُخلّى
ولا بن إدريس اليماني: [مخلع البسيط]

عشقتَه شادناً صغيراً وكنت لا أعشق الصّغاراً
أعارني سقمَ ناظريه فاشتشرقتُ نفسهُ حذاراً
يُسفر عن وجه مستنيرٍ يردّ جنح الدّجى نهاراً
لم أر من قبل ذاك نُوراً أضرمَ فيه الحياء ناراً
ولا بن شهيد: [الرملي]

راقني من شيمه برقٌ بدا أم سنا المحبوب أوزى أرنداً
هبّ من نَفْسَتِهِ منكسراً مُسبَل الكُمين مُزخ للردّا

يمسح الثّعسة من عَيْنِي رَشاً
قلت هب لي يا حبيبي قبلةً
فانثنى يهتز من منكبه
قال لي يلعب: صِدْ لي طائراً
وإذا استنجزت يوماً وعَدَه
شربت أعطافه خمر الصبا
صائد في كل يوم أسداً
تشف من حبك تبريح الصدى
قائلاً: لا، ثم أعطاني اليداً
فتراني الذهر أجري بالكُدى
قال لي يمطل: ذُكرني غداً
وسقاه الحسن حتى عَرَبداً

ورأى الحسن غلاماً في المكتب فأشار إلى تقبيل يده فقبله فقال: [معجز الوافر]
ظفرت بقبلة منه
أشرتُ بها إلى يده
وقال الحُلواني: [الوافر]
على عيني معلمة
فأوصلها إلى قِمة

تعرّضتُ مَنْ شَفَّنِي هجره
وقلت عساه يردّ السّلام
فجاد عليّ بتقبيلة
وكنت كموسى أتى للضياء
ببدء سلام عليه شفاهاً
فتبلغ نفسي منه مُناهاً
وقد كان أعرض عني وتاهاً
لقبس نارٍ فناجى إلهاً

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه، فوقع الغلام في كتابه: «تزاد هجراً إلى يوم الحساب» فقال الحسن: [الوافر]

كتبت إلى الحبيب يبيت شغراً
أجبنني يا ملولُ على كتابي
فوقع في الكتاب: يزاد هجراً
وقال ابن رشيق في محبوبه الصائغ: [الوافر]
أعاتبه فأغضبه كتابي
فلأنّ النّفس تسكن بالجوابِ
وإبعاداً إلى يوم الحسابِ

وظبي من بني الكتاب يسبي
رفعت إليه استقضي رضاه
فوقع: قد رددت فؤاد هذا
وناوله يوماً تفاحة فقال: [الطويل]
قلوبَ العاشقين بمقلتيه
وأسأله خلاصاً من يديه
مسامحةً فلا يُغدّي عليه

وتفاحة من كفّ ظبي أخذتها
لها لمسُ ردفينه وطيبُ نسيمه
ولا بن فرج: [الوافر]
جناها من الغصن الذي مثل قَدّه
وطعم ثناياه وجمرة خدّه
على ورد الحقائق للحدودِ

ومن ينظر إلى خديك يحكم

وما اهتزت غصون الروض إلا تمتت حُسن قدك في القُدود

وقال مسلم بن الوليد: [مجزوء الرجز]

تفاحة شامية من كف ظنبي غزل

ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبل

كأنما حمرتها حمرة خد خجل

وقال آخر في ضد ما تقدم: [الوافر]

فديتك لا تخف مني سلواً إذا ما غير الشعر الصغاراً

أدين بدن خل كان خمراً وأهوى لحية كانت عذاراً

وقال ابن المعتز في مثله: [مجزوء الخفيف]

من مُعيني على السَّهَر وعلى الحب والفكر

ويل ما بي من شادين كبر الحب إذ كبر

قوله: زُلالي، أي خالص علي، والزلال: الماء العذب الصافي. ثقفتكم: قوّمكم العوالي: صدور الرّماح. براعة: فصاحة. الحذاقة: المهارة في كل عمل، وهي الحذق، وأصله القطع، كأنّ الحاذق يقطع الأمور المشكّلة بعقله، وحذق الصبي القرآن: قطّعه حفظاً. الرقاعة: الحماقة، رَقَعَ رقاعة فهو رقيق. يصعد: يرفع نظره. يصب: ينظر في اعتدال واستواء. ينقر: وينقب: يفتش، بهماء: أرض مجهولة. استراث: استبطأ. تدلّهي: تحيري، ودله الحب: حيره وأدهشه، حَمَلَق: نظر بحملاقه، وهو باطن جفنه، وهو نظر المغضب. يتوسّم: يحسن النّظر والميز. بُهت: فطنت، وفي الحديث «ربّ ذي طمرين لا يؤبه له»، أي لا يظنّ له لذّته، وتآبه فلان: تكبر، وإنه لذو أبهة، أي ذو كبر ونحوه. الفنجديهي: رأيت بخط الحريري: يقال: أبهت له وأبهت ووبهت له بمعنى قال يعقوب، تقول: ما بهت له، وما بهت به وما أو بهت له، وما بهأت له: ما فطنت له، فحوى: معنى. عند ابتسامته، قد تقدّم وصفه بالقَلَح، يريد لما ابتسم ورأى قلّحه عرفه. تدبّر بقعة النوكى، أي اتخاذه حمص داراً، وجعلهم نوكى لرقاعتهم، والثّوك: الحمق. جِرْفة: صنعة أسف رماداً، أي تغير فكانه ذرّ عليه الرماد. وأسف الجرح الدواء أي حشاه به. ما تمادى، أي ما دام ولا بقي على غضبه، وتمادى في الشيء: لَجّ فيه. حظوة، أي منزلة. يصطفي: يختار. يوطن: يسكن. بقاعة: منزله. وهي جمع بقعة. أخي اللب: صاحب العقل. غير: حمار. قاعة: انخفاض، أي ليس للإنسان من دهره إلا ما أكله.

ثم قال: أما إنّ التعليم أشرف صناعة، وأزبح بضاعة، وأنجح شفاعة وأفضل براعة، وربّه ذو إمرة مطاعة، وهيبة مُشاعة، ورغية مطواعة، يتسّيطر تسيطر أمير، ويرتّب

ترتيب وزير، ويتحكم تحكم قدير، ويتشبه بذي مُلك كبير، إلا أنه يخزف في أمِد يسير، ويتسم بخمقٍ شهير، ويتقلب بعقلٍ صغير؛ ولا ينبئك مثل خبيرٍ فقلت له: تالله إنك لابن الأيام، وعلم الأعلام، والساحرُ اللاعبُ بالأفهام، المذلّل له سبلُ الكلام. ثم لم أزل مُعْتَكِفاً بناديه، ومُغْتَرِفاً من سِلِّ واديه، إلى أن غابت الأيام الغُرّ، ونابت الأحداث العُبر، ففارقتُه ولعيني العُبر.

* * *

قوله: أنجح، أي أنفع وأسرع لقضاء الحاجة. امرأة مطاعة، العرب تقول: لك عليّ امرأة مطاعة، بفتح الالف، أي امرأة أطيعك فيها، وحكى الفراء كسرهما على ضَعْف، والفتح أفصح، والأمر بالفتح: المرة الواحدة من الأمر، وبالكسر الإمارة والولاية، مُشاعة: فاشية. يتسيطر: يتسلط يخزف: يهرم. يتسم: يجعل لنفسه سمة، أي علامة الحمق.

ومما قيل في المعلم وتفضيله على الوالد، أنشد الماوردي: [المنسرح]

يا فاخراً للسّفاه بالسّلف	وتاركاً للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب	لأن جعلنا عوارض التلف
من علم الناس كان خير أب	ذاك أبو الروح لا أبو النطف

أخذه من قول الإسكندر، وقيل له: ما بال تعظيمك لمعلمك أشد من تعظيمك لوالدك؟ فقال: إن أبي سبب حياتي الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية.

ولبعضهم: [الكامل]

إن المعلم والطبيب كلاهما	لا ينصحان إذا هما لم يُكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه	واصبر لجهلك إن جفوت معلما

جاء في الحديث «يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عظم لا لحم عليه». قال عطاء: الذين يأخذون على القرآن أجراً. ابن الأيام: الخبير بها والبصير بحوادثها، علم الأعلام: أشهر المشاهير، الأفهام، جمع فهم، أراد اللّاعب بالأذهان والعقول. سبل: طرق. معتكفاً بناديه: ملازماً لمجلسته. مغترفاً من سيل واديه: أخذاً من بحر علمه. الغرّ: البيض الحسان نابت الأحداث العُبر: رجعت النوازل الشداد التي تغبر الأرض من شدة قحطها، لعيني العُبر، أي سخنة الدمع لحزنه. واستعبر: بكى. والله تعالى أعلم.

المقامة السابعة والأربعون

وهي الحجرية

حكى الحارث بن همام؛ قال: احتججت إلى الحجامة، وأنا بحجر اليمامة، فأرشدت إلى شيخ يخجّم بلطافة، ويُسْفِر عن نظافة؛ فبعثت غلامي لإحضاره، وأرصدت نفسي لانتظاره، فأبطأ بَعْدَ ما انطلق. حتى خلته قد أبق، أو ركب طبَقاً عَنْ طَبَقِي. ثم عاد عَوْدَ الْمُخْفِقِ، مسعاه، الكلّ على مَولاه، فقلت له: ويلك! أَبْطَأَ فَنَد. وِضْلُودَ زَنْد! فزعم أن الشَّيْخَ أَشْغَلَ من ذَاتِ التَّحِيينِ، وفي حَرْبٍ كحرب حُثَيْن، فَعَفْتُ المَمْشَى إلى حَجَام، وجرْتُ بين إقدامٍ وإخجامٍ. ثم رأيتُ أَلَا تَغْنِيف. على مَنْ يَأْتِي الكَنْيف.

* * *

قوله: احتججت للحجامة، وأنا بحجر اليمامة. أنس عن النبي ﷺ، قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والشُّونِيز والقُسْط»^(١).

القسط: عودٌ يجاء به من الهند، يجعل في الدَّواء والبخور.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «خيرُ يومٍ يُخْتَجَم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون، وما مررتُ بمَلَأ من الملائكة ليلة أُسْرِي بي إِلَّا قالوا: عليك بالحجامة يا محمد»^(٢).

وقال عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد تبَيَّع بي الدَّم يا نافع، ادْعُ لي حَجَّاماً، ولا يجعله شيخاً كبيراً، ولا صبيّاً، ثم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحجامة على الرِّيق أمثلُ، فيها شفاء وبركة، تزيد في العقل والحفظ، وتزيد الحافظَ حفظاً، فمن احتجم فيومَ الخميس والأحد والاثنين والثلاثاء، فإنه يومٌ رفع الله فيه البلاء»^(٣).

عن أيوب عليه السلام، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء: لا يبدأ جذام أو برص إلا في يوم الأربعاء أو ليلته.

(١) أخرجه البخاري في الطب باب ١٣، ومسلم في المساقاة حديث ٦٣، وأحمد في المسند ١٠٧/٣، ١٨٢.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في الطب باب ١٢، وأحمد في المسند ٣٥٤/١ بلفظ: «إن خير ما تحتجمون فيه يوم سبع عشرة».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب باب ٢٢.

حَجَر: قصبة. اليمامة: يأتي ذكرها في الخمسين إن شاء الله تعالى، وهي بلدة كبيرة كثيرة النخل، وسكنتها حنيفة، وهي بلدة مسيلمة الكذاب الحنفي، وبها تنبأ وآمن به أهلها، وهي «فَعَالَةٌ» من اليمَم، وهو طائر، أو من يَمَمْتُ الشيء إذا تعمَّدته، من الأمام، بمعنى قدام وأبدلت الهمزة ياء لَمَّا دخلتها الهاء، وأقرب المدن منها البصرة.

يُسْفِر: يكشف. نظافة: صقالة وحسن. أرصدت: أعددت أَبَق: هرب. طبقاً عن طبق: حالاً عن حال، وأمرأ عن أمر. المخفق: الخائب مسعاه: سعيه. الكل على مولاه: الذي لا ينفعه بشيء، ولا يكفيه أمر نفسه، والكل: الثقل الروح. قوله: صُلُود زُنْد، هو ألا يسمح الزُّند بالنار. حُتَيْن: موضع وقعة مشهورة، كانت بين النبي ﷺ وبين هوازن، هُزِمَتْ فيها هوازن، وسُبِيَتْ أموالهم وعيالهم، وقُتِل فيها دُرَيْد بن الصِّمَّة كافرأ. عَفْتُ: كرهت. الإقدام: الجرأة والترامي. والإحجام: الرجوع إلى خَلْف أراد أنه ردّد رأيه: هل يأتيه أم لا؟ والتّعنيف: العتب. والكنيف: المرحاض.

[من أسماء المرحاض]

ونذكر هنا حكاية ظريفة تجمع أسماء. رَحَلَ رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بني هاشم بالمدينة، فأقام حولاً عنده، لا يدخل مُسْتَرَحاً، فلما أراد الرجوع إلى الكوفة، قال: ابنُ عمِّه لقيتَين له: أما رأيتما ظَرْفَ ابنِ عمِّي، أقام حولاً عندنا لم يدخل الخلاء، قالتا: فعلينا أن نصنع له شيئاً لا يجد معه بُدّاً من الخلاء، قال: شأنكما، فعمدنا إلى خشب العُشْر، وطرحناه في شَرابه وهو مستهلّ؛ فلما حضر وقت شراهما قَرَّبناه له وسقنا مولاها من غيره، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاها، ومَغَصَ الفتى من بعده، فقال لإحداها: يا سيدتي، أين الخلاء؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تُغْنِيه: [الوافر]

عَفَا من آل فاطمة الجِوَاءُ فَمَنْزَلُ أَهْلِهَا مِنْهَا خَلَاءُ

فَغَنَّتْهُ، فقال: أظنهما كوفيتين، فقال للأخرى: يا سيدتي أين الحُش؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه:

* لَقَدْ أَوْحَشَ الرِّيَاءُ فَالذَّيْرُ مِنْهُمَا *

فَغَنَّتْهُ، فقال الفتى: أظنهما عراقيتين، وما فهمتا عني، فقال للأخرى: يا سيدتي، أين المتوضأ؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: يسأل أن تغنيه: [الوافر]

تَوْضُأً لِلصَّلَاةِ وَصَلَّ خَمْساً وَأَذَّنَ بِالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ

فَقَالَ: أظنهما حجازيتين، وما فهمتا عني، فقال لإحداها: يا سيدتي، أين الكنيف؟ فقالت لها صاحبتهما: ما يقول لك؟ قالت: إنه يسألك أن تغنيه:

تَكْنِئَنِي الْوَاشُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَلَوْ كَانَ وَاشٍ وَاحِدٌ لَكَفَّانِي

فغثته، فقال: أظنهما يهامييين، فقال للأخرى: يا سيدتي أين المستراح؟ فقالت لصاحبتها: ما يقول لك؟ قالت: يسألك أن تغنيه: [الكامل]

تَرَكَ الْفُكَاهَةَ وَالْمُزَاخَا وَقَلَى الصُّبَابَةَ فَاسْتَرَاخَا

فغثته، والمولى يسمع، فلما كَرَبَه الأمر أنشأ يقول: [الوافر]

تَكْنُفْنِي الْمِلَاحُ وَأَضْجَرُونِي عَلَى مَا بِي بِتَكْرِيرِ الْأَغَانِي

فَلَمَّا ضَاقَ عَنْ ذَاكَ اصْطَبَارِي ذَرَفْتُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الزَّوَانِي

ثم حلَّ سراويله، وسلَّحَ عليهما، فتركهما آيةً للناظرين. وانتبه مولاهما، فلما رأى ما نزل بهما، قال له: يا أخي ما حملك على هذا؟ قال له: يابن الزانية، لك جوارٍ يرين المخرج صراطاً مستقيماً فلا يذلِّلنني عليه، فلم يكن لهنَّ جزاء عندي غير هذا، ثم رحل عنه.

فيقول أبو محمد: لا بأس للإنسان أن يأتي المواضع الخسيسة عند الضرورة، وأصل الكنيف الساتر.

فلما شهدت مؤسّمه، وشاهدت ميسّمه، رأيت شيخاً هيئته نظيفة، وحركته خفيفة. وعليه من النظارة أطواق، ومن الزحام طباق، وبين يديه فتى كالصمصامة، مُسْتَهْدَفٌ لِلْحِجَامَةِ، والشيخ يقول له: أراك قد أبرزت رأسك، قبل أن تُبرَزَ قُرْطَاسُكَ، ووليتني فذالك، ولم تقل: لي ذالك، ولست ممّن يبيع نقداً بدين، ولا يطلّب أثراً بعد عين، فإن أنت رَضِخْتَ بِالْعَيْنِ، حُجِمْتَ فِي الْأَخْدَعَيْنِ. وإن كُنْتَ تَرَى الشُّخَّ أُولَى، وَخَزَنَ الْفُلْسِ فِي النَّفْسِ أَخْلَى، فافراً ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، وَاغْرُبْ عَنِّي وَإِلَّا؛ فقال الفتى: وَالَّذِي حَرَّمَ صَوْنُ الْمَيْنِ؛ كَمَا حَرَّمَ صَيْدَ الْحَرَمَيْنِ؛ إِنِّي لَأَقْلُسُ مِنْ ابْنِ يَوْمِينَ، فِتْنُ سَبِيلِ تَلْعَتِي، وَأَنْظِرْنِي إِلَى سَعَتِي.

مؤسّمه: مجتمعه وسوقه. ميسّمه: علامته. النظارة: الناس الناظرون أطواق: أي حلقة خلف حلقة، قد استداروا حوله. والطباق: الذي طُوبِقَ، فُجِعِلَ بعضُه على بعض، شَبَّهَ بِهِ رُكُوبَ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضاً.

[الصمصامة]

وَالصُّمَّصَامَةُ: سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعَدٍ يَكْرُبُ، وَكَانَتْ تَقَطَّعُ الْحَدِيدَ كَمَا يَقَطَّعُ الْحَدِيدُ الْخَشَبَ. وَبَعَثَ مَلِكُ الْهِنْدِ إِلَى الرَّشِيدِ بِسَيْوِفٍ قَلْعِيَّةٍ، وَكَلَابِ سَلُوقِيَّةٍ، وَثِيَابِ هِنْدِيَّةٍ،

فأمر الأتراك فصفُّوا بين يديه صَفَّيْن، قد لبسوا الحديد، ودخل الرشيد فقال لهم: ما جئتم به؟ قالوا: هذه أشرف كُسوة بلادنا، فأمرَ ففُطِّعَت جِلالاً وبراقع لخيـله، فكَبُّوا على وجوههم، وتذمُّوا، ثم قال: ما عندكم؟ قالوا: هذه سيوف قُلعية، لا نظيرَ لها؛ فدعا بالصمصامة، ففُطِّعَت بها السيوفُ سيفاً سيفاً، كما يُقَطَّع الفُجُل من غير أن تنشني لها شفرة. ثم عرض عليهم حَدَّ السَّيف فإذا هو لا قُلَّ فيه، ثم قال: ما عندكم؟ قالوا: كلاب سلوْقِيَّة، لا يبقى لها كلب ولا سَعُ إلا عقرته، فأمر بالأسد فأخْرِج إليهم، فلما نظروا إليه هالهم، وقالوا: ليس عندنا مثل سَبْعُكم، ثم أرسلوا عليه الأكلب - وكانت ثلاثة - فمزَّقته، فقال: تمثُّوا في هذه الأكلب ما شئتم، قالوا: السَّيف الذي قطع سيوفنا، قال: لا يجوز في ديننا أن نُهاديكم بالسلاح فانقلبوا خائبين.

وكانت الصمصامة عند الهادي، فدعا بها يوماً وبمكتلٍ مملوء دنانير، وأمر الشعراء أن يقولوا فيه، فبدأهم ابن يامين فقال: [الخفيف]

حاز صَمصامة الزُّبيدي عَمْرُو من بيـ	من جميع الأنام موسى الأَمِينُ
سيف عمرو، وكان فيما سمعنا	خير ما أَعْمِدَتْ عليه الجفونُ
أوقدت فوقه الصَّواعق ناراً	ثم شابت به الزَّعَافُ القُيُونُ
وإذا ما شَهَرْتُهُ بِهَر الشُّم	س ضياء فلم تَكُد تستبينُ
يستطير الأبصار كالقَبَس المشـ	عَلَّ ما تستقرَّ فيه العيون
وكان الفِرْنَد والجوهر الجا	ري عَلى صفحتيه ماء مَعِينُ
ما يبالي إذا الضريبة حانت	أشمالاً سطتْ به أم يَمِينُ
وكانَ المنونَ نِيطَتْ إليه	فهو من كلِّ جانبٍه منونُ

فقال له: لك السيف والمكتل، ففرَّق، المِكتل على الشعراء، وقال: حرمتهم بسبيي، وأخذ من المهددي في السيف خمسين ألف دينار.

وممن أفرط في وصف قُطْع السَّيف النمر بن تولب حين قال: [البسيط]

أبقى الحوادث والأيام من نمرٍ	أسباد سيفٍ كريمٍ أثره بادي
تظَلَّ تحفر عنه الأرض مندفنأ	بعد الذراعين والساقين والهادي

ويروى: [البسيط]

* تظَلَّ تحفر عنه إن ضربت به *

والأسباد: البقايا، واحدها سَبْد، وقال أبو الهول: [الطويل]

حُسام عَدَاة الرُّوع ماضٍ كأئـ	مِنْ الله في قَبْضِ النَّفوس دليلُ
كأنَّ جنودَ الذرِّ كُسِرْنَ فوقه	قرونُ جرادٍ بينهما دخولُ

كَأَنَّ عَلَى إِفْرِنْدِهِ مَوْجُ لُجَّةٍ تَقَاصِرُ فِي ضَحْضَاحِهِ وَتُطَوِّلُ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ: [الوافر]

يَقُولُ الْقَائِلُونَ إِذَا رَأَوْهُ لِأَمْرِ مَا تُغْوِلِيَتِ الدُّرُوعُ
وَالشَّعْرُ فِي وَصْفِ السِّيفِ كَثِيرٌ مَشْهُورٌ فَلِذَلِكَ اقْتَصَرْنَا عَلَى هَذِهِ النِّبْذَةِ.

قَوْلُهُ: مُسْتَهْدِفٌ، أَيُّ مُنْتَصَفٍ، وَالْهَدَفُ: الْغَرَضُ، وَأَرَادَ بِالْقِرْطَاسِ قِطْعَةً مِنْ كَاعَدٍ تَوْضَعُ فِيهَا الدَّرْهَمُ. الْفَنْجَدِيهِي: الْقِرْطَاسُ: دِرْهَمٌ مِنْ نُحَاسٍ، وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْفِضَّةِ، يَتَعَامَلُونَ بِهِ فِي الشَّامِ. قِذَالِكُ: مُؤَخَّرُ عُنُقِكَ وَهُوَ مَا بَيْنَ نُقْرَةِ الْفَقَا إِلَى الْأَذُنِ وَجَمْعُهُ قُذُلٌ. ذَا، إِشَارَةٌ إِلَى الدَّرْهَمِ نَقْدًا: حَاضِرًا.

أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ، قَدْ تَقَدَّمَ، وَالْعَيْنُ: نَفْسُ الشَّيْءِ، وَقِيلَ: الْعَيْنُ الْمَعَايِنَةُ، فَمَعْنَاهُ لَا أَتْرُكُ شَيْئًا وَأَنَا أَعَايِنُهُ، وَأَطْلُبُ أَثَرَهُ إِذَا غَابَ. وَقَالَ الْفَنْجَدِيهِي: سَمِعْتُ بَعْضَ الْفَضْلَاءِ بِفَنْجَدِيهَةٍ، يَقُولُ: حَكِي أَنْ رَجُلًا سُرِقَ مِنْهُ شَيْءٌ، فَخَرَجَ يَطْلُبُ السَّارِقَ، فَلَمَّا ظَفَرَ بِهِ أَخَذَ يَضْرِبُهُ وَيَشُدُّ وَثَاقَهُ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ أَهْلِ الْبَلَدِ: خَلِّ سَبِيلَهُ، حَتَّى يَخْرُجَ فَإِنَّ هُنَا أَثَرَ قَدَمِيهِ، فَضَحِكَ الرَّجُلُ مِنْهُ وَقَالَ: لَا أَطْلُبُ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ، فَصَارَ مَثَلًا لِمَنْ تَرَكَ شَيْئًا حَاصِلًا ثُمَّ تَبَعَ أَثَرَهُ بَعْدَ فَوْتِ عَيْنِهِ.

رَضِخَتْ: أَعْطِيَتْ. وَالْعَيْنُ: الدِّرَاهِمُ وَالْدَنَانِيرُ. الْأَخْدَعَانُ: عِرْقَانِ يَقَعُ عَلَيْهِمَا الْمُحْجَمَتَانِ، وَقِيلَ: هُمَا فِي صَفْحَتِي الْعُنُقِ قَدْ خَفِيَا وَيُطْنَا فَلِخَفَائِهِمَا يَخْدَعَانِ الْحَاجِمَ. خَزَنَ: إِمْسَاكَ وَحَبْسَ. اغْرُبَ: غَبَ. وَإِلَّا، مَعْنَاهُ وَإِلَّا صَفَعْتُ عُنُقَكَ. الْمِينُ: الْكَذِبُ. الْحَرَمِينَ: مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَكَّةَ وَحَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ. الثَّلَّةُ: مَجْرَى الْمَاءِ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي أَنْظَرْنِي: أَخْزَنِي، سَعَيْتِي: غِنَايَ.

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: وَيَنْحَكُ! إِنْ مَثَلَ الْوُعودِ، كَغَرَسِ الْعودِ، هُوَ بَيْنَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَطْبُ، أَوْ يُدْرِكَ مِنْهُ الرُّطْبُ، فَمَا يُدْرِينِي: أَيَحْصُلُ مِنْ عُودِكَ جَنَى، أَمْ أَخْصُلُ مِنْهُ عَلَى ضَنْئِي، ثُمَّ مَا الثَّقَّةُ بِأَنَّكَ حِينَ تَبْتَعِدَ، سَتَفِي بِمَا تَعِدُ! وَقَدْ صَارَ الْغَدْرُ كَالْتَحْجِيلِ، فِي جَلِيَّةِ هَذَا الْجِيلِ، فَأَرْخَنِي بِاللَّهِ مِنَ التَّغْذِيبِ، وَارْحَلْ إِلَى حَيْثُ يَغْوِي الذَّيْبُ. فَاسْتَوَى الْغَلَامُ إِلَيْهِ، وَقَدْ اسْتَوَلَى الْخَجْلُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا يَخِيسُ بِالْعَهْدِ، غَيْرُ الْخَيْسِ الْوَعْدِ، وَلَا يَرُدُّ غَدِيرَ الْغَدْرِ، إِلَّا الْوَضِيعُ الْقَدْرُ؛ وَلَوْ عَرَفْتَ مَنْ أَنَا، لَمَا أَسْمَعْتَنِي الْخَنَا؛ لَكِنَّكَ جَهَلْتَ فَقُلْتَ، وَحَيْثُ وَجِبَ أَنْ تَسْجُدَ بَلْتَ، وَمَا أَقْبَحَ الْغُرْبَةَ وَالْإِفْلَالَ، وَأَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ:

جَنَى: ما يُجْنَى منه. ضَنَى: مَرَض. التَّخْجِيل: بياض في قوائم الفرس حِلْيَة: صفة وزينة. الجِيل: أهل العَصْرِ. اسْتَوَى: اعتدل قائماً اسْتَوَلَى: غلب عليه الخجل. يخيس: يغدر، وخاس الشيء تَغَيَّر. الوغد: الرَّذُل الساقط الخسيس الدنيء. الخنا: الفُحْش. [البسيط]

إن الغريب الطويل الذليل مُمْتَهَنٌ فكيف حال غريبٍ ما لَهُ قوت!
لكنه ما تشين الحرَّ مَوْجَعَةً فالمِسْكُ يُسْحَقُ والكافورُ مفتوثُ
وطالما أَضْلِي الياقوتُ جَمَرَ غَضَى ثم انطفئ الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ
فقال له الشيخ: يا ويلة أهلك، وعوْلَة أهلك! أنت في موقفٍ فخرٍ يظهر،
وحَسَبٍ يُشَهِّر، أم موقفٍ جَلْدٍ يُكْشِط، وَقَفاً يُشْرَط؛ وهبْ أَنَّ لَكَ الْبَيْتَ، كما
ادَّعيت، أَيْحَصُلْ بذلك، حَجْمُ قَذَالِك؛ لا والله ولو أَنَّ أَبَاكَ أَنَاف، على عَبدٍ
مناف، أو لَخَالِك دَانَ، عَبْدُ المَدَان.

الطويل الذليل: الكثير المال. تَشِين: تعيب. أَضْلِي: أدخل النار الياقوت: حجارة يتزين بها والنار لا تغيِّره.

ومما جاء في معنى هذا الشعر: [البسيط]

إن الغريبَ ذليلٌ حيثُما سلكا لو أَنه مُلْكُ كُلِّ الْوَرَى ملكا
إذا تَعَتَّى حمامُ الأيكِ في غُصْنٍ حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فبكى
آخر: [الكامل]

وإذا حَلَلْتَ بدار قوم دارهم فلهم عليك تعزُّز الأوطان
فالشَّمْسُ تُشْرِقُ في مَجَلَّةٍ كَبِشِها وتكون منحطاً مع الميزان
وقال الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم: [البسيط]

لا يشمتن حاسدٌ إن نكبةً عَرَضَتْ فالذَّهْرُ ليس على حالٍ بمتركٍ
فالحَرُّ كالتَّبَرِ يلقى تحت منقعةٍ طوراً وطوراً يَرَى تاجاً على ملكٍ
وقال البحراني في سعيد وقد حبس: [الكامل]

وما هذه الأيام إلا مراحلُ فَمِنْ مَنْزِلٍ رَخْبٍ ومن مَنْزِلٍ ضَنْكٍ
وقد هَذَّبْتَكَ النائباتُ وإِثْما صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسُّبْكِ
وقال أبو بكر بن دريد: [المنسرح]
لا تحقرن عالماً وإن خُلِقَتْ أثوابه في عيونِ رَامِقِهِ

وانظر إليه بعين ذي خَطَرٍ
فالمسك إذ ما تراه ممتهناً
سوف تراه بعارضي ملكٍ
وقال ابن شماخ : [الطويل]

نوائبُ غالثني فأبدت فضائلي
وعلى لسان عود الطيب : [المجث]

إن مسّت النّار جسمي
كالذهر إن غَضَّ يوماً
أبديت طيبَ نسيمي
أبانَ فَضْلَ كَرِيمٍ

وسخط المتوكل على عليّ بن الجهم، فنفاه إلى خراسان، وكتب أن يُصَلَّبَ إذا وردّها يوماً إلى الليل، فلمّا وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بن عبد الله، ثم أخرجّه فصلبه إلى الليل مجرّداً فقال : [الكامل]

لم يصلّبوا بالشاذياخ عشية الاثنين
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم
ما ازداد إلا رفعة وسعادة
هل كان إلا الليث فارق غيلَه
ما عابه أن بُزَّ عنه لباسه
وقال في الحبس : [الكامل]

قالت حُبِسْتُ فقلت ليس بضائرٍ
أو ما رأيت الليث يألف غيلَه
فالشمس لولا أنها محجوبةٌ
والنّار في أحجارها مخبوءة
والحبس إن لم تَغْشَه لدنية
بيت يُجَدِّد للكریم كرامةً
لو لم يكن في الحبس إلا أنه

أخذ الأحوص أحدُ الأمراء بأمر الوليد بن عبد الملك لأنّه كان يراود غلمانَه، فضربه مائة سوط وصَبَّ عليه الزيت، وأوقفه في الشمس، وهو مع ذلك يقول : [الكامل]

ما تعتريني من خطوبٍ مِلْمَةٍ
إلا تشرفني وترفعُ شاني^(١)

إني على ما قد علمت مجسّدٌ أتمى على البَغضاء والشنآن
فإذا تَزُولُ تزول عن متخمطٍ تُخشى بوادره على الأقران
إني إذا خفي اللثيمُ وجدّني كالشمس لا تخفى بكل مكان

* * *

قوله: يا ويلة أبيك. الويلة: الفضيحة. والويل: الحزن. والعولة: البكاء الشديد، وأغول يُعول إعوالاً، إذا رفع صوته وصاح. أهليك: جمع أهل يكشط: يحلق شعره. هب، أي احسب. وذكر في الدرة أن خواص العراق يقولون: هب أني فعلت، وهبه فعل، كقول أبي دَهبل: [الطويل]

هَبُوني امرأ منكم أضل بعيره له ذمّة إن الذمام كبير^(١)
قال: وهبني، أي عدني واحسبني، فكأن فيه معنى الأمر من وهب انتهى ما قاله في الدرة.

وقال هنا: وهب أن لك... البيت، وبيت القبيلة: أشرف فخذ فيها أناف: أشرف.

[عبد مناف بن قصي]

عبد مناف بن قصي، هو بيت قريش وشريفها، وهو جدّ رسول الله ﷺ، واسمه المغيرة، وكان يقال لعبد مناف: القمر لجماله وبهائه ورفع منزله، وسُمّي عبد مناف لأنه شرف وعلا، وأناف على أشراف العرب، وكانت الرّكاب تُضرب إليه من أطراف الأرض يُتجفونه تحف الملوك، فيكرمهم، وكان عنده لواء نزار، وقوس إسماعيل، وسقاية الحاج والمفاتيح ولما قَسَم والدّه المجدّين أولاده جعل السقاية والرياسة لعبد مناف، والدّار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزّي، وجانبي الوادي لعبد بن قصي: قال الشاعر: [الكامل]

كانت قريشُ بينضةً فتفلّقت فالمحّ خالصه لعبد مناف^(٢)
ولما مات قصي رأس ابنه عبد مناف، وجلّ قدره، فأتته خُزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الحلف ليعزّوا به، فعقد معهم.

(١) البيت لعروة بن أذينة في تخلص الشواهد ص ٤٤٢، ولأبي دهب الجمحي في ديوانه ص ٧٧، والأغاني ١٤٠/٧.

(٢) البيت لعبد الله بن الزبيري في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (مصح)، والتنبيه والإيضاح ٢٦٧/١، وتهذيب اللغة ٢١/٤، وتاج العروس (مصح)، (نوف)، وبلا نسبة في ديوان الأدب ١٨/٣، وكتاب العين ٣٥/٣.

وأما شَرَفُ عقبه فلأن منه بني هاشم، الذين فيهم النبوة والخلافة، ومنه بنو أمية القادة في الجاهلية، وأهل الخلافة في صدر الإسلام، وقد قدّمنا في أخبار الشافعي أن عبد مناف، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه، فلهؤلاء انتهى شرف مُضر.

[بنو عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشراف اليمن، وبهم يضرب المثل في الشرف والعزة، وهو عبد المدان بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب ابن الحارث بن كعب بن خالد بن بجيلة بن مذحج وقال لقيط بن زُرارة: [الوافر]

شربتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أني أبوقابوسَ أو عبدُ المَدانِ
أمشي في بني عُدُس بن زيد رخيّ البال منطلقَ اللسانِ
وقال حسان رضي الله عنه: [الوافر]

وقد كنا نقول إذا رأينا لذي جسم يعدّ وذو بيانٍ
كانك أيها المعطي بياناً وجسماً من بني عبد المدانِ
وقالوا لحسان: كُنا يا أبا الوليد، ونحن نطول بأجسامنا على العرب نرى لأنفسنا بذلك فضلاً، حتى قلت: [البيسط]

دعوا التخاجؤ وانشؤا مشيةً سُحجا إن الرجال أولوقدّ وتذكيرِ
لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عِظَم جسمُ البغال وأحلام العصافير
فتركتنا لا نرى لأجسامنا فضلاً.

وحكى الأصمعي: أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بسوق عكاظ، وقدم أمية بن الأسكر الكناني ومعه ابنة له، من أجمل أهل زمانها، فخطبها يزيد وعامر، فقالت أمّ كلاب (امراة أمية): مَنْ هذان الرجلان؟ فعرفها أمية، فقالت: أعرف بني الديان ولا أعرف عامراً، قال: هل سمعتِ بملاعب الأسنة؟ قالت: نعم، فقال: هذا ابن أخته، فقال يزيد: يا أمية أنا ابن الديان، صاحب الكِثيب ورئيسُ مذحج ومكلم العقاب، ومَنْ كان يصبّ أصابعه فتتنظف دماً، وراحته فتخرج ذهباً، فقال أمية: بخ بخ، فقال عامر: جدي الأجذم، وعمي الأصم، وخالي ملاعب الأسنة، وأبي فارس قرزل، فقال أمية: بخ بخ، مرعى ولا كالسعدان، فأرسلها مثلاً، فقال يزيد: يا عامر، هل تعلم شاعراً من قومي رحل بمدحةٍ إلى رجل من قومك؟ قال: لا، قال: فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي؟ قال: اللهم نعم، فنهض يزيد وهو يقول: [الكامل]

أمي يا ابن الأسكر بن مدلج لا تجعلن هوزاناً كمذحج

لا النبع في مغرسه كالْعَوْسَجِ ولا الصريحُ المحضُ كالْمُنْزَجِ

فلا تضرب في حديد بارد، ولا تطلّب ما لست له بواجد، وبإو إذا باهت
بموجودك؛ لا يُجدودك، وبمخصولك، لا بأصولك، وبصفاتك، لا برّفاتك،
وبأعلاقك، لا بأعراقك؛ ولا تُطع الطمع فيذلّك، ولا تتبّع الهوى فيضلّك، والله
القائل لابنه: [الطويل]

قويماً ويغشاه إذ ما التوى التوى	بنيّ استقم فالعود تئمي عروقه
إذا التهبّت أحشاؤه بالطوى طوى	ولا تُطع الحرص المذلّ وكن فتى
إلى النجم لما أن أطاع الهوى هوى	وعاص الهوى المُردي فكم من مُحلق
على من إلى الحرّ اللباب انضوى ضوى	وأُسيف ذوي القُرْبى فيقبح أن يرى
زَمانٌ ومن يزعى إذا ما التوى نوى	وحافظ على من لا يخون إذا بُنا
إذا اعتلقت أظفاره بالشوى شوى	وإن تقتدر فاصفح فلا خير في امرئ
شكّال أخوال الجهل الذي ما ازغوى غوى	وإياك والشكوى فلم تر ذا نهى

قوله: لا تضرب في حديد بارد، هو مثل لمن يحاول الانتفاع بمن ليس عنده نفع،
وقال أبو الشمقم يهجو سعيد بن سلم: [الطويل]

إن كُنتَ تطمع في نوال سعيد	هيهات تضرب في حديد بارد
وأناه سلم في زمانٍ مُدود	تالّهُ لو ملك البحار بأشرها
لأبى وقال: تيمما بصعيد	يبغيه منها شربة لظهوره

وكذب عليه، كان سعيد بن سلم من أجود الناس. قوله: باو، أي فاخر موجودك
ومحصولك: ما تجده من المال ويخصل لك. رفاتك: عظام أجدادك البالية. الأعلاق:
جمع علق، وهو النفيس الرفيع من الذخائر. أعراقك: أصولك. قوله: ولا تطع الطمع
فيذلّك، ومن دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من طمع حيث لا طمع، وأعوذ بك
من طمع يهذي إلى الطبع»^(١)، وقال النبي ﷺ: «خيار المؤمنين القانع، وشراهم
الطامع». وقال الحسن البصريّ لبعض ولد عليّ رضي الله عنهما: ما ملاك الدين؟ قال:
الورع، قال: ما آفته؟ قال: الطمع. قوله: ولا تتبّع الهوى فيضلّك، ابن عباس رضي الله

عنهما، قال ﷺ: «ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وعجب كل ذي رأي برأيه»^(١). وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل، أما الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»^(٢). وقال بعضهم: أفضل الناس من عصى هواه، وأفضل منه من رَفَضَ دنياه. تنمي: تزيد. التوى: اعوج. التوى: الهلاك. القويم: المعتدل. التهبت: اشتعلت الطوى: الجوع. طوى، أي طوى عليه ضلوعه وستره. وقال أبو فراس: [الكامل]

لا أرتضي ودا إذا هو لم يذم	عند الجفاء وقلة الإنصاف ^(٣)
تَعَسَّ الحريصُ وقل ما يأتي به	عوضاً من الإلحاح والإلحاف
إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه	ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً	فإذا قَنَعْتَ فكلُّ شيء كافٍ
ويعاف لي طمع الحريص فتوتى	ومُرُوَّتِي وقَنَاعَتِي وَعَفَافِي
شيمٌ عُرِفَتْ بهنَّ مذ أنا يافع	ولقد عُرِفَتْ بمثلها أسلافي

قوله: المردي، أي المهلك المحلَّق: الطائر يستدير في طيرانه. هوى: سقط. أسعِف: أفض حوائجهم. اللباب: الخالص. انطوى، انقطع إلى جودك وتعلق به. نبا: ارتفع ولم يوافق. يزعى: يحفظ. التوى: البعد نوى: أرادته وقصده، وقد قالوا: خير الإخوان، من أقبل عليك إذا أذبر الزمان. الشوى: القوائم، ويقال لجلدة الرأس: شوى. وقوله: شوى، أي صنع شواء وأولاها النار. يقول: من اعتذر إليك من الإخوان فاعذره، ولا تكن ممن إذا وقع على ذنب لصاحبه أخذه به، ونزع جلدة رأسه فشواها.

[مما جاء في قبول العذر]

وقال ﷺ: «من لم يقبل من متصِّل عذراً، صادقاً كان أو كاذباً، لم يرِذ عليّ الحوض». وقالوا: المعترف بالذنب كمن لا ذنب له.

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهدي، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال الحسن بن وهب: [السريع]

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ مِنَ الْقَادِرِ لَا سِيَمَاءَ عَنْ غَيْرِ ذِي نَاصِرٍ

(١) أخرجه بمعناه أبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في تفسير سورة ٥، باب ١٨، وابن ماجه في الفتن باب ٢١، بلفظ: «وإعجاب كل ذي رأي برأيه».

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الرقاق باب ٥.

(٣) الأبيات في ديوان أبي فراس الحمداني ص ٨١.

إن كان لي ذنبٌ ولا ذنبٌ لي فما له غيرُك من غافرٍ
أعوذُ بالوَدِّ الذي بيننا أن تفسد الأول بالآخرِ
وقالوا: ليس من العَدْل، سُرعة العَدْل.

وقال آخر: [البسيط]

أقبلُ معاذيرَ من وافتاك معتذراً أبرّ فيما أتى من ذاك أو فَجَرَا
فقد أطاعك مَنْ يُرضيك ظاهره وقد أجلك مَنْ يَغصيك مستترا

آخر: [الطويل]

وهبني مسيئاً كالذي قلتَ ظالماً فغفواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو عندك للذي أتيتُ به أهلاً فأنت له أهلُ
الأحنف: ربُّ ملومٍ لا ذنبَ له.

آخر: [الطويل]

* لعل له عذراً وأنت تلومُ *

آخر: [الطويل]

إذا اعتذر الجاني مَحَا العذرُ ذنبه وكلَّ امرئٍ لا يقبل العذرَ مذنبُ
وقال محمد بن سليم لابن السَّمَاك: بلغني عنك شيءٌ كرهته، فقال: إذا لا أبالي،
قال: لم؟ قال: لأنه إن كان حقاً غفرته، وإن كان باطلاً لم تقبله.

وقالوا في ترك الاعتذار: [الطويل]

إذا كان وجه العذر ليس ببيِّن فإنَّ أطراح العذر خيراً من العُذرِ
قوله: الشُّكوى، أي المشتكى إلى الناس بالضرر. نُهي: عقل. ارعوى: رجع.
وارعوى عن القبيح: كفَّ عنه وحسَّن رجوعه ونزوعه عنه من الرُّعوى، وهي حسن
المراجعة والنزوع عن الجهل.

الفراء وابن سيده: عوى الفصيلُ والكلبُ، إذا صاح فمدَّ صوته، قال الشاعر:

[الطويل]

بها الذَّنْبُ محزوناً كأنَّ عواءه عواء فصيلٍ آخر الليل مُحْتَلُ

المحتل: السيء الغداء، وإذا دعا الرَّجُلُ النَّاسَ إلى الفتنة فقد عوى واستعوى،
وسمعتُ عَوَّةَ القوم، أي أصواتهم وجلبتهم، قاله الأصمعي وأبو زيد: بل أخو الجهل
الذي عوى بالشكاية وقت ارعوائه أي رجوعه عنك، والمعنى كلما غاب عنك: تشكَّى،
وما مع الفعل مصدرية وظرف الزمان محذوف، أي وقت ارعوائه كقوله تعالى: ﴿مَا

دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿هود: ١٠٧﴾ أي مدة دوامهما، يريد أن العاقل يحتمل ضرّ الزمان ولا يشتكّي والجاهل الذي متى رجع عن التشكّي لم يرجع رجوعاً حسناً، بل يغوي بالتشكي عواء الذئب.

فقال الغلام للنظارة: يا للعجبية، والطرفة الغريبة! أنف في السماء، واست في الماء، ولفظ كالصّهباء، وفعل كالخضباء. ثم أقبل على الشيخ بلسان سليط، وغيط مُستشيط، وقال: أف لك من صواغ باللسان، رَوّاع عن الإحسان: تأمر بالبرّ، وتعق عقوق الهرّ، فإن يكن سبب تعنتك، نفاق صنعتك، فرماها الله بالكساد، وإفساد الحساد؛ حتّى ترى أفرغ من حجام سابات، وأضيّق رزقاً من سم الخياط فقال له الشيخ: بل سلط الله عليك بئر الفم، وتبيّع الدم؛ حتّى تلجأ إلى حجام عظيم الاشتطاط، ثقیل الاشتراط، كليل المِشراط، كثير المَخاط والضراط.

قوله: الطرفة الغريبة، أي التي لم ير مثلاً. الصّبهاء: الخمر. الخضباء: الحجارة. سليط، أي متسلط. مستشيط: منتشر في الشر ملتهب في الغضب صواغ: كذاب، وصاغ الكذب: صنعه. راغ: مال إليه من حيث لا يعلم، وراغ إلى أهله: رجع في إخفاء. رَوّاع: ميال وفرار في خفية. تعق: تقطع وعقوق الهرة، أنها تأكل أولادها.

وحكى الأصمعي في كتاب «أفعل من كذا»، يقال: أعق من صبّ، قال: أرادوا ضبة، فكثر الكلام بها فقالوا: صبّ، وعقوقها أنها تأكل أولادها، وذلك أن الضبة، إذا باضت حرست بيضتها من كل ما قدرث عليه من ورل وحيّة وغير ذلك، فإذا خرجت أولادها من بيضتها ظنتها شيئاً يريدُ بيضها، فوثبت عليه تقتله، فلا ينجو منها إلا الشديد. قال: وهذا موضوع قد وضعته العرب في موضعه، وأثت بعلمته، ثم جاءت إلى ما هو في العقوق مثل الضبة، فضربت به المثل على الضدّ، فقالوا: أبر من هرة، وهي أيضاً تأكل أولادها، فحين سُئلوا عن الفرق وجّهوا أكل الهرة أولادها إلى شدة الحبّ، فلم يأتوا بحجة مقنعة. وقال الشاعر:

أما ترى الدّهر وهذا الّورى كهرة تأكل أولادها

واختصم إلى شريح، في ولد هرة، فقال شريح: ألقه مع هذه، فإن هي قرث ودرّت واسبطرت، فهو لها، وإن هي هرث وقرث واقشعرت، فليس لها. اسبطرت: اضطجعت وهرت كهرت، من هير الكلب، واقشعرت الجلد: قامت شعوره.

قوله: تعنتك: طلب مشقتك، والتعنت: طلب الرّلة، وتعنته أدخل عليه الأذى إذا

سأله عن شيء، أراد به اللبس والمشقة عليه. سمّ الخياط: ثُقب الإبرة. بَثْر: خَرَّاج صغار، ويقال بَثْر الجرح، إذا خرجت به أورام صغار فيزيد به سيلان الدم عن الأكل وغيره. تَبَيَّغ: هَيَّجَان وَتَبَيَّغ دُمُهُ: هاج عليه تلجأ: تحوج. الاشتطاط: مجاوزة القدر. كَلِيل: حافٍ.

قَالَ: فَلَمَّا تَبَيَّنَ الْفَتَى أَنَّهُ يَشْكُو إِلَى غَيْرِ مُصَمَّتٍ، وَيُرَاوِدُ اسْتِفْتَاَحَ بَابِ مُصَمَّتٍ، أَضْرَبَ عَنْ رَجْعِ الْكَلَامِ، وَاخْتَفَرَ لِلْقِيَامِ، وَعَلِمَ الشَّيْخُ أَنَّهُ قَدْ أَلَامَ، بِمَا أَسْمَعَ الْغُلَامَ، فَجَنَحَ إِلَى سِلْمِهِ، وَبَذَلَ أَنْ يُذْعِنَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَبْغِي أَجْرًا عَلَى حَجْمِهِ، وَأَبَى الْغُلَامُ إِلَّا الْمَشْيَ بِدَائِهِ، وَالْهَرَبَ مِنْ لِقَائِهِ، وَمَا زَالَ فِي حِجَاكِ وَسِبَابٍ، وَلِزَازٍ وَجِذَابٍ، إِلَى أَنْ ضَجَّ الْفَتَى مِنَ الشَّقَاقِ، وَتَلَا رُذْهُ سُورَةَ الْإِنْشِقَاقِ، فَأَعْوَلَ حِينَئِذٍ لِيُفَارَةَ خُسْرِهِ، وَانْعِطَاطِ عِرْضِهِ وَطُمْرِهِ. وَأَخَذَ الشَّيْخُ يَغْتَذِرُ مِنْ قَرَطَاتِهِ، وَيُغَيِّضُ مِنْ عِبْرَاتِهِ، وَهُوَ لَا يُضْغِي إِلَى اغْتِذَارِهِ، وَلَا يُقْصِرُ عَنْ اسْتِعْبَارِهِ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ: فَذَاكَ عَمُّكَ، وَعَدَاكَ مَا يَغْمُكُ، أَمَا تَسَامُ الْإِعْوَالِ، أَمَا تَعْرِفُ الْإِحْتِمَالَ، أَمَا سَمِعْتَ بَمَنْ أَقَالَ، وَأَخَذَ بِقَوْلٍ مَنْ قَالَ: [السريع]

أَخْمِدْ بِحِلْمِكَ مَا يُذَكِّهِ ذُو سَفَهٍ مِنْ نَارِ غَيْظِكَ وَاضْفَحْ إِنْ جَنَى جَانِي
فَالْحِلْمُ أَفْضَلُ مَا أَزْدَادَانَ اللَّيْبِيبُ بِهِ وَالْأَخْذُ بِالْعَفْوِ أَخْلَى مَا جَنَى جَانِي

يُرَاوِدُ: يُعَالِج. مُصَمَّت: مغلقة. احتفز: تهيأ وتشمّر. ألام: أتى بما يلام عليه. قال الشاعر:

* وَمَنْ يَخْذَلْ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا *

جَنَحَ: مال سِلْمَهُ: صلحه. بذل أن يذعن، أي أعطى الانقياد من نفسه يبغي أجراً: يطلب أجرة، في حِجَاكِ وَسِبَابٍ، أي في لحةٍ وشم. لزاز: ملازمة للخصومة. وخصم لزاز ملز، أي لا يفارق الخصومة. جذاب: مضاربة وجذب كل واحد منهما بثوب صاحبه. ضج: صاح. وتلا رذنه، أي قرأ كفه، وجعل صوب التّخريق كأنه قراءة. أعول: بكى. وفارة خسرته، أي كمال خسارته. انعطاط عِرْضِهِ وَطُمْرِهِ، أي تمزيق عِرْضِهِ بِالشَّمِّ، وثوبه بالتخريق، والطمر: الثوب الخلق. قَرَطَاتِهِ: بوادره، وما سبق من إذايته. يَغَيِّضُ: يذهب وينقص. عبراته: دموعه. يُضْغِي: يستمع، يقصّر: يكفّ. استعباره: بكائه عَدَاكَ: تجاوزك. يَغْمُكُ: يغطي قلبك بالهم. تسام: تملّ. الإِعْوَال: البكاء الاحتمال: التسامح والصبر على الأذية: أقال: غفر الذنب. أخمد:

أطفئ وسكن. يذكيه: يوقده. سَفَه: جهل، اصفح: أظهر كَرَمَكَ. جَتَى: أوقع بك جنابة. والجاني: فاعلُها. الحلم: العقل والصَّبْر على المضمرات. ازدان: افتعل من الزَّين، أي تزيّن به. اللبيب: العاقل. العفو: غفر الذنب. جَتَى: قطف الثمر. وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التي نبهنا على أنها من فائق شعره، وسبقه سابق البربري إلى معناهما بقوله: [البسيط]

لا تُظهِرَنَّ لذي جهلٍ معاتبةً فرُبّما هَيَّجَتْ بالشيء أشياء
فالماء يخمّد حرّ النار يُطفئها وليس للجهل غير الحلم إطفاءً
تَرَى السَّفِيه له عن كلّ محلّمة زيغ، وفيه إلى التسفّه إصغاء
وقال أبو فراس: [البسيط]

ما كنتُ مذ كنتُ إلّا طوع إخواني ليست مؤاخذهُ الأخوان من شأني
يجني الصّديقُ فأستحلي جنائتهُ حتى أدلّ على عفوي وإحساني
وَيُتْبِع الذنب ذنباً حين يعرفني عمداً فأتبع غفراناً بغُفرانٍ
يجني عليّ فأعفو صافحاً أبداً لا شيء أحسن من حانٍ على جاني
وذكر الحريري هذين البيتين والمقطوعة قبلهما، وجنّس فيهما بين لفظ القافية واللفظ قبله.

ومما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر: [المجث]

قدّم لنفسك زاداً وأنت مالِكُ مالِك
من قبل أن تتفاني ولو حالِك حالِك
ولست تعلم يوماً أيّ المسالك سالك
إمّالِ جنة عدنٍ أوفي المهالك هالك

وقال آخر: [الرجز]

مالك من مالك إلّا الذي قدّمت فابذل طائعاً مالِكاً
تقول أعمالِي ولو فتشوا وجدت أعمالك أغمى لكّا

وقالت للمعتمد جارية له: لقد هُنا هنا، فقال: [الرجز]

قالت لقد هُنا هُنا مولاي أين جَاهُنا
قلت لها إلى هنا صيّرنا إلهُنا

فقال له الغلام: أما إنك لو ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِي المُنكَدِرِ، لَعَذَرْتَ فِي

دَمَعِي الْمُنْهَمِرَ، وَلَكِنْ هَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لَأَقَى الدَّبِيرَ. ثُمَّ كَأَنَّهُ نَزَعَ إِلَى
الاسْتِخْيَاءِ، فَأَقْلَعَ عَنِ الْبُكَاءِ، وَفَاءً إِلَى الْارْزِعَوَاءِ، وَقَالَ لِلشَّيْخِ: قَدْ صِرْتَ إِلَى
مَا اسْتَهَيْتَ، فَارْزُقْ مَا أَوْهَيْتَ، فَقَالَ: هَيْهَاتَ شَغَلْتُ شِعَابِي جَذَوَايَ، فَشِمَ بَارِقَ
سِوَايَ.

ثُمَّ إِنَّهُ نَهَضَ يَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ، وَيَسْتَجِدِي الْوُقُوفَ، وَيُنْشِدُ فِي ضِمْنِ مَا هُوَ
يَطُوفُ: [الرجز]

أَقْسِمُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي	تَهْوِي إِلَيْهِ الزُّمَرُ الْمَحْرَمَةُ
لَوْ أَنَّ عِنْدِي قُوَّةَ يَوْمٍ لَمَّا	مَسَّتْ يَدِي الْمِشْرَاطَ وَالْمِخْجَمَةَ
وَلَا ارْتَضْتُ نَفْسِي الَّتِي لَمْ تَزَلْ	تَسْمُو إِلَى الْمَجْدِ بِهِذِي السَّيِّئَةَ
وَلَا اسْتَكْبَيْ هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً	مَنْيَ وَلَا شَاكْنَهُ مِنِّْي حُمَةً
لَكِنْ صُرُوفُ الدَّهْرِ غَادَرْنِي	كَخَابِطٍ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ
وَاضْطَرَّنِي الْفَقْرُ إِلَى مَوْقِفٍ	مِنْ دُونِهِ خَوْضُ اللَّطَى الْمُضْرَمَةِ
فَهَلْ فَتَى تَدْرِكُهُ رَقَّةٌ	عَلَيَّ أَوْ تَعْطِفُهُ مَرْحَمَةٌ!

قوله: المنكدر، أي المتغير والكثرة ضد الصفاء. المنهمر: السائل ألقع: ارتفع
وزال. فاء: رجع. الارعواء: الاستحياء والرجوع الحسن أو هيت: أفسدت. شِمَ: انظر
يَسْتَقْرِى: يتتبع يستجدي: يطلب الجَدَا، وهو العطية. في ضمن: في أثناء وفي خلال
تهوي: تُسرع المشي وتتساقط إليه. الزُّمَر: الجماعات. المحرمة: الداخلة في الحرم.
تسمو: ترتفع المجد: الشرف. السَّيِّئَةُ: العلامة. غلظة: جفاء شاكنه: ضربته حُمَةً:
شوكة العقرب التي تُلَسع بها، والحُمَةُ: السَّيِّئَةُ فسمي ما يخرج عنه السَّيِّئُ باسمه صرُوف:
نواذب. غادرني: تركني. خابط: ماش على جهالة. اضطرني: ألجاني. خوض اللَّطَى:
دخول النار. الْمُضْرَمَةُ: الموقدة. رَقَّة: شفقة. تَعْطِفُهُ: تليئه. مرحمة: رحمة.

قال الحارث بن همام: فكنت أول من أوى لبلّواه، ورقاً لشكواه، فنفتحته
بدرهمين، وقلت: لا كَأَنَّا ولو كان ذا مِثْنِ، فابتهج بياكورة جَنَاهُ وَتَفَاءَلَ بِهِمَا لِيَغْنَاهُ،
ولم تزل الدُّرَاهِمُ تنهال عليه، وَتُثْثَالُ لَدَيْهِ؛ حتى آلَ دَا عَيْشَةُ خَضْرَاءَ، وَحَقِيبَةُ
بَجْرَاءَ، فازدهاهُ الْفَرْحُ عند ذلك، وهنأ نفسه بما هنالك، وقال للغلام: هذا رَيْعُ

أَنْتَ بَذْرُهُ، وَحَلَبٌ لَكَ شَطْرُهُ؛ فَهَلَمْ لِنَقْتَسِمَ، وَلَا نَحْتَشِمَ، . فَتَقَاسَمَاهُ بَيْنَهُمَا شَيْقُ
الْأُبْلَمَةِ، وَنَهَضَا مُتَفَقِّيَ الْكَلِمَةِ وَلَمَّا انْتَضَمَ بَيْنَهُمَا عَقْدُ الاضْطِلَاحِ، وَهَمَّ الشَّيْخُ
بِالرَّوَاكِحِ، قُلْتُ لَهُ: قَدْ تَبَوَّغَ دَمِي، وَنَقَلْتُ إِلَيْكَ قَدَمِي، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَحْجُمَنِي،
وَتُكْفِكَفَ مَا دَهَمَنِي، فَصَوَّبَ طَرْفَهُ فِيَّ وَصَعَدَ، ثُمَّ ازْدَلَفَ إِلَيَّ وَأَنشَدَ.

أوى: أشفق. نَفَحْتُهُ: رميته ونبذته. دامين: صاحب كذب ابتهج: فرح. باكورة:
أول ما يطيب من الشجر، فجعل الدرهمين باكورة لأنهما أول ما أخذ تفاعل: جعلهما
فألا، أي لما كان أول ما حصل بأيديهما درهمين، استكثرهما فرجا أن تتمشى عطايا
الحاضرين على هذا المثال، وقد كررت ذِكْرَ الفأل.

[مما قيل في الطيرة والفال الحسن]

ونذكر هنا منه فصلاً على ما أجرينا العادة في غيره.

كان ﷺ يكره الطيرة ويُنْعِجُه الفأل الحسن^(١).

ولما قدم المدينة نزل على رجلٍ من الأنصار، فصاح الرجل بغلمانة: يا سالم يا
يسار، فقال ﷺ: «سَلِمْتُ لَنَا الدار في يسر».

وقيل لرجلٍ من العرب: ما لكم تسمون أبناءكم بأسماء السباع والكلاب، وتسمون
مواليكم بأسماء حسان، مثل عطاء ونجاح؟ فقال: لأننا أعددنا أبناءنا لأعدائنا، وموالينا
لأنفسنا.

وسأل عمرُ رضي الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه، فقال: ظالم بن سراق، قال:
تظلم أنت ويسرق أبوك!.

وجاءه رجل فقال له: ما اسمك؟ قال: جمرة، قال: ابن من؟ قال: ابن شهاب،
قال: ممّن؟ قال: من الحرقة، قال: وأيّاً تسكن؟ قال: بحرّة النار. قال: بأيّها؟ قال:
بذات لظى، قال: أدرك أهلك، فقد احترقوا، فرجع فوجدهم قد احترقوا، فكان كما
قال.

الفنجديهي بسنده، حدثني أحمد بن عليّ، حدثني أبو مسعود، قال: قال لي أبو
داود السّنجي: ما اسمك؟ قلت: سعد، قال: ابن من؟ قلت: ابن مسعدة، قال: أبو من؟
قلت: أبو مسعود، قال لي: مسألتك مثل أعرابي لقي آخر، فقال: ما اسمك؟ قال: قَيْضُ
فقال: ابن من؟ قال: ابن الفرات، قال: أبو من؟ قال: أبو بحر، قال: ليس لنا أن
نكلمك إلا في زُورق.

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب باب ٤٣، وأحمد في المسند ٢/٣٣٢.

وقال علي بن الجهم: دخلت يوماً على المتوكل، وهو جالس في صحن داره، وبيده غصن آس، وهو يتمثل بهذا الشعر [البسيط]

أهدي من الآس لي غصنين في غُصْن	بالشُّطِّ لي سَكَنُ أفديه مَنْ سَكَنِ
سقياً ورعيّاً لفألٍ منكما حَسَنَ	فقلت إذ نُظِّمًا إلفين وانتسقا
شافٍ وآسٍ تبقي لي على الزَّمنِ	فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوقنا
إن شاء ربِّي ومَهْمَا يَقْضِيهِ يَكُنِ	بشُرْثُماني بأسبابٍ ستجمعنا

ثم قال لي - وكدتُ أنشئُ حسداً: لمن هذا الشعر يا علي؟ فقلت: للحسين بن الضحَّاك يا سيدي، فقال: هو والله عندي أشعرهم وأحسنهم مذهباً وأظرفهم نمطاً، فقلت: وقد زاد غيظي: في هذا النمط يا سيدي؟ قال: وفي غيره، وإن رَغِمَ أنفك ومثَّ حسداً، وأردت إنشاده قصيدة، فقلت: إني لا أنتفع بها مع ما جرى، فأخرتها إلى وقت آخر.

قوله: تنهال، أي تنصب متفرقة. آل: رجع. خضراء: ناعمة لكثرة الرزق. حقيبة بجراء، أي وعاء ممتلئ، والأبجر: الذي خرجت سرته ازدهاء: هزه وأعجبه الريح: الزيادة والفضل والبذر: ما يُزرع من الحبوب حَلَب: لبن شطره: نصفه. نحتشم: نستحي أو نغضب. الأبلمة: الدومة تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة. تكفكف: تدفع وتكف. دهمني: أصابني ازدلف: قُرب.

[الرجز]

وما جَرَى بيني وبين سَخْلِي	كَيْفَ رَأَيْتَ خُدْعَتِي وَخَثْلِي
أزَعَى رِياضَ الخِضْبِ بَعْدَ المَحْلِ	حَتَّى انْتَنِيتُ فائِزاً بِالْخَضْلِ
هل أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ قَطُّ مِثْلِي	بِاللهِ يَا مَهْجَةَ قَلْبِي قُلْ لِي
وَيَسْتَبِي بِالسُّخْرِ كُلِّ عَقْلِي	يَفْتَحُ بِالرُّقِيَةِ كُلُّ قُفْلِي
إن يَكُنِ الإسْكَندَرِي قَبْلِي	وَيَغْجِنُ الجِدُّ بِماءِ الهَزْلِ
والفَضْلُ لِلوَابِلِ لَالِطُلِّ	فَالطُّلُّ قَدْ يَبْدُو أَمَامَ الوَبْلِ

قال: فَتَبَّهْتَنِي أَزْجُوزَتُهُ عَلَيْهِ، وَأَرْتَنِي أَنَّهُ شَيْخُنَا الْمَشَارُ إِلَيْهِ، فَقَرَعْتُهُ عَلَى الْإِبْتِدَالِ، وَالْإِلْتِحَاقِ بِالْأَرْذَالِ، فَأَعْرَضَ عَمَّا سَمِعَ، وَلَمْ يُبَلِّ بِمَا قُرِعَ، وَقَالَ: كُلُّ الْجِذَاءِ يَحْتَذِي الْحَافِي الْوَقْعَ. ثم قاصاني مُقَاصَّةَ الْمُهَانَ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَابْنُهُ كَفَرَسَنِي رَهَانَ.

ختلي: مكري. سخلي: ولدي. الخضل: الغلب في القمار، وفي مسابقة الخيل، وفي مراماة السهام. يستبي: يأخذ ويسبي، وقد تقدّم في شرح الصدر التنبيه على هذا الموضع. الطل: أضعف المطر. والوبل: أشده قرعته: أقلقته بكثرة اللّوم، وبأخذي له بلساني. الأبتذال: امتهان نفسه في الصنعة الهجينة. الأرذال: الأذنياء، فأراد عثفته ولمته أشد اللوم على جرّفة الحجامة، فإنّها صنعة أرذال الناس وسفلتّهم.

ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «العرب بعضها لبعض أكفاء، قبيلة لقبيلة، وحيّ لحيّ، ورجل لرجل. والموالي أكفاء إلا حاككاً أو حجّاماً».

وقال عليّ بن الحسين: أربعة أعمال كانت في سفل بني إسرائيل، وصارت في سفل العبيد وستكون في سفل الأحرار: الحياكة، والحجامة، والدباغة والكناسة.

رفاعة بن موسى: سمعت الصادق يقول: ست لا يُنجبُون: الملاح، والمكاري، والحمامي، والحجام، والبيطار، والحائك.

وممن شهر من الأدباء بصنعة هجينة نصر بن محمد الخابزرزي، كان صناعته خبز خبز الأرز في دكانه بمربد البصرة، فكان ينشد أشعاره على الغزل، والنّاس يزدحمون عليه، وأحداث البصرة يتنافسون في ميله إليهم.

وكان ابن لئلك على ارتفاع قدره ينتاب دكانه، فحضره يوماً وعليه ثياب بيض فاخرة، فتأذى بالدكان من الدخان وسوء أثره على ثيابه، فانصرف وكتب إليه: [الوافر]

لنصرٍ في فؤادي قزط حبّ	يُنيف به على كلّ الصّحاب
أتيناه فبخّرنا بخوراً	من السّعف المدخن بالتهاب
فقمت مبادراً وحسبتُ نصراً	يريد بذلك طردي أو ذهابي
وقال: متى أراك أبا حسين؟	فقلت له إذا اتسخت ثيابي

فلما قرئت عليه أملى على من قرأها، وكتب على ظاهرها: [الوافر]

مَنَحْتُ أبا الحسين صميم ودي	فخاطبني بالفاظٍ عذاب
أتى وثيابه كالشيب لونا	فعُذّن له كرينعان الشّباب
وبغضي للمشيب أعدّ عندي	سواداً لوئله لون الخضاب
فإن يكن المعطر فيه فخرأ	فلم يكن الوصي أباً تراب

ومن شعره: [الطويل]

خليلي هل أبصرتُما أو سمعتمأ	بأحسن من مولى تمشّى إلى العبد
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي:	أصونك عن تعذيب قلبك بالوعد

فما زالَ نجمُ الكأسِ بيني وبينه يدور بأفلاك السعادة والسَّعدِ
وله: [البسيط]

وَزُدَّ الخدودَ ورُمانَ النهود وأغـ صان القدودِ تَصِيدُ السَّادَةَ الصَّيْدَا
مَنْ لي إذا ما رأيتَ الحَضرَ مختصراً والرَّدَفَ مرتدفاً والقَدَّ مقدودا
وكان يحيى السَّرْقَسْطِيُّ أدبياً فرجع إلى الجزَّارين، فأمر الحاجب بن هود أبا الفضل
ابن حُميد أن يوبَّخه على ذلك فكتب إليه: [الوافر]

تركتَ الشَّعرَ من عدم الإصابَةِ وملتَ إلى الجزارة والقصابَةِ
فأجابه يحيى: [الوافر]

تَعِيبُ عليَّ مألوفَ القِصابَةِ ومَنْ لم يدِرْ قَدْرَ الشَّيءِ عَابَةِ
ولو أحكمتَ منها بعضَ فنٍّ لما استبدَلتَ عنها بالحجابَةِ
وإِنَّكَ لو طَلَعْتَ عليَّ يوماً وخَوَّلِي مِنْ بني كُلِّ عِصابَةِ
لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا هزبرُ صَيَرِ الأوضامِ غابَةِ
فتكُنَّا في بني العَنزِيّ فتكاً أقرَّ الدُّعْرَ فيهم والمهابَةِ
ولم نُقْلِعْ عن الثُّورِيّ حتَّى مَرَّجْنَا بالدمِ القاني لِعَابَةِ
ومَنْ يعتزَّ منهم بامتناعٍ فإنَّ إلى صَوَارِمِنا إِيابَةِ
ويبرز واحدٌ منَّا لألفٍ فيغلبُهم وتلك من الغرابَةِ
وحَقُّكَ ما تركتَ الشَّعرَ حتَّى رأيتُ البخلَ قد أمْضَى شَهَابَةِ
وحَتَّى رُزْتُ مشتاقاً حميمي فأبْدَى لي التَّجَهَّمَ والكابَةِ
وظنَّ زيارتي لطلابِ شيءٍ فأقْصاني وأغلظَ لي حجابَةِ

قوله: ولم يُبَلِّ: أصله يبالي، حذف ياءه للجزم، فصار يبال، فلما كثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدروا تكرير الجازم عليه مرة أخرى فحذفت حركة اللام للجزم، فسكنت اللام، وقبلها ألف ساكنة فحذفت الألف لالتقاء الساكنين.

ولأبي علي في هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء، فمن مخطيء ومن مُصَوَّب، وتحقيقها غائب إلا عَنْ أهل التحقيق، وقد أوضحناها في شرحنا لكتاب الإيضاح، والإكثارُ من مسائل الإعراب في كتب الآداب مما يُستَبْرَد ويعاب.

أعرض، أي نحى وجهه لجهة قاصاني: فارقني، وقال الفراء: كل شيء أبنته من شيء فقد قَصَّيْتَه منه، وتقَصَّى الرجل من الرجل: بان عنه، وكلُّ رجلٍ بايَنَ شيئاً فقد تقَصَّى عنه. الليث رحمه الله: كلُّ شيء لازم خَلَصْتَه فقد تقَصَّى، وتقَصَّيْتُ من الديون: خرجتُ منها. فرسي رهان: هما اللذان يجريان ويُجعل معهما جُعل، فمن سبق أخذه.

ومما أستحسن من أبيات اللغز في هذا الباب قولهم في المشارط : [المتقارب]
 وخضراء لا من بنات الهديل يُلْقَف بالسَّيرِ مِنْقَارُهَا
 كأَنَّ مشق عيون القطا إذا هَنَّ هوْمَن آثَارُهَا
 آخر : [البسيط]

وكان جَدِّي هراش في كتابته من أكتب الناس يا هرون بالألف
 يعني آثار التشريط تبقى كصور الألفات .
 وقال آخر : [مجزوء الرمل]

يابنَ مَنْ يَكتب في الأز قَاب مَنْ غَير دَوَاةٍ
 لم يكن يَكتب فيها غَير خَطِّ الأَلفَاتِ
 وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة : [المنسرح]

يابن الذي عاش غير مضطهدٍ يرحمه الله أيما رَجُلٍ
 له رقاب الملوك خاضعةً من بين حافٍ منهم ومنتعلٍ
 أبوك أوهى النَّجَادَ كاهله كم من كَمِيٍّ أدمى ومن بَطَلٍ
 يأخذ من ماله وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمسِ من ثأره على وَجَلٍ
 في كَفِّهِ صارمٌ يَقلِّبه يَقدُّ أعناق سَادَةِ نُبُلٍ

وأخذ صاحب الشرطة رجلاً في ريبة، فقال: أصلحك الله: احفظ في الأبوة،

وقال : [الكامل]

أنا الذي لا تنزل الدهرَ قِذْره وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
 ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيامٌ حولها وقُعُودُ
 فأمر بتركه، ثم أخبر أنَّ أباه باقلاني، فقال: لو لم نتركه إلا لأدبه وحسن تخلصه
 من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتى أبوه مغنٍ وأُمُّه نائحة، فأغضبه إنسان، فقال: أثغصيني وأنا ابن
 الطَّرب والحَرْب ! .

وقال ابن عباس المصري يذكر غلاماً جميلاً، والحجَّام يأخذ من شعره في الحمام :

[مخلع البسيط]

مَزِينٌ انبَرى لظبي كأنه البدر في سُجُوفِهِ
 كأنَّ موساه وهو لَمَّا نَضَى بها الشَّعر في وقوفِهِ
 كيوان في كَفِّهِ حسام يخلِّص البدر من كسوفِهِ

ولبعضهم يمدح حجاماً: [البسيط]

إن المزين إنسان صناعته
ألا ترى أنه لا يُستَراب به
يخلو مع الملك المرهوب جانبه
تعلو أنامله في حين خلوته

وقال السري في مزين محسن: [المتقارب]

هل الجِدْقُ إلا لعبد الكريم
إذا لمع البرق في كَفِّه
جهولُ الحُسامِ ولكنَّه
له راحةٌ سيرها راحةٌ
نعنَّا بخدمته مُذ نشأ
وله في طيب: [السريع]

أوضح نهج الطب في معشر
كأنه من لُطف أفكاره
إن غضبت روحٌ على جسمها
وفي ضده لأبي نصر كشاجم: [المجث]

عيسى الطبيب تَرَقُّقُ
يسأبى علاجك إلا
شتان ما بين عيسى
فذاك محيي مماتٍ
وللخوارزمي: [السريع]

أبو سعيد راحل للكرام
لم أره إلا خَشِيتُ الردى
يبقى ويفنى الناس من شؤمه
ثم تراه آمناً سالماً
وللسري: [الكامل]

هل للعليل سَوَى ابن قُرَّة شاف
فكأنه عيسى ابن مريم ناطقاً
بعد الإله وهل له من كافٍ
يهب الحياة بأيْسَر الأوصاف

مثلت له قارورتي فرأى بها ما اكتنُ بين جوانحي وشغافي
يبدو له الدواء الحفي كما بدا للعين رضراض الغدير الصافي

وكثرة الكلام وَقَفَ على أهل الحجابة، ولذلك صَرَفَ الحريري بين الشيخ وابنه ما تقدم في هذه المقامة. وكان الفقيه الأعمش أكثرَ الناس تبرُّماً إن أعاد أحد عليه سؤالاً انتهره، وأخطأ يوماً على قوم، فقالت لهم امرأته من وراء الستر: احملوا عنه فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يظلم كربه أو يشتم رفيقه، وكثر عليه الشعر فقال له تلامذته: لو أخذت من شَعْرِكَ؟ فقال: لا نجد حجاماً يَسْكُت، قالوا له: نأتيك به، ونأخذ عليه أن يسْكُت حتى يفرغ، قال: افعلوا. فأتيت بحجام ووُصِّي ألا يكلمه، فبدأ بحلقه، فلما أمعن سألته في مسألة فنفض ثيابه، وقام بنصف رأسه محلوقاً، حتى دخل بيته، فأخرج الحجام، وأتيت بغيره، فقال: والله لا أخرج إليه حتى توضّوه، وتحلّفوه، فحلف ألا يسأله في شيء، وحيثُ خرج إليه.

ومقامة الحجام في البديعية، منها قال عيسى بن هشام: فطلبت حجاماً فجاءوا برجل نظيف، ظريف لطيف، فارتحت إليه، وسلّمت عليه، فقال لي: السلام عليك، من أي بلد أنت؟ فقلت: من مصر، فقال لي: حيّاك الله، من أرض النعمة والرفاهة، وبلد السنة والجماعة، ولقد حضرت في رمضان جامعها، وقد اشتعلت المصابيح، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدّ النيل، قد أتى على تلك القناديل، ولكن صنع الله لي بخف، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كفه، وعاد الصبي إلى أمّه، بعد أن صلّيت العتمة، واعتدل الظل، ولكن كيف كان حجّك، هل قضيت مناسكه كما وجب، وصاح الصبيان: العجب العجب، فنظرت إلى المنارة، وما أهون الحرب عند النُّظارة ووجدت الهريسة على حالها، فعلمت أن الأمر بقضاء من الله وقدر، وإلى متى هذا الضجر، واليوم وغد، والسبت والأحد، ولم أكثر وأطيل، وما أكثر القال والقيل، وإن أردت أن تعلم المبرّد حديد موسى في النّحو فلا تشتغل بقول العامة، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لحلقت رأسك، فهل ترى يا سيدي أن ابتدء؟.

قال عيسى: فبقيت والله متعجباً من هَذَيّانه، وسألت عنه فإذا هو أبو الفتح قد غلب السّواد عليه، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام على الحقيقة.

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن علي رضي الله عنه:

قد أودَعْتُ هذه المقامة بضعة عشر مثلاً من أمثال العرب، وها أنا أفسر منها ما إخاله يَلْتَبَسُ، على مَنْ يَتَّبَس.

أما قوله: بَطْءُ فِعْدُ، فهو مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكانت بعثته بالمدينة ليقبّس لها ناراً، فقصد من قُورَه مصر، وأقام بها سنة، ثم جاءها بعد السّنة وهو يشتدّ ومعه جَمْر، فتبدّد منه فقال: تَعَسّت العَجَلَة!.

وأما ذات النّحيين فهي امرأة من تيم الله بن ثعلبة، حضرت سوق عكاظ ومعها نخباً سمن، فاستخلى بها خوات بن جبير الأنصاري لبيتاعهما منها، ففتح أحدهما وذاقه ودفعه إليها، فأخذته بإحدى يديها، ثم فتح الآخر وذاقه ودفعه إليها، فأمسكته بيدها الأخرى ثم غشيها، وهي لا تقدر على الدّفع عن نفسها لحفظها فمّ النّحيين وشحها على السمن. فلما قام عنها قالت له: لا هنّاك، فضرب بها المثل فيمن شغل، وهي في هذا المثل مفعولة، لأنها شغلت. وأكثر الأفعال التي على أفعل تأتي من فعل الفاعل.

وأما قوله: أنف في السماء واست في الماء، فيضرب هذا المثل لمن يكبر مقالا، ويضغر فعلاً.

وأما قوله: أفرغ من حجّام سابط، فذكر أنّه كان حجّاماً ملازماً سابطاً المدائن يحجم الجندي بداني نسيئة، وربما مرّت عليه بزة لا يقربه فيها أحد فكان يبرز أتمه عند تمادي عظّته، فيحجمها لكيلا يقرع بالبطالة، فما زال يحجمها حتى نزف دمه ومات.

وأما قوله: يشكو إلى غير مصمت، فهو مثل يضرب لمن لا يكثر بشأن صاحبه، ولا يعبأ باستمرار شكايته، لأنه لو أشكاه لصمت. وأمسك عن الكلام، ومنه قول الراجز يخاطب جملاً له: [الرجز]

إنك لا تشكو إلى مُصْمِت^(١)

فأصبر على الحمل الثقيل أو مُت

ونحو هذا المثل: هان على الأملس ما لاقى الدبر.

وأما قوله: شغلت شيعابي جدّواي، فالمراد به أنه ليس يفضل عني ما أصرّفه إلى غيري. والشعاب: هي النواحي، واحدها شغب.

وقوله: كلّ الحذاء يحتذي الحافي الوقع، معناه أن المجهود يقنع بما يجد، والواقع أن تصيب الحجارة القدم فتوهنها. فأما البعير الموقّع فهو الذي يكثر آثار الدبر بظهره.

(١) الراجز بلا نسبة في لسان العرب (صمت)، وأساس البلاغة (صمت)، تاج العروس (صمت)، وجمهرة اللغة ص ٤٠٠.

المقامة الثامنة والأربعون

وتعرف بالحرامية

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السُّروجي قال: ما زِلْتُ مَذْرَحَلْتُ عَنَسِي، وارتحلْتُ عن عِرْسِي وغِرْسِي، أَجِنُ إلى عِيَانِ البَصْرَةِ، حَنِينِ المَظْلُومِ إلى النُّصْرَةِ، لِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَرْبَابُ الدَّرَايَةِ، وَأَصْحَابُ الرِّوَايَةِ؛ مِنْ خِصَائِصِ مَعَالِمِهَا، وَعِلْمَائِهَا، وَمَآثِرِ مَشَاهِدِهَا وشُهَدَائِهَا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوْطِنَنِي ثَرَاهَا، لِأَفُوزَ بِمَرَاهَا، وَأَنْ يُمَظِينَنِي قَرَاهَا، لِأَفْتَرِي قُرَاهَا. فَلَمَّا أَحَلَّنِيهَا الحَظَّ، وَسَرَّحَ لِي فِيهَا اللَّحْظَ، رَأَيْتُ بِهَا مَا يَمَلَأُ الْعَيْنَ قُرَّةً، وَيُسَلِّي عَنِ الْأَوْطَانِ كُلِّ غَرِيبٍ، فَعَلَسْتُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، حِينَ نَصَلَ خِضَابُ الظَّلَامِ، وَهَتَفَ أَبُو الْمَنْذَرِ بِالثَّوَامِ لِأَخْطُو فِي خِطِّهَا، وَأَفْضِي الْوَطَرَ مِنْ تَوْسُطِهَا، فَأَذَانِي الْإِخْتِرَاقَ فِي مَسَالِكِهَا، وَالْإِنِّصْلَاقَ فِي سِكَكِهَا، إِلَى مَحَلَّةِ مَوْسُومَةٍ بِالْإِخْتِرَامِ، مَنْسُوبَةٍ إِلَى بَنِي حَرَامٍ، ذَاتِ مَسَاجِدَ مَشْهُودَةٍ، وَحِيَاضٍ مَوْزُودَةٍ، وَمَبَانٍ وَثِيقَةٍ، وَمَغَانٍ أَنْيَقَةٍ، وَخِصَائِصٍ أَثِيرَةٍ، وَمَزَايَا كَثِيرَةٍ.

رَحَلْتُ، أَي شَدَدْتُ عَلَيْهَا الرَّخْلَ، وَالرَّخْلُ: سَرْجُ النَّاقَةِ، وَالْعَنَسُ: النَّاقَةُ الْقَوِيَّةُ، شُبِّهَتْ بِالْعَنَسِ وَهِيَ الصَّخْرَةُ لَصَلَابَتِهَا، قَالَ اللَّيْثُ: إِذَا تَمَّ سَنُ النَّاقَةِ، وَاشْتَدَّتْ قُوَّتُهَا وَصَلَبَتْ عِظَامُهَا وَأَعْضَاؤُهَا فَهِيَ عَنَسٌ. عِرْسِي: زَوْجَتِي غِرْسِي: أَوْلَادِي. أَجِنُ: أَشْتَقُ. عِيَانُ: مَعَايِنَةٌ وَمَشَاهِدَةٌ. خِصَائِصُ: مَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ. مَعَالِمُهَا: مَوَاضِعُهَا الْمَشْهُورَةُ. وَالْمَآثِرُ: الْفَضَائِلُ وَالْمَكَارِمُ، وَالْمَآثِرَةُ: الْفَضِيلَةُ يَخْصُصُ بِهَا. مَشَاهِدُهَا: مَوَاضِعُ اجْتِمَاعِ أَهْلِهَا يُوْطِنُنِي ثَرَاهَا: يَجْعَلُنِي أَطْوَاهَا وَأَمْشِي عَلَيْهَا، وَأَوْطَاهُ الشَّيْءُ: أَمَكَنَهُ مِنْ أَنْ يَطَاهُ. الثَّرَى: الثَّرَابُ النَّدِيّ. وَمَرَاهَا: مَنْظَرُهَا. يُمَظِينَنِي قَرَاهَا: يُزَكِّيَنِي ظَهْرُهَا. اقْتَرِي: أَتَتَّبِعْ. أَحَلَّنِيهَا: أَنْزَلْنِيهَا. الْحَظُّ: السَّعْدُ. اللَّحْظُ: الْعَيْنُ قُرَّةً: سُورُورٌ. يَسْلِي: يُشْغِلُ. غَلَسْتُ: خَزَجْتُ فِي الْعَلَسِ، وَهِيَ ظِلْمَةُ آخِرِ اللَّيْلِ. نَصَلَ: زَالَ. هَتَفَ: صَاحَ. أَبُو الْمَنْذَرِ: كُنْيَةُ الدِّيكِ، وَيَكْنَى أَبُو سَلِيمَانَ. أَبُو هَرِيرَةَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَسْبُوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يَوْقُظُ لِلصَّلَاةِ».

أبو هريرة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الدَّيْكَهَ تَصْبِحُ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ نَهْيَاقَ الْحَمِيرِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا فَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(١).

قَالَ ﷺ: «الْدَيْكُ الْأَبْيَضُ صَدِيقِي وَإِنَّهُ يَحْرُسُ دَارَ صَاحِبِهِ وَسَبْعَ دُورٍ وَكَأَنَّ مُسْتَمِعَهُ فِي الْبَيْتِ».

وقال ابن المعتز ويصف ديكاً: [المنسرح]

بَشَّرَ بِالصَّبْحِ طَائِرٌ هَتَفًا هَاجَ مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَ مَا انْتَصَفَا
مَذْكَرٌ بِالصَّبَاحِ صَاحٌ بَنَا كَخَاطِبٍ فَوْقَ مَنبَرٍ وَقَفَا
صَفَقَ إِمَّا ارْتِيَا حَاحَ لَسْنَا الْفَ جَرَّ وَإِمَّا عَلَى الدَّجَا أَسَفَا
وله: [المنسرح]

وَصَاحَ فَوْقَ الْجِدَارِ مُشْتَرِفًا كَمَثَلِ طَرَفِ عِلَاحِ أَسْوَارٍ
ثُمَّ غَدَا يَسْأَلُ الْفِرَاتِ عَنِ الْ أَرْزَاقِ مِنْهُ ثَغْرِ وَمُنْقَارٍ
رَافِعَ رَأْسَهُ طَوْرًا وَخَافِضَهُ كَأَنَّمَا الْعُرْفُ مِنْهُ مَنَشَارٍ
وقال الأسعد بن بليط: [البيسط]

وَقَامَ بِهَا يَنْعَى الدُّجَى ذُو شَقِشَقَةٍ يَدِيرُ الْيَنَا بَيْنَ أَجْفَانِهِ سَقَطَا
إِذَا صَاحَ أَصْغَى سَمْعَهُ لِأَذَانِهِ وَبَادَرَ ضَرْبًا مِنْ قَوَادِمِهِ الْإِبْطَا
وَمَهْمَا اطمَأْنَنَتْ نَفْسُهُ قَامَ صَارِخًا عَلَى خَيْرَازِنْ نَيْطٍ مِنْ صُفْرِهِ خِرْطَا
كَأَنَّ أَنْوَشِرَوَانَ أَعْلَاهُ تَاجَهُ وَنَاطَتِ عَلَيْهِ كَفُّ مَارِيَةِ الْقِرْطَا
سَبَى حُلَّةَ الطَّائِسِ حَسَنَ لِبَاسِهِ وَلَمْ يَكْفِهِ حَتَّى سَبَى مَشِيَةَ الْبِطَا

قوله: أخطو، أي أمشي. خططها: طرقها. الوطر: الحاجة. توسطها: المشي في وسطها. أذاني: أوصلني. الاختراق: المشي، واخترقت البلدة، إذا قطعت أرضها بالمشي. والاختراق: المرور والسلوك. والمسالك: الطرق والاتصالات: الخروج بسرعة من رُقَاقٍ إلى آخر، وانصلت السيف: خرج بسرعة. سككها: أزقتها الواحدة سِكَّةً، وسميت سِكَّةً لاصطفاف الدور فيها، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النَّخْلِ: سِكَّةٌ. محلَّة: منزلة. موسومة: مُعَلِّمة. الاحترام: الامتناع. حياض: جَمْعُ حَوْضٍ. مورودة: مقصودة للشرب. مغانٍ: منازل. أنيقة: مُعْجِبة حَسَنَةً. أثيرة: منتشرة لكثرتها مزايا: جمع مزية وهي الْفَضِيلَةُ يختص بها الشيء: [الوافر]

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٥، ومسلم في الذكر حديث ٨٢، والترمذي في الدعوات باب

بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ دِينَ وَدُنْيَا
فَمَشْغُوفٌ بِآيَاتِ الْمَثَانِي
وَمُضْطَلَعٌ بِتَلْخِصِ الْمَعَانِي
وَكَمِ مِنْ قَارِيٍّ فِيهَا وَقَارِ
وَكَمِ مِنْ مَعْلَمٍ لِلْعِلْمِ فِيهَا
وَمَغْنَى لَا تَزَالُ تُغْنِي فِيهِ
فَصِلْ إِنْ شِئْتَ فِيهَا تَصِلْ
وَدُونِكَ صُحْبَةُ الْأَكْيَاسِ فِيهَا
وَجِيرَانِ تَنَافَوْا فِي الْمَعَانِي
وَمَفْتُونُونَ بِرَّئَاتِ الْمَثَانِي
وَمُطَّلَعٌ إِلَى تَلْخِصِ عَانِي
أَضْرًا بِالْجُفُونِ وَبِالْجَفَانِ
وَنَادٍ لِلشَّدَى حُلُوِّ الْمَجَانِي
أَغَارِيدُ الْغَوَانِي وَالْأَغَانِي
وَلِمَا شِئْتَ فَاذْنِ مِنَ الدُّنَانِ
أَوِ الْكَاسَاتِ مِنْطَلِقَ الْعِنَانِ

* * *

تَنَافَوْا: تَبَاعَدُوا. مَشْغُوفٌ: مَوْلَعٌ شَدِيدُ الْحُبِّ. الْمَثَانِي: أَمَّ الْقُرْآنَ، وَقِيلَ السَّبْعُ الطُّوَالُ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ. وَرَنَاتٍ: أَصْوَاتٍ. الْمَثَانِي: أَوْتَارُ عُودِ الْغَنَاءِ. مُضْطَلَعٌ: قَوِيُّ التَّلْخِصِ: تَهْذِيبِ الشَّيْءِ وَتَخْلِصِ فَوَائِدِهِ، وَكَأَنَّهُ مَقْلُوبُ التَّلْخِصِ. وَتَخْلِصُ عَانَ: افْتِكَاكُ أُسِيرٍ. قَارِيٌّ: عَابِدٌ مُكَثِّرٌ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، قَارٍ: مَطْعَمٌ لِلضَّيْفِ. الْجَفُونُ: الْعَيُونُ. الْجَفَانُ: صَحَافُ الطَّعَامِ، يَرِيدُ أَنْ هَذَا أَضْرَ بِجَفُونِهِ بِكَثْرَةِ النَّظَرِ فِي الْوَرَقِ قَارِئًا مَا فِيهَا وَهَذَا بِجَفَانِهِ لِإِطْعَامِ مَا فِيهَا. مَغْنَى: مَنْزِلٌ. تَغْنٌ: تَصَوْتُ. أَغَارِيدُ: أَصْوَاتُ. الْغَوَانِي: جَمْعُ غَانِيَةٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ. الْأَغَانِي: جَمْعُ أَغْنِيَةٍ، وَهِيَ مَا يَتَغَنَّى بِهِ. الدُّنَانُ: خَوَابِي الْخَمْرِ. دُونِكَ، أَيِ الزَّمِ. الْأَكْيَاسُ: أَهْلُ الْفِطْنَةِ وَالتَّدْبِيرِ. مِنْطَلِقُ الْعِنَانِ: مَسِيرُهَا.

* * *

قَالَ: فَبَيْنَمَا أَنَا أَنْفَضُ طُرْقَهَا، وَأَسْتَشِفُّ رَوْنَقَهَا؛ إِذْ لَمَحْتُ عِنْدَ دُلُوكِ بَرَّاحٍ، وَإِظْلَالِ الرُّوَّاحِ، مَسْجِدًا مُشْتَهَرًا بِطَرَائِفِهِ، مُزْدَهَرًا بِطَوَائِفِهِ، وَقَدْ أَجْرَى أَهْلُهُ ذَكَرَ حُرُوفِ الْبَدَلِ، وَجَرَّوْا فِي حَلَبَةِ الْجَدَلِ، فَعُجْتُ نَحْوَهُمْ، لَأَسْتَمِطِرَ نَوْءَهُمْ، لَا أَقْتَبِسَ نَحْوَهُمْ، فَلَمْ يَكْ إِلَّا كَقَبْسِهِ الْعَجَلَانِ، حَتَّى ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْأَذَانِ، ثُمَّ رَدِفَ التَّأْذِينَ بَرُورُ الْإِمَامِ، فَأَعْمِدَتْ طَبَى الْكَلَامِ، وَحُلَّتِ الْحُبَى لِلْقِيَامِ، وَشَغَلْنَا بِالْقَنُوتِ، عَنِ اسْتِمْدَادِ الْقُوتِ، وَبِالسُّجُودِ، عَنِ اسْتِنْزَالِ الْجُودِ وَلَمَّا قُضِيَ الْقَرْضُ، وَكَادَ الْجَمْعُ يَنْقُضُ، انْبَرَى مِنَ الْجَمَاعَةِ، كَهْلٌ حُلُوُّ الْبَرَاعَةِ، لَهُ مَعَ السَّمْتِ الْحَسَنِ، ذِلَاقَةُ اللَّسَنِ، وَفَصَاحَةُ الْحَسَنِ. وَقَالَ: يَا جِيرَتِي، الَّذِينَ اضْطَفَّتْهُمْ عَلَى أَغْصَانِ شَجَرَتِي، وَجَعَلْتُ خِطَّتَهُمْ دَارَ هَجَرَتِي، وَاتَّخَذْتُهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي،

وأَعَدَدَتْهُمْ لمحَضَرِي وغَيْبَتِي، أما تعلمون أن لبوس الصَّدق أبهى الملابس الفاخرة، وأن فُضُوح الدنيا أهون من فُضُوح الآخرة، وأن الدين إِمَحاضُ التَّصِيحة، والإرشاد عُنوان العقيدة الصحيحة، وأن المستشار مؤتمن، والمسترشِد بالتَّصَح قَمِن.

* * *

انفَضُّ طَرَقُهَا، أي أمشي بها وحدي، يقال: جاء فلان ينفَضُّ الطَّرِيق إذا جاء وحده وقالت الجهنية: [الكامل]

يرد المِياه حَضِيرَةً ونَفِيضَةً وَرَدَ الْقِطَاةُ إِذَا اسْمَأَلَ الثَّبَعُ^(١)

الحَضِيرَةُ: الذي يحضر معه غَيْرُهُ، وجمعه الحَضَائِرُ. والتَّبَعُ: الظِّلُّ واسْمَأَلَ: نقص، ويقال أيضاً: نفَضَ المكانَ واستنفَضه، إذا نظر جميع ما فيه حتى يعرفه. استشف: استَقْصَى النظر. رونقها: حسنها، لمحت: نظرت. دُلُوكُ بَرَّاح: زوال الشمس، وَبَرَّاح من أسمائها مبني على الكسر. عبد الله بن مسعود دُلُوكها: غروبها. أبو عُبَيْدة: دلوك الشمس زوالها وميلُها، وهو قول ابن عباس الأزهريّ هذا القول أصحّ عندي، وقيل: دُلُوكها، من زوالها إلى غروبها.

ويدلّك هذا الوصفُ على أنّ البصرة من نهاية العظم والكِبَر على جانب عظيم، لأنه زعم أنّه خرج في الغَلَس، وبقي يمشي في أزقتها إلى الظهر. ويقال إنها في آخر الدولة الأمويّة كسرت فوجد في طولها فرسخان، وفي عَرْضها فرسخ وخمسة أسداس فرسخ.

قوله: إِظلال، أي دنوّ وقُرْب. طرائفه: عجائبه وغرائب. مزدهراً: مضيئاً بحلّق الفضلاء والعلماء. طوائفه: جماعاته، وحروف الإبدال يجمعها طال يوم أنجذته. والحَلْبَةُ: جماعة الخيل في الطَّلُق تُجْرَى ليُخْتَبَر عتيقُها من هَجْنِها الجدل: الخصام. عجت: ملكت. أستمطر نوءهم: أطلب معروفتهم، والنَّوْءُ طلوع نجم من المنازل وسقوط آخر يقابله. أقتبس: أخذ، وقبسة العجلان أخذة القبس، وهو شعلة من نار يقتبسها من مُعْظَم النار. رَدِف: تبع وجاء بعده قال تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٤٧٢]، أي جاء بعدكم، وأردفت الرجل جئت بعده ابن الأعرابي: ردف الرجل وأردفته ولحقته وألحقته بمعنّى واحد. القُنُوت: الطاعة، وهو أيضاً طول القيام في

(١) البيت لسعدى الجهنية في لسان العرب (حضر)، (نفض)، (تبع)، (سمأل)، وتهذيب اللغة ٤٨٣/٢، ٢٠٢/٤، ٤٥/١٢، ٤٥٥، ولسلمى الجهنية في التنبيه والإيضاح ١٠٨/٢، وجمهرة اللغة ص ٢٥٤، ٥١٥، ٩٠٨، وللفرزدق في كتاب العين ٧٩/٢، وليس في ديوانه، وللهذلي في المخصص ٥٥/٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٨٩، ومقاييس اللغة ٣٦٣/١، ٧٦/٢، ٤٦٢/٥، وكتاب العين ٤٧/٧.

الصلاة. ابن الأنباري: القنوت أربعة أقسام: الصلّاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت. استمداد: طلب أن يمدّوه بالقنوت وهو الاستئجال. ينفض: يتفرق. انبرى: ظهّر وقام بسرعة. كهل: تامّ الخلق. السمت: الوقار. ذلاقة: حذّه. اللسن: حذّة اللسان، وتقدم الحسن في الأربعين. اصطفتيهم: اخترتهم. أغصان شجرتي: بني عمّي وقرايتي وأولادي. خُطّتهم: بلدتهم، والمهاجر عند العرب: المستقبل من البادية إلى الحاضرة. ودار هجرتي: موضع سكناي الذي هاجرتُ إليه. كَرشي: أهلي عييتي: خاصّتي الذين أنفرد بهم. وعيبة الرجل: موضع سرّه. وكَرشه: عياله والعيبة: وعاء يجعل فيه المتاع، والكرش مثلها، والكرش الجماعة من الناس، والكرش أيضاً لكل مجترّ من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان، فساق الكرش والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه، وقال ﷺ: «الأنصار كَرشي وعييتي»^(١)، قيل: موضع سرّي، وقيل مدادي لأنّ ذات الكرش تستمد من كَرشها الفضوح والفضيحة: الشهرة. إمحاض: إخلاص. الإرشاد: الهداية. عنوان العقيدة: دليل البواطن والمعتقدات. والمستشار: الذي تستشير في رأيك. مؤتمن: قد أمن على الأسرار والنفوس، لا يخون فيها، وقال ﷺ: «ما ندم من استشار، ولا شقي من استخار» وقال بشار: [الطويل]

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن	برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فلإن الخوافي رافدات القواطم
وما خير كف أمسك الغلّ اختها	وما خير سيف لم يؤيّد بقائم
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن	نؤوماً فإن الدهر ليس بنائم
وحارب إذا لم تُغطّ إلا ظلامه	شبا الحرب خير من قبول المظالم

وهي قصيدة طويلة، قالها في إبراهيم بن عبد الله، فلما قُتل صرفها إلى المنصور في أبي مسلم، وكان بشار يقول: المشاور على إحدى الحسنين: صواب يفوز بثمرته، وخطأ يشارك في مكروهه وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، لما في ذلك من الائتلاف، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز: [الوافر]

تجاوز عن إساءة كل دفر	وصاحب يوم حادثة بصبر
وإن نابتك نائبة فشاور	فكم حيد المشاور غيب أمر
وقسم هم نفسك في نفوس	ولا تنفردن بطول فكر

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب ١١، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٧٦، والترمذي في المناقب باب ٦٥، وأحمد في المسند ٣/١٥٦، ١٧٦، ١٨٨، ٢٠١، ٢٤٦، ٢٧٢.

إذا كَطَّ الفِرات بِماءٍ مَدَّ أَغْصَى بِهِ حَلِاقِمَ كُلِّ نَهْرٍ
قال عيسى بن عليّ: ما زال المنصور يشاور في أمره، حتى قال فيه ابنُ هُرْمة:
[الطويل]

إذا ما أراد الأمر ناجيَ ضَمِيرَه فَنَاجَى ضَمِيرًا غَيْرَ مُخْتَلَفِ الْعَقْلِ
ولم يترك الأدنين في كلِّ أمره إذا اختلفت بالأضعفين قُوَى الْحَبْلِ
وأنشد الجاحظ: [الرمل]

لَئِيتْ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ وَشَفْتُ أَنْفَسَنَا مِمَّا تَجِدُ^(١)
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُ
ثم قال: ولا أعلم الموصوف بالاستبداد إلا مجهلًا مذمومًا، والمثل السائر على
الأفواه: [الطويل]

وما العجزُ إلا أن تشاور عاجزاً وما العزمُ إلا أن تهْمَ وتَفْعَلَا
وقال سعد بن ناشب: [الطويل]

إذا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًا^(٢)
ولم يستشر في رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيفِ صَاحِبًا
وقال ابن رشيّق في أدب قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:
[الطويل]

أشاور أقواماً لآخذ رأيهم فليوون عني أعيناً وخُذوداً
وليس برأيي حاجة غير أنني أوئسه كي لا يكون وحيداً
ولا أنا ممن يبعث السهمَ رامياً إلى غرض حتى يكون سديداً
فلا يثْهَمَ عقلي الرجال فلنني أعرفهم أنني خُلِقْتُ ودوداً

وأنشد الحريري بيتي بشار في دَرّة الغواص على أن قول الخواص مشوّرة بوزن
مفعلة خطأ وإنما هي مشوّرة بوزن مَعُونَة ومثوبة مثل مكرمة من الصحيح، فنُقِلَت
حركة الواو إلى ما قبلها فسكنَتْ، واختلف في اشتقاقها ف قيل: هو من شُرْتُ العسل
أشوره إذا جنيته، فكان المستشير يجني الرأي من المشير، وقيل من شُرْتُ الدابة إذا
أجريتْها مقبلة ومدبرة لتختبرها، والاشتقاقان متقاربان. المسترشد: السائل أن يرشد.
قمين: حقيق.

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه ص ٣٠.

(٢) البيتان في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦٩.

وَأَنْ أَخَاكَ هُوَ الَّذِي عَدَلَكْ، لَا الَّذِي عَدَرَكْ، وَصَدِيقَكَ مَنْ صَدَقَكَ، لَا مَنْ صَدَقَكَ، فَقَالَ لَهُ الْحَاضِرُونَ: أَيُّهَا الْخَلُّ الْوُدُودُ، وَالْخِذْنُ الْمَوْدُودُ، مَا سِرُّ كَلَامِكَ الْمُلَغَزِ، وَمَا شَرْحُ خَطَابِكَ الْمَوْجَزِ؟ وَمَا الَّذِي نَبَغِيهِ مِنَّا لِيُنَجِّزَ، فَوَالَّذِي حَبَانَا بِمَحَبَّتِكَ، وَجَعَلَنَا مِنْ صَفْوَةِ أَحَبَّتِكَ، مَا نَأْلُوكَ نَضْحًا، وَلَا نَذْخِرُ عَنْكَ نَضْحًا، فَقَالَ: جَزَيْتُمْ خَيْرًا، وَوَقَيْتُمْ ضَيْرًا، فَإِنَّكُمْ مِمَّنْ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسٌ، وَلَا يَضْدُرُّ عَنْهُمْ تَلْبِيسٌ، وَلَا يَخِيبُ فِيهِمْ مَظْنُونٌ، وَلَا يُطْوِي دُونَهُمْ مَكْنُونٌ، وَسَابَأْتُكُمْ مَا حَاكَ فِي صَدْرِي، وَأَسْتَفْتِيكُمْ فِيمَا عِيلَ فِيهِ صَبْرِي.

عَدَلَكْ: لَأَمَكْ. صَدَقَكَ: قَالَ الصَّدَقَ، كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ الصَّدِيقَ إِنَّمَا سُمِّيَ صَدِيقًا لَصَدَقَهُ لِمُصَابِهِ، يَرِيدُ أَنْ أَخَاكَ هُوَ الَّذِي يُلُومُكَ وَيَقْبَحُ لَكَ سُوءَ فَعْلِكَ، وَمَنْ حَسَنَ عَدْرَكَ فِي ذَلِكَ، فَلَيْسَ بِصَدِيقٍ وَلَا أَخٍ، مِثْلُ مَا حَكَى الْأَصْمَعِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: لِأَخٍ لَهُ: أَعْلَمْ أَنَّ النَّاصِحَ لَكَ الْمَشْفِيقُ عَلَيْكَ، مَنْ طَالَعَ لَكَ مَا وَرَاءَ الْعَوَاقِبِ بِرَوِيَّتِهِ وَنَظَرِهِ، وَمِثْلُ لَكَ الْأَحْوَالِ الْمَخُوفَةِ، وَخَلَطَ لَكَ الْوُغْرَ بِالسَّهْلِ مِنْ كَلَامِهِ وَمَشُورَتِهِ، لِيَكُونَ خَوْفُكَ كَفَاءَ رَجَائِكَ، وَشُكْرُكَ إِزَاءَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ، وَأَنْ الْغَاشَّ لِهَوَاكَ وَالْحَاطِبَ عَلَيْكَ مِنْ مَدَلِّكَ فِي الْإِغْتِرَارِ، وَوُطْأَ لَكَ مَهَادِ الظُّلْمِ، تَابِعًا لِمَرْضَاتِكَ مُنْقَادًا لِهَوَاكَ، وَقَالَ الشَّاعِرُ فَيَمَنْ لَا يَقْبَلُ النَّصِيحَ: [الْمُقَارِبُ]

إِذَا مَا هَدَيْتَ أَمْرًا مَخْطِئًا أَضِلَّ السَّبِيلَ إِلَى قَنْصِيهِ
فَلَمْ تَلْفِهِ سَامِعًا قَابِلًا فَحَسَّ لَهُ الْمَشْيَ فِي ضِدِّهِ

الْخَلُّ: الْخَلِيلُ. الْوُدُودُ: الصَّاحِبُ الْكَثِيرُ الْوَدَّ: الْخِذْنُ الْمَوْدُودُ: الصَّدِيقُ الْمَحْبُوبُ. الْمُلَغَزُ: الْمُبْهَمُ الْخَفِيُّ الْمَوْجَزُ: الْمَخْتَصَرُ. تَبَغِيهِ: تَطْلُبُهُ لِيُنَجِّزَ: لِيَفْعَلَ فِي الْحِينِ. حَبَانَا: اخْتَصَّصْنَا صَفْوَةَ: خِيَارَ. نَأْلُوكَ نَضْحًا: نَقْصُرُ فِي نَصِيحَتِكَ نَذْخِرُ: نَرْفَعُ وَنَخْبَأُ نَضْحًا: عَطِيَّةٌ نَدَفَعُهَا لَكَ، مَا خُذَ مِنَ التَّضَحُّعِ وَهُوَ الشَّرْبُ الْقَلِيلُ دُونَ الرَّيِّ. وَالتَّضَحُّعُ أَيْضًا: الرِّشُّ بِالنَّمَاءِ. وَقَيْتُمْ ضَيْرًا: كَفَيْتُمْ الضَّرَّ يَصْدُرُ: يَرْجِعُ. تَلْبِيسٌ: التَّبَاسُ وَتَخْلِيطٌ. لَا يَخِيبُ فِيهِمْ مَظْنُونٌ، أَيُّ مَا ظَنَّ فِيهِمْ مِنَ النَّصِيحِ وَالْمُعَاوَنَةِ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ غَيْرُ مَفْقُودَةٍ. مَكْنُونٌ: مُسْتَوْرٍ يُطْوَى: يُحْجَبُ وَيُسْتَتَرُ. أَبْثُكُم: أَنْشَرَ لَكُمْ وَأَظْهَرَ. حَاكَ فِي صَدْرِي: أَثَّرَ فِيهِ وَاحْتَكَّ بِهِ. عِيلَ: غَلَبَ وَعَالَنِي الشَّيْءُ عَوْلًا: غَلَبَنِي وَثَقَّلَ عَلَيَّ.

اعْلَمُوا أَنِّي كُنْتُ عِنْدَ صُلُودِ الزُّنْدِ، وَصُدُودِ الْجَدِّ، أَخْصَلْتُ مَعَ اللَّهِ نِيَّةَ الْعَقْدِ، وَأَعْطَيْتُهُ صَفْقَةَ الْعَهْدِ، عَلَى الْأَلْسَابِ مُدَامًا، وَلَا أَعَاوِرُ نَدَامَى. وَلَا أَحْتَسِي

فَهْوَةٌ، وَلَا أَكْتَسِي نَشْوَةً، فَسَوَّلْتُ لِي النَّفْسُ الْمُضِلَّةَ، وَالشَّهْوَةُ الْمَذِلَّةَ الْمُزِلَّةَ،
أَنْ نَادِمْتُ الْأَبْطَالَ، وَعَاطَيْتُ الْأَوْطَالَ، وَأَضَعْتُ الْوَقَارَ، وَارْتَضَعْتُ الْعُقَارَ،
وَامْتَطَيْتُ مَطَا الْكُمَيْتِ، وَتَنَاسَيْتُ التَّوْبَةَ تَنَاسِي الْمَيْتِ، ثُمَّ لَمْ أَفْنَعْ بِهَا تَيْكُمُ
الْمَرَّةِ، فِي طَاعَةِ أَبِي مُرَّةٍ، حَتَّى عَكَفْتُ عَلَى الْخَنْدَرِيسِ، فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ،
وَبِثُّ صَرِيحِ الصَّهْبَاءِ، فِي اللَّيْلَةِ الْغَرَاءِ، وَهَذَا أَنَا بِأَدْيِ الْكَآبَةِ، لِرَفْضِ الْإِنَابَةِ،
نَامِي النَّدَامَةِ، لِيَوْضِلِ الْمُدَامَةَ، شَدِيدُ الْإِشْفَاقِ، مِنْ نَقْضِ الْمِيثَاقِ، مُعْتَرِفٌ
بِالْإِسْرَافِ، فِي عِبِّ السَّلَافِ: [الطويل]

فِيَا قَوْمِ هَلْ كَفَّارَةٌ تَعْرِفُونَهَا تُبَاعِدُ مِنْ ذَنْبِي وَتُذْنِي إِلَى رَبِّي

قوله: ضُلُودُ الزَّندِ، هُوَ أَلَا يَسْمَحُ بِالنَّارِ صُدُودُ الْحَدِّ: إِعْرَاضُ السَّعْدِ، يَرِيدُ الْأَيَّامَ
الَّتِي كُنْتُ فِيهَا فَقِيرًا. وَالْعَقْدُ، كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا عَاهَدَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ عَقْدَ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ
صَارَتْ الْمِعَاهِدَةُ بِاللِّسَانِ تَسْمَى عَقْدًا، وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَرْبِطُ رَسْنَ بَعِيرِهِ بِخَبَاءٍ مَنْ يَسْتَجِيرُ بِهِ
أَوْ يَرْسُلُ حَبْلَهُ فِي الْبُئْرِ مَعَ حَبْلِهِ، فَيَشَبِّكُهُ بِهِ، وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ عِنْدَهُمْ عَقْدًا لَا يَسْلَمُ
الْمُسْتَجَارُ بِهِ الْمُسْتَجِيرُ إِلَّا لَمَّا يَسْلَمُ وَلَدَهُ، وَقَالَ حَبِيبٌ: [البسيط]

بَلَى لَقَدْ سَلَفْتُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لِلْحَقِّ لَيْسَ كَحَقِّي حَرَمَةٌ عَجَبُ
أَنْ يَعْلُقَ الدَّلُو بِالْذُلِّ الْغَرِيبَةِ أَوْ يَلَامِسُ الطَّنْبَ الْمُسْتَحْصَدَ الطُّنْبُ

الصَّفَقَةُ: ضَرْبَةٌ يَدِ الْمُسْتَرِي عَلَى يَدِ الْبَائِعِ. أَشْبَأُ: أَشْتَرِي. مُدَامًا: خَمْرًا. أَكْتَسِي
نَشْوَةً: أَظْهَرَ سَكْرَةً. سَوَّلْتُ: زَيَّنْتُ وَحَسَّنْتُ. الْمُضِلَّةُ: الْمُحَيِّرَةُ. الْأَبْطَالُ: فِرْسَانُ
الْخِلَاعَةِ لِلسَّنِّ. الْأَرْطَالُ: وَهِيَ أَرْبَعَةٌ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ: [مَجْزُوءُ الْوَافِرِ]

سَأَلْتُ أَخِي أَبَا عَيْسَى وَجَبْرِيلَ لَهُ قُضْلُ
فَقُلْتُ: الْخَمْرُ تُعْجِبُنِي فَقَالَ كَثِيرُهَا قُتْلُ
فَقُلْتُ لَهُ فَقَدْزِلِي فَقَالَ وَقَوْلُهُ قُضْلُ
وَجَدْتُ طِبَائِعَ الْإِنْسَا نَ أَرْبَعَةٌ هِيَ الْأُضْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رُطْلُ

يَذْكُرُ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ تَابَ مِنْ شَرْبِ الْمُسْكِرِ، وَعَاهَدَ اللَّهَ، أَلَّا يَشْرَبَ خَمْرًا، ثُمَّ
ارْتَدَّ وَرَجَعَ لَخْلَاعَتِهِ.

وَمِثْلُ حَالَتِهِ هَذِهِ حَالَةُ أَبِي مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيِّ، كَانَ تَابَ وَحَجَّ، فَلَمَّا قَفَلَ رَاجِعًا بَدَأَ لَهُ
فِي شَرْبِ الْخَمْرِ، فَقَالَ: [الوَافِرِ]

ألا يا هِنْدُ قد قَضَيْتِ حَجِّي فهاهِ شَرَابِكِ الْعَطَرِ الْعَجِيبَا
فقد ذهبْتَ ذُنُوبِي بِاللَّيَالِي فقومِي الآنَ تَفْتَرِفُ الذُّنُوبَا
خَلَطْنَا ماءَ زَمْزَمٍ فِي حَشَانَا بماءِ الْمَزْنِ فامْتَزَجَا قَرِيبَا
وكان أَبُو القاسمِ المِغْرَبِي قد نَسِكَ زَمَانًا، وَلَبِسَ الصُّوفَ وترَهَّبَ وَحَجًّا، فعشِقَ
غلاماً تركياً وهام به، وتقلَّدَ الوزارةَ ببغدادَ وغيرها، وانتهى في الجاهِ إلى الغايةِ وتملَّكَ
الأحرارَ، واشترى الغلامَ التركيَّ وقال : [الوافر]

تَبَدَّلْ مِنْ مَرْقِيعَةٍ وَنُسْكِ بأنواعِ المِمْسَكِ والشُّفُوفِ
وعنَّ له غلامٌ ليسَ يَحْوِي هَوَاهُ ولا رِضَاهُ بلبسِ صُوفِ
فَعَادَ أَشَدَّ ما كانَ انتِهاكاً كذاكِ الدَّهْرِ مُخْتَلِفُ الصُّروفِ
وقال أيضاً : [المنسرح]

يا أَهْلَ مِصرٍ قد عادَ ناسِكُكُمْ بالكِرْخِ بَعْدَ الثُّقَى إلى الفَتاكِ
خَمَشَ قَلْبِي مَقْرَظُ عَنِجٍ قد بَدَّ قَلْبِي بِهِ مِنَ النُّسكِ
رَمَى فُؤادِي بِسَهْمِ مُقْلَتِهِ وكيفَ يُخْطِي مَوْلِدَ التُّزْكِ !
وقال كشاجم : [الطويل]

يقولون ثُبِّ والكأسُ في كَفِّ شادِنٍ وصوتُ المِثْاني والمِثالِثِ عَالِي
فقلتَ لَهُمَ : لو كنتَ أَزْمَعْتَ توبَةً وأبصرتَ هَذا كُلَّهُ لَبَدًا لِي
وقال الحسن : [الكامل]

كيفَ التُّزُوعِ عَنِ الصُّبَا والكأسِ قُلْ ذَا لَنَا يا صاجِبي بِقِياسِ
قالوا كَبُرَتْ فقلتَ ما كَبُرَتْ يَدِي عَن أن تَسِيرَ إلى فَمِي بِالكأسِ
والرَّاحِ طَيِّبَةً وَلَيْسَ تَمامُها إلا بِطِيبِ خلائِقِ الجِلاسِ
وكأنَّ شاربِها لَفَرَطَ شَعاعِها بِاللَّيْلِ يَكْرَعُ في سَنا مِقْباسِ
وَإِذا نَزَعَتْ مِنَ الغِوايَةِ فَلْيَكُنْ لَه ذاكِ التُّزْعُ لا لِلنَّاسِ
قوله : أَضَعْتُ الوَقارَ، يَريدُ أَنَّهُ ضَيَّعَ وَقارَهُ في مَجْلِسِ اللَّهِو، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ :

وأَصْفَى السُّرُورَ إِذا ما الوَقُورُ أَماطَ سَتُورَ الحِيا وَأَطْرَحَ

العُقَّارَ : الخمرَ، لأنَّها عاقَرَتِ الدنَّ، أَي لَازِمَتَهُ، أو لأنَّها تَعقِرُ شاربِها بِثِقَلِ السُّكْرِ .
امْتَطَيْتَ : رَكَبْتَ . مَطًّا الكُمَيْتَ : ظَهَرَ الخمرَ، ووَرَّى بِفَرَسٍ، أَرادَ أَنَّهُ اعتَكَفَ عَلى
شَرِبِها، وَسَمَّيْتَ كَمَيْتاً لأنَّها حَمراءُ إلى الكُمَيْتَةِ، وأَبو مَرَّةٍ كَنِيَ إِبْلِيسَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَقَالَ
الحسن : [السريع]

نَمْتُ وَإِبْلِيسَ إِلَى الصُّبْحِ فِي
رَأَيْتَهُ فِي الْجَوْ مُسْتَعْلِيًّا
فَقَالَ لِي لَمَّا هَوَى مَرْحَبًا
هَلْ لَكَ فِي غَيْدَاءٍ مَمْكُورَةٍ
فَقُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَفِي أَغْيَدٍ
لَسْتُ أَبَا مَرَّةٍ إِنْ لَمْ تَعُدْ

وَقَالَ فِيهِ وَذَكَرَ أَنَّهُ قَادَ لَهُ غَلَامًا : [السريع]

دَبَّ لَهُ إِبْلِيسُ فَاقْتَنَاهُ
عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسِ فِي كِبَرِهِ
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ
وَالشَّيْخُ نَفَّاعٌ عَلَى لَعْنَتِهِ
وُخِبْتُ مَا أَضْمَرَ مِنْ نِيَّتِهِ
وَصَارَ قَوَادًا لَذَرِيَّتِهِ

وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْأَعْمَى فِي الْوَلِيدِ ، أَخُو صَرِيحِ الْغَوَانِي : [البسيط]

يَأْبَى السَّجُودَ لَهُ مِنْ فَرَطِ نَخْوَتِهِ
وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي مَسْلَاخِ قَوَادٍ

وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ يَشْكُرُ إِبْلِيسَ : [المنسرح]

رَأَيْتُ إِبْلِيسَ مِنْ مُرُوءَتِهِ
إِذَا هَوَيْتُ أَمْرًا وَأَعْجَزْنِي
تَبَدُّلاً مِنْهُ فِي خَوَائِجِنَا
لِكُلِّ مَا لَا يُطَاقُ مُحْتِمِلًا
جَاءَ بِهِ فِي الظَّلَامِ مَعْتَقَلًا
وَلَا يَزَالُ الْكَرِيمُ مَبْتَدِلًا

وَقَالَ أَيْضًا يَلْعَنُهُ : [المتقارب]

أَرَى الشَّيْخَ إِبْلِيسَ ذَا عُلَّةٍ
يَقُودُ عَلَى الْحُبِّ مُسْتَيْقِظًا
فِيؤْتِيكَ مَا شَاءَ مِنْ نَفْسِهِ
وَمَنْ كَانَ ذَا حِيلَةٍ هَكَذَا
فَلَا تَذْخَرُوا دُونَهُ لَعْنَةً
فَلَا بَرَى الشَّيْخَ مِنْ عِلَّتِهِ
وَيَأْتِيكَ فِي اللَّيْلِ فِي صُورَتِهِ
وَيُبْلِغُ مَا شَاءَ مِنْ لَذَّتِهِ
تَمَثَّلُ لِلْمَرْءِ فِي يَفْظَتِهِ
لَأَنَّ رِضَا اللَّهِ فِي لَعْنَتِهِ

قَوْلُهُ : عَكَفْتُ ، أَيِ أَقَمْتُ وَلَا زَمْتُ : الْخَنْدَرِيسُ : الْخَمْرُ الْقَدِيمَةُ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ يَوْمَ الْخَمِيسِ لِأَنَّهُ يَوْمٌ تَعَرَّضَ فِيهِ الْأَعْمَالُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِقْدَامُ الْعَبْدِ عَلَى الذُّنُوبِ وَقَدْ تَعَرَّضَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرَ خَطَرًا . الصَّهْبَاءُ : الَّتِي عُصِرَتْ مِنْ عَنَبٍ أَبْيَضٍ . الْأَصْمَعِيُّ : هِيَ الَّتِي تَضْرِبُ إِلَى الْبَيَاضِ ، مِنْ أَبْيَضَ عُصِرَتْ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ . صَرِيحُهَا : الَّذِي صَرَعَتْهُ بِالْ سُكَّرِ ، يَرِيدُ أَنَّهُ بَاتَ سُكْرَانًا مَطْرُوحًا وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ بْنُ زَهْرٍ فِي سَكَارَى : [الكامل]

وَمَوْسِدِينَ عَلَى الْأَكْفِ خَدَوْدَهُمْ
قَدْ غَالَهُمْ شُرْبُ الصُّبُوحِ وَغَالَنِي

ما زالت أسقيهم وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمرُ تعرف كيف تأخذ ثأرها إنني أملتُ إناءها فأمالني

الغزاء: ليلة الجمعة. رفض الإنابة: طرح التوبة والرجوع. نامي الندامة: كثير الندم. بادي الكآبة: ظاهر الانكسار والحزن وسوء الحال. المدام والمُدامة: الخمر، سُميت بذلك لأنها أديمت في ظَرْفِها. الإشفاق: الخوف نُقُض الميثاق: حلَّ العهد الإسراف: الإكثار. عَبَّ: حَسُو، والعبَّ أن يتابع الرجل الجزعة بعد الجزعة بغير تنفّس. السُّلاف: الخمر العتيقة، والسُّلاف والسُّلافة: ما سال منها من غير أن تُعصر، وهي أفضل الخمر قال الأعشى: [الطويل]

ببابل لم تُعصر فجاءت سُلافةً تخالط قنديداً ومسكاً مُحْتَمًا^(١)
القنديد: الخمر تطبخ ويجعل فيها أفاويه طيب

[من الخمرات]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمرات، نجعلها خاتمة ما قيل في الخمر.
عزم الوثائق على الصُّبوح فقال للحسين بن الضحاك: اكتب إلى الفتح بن خاقان تدعوه إلى الصُّبوح، وكان قد برىء من مرض، فكتب إليه: [البيسط]

لَمَّا اصطبحتُ وعينُ اللّهُ ترمُقني قد لآح لي باكرأ في ثوبٍ لذته^(٢)
ناديت «فتحاً» وبشرت المدام به لَمَّا تخلص من مكروه عُلته
ذُبّ الفتى عن حريم الرّاح مكرمةً إذا رآها امرؤ ضداً لخلقته
فاعجلُ إلينا وعجل بالسُّرور لنا وخالس الدهر في أوقات غفلته
فسار واصطبح معه.

وقال الحسين بن الضحاك: دخلتُ على الحسن بن سهل، في فصل الخريف وقد جاد الوسمي من المطر برشٌ حسن، واليوم في أحسن منظر وأطيبه، وهو جالس على سرير أبнос، وعليه قبة فوقها طارفة ديباج أصفر، تشرف على بستان، وعلى رأسه غلام كالدينار، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام، ونظر إليّ كالمستنطق، فقلت: [المقارب]

ألسْتُ تَرَى ديمةً تهطلُ وهذا صباحك مستقبلُ^(٣)
وهذا المدام وقَدْ راعنا بطلعته الشّادن الأكحلُ

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ٣٤٣، ولسان العرب (قند)، (ببل)، وديوان الأدب ٧٧/٢، وتاج العروس (قند).

(٢) الأبيات في ديوان الحسين بن الضحاك الخليع ص ٣٣.

(٣) الأبيات في ديوان ابن الضحاك ص ٩١، ٩٢.

فَعَادَ بِنَاوِيهِ سَكْرَةً تَهَوَّنَ مَكْرُوهُ مَا تَسْأَلُ
فَلِإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ طُرَّةً تَخْبِرُنِي أَنَّهُ يَفْعَلُ
وَقَدْ أَشْكَلَ الْعَيْشُ فِي يَوْمِنَا فَيَا حَبِذَا عَيْشِنَا الْمُشْكِيلُ

فقال: العيش مشكل، فما ترى؟ قلت: مبادرة القُصْف، وتقريب الإلف، قال: على شرط أن تبني، قلت: لك الوفاء على أن يكون هذا الواقف على رأسك يسقيني، فضحك، وقال: ذلك لك على ما فيه، ثم دعا بالأم والشراب، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمام، فقلت: [السريع]

جَرَدَ الْحَمَامَ عَنْ دَرَّةٍ تَلُوحُ فِيهَا عُكْنُ بَضَّةٍ^(١)
كَأَتَمَّا الرَّشُّ عَلَى خَدِّهِ طُلَّ عَلَى تَقَّاحَةِ عَضَّةٍ
يَا لَيْتَهُ زَوَّدَنِي قُبْلَةً أَوْلَا فَمِنْ وَجَنَتِهِ عَضَّةٍ
فقال الحسن: قد عمل فيك النيذ، فقلت: [الرجز]

اسْقِيَانِي وَصَرَفَا بَنَتْ حَوْلَيْنِ قَرْقَفَا^(٢)
وَاسْقِيَا الْأَهْيَفُ الْغَرِيْبَ رَسَقَى اللَّهْ أَهْيَفَا
بِأَبِي مَا جَنَ السَّرِيْبَ رَا يَبْدِي تَعْطُفَا
فَإِذَا رَمَتَ مِنْهُ ذَا لَكَ تَأْبَى وَعِئُفَا
فَإِذَا هَمَّ لِلْمَنَا مَ فَقَوْمَا وَخَفُفَا

فتغاضب الغلام فذهب، ثم عاد وقال: أقبل على شرابك، ثم ناولني قدحاً، والحسن قد خرج، فشربت وأعطاني نقلاً، فقلت: اجعل بدله قُبْلَةً، فأبى، فقال له فرج غلام الحسن: بحياتي يا بني، أسعفه بما طلب، فضحك ثم دنا مني كأنه يعطيني نقلاً وتغافل، فاختلست منه قُبْلَةً، فقال: هي حرام، فقلت: [الرمل]

هَوَّنَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ لِي فَرَجَ بَنَاتِيهِ فَسَقِيَا لِفَرَجِ^(٣)
وَبِنَفْسِي نَفْسَ مَنْ قَالَ وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ: حَرَامٌ وَحَرَجٌ

ثم اشتهر الصبح، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ، فقال: كيف كان مبيتك يا حسين؟ فقلت: [المتقارب]

تَأَلَّفْتُ طَيْفَ غَزَالِ الْحَرَمِ فَوَاصِلُنِي بَعْدَ مَا قَدْ صَرَمَ^(٤)
فَغَضَّ الْجَفَوْنَ عَلَى خَجَلَةٍ وَأَعْرَضَ إِعْرَاضَةَ الْمُحْتَشَمِ

(٣) ديوان ابن الضحاك ص ٨١، ٨٢.

(١) الأبيات في ديوان ابن الضحاك ص ٧٠، ٧١.

(٤) ديوان ابن الضحاك ص ٩٤.

(٢) ديوان ابن الضحاك ص ٨١.

فما زلت أبسطه مازحاً وأفرط في اللهو حتى ابتسم
وحكمني الرّيم في نفسه بشيء ولكنّه مُكثّتم
فقال: يا فاسق، أظنّ ما ادّعيته في النوم وكان في اليقظة؟ وأصلح الأشياء بنا أن
نرخص العار عن أنفسنا بهبته لك، فخذ لا بارك الله لك فيه، فأخذته وانصرفت.
وقد تقدّم في هذا الكتاب من كلام الحسين ما يفوق به كلّ شاعر، وهو القائل:
[الطويل]

أجزني فإني قد ظمئت إلى الوعد متى يُنجز الوعد المؤكّد بالعهد^(١)
أعيذك من خُلف الملوك وقد ترى تقطّع أنفاسي عليك من الوجد
أبخل فزّد الحسن عني بنائل قليل وقد أفردته بهوى فزّد!
وهذا منتهى ما أورده للحسين من العجائب.

دخل عليّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر في غدوة الربيع، وفي السماء غيم
رقيق، والمطر يجيء قليلاً، ويسكن قليلاً، فغاضبته جارية له، فانتفض عزمه فخبّر ابن
الجهم بذلك، فأراد تشيطه فدخل عليه فأنشده: [البيط]

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله صحوً وغنم وإبراق وإرعاد^(٢)
كأنه أنت يا من لا شبيه له وصلّ وهجر وتقرّب وإبعاد
فباكر الرّاح واشربها معتقة لم يدخر مثلها كسرى ولا عاد
واشرب على الرّوض إذ لاح زخارفه زهر ونور وأوراق وأوراد
كأنما يومنا فعل الحبيب بنا بذل وبخل وإبعاد وميعاد
وليس يذهب عني كلّ فعلكم غي ورشد وإصلاح وإفساد
فاستحسنها وأمر له بثلاثمائة دينار وحمله وخلع عليه
وقال عليّ أيضاً: [البيط]

الورد يضحك والأوتار تصطخب والنأي يندب أحياناً وينتجب^(٣)
والراح تُغرض في يوم الربيع تُجلى العروس عليها الدرّ والذهب
وكلما انسكبت في الكأس آونة حسبت أن شعاع الشمس ينسكب
وقد مرّ من كلام ابن الجهم كلّ بديع، في نظمه رفيع، وآخر شعر قاله وهو أحسن
ما قيل في معناه: [المنسرح]

(١) ديوان ابن الضحاك ص ٤٦.

(٢) الأبيات في ديوان علي بن الجهم ص ١٢٢. (٣) ديوان ابن الجهم ص ١٠٥.

يا رحمةً للغريب في البلد النَّـ ازح مَآذَاً بِنَفْسِهِ صَنَعَا^(١)
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعَا
يقولُ في نأيه وغربته: عَذَلُ مَنْ الله كل ما صَنَعَا

وكان هجاء لعلي بن أبي طالب، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعن على عليّ فقال له: أنا أدري لم تطعن على أمير المؤمنين، قال: أتعني قصّة بيعة أهلي، قال: لا، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط وأنت أسفلهما. وقال البحترى فيه: [الوافر]

إذا ما حُصِّلَتْ عَلَيْنَا قَرِيشٍ فلا في العيرِ أنت ولا النفيرِ^(٢)
ولو أعطاك ربك ما تمئى لزداد الخلق في عِظَمِ الأيُورِ
علام هجوت مجتهداً عليّاً بما لفُقت من كذبٍ وزورِ
أما لك في استك الوجعاء شغلٌ يكف أذاك عن أهل القبورِ
وقال ابن القناص كاتب سيف الدولة: [البيسط]

قُمْ فاسقني بين خفق الناي والغُودِ ولا تبغ طيبَ موجود بمفقودِ
كأساً إذا أبصرت في القوم محتشماً قال السرور له قُمْ غيرَ مطرودِ
نحنُ الشهود وخفق الناي خاطبنا يزوج ابن سحاب بنتَ عَنُقودِ
وقال المصحفي: [الرجز]

صَفراء تطرُق في الزُجاج فإن سَرَتْ في الجسم دبَّت مثل صلّ اللادغِ
خفيث على شرابها فكأنهم يجدون رِيّاً في إناء فارغِ
إدريس بن اليماني: [الكامل]

ثقلت زجاجاتُ أثنا فرغاً حتى إذا ملئت بصرف الرّاحِ
خفت فكادت أن تطير بما حوث إن الجسوم تخفُّ بالأزواجِ
ابن المعتز: [الوافر]

ونذمان سقيين الرّاحِ صرفاً وأفق اللّيل مُرتفعُ السُّجوفِ
صفت وصفت زجاجتها فأضحّت كمعنى دقّ في ذهنٍ لطيفِ
وله، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقدمة: [المنسرح]

فاشرب عُقاراً كأنها قَبَسُ قد سبك الدهرُ تبرها قَصفاً

(١) ديوان ابن الجهم ص ١٥٤.

(٢) الأبيات في ديوان البحترى ص ١٠٣٨.

تَرَى التَّدَامِي الإِبْرِيْقَ مِنْ دَمِهَا
ولبعضهم: [الكامل]

ما زال يشربُها وتشرب عقله
حتى انثنى متوسداً بيمينه
وقال النظام: [البسيط]

ما زلت آخذ رُوح الرُّق في لطفٍ
حتى انثنيتُ ولي روحان في جَسَدِي
أخذه أحسن أخذ من بَشَار حيث قال: [الوافر]

شربنا من فؤادِ الرُّق حَتَّى
وقال ديك الجن: [الطويل]

وقم أنت فاحث كأسنا غير صاغر
فقام تكاد الكأس تخضب كَفُّهُ
موردةً من كفّ ظبي كَأَنَّمَا
ظَلَّلْنَا بأيدينا نتعيع روحها
وقال حبيب: [الطويل]

وكأسٍ كمعسول اللَّمَاء شربتها
إذا عُوتبت بالماء كان اعتذاؤها
إذا اليد نالتها بوتر توقرت
وقال الحسن: [الطويل]

وصفراء قبل المزج بيضاء بَعْدَهُ
ترعى العين تستعفيك من لمعانها
كأن يواقيتا رواكدَ حولها
ولللخوارزمي: [الطويل]

وصفراء كالدينار بنت ثلاثة
مسرة محزون، ورغدٌ معربد
يطوف بها ظبي يريدُ عيوننا

شمال وأنهارٌ ودهرٌ مُحَرَّمٌ
وكنز مجوسي وفتنة مُسْلِم
على عينه، من شَرَطَ يحيى بن أَكْثَمِ

وقال مسلم بن الوليد: [الكامل]

إِيرِيقُنَا سَلْبَ الْغَزَالَةِ جِيْدَهَا وَحَكَى الْمَدِيرَ بِمَقْلَتِيْهِ غَزَالًا^(١)
يَسْقِيْكَ مِنْ عَيْنِيْهِ كَأْسَ صَبَابَةٍ وَيُعِيْدُهَا مِنْ كَفِّهِ جَزِيَالًا

وقال أبو ذُلامَة: [الطويل]

سَقَانِي أَبُو بَشَرٍ مِنَ الرِّيحِ شَرْبَةً لَهَا لَذَّةٌ مَا ذُقْتُهَا بِشَرَابٍ
وَمَا طَبَخُوهَا غَيْرَ أَنَّ غَلَامَهُمْ مَشَى فِي نَوَاحِي كَزَمِهَا بِشَهَابٍ
وَلَمَّا أُنْشِدَهَا عَلِيٌّ بِنَ الْخَلِيلِ صَاحَ: أَحْرَقَهَا الْعَبْدُ أَحْرَقَهُ اللهُ!

كَانَ ابْنُ لَنَكِّكَ أَسْرَعَ النَّاسِ سَكْرًا، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: [الوافر]

فَدَيْتُكَ لَوْ عَلِمْتُ بَبَعْضِ مَا بِي لَمَّا جَرَّعْتَنِي إِلَّا بِمُسْعِطٍ
فَحَسْبُكَ أَنْ كَرَمًا فِي جَوَارِي أَمْرُ بَبَابِهِ فَأَكَادُ أَسْنَقُطُ
قَوْلُهُ: يَا قَوْمَ هَلْ كَفَارَةٌ تَعْرِفُونَهَا، إِنَّمَا غَيَّرَ بَيْتَ أَعْرَابِيٍّ، أُنْشِدَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَيْبَاتَهُ،
وَهِيَ: [الطويل]

فِيَا قَوْمَ هَلْ كَفَارَةٌ تَعْرِفُونَهَا تُبَاعِدُ مِنْ ذَنْبِي وَتُذْنِبِي إِلَى رَبِّي
شَكُوتٌ فَقَالَتْ كُلُّ هَذَا تَبْرُؤُماً بِحُبِّي أَرَاهُ اللهُ قَلْبِكَ مِنْ حُبِّي
فَلَمَّا كَتَمْتَ الْحَبَّ قَالَتْ: لَشَدَّ مَا صَبَرْتُ وَمَا هَذَا بِفَعْلٍ شَجِي الْقَلْبِ
وَأَذْنُو فَتُقْصِيْنِي وَأَبْعَدُ طَالِباً رِضَاهَا فَتَعْتَدُ التَّبَاعِدَ مِنْ ذَنْبِي
فَشُكُوَايَ يُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوءُهَا وَتَجْزَعُ مِنْ بُغْدِي وَتَنْفَرُ مِنْ قُرْبِي
فِيَا قَوْمَ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْرِفُونَهَا أَشِيرُوا بِهَا وَاسْتَوْجِبُوا الشُّكْرَ مِنْ رَبِّي!

وقال أبو العبر الهاشمي المتحامي: [البسيط]

أُبْكِي إِذَا غَضِبْتَ حَتَّى إِذَا رَضِيتَ بَكَيْتُ عِنْدَ الرِّضَا خَوْفًا مِنَ الْعُظْبِ
فَالْمَوْتُ إِنْ غَضِبْتَ وَالْمَوْتُ إِنْ رَضِيتَ إِنْ لَمْ يُرْخِني سُلُوءُ عِشْتِ فِي تَعَبِ

وأبو العبر على تحامقه جيّد الشعر، ومن ذلك قوله: [الطويل]

وَفِي سَاعِدِي مِمَّنْ تَعَلَّقْتَ عَضَّةً تَذَكَّرْنِي ذَاكَ الشَّيْئِيبِ الْمَقْلَجَا
وَأَثَارُ خَدَشٍ فِي يَدِي مَلِيحَةٍ أَقَامَ عَلَيْهَا الْقَلْبَ مِنْي وَعَرَجَا
أَمَّا وَالَّذِي أَمْسَيْتُ أَرْجُو ثَوَابَهُ لَقَدْ حَلَّ مَا أَخْشَاهُ وَانْقَطَعَ الرَّجَا

وله: [السريع]

(١) البيتان في ديوان مسلم بن الوليد ص ٢٠٤.

داء دفين وهوى بادي أظلم مُجازيك بمرصاد
يا واحد الأمة في حسنه أثمرت في صدك حُسادِي
عبدك تُخَيِّي موته قبله يجعلها خاتمة الزَّادِ
ولأعرابي في نحو ما أنشده أبو العباس: [الطويل]

سكتُ فقالت: لِمَ سَكَتَ عن الحقِّ وفُهِتْ فقالت: ما دَعَاكَ إلى التُّنْطِقِ
فأومأت هل من حالة بين ذا وذا فقالت وذا الإيماء أيضاً من الحُمُقِ
فلم أر لي إذ حَلَّتِ الغرب مخلصاً من الشرِّ إلا في المسير إلى الشرقِ
فلما أتيتُ الشرقَ ألفيْتها به وقد قعدت لي منه في أضيق الطُّرُقِ

* * *

وعلى ما تقدّم في وصف الخمر من النظم المستحسن المرغب في شربها، فإنه جاء من التحذير فيها ما يوجب تركها على أهل التخصص والفضل.

من حديث أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الثانية لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الثالثة لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال»^(١).

ابن الأعرابي: طينة الخبال عُصارة أهل النار في النار. وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «مدّين الخمر كعابد وثن»^(٢).

قال أبو زيد: فلما حلّ أنشوطه نفثه، وقَضَى الوَطَرَ من اشتكائه بثّه، ناجتني نفسي: يا أبا زَيْد، هذه نُهْزَةُ صَيْدٍ، فشمُرْ عن يدٍ وأيدٍ فانتَهَضْتُ مِنْ مَجْئِمِي انتهاضَ الشَّهْمِ، وانخرطت من الصَّفِّ انخراط السَّهْمِ، وقلت: [مجزوء الخفيف]

أَيُّهَا الْأَزْوَغُ الَّذِي فَأَقْ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا
وَالَّذِي يَبْتَغِي الرِّشَا دَلِيلًا جُوبَهُ غَدَا
إِنَّ عُنْدِي عِلَاجَ مَا بَتَّ مِنْهُ مُسَهَّدَا
فَاسْتَمِغْهَا عَجِيبَةً غَادِرْتَنِي مُلْدَدَا
أَنَا مِنْ سَاكِنِي سَرُو جَ ذَوِي الدِّينِ وَالْهُدَى

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الأشربة باب ٥، والترمذي في الأشربة باب ١، وابن ماجه في الأشربة باب ٤، والدارمي في الأشربة باب ٣، وأحمد في المسند ١٨٩/٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأشربة باب ٣.

قوله: أنشوطه، عُقْدَة سهلة تسمّيها العامة اللَّجج. نفثه: لفظه. الوطر: الحاجة. بثّه: حزنه. ناجتني: حدثتني. الثّهرة: الفرصة وما أخذ بلا تعب أيد: قُوّة: انتهضت: تقدّمت. مجثمى: موضع قُعودي. الشّهْم: الشّدِيد النفس. انخرطت: اندفعت بسرعة والانخراط التصميم وركوب الرأس. الأزوع: السّيّد. فاق: زاد على غيره في الفضل. علاج: معانة وطب مسهّداً: ممتنع النوم. ملدّداً: ملتفتاً يميناً وشمالاً من شدة الخوف. [مجزوء الخفيف]

* * *

وَمُطَاعاً مَسْوُوداً	كُنْتُ ذَا ثَرَوَةٍ بِهَا
ف وَمَالِي لَهُمْ سُودَى	مَرْبَعِي مَأْلَفَ الضُّيُوءِ
وَأَقْبَى الْعِرْضِ بِالْجَدَا	أَشْتَرِي الْحَمْدَ بِاللَّهْأ
طَاخَ فِي الْبَذْلِ وَالنُّدَى	لَا أَبَالِي بِمُتْنَفِسٍ
ع إِذَا النُّكُوسُ أَخْمَدَا	أَوْقَدُ النَّارَ بِالْيَقَا
نَ مَلَاذًا وَمَقْصِدًا	وِيرَانِي الْمُؤْمَلُوءِ
فَانْتَنَى يَشْتَكِي الصَّدَى	لَمْ يَشْمَ بَارِقِي صَدِ
قَدَحَ زَنْدِي فَأَضْلَدَا	لَا وَلَا زَامَ قَابِيسُ
نَ فَأَصْبَحْتُ مُسْعَدًا	طَالَمَا سَاعَدَ الزَّمَا
مَا كَانَ عَوْدًا	فَقَضَى اللَّهُ إِنْ يُغَيِّرُ
بَعْدَ ضِغْنٍ تَوَلَّدَا	بِوَأِ الرُّومِ أَرْضَنَا
صَادَفُوهُ مَوْحَدًا	فَاسْتَبَاحُوا حَرِيمَ مَنْ
بِهَالِي وَمَا بَدَا	وَحَوَا كُلَّ مَا اسْتَسَرَّ

* * *

ثروة: غنى. مسووداً: مقدماً للسيادة. مربعي: منزلي. مألّف: موضع الاجتماع. سُودَى: مهمل. اللهأ: العطايا. اليقاع: ما ارتفع من الأرض. النكس: الدنيء. أحمَد: أطفأ. المؤملون: الرّاجون. ملاذ: ملجأ، المقصد: الموضع تقصّده يشم بارقي: ينظر برقي. صَدِ: عطش. انتنى: رجع. رام: طلب. قابس: طالب النار. قدح زندي: استخراج ناره. أصلد: وجده صُلداً أي شحيحاً ساعد: وافق. بوأ، أي أنزل. ضغن: حقد وعداوة. استباحوا: صيروه مُباحاً حريم: عيال. موحد: مُسلم. حووا: ضموا، استسرّ: خفي. بدا: ظهر.

تَطَوَّحَتْ: تراميتُ على جهالة وألقيتُ بنفسي للهلاك. طريداً: منفياً. مشرداً مفزعاً عند الهرب فاراً. [مجزوء الخفيف]

أَجْتَدِي النَّاسَ بَعْدَ مَا كُنْتُ مِنْ قَبْلُ مُجْتَدَى
وَتُورِي بِي خِصَاصَةً أَتَمْنَى لَهَا الرِّدَى
وَالْبِلَاءُ الَّذِي بِهِ شَمَلُ أَتْسِي تَبَدُّدَا
اسْتَبَاءَ ابْنَتِي الَّتِي أَسْرُوها لثُقُفَتِي
فَاسْتَبَنَ مِخْنَتِي وَمُ إِذْ إِلَى نَصْرَتِي يَدَا
وَأَجْرَنِي مِنَ الزُّمَا نِ فَقَدْ جَارَ وَاعْتَدَى
وَأَعْنَى عَلَى فَكَا لِكِ ابْنَتِي مِنْ يَدِي الْعِدَى
فَإِذَا تَنَمَّحِي الْمَا ثُمَّ عَمَّنْ تَمَسَّرَدَا
وَبِهِ تُقْبَلُ الْإِنَا بَسَةً مِمَّنْ تَزْهَدَا
وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِمَنْ زَاغَ مِنْ بَعْدِ مَا اهْتَدَى
وَلَمَّا قَمْتُ مُنْشِدَاً فَلَقَدْ فَهْتُ مُرْشِدَا
فَأَقْبَلَ التُّضْحُ وَالْهَدَا يَةً وَاشْكُرْ لِمَنْ هَدَى
وَاسْمَحِ الْآنَ بِالَّذِي يَتَسَنَّى لَتُخَمِّدَا

* * *

أجتدي: أسأل، خِصَاصَةٌ: فقر، الردي: الهلاك، شمل: مجتمع، تبدد: تفرق، استباء ابنتي: أخذها أسيرة. استبين: تحقق وتبين. محنتي: بليتي. جار واعتدى: مال وظلم، وفك الرقبة وفكها: تخليصها من أسر الرق وكذلك الرهن، وفي الحديث «اعتق النسيمة وفك الرقبة»^(١) قيل أو ليسا واحداً؟ قال: لا، عتق النسيمة: أن تنفرد في عتقها، وفك الرقبة: أن تعين في عتقها، ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «مَنْ قَدَى أَسِيرًا مِنْ أَيْدِي الْعَدُوِّ، فَأَنَا ذَلِكَ الْأَسِيرُ». تنمحي، أي تذهب، تمرّد: أكثر الفساد، الإنابة: الرجوع إلى الله تعالى، تزهد: ترك الرغبة في الدنيا زاغ: مال فهت: نطقت، مرشداً: دالاً على الخير. اسمح: جُد. يتسنّى: يتيسر، الفنجديهي: كان ابن قَطَرِي قاضي ناحية المزار، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب، ثم نقض التوبة، وعاد يشرب، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بني حَرَام يوماً بالبصرة، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصدق النية، وسأل عن كفارة ذنبه، وكان في المسجد رجل يزعم أنه من أهل سُرُوج، وله بنت مأسورة في أيدي الكفار، فقال لابن قَطَرِي: كفارة ذنبك أن تتصدق عليّ بشيء أفكها به فأعطاه عشرة دنانير، فلما أخذها منه دخل الحانة.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٩/٤.

ثم إن الحريري أنشأ هذه المقامة الحرامية في ذلك فقيـل له: هي أحسن من مقامات البديع، فأنشأ أربعين مقامة، ثم استزادوه فكمّلها خمسين.

قال أبو زيد: فلمّا أتممتُ هذرمَتي، وأوهِمَ المسؤولُ صدقَ كلمتي أغراه القَرَمُ إلى الكرمِ بمواساتي، ورغبه الكَلَفُ بحمل الكَلَفِ في مُقاساتي، فرضخَ لي على الحافِرة، ونَضَخَ لي بالعدّةِ الوافِرة.

فانقلبتُ إلى وكْري، فَرِحاً بِنُجْحِ مَكْري، وَقَدْ حَصَلْتُ مِنْ صَوْعِ المَكيدة، على سَوْعِ الثَّريدة، ووصلْتُ مِنْ حَوْكِ القَصيدة، إلى لَوْكِ العَصيدة.

قوله: هذرمتي، أي كثرة كلامي، أوهم: أي خيل له. كلمتي، أي قصيدتي، أغراه، أي حرّضه القَرَمُ: الشهوة. مواساتي: إعطائي، الكلف: الحُبّ، والكَلَفُ: جمع كُلفة وهي ما يُتكلّف من العمل. رضخ: أعطى، على الحافرة، أي عندما أكملت كلامي، والحافرة: أول الأمر، وقيل إن أصلها في بيع الفرس، ولرفعة الخيل عندهم كان لا يفارق البائع حافر فرسه، حتى يأخذ ثمنه، نضخ: رفع، ونَضَخَ الماء فورانه من منبعه، الوافرة: الكثيرة، وكْري: بيتي، وأصله للطائر، صوغ المكيدة: صنعة الكيد. سَوْع: بلع بسهولة، لَوْك: مضغ.

قال الحارث بن همام: فقلت له: سبحان مَنْ أَبْدَعَكَ، فما أعظمَ خُدَعَكَ، وأخْبَثَ بَدَعَكَ! فاستغربَ في الضحك، ثم أنشد غير مرتبكِ: [مجزوء الكامل]

عِشْ بالخِداعِ فأنْتَ في	دهرٍ بنوه كأَسَدٍ بيشة
وأدِرْ قَناءَ المَكْرِ حَيًّا	يَ تَسْتَدِيرُ رَحاً المَعيشة
وصدِ النَّسورِ فإنَّ تَعَدًّا	رَصِيدُها فاقنَعِ بِرِيشة
واجنِ الثَّمارِ فإنَّ تَفْتًّا	كَ فَرَضِ نَفْسِكَ بالحَشيشة
وأرْخِ فَوادِكَ إنَّ نَبَّابًا	دهرٌ مِنَ الفِكرِ المُطيشة
فَتَغَايِرُ الأَخْداثِ يُؤْ	ذُنْ بِاسْتِحالةِ كُلِّ عيشة

أبدعك، أي أوجدك وخلقك. استغرب: أكثر الضحك. مرتبك: مختلط في كلامه، بيشة: موضع كثير الأسد، المكر: الخديعة. نبا: ارتفع، المطيشة: المدهشة للعقل. تغاير: اختلاف، الأحداث: النوازل يؤذن: يعلم. استحالة: تغير.

المقامة التاسعة والأربعون

وهي السَّاسَانِيَّة

حكى الحارث بن همام قال: بَلَغَنِي أَنَّ أبا زید حِينَ نَاهَزَ الْقَبْضَةَ، وَابْتَزَهُ قَيْدُ الْهَرَمِ
النَّهْضَةَ، أَحْضَرَ ابْنَهُ، بَعْدَ مَا اسْتَجَاشَ ذَهْنَهُ، وَقَالَ لَهُ: يَا بَنِي إِنَّهُ قَدْ دَنَا ارْتِحَالِي مِنْ
الْفَنَاءِ، وَارْتِحَالِي بِمَرُودِ الْفَنَاءِ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَلِيَّ عَهْدِي، وَكَبُشُ الْكَتِيبَةِ السَّاسَانِيَّةِ مِنْ
بَغْدِي. وَمِثْلِكَ لَا تَقْرَعُ لَهُ الْعَصَا، وَلَا يُنْبِئُهُ بِطَرَقِ الْحَصَا؛ وَلَكِنْ قَدْ نُدِبَ إِلَى الْإِذْكَارِ،
وَجُعِلَ صَنِيقاً لِلْأَفْكَارِ، وَإِنِّي أُوصِيكَ بِمَا لَمْ يَوْصَ بِهِ شَيْئُ الْأَنْبَاطِ، وَلَا يَعْقُوبُ
الْأَسْبَاطِ؛ فَاحْفَظْ وَصِيَّتِي، وَجَانِبِ مَعْصِيَّتِي، وَاحْذُ مِثَالِي، وَافْقُهُ أَمثَالِي، فَإِنَّكَ إِنْ
اسْتَرْشَدْتَ بِنُصْجِي، وَاسْتَصْبَحْتَ بِصُجْجِي، أَمْرَعُ خَائِكَ، وَارْتَفَعُ دُخَانُكَ، وَإِنْ تَنَاسَيْتَ
سُورَتِي، وَنَبَذْتَ مَشُورَتِي، قَلَّ رَمَادُ أَثَافِيكَ، وَزَهَدُ أَهْلِكَ وَرَهْطِكَ فَيْكَ.

* * *

ناهزَ: قارب. الْقَبْضَةُ، أَرَادَ بِهَا ثَلَاثاً وَتَسْعِينَ سَنَةً، لِأَنَّكَ إِذَا قِيلَ لَكَ: اعْقِدْ فِي
يَدَيْكَ ثَلَاثاً وَتَسْعِينَ قَبْضَةً أَصَابِعُكَ كُلِّهَا وَشَدَدْتَ عَلَيْهَا الْإِبْهَامَ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ قَارِبَ الْمِائَةِ
الَّتِي لَيْسَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهَا مَنَفْعَةٌ، وَالشُّعْرَاءُ يَضْمُنُونَهَا أَشْعَارَهُمْ إِذَا وَصَفُوا الْبَخِيلَ بِقَبْضِ
الْكَفِّ، قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: [الْمُتْقَارِبُ]

وَكَفٌّ عَنِ الْخَيْرِ مَقْبُوضَةٌ كَمَا قَبِضْتَ مِائَةَ سَبْعَةٍ^(١)
وَقَالَ: [الْوَافِرُ]

فَمَا تَسْعُونَ تَخْفَرُهَا ثَلَاثُ يَضُمُّ حَسَابَهَا رَجُلٌ شَدِيدُ
بِكْفٍ خَرْقَةٍ جُمِعَتْ لَوَجٍّ بِأَنْكَدَ مَنْ عَطَائِكَ يَا زَيْدُ
وَابْتَزَهُ: سَلَبَهُ. الْهَرَمُ: كِبَرُ السَّنِ. النَّهْضَةُ: الْقِيَامُ إِلَى مَا يَرِيدُ.

وَدَخَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ مَنَاظٍ وَقَدْ أَسْرَى عَلَى فَتْيَةٍ مِنْ قَوْمِهِ فَقَامُوا إِلَيْهِ إِجْلَالاً،
وَأَجْلَسُوهُ فِي أَرْفَعِ مَوْضِعٍ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ، إِنْ بَنِي مَرَّةً كَانُوا إِذَا شَاحَ عَنْهُمْ
الرَّجُلُ قَيْدُوهُ وَقَالُوا لَهُ: ثَبِّ، فَإِنْ وَثَبَ أَحَبَّوهُ. وَقَالُوا: فَيْكَ بَقِيَّةٌ، وَإِنْ لَمْ يَثَبْ قَالُوا:
لَيْسَ فِي هَذَا مَنَفْعَةٌ فَقَتَلُوهُ، وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ: [السَّرِيعُ]

(١) البيت للخليل بن أحمد الفراهيدي في لسان العرب (شرع)، وتهذيب اللغة ١/٤٢٧، وتاج العروس
(شرع)، وكتاب العين ١/٢٥٣.

لو أَنَّ عَمْرِي مَائَةٌ هَذَنِي تَذْكُرِي أَنِّي تَنْصُفْتُهَا^(١)
 لهفي على خمسينَ عاماً مضت كانت أمامي ثم خَلَفْتُهَا
 استجاش: استجمع وحشد. والفناء: ما حول الدار، والفناء بالفتح: الموت.
 الكتبية: الجيش. وكَبَشُها: رئيسها وحاميتها، والذي كانت العصا تُقَرَعُ له عامر بن الظرب
 العَدَوَانِي حَكِيم العرب في الجاهلية، ولما أَسَنَّ كان يَزَلُّ في حكمه، وكانت له بنت
 حكيمة، فأمرها أن تقعد وراء سِتر لتنظر حكمه، فإذا أنكرت منه شيئاً قرعت له العصا،
 فمتى سمع صوت قَرَعِها علم أنه زَلَّ، فرجع. وقيل قُرِعَتْ لأَكْثَم بن صيفي، وقيل لسعد
 ابن مالك الكناني، وقيل لعمر بن حُمَمة الدوسي.

وخطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب بنته عمرة، وهي أم عامر بن
 صعصعة، فقال: يا صعصعة إنك تشتري مني كبدي، فارحم ولدي؛ قبلتك أو رددتك.
 والحسيب: الرجل الصالح أباً بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك، أفر من السر
 إلى العلانية، يا معشر عَدَوَانٍ أخرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة، أقسم لولا
 قسمة الحظوظ على الجذود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به، وفيه يقول المتلمس:
 [الطويل]

لِذِي الْجِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقَرَعُ الْعَصَا وَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْلَمَا^(٢)
 وهو أول من جلس على المنبر وتكلم، وفيه يقول الأسود بن يعفر: [الكامل]
 ولقد علمت لو أَنَّ علمي نافع أَنَّ السبيل سبيل ذي الأعواد^(٣)
 قال الأصمعي: نزلت عدوان ماء، فأحصى عليه سبعون ألف غلام أغرل، سوى
 مَنْ كان مختوناً لكثرتهم، ثم وقع بأسهم بينهم، فتفانوا، فقال ذو الإصبع العَدَوَانِي:
 [مجزوء الوافر]

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَذْوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ^(٤)

(١) البيتان في ديوان ابن الرومي ٣٦١/١.

(٢) البيت في ديوان المتلمس الهذلي ص ٢٦، ولسان العرب (قرع)، وجمهرة اللغة ص ٦٦٧، ٧٦٩،
 وتاج العروس (قرع)، وهو بلا نسبة في تهذيب اللغة ٢٣٢/١.

(٣) يروى صدر البيت:

ولقد علمت سوى الذي نبأتني

وهو للأسود بن يعفر في ديوانه ص ٢٦، ولسان العرب (عود)، وجمهرة اللغة ص ٦٦٧، وتهذيب
 اللغة ١٢٦/٣، وتاج العروس (عود)، وشرح اختيارات المفضل ص ٩٦٦، ومعجم البلدان (أنقرة).
 (٤) الأبيات في ديوان ذي الإصبع العدواني ص ٤٦، ٤٧، والبيت الأول في الاشتقاق ص ٢٦٩،
 والأغاني ٨٥/٣، وأمالى الزجاجي ٢٢١/١، والحيوان ٢٣٣/٤، وخزانة الأدب ٢٨٦/٥، وشرح
 أبيات سيبويه ٢٩٨/١، والشعر والشعراء ٧١٢/٢، والكتاب ٢٧٧/١ ولسان العرب (عذر)، (حيا)، =

بغى بعضٌ على بعضٍ فلم يُبقوا على بغضٍ
ومنهم مَنْ يجيز النلا س بالسُّنة والفرض
ومنهم حَكَمٌ يقضي فلا يُنْقَضُ ما يقضي

الحكم: عامر بن الطرب، والذي كان يجيز الناس في الحجّ منهم رجل كان يسمى أبا سيارة، أجاز الناس على حمار له أسود، من المزدلفة إلى منى أربعين عاماً. ف قيل في المثل: أصحّ من غير أبي سيارة، وكانت إجازته أن يقول: اللهمّ حَبِّبْ بين نساينا وبغض بين رعائنا، واجعل المال في سَمَحائنا. وأوفُوا بعهديكم، وأكرموا جاركم واقروا ضيفكم ثم يدفع فيقول: [الرجز]

خَلَوْا الطريقَ عن أبي سَيَّارة وعن مواليه بني قَزَّارة
* حتى يجيز سالماً حماره^(١) *

ثم يقف فيقول: أشرق ثبير. كيما نغير. وكانت الإجازة قبلهم في خُزاعة، فغلبتهم عليها عَذوان. ولا تقرع له العصا مثل، يُضرب لمن وافق صاحبه وسأواه.

ولما خطب رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها قال عمُّها: مثل محمد لا تقرع له العصا^(٢)، وأصل ذلك أن الناقة الكريمة إذا أتاها فحل غير كريم منعه عنها، وقرعوه بالعصا على أنفه. وفي المثل: إن العصا قُرعت لذي الحلم.

قوله: ولا يَنْبَهُ بطرق الحَصا، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل: هل يصلح للسفر والغارة: ترك الرجل صاحبه حتى ينام، فيأخذ حصاة فيرمي بها إلى جانبه، فإن انتبه توثق به.

وخرج أبو كبير الهذلي ومعه تأبط شراً للغارة، فلما جَنَّ الليل أووا إلى موضع ليناموا فيه، فتركه أبو كبير حتى نام، فرمى إلى جانبه بحصاة، فساعة مَسَّت الأرض وثَبَّ ثم عاد إلى نومه، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبه لوقوعها ويثب ويجول يطلب لها رامياً، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً، فقال له عند الثالثة: والله لئن عُدْتُ لأقتلنك، فإنه ليس هنا مَنْ يفعل هذا غيرك، فضحك أبو كبير وقال: أردت اختبارك، ثم ذكر القصة في قصيدته التي يقول فيها: [الكامل]

= والبيت الثاني في لسان العرب (رعى)، وتهذيب اللغة ٣/١٦٣، ومجمل اللغة ٢/٣٩٢، وتاج العروس (عذر)، والحماسة البصرية ١/٢٦٩، وأمالى المرتضى ١/٢٥٠.

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (سير)، (جوز) وتاج العروس (سير)، (جوز)، ومعجم البلدان (ثبير).

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية ٤/٤٣، بلفظ: «حديث خطبة خديجة، قال ورقة بن نوفل: هو الفحل لا يُقرع أنفه».

وإذا رَمَيْتَ له الحصاة رأيتَه ينزولوقعتها طُمورَ الأخيل^(١)

يريد أن ابنه كان فوق هذا في ذكاء القلب فهو كأنه منتبه أبداً.

وطرق الحصا أيضاً من فعل الكُهان يأخذ الكاهن حصيات، فيضرب بها الأرض وينظر فيها فيخبر بالمغيبات.

قوله: نُدِب، أي دعي وحرُضَ. الإذكار: التذكير بما يفعل الأفكار: الأذهان.

شيث هو ولد آدم عليه السلام، وكان أجمل بنيه وأحبهم إليه، وهو وصي أبيه وإليه ترجع الأنساب، وقال ﷺ: «أربعة من الأنبياء سريانئون: آدم وشيث وإدريس - وهو أخنوخ ونوح، وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة»، وقال بقية بن أرتاة: بلغني أن حواء حملت بشيث الرضا حتى نبتت أسنانه، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه في بطنها، وهو الثالث من ولد آدم، وإنه لما حَضَرها الطلق أخذها عليه شدة، فانتبذت به، فلما وضعته أخذته الملائكة، فمكث معهم أربعين يوماً، فعلموه المهن، ثم ردّوه إليها معلماً، والمهن جمع مهنة، وهي الخدمة.

الأنباط، قيل سمّوا أنباطاً لاستنباطهم البناء، واستخراجهم المياه، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ولا يصحّ على هذا أن يوصيهم شيث، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلاف من السنين. الجوهري: النبط والنّط: قوم كانوا ينزلون بين البصرة والكوفة والجمع أنباط، والرجل نبطي. ابن دريد: النّبط. جيل من الناس معروف وهم النّبط والأنباط والأسباط: بنو يعقوب عليه السلام، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل، والأسباط في ولد يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل.

أخذ مثالي، أي امش على طريقي وافعل بفعلي، استرشدت: استدلت. استصبحت: استضأت، أمرع: أخصب، الخان: الفندق، وهذا مثل لرفاهة العيش. تَبَدّت: طرحت. الأثافي: أحجار القدر. زهد: لم يرغب.

يا بني؛ إني جَرَبْتُ حَقائِقَ الأمور، وبلَوْتُ تصاريِفَ الدُّهور؛ فرأيتُ المرءَ بنشِبه، لا بنسِبه. والفحص عن مَكْسِبه، لا عَن حَسِبه، وكنتُ سَمِعْتُ أن المعاش: إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمارستُ هذه الأربع، لأنظرَ أيُّها أوفقُ وأنفع، فما أَحْمَدْتُ مِنْهَا مَعِيشَةً، ولا اسْتَرْغَدْتُ فِيهَا عِيشَةً، أما فَرَصُ الولايات، وخُلَسُ الإمارات؛ فَكَأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ. والفِيء المُنْتَسَخ بِالظَّلَام؛ وناهيكَ عُصَّةً بِمِرَارَةِ الْفِطَام.

(١) البيت لأبي كبير الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١٠٧٤، ولسان العرب (طمر)، (نزا)، وتاج العروس (طمر). (خيل)، وللهمذلي في جمهرة اللغة ص ٧٥٩، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٣/

وأما بَضَائِعِ التِّجَارَاتِ، فَعَرِضَةٌ لِلْمَخَاطِرَاتِ، وَطُعْمَةٌ لِلغَزَارَاتِ، وَمَا اشْبَهَهَا بِالطُّيُورِ الطَّيَّارَاتِ، وَأَمَا اتِّخَاذُ الضِّيَاعِ، وَالتَّصْدِي لِلْأَزْدِرَاعِ، فَمِنْهُكَ لِلْأَعْرَاضِ، وَفِيودَ عَائِقَةٍ عَنِ الْإِرْتِكَاضِ، وَقَلَمًا خَلَا رَبَّهَا عَنِ إِذْلَالِ، أَوْ رُزْقِ رُوحِ بَالٍ، وَأَمَا حِرْفُ أُولِي الصَّنَاعَاتِ، فَغَيْرُ فَاضِلَةٍ عَنِ الْأَقْوَاتِ، وَلَا نَافِقَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَمُعْظَمُهَا مَعْصُوبٌ بِشَبِيهِةِ الْحَيَاةِ، وَلَمْ أَرِ مَا هُوَ بَارِدُ الْمَغْنَمِ، لِذِيذِ الْمَطْعَمِ، وَافِي الْمَكْسَبِ، صَافِي الْمَشْرَبِ، إِلَّا الْحِرْفَةُ الَّتِي وَضَعَ سَاسَانُ أُسَاسَهَا، وَنَوَّعَ أَجْنَاسَهَا.

بلوت: اختبرت. نشبه: ماله، الفحص: البحث، والأربع التي ذكر نسبها الثعالبى للمأمون قال: قال لي المأمون: التأس أربع طبقات بين إمارة وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمن لم يكن منهم كان كلاً علينا، مارست: خالطت، أحمدت: صادفتها محمودة، استرغدت: استكثرت، فَرَصَ: نهز، والنَّهْزَةُ والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنى في طلبها، فَإِنْ فَوَّتَهَا وَلَمْ تَغْتَنِمِ أَخْذَهَا ففَاتَكَ، فربما تتعنى غاية التعنى في طلبها، فلا تظفر بها، الجوهرى: الفرصة، النوبة والشرب، يقال: وجد فلان فرصة، أي نهزة، وجاءت فرصتك من الشيء، أي نوبتك. خُلِسَ: جمع خُلْسَةٍ، وهي كالخطف وشبهه، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه، أي اختطفها لقصر مدتها، ويقال: الخُلْسَةُ. فرصة. وأضغاث الأحلام: أباطيلها التي لا يصح تغويلها لاختلاطها والضغث: كل ما كان مختلطاً لا حقيقة له، والحلم: الرؤيا والجمع أحلام. ويقال: هذا رجل ناهيك من رجل! ونهيك من رجل، أي أنه نجدة وعناية ينهيك عن تطلب غيره، فناهيك: كافيك. الغصة: ما يختنق به، الفطام: قطع الرضاعة عن الصبي، وفي الكلام معنى التعجب كأنه قال: ما أنكد غصة العزل على أهل الولايات، والعزل للولادة كالحيض للنساء. والبضائع: الأموال يتجر فيها عرضة للمخاطر، أي معرضة للضرر والسلب، وفلان عُرْضَةٌ لكذا، أي نُصِبَ، وهو له عُرْضَةٌ، أي يتعرض له دونه، وهذا عُرْضَةٌ لك، أي عُدة. وقال النقاش في قوله تعالى: ﴿عُرْضَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، أي علة لها وسبباً ومثخداً لذلك، وأصل العُرْضَةُ: الدابة تتخذ للسفر لقوتها، ثم جعل كل ما صلح لشيء عرضة له حتى قيل: المرأة عرضة للزوج، والطعمة: المأكلة، وهذه الضيعة طعمة لفلان، والطعمة أيضاً: وجه المكتسب، فطعمة للغارات، يريد أن قطاع الطرق يسلبون أموال التجار أبداً فأرزاقهم معرضة للتلف، التصدي: التعرض، منهكة: مذلة وسبب نهك، وهو الجهد والضعف، ونهكته الحمى وأنهكته، إذا جهده وأضنته ونقصت لحمه، ونهكه السلطان عقوبة: بالغ في عقوبته، رُوح بال: راحة قلب. عائقة: حابسة، الارتكاض: الجري والتصرف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرث وقال ﷺ حين رأى السكة: «ما دخلت

قَطَّ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا ذَلَّوْا». وقال ﷺ في الإمارة: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة، فتعنت المرزعة وبستت الفاطمة»^(١).

والحرفة: الصنعة: فاضلة: زائدة، معصوب: مربوط، والعصب الفتل الشديد، يريد أن الصنعة يُنْتَفَعُ بها ما دام صاحبها شاباً قوياً فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها، قوله: بارد المغنم، أي السهل منه، وهو الذي يؤخذ بغير قتال.

ساسان: شيخ المكدين والغرباء، وهم بنو غُبراء، والغبراء: الأرض، وسُمُوا بني غُبراء لقطعهم جهات الأرض وجولانهم في البلدان، فكأنهم ليس لهم أصل يُنسَبون إليه إلا الأرض، وقيل: سُمُوا بذلك للزومهم لغبراء الأرض وهو وجهها وترابها والرقاد فيها فيغيرون بذلك ويتغيرون.

وكان الأحنف العكبري، وهو أبو الحسن عقيل بن العكبري، كان فصيحاً شاعراً وذكر صاحب فيه فصلاً وهو: ولو أنشدتُك ما أنشدني الأحنف العكبري، وهو فرد بني ساسان اليوم في مدينة السلام في الفصاحة وحسن الطريقة في الشعر لامتلات تعجباً من ظُرفه وإعجاباً بنظمه، ومن افتخاره قوله: [مجزوء الوافر]

على أني بحمد الله	في بيت من المجد
وإخواني بنو ساسا	ن أهل الجَدِّ والجَدِّ
لهم أرض خراسا	ن قَسَّان مع اللَّدِّ
إذا ما أعوز الطُّرُق	على الطُّرَاق والجُنْدِ
حذاراً من أعاديهم	من الأعراب والكردِ
قطعنا ذلك النهج	بلا سَيْفٍ ولا غِمْدِ
ومن خاف أعاديته	بنا في الرُّوعِ يَسْتَفِدِي

ففي هذا البيت معنى بديع، يريد أن ذوي الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهم في أيدي العداة وأراد التخلص قال: أنا مكيد، فبنى الحريري هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من مُلَّجه، ومن هذا الشعر: [الهزج]

وقالوا قد سلا عُنْـ	لك وقد حال عن العهدِ
ولا والله ما حُلْتُـ	ولكن قل ما عندي

ومن شعره: [الخفيف]

عشت في ذلة وقلّة مالٍ واغترابٍ في معشرٍ أنذالٍ

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٧، والنسائي في البيعة باب ٣٩، والقضاة باب ٥، وأحمد في المسند ٢/٤٤٨، ٤٧٦.

بالأمانى أقول لا بالمعاني
لي رزق يقول بالوقف في الـ
وله : [البسيط]

العنكبوت بنت بيتاً على وهن
والخنفساء لها من جنسها سكن
وله : [الوافر]

نرى العقيان كالذهب المصفى
وكيسي منه خلوة مثل كفي
وله : [البسيط]

رأيت في النوم دنيانا مزخرفة
فقلت جودي فقلت لي على عجل
مثل العروس تراءت في المقاصير
إذا تخلصت من أيدي الخنازير

وأضرم في الخافقين نارها، وأوضح لبني غبراء منارها، فشهدت وقائعها
مُعَلِّماً، واخترت سيمائها لي ميسماً؛ إذ كانت المتجر الذي لا يبور، والمنهل الذي
لا يغور، والمصباح الذي ينعش إليه الجمهور، ويستضيح به العمى والغور. وكان
أهلها أعز قبيل، وأسد جيل، لا يزهقهم مس حيف، ولا يقلقهم سل سيف، ولا
يخشون حمة لاسع، ولا يدينون لدان ولا شاسع ولا يزهبون ممن برق ورعد، ولا
يحفلون بمن قام وقعد؛ أنديتهم منزهة، وقلوبهم مرقهة، وطعمهم معجلة،
وأوقاتهم غر محجلة، أينما سقطوا لقطوا، وحيثما انخرطوا خرطوا، لا يتخذون
أوطاناً، ولا يتقنون سلطاناً، ولا يمتازون عما تغدو خماصاً وترؤح بطاناً.

قوله : أضرم. أي أوقد، الخافقين : المشرق والمغرب، أوضح : بين منارها :
سراجها، معلماً : مشهوراً. سماها : علامتها، يريد أنه اختار علامتهم لنفسه، يبور :
يكسد ويهلك أهله : المنهل : موضع الماء، يغور : يغوص في الأرض، يعشو : ينظر،
الجمهور : معظم الشيء، العور : جمع أعور. الجيل : أهل العصر، يزهقهم : يدركهم
ويغشاهم حيف : جور وظلم. حمة : سم. لاسع : ضارب. واللسع : الضرب بمؤخره،
مثل العقرب، واللدغ لما كان بالقم. ولسعه بلسانه : عابه وآذاه، ورجل لسعة ولساعة
ولساع، أي عتاب مؤذ، يدينون : يطيعون، دان وشاسع : قريب وبعيد يرهبون : يخافون.
برق ورعد : هدد وخوف، يحفلون : يبالون. من قام وقعد : من غيظه وشره. انخرطوا :

ركبوا رؤوسهم، واندفعوا بشدة، وخرطت الغصن، إذا وضعت يدك عليه ثم تجرّه عليك، فيسقط ما فيه من ورقٍ وثمر. أنديتهم: مجالسهم. مرقّية: الرفاهية: العيش اللين. غرّ: بيض. محجلة: مشهورة. سقطوا: وقعوا لقطوا: جمعوا الرزق. وأصله للطير، يمتازون: يفترقون. خِماصاً: جِباعاً، بطاناً: شباعاً وهي للطير، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِماصاً وتَرُوحُ بِطاناً»^(١).

فقال له ابنه: يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ، فيما نَطَقْتَ؛ وَلَكِنَّكَ رَتَقْتَ، وَمَا فَتَقْتَ؛ فَبَيِّنْ لي كيف أَقْتَطِفُ، ومن أين تُؤْكَلُ الكتف، فقال: يا بنيّ إِنَّ الارْتِكاَضَ بِأُهَا، وَالشَّاطِ جَلْبَابُهَا، وَالْفِطَنَةُ مِضْبَاحُهَا، وَالْقِحَّةُ سِلَاحُهَا، فَكُنْ أَجُولَ مَنْ قُطِرَبُ، وَأَسْرَى مِنْ جُنْدُب، وَأَنْشَطَ مِنْ ظَنِي مُقْمَر، وَأَسْلَطَ مِنْ ذَنْبٍ مُتَمَثِّر، وَاقْدَحَ زَنْدَ جَدِّكَ بِجَدِّكَ، وَاقْرَغْ بابَ رَعِيكَ بِسَعْيِكَ، وَجِبْ كُلَّ فَيْجٍ، وَلِجْ كُلَّ لَجٍ، وَاثْنَجْ كُلَّ رَوْضٍ، وَأَلْقِ ذَلُوكَ فِي كُلِّ حَوْضٍ، وَلَا تَسَامِ الطَّلَبُ، وَلَا تَمَلِّ الدَّأْبَ، فَقَدْ كَانَ مَكْتُوباً عَلَى عَصَا شَيْخِنَا سَاسَانَ: مَنْ طَلَبَ، جَلَبَ، وَمَنْ جَالَ، نَالَ. وَإِيَّاكَ وَالْكَسَلَ، فَإِنَّهُ عُثْوَانُ النُّحُوسِ، وَلَبُوسُ ذَوِي الْبُوسِ، وَمِفْتَاحُ الْمَتْرَبَةِ، وَلِقَاحُ الْمُتَعَبَةِ، وَشِيْمَةُ الْعَجْزَةِ الْجَهْلَةِ، وَشِنْشِنَةُ الْوُكَلَةِ التُّكَلَةِ، وَمَا اشْتَارَ الْعَسَلَ، مِنْ اخْتَارَ الْكَسَلَ، وَلَا مَلَأَ الرَّاحَةَ؛ مِنْ اسْتَوَطَأَ الرَّاحَةَ.

قوله: رتقت، أي ألحمت وسديت، وهو ضد فتقت، تقول: رتقت الشيء، إذا ضمنت بعضه إلى بعض، وفتقته: نقضته، أقتطف: أجني الثمر، وهذا مثل قوله: مِنْ أين تُؤْكَلُ الكتف، قالوا: تؤكل من أسفلها، لأن المرقّة تدخل بين عظامها ولحمها، فمن أكلها من أعلاها جرت المرقّة عليه، ولفظ المثل على ذكره أبو عبيد: فلان أعلم من حيث تؤكل الكتف، يضرب مثلاً لمن جرّب الأمور ودرى تصرفها، قال البكري: إن لحم الكتِف إذا أُكِلَ من أعلاه تناثر، وإذا أُكِلَ من قَبْلِ الغُضروف، لم يتأثّ لأكله. والغُضروف: اللحم الرّخص المتصل بأسفل الكتف المتسع، وقيل: أكل الكتف، إذا أمسك فيها بطرف الغُضروف ربما سقطت فتربّت، وإذا أمسكها بالطرف الآخر أمِنَ من ذلك.

الفنجديهي: لحم الكتف إذا جُذب من الجانب الأسفل انقطع بكليته، وإذا جذب

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ١٤.

من الجانب الأعلى تقطع اللحم ولم ينقطع، لأن المرقة تجري بين لحم الكتف والعظم، فإذا أخذته من أعلاه تصببت المرقة عليك بسرعة، وإذا أخذت اللحم من أسفله تقشر من عظمها فلم تنصب المرقة بالسرعة، وهو مثل يضرب للبصير بالأمور، وقال أوس بن حجر: [البسيط]

أم دلكم بعض من يرتاد مشمتي بأي أكلة لحم تؤكل الكتف^(١)
يقول: أنا أعلم كيف أنا لكم.

وقال آخر: [المنسرح]

إنني على ما ترون من كبري أعلم من أين تؤكل الكتف^(٢)

قطرب: دويبة تجول الليل كله ولا تنام، ويقال فيه أيضاً: أسهر من قطرب، وهذا قول أبي عمرو، وغيره يرويه: أسعى من قطرب، لا أسهر، ويقول: هو دويبة لا تستقر بالنهار ويحتج بقول ابن مسعود: لا أعرفن أحدكم جيفة ليل قطرب نهار، وقطرب اسم رجل مشهور، وهو ابن المستنير صاحب المثلث وكان من أهل العربية فجلس لسيبويه يناظره، فلما رآه سيبويه قد احتد بالسؤال قال: إنك لقطرب ليل، فسُمي بذلك، والقطرب أيضاً ذكر الغيلان، ابن ظفر ذكر من يعول عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر، يظهر للمنفرد من الناس، فربما صده عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلا لم ينته حتى ينكحه، فإذا أنكحه تدود دبره وهلك، قال: وهم إذا رأوا من ظهر له القطرب قالوا: أمنكوح أم مروع، فإن قال: منكوح يشسوا منه. وإن قال: مروع سكنوه وعالجوه، قال: فقد رأيت أهل مصر وما بين يديها وما خلفها، وتحققت أهل صعيدها والعربان، وهم مستوون في الجهل بهذا الحيوان، ومختلفون الاختلاف الشديد في فعله وصورته، إلا أن أهل مصر أكثر لهجاً به. والقطارب أيضاً: صغار الكلاب.

قوله: أسري، أي أمشي بالليل، الجندب: ذكر الجراد، وقيل: هي دويبة تشبه الجراد ذات جناحين، فلا تزال ترمح. ولفظ المثل: أسرى من جراد. مقمر: لاعب في القمر، وأنشط: أخف، والظبي يأخذه النشاط في الليلة المقمرة فيلعب، متنمر: متشبه بالنمر وهو سبع مؤذ، جدك: حظك، اقرع: اضرب. رعيك: أكلك. وأراد بباب رعيك الذي يجيئك منه الرزق، ألق دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل «ألق دلوك في الدلاء»، يضرب في بذل الجهد في اكتساب المال والبحث عليه، وهو كما قال الشاعر: [الوافر]

وليس الرزق عن طلب حثيث ولكن ألق دلوك في الدلاء^(٣)

(١) البيت في ديوان أوس بن حجر ص ٧٦.

(٢) البيت لقيس بن الخطيم في ديوانه ص ٢٣٩، وفيه «على ما ترين» بدل «على ما ترون».

(٣) البيتان لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص ١٦٠، ٣٠٤، ٤٢٥، وجمهرة الأمثال ٧٤/١، وبلا نسبة =

تجشك بملئها طوراً وطوراً تجشك بحمأةٍ وقليل ماء

قوله: فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان، الفنجديهي قرأت في بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصا ساسان المكدي: الكسل شؤم، والتميز مذموم، والحركة بركة والتواني هلكة، وكلب طائف: خير من أسد رابض، ومن لم يغترف: لم يعتلف جال: تصرف ومشى في البلاد، نال: أدرك حاجته، عنوان: دليل، النحوس: جمع نحس، وهو ضد السعد، وذوي البؤس: أهل الفقر: لقاح المتعبة، أي أصلها وسببها، شيمة: طبيعة، وكذلك الشنشنة، الوكلة التكلة: هو العاجز الذي يكل أمره لغيره ويتكل عليه فيه. أشتار: حرّك واستخرج، الراحة الأولى: الكف، والثانية ضد التعب.

وعليك بالإقدام، ولو على الضرغام، فإن جراءة الجنان، تُنطق اللسان، وتُطلق العنان، وبها تُدرك الحظوة، وتُملك الثروة، كما أن الخور صنو الكسل، وسبب الفشل، ومبطأة للعمل، ومخيبة للأمل، ولهذا قيل في المثل: من جسر، أنس، ومن هاب، خاب. ثم ابرز يا بني في بكر أبي زاجر، وجراءة أبي الحارث، وحزامة أبي قرّة، وخئل أبي جعدة، وحزص أبي عغبة، ونشاط أبي وثاب، ومكر أبي الحصين، وصبر أبي أيوب، وتلطّف أبي غزوان، وتلّون أبي براقش، وحيلة قصير، ودهاء عمرو، ولطف الشعبي، واحتمال الأحنف، وفطنة إياس، ومجانة أبي نواس، وطمع أشعب، وعارضة أبي العيناء.

الإقدام: الجراءة، الضرغام: الأسد. والجراءة: الشجاعة. والجنان: القلب. والحظوة: المنزلة الرفيعة، والثروة: الغنى. صنو: أخ. الفشل: الضعف والحيرة، يريد أن فزع النفس وضعيفها يخيب الأمل والرجاء، وقال معاوية: الهية مقرون بها الخيبة.

أبو زاجر: هو الغراب، سمي بذلك، لأن العرب تزجر به وتتشاءم، وتقدم ذلك، ومن وصيته لولده على ألسنتهم، قالوا: قال الغراب لابنه: يا بني إذا رميت فتلوّص أي تلو، قال: يا أبت أنا أتلوّص قبل أن أرمي، وقال لابنه قد رأى رجلاً فوق سهماً: يا بني اتد، حتى تعلم ما يريد الرجل، فقال: يا أبت، الحذر قبل إرسال السهم.

وأبو الحارث: الأسد كني بذلك لاحترائه، أي لاكتسابه بقوته.

وأبو قرّة: الحرباء كني بذلك لأن البرد لا يفارقه. فالحرباء تدور لذلك مع الشمس حيثما دارت، وتقدم حزامتها، ومرّ أنها لا تفارق ساق الشجرة حتى تمسك ساق الأخرى.

وأبو جعدة: كنية الذئب، وهي كنية بالضد لأن جعدة عندهم الشاة، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدها جعلوه أباهاً بضد ما يفعل الأب الذي لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه، ونحوها قولهم للأسود: أبو البيضاء، والختل: المكر.

وأبو عقبة الخزير، ومن حرصه أنه يمشي بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل، ويستتر بالنهار حرصاً على السلامة.

وأبو وثاب: الظبي وكني بذلك لسرعة وثبه.

وأبو الحصين: الثعلب، وهو أكثر الحيوان مكرأ، ومن بعض مكره أنه إذا رأى الغلبة تماوت فلا تشك في أنه ميت، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ يسيراً حتى يقوم فاراً أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب، لأن الذئب لا يطؤه في زعم قوم، وقالوا: إن الضبع صادت ثعلباً، فقالت: أخيرك يا ثعلب بين خصلتين، فقال: ما هما؟ فقالت: إما أن أكلك وإما أن أكلمك، فقال لها الثعلب، أما تذكرين يوم نكحتك؟ فقالت: متى؟ فانفتح فوها وانفلت الثعلب، فذكروا ذلك مثلاً، وقالوا: ضرب عليه خصلتي الثعلب، وقالوا: إن الثعلب أطلع في بئر وهو عاطش وعليها رشاء في طرفيه دلوان، فقعد في الدلو العليا فانحدرت، فشرب، فجاء الضبع فاطلعت في البئر، فأبصرت القمر في الماء منتصفاً والثعلب قاعد في قعر البئر فقالت له: ما تصنع هنا؟ فقال لها: إني أكلت نصف هذه الجبنة وبقي نصفها لك فانزلي فكليها، فقالت: وكيف أنزل؟ قال: تقعدين في الدلو فقعدت فيها، فانحدرت وارتفع الثعلب في الدلو الأخرى فلما التقيا في وسط البئر قالت له: ما هذا؟ قال: كذا التجار، نختلف، فضربت بها العرب المثل في المختلفين، وأوصاف مكره كثيرة.

وأبو أيوب: الجمل سُمّي بذلك لأنه أصبر الدواب على العطش والجوع وقطع الأشهر بالسير المتصل ونقل الأوقار، ومهما كان به شيء من قوة تجلّد، فإذا وقف علم أنه ليس فيه بقية ينتفع بها.

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض وتلطّفه يظهر في محاولاته لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة: قُرّب منها وأخذ يتلطف في صياحه ويتضرّع ويحتك بالمائدة أو بالأكل حتى يعطى.

وأبو براقش: طائر أغبر أوسطه أحمر، إذا انتفض تلون ألواناً. أخذ الحريري هذا الفصل من كلام العلماء، قالوا: ابن آدم هو العالم الكبير الذي جمّع الله تعالى العالم كلّه فيه فكان فيه بسالة الأسد وصبر الجمل وحرص الخزير وحذر الغراب وزوغان الثعلب؛ وضرع السّور، وحكاية القرد وجبن الصقر.

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بليداً سريع النسيان في ابتداء تعلّمه: بم أدركت العلم مع بلادتك وكلل خاطرك؟ قال: ببيكور كبكور الغراب وصبر كصبر الجمل وجرح كحرص الخزير.

واخْلَبَ بِصَوْنِ اللِّسَانِ، واخْدَعَ بِسِخْرِ البَيَانِ، وارْتَدَّ السُّوقَ قَبْلَ الْجَلْبِ وامْتَر
الضَّرْعَ قَبْلَ الْحَلْبِ، وسَائِلَ الرُّكْبَانِ قَبْلَ الْمُتَجِّعِ، ودمَّتْ لِحْنِكَ قَبْلَ الْمُضْطَجِّعِ،
واشْحَذْ بِصِيرَتِكَ لِلْعِيَاةِ، وَأَنْعِمَ نَظْرَكَ لِلْقِيَاةِ، فَإِنَّ مَنْ صَدَّقَ تَوْسُمَهُ، طَالَ تَبَسُّمُهُ،
ومن أخطأت فِرَاسَتَهُ أَبْطَأَتْ فَرِيستَهُ.

وَكُنْ يَا بُنَيَّ خَفِيفَ الْكَلِّ، قَلِيلَ الدَّلِّ، رَاغِبًا عَنِ الْعَلِّ، قَانِعًا مِنَ الْوَيْلِ بِالطَّلِّ.
وعَظْمُ وَقَعِ الْحَقِيرِ، واشْكُزْ عَلَى النَّقِيرِ، وَلَا تَقْنُطْ عِنْدَ الرَّدِّ. وَلَا تَسْتَبِعِدْ رَشَحَ الصَّلْدِ،
وَلَا تَيْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَنْتَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ.

وَإِذَا خَيْرَتَ بَيْنَ ذَرَّةٍ مَقْنُودَةٍ، وَذَرَّةٍ مَوْعُودَةٍ، فَمُلْ إِلَى التَّقْدِ وَفَضِّلْ الْيَوْمَ عَلَى الْغَدِ،
فَإِنَّ لِلتَّأْخِيرِ آفَاتٍ وَلِلْعَزَائِمِ بَدَوَاتٍ، وَلِلْعِدَاتِ مُعَقَّبَاتٍ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّجَازِ عَقَبَاتٍ وَأَيَّ
عَقَبَاتٍ.

* * *

قوله: اخْلَبَ بصوغ اللسان، أي بعدوبة الكلام، قال ابن كناسة الشاعر: كنت
أتكلم بكلام فلو لم يجذ سامعه إلا القطن الذي في وجه أمه في القبر، لتغلغل إليه حتى
يخرجه ويهديه إليّ. وأنا اليوم أتحدث بذلك الحديث بعينه فما أفرغ منه حتى أهْيَيْءَ له
اعتذاري وارْتَدَّ، أي اطلب. والجلب: ما يجلب إلى السوق للبيع، امتر: امسح، ويفعل
ذلك بالضرع لأنه يُدْرَ لبنه. المنتجع: موضع العشب، أراد به موضع طلب الرزق،
دَمِثْ: لَتِنَ، اشْحَذْ: اجْلُ واصقل، وقال في الدرة: ويقولون: شحات بالناء، وصوابه.
بالذال لأن اشتقاقه من شحذت السيف، إذا بلغت في إحداه فكأن الشحاذ هو المليخ في
المسألة المبالغ في طلب الصدقة، بصيرتك: ذهنك، العيافة: زجر الطير، أنعم: بالغ،
القيافة: الاستدلال على الولد، وذلك أن ينظر خلقته وصفته، فيشبهه بأبيه. توسمه:
نظره، الفِرَاسَة: الحكم بحالات الشيء على ما يكون منه في المستقبل. الكلّ: الثقل،
والدّلّ والدّلال بمعنى واحد، العَلّ: الشرب بعد الشرب وراغباً عنه: تاركاً له: النكير:
حفرة في ظهر نوى التمر، ومنها تنبت النخلة، تقنط: تيأس، روح الله: رزقه. ولبعضهم
في هذا المعنى: [المتقارب]

سَيُفْتَحَ بَابٌ إِذَا سُدَّ بَابٌ	نعم وتلين الأمور الصُّعَابُ
وَيَتَّسِعَ الْحَالُ مِنْ بَعْدِهَا	تضيّق المذاهب فيه الرِّحَابُ
مَعَ الْعَسْرِ يُسْرَانُ هَوْنٌ عَلَيْكَ	فلا اليسر دَامَ وَلَا الْاِكْتِنَابُ
إِذَا احْتَجَبَ النَّاسُ مِنْ سَائِلٍ	فما دون سائل ربّي حجابُ

آخر: [الطويل]

عَسَى فرجٌ يأتي به الله إنه له كلُّ يومٍ في خليفته أمرٌ
إذا اشتدَّ عسرٌ فارجح يسراً فإنه قضى الله أن العسرَ يتبعه يسرٌ
آخر : [الوافر]

فلا تجزع إذا أغسزت يوماً فقد أنسرت في الزمن الطويل
ولا تياس فإن اليأس كفر لعل الله يُغني عن قليل
وإن العسرَ يثبعه يسارٌ وقول الله أضدق كل قيل
ولا تظنن بربك ظنَّ سوء فإن الله أولى بالجميل

قوله : ذره، كناية عن الشيء القليل : ذرة : جوهرة . آفات : جوائح . وللعزائم بدوات ، يريد أن الإنسان يعزم على فعل الشيء في وقت ثم يبدو له ألا يفعله . التجز : تعجيل قضاء الحاجة ، وقد قدم مثل هذا المعنى عند قوله : [الطويل]

* وبع أجلا منك بالعاجل *

وَعَلَيْكَ بِصَبْرِ أُولِي الْعَزْمِ، وَرَفِقِ ذَوِي الْحَزْمِ، وَجَانِبِ خُرْقِ الْمُشْتَطِ، وَتَخَلَّقِ
بِالْخُلُقِ السَّبِطِ، وَقِيدِ الدُّرْهَمِ بِالرَّبِطِ، وَشُبِّ الْبَذْلِ بِالضَّبْطِ، وَلَا تَجْعَلِ يَدَكَ مَغْلُولَةً
إِلَى عُتْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ، وَمَتَى تَبَا بِكَ بَلَدٌ، أَوْ نَابَكَ فِيهِ كَمَدٌ، فَبِتُّ مِنْهُ
أَمْلَكَ، وَاسْرُخْ عَنْهُ جَمْلَكَ، فَخَيْرُ الْبِلَادِ مَا جَمَّلَكَ، وَلَا تَسْتَقِيلَنَّ الرَّحْلَةَ، وَلَا
تَكْرَهَنَّ الثَّقْلَةَ، فَإِنْ أَعْلَامَ شَرِيعَتِنَا، وَأَشْيَاخَ عَشِيرَتِنَا، أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْحَرَكَةَ
بَرَكَهٌ، وَالطَّرَاوَةَ سُفْتَجَةٌ، وَزَرَوْا عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْغُرْبَةَ كُرْبَةٌ، وَالثَّقْلَةَ مَثْلَةٌ،
وَقَالُوا: هِيَ تَعْلَةٌ مِنْ اقْتِنَعَ بِالرَّذِيلَةِ، وَرَضِيَ بِالْحَشْفِ وَسُوءِ الْكِيلَةِ. وَإِذَا أَرْمَعْتَ
عَلَى الْاِغْتِرَابِ، وَأَعْدَدْتَ لَهُ الْعَصَا وَالْجِرَابَ، فَتَخَيَّرَ الرَّفِيقَ الْمُسْعِدَ، مِنْ قَبْلِ أَنْ
تُضْعِدَ؛ فَإِنَّ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ، وَالرَّفِيقَ قَبْلَ الطَّرِيقِ. [مجزوء الكامل]

خُذْهَا إِلَيْكَ وَصِيَّةً لَمْ يُوصِهَا قَبْلِي أَحَدٌ
غَرَاءَ حَاوِيَةً خَلَا صَاتِ الْمَعَانِي وَالزُّبْدَ
نَقَحْتُهَا تَنْقِيحَ مَنْ مَحَضَ النَّصِيحَةَ وَاجْتَهَذَ
فَاعْمَلْ بِمَا مَثَلْتُهُ عَمِلَ اللَّبِيبُ أَخِي الرَّشْدَ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ هَـ لَذَا الشُّبْلُ مِنْ ذَاكَ الْأَسَدَ

المشتط: المتجاوز القدر في محاولته. والخُزْق ضد الرتق. السَّبْط: السهل. شُب: أخلط. البَذَل: العطاء. والضَّبْط: الحبس. قال أبو حاتم الداري: دخلت مع أبي مدينة السلام فرأيت رجلاً واقفاً على الطريق يلعب بحية ويقول: مَنْ يهب لي درهماً حتى أبتلع هذه الحية؟ فالتفت إليّ أبي وقال: يا بني احفظ دراهمك فمن أجلها تُبْلَع الحيات. مغلوله: محبوسة، أي لا تكن شحيحاً ممسكاً ولا كريماً متلفاً. نابك: نزل بك. كمد: حزن. بت: اقطع. أملك، أي رجاءك: أسرح عنه، أي أزله وسرحه بالمشي إلى غيره. الرّحلة: الارتحال. الثّقلة: الانتقال. أعلام شريعتنا: مشايخ طريقتنا. الطّراوة: أن يطرأ على بلد لم يره. السّفْتجة: ما أتاك بغير تكلف ولا مشقة، وهي عند أهل المشرق أن يأخذ الرجل الدراهم والدنانير، فيعطيهما صاحبه، ويقول: احملها لي معك لأمن طريقك، ولمنعتك إلى بلد كذا فادفعها إليّ، ثم فإنّ طريقني غير آمن من اللصوص. قال مالك رضي الله تعالى عنه: إن قصّد بها المنفعة لم يُجزْ لأنه سَلَفَ جرّ منفعة، فيقول: الطراوة على الناس كالسّفْتجة، ترغب لك في أخذ الدراهم، وقد يكون منك تمتع عن أخذها. زروا: عابوا. كربة: هم، وقال: مَنْ ذمّ السفر: الغربة كربة والثّقلة مُثلة، والغريب كالغرس الذي زابل أصله وفقد شربه، فهو ذاوٍ لا يثمر وذابلٌ لا ينضّر. إذا كنت في غير بلدك فلا تُثس نصيبك من الذل. تعله: عذر. الرذيلة: الدون من كل شيء. الحشف: الرديء من التمر. الكيلة الهيئة، ومعناه أنه اجتمع عليه عيبان: تمر فاسد وكيل ناقص. أزمعت: عزمت. الاغتراب: الجولان والغربة. الجُراب: الوعاء للزاد. المسعد: الموافق القليل الخلاف. تُصعد: ترتفع وتخرج، الجار قبل الدار، يقول: لا تشتّر داراً حتى تعلم مَنْ جيرانك، وكفى الجار أن قال ﷺ في حقه: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى خفت أن يورثه»^(١)، وقال الزاهد ابن عمران: [البسيط]

لِثُعْنٍ بالجار قبل الدار تسكنها لا خير في الدار ما لم يحمد الجار

الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ نعم الخليفة هم أهلٌ وأنصار

والجار المساعد أحسن من القرابة. ويروى أن رجلاً كان جاراً لأبي دلف ببغداد، فأدركته حاجة، وركبه دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها، فسمّى لهم ألف دينار، فقالوا له: إنّ دارك تساوي خمسمائة دينار، فقال: أبيع داري بخمسمائة وجوار أبي دلف بخمسمائة، فبلغ أبا دلف الخير، فأمر بقضاء دينه ووصله، وقال: لا تتقل من جوارنا، فانظر كيف صار الجوار يُباع كما يباع العقار، وقال الشاعر: [الطويل]

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٨، ومسلم في البر حديث ١٤٠، وأبو داود في الأدب باب ١٢٣، والترمذي في البر باب ٢٨، وابن ماجه في الأدب باب ٤، وأحمد في المسند ٨٥/٢، ١٦٠، ٢٥٩، ٣٠٥، ٤٤٥، ٤٥٨، ٥١٤، ٣٢/٥، ٢٦٧، ٣٦٥، ٥٢/٦،

يلومونني إن بعث بالرخص منزلي ولم يعلموا جارا هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإنما بجيرانها تغلوا الديار وترخص

غراء: ظاهرة حسنة. حاوية: جامعة. خلاصات: جمع خلاصة، وهو الذي يتخلص من الشيء ويصفو منه، والزبد: جمع زبدة اللبن. نقحتها: هذبتها. محض: أخلص. اللبيب: العاقل. أخي الرشد: صاحب الرشد. الشبل: ولد الأسد.

ثم قال: يا بني، قد أوصيت واستقصيت، فإن اقتديت فواها لك، وإن اعتديت فآها منك، والله خليفتي عليك، وأرجو ألا تخلف ظني فيك. فقال له ابنه: يا أبت لا وضع عرشك، ولا رفع نعشك، فلقد قلت سدا، وعلمت رشا، ونحلت ما لم يتحل والد، ولد، ولئن أمهلْتُ بَعْدَكَ - لا ذقتُ فَعْدَكَ - فلا تأذبن بآدابك الصالحة، ولأقتدين بآثارك الواضحة؛ حتى يقال: ما أشبه الليلة بالبارحة والغادية بالرائحة! فاهتز أبو زيد لجوابه وابتنس، وقال: من أشبه أباه فما ظلم.

قال الحارث بن همام: فأخبرت بأن بني ساسان، حين سمعوا هذي الوصايا الحسان، فضّلوها على وصايا لقمان، وحفظوها كما تحفظ أم القرآن؛ حتى أنهم ليرونها إلى الآن، أولى ما لقنوه الصبيان، وأنفع لهم من نحلة العقيان.

غراء: ظاهرة حسنة. حاوية: جامعة. خلاصات: جمع خلاصة وهو الذي يصفو منه، والزبد: جمع زبدة اللبن. اقتديت: اتبعت وصيتي. واهأ: عجباً. اعتديت: ظلمت. آها: كلمة معناها التوجع. عرشك: سريرك، والمعنى أنه يدعو له بالبقاء. سداً: صواباً. نحلت: أعطيت. الواضحة: البينة. الغادية: السحابة تأتي بالغدو. والرائحة بالعشي، قال الفراء النحوي: من أشبه أباه فما ظلم مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير: [الطويل]

أنا ابنُ الذي لم يخزني في حياته قديماً ومن يشبه أباه فما ظلم^(١)
لقنوه: علّموه. أولى: أحق. نخلة: عطية. العقيان: الذهاب.

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٦٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٦٨، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/

المقامة الخمسون

وهي البصرية

حكى الحارث بن همام قال: أشعِزْتُ في بعض الأيام همًّا برَّح به استعاره، ولاخ عليّ شعاره، وكنتُ سمعت أن غشيان مجالس الذَّكر، يسرو غواشي الفِكر، فلم أر لإطفاء ما بي من الجُمرة، إلَّا قُصد الجامع بالبُصرة، وكان إذ ذاك مأهول المساند، مشفوه الموارد، يُجتَنى من رياضِه أزهيرُ الكلام، ويُسمع في أرجائه صريرُ الأقلام، فانطلقتُ إليه غير وَّانٍ، ولا لاوٍ على شان، فلمَّا وطئتُ حصاه، واستشرفتُ أقصاه، تراءى لي ذو أطمارٍ بالية، فوق صخرة عَالِيَةٍ، وقد عَصَبَتْ به عُصَبٌ لا يَخْصِي عديدُهم، ولا ينادى وليدُهم، فابتدزتُ قُصْدَه، وتوزدت وزدَه، ورجوتُ أن أجد شِفائي عنده، فلم أزل أنتقل في المراكز، وأغْضي للاكز والواكز، إلى أن جلستُ تُجَاهَه، بحيثُ أُمِنتُ اشتباهَه، فإذا هو شيخنا السُّروجي لا ريب فيه، ولا لبس يُخْفِيه، فأنسَرى بمرآه همِّي، وازفَضْتُ كتيبة غمي.

أُشعرت: أُلْبِست. برَّح: شق واشتدَّ. استعاره: توقَّده في القلب. لاح: ظهر، يريد أنه لبس الهمَّ كالشُّعار. والشُّعار: ثوب يلي الجسد، والشعار علامة القوم في الحزب، فمعناه عَبَسَ وجْهُه من شدة الهم. يسرو: يزيل. غواشي الفكر: ما يغشاه ويدخل عليه من الهم. مأهول: كثير الأهل. المساند: جمع مُسْنَد، وهو ما يسند إليه ظهره، أراد مواضع العلماء المتصدِّرين للإقراء. والموارد: مواضع المياه. مشفوه: كثيرة الشفاء عليه للشرب، وأراد ازدحام الطلبة على الأشياء لأخذ العلم. أزهير: أنوار. أرجائه: نواحيه. صرير: أصوات. وَّانٍ: مقصَّر. لاوٍ على شان: معرَّج على أمر. استشرفت أقصاه: اطلعت بنظري عليه كله. تراءى: ظهر. أطمار: ثياب خَلَقَة. عصبت: أحدقت وحلقت. عُصَب: جماعات. لا ينادى وليدُهم، هذا مثل يستعمل في الأمر المعجب المبالغ فيه وصفه المعجب منه، وقد يؤوَّل على تأويلات، وهو يستعمل في الخير والشر. والرخاوة والشدة. ابتدرت قصده، أي عجلت المشي إلى جهته. توردت وزده، أي طلبتُ منفعتَه. والمراكز: مواضع الجلوس، ومركز الرجل: موضعه، وركزت الشيء غرسته. أغضي:

أغمض على المكروه. اللاكز: الضارب في الصدر. الواكز: الضارب في ناحية الفم، والوكز واللكز بجمع اليد. تُجاهه: قبالة وجهه. اشتباهه: التباسه بغيره. يخفيه: يستره. أنسرى: زال وانكشف. ارفضت: تفرقت. كتيبة غمي، أي عسكره.

وحين رآني، وبصّر بمكاني، قال: يا أهل البصرة، رعاكم الله ووقاكم، وقوى ثقاكم، فما أضوع رياكم، وأفضل مزاياكم، بلدكم أوفى البلاد طهرة، وأزكاها فطرة، وأفسحها رقعة، وأمرعها ثجعة وأقومها قبلة، وأوسعها دجلة، وأكثرها نهراً ونخلة، وأحسنها تفصيلاً وجملة، دهليز البلد الحرام وقبالة الباب والمقام، وأحد جناحي الدنيا، والمضر المؤسس على التقوى، لم يتدنس ببيوت الثيران، ولا طيف فيه بالأوثان، ولا سجد على أديمه لغير الرحمن، ذو المشاهد المشهودة، والمساجد المقصودة، والمعالم المشهورة، والمقابر المزورة، والآثار المحمودة، والخطط المحدودة، به تلتقي الفلك والركاب، والحياتان والضباب، والحادي والملّاح، والقانص والفلاح، والناشب والرامح، والسارح والسابح، وله آية المد الفاض، والجزر الغائض.

وقوله: وحين رآني، يريد أن السروجي علم أن ابن همام يعرف مكروه الناس في كل بلد، فخشي ألا يُسمح له بخداع أهل بلده، فأخذ يمدح البصرة وأهلها ليرضيه بذلك. رعاكم الله: حفظكم. وقاكم: كفاكم ما يحذر. ثقاكم: خوفكم الله. أضوع رياكم: أفوح رائحتكم. مزاياكم: فضائلكم التي خصصتم بها. أوفى: أكمل. أفسحها: أوسعها. الرقعة: القطعة من الأرض. أمرعها: أخصبها. الثجعة: موضع العشب ينتجعه الناس. دجلة: نهر البصرة. تفصيلاً وجملة، يقول: إن جزئت مواضعها وتناظر كل جزء منها مع كل جزء من غيرها كان لها الفضل، فإن قيل: أي البلاد أحسن على الجملة؟ قيل البصرة. الدهليز: أسطوان الدار ومدخله، والمقام: موضع قيام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة للدعاء. أحد جناحي الدنيا: من قول أبي هريرة: «الدنيا على مثال الطائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربا وقع الأمر». المؤسس على التقوى: الذي بُني أساسه في الإسلام. يتدنس: يتوسخ. الأوثان: الأصنام. أديمه: جلده، أراد به أرضه. الخطط: الدور والأزقة. المختطة: الموسومة ليبي فيها. الفلك: السفن. الركاب: الإبل، يريد أنها بحرية برية. الضباب: جمع صب. الحادي: سائق الإبل فإذا كان الحادي حسن الصوت بلغت الإبل جهدها في المشي. الملاص: خادم السفينة. القانص: صائد الحوت. الفلاح: الحرث. الناشب: الرامي النشاب. الرامح: الطاعن بالرمح، أراد الإغراز لأنهم

رماة والعرب لأنهم أصحاب رماح. والسّارح: راعي الإبل، والسابح: العائم في الماء. آية: علامة. المدّ والجزر، أي زيادة البحر ونقصانه وهما الملء والحصر، ونهر البصرة يركض فيه البحر.

وأما أنتم فممن لا يَخْتَلِفُ في خصائصهم اثنان، ولا يُنْكِرُها ذو شأن؛ دَهْمَاؤُكُمْ أَطْوَعُ رعيّةً لِسُلْطَانٍ، وَأَشْكُرُهُمْ لإحسان، وزاهدكم أَوْزَعُ الخليقة، وَأَحْسَنُهُمْ طريقةً على الحقيقة، وعالمكم علامة كُلِّ زمان، والحجّة البالغة في كلِّ أوَانٍ، ومنكم من استنبطَ عِلْمَ النّخو ووضعه، والذي ابتدَعَ مِيزَانَ الشُّعْرِ واختَرَعَهُ، وما مِنْ فَخْرٍ إِلَّا وَلَكُمْ فِيهِ الْبَدُّ الطُّوْلَى، والقِدْحُ المَعْلَى، وَلَا صِبَتْ إِلَّا وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى. ثُمَّ إِنَّكُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ مِضْرٍ مُؤَذِّنِينَ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي التُّسْلِكِ قَوَانِينَ، وَبِكُمْ اقْتُدِيَ فِي التَّعْرِيفِ، وَعُرِفَ التَّسْجِيرُ فِي الشَّهْرِ الشَّرِيفِ، وَلَكُمْ إِذَا قَرَّتِ الْمَضَاجِعُ، وَهَجَعَ الْهَاجِعُ، تَذْكَارٌ يُوقِظُ النَّائِمَ، وَيُؤْنِسُ الْقَائِمَ، وما ابتسم تُغْرُ فَجْرٌ، وَلَا بَزَغَ نورهُ فِي بَزْدٍ وَلَا حَرٍّ، إِلَّا وَلِتَأْذِينُكُمْ بِالْأَسْحَارِ، دَوِيٌّ كَدَوِي الرِّيحِ فِي الْبَحَارِ. وبهذا صَدَعَ عَنْكُمْ الثَّقَلُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْلُ، وَبَيَّنَّ أَنَّ دَوِيَّكُمْ بِالْأَسْحَارِ، كَدَوِي النَّخْلِ فِي الْقِفَارِ، فَشرفاً لكم بِبِشَارَةِ الْمُصْطَفَى وَوَاهَا لِمِضْرِكُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ عَفَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا شِفَا.

خصائصهم: ما يختصون به من الفضائل، أراد أن البصرة اجتمعت فيها الأشياء المتنافرة والمتضادة التي لا تجتمع ببلد، فهي أجمع بلاد الله فائدة، قال ابن أبي عيينة في نحوه: [البسيط]

لَا بَدَّ مِنْ زُورَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ	زُرُّ وَادِي الْقَصْرِ نَعَمَ الْقَصْرِ وَالْوَادِي
مِنْ مَنْزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شَتَّتْ أَوْ بَادٍ	زُرَّهُ فَلَيْسَ لَهُ شَبَهٌ يَقَارِبُهُ
وَالضُّبُّ وَالنُّونُ وَالْمَلَّاحُ وَالْحَادِي	تَرَى قَرَارِقَهُ وَالْعَيْسَ وَاقِفَةً

[البصرة]

والبصرة اختطّها عُتْبَةُ بْنُ عَزْوَانٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعُتْبَةُ بِدَرِيٍّ مَهَاجِرِيٍّ، بَنَاهَا سَنَةً أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ فَمَرَّ بِمَوْضِعٍ مِنْهَا فَوَجَدَ الْكَذَّانَ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الرَّخْوَةُ فَقَالَ: هَذِهِ الْبَصْرَةُ، أَنْزَلُوهَا بِسْمِ اللَّهِ، فَسُمِّيَتْ لَذَلِكَ الْبَصْرَةُ، وَاخْتَطَّتْ الْكُوفَةُ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي الْمَحْرَمِ، وَكُسِرَتْ الْبَصْرَةُ فِي

أيام خالد القسري فوجد طولها فرسخين في مثلهما والكوفة ثلاثها. وأما في أيام المنصور فقسّم على مَنْ يستوجب العطاء من أهل البصرة ألف ألف درهم، فأصاب كلّ رأس درهمين.

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها عليهم: النخل والشاء والحمام، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه، وفيها من أصناف النخل ما ليس في بلد من البلدان، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله ﷺ رجل من عبد القيس، فقال: يا رسول الله إني رجل أحبّ الشاء، فدفع له فحلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه، حتى استدارت أصابعه، فصار في أذنه كالسمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه، فحملت إلى البحرين، فتناسلت هناك فليس في البحرين شاة كريمة إلا وفي أذنها سمة كالحلقة، فيغالي بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً، وتعدّ بالبصرة عقودها، وفيها شاة لبني فلان أمها فلانة، وأبوها تيس بني فلان، مقدار حلبها بالغداة والعشيّ كذا. وحمامهم بلغت في الهداية أن جاءت من أقاصي بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهي ثمن الطائر منها إلى تسعمائة دينار، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً، وكلّ ما وصف في المقامة موجود في البصرة، ولما صعد عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه منبرها خطب وقال في آخر خطبته: يا أهل البصرة، يا بقايا ثمود ويا جند المرأة، ويا أتباع البهيمة، دعا فاتبعتم، وعقر فانهمزتم، أما إني أقول لا رغبة فيكم ولا رهبة منكم، غير أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرض يقال لها البصرة، أقوم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، ومتصدقها أكثر الناس صدقة، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبلّة أربع فراسخ، يستشهد عند مسجدها سبعون ألفاً، الشهيد منهم كالشهيد في يوم بذر». فبنى الحريري في مدح البصرة على هذا الحديث، وإنما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم، ومفاخر بلدهم في البلدان فيلهجون بالمقامات ويقدمونها على غيرها.

قوله: شنآن، أي عداوة. دهماؤكم: جماعاتكم، والدهماء معظم الناس وأكثرهم. والدّهم: العدد الكثير. عابدكم: زاهدكم كالحسن البصري ومحمد بن سيرين وغيرهما. الخليفة، أي أخوف الناس من الله تعالى. علامة: كثير العلم.

[أبو الأسود الدؤلي]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان أحد بني الدليل من كنانة، وهو يعدّ في التابعين والمحدثين والشعراء والبخلاء والتحويين، ويعدّ في العُرج والمفاليح والبُخر، شهد مع علي رضي الله عنه صقّين، وولى البصرة لابن عباس رضي الله عنهما، وكان من شيعة عليّ وكانت امرأته عثمانية، وكان أصهاره لا يزالوا أن يردّون عليه قوله في عليّ، فقال فيهم: [الوافر]

يقول الأذلون بنو قُشَيْرٍ طَوَالَ الدَّهْرَ لَا تَنْسَى عَلِيًّا
فقلت لهم وكيف يَكُونُ تركي من الأعمال ما يعصي عَلِيًّا
أحبَّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيًّا
بنو عمِّ النبي وأقربوه أحبُّ النَّاسِ كُلُّهُمْ إِلَيَّا
فإن يك حبهُم رَشْداً أصبه ولست بمخطيء إن كان غيًّا

ولم يشك أبو الأسود أنه رشد، وعلى هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

ومن بخله أنه كان يقول: لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأمجد، ولو شاء الله أن يوسّع على خَلْقِهِ حتى لا يكون فيهم محتاج لَفَعْلٍ. وكان يقول لولده: إذا بسط الله لك في الرزق فانبسط، وإن قبضه فانبض.

ومرّ برجل وهو يقول: مَنْ يَعِشِي هذا الجائع؟ فأدخله وعشاه حتى شبع، ثم ذهب السائل ليخرج، فقال له: أين تذهب؟ فقال: لأهلي فقال: لا أدعك تؤذي المسلمين بسؤلك، اطرحوه في الأدهم، فبات عنده مكبولاً حتى أصبح.

وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل: المؤنة كثيرة، والفائدة قليلة، والمال مكذوب، فراجعه أبو الأسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً.

وقال الخليل: كان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من عليّ رضي الله عنه، وذلك أنه سمع لحناً فقال لأبي الأسود: اجعل للناس حروفاً، فأشار إلى الرفع والنصب والخفض. وقال له زياد: قد فسدت السنة الناس، لأنه سمع رجلاً يقول: سَقَطَتْ عصاتي، فدافعه أبو الأسود.

وسمع رجلاً يقرأ ﴿أَن الله بريء من المشركين وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣] فخفض، فقال: ما بعد هذا شيء، فقال له: ابغني كاتباً يفهم، فجيء برجل من عبد القيس، فلم يرضه فَهْمُهُ، فأتى بآخر من قريش، فقال له: إذا رأيتني قد فتحتُ فيّ بالحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضمنتُ فيّ فانقط نقطة بين يديه، وإذا كسرت فيّ، فاجعل النقطة تحت الحرف، فإذا أُشْرِبت ذلك غُتَّة، فاجعل النقطة نقطتين، فهذا نقط أبي الأسود.

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية، وفرّع لهم ما أصّله فأخذه جماعة كان أبرعهم عنبسة بن معدان المهري يقال له الفيل، فأقبل الناس عليه بعد موت أبي الأسود، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن، فرأس في الناس وزاد في الشرح، فبرع من أصحابه عبدُ الله ابن أبي إسحاق الحضرمي، فبرع في النحو وتكلم في الهمز، وأملى فيه كتاباً، وأخذ أبو عمرو بن العلاء عَمَّن أخذ عنه، ثم نجم من أصحاب أبي عمرو عيسى بن عُمر، ويونس

ابن حبيب وأبو الخطاب الأخفش، فألف عيسى كتابين سمي أحدهما الكامل والآخر الجامع، قال المبرد: فأخذ الخليل عن عيسى، فلم يكن قبله ولا بعده مثله، وهو القائل يمدح كتابي عيسى: [الرمز]

بطل النحو الذي جَمَعْتُم غير ما أحدث عيسى بن عُمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

قال أبو العباس: وقد قرأت أوراقاً من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيبويه، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن، وهو من موالي بني الحارث بن كعب فألف كتابه الذي سماه قرآن النحو، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل.
وأبو الأسود من سكان البصرة.

ومستنبط: مستخرج، والذي استنبط العروض هو الخليل، وذكره بعض العروضيين فقال: للخليل في العروض حكمة مخترعة، وسابقة مبتدعة، تبين بذلك فضله، وظهر تقدمه لأنه لم يتبع فيما وضعه أثراً موجوداً، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً، واهتدى إلى ما لم يهتد إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون. ولولا الخليل لم يُعَلِّم صحيح الشعر من كسيره، ولا سقيمه من عليه، وفي حضره لجميع أوزان العرب في خمس دوائر أعظم العجب لمن تدبر ما صنع وفهم.

وكان الخليل يحب أن يرى عبد الله بن المقفع، وكان ابن المقفع يحب ذلك، فجمعهما عباد المهلب، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افترقا، فقيل للخليل: كيف رأيت عبد الله؟ فقال: ما رأيت مثله قط وعلمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: ما رأيت مثله قط وعقله أكثر من علمه، وصدقاً في ذلك، أدى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهّد الناس، وجَهِل بن المقفع أرذاه، فكتب كتاباً لعبد الله بن عليّ على المنصور، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله، ولا يحتمل الأمراء دون الخلفاء مثله، فقال فيه: ومتى غَدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله بن عليّ، فنساؤه طوالق ودوابه حوابس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن يقتل عبد الله بن المقفع فقتله.

وقال ابن المقفع إن أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يعجبك ذلك، فإن زوال الكرامة بزوالهما، ولكن ليعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دينٍ.

واتخذ عباد المهلب أرضاً فأراد غرسها، فلامه أصحابه وقالوا: هي سَبَخة فأشار عليه الخيل بغرسها فغرسها، فجاءت بكل شيء حسن، فحمل إليها الخيل فاستحسنها، وقال: [البسيط]

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت
فمال بالخوخ والرمان أسفلها
وصار يغبطه مَنْ كان يعدُّله
أبا معاوية اشكر فضل وإهبها
وله: [الكامل]

عش ما بدا لك قصرُك الموت
لما هربَ منه ولا قسوتُ
بيننا غنى بيت وبهجته
زال الغنى وتقوُّض البيت

وتوفي الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت أخباره في الأربعين فلتنظر هناك.

قوله: اخترعه، أي أوجده قبل أن يكون. مصر، أي بلد. وقوانين: طرق مستقيمة. التعريف: حلق الرأس بعد يوم عرفة. قرت المضاجع: نام الناس فيها. هجع: نام. ثغر: سن وأراد به بياض الصبح. بَرَّغ: صدَّع وظهر. الثقل: الحديث: المنقول عن النبي ﷺ. واهأ: عجباً. عفا: درس. شفا: طرَّف وشيء قليل، وشفا كل شيء حده وطرَّفه.

ثم إنَّه خزن لسانه، وخطَّم بيانه؛ حتَّى حُدِّج بالأبصار، وقرف بالإقصار، ووُسِّم بالاستقصار، فتنفَّس تنفَّس مَنْ قِيدَ لِقود، أو ضَبَّثَ به برائِنُ أسد، ثم قال: أمَّا أنتم يا أهل البصرة، فما منكم إلَّا العَلَمُ المعروف، ومَنْ له المعرفة والمعروف. وأمَّا أنا فَمَنْ عَرَفني.

فأنا ذاك، وشرُّ المعارف مَنْ أذاك، ومَنْ لم يُثَبِّت عِرْفَتِي، فسأضدُّه صِفَتِي. أنا الَّذي أنجد وأنهم، وأيمنَ وأشام، وأضحَرَ وأبحَرَ، وأدلجَ وأسحر، نشأت بسروج، وربيتُ على السُّروج.

ثم وَلَجْتُ المَضايِق، وفتحتُ المغالِق، وشَهِدْتُ المَعارك وألنْتُ العَرَائِك، واقتذتُ الشَّوامِس، وأزَعَمْتُ المعاطِس، وأذَبْتُ الجوامِد، وأمَعْتُ الجَلَامِد.

خزن: حبس. خطَّم: زَم، والخِطام حبلٌ: يشد على أنف البعير. حَدَج: نظر إليه بحدة. قُرف: أثهم، وقَرَفْتُهُ بشرَّ رميته به. الإقصار العُجز. قود: قتل نفس بنفس.

ضَبَّتْ: عَلِقَتْ. برائن: أظافير. العلم المشهور بالفضائل، والمعروف الثاني: العطاء. أنجد وأنهم: أتى نجداً وتهامة. أيمن وأشام: أتى اليمنَ والشَّامَ. أصحر وأبحر: مشى في الصحراء والبحر. أدلج وأسحر: مشى بالليل والسَّحَر. نشأت: كبرت. وَلَجْتُ: دخلت. المعارك: مواضع القتال. العرائك: الطبايع الصعبة. الشوامس: الشوارد التي تأبى الانقياد. ارغمت المعاطس: أذلت الأنوف أمعت الجلامد: أسَلَّت المياہ من الجنادل الصمّ.

سَلُّوا عَنِّي الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَالْمَنَاسِمَ وَالْعَوَارِبَ، وَالْمَحَافِلَ وَالْجَحَافِلَ، وَالْقَبَائِلَ وَالْقَنَائِلَ، وَاسْتَوْضِحُونِي مِنْ نَقْلَةِ الْأَخْبَارِ، وَرُوَاةِ الْأَسْمَارِ، وَخُدَاةِ الرُّكْبَانِ، وَحُذَاقِ الْكُفَّانِ، لَتَعْلَمُوا كَمْ فَجٍّ سَلَكْتُ، وَحِجَابٍ هَتَكْتُ، وَمَهْلَكَةٍ اقْتَحَمْتُ، وَمَلْحَمَةٍ أَلْحَمْتُ، وَكَمْ أَلْبَابٍ خَدَعْتُ، وَبَدَعٍ ابْتَدَعْتُ، وَفُرْصٍ اخْتَلَسْتُ، وَأَسَدٍ افْتَرَسْتُ؛ وَكَمْ مُحَلَّقٍ غَادَرْتُهُ لَقَى، وَكَامِنٍ اسْتَخْرَجْتُهُ بِالرُّقَى، وَحَجَرٍ شَحَذْتُهُ حَتَّى انْصَدَعَ، وَاسْتَنْبَطْتُ زُلَالَهُ بِالْخُدَعِ، وَلَكِنْ فَرَطُ مَا فَرَطُ، وَالْغُصْنُ رَطِيبٌ، وَالْفُؤْدُ غَرِيبٌ، وَبُرْدُ الشَّبَابِ قَشِيبٌ؛ فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اسْتَشَنَّ الْأَدِيمَ، وَتَأَوَّدَ الْقَوِيمَ، وَاسْتَتَارَ اللَّيْلُ الْبَهِيمَ؛ فَلَيْسَ إِلَّا النَّدَمُ إِنْ نَفَعَ، وَتَرْقِيعُ الْخَرَقِ الَّذِي قَدْ اتَّسَعَ.

الْمَنَاسِمُ: أخفاف الإبل. الْعَوَارِبُ: مَقَادِمُ ظُهورها. المحافل: الجموع الجحافل: الجيوش. القنابل: جماعة الخيل واحداً قُنْبلة. استوضحوني: اطلبوا بياناً أمري. الْأَسْمَارُ: الأحاديث بالليل يُسَمَّرُ عليها. الْخُدَاةُ، خدام الإبل. فَجٍّ: طريق في الجبل. سَلَكْتُ: دخلت. هَتَكْتُ: خرقت مهلكة: موضع خوف يَهْلِكُ فيه الناس. اقْتَحَمْتُ: تراميت فيه. ملحمة: مواضع الحرب الشديدة يلتحم فيها أهلُ العسكرين ويلتصق بعضهم ببعض. أَلْحَمْتُ، أي أوقدت النار بينهم حتى التصقوا وصاروا لحمَةً واحدة، وذلك أشدَّ ما يكون الحرب. أَلْبَابٌ: عقول. بَدَعٌ: جمع بدعة، وهو الشيء المبدع اختلستُها: أخذتها بسرعة واختطفْتُها. مُحَلَّقٌ: طائر في الهواء. لَقَى: مطروحاً على الأرض. وَكَامِنٌ: مستور. شَحَذْتُه: صقلته. انْصَدَعَ: انشق، وأراد بالحجر بخيلاً لا يرشح بشيء كالْحِجَرِ، فَتَحِيلَ عليه حتى أخذ ماله. اسْتَنْبَطْتُ: استخرجت. زُلَاله: ماءه العذب الصافي، أراد أخذت ماله. فَرَطُ مَا فَرَطُ، أي سبق ما سَبَق. رَطِيبٌ: ناعم، وغصنه: قامته. وَالْفُؤْدُ: ناحية الرأس غريب: أسود. بُرْدٌ: ثوب. قَشِيبٌ: جديد. اسْتَشَنَّ الْأَدِيمَ:

يبس الجلد، والشن: القزبة البالية اليابسة. تأود القويم: اعوجَّ المعتدل. استنار: أضاء وشاب. الليل البهيم: الشعر الأسود. وقال الشاعر في معنى استشن الأديم: [الكامل]

يا مَنْ لشيخ قد تحدد لحمه أفنى ثلاث عمائم ألوانا
سوداء حالكة وسحق مفوف وأجد لونا بعد ذاك هجانا
قصر الليالي خطوه فتداني وحنون قائم صلبه فتحاني
والموت يأتي بعد هذا كله وكأنما يعني بذاك سوانا
وقال ابن الرومي في استنارة الليل: [الطويل]

فجار على ليل الشباب فضامه نهار مشيب سمرمد ليس ينفد
وعزأك عن ليل الشباب معاشر وقالوا نهار الشيب أهدى وأزهد
وكان نهار المرء أهدى لرشده ولكن طلّ الليل أندى وأبرد
وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر: [الخفيف]

لم أقل للشباب في كنف الله ولا حفظه غداة استقلا
فزاد بعد استقلا: [الخفيف]

لا ولا للمشيب لَمّا بدا لي مرحباً بالمشيب أهلاً وسهلاً
مؤذن بالحمام هذا وذاكم سود الصحف بالذنوب وولّى

وأحسن ما قيل في ذم خضابه قول ابن الرومي: [الطويل]

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه حداداً على فقد الشبيبة يلبس
ولا فما يغري الفتى بخضابه أيطمع أن يخفي شباب مدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لناظر وكلّ ثلاث صبحه يتنفس
وهبه يوارى شيبه أين ماؤه وأين أديم للشبيبة أملس
وقال محمود الوراق: [الرجز]

يا خاضب الشيبة نخ فقدتها فإنما تدرجها في كفّن
أما تراها منذ عاينتها تزيد في الرأس بنقص البدن

قوله: ليس إلا الندم. ابن مسعود قال رسول الله ﷺ «من أذنب ذنباً أو أخطأ خطيئة فندم كان كفارة لما صنع».

وقال ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض وإن لكم من الله نظرة».

كتب عبد الملك إلى الحجاج يتوعد علي بن الحسين ويكتب إليه بما يقول ففعل؛

فقال: إن لله لوحاً محفوظاً يلحظه في كل يوم مائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يُخَيِّي فيها وَيُمَيِّت، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ ويفعل ما يشاء، وإنِّي لأرجو أن يكفيك الله منها بلحظة واحدة، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك.

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك: أكلت الجمل الذي ركب عليه أبوك من المدينة لأغزيك جنوداً مائة ألف ومائة ألف، فكتب إليه عبد الملك بكلام عليّ فقال ملك الروم: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

وكنْتُ رُوِيْتُ من الأخبار المسندة، والآثار المعتمدة، أن لكم من الله تعالى في كل يوم نظرة، وأن سلاح الناس كلهم الحديد، وسلاحكم الأدعية والتَّوَجِيد، فقصدتكم أنضي الرواحل، وأطوي المراحل؛ حتى قمت هذا المقام لديكم، ولا مَنْ لي عليكم؛ إذ ما سعيْتُ إلا في حاجتي، ولا تعبْتُ إلا لراحتي، ولستُ أبغي أعطيتكم، بل استدعي أذعيتكم، ولا أسألكم أموالكم؛ بل أستنزل سؤالكم، فادعوا الله بتوفيقي للمتَاب، والإعداد للمآب، فإنه رفيع الدرجات، مُجِيب الدعوات، وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عن عباده ويغفُو عن السيئات ثم أنشد: [الرجز]

استغفرُ الله من ذنوبِ	أفرطتُ فيهنَّ واغتديتُ
كم خُضْتُ بحرَ الضَّلالِ جهلاً	ورحْتُ في الغيِّ واغتديتُ
وكم أطمعتُ الهوى اغتراراً	واختلْتُ واغتلتُ وافترتُ
وكم خلَّغتُ العِذارَ رَكْضاً	إلى المعاصي وما ونيتُ
وكم تناهيتُ في التخطي	إلى الخطايا وما انتهيْتُ
فليتنِّي كنتُ قبل هذا	نسياً ولم أجنِ ما جنيْتُ
فالموت للمجرمينَ خيرُ	من المساعي التي سعيْتُ
يا ربِّ عفواً فأنتَ أهلُّ	للعفو عني وإن عصيتُ

أنضي الرواحل: أهزل الإبل. أطوي المراحل: أقطع الأرض مجتهداً، وأردَّ المرحلتين والثلاث مرحلة واحدة. مَنْ: إحسان. أبغي: أطلب. الأعطية والأدعية: اسم لما يعطى ولما يدعى. استنزل: أطلب بتلطّف. سؤالكم: طلبكم التوبة لي من الله تعالى. والمآب: الرجوع. يغفو: يمحو، وعفا الله عنك: درس ذنوبك ومحاها، من عفا المنزل: درس وانمَحَتْ آثاره. وقال ابن المعتز: [الخفيف]

كنت في سفرة البطالة والغـ سي زماناً فحان مني قدوم
تُبْتُ عن كلِّ مائِمٍ فعسى يُـمـ حى بهذا الحديثِ ذاك القديم
وله : [البسيط]

الله يعلم ما إثمُ قَمِمْتُ به إلّا ونَقَصَه خوفي من النّارِ
وإنّ نفسي ما هُمْتُ بمعصيةٍ إلّا وقلبي عليها عائبٌ زاري
آخر : [الطويل]

تطالبني نفسي بما فيه صوئها فأغضي ويسطو تروقها فأطيئها
ووالله ما يخفى عليّ ضلالُها ولكئها تأبى فلا أستطيعُها

قوله : أفرطت ، أي ضيّعت . اعتديت : ظلمت نفسي ، قال داود الطائي : ما أخرج الله عبداً من ذلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة إلا وأغناه بغير مالٍ ، وأنسه بغير أهلٍ ، وأعزّه بلا عشيرة . خضت : جُزْتُ الغيَّ الضلال . اغترار : انخداع . اختَلْتُ : تكبرت ومشيت تخيلاً ، واغتلت : أهلكت ، والغيلة : القتل بالخداع ، وغالهم : قتلهم غيلةً . افتريت : كذبت . خلعت العذار : أزلت لجامَ الدين الذي يمسكني ، وتسيّبت في المعاصي . ركضاً : جرياً ووثباً ونبت : فترت وقصّرت في الجري إليها . تناهيت : أي بلغت النهاية ، وهي آخرُ الشيء : التخطي . الجواز والقطع ، وتخطّيت الشيء : جزته ، والخطايا : الذنوب ، وهي من الخطأ لأنّ فاعلها مخطيء بفعلها . والنسيّ : الشيء المنسيّ لحقارته لا يخطر ببالك فتنسّاه . أجنّ : أكتسب . المساعي : جمع مسعاة ، وهي السعي والمشى الكديد ، والمساعي أيضاً : المواضع التي يُسعى فيها ، أي يُمشى بكدّ ، وقال حبيب : [الطويل]

أخاف إلهي ثم أرجو نواله ولكنّ خوفي غالبٌ لرجائيا
ولولا رجائي واتكالي على الذي تكفل لي بالصنع كهلاً وناشياً
لما ساغ لي عذبٌ من الماء بارد ولا لذلي نوم ولا زلت باكياً
على أنه قد كان مني جهالةٌ ليالي فيها كنتُ لله عاصيا

أخذه من قول الحسن البصري : ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرجاء فإن الرجاء إذا غلب الخوف فسد القلب .

قال الراوي : فطفقت الجماعة تُمدُّه بالدعاء ، وهو يُقَلِّبُ وجهه في السّماء إلى أن دَمَعَتْ أَجْفَانُهُ ، وبَدَأَ رَجَفَانُهُ ، فصاح : اللَّهُ أَكْبَرُ بَأْنْتُ أَمَارَةُ الاسْتِجَابَةِ ، وانجابت غشاوة الاستجابة . فجزيتُم يا أهل البصيرة ، جزاء من هدى من الحيرة .

فلم يبقَ من القومِ إلا مَنْ سرَّ لسُروهِ؛ ورَضَخَ لَهُ بِمِيسُورِهِ فَقَبِلَ عَفْوَ بَرِّهِمْ،
وَأَقْبَلَ يَغْرِقُ فِي شُكْرِهِمْ.

ثُمَّ انْحَدَرَ مِنَ الصَّخْرَةِ، يَوْمُ شَاطِئِ الْبَصْرَةِ، وَاعْتَقَبْتُهُ إِلَى حَيْثُ تَخَالَيْنَا،
وَأَمَّا التَّجَسُّسَ وَالتَّحَسُّسَ عَلَيْنَا، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ أَغْرَبْتُ فِي هَذِهِ التَّوْبَةِ، فَمَا رَأَيْكَ
فِي التَّوْبَةِ، فَقَالَ: أَفْسِمَ بَعْلَامُ الْخَفِيَّاتِ، وَغَفَّارِ الْخَطِيَّاتِ، إِنْ شَأْنِي لَعُجَابٌ، وَإِنَّ
دَعَاءَ قَوْمِكَ لِمُجَابٍ، فَقُلْتُ زِدْنِي إِفْصَاحاً، زَادَكَ اللَّهُ صِلَاحاً فَقَالَ: وَأَبَيْكَ لَقَدْ
قَمْتُ فِيهِمْ مَقَامَ الْمَرِيبِ الْخَادِعِ، ثُمَّ انْقَلَبْتُ مِنْهُمْ بِقَلْبِ الْمُنِيبِ الْخَاشِعِ، فَطُوبَى
لِمَنْ صَعَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاتَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ. ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْطَلَقَ، وَأَوْدَعَنِي
الْقَلَقَ.

قوله: فطِفِقتُ، أي أخذت وجعلت. تمذه بالدعاء، أي تصل دعاءها بدعائه،
وتقول: أمددته بالمال، إذا قَوَّيْتَهُ بِهِ، ومددته بالجيش. رَجَفَانِهِ: اهتزازُهُ، ورجف الشيء:
تحرك، والرجفة: اهتزاز الأرض. بَانت: ظهرت. انجابت: انكشفت وزالت. غشاوة
الاسترابة: غطاء الشك. رَضَخَ: أعطى. ميسوره: ما تيسر له. وعفو برهم: فضل
إحسانهم. يهرف: يكثر الكلام ويُنطَب في الشكر. انحدر: انصب. يؤم: يقصد.
شاطيء: ساحل. اعتقبته: تبعته تخالينا: صرنا في خلوة من الناس. التجسس: طلب
الشيء باليد، وقيل: التجسس: طلب الشيء بالكلام. والتجسس: طلبه باليد، ثم قد يقع
كل واحد منهما موقع صاحبه. ابن الأنباري: تجسس الرجل وتجسس بمعنى واحد، هذا
إجماع أهل اللغة. وفرق بينهما يحيى بن أبي كثير، فقال: التجسس البحث عن عورات
الناس والتجسس الاستماع لحديث القوم. ابن الأنباري: الجاسوس: الباحث على أمور
الناس. التوبة: الدولة. إيضاحاً: بياناً. المريب: صاحب الريبة. المنيب: الراجع إلى الله
بتوبته. الخاشع: هو الخاضع. صغت: مالت.

فَلَمْ أَزَلْ أَعَانِي لِأَجْلِهِ الْفِكْرَ، وَأَتَشَوَّفُ إِلَى خِبْرَةٍ مَا ذَكَرَ وَكَلَّمَا اسْتَشْنَيْتُ خَبْرَهُ
مِنَ الرُّكْبَانِ، وَجَوَابَةِ الْبُلْدَانِ، كُنْتُ كَمَنْ حَاوَرَ عَجَمَاءَ، أَوْ نَادَى صَخْرَةً صَمَاءَ،
إِلَى أَنْ لَقِيتُ بَعْدَ تَرَاخِي الْأَمَدِ، وَتَرَاقِي الْكَمَدِ رَكْباً قَافِلِينَ مِنْ سَفَرٍ، فَقُلْتُ: هَلْ
مِنْ مَعْرَبِيَّةٍ خَبِرَ؟ فَقَالُوا. إِنَّ عِنْدَنَا لَخَبِيراً أَغْرَبَ مِنَ الْعَنْفَاءِ، وَأَعْجَبَ مِنْ نَظَرِ
الرُّزْقَاءِ.

أعاني: أقاسي. أتشوف: أتطلع. خبرة: اختبار. استنشيت: استطلعت، وأصل معناه شممت. جوابة: قِطاعة. وجوّالة أي الذين عادتهم الجولان في البلاد. حاور: كَلَم. عجماء: بهيمة، والمحاورة: المراجعة في الكلام. تراخي: طُول المدة. الكمد: مُصاحبة الهم والحزن. ركباً: أصحاب الإبل. قافلين: راجعين من سفر. مغربة، أي هل عندكم من حديث غريب. والعنقاء، قال ابن عباس رضي الله عنه: هو طائرٌ فُضِّل به بنو إسرائيل، فانتقل بعد يوشع إلى بلاد قيس عيلان بنجد والحجاز، فأذى الولدان، فشكوا ذلك إلى خالد بن سنان - وكان نبياً بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام - فدعا الله أن يقطع نسلها فبقيت صورتها تصوّر في البسط، وكان أجمل طائر وأعظمه، ووجهه على هيئة وجوه الناس. وقال أهل الرواية: عنقاء مغرب، إنما هو الأمر العجيب. والعنق: السرعة، وذكر عجائب البلدان بمجلس الراضي، فقال قائل: أعجب ما في الدنيا طائر بأرض طبرستان على شاطئ الأنهار شبيه بالباشق، يسمّى الكلم، وهو يصيح في فصل الربيع فتجتمع إليه العصافير، وصغار الطير، فتزقه فإذا كان آخر النهار أخذ واحداً مما قرب من الطير فيأكله، فذلك فعله إلى أن ينقضي فصل الربيع، فتجتمع إليه العصافير وصغار الطير فتطرده وتضربه، فيفرّ منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعي. وهو طائر حسن، موثى العيين.

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا، وذلك أنه لا يَطأ الأرض بقدميه، بل بإحدهما خوفاً على الأرض أن تنخسف من تحته، والثاني دودة تُضيء بالليل كالشمع، وتصير بالنهار لها أجنحة خضر، وبالليل لا جناحين لها، غذاؤها التراب، لم تشبع قط منه خوفاً أن يفنى التراب فتموت جوعاً، والثالث أعجب من الطائر، والدودة من يكري نفسه للقتال، يعني المسترزقة من الجند، فاستحسن الخبر من حضر، فقال الراضي معارضاً لما ذكر الجاحظ أن أعجب ما في الدنيا ثلاث: البوم، لا تظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالها، فتظهر بالليل، الثاني الكركي لا يَطأ الأرض بقدميه معاً بل بإحدهما فإذا وطئها لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله، الثالث الطائر الذي يقعد في مشارق الماء من الأنهار الذي عرف بمالك الحزين، يشبه الكركي لا يشبع من الماء خشية أن يفنى فيموت عطشاً، فافترق أهل المجلس والكل متعجبون من الراضي كيف تأتي منه مثل هذه المذاكرة مع من حضره من أهل السنّ والمعرفة مع صغر سنه. والحكاية بكاملها في كتاب المسعودي.

[زرقاء اليمامة]

وأما الزرقاء فكانت تُبصر على مسيرة ثلاث ليال، وكانت من جديس بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، وكان مع جديس طنسم بن لاوذ بن إرم، وكانت مملكتهم في طنسم، وكانوا يسكنون اليمامة، وهما من العرب العاربة فأقاموا برهة، وبلادهم أفضل

البلاد، حدائق ملتفة، وقصور مصطفة، فكفروا بأنعم الله فأهلكهم، وذلك لأنهم ملكهم
عُمْلوق بن طسم، وكان غشوماً لا يملك نفسه في هواه، فاختصمت إليه امرأة من جديس
اسمها هزيلة مع زوجها في ابن لها، فأمر بالولد فجعل في غلمانه، وأمر بالزوج أن يُباع
وتُعطى المرأة عُشر ثمنه، وبالمرأة أن تباع ويُعطى الزوج خمس ثمنها، فقالت هزيلة:
[الطويل]

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأبدع حكماً في هزيلة ظالماً
وهي أبيات، فبلغه قولها، فأمر ألا تتزوج امرأة من جديس حتى تُحمل إليه قبل
زواجها فيعتذرهما، فلقوا منه ذلاً طويلاً إلى أن تزوجت الشמוש بنت غفار أخت الأسود
ابن غفار، وكان سيد جديس فلماً كانت ليلة إهدائها حملت إليه، والقيان معها يُقلن:
[الرجز]

ابدأ بعملوق إليه فازكب وبادر الصُّبح بأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب
فلما افتضها، خرجت على قومها في دماها شاقةً جيبها من دُبر ومن قُبُل وهي
تقول: [الطويل]

أيصلح ما يؤتى على فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد الرُّمْلِ
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفر من الفحل
فلو أننا كنا رجالاً وكُنْتم نساء لكانا لا نُقيم على الذل
فأنفت جديس عند ذلك، واجتمعت إلى أخيها الأسود، وأجمعوا على أن يصنعوا
لها طعاماً، فيدعو عملوقاً مع قومه فإذا جاؤوا في الخيل والبغال عموهم بالقتل، فقالت
الشموس لأخيها: الغدر عار وعاقبته بوار، صبحوا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا
كراماً، فقالوا لها: المكر أمكن من نواصيهم، ثم صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفهم في
الرمْل، فلما استكملوا في المِدعاة أتوا عليهم أجمعين، وهرب من طسم رياح بن مرة،
فأتى حسان بن تبع لينصره، فاستبعدوا أرضهم، وكان قد تبع لرياح كلبة، فضربها في
رجلها حتى عرجت، فقال: أبعيدة أرض قطعها كلبة عزجاء! فتجهز معه بجيش فلما
صاروا من جديس على ثلاثة أيام، صعدت الزرقاء على منار كان لها لتنظر الجيش، وكان
رياح قد قال لهم: إنَّ الزرقاء تُبصر على ثلاث ليال، ولكن ليقطع كل رجل منكم غصناً
من شجر، فيحمله لنشبه عليها، فلما رأتهم، قالت: يا قوم أتتكم الشجر أو أتتكم جَمِير،
فلم يصدقوها فقالت: [الرمْل]

أقسِم بالله دَبَّ الشَّجَرُ أو حمير قد أقبلت شيئاً تجر
فكذبوها، وقالوا، كلٌ بصرك وضُغف، فقالت: أقسِم بالله لقد أرى رجلاً ينهش

كَيْفًا، أَوْ يَخْصِفُ نَعْلًا، فَتَهَاوَنُوا بِحَدِيثِهَا، حَتَّى صَبَّحَهُمْ حَسَانُ فَاجْتَاكَهُمْ فَأَخَذَتْ
الزَّرْقَاءُ، فَشَقَّ عَيْنَاهَا فَإِذَا عُرُوقُ سَوْدٍ مِنَ الْإِثْمَدِ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ اِكْتَحَلَ بِهِ، وَهَرَبَ
الْأَسْوَدُ، فَتَنَزَلَ بِطَبِيعٍ، فَتَسَلَّ فِيهِمْ، وَتَسَمَّى زَرْقَاءَ الْيَمَامَةِ، وَاسْمُ الْبَلَدِ جَوْ، فَلَمَّا صُلِبَتْ
عَلَى بَابِهَا، سُمِّيتَ الْيَمَامَةُ، وَقِيلَ الْيَمَامَةُ اسْمُ الْبَلَدِ، وَاسْمُ الزَّرْقَاءِ عَنَزٌ، وَقِيلَ إِنْ حَسَانًا
لَمْ يَصْلُبْهَا، وَلَكِنْ حَمَلَهَا فِي السَّبْيِ، وَقَالَتْ عِنْدَمَا قُرِبَ لَهَا الْبَعِيرُ لِتَرْكِبِهِ، وَلَمْ تَكُنْ
اعْتَادَتْ رُكُوبَهُ: [الخفيف]

شَرَّ يَوْمِيهَا وَأَغْوَاهَا لَهَا رَكِبَتْ عَنَزٌ بِجَذَجٍ جَمَلًا
وقيل إن عَنَزًا هي أخت الزرقاء، وقال الشاعر: [البسيط]

مَا نَظَرْتُ ذَاتَ أَجْفَانٍ كَنَظَرَتِهَا حَقًّا كَمَا صَدَعَ الدِّينَ الَّذِي صَدَعَا
قَالَتْ أَرَى رَجُلًا فِي كَفِّهِ كَيْفٌ أَوْ يَخْصِفُ الثُّغْلَ لَهْفِي آيَةً صَنَعَا
فَكَذَّبُوهَا فَوَافَتْهَا عَلَى عَجَلٍ أَقْيَالُ حَمِيرٍ تُزْجِي الْمَوْتَ وَالشَّرْعَا
فَاسْتَنْزَلُوا أَهْلَ جَوْ مِنْ مَعَاقِلِهِمْ وَهَدَمُوا شَامِخَ الْبَنِيَانِ فَاتَّضَعَا

فَسَأَلْتُهُمْ إِيضًا مَا قَالُوا، وَأَنْ يَكِيلُوا لِي بِمَا اِكْتَالُوا، فَحَكُّوا أَنَّهُمْ أَلْمُوا
بِسُرُوحٍ، بَعْدَ أَنْ فَارَقَهَا الْعُلُوجُ، فَرَأَوْا أَبَا زَيْدَهَا الْمَعْرُوفَ، قَدْ لَبَسَ الصُّوفَ، وَأَمَّ
الضُّفُوفَ وَصَارَ بِهَا الزَّاهِدَ الْمَوْصُوفَ، فَقُلْتُ: أَتَعْنُونَ ذَا الْمَقَامَاتِ. فَقَالُوا: إِنَّهُ
الْآنَ ذُو الْكَرَامَاتِ، فَحَفَزَنِي إِلَيْهِ النَّزَاعُ، وَرَأَيْتَهَا فُرْصَةً لَا تُضَاعَ، فَارْتَحَلْتُ رَحْلَةً
الْمُعِدَّ، وَسِرْتُ نَحْوَهُ سَيْرَ الْمُجَدِّ، حَتَّى حَلَلْتُ بِمَسْجِدِهِ، وَقَرَارَةً مُتَعَبِّدِهِ، فَإِذَا هُوَ
قَدْ نَبَذَ صُخْبَةً أَصْحَابِهِ، وَانْتَصَبَ فِي مِحْرَابِهِ، وَهُوَ ذُو عِبَادَةٍ مُخْلُولَةٍ، وَشَمْلَةٍ
مَوْصُولَةٍ؛ فَهَبْتُهُ مَهَابَةً مَنْ وَلَجَ عَلَى الْأَسْوَدِ، وَالْفَيْتُهُ مِمَّنْ سَيِّمَاهُمُ فِي وُجُوهِهِمْ
مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ. وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ سُبْحَتِهِ، حَيَّانِي بِمُسَبِّحَتِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ نَعَمَ بِحَدِيثٍ،
وَلَا اسْتَخْبَرَ عَنْ قَدِيمٍ وَلَا حَدِيثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَوْزَادِهِ، وَتَرَكَنِي أَعْجَبُ مِنْ
اجْتِهَادِهِ، وَأَغْبَطُ مَنْ يَهْدِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَمْ يَزَلْ فِي قُنُوتٍ وَخُشُوعٍ، وَسُجُودٍ
وَرُكُوعٍ، وَإِخْبَاتٍ وَخُضُوعٍ، إِلَى أَنْ أَكْمَلَ إِقَامَةَ الْخَمْسِ، وَصَارَ الْيَوْمَ أَمْسَ،
فَحِينَئِذٍ انْكَفَأَ بِي إِلَى بَيْتِهِ، وَأَسْهَمَنِي فِي قُرْصِهِ وَزَيْنَتِهِ، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى مُصَلَّاهُ، وَتَخَلَّى
بِمُنَاجَاةِ مَوْلَاهُ؛ حَتَّى إِذَا التَّمَعَ الْفَجْرَ، وَحَقَّ لِلْمَجْتَهِدِ الْأَجْرَ، عَقَّبَ تَهْجُدُهُ
بِالتَّسْبِيحِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ ضِجْجَةً الْمُسْتَرِيحِ، وَجَعَلَ يُرْجِعُ بِصَوْتٍ فَصِيحٍ.

قوله: يكيلوا لي ما اکتالوا، أي يعطوني ما أعطوا من العلم. ألموا: نزلوا، العلوج: الروم، أم: صار إماماً. حفزني: عجلني. النزاع: الشوق. فرصة: غنيمة. المعد: الكامل العدة في السفر. قرارة: الموضع الذي يقر فيه متعبده: موضع عبادته، نبذ: ترك. انتصب: قام ووقف. المحراب عند العرب: سيد المجالس ومقدمها وأشرفها، وقيل للقبلة محراب لأنه أشرف موضع في المسجد، وقيل للقصر محراب لأنه سيد المنازل، الأصمعيّ المحراب عندهم: العُرقة.

أحمد بن عبيد: المِحْرَاب: مجلس الملك، سمي بذلك لانفراد الملك به لا يقربه أحد، وسُمي محراب المسجد لانفراد الإمام به ويقال فلان: حَزْبُ فلان، إذا كان بينهما مباحدة، عباءة: كساء، مخلولة بالية مشدودة بالخلال والشملة: الكساء يُشَمَل به. موصولة، يريد أنها خلفه قد تقطعت فوصلت وَلَج: دخل. ألفيته: وجدته. سيماهم: علامتهم حيّاني بمسبّحتة، أي بسبّابته وقد تقدّم ذكرها. نغم: تكلم بكلام خفي؛ والأوراد: جمع وزد، وهو النصيب من القرآن يقوم به الإنسان كلّ ليلة. أغبط: أحسد وأتمنى أن أكون مثله. وسجود وركوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض، من قول العرب: سجدت الدابة وأسجدت، إذا خفضت رأسها لتركيب، ويقال: قنت الرجل، إذا أخذ في التّعظيم والدعاء لله تعالى، والقنوت على أربعة أقسام: الطاعة كقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَه قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١٦٦]، والصلاة كقوله تعالى: ﴿أَقْنِتِي لِرَبِّكَ وَاسْجُدِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، وطول القيام، كقوله ﷺ وقد سئل: أي الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت والسكوت»^(١)، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدهما الذي يليه حتى نزل ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فأمسكنا عن الكلام، قال أبو عبيدة: نرى أن القنوت في الصبح سمي قنوتاً لأن الإنسان قائم في الدعاء من غير أن يقرأ القرآن، فكأنه في سكوت. إخبات، أي تذلل، انكفا: انقلب، أسهمني، أي أعطاني سهماً، أي نصيباً، تهجده: قيامه للصلاة. [الرجز]

وَالْمَغْهَدُ الْمَرْتَبِعُ	خَلَّ أَذْكَارَ الْأَرْزُوعِ
وَعَدُّ عَنَنْهُ وَدَعِ	وَالظَّاعِنِ الْمَوْدَعِ
سَوَّدَتْ فِيهِ الصُّحُفَا	وَانْدَبَ زَمَاناً سَلَفَا
عَلَى الْقَيْحِ الشَّيْنِ	وَلَمْ تَزَلْ مُغْتَكِقَا
مَائِماً أَبْدَعَتْهَا	كَمْ لَيْلَةٍ أَوْدَعَتْهَا
فِي مَرْقَدٍ وَمُضْجَعِ	لِشَهْوَةِ أَطْعَمَتْهَا

(١) أخرجه بنحوه، مسلم في المسافرين حديث ١٦٤، ١٦٥، والترمذي في الصلاة باب ١٦٨، والنسائي في الزكاة باب ٤٩، وابن ماجه في الإقامة باب ٢٠٠، وأحمد في المسند ٣/٣٠٢، ٣٩١، ٤١٢.

وكم خطأ حثثتها
وتوبة نكثتها
وكم تجرأت على
ولم تُراقبهُ ولا
وكم غمضت برهُ
وكم نبذت أمرهُ
ولم ركضت في اللُعب
ولم تراعى ما يجب
فالبس شعار الندم
قبل زوال القدم
واخضع خضوع المعترف
واغص هواك وانحرف
إلام تسهُو وتني
فيما يضر المقتني
أما ترى الشئب وخط
ومن يلخ وخط الشمط

في خزية أخذتها
لملعب ومزّبع
رب السموات العُلا
صدقت فيما تدعي
وكم أمئت مكرهُ
نبذ الجذا المرقع
وفُئت عمداً بالكذب
من عهد المئبّع
واسكب شأبيب الدم
وقبل سوء المصراع
ولذ ملاذ المقترف
عنه انحراف المقلع
ومغظم العُمر فني!
ولست بالمزّبع
وخط في الرأس خطط
بفؤده فقذني

* * *

اذكار: تذكر. الأربع: المنازل. عدّ: كفّ. دَع: اترك. اندب: ابك. سلف: ذهب وتقدم. الصحف: الكتب. المعتكف: المقيم. الشنع: الذي يُتحدث يقبحه. أودعتها: أي ضمنيتها وجعلتها فيه. المآثم: الذنوب. أبدعتها: اخترعتها. خطأ: جمع خطوة وهي الباع، حثثتها: عجلتها، خزي: هوان. ونكثتها: نقضتها. مرتع: أكل رغد. تجرأت: تشجعت وأقدمت. تراقبه: تحارسه وتخشى منه. غمضت: نقصت. بره: إحسانه. نبذت: تركت، الحذاء: النعل، ركضت: جريت. فُئت: نطقت. تُراع: تحفظ. والعهد: الميثاق، شعار: ثوب يُلصق بالجسد، اسكب: صب. شأبيب: دُفع المطر، واحداً شؤبوب، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع. المصراع: موضع السقطة وصرعت: أسقطت، لُذ: الجأ. ملاذ: ملجأ. المقترف: المذنب، انحرف: مل. المقلع: الذي يقلع عن المعاصي ويُفارقها. تسهُو: تخطيء. تني: تفتري. فنى: تمّ. سكن الباء ضرورة. المقتني: المكتسب. المرتدع: المنتهي الكاف عن شهواته. وخط: فشا وانتشر، والوخط: مخالطة بياض شيب الرأس بسواده، والوخط في غير هذا الطعن غير النافذ، خطّ كتب. خطط:

طرائق . والشَّمط : اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر . بفؤده : بجانب رأسه . نعى : تحدث بموته ، وقال الألبيري : [الكامل]

الشَّيب نَبَهَ ذَا الثُّهَى فَتَنَّبَهَا
بل زاد غِيّاً نَفْسَهُ فَتَهَا فَتَتْ
فإلى متى أَلْهُو وَأَفْرَحَ بِالْمُنَى
ما حَسَنَهُ إِلَّا الثُّقَى لَا أَنْ يَرَى
أَتَى يَقَاتِلُ وَهُوَ مَغْلُولُ الظُّبَا
مَحَقَّ الزَّمَانُ هَلَالَهُ فَكَأَنَّمَا
فَغْدَا حَسِيراً يَشْتَهِي أَنْ يَشْتَهَى
إِنْ أَنْ أَوَاهُ وَأَجْهَشَ بِالْبُكََا
لَيْسَتْ تُنْهِنُهُ الْعِظَاتُ وَمِثْلُهُ
فَقَدَ اللَّذَاتُ وَزَادَ غِيّاً بَعْدَهُمْ
يَا وَيْحَهُ مَا بَالُهُ لَا يَنْتَهِي

وَنَهَى الْجَهُولَ فَلَا اسْتِفَاقَ وَلَا انْتَهَى
تَبَغَى اللَّهَى وَكَأَنَّهَا بَيْنَ اللَّهَى
وَالشَّيْخَ أَقْبَحَ مَا يَكُونُ إِذَا لَهَا
صَبّاً بِأَلْحَاطِ الْجَاذِرِ وَالْمَهَى
كَأَبِي الْجَرِي إِذَا اسْتَقَلَّ تَأَوَّهَا
أَبْقَى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدَرِ السُّهَى
وَلَكُمْ جَرَى طَلَقَ الْجَمُوحِ كَمَا اشْتَهَى
لِذُنُوبِهِ ضَحِكَ الْعَدُوَّ وَقَهَقَهَا
فِي سَنَةٍ قَدْ أَنْ أَنْ يَنْتَهِنَهَا
هَلْ أَتَيْقُظُ بَعْدَهُمْ وَتَنْبَهَا
عَنْ غِيِّهِ وَالْعَمْرُ مِنْهُ قَدْ انْتَهَى!

* * *

[الرجز]

وَنَحَكَ يَا نَفْسُ اخْرِصِي
وَطَاوِعِي وَأَخْلِصِي
وَاعْتَبِرِي بِمَنْ مَضَى
وَاخْشِي مُفَاجَاةَ الْقَضَا
وَانْتَهَجِي سُبُلَ الْهُدَى
وَأَنْ مِثْوَالِكِ غَدَا
أَهْلًا لَهُ بَيْتَ الْبِلَى
وَمُورِدَ السُّفْرِ الْأَوَّلَى
بَنِيَتْ يُرَى مَنْ أودَعَهُ
بَغْدَ الْفَضَاءِ وَالسَّعَةِ
لَا فَرْقَ أَنْ يَحُلُّهُ
أَوْ مُغْسِرٌ أَوْ مَنْ لَهُ

عَلَى ارْتِيَادِ الْمَخْلَصِ
وَاسْتَمْعِي التُّضْعَ وَعِي
مِنَ الْقُرُونِ وَانْقَضَى
وَخَاذِرِي أَنْ تُخْدَعِي
وَأَذْكِرِي وَشَكَّ الرَّدَى
فِي قَفْرِ لَحْدٍ بَلْقَعِ
وَالْمَنْزَلَ الْقَفْرِ الْخَلَا
وَاللَّاحِقِ الْمِثْبَعِ
قَدْ ضَمَّهُ وَاسْتُودِعَهُ
قِيْدُ ثَلَاثِ أَذْوَاعِ
دَاهِيَةٍ أَوْ أَبْلَى
مُلْكُ كَمُلْكٍ تُبَّعِ

* * *

قوله : ارتياد، أي طلب. المخلص: المنجى، عي: احفظي، وهو أمر للمؤنث من

وَعَى يَعي، اعتبري: اتعظي. القرون: الأمم السابقة: انقضى: فرغ وتم. والقضاء هنا: الموت. ومفاجأته: إتيانه على غفلة. حاذري: خافي. انتهجي: اسلكي وامشي في نهج، وهو الطريق البين. سبل الهدى: طرق الرشاد. أدكري: تذكّري. وشك الردى: سرعة الموت. مثوك: موضع إقامتك، لأنّ المشوى والثّواء: الإقامة، والمشوى: الموضع الذي تقيم فيه، لحد: شق في جانب القبر. بلقع: خال. آها: كلمة توجع. مورد: موضع الماء. السّفر: المسافرين، الأولى: الأولون المتقدمون، والألى: مقلوب الأول. تقول: أولى وأوّل ككُبرى وكُبر، وأخرى وأخر، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى، وتأتي الأولى في كلامهم بمعنى الذين موصولة وهي كثيرة، يريد أن القبر موردٌ للأولين والآخرين، وسماهم سفرًا، لأنّ الإنسان في الدنيا مسافر لا يقيم؛ إنما يقطعُ أيامه، وقال التّهامي: [الكامل]

العيش نومٌ والمنية يقظة والمرء بينهما خيالٌ ساري^(١)
فاقضوا ما ربكم عجلاً إنّما أعماركم سفرٌ من الأسفار

قيّد: قَدَّر. فإن قيل: كيف جعل القبر ثلاثة أذرع، والذراع شبران، والقدر قدره ما بين تسعة أشبار إلى ثمانية؟ فأخبرني الحاج ابن السقاط أن عندهم بالمشرق ذراعاً يسمونه المالكي، يذرعون به ثيابهم، وغيرها فيه من ذراع اليد ذراع ونصف.

وقال أبو القاسم الزجاجي: الذّراع الهاشمي ذراع وثلاث، ففي ثلاثة أذرع بالهاشمي ثمانية ففي ثلاثة أذرع بالهاشمي ثمانية أشبار، وبالمالكي تسعة أشبار، فإحدى الذراعين أراد.

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «كيف بك إذا أنت مت؟ فانطلق بك قومك، فقاوسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا بك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر مُنكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجرّان أشعارهما، ويحيطان التراب بأنياهما فتلتلاك وتزتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟» قال عمر: يكون معي مثل عقلي هذا؟ قال: نعم، قال: «فإذن أكفيكما».

داهية: مجرب للأمور حاذق بها. أبله: عي كثير الغفلة. مُغسير: فقير. تبع، أراد به تَبَعاً الأكبر، وهو الذي ذكر الله في كتابه.

[تبع الأكبر]

قال صاحب التيجان، اسمه شمو رعرش بن ناشر النعم، وسمي أبوه ناشر النعم لأنه

(١) البيت الأول للتّهامي في تاج العروس (يقط).

أحيا مُلك حمير بعد أربعين عاماً، وهي أيام مُلك سليمان وسمي شمعورش تبعاً الأكبر، وإن كانت العرب لم تسم قبله تبعاً لأن العرب لم يقم لها أحفظ منه، وكان يتجاوز عن مسيئهم ويُحسن إلى محسنهم، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه، وكان أعقل مَنْ رَأوا من الملوك وأعلامهم همة، وأبعدهم غوراً، وأشدّهم مكرّاً لمن حارب، وغزا جمع ملوك الآفاق، وقطع بجيوشه الأرض كلها شرقاً وغرباً، ثم رجع إلى قصر غمدان يريد ملك الأرض وذلك له ملوكها وعمر زماناً طويلاً، وهو أول مَنْ أمر بصناعة الدروع السوابغ، جعل على أهل فارس ألف دزج، وعلى الروم ألف دزج، وعلى اليمن كذلك، وعلى ممالكه كلها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك العدد، ولذلك قال أبو ذؤيب: [الكامل]

وعليه مسرودتان قَضَاهما داود أو صنع السوابغ تُبَعُ^(١)

وقال ابن الكلبي: لم يملك الأرض كلها إلا ثلاثة أبرار، وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتُبع، وهو أسعد وأبو كرب. وثلاثة كُفّار، وهم النمرود وبختنصر والضحاك. و أبو كرب الذي ذكر هو تبع، وكان ملكاً عظيماً، فتح البلاد، وملك العباد، وأقبل من اليمن يريد العراق فنزل الحيرة وحفر لهم نهراً، وهو نهر الحيرة إلى سوقها، وبعث إليه حسان في جنده ليطوف الأرض، فمضى به حسان في عسكر عظيم جرار، لا يمر بمدينة إلا فتحها ولا ملك إلا قهره. وقيل في تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة ما يتبع الملك منهم من الجنود، وقيل سُمي تبعاً لأنه تبع من قبله، ولابن سُكرة في معنى بيت المقامة [الكامل]

الجوع يطرد بالرغيف اليابس
والموت أنصف حين عدل قسمة
فعلام تُكثر حسرتي ووساوسي
بين الخليفة والفقير البائس

وَبَعْدَهُ الْعَرَضُ الَّذِي
وَالْمَبْتَدِئُ وَالْمُخْتَلِئُ
فَيَا مَفَازَ الْمُتَّقِي
سُوءَ الْحَسَابِ الْمُؤَبِقِ
وَيَا خَسَارَ مَنْ بَغَى
وَشَبَّ نِيرَانَ الْوَعَى
يَخْوِي الْخَيَّ وَالْبَزِي
وَمَنْ رَعَى وَمَنْ رُعِيَ
وَرَبِيعَ عَنَبِدٍ قَدْ وَقِيَ
وَهَوْلَ يَوْمِ الْقَنْزِ
وَمَنْ تَعَدَّى وَطَغَى
لِمَطْعَمٍ أَوْ مَطْمَعٍ

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ٣٩/١، وسر صناعة الإعراب ٧٦٠/٢، وشرح المفصل ٥٩/٣، ولسان العرب (تبع)، (صنع)، (قضى)، والمعاني الكبير ص ١٠٣٩، وتاج العروس (صنع)، (قضى)، وبلا نسبة في شرح المفصل ٥٨/٣.

يَا مَنْ عَلَيْهِ الْمُتَّكِلُ قَدْ زَادَ مَا بِي مِنْ وَجَلٍ
لَمَّا اجْتَرَحْتُ مِنْ زَلَلٍ فِي عُمْرِي الْمُضْئِعِ
فَاغْفِرْ لِعَبْدٍ مُجْتَرِمٍ وَارْحَمْ بُكَاءَ الْمُتَسَجِّمِ
فَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ رَجِمَ وَخَيْرُ مَدْعُو دُعَايِ

* * *

قوله: وبعد العرض، يريد عرض الناس للحساب. يحوي: يضم. الحيي: المستحيي. البذي: المتكلم بالفواحش. المحتذي: المتبع: الحاذي حذوه. رعى: ملك. يريد أن العرض يعم الناس، فيحتوي على العفيف والبذي، وعلى الأغنياء والفقراء والملوك ورعيتههم ولا يتميز فيه أحد ولا يشرف إلا بعمل صالح، قوله: فيا مفاز المتقي، المفاز: الخلاص، وقى: كفى، الموبق: المهلك. هزل: خوف. بغى: ظلم. وتعدى: جاوز الحد في جوره، طغى: جاوز الحد في تكبره. شب: أوقد. الوغى: الحرب. وجل. خوف. اجتاحت: اكتسبت. زلل: خطأ. زفير: نفخ. والشهيق: رد النفس مع البكاء بصوت. ردّفه: خلفه.

* * *

قال الحارث بن همام: فلم يزل يردّها بصوتٍ رقيق، ويصلّها بزفيرٍ وشهيقٍ، حتى بكيت لبكاءٍ عينيّه، كما كنت من قبل أبكي عليه، ثم برز إلى مسجده، بوّضوء تهجده، فانطقت ردفه، وصليت مع من صلى خلفه. ولما انفض من حصر، وتفرقوا شغّر بعر، أخذ يهينم بذرسيه، ويسبك يومه في قالب أمسيه، وفي ضمن ذلك يرن إرنان الرقوب. ويبكي ولا بكاء يغفوب، حتى استبنت أنه التحق بالأفراد، وأشرب قلبه هوى الانفراد، فأخطرت بقلبي عزمه الارتحال، وتخيّلته والتخلي بتلك الحال، فكأنه تفرّس ما نويت أو كوشف بما أخفيت، فزفر زفير الأواه ثم قرأ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فأسجلت عند ذلك بصدق المحدثين، وأيقنت أن في الأمة محدّثين. ثم دنوت إليه كما يذنو المصافح، وقلت: أوصني أيها العبد الصالح، فقال: اجعل الموت نصب عينك، وهذا فراق بيني وبينك. فودّعته وعبراتي، يتحدرن من المآقي، وزفراتي يتصعدن من التراقي وكانت هذه خاتمة التلاقي.

* * *

انفض: تفرق. شغّر بعر، أي في كل طريق وعلى كل جهة، يهيم: يرد كلامه خفياً

لا يفهم . يسبك يومه في قالب أمسه : استعارة ، أي يفعل في اليوم ما فعل في الأمس ، وفي ضمن ذلك ، أي في أثنائه ، يرنّ : يصوت . الرُقُوب : المرأة التي لا يعيش لها ولد . ولا بكاء يعقوب : يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع أكثر ، وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى غيبي ، وهو قوله تعالى : ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٨٤] ، استبنت : تحققت . الأفراد : العباد ، يقال : فلان فرد فضله ، أي ليس له نظير ، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى في موضعه آخر . أشرب : خولط وغلب عليه . هوى الانفراد : حب الوحدة ، قال ابن الرومي : [مجزوء الوافر]

إلى الزَّهاد في الدُّنيا	جنان الخلد تشتاق
عبيد من خطاياهم	إلى الرحمن أبساق
حدّتهم نحوه الرّغب	مع الرّهبان فاستاقوا
عليهم حين تلقاهم	سكينات وإطراق
يضعجون إلى الله	ودمع العين مهراق
ملك الملك هل مما	تطوّقناه إطلاق
ففي أعناقنا طراً	من الأثام أطواق

وللفقيه أبي العباس بن خليل : [الكامل]

فهموا إشارات الحبيب فهاموا	وأقام أمرهم الرّشاد ففاموا
وتوسّلوا بمدامع منهلة	تحت الدياجي والأنام نيام
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً	جمعت لها الألباب والأفهام
يا صاح لو أبصرت ليلهم وقد	صغت القلوب وصفت الأقدام
لرأيت نور هداية قد حقهم	فسرى السّرور وأشرق الإظلام
فهم العبيد الخادمون ملكهم	نعم العبيد وأفلح الخدّام
سلموا من الآفات لما استسلموا	فعليهم حتى الممات سلام

وقالوا في هوى الانفراد : الوحدة خير من القرين السوء ، وأنشدوا : [السرّيع]

أنسنت بالوحدة علماً بها	فلإنها خير من الجمع
ألا ترى الواحد أضلاً لما	يحسب من أصل ومن فرع
أترك من لا أرتجي نفعه	رجاء ربّ الضر والنفع

آخر : [الوافر]

أنست بوحدي حتى لو أني	أتاني الأنس لاستوحشت منه
-----------------------	--------------------------

ولم تدع التجارب لي صديقاً أميل إليه إلا ملئت عنه
وقال آخر: [البسيط]

اهرب بنفسك تستأنس بوحدها تلق الرُّشاد إذا ما كنت منفردا
إن السُّباع لتهدأ في مرابضها والناس ليس بهادٍ شرهم أبدا
قوله: تفرّس، أي علم بفراسته وجودة نظره. نويت: أضمرت في نيتي كوشف:
اطلع عليه. زفر: نفخ. الأواه: الحزين الذي يصيح: آه آه. أسجلت: صدقت.
المحدثين: الذين حدثوه بتوبة السروجي. محدّثين، هم المكاشفون من الزهاد الذين
يحدثون بالغيوب، كأن المكاشف قد حدث بما يقول. وقيل: المحدثون الصادقون ظناً
وفراسة.

وقال رحمه الله: «قد كان فيمن قبلكم، محدثون، فإن يكن من أمتي هذه فهو عمر بن
الخطاب»^(١). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعيا وهو الصادق الظن، ودليله ما
ذكره رحمه الله في عمر حديث سارية بن زُئيم، وكان عمر رضي الله تعالى عنه قد أرسله في
جيش للمسلمين، فألقى الله في روح عمر رضي الله تعالى عنه وهو يخطب الناس بالمدينة
إن العدو قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم، وكانوا بحضرة جبل، فقطع عمر
الخطبة وقال: يا سارية الجبل، فأسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر، فانحاز
بالمسلمين إلى الجبل، فتخلصوا، قوله: المصافح، أي المعانق عند الوداع، نصيب
عينك، أي غرضها وقدامها، وأول مَنْ قال: اجعل الموت نصب عينك أمية بن أبي
الصلت في قوله: [الخفيف]

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائر أمره إلى أن يزولاً
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوُعولاً
فاجعل الموت نُصب عينك واحذر غولة الموت إن للموت غولاً
عبراتي: دموعي. يتصعدن: يترفعن. التراقي: العظامان المعوجان أعلى الصدر.
خاتمة التلاقي: آخر لقائه.

[مما قيل في الوداع شعراً]

ونذكر هنا جملة من الشعر في ذكر الوداع الذي كان بينهما ونجعلها كالتوديع لما
سلف لهما في هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أنس الوحيد. ومسلاة الطريد،
فمن ذلك قول بعضهم: [المقارب]

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الدَّيَم

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٦، والأنبياء باب ٥٤، ومسلم في فضائل الصحابة باب
٢٣، والترمذي في المناقب باب ١٧، وأحمد في المسند ٥٥/٦.

عليك سلام فكم من ندى
وقال آخر:

أقول له يوم ودعته
لئن رجعت عنك أجسامنا
وقال أبو سعيد الهمداني: أنشدني هلال بن الغلاء حين ودّعني: [الكامل]

لأودع عنك ثم تدمع مقلتي
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدي
في فرقة الأحباب شغل شاغل
(وأنشدني أبو محمد بن حزم) [الوافر]

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي
ولكن للعيان لطيف معني
وكرر هذا المعنى فقال: [الوافر]

يقول أخي شجّاك رحيلُ جسم
فقلت له المعايين مطمئن
وقال آخر: [السريع]

بأنوا فأضحى الجسم من بعدهم
ووا أسفي منه ومن قولهم
بأي وجه أتلّقاهم
وقال آخر: [مخلع البسيط]

لا كان يوم الفراق يوماً
شتّت مني ومنك شملاً
يا قوم من لي بفقد خل
ما لامني الناس فيه إلا
وقال صاعد اللغوي: [المنسرح]

قلت له والرقيب يعجله
فمدّ كفا إلى ترائبه

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليّ، بَرَدَ الله مضجعه: هذا آخر المقامات التي أنشأتها بالاغتراز، وأمليتها بِلِسان الاضطرار، وقد أُلْحِثْتُ أن أرصدها للاستغراض، وناديتُ عليها في سُوْقِ الاعتراض، هذا مع معرفتي بأنّها من سَقَطِ المتاع، وممّا يستوجب أن يُباع ولا يبتاع، ولو غَشِيَنِي نورُ التوفيق، ونظرت لنَفْسِي نظر الشَّفِيق، لَسَتَرْتُ عَوَارِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ مَسْتَوْرًا، ولكن كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وأنا أستغفر الله تعالى ممّا أودعْتُها من أباطيلِ اللُّغُو، وأَصَالِيلِ اللُّهُو، وأسْتَرَشِدُهُ إلى ما يَعَصِمُ من السَّهْو، ويَحْظِي بِالْعَفْوِ إِنَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وأهْلُ المَغْفِرَةِ، ووليُّ الخيرات في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

قوله: أنشأتها، أي صنعتها، الاغتراز: الجهل والانخداع، أمليتها: ألقيتها لمن يكتبها. واضطر اضطرارًا إذا لم يجذ بُدَأ من فعله أرصدها: أعددها. الاستعراض: أن تعرض على الناس حتّى يروها، سقط المتاع: هجينة. يبتاع: يشتري. غَشِيَنِي: غطاني. أودعْتُها: ضمنتها. اللُّغُو: سقط الكلام. الأَصَالِيل: جمع أضلولة، وهي ما يضل به مَنْ ركبهُ، استرشده: أسْتَهْدِيهِ، يعصم: يمنع. السهو: الخطأ، يحظي: يسعد. العفو: المغفرة.

وقوله: هو أهل التقوى، عن أنس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يقول ربُّكم عز وجل: أنا أهلُ التقوى فلا يشرك بي غيري، وأنا أهلُ لمن اتقى أن يشرك بي أن أغفر له»^(١).

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عونه، وكان من توفيق الله تعالى أن أول حرف شرحت من اللغة في هذا الكتاب حَمْدُ الله، وآخر حرف ختمت به عَفْوُ الله، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى، والثناء عليه، وبين عَفْوِهِ عن عبده مرجوٌّ من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هَذَرِهِ، وملتمس من جلاله تعالى وكرمه جَزِيلُ الأجر على ما ضمنت من حكم الآداب وغيره.

[في العفو عن المذنبين]

واذكر فصلاً أدبياً في العفو عن المذنبين، أختم به الديوان، فمن وَقَفَ عليه، ووجد في نفسه لذته، واستشعر؟ لرجاء وطمع في العفو، فرغبتنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه.

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٥.

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادماً لوضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء، فغضب المأمون فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، [آل عمران: ١٣٤] قال: كظمت غيظي، قال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال عفوت عنك، قال: ﴿اللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، قال: اذهب فأنت حرّ.

وأمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد فعل ما تحب من الظفر، فافعل ما يحب من العفو، فعفا عنه.

العتبي: وقعت دماء بين حيين من قريش، فأقبل أبو سفيان فما بقي أحد واضح رأسه إلا رفعه، فقال: يا معشر قريش، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق؟ قالوا: وهل شيء أفضل من الحق؟ قال: نعم العفو، فتبادر القوم فاصطلحوا.

قال المبارك بن فضالة: كنت جالساً في السَّمَاط عند أبي جعفر إذ أمر برجل أن يُقتل فقلت: يا أمير المؤمنين، قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد بين يدي الله عز وجل: مَنْ كانت له يد عند الله فليَقُمْ، فليَتَقَدَّم فلا يتَقَدَّم إلا من عفا عن مَذنب». فأمر بإطلاقه.

وكان رجل شَرِيب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشتري بها من الفواكه للمجلس، فمَرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل الفقير شيئاً، ويقول: مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربع دعوات، فدفع له الغلام الدراهم، فقال له منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك؟ قال: أن يعتقني الله من رقِّ العبودية، فدعا له منصور وأَمَنَ الناس. قال: والثانية؟ قال: أن يخلف الله عليّ الدراهم، فدعا له وأَمَنَ الناس، قال: والثالثة يا غلام؟ قال: أن يتوب الله عليّ مَولاي، فدعا له وأَمَنَ الناس. قال: والرابعة يا غلام؟ قال: أن يغفر الله لي ولمولاي ولك يا منصور وللحاضرين، فدعا منصور وأَمَنَ الناس، فرجع الغلام، فقال له مولاه لَمْ أَبْطَأْتُ؟ فقَصَّ عليه القصة، قال: وبم دعا؟ قال: سألت لنفسي العِتق، قال: اذهب فأنت حرّ، قال: والثانية؟ قال: أن يخلف الله عليّ الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم، قال: الثالثة؟ قال: أن يتوب الله عليك، قال تبت إلى الله عز وجل، قال والرابعة؟ قال: أن يغفر لي ولك، وللواعظ وللحاضرين، وقال: هذه الواحدة ليست إليّ، فلما بات رأى في المنام كأن قائلاً يقول: أنت فعلت ما كان إليك أتراني لا أفعل ما كان إليّ! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور وللحاضرين.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلبُ رجائي لك مع الإخلاص، لأنني أعتمد في الإخلاص على الأعمال، وفي الذنوب أعتمد على عفوك، وقال السَّلامي: [الوافر]

تبسطننا على الآمال إنا رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف: دخلنا على مالك بن أنس في العشيّة التي قُبض فيها، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم، ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن في حسابكم. ثم ما خرجنا حتى أغمضنا عينيه.

وفي الحديث: «لو لم تذنّبوا لجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم»، وقال أبو نواس: [مجزوء الوافر]

يا نواسي توقّر	وتعزّي وتَصبّر
سأءك الدهر بشيء	ولمأسرك أكثّر
يا كبير الذنب عفو الله	من ذنبك أكبّر
أكبر الأشياء في أصغ	ر عفو الله أصغّر
ليس للإنسان إلا	ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير	ربّ بل الخالق دبر

وقال أبو العتاهية: [الوافر]

إلهي لا تعدّبني فلاني	مقر بالذي قد كان منّي
فما لي حيلة إلا رجائي	لعفوك إن عفوت وحُسن ظني
يظن الناس بي خيراً وإنّي	لشّرُ الناس إن لم تعف عني
وكم من زلة في الخطايا	وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
وإذا فكرت في ندمي عليها	عَضَضْتُ أنا ملي وقرَعْتُ سني

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية، وآخر شعر ختمت به هذا الشرح، راجياً من ربي صفّحه وعفّوه، والحمد لله أولاً وآخراً كما يجب لجلاله غفرانك. اللهم تباركت وتعاليت. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس المحتويات

المقامة الثالثة والثلاثون

٣.....	التفليسيّة
٣.....	فضل الصلاة في وقتها
٦.....	مدينة تفليس

المقامة الرابعة والثلاثون

١٥	الزبيديّة
٢٠	الغلّمان وعشّاقهم
٢٥	العرجي
٢٨	التضمين
٢٨	قصة النضر بن شميل مع المأمون
٣١	أبو حنيفة والإسكاف
٣١	من أخبار الجوّاري والغلّمان
٣٩	يوسف بن يعقوب عليه السلام

المقامة الخامسة والثلاثون

٤٣	الشيرازيّة
٤٧	مسألة نحويّة
٥٠	وأد البنات
٥٦	مما قيل في الخمرة
٦١	مما قيل في الغناء

المقامة السادسة والثلاثون

٦٢	المَلَطِيّة
٦٢	ملطية
٦٥	المودة بين الشعراء

٦٨ مما قيل في الحرباء شعراً
٧٠ حكم سليمان في صاحب الحرث وصاحب الغنم
٧١ مما قيل في الخمر شعراً
٧٨ في تفسير الأحاجي
٧٩ تفسير الأحاجي المودعة هذه المقامة

المقامة السابعة والثلاثون

٨١ الصُّغْدِيَّة
٨٣ سلمان الفارسي
٨٥ عقوق الوالدين
٨٩ أبو تمام وعبد الصمد بن المعذل
٩٠ ذل السؤال
٩٣ فضل المال

المقامة الثامنة والثلاثون

١٠٣ المَرْوِيَّة
١٠٥ مرو
١٠٦ الزجر والعيافة
١١٤ المروءة
١١٦ ذم البخل ومدح الكرم
١١٧ مما قيل في الشيب
١٢٢ مما قيل في الليل شعراً
١٢٥ مما قيل في الأدب والأديب

المقامة التاسعة والثلاثون

١٢٧ العُمَانِيَّة
١٢٧ مما قيل في العذار
١٢٨ ضَحَار
١٣٢ طوفان نوح عليه السلام
١٤١ أويس القرني
١٤٣ الأمير ديبس بن صدقة

المقامة الأربعون

١٤٨ التَّيْرِيزِيَّة
١٥١ قصة مسيلمة الكذاب وسجاح التميمية

١٥٣	أبو الأسود الدؤلي وامراته
١٥٦	امراة هارون الرشيد
١٥٨	بوران بنت الحسن بن سهل وامراة بالمأمون
١٦٣	بلقيس وعرشها
١٦٥	رابعة العدوية
١٦٦	خندف
١٦٧	الخنساء
١٧٣	أبو دلامة
١٨١	طرائف متفرقة
١٨٢	الحسن بن أبي الحسن البصري
١٨٤	عامر بن شراحيل الشعبي
١٨٧	الخليل بن أحمد الفراهيدي
١٩١	جرير بن عطية الخطفي
١٩٥	قس بن ساعدة الإيادي
١٩٩	عبد الحميد الكاتب
١٩٩	أبو عمرو بن العلاء
٢٠٣	الأصمعي
٢١٩	تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

المقامة الحادية والأربعون

٢٢٣	وهي التيسية
٢٢٣	البكاء على ذهاب الشباب
٢٢٨	تيس
٢٢٩	القمر ومما قيل منه
٢٣٠	الدنيا ومما قيل فيها
٢٣٤	ومن قولهم في الشيب
٢٤٠	من نوارد الولدان
٢٤٥	الخمريات

المقامة الثانية والأربعون

٢٤٨	التجرانية
٢٤٨	بنو عذرة
٢٥٤	آل أبي صفرة

٢٦٨	من الألفاظ
٢٧٠	مما قيل في التمني

المقامة الثالثة والأربعون

٢٧٣	وهي البكرية
٢٧٣	قداح الميسر
٢٧٧	قصة المثل : رب أخ لم تلده أمك
٢٧٨	قصة المثل : عند الصباح يحمد القوم السري
٢٨٥	ابن المغازلي
٢٨٩	مما قيل في الوجه الحسن
٢٩٥	الزواج والترغيب فيه
٢٩٦	خالد بن صفوان والسفاح
٢٩٨	مما قيل في وصف النساء
٣٠٠	ما جاء في الاستملاء
٣٠٤	الأخبار المصنوعة
٣٠٥	الكامخ
٣٠٨	لقمان عليه السلام
٣١٣	قصة المثل : ضيع اللبن في الصيف

المقامة الرابعة والأربعون

٣١٤	الشّوية
٣١٦	الكرم وقرى الضيف
٣١٩	مما قيل في البخل
٣٢٥	مما قيل في القدور
٣٢٨	البطنة
٣٣٨	حاتم الطائي

المقامة الخامسة والأربعون

٣٤٧	الرمليّة
٣٤٨	أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم

المقامة السادسة والأربعون

٣٦٠	الحليّة
٣٦٠	مدينة حلب

٣٦١	مدينة حمص
٣٦٤	المعلمون ونوادرهم
٣٦٦	الأدباء والمؤدبون
٣٧٢	الغلمان والكتاب
٣٧٧	قصة المثل: دُقُوا بَيْنَهُمْ عَطَر مَنَشَم
٣٨٠	مما قيل في النهود
٣٨٢	مما قيل في وصف الجواري شعراً
٣٩٤	مما قيل في الغلمان الصغار

المقامة السابعة والأربعون

٣٩٨	الحجرية
٣٩٩	من أسماء المرحاض
٤٠٠	الصمصامة
٤٠٥	عبد مناف بن قصي
٤٠٦	بنو عبد المدان
٤٠٨	مما جاء في قبول العذر
٤١٤	مما قيل في الطيرة والفأل الحسن

المقامة الثامنة والأربعون

٤٢٢	الحرامية
٤٣٢	من الخمرات

المقامة التاسعة والأربعون

٤٤٢	الساسانية
-----------	-----------

المقامة الخمسون

٤٥٧	البصرية
٤٥٩	البصرة
٤٦٠	أبو الأسود الدؤلي
٤٦٩	زرقاء اليمامة
٤٧٥	تبع الأكبر
٤٧٩	مما قيل في الوداع شعراً
٤٨١	في العفو عن المذنبين
٤٨٤	فهرس المحتويات